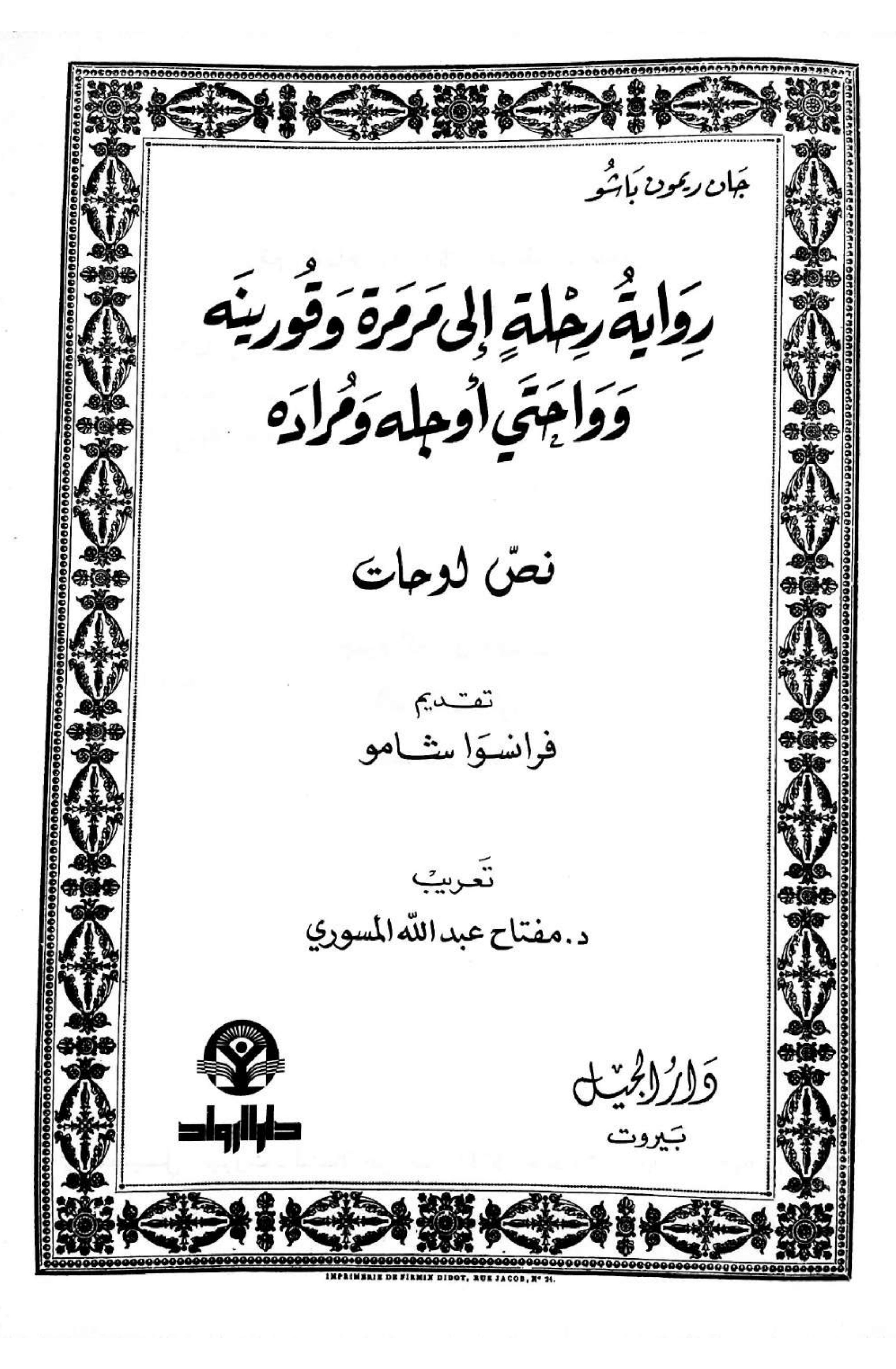
رِوايةُ رِحْلةٍ إلى مَرمَرة وقُورينَه
وَواحِتَي أُوجلة وَمُرادَه

هذا الكتاب تعريب لأصل فرنسي بعنوان

Relation d'un voyage dans la Marmarique, la Cyrénaïque et les oasis d'Audjelah et de Maradeh



جان ريمون باشو

رواية رحلة إلى مرمرة وقورينه وواحتي أوجله ومراده

نصّ لوحات

تقديم

فرانسوا شامو

تعريب

د. مفتاح عبد الله المسوري

دار الرواد

دار الجيل

بيروت

IMPRIMERIE DE FIRMIN DIDOT, RUE JACOB, N° 24.

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية/ بنغازي

96 /2445

الطبعة الأولى

1419 هـ - 1999م

دار الجيل: بيروت - لبنان ص.ب. 8737 - هاتف 882317/ 882286 (9611)

دار الرواد: طرابلس - الجماهيرية الليبية ص.ب. 91969 - هاتف 3350015 21 00218

الإهداء

يطيب لي أن أهدي ترجمة هذا العمل الرائع ، بغض النظر عما ورد به من أحكام مسبقة ، أو مغرضة أحياناً ، إلى الأخ قائد الثورة الذي عرف بولعه بالتاريخ بصورة عامة فكيف إذا تعلق الأمر ، بمنطقته . إنني أهدي إليه هذا العمل لأنني أعتز ، بمشاركته هذا الولع علاوة على حب هذه المنطقة بأسرها .

المعرب

د . مفتاح عبد الله المسوري

درنه في **1996/09/20**

كلمة المعرِّب

أود أولاً، وبإيجاز غير مقل، أن أشيد بمؤلف هذا الكتاب، وبغزارة علمه وموسوعية عقله، وأن أضع ثانياً، بين أيدي كل مهتم بالتأريخ الليبي الكثير عن تأريخ هذا الجزء من وطننا الحبيب.

يعتبر هذا الكتاب أكمل وأشمل عمل تاريخي وأثري وجغرافي تعلق ببرقه، ولقد حاولت أن أفي المؤلف حقه من حيث الأسلوب والبيان وزخارف الحديث. لقد كنت مضطراً أحياناً إلى إعادة تأليف فقرة ما باللغة العربية بعد أن استوعبت معناها الإجمالي في اللغة الفرنسية.

رغم كل ذلك الجهد المضني، فإنني أتحمل وحدي أي خطأ ورد في ترجمة نص هذا العمل، اللهم فيما يتعلق ببعض التسميات التي فضلتها على غيرها وذلك تحرياً للدقة والأمانة العلمية. لقد ترجمت مثلاً كلمة Cyrène بكلمة قرَّنه بتشديد الراء لأنها كانت تسمى Grenna ولأن هذه التسمية تتعلق بالمدينة فقط، أما كلمة قورينه Cyrenaique فهي تتعلق بالمقاطعة بأكملها وكذلك لفظ «القورينيين».

إن عبارة إقليم المدن الخمس فهي تتعلق بالسكان في الجزء الشرقي من ليبيا من منطقة رأس التين Chersonèse حتى منطقة برنيقي أو بنغازي، بينما تعني عبارة برقة المنطقة الممتدة من مرسى مطروح «البيضاء» حتى سرت القديمة أو سلطان الحالية شمالاً وحتى واحات آمون وجالو وأوجله ومراده جنوباً. أما مصطلح «بارقي» فيعني مقاطعة المرج الحالية.

لذا قد يعثر القارىء على عبارات غير مألوفة أو تختلف قليلاً في معناها عن المعنى المألوف حيث اعتاد المترجمون على ترجمة قرنه بقورينه وفي هذا ضرب من المغالاة أو الإبهام لأن الكلمة تعني المقاطعة بأسرها ولا تقتصر على منطقة شحات الحالية، حيث تدخل قرى أخرى مثل كرسيس «كرسه الحالية» والأرثرون «الأحمر» Erytheron ورأس التين «كرسونيز»،

ورأس الهلال «نوستاثموس»، وسوسة «بولونيا» ضمن حدود مقاطعة قورينة. لقد كانت المقاطعات الشرقية من ليبيا تسمى قديماً بدءاً من مرسى مطروح حتى رأس التين «إقليم مرمره» ثم إقليم قورينه الذي انقسم بعد ذلك إلى إقليمين «قورينة البحرية وقورينة القبلية» ثم مقاطعة بارقي التي تشمل توخيرة وبطليموسة ثم مقاطعة رياض الآلهة التي تشمل برنيقي «بنغازي» وبوريوم أجدابيا ثم مقاطعة سرتيكا التي تشمل المدن والقرى القائمة بين أجدابيا وسرت القديمة أو سلطان الحالية.

كما فرقنا في الترجمة بين «العرب» عند الحديث عن الليبيين بكلمة «البدو» وبين «العرب» عند الحديث عن الفاتحين العرب ولذا فإن كلمة البدو هنا تعني سكان المنطقة.

لقد آثرت هذه التسميات الدقيقة على غيرها وذلك تحرياً مني كما سبق وأن ذكرت، للدقة العلمية، وتوضيحاً للمفاهيم التي تكتنف تلك التسميات التليدة.

د. مفتاح المسوري

الإهداء

إلى جلالة ملك فرنسا

مولاي،

إن قورينه من بين البلدان التي تجسدها ذكريات عتيقة فهي إحدى تلك البلدان التي تشكل المعرفة بها متعة أكبر رغم أنها غير معروفة كثيراً. كان التاريخ، وكذلك الجغرافية يقتضيان، منذ أمد بعيد، قيام رحالة أوفر حظاً ممن سبقوه برفع الستار الذي كان يخفيها عن الفضول الأوروبي.

لقد حاول الكثير منهم القيام بهذه المهمة والتي لم يتمكن أحد منهم من تحقيق نجاح كامل، ولذا فإنني أجازف، بدوري في القيام بذلك.

لقد استقبلتم بفضل عنايتكم الملكية الكريمة أعمالي المتواضعة، وتفضلتم بالموافقة على إهداء هذا العمل إليكم، وهو الذي جمعت فيه حصيلة جهودي. ويعتبر حسن الصنيع هذا، أكبر وأقوى تشجيع يمكن أن أطمح إليه، وضمان أكيد لنجاح جهودي.

وتفضلوا، يا مولاي، بقبول أسمى آيات العرفان والتقدير التي صنعت مني، يا مولاي، خادمكم المتواضع والمطيع وضمن أكبر المخلصين في رعيتكم.

جان ريمون باشو

تقديم

توفي في باريس، يوم 26 يناير 1829، وفي ظروف محزنة، العالم الفرنسي الشاب، جان ريمون باشو. كان قد أكمل سن الخامسة والثلاثين من عمره عندما وضع حداً لحياته بسبب الكآبة المفرطة الناجمة عن الإرهاق والوحدة المعنوية التي تقوقع فيها قبل عدة أشهر من إقدامه على الانتحار.

كان الرجل يعاني من ضائقة مالية، وجرح في الكبرياء، وشعور بعدم الحصول على التقدير الواجب لقدرته وعمله الدؤوب. لقد دفعه هذا الشعور، تدريجياً، إلى عزلة إرادية، لم يوفق حماس بعض أصدقائه المخلصين في تحطيمها والخروج به من براثنها.

لقد قام، قبيل اقتراف فعلته المميتة، بحرق أوراقه التي كانت بمثابة اعتراف مأساوي منه بما كان يعتبره، وكان مخطئاً في ذلك؛ بمثابة السبب الرئيسي في فشله. نجد مع ذلك، أن العمل الذي أحاطه بكل رعاية والذي يخلد، بحق، ذكراه، قد طبع فعلاً غير أنه لم يوزع ويعرف بعد.

لقد أثار هذا العمل اهتمام الدوائر العلمية وحظي بإطراء وتأييد من قبل فطاحل العلماء كالجغرافيين من أمثال مالت بران Malte-Brun والمؤرخ ليترون Lettronne.

كما استقبلت الجمعية الجغرافية في باريس باشو ومنحته مكانة مرموقة في لجنتها المركزية. أما أكاديمية النقوش والفنون الجميلة فقد أشارت بنتائج مجهوداته، ولو أن المؤلف بقي قليلاً على قيد الحياة، لرأى بأم عينه، صدور كتابه الذي نشر في شكل أنيق، وفي نفس السنة التي توفي فيها.

لقد قامت دار فيرمان ديدو - بنشره في مجلدين أولهما يحوي النص بينما يحتوي المجلد الثاني على اللوحات التي رسمها المؤلف خلال هذه الرحلة.

لو أنه عاش برهة لحظي إذاً بتلك الشهرة التي كان يتوق إليها، والتي هو أهلٌ لها،

وذلك بفضل خصاله كمؤلف ومهارته كرسام. تلك المهارات والخصال التي تحصل عليها وأكسبها بفضل عمله الدؤوب.

يمكن أن نعتبر هذا العبقري المبكر مثل بطل مسرحية شاترتون Chaterton التي أخرجها فيني Vigny بعده ببضع سنوات، كما يمكننا أيضاً مقارنته بأحد معاصريه، شامبليون Champollion، الذي راح هو الآخر، ضحية لنهاية مبكرة حرمته من نيل المجد الذي كان يليق به وبجدارته وقدرته.

إن الجيل الذي أعقبه والذي نقوم نحن بتمثيله يمنحه هذا التقدير إدراكاً منه للقيمة السامقة لما قدمه في مجال معرفة شعب وحضارة، بل ويشيد بشيء من الإقدام، بالقدوة التي قدمها الكاتب المستنير عندما اختار، بقصد وإصرار، القيام بمهمة خطيرة وعسيرة، تمثلت في استكشاف جزء من العالم الأفريقي، لم يكن معروفاً آنذاك.

تعتبر عملية إعادة طبع هذا الكتاب، بعد مرور قرن ونصف على تاريخ صدور الطبعة الأولى، بمثابة احتفاء أو تكريم يمكننا أن نسديه إلى موهبة منفردة كهذه بما لها من أوجه وأشكال متعددة حيث التنوع والعفوية والسخاء الذي ينبغي أن يثير إعجاب معاصرينا.

دعونا نقتفي معاً أثر هذه الحياة القصيرة. لقد ولد جان ريمون باشو بمدينة نيس يوم 1794/01/23 في أسرة من التجار ترجع إلى أصل سويسري. تيتم باشو وهو في سن الثامنة فأودع في معهد Collège في مدينة تورنون Tournon من أجل مواصلة دراسته في المواد الكلاسيكية حيث تأكد، في هذه المؤسسة، ميله نحو الآداب وعلم النبات والرسم.

التحق باشو سنة 1821 بمدرسة القانون في مقاطعة آيكس أون بروفنس Aix - en-Provence غير أنه ترك هذه الدراسة بعد مرور سنتين، أي سنة 1814 وذلك بعد حصوله على إرث من والده مكنه من الإقامة في تورينو، وتبديده في إيطاليا.

عاد جان ريمون باشو إلى فرنسا سنة 1817 واتجه إلى باريس حيث حاول، دون أن تكلل محاولاته بالتوفيق، أن يعيش بفضل الرسم. لقد كان يرسم صوراً على نمط فنان المنمنمات «عيسى باي» Isabey وسعياً منه إلى الحصول على دخل إضافي، كان يلجأ إلى كتابة بعض المقالات الصحفية. لكن هذه الحلول المؤقتة لم تمنحه الأمل في احتمال الاستقرار بشكل ثابت، ولذا قرر أن يقوم بزيارة لأخيه الأكبر في مصر وذلك سنة 1822.

لقد كان أخوه الأكبر يعمل تاجراً بمدينة الاسكندرية وكان باشو قد قام بزيارته قبل

ذلك لفترة قصيرة. ويدرك الجميع الدور الذي كان يلعبه العسكريون والتجار الفرنسيون آنذاك لدى الوالي محمد علي. ولع الشاب الذي كان يبلغ من العمر حينئذ ثماني وعشرين سنة (28) بهذه البلاد الجديدة بالنسبة له والجذابة في مشاهدتها وسكانها وأسرار تاريخها الطويل.

سرعان ما شرع الشاب في استكشاف عمق مصر ابتداء من الدلتا أولاً ثم الفيوم ثم واحات الصحراء الليبية التي نادراً ما كان الأوروبيون يقومون بزيارتها. لقد بدأ خلال شهر نوفمبر 1823 وانتهى منها في شهر أغسطس 1824 ومر بواحات عديدة منها الداخلة والخارجة وواحة سيوه أو آمون الشهيرة. لقد وصل إلى مسمعه هناك، من أفواه البدو، الذين بدأ باشو يتحدث لغتهم أخباراً مثيرة عن الكنوز الجمة التي تذخر بها هضبة الجبل الأخضر من برقة التي تقع وراء تلك الصحراء المحيطة بواحة آمون.

لقد وصف بدو الصحراء الجبل الأخضر وكأنه الفردوس وقد أذكت حكاياتهم عنه رغبة أكيدة في نفسه من أجل السفر أيضاً إلى تلك البقاع العجيبة والنائية حيث لا توجد حولها، آنذاك سوى بعض الروايات المباشرة.

لقد كانت تلك المهمة صعبة جداً، الأمر الذي حدا به إلى التحدث عن مشروعه هذا إلى السيد هنري سالت Henry Salt قنصل التاج البريطاني لدى مصر. لقد أخطره القنصل بمشروع الجمعية الجغرافية في باريس التي قامت، بناء على اقتراح من الجغرافي الفرنسي باربيه دو بوكاج Barbie de Bocag بتنظيم مسابقة تتعلق برحلة إلى برقة وبتخصيص مبلغ قدره ثلاثة آلاف فرنك فرنسي (3000) كمكافأة للفائز «الذي يقوم بهذه الرحلة وفقاً لبرنامج هذه الجمعية المذكورة». اهتم باشو، بعد هذه المقابلة، بعملية الإعداد لهذه الرحلة الكبيرة التي كانت ستقوده من الاسكندرية حتى مشارف خليج سرت.

تحصل المذكور على تمويل لرحلته هذه من أحد رجال الصناعة يعود أصله إلى مدينة نوشاتل Neuchâtel بسويسرا، وهو السيد سيليستان غينيه Celestin Queynet الذي كان يقيم في مصر لإدارة مصانع حلج وغزل القطن التابعة للوالي المصري.

لقد كان هذا الراعي المستنير للعلم قد مول قبل ذلك رحلة إلى الواحات المصرية، وأعرب عن استعداده لدعم هذا المشروع بسخاء. قام المستكشف الشاب بتنظيم قافلة من الإبل يسوسها بعض الخدم من البدو لحمل المعدات الضرورية كالفؤوس والمتفجرات وصناديق فارغة لنقل الموجودات الأثرية وكذلك، وكما يصرح بذلك بنفسه، «مكتبته التي يعتبرها أنفس جزء من أمتعته».

لقد كانت هذه المكتبة منتقاة بشكل جيد جداً لكي يسترشد بها في أبحاثه على تعيين المواقع القديمة والتعرف على الآثار منها كتب للمؤرخ سترابون Strabon بترجمة ليترون ولهيرودوت Herodote وديودورس الصقلي Diodore de Sicile وبلينيوس الكبير «القديم» Pline L'ancien وسولان Solin وسينوسيوس القوريني Synésius de Cyrène وكتب أخرى لرحلات شتى وكتاب شامبليون حول اللاجيديين Lagides. سافر المذكور بتلك المعدات والكتب برفقة مستعرب «مستشرق» ألماني شاب يدى فريدريخ مولر Freidrich Muller وهو طالب سابق في المدرسة الملكية للغات الشرقية وكان ينوي دراسة لهجات القبائل التي يصادفها أثناء هذه الرحلة.

غادرت القافلة الاسكندرية يوم 1824/11/03 لتبدأ هذه الرحلة التي استمرت زهاء ثمانية أشهر (8). بعد أن سار الركب بمحاذاة الساحل في اتجاه الغرب وتم خلال ذلك التعرف على الكثير من المواقع الأثرية القديمة مثل مرسى برك Berek الذي يسمى اليوم مرسى مطروح ومثل عقبة السلوم الكبرى Catabathmus Magnus ومدينة Antipyrgos «طبرق الحالية». وصلت القافلة إلى خليج البومبا على الطرف الشرقي لهضبة الجبل الأخضر يوم 1824/11/30م.

لاحت النباتات الخضراء والأجمات الوارفة والأشجار الكثيفة وكأنها الفردوس طبقاً لأوصاف البدو الرحل وذلك بعد قطع المفازات الشاسعة والموحشة لإقليم مرمرة «البطنان» ثم وصلت القافلة إلى درنة حيث استراحت بها لفترة طويلة.

يعود سبب هذا الحل الطويل إلى فصل الصقيع الذي يكون شديداً، في العادة، فوق هضبة برقة والذي حال دون استكشاف المنطقة.

لقد أصاب مولر مرض دفع باشو إلى التخلي عن مرافقته إبان عمليات الاستكشاف التي كان يقوم بها في الجبل الأخضر.

لم تفت الصعوبات والإعياء في عضد باشو فقد واصل السير حتى وصل سوسة ـ الميناء القديم لمدينة قرنة ـ وكان يعرج، بين الفينة والأخرى، إلى الدواخل. لم يكن باشو في عجلة من أمره فكان يتفحص الآثار القديمة التي تقع تحت ناظريه قابعة أحياناً بين الأحراش وكان يتعرف عليها بشكل أفضل كلما مرت الأيام.

بدأ باشو في إقامة علاقات مع البدو وكان عليه أن يتلطف معهم لأن الممثل الرسمي

لباي طرابلس الذي صدرت إليه التعليمات بمرافقته وحمايته لا يحظى بأي احترام بين تلك القبائل الشرسة التي تعودت على الاستقلال التام في قفار هذا البلد النائي.

كان المستكشف الفرنسي الذي قايض بعيره بجواد حسب أعراف المنطقة، مهتماً بالحيوانات والنباتات التي سمحت له نزهاته المتأنية، بالتعرف عليها في المسارب والدروب الترابية. كان الرحالة يرسم كثيراً لا سيما المشاهد الطبيعية، والمعالم الأثرية، والنباتات، والشخصيات البدوية بلباسهم التقليدي «الجرد» وبنادقهم الطويلة.

إن مهارته في الرسم التي لم تسعفه في باريس ولم تمكنه من الوصول إلى الشهرة والثراء، وجدت هاهنا فرصتها لكي تتأكد على مكث. وهكذا، تمكن باشو، من أن يجمع، شيئاً فشيئاً، محتويات لملف رحلته، حيث اختيرت منها لوحات لتزيين المجلد الثاني الذي يصاحب مجلد نص رواية رحلته.

نعم لقد تكدست لديه أيضاً، الملاحظات الأثرية والاجتماعية وذلك في الوقت الذي كان يسعى فيه إلى وصف طوبوغرافية البلاد بدقة وفقاً للبرنامج المقترح من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية.

وهكذا، قام باشو بزيارة مواقع على الشاطىء بعد مدينة سوسة مثل طلمثية «بطليموسة القديمة» وتوكرة «توخيرة القديمة» والمرج ودريانة «هادريانا بوليس القديمة» ثم بنغازي «يوسبريدس برنيس القديمة» ثم عاد إلى سوسة وتسلق كافة مرتفعات الجبل الأخضر حتى وصل مدينة قرنه «قورينة القديمة» وجال بين آثارها في أرجاء معبد أبولو قرب النبع المقدس، ولم يتردد في استكشاف نفقه الضيق الذي نحتته يد الإنسان تحت الأرض، والدخول مسافة خمسين متراً (50) داخل قلب الجبل، في ظلام دامس في عمق هذا النفق. اهتم أيضاً بمراقبة المدافن الشاسعة التي تحيط بمدينة قرنة القديمة بما فيها من حجرات منحوتة في قلب الصخر، وأضرحة وقبور ضخمة محفورة هي الأخرى، في الصخر وبها أغطية «أسقف» صخرية صلدة تتكون من قطعة واحدة.

إن الرسومات والأوصاف التي قدمها لنا باشو حول هذه القبور تمكننا اليوم من التعرف على مكانها بدقة وعلى أرض الواقع. لقد كان يشعر عندئذ بشعور حقيقي تمثل بإحساسه بأنه قد حقق أهداف رحلته الأساسية. بعد أن انتزع نفسه، بكل أسف، عن تلك العجائب التي لا يستطيع، ولو في الحلم حصرها بالكامل، استأنف سيره نحو بنغازي لكي يعود منها إلى مصر عن طريق آخر أي باقتفاء الطرق الصحراوية من واحة إلى أخرى فانتقل من أجدابية إلى واحة

أوجله ومراده وكم كانت دهشته كبيرة عندما علم أن محافظ المنطقة كان فرنسياً. كان هذا الفرنسي قد صاحب نابليون بونابرت عندما كان طفلاً صغيراً إلى مصر قبل تاريخ رحلة باشو بنحو ربع قرن.

انتقل باشو بعد ذلك من مراده إلى سيوة، واحة آمون الشهيرة، التي سبق له وأن زارها واعتبر، بعد وصوله إلى هذه المنطقة التي يعرفها جيداً، أنه قد انتهى من إنجاز مشروعه على أكمل وجه فقفل عائداً إلى القاهرة غنياً بخبراته وملاحظاته ومستنداته وذلك يوم 1825/07/17م.

لم يبق أمامه إذاً سوى إعداد وتنسيق هذا الكم الهائل من المعلومات الجديدة لكي يذيعها بين علماء عصره. كان عليه إذاً أن يقوم بعمل ضخم بالنسبة لفرز هذه المعلومات وتنقيح الوثائق وإعادة صياغتها.

نظراً لإدراك باشو لحاجته لآراء العلماء ولأمهات الكتب، لم يتأخر كثيراً في مصر بل أسرع في العودة إلى باريس منذ شهر نوفمبر 1825 وقدم ملخصاً لوقائع رحلته إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية التي منحته جائزتها سنة 1826 بعد التقرير الذي قدمه الجغرافي مالت بران. لقد كانت أكاديمية النقوش والفنون قد أبدت اهتماماً، على لسان مؤرخها الكبير لترون، بنتائج هذا الكشف الأثري لا سيما النقوش الجديدة التي قام باشو بنسخها بعناية فائقة.

وقبل أن يقوم باشو برحلته ببضع سنين، كان الطبيب الإيطالي باولو ديلا شيلا Paolo Della Cella قد زاد برقة بصحبة قوات باي طرابلس في حملة تأديبية خلال شهر فبراير 1817.

لقد روى لنا هذا الطبيب حكاية رحلته هذه وتم نشرها في جنوة سنة1819 تحت عنوان رحلة من طرابلس البربرية إلى الحدود الغربية لمصر «Viaggio da Tripoli di Barbaria alle Frontière Occidentale dell Egitto» تمَّت ترجمة هذا المؤلف إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية كما تمَّت ترجمته بعد ذلك إلى الفرنسية سنة 1823 ضمن كتاب «الحوليات الجديدة. للرحلات».

إن أية معلومات حول برقة أو حول هذا الجزء من شمال أفريقيا، تثير الفضول لدى الجمهور رغم كون هذه المنطقة قريبة من أوروبا وكانت، حتى ذلك الحين، صعبة الوصول إليها من قبل المستكشفين الغربيين. إن كتاب ديلا شيلا الذي جاء في هيئة رسائل بعث بها إلى

أحد أصدقائه من العشابين وعلماء النبات، كان زاخراً بملاحظات حول النبات وكذلك حول القبائل وحالة السكان في هذه المنطقة.

كانت الجمعية الجغرافية الفرنسية قد نشرت أيضاً في مجلد «الرحلات والمذكرات Recueil des Voyages et des Memoires» وثيقتين قدم لهما دولا بورت[1] De la porte تمثلت الوثيقة الأولى في ترجمة لنص «يوميات حملة تمت بين سنتي 1811 و1812 من طرابلس إلى درنة» من تأليف تشريفيلي Cervilli. والثانية بعنوان «حكاية مقتضبة عن إقليم المدن الخمس الليبية» بقلم الأب باسيفيك دو مونكاسان[2].

أن تقارير ديلا شيلا المختصرة ورسائله العجلى، لم تف حقاً بما كان يتوقعه علماء الآثار والجغرافية ولذا جاءت ملاحظات باشو الموجزة التي قرأها أمام الجمعية الجغرافية بمثابة كشف جديد بفضل حجمها وجوهرها.

وسرعان ما اتضح بعد ذلك الحاجة إلى ضرورة نشر مجمل نتائج رحلة باشو في كتاب يحتوي أيضاً على الوثائق الإيضاحية التي تكمل النص. بدأ باشو عند عودته إلى باريس في إنجاز عمله بحماس كبير لدرجة أنه انتهى من الكتاب في بضعة أشهر. قام بعد ذلك بتسليمه إلى دار فيرمان ديدو التي طبعت الكتاب سنة 1827 كما يتضح ذلك من التاريخ المبين على صفحة العنوان. رغم إهداء الكتاب إلى الملك شارل العاشر Charles X وطباعته تحت إشراف ورعاية صاحب السعادة معالي «وزير الداخلية» تأخر الكتاب عن الصدور.

نحن نجهل أسباب هذا التأخير الذي قد يرجع إلى إعداد اللوحات والرسومات وذلك نظراً للوقت الذي تتطلبه عملية حفر هذه الرسومات والخرائط وطباعتها. وقد كان المؤلف خلال هذه المدة ينتظر بفارغ الصبر صدور كتابه لأنه كان يتوق إلى اعتراف قراء جدد بقدره الذي لم يعرفه حتى ذلك الحين سوى دائرتين من رجال العلم[3].

كان باشو يعاني أيضاً من ضائقة مالية رغم الدعم الذي قدمه له السيد غينيه والذي استمر في تقديمه إليه وإرساله من مصر إلى فرنسا، كما تأثرت صحة باشو أيضاً بسبب العمل المضني الذي قام به خلال سنوات محمومة من النشوة.

---

(1) قنصل فرنسا بالمغرب الأقصى.
(2) رئيس الإرسالية الفرنسيسكانية بطرابلس (المترجم).
(3) يقصد علماء أكاديمية النقوش وعلماء الجمعية الجغرافية الفرنسية (المترجم).

لقد أطلق بعد ذلك العنان لشعوره بالمرارة حتى إنه قام خلال أزمة كآبة مفرطة، كما قال مؤرخه، بالانتحار ووضع حد لهمومه ومآسيه.

* * *

دعونا ندرس العمل الآن بمعزل عن مؤلفه. يتسم هذا العمل أولاً بغزارة وجدية محتواه فلم تقدم أية رواية عن أية رحلة إلى قورينة، قبل بداية الحفريات الانتظامية، مثل هذه المعلومات الوثيقة حول عدد كبير من المواقع الأثرية. ولم تقدم أي منها أية وثائق مماثلة لهذه في ثراها وفي أمانتها العلمية.

نشعر، كلما أمكننا أن نقارن بين وصف باشو ورسوماته وبين الواقع الحالي، بالذهول أمام هذه الدقة وهذه الأمانة العلمية لدرجة أنه، وحتى عندما يخطىء في التفسير الدقيق للبيانات المادية، فإن النزاهة والأمانة التي تحلى بهما في نسخ هذه البيانات تكون واضحة وضوح الشمس ويكفي أن نسوق مثلين فقط على ذلك: وصف مدينة أبولونيا «سوسة الحالية» عندما كانت بلقعاً آنذاك يذهل من دقته: بقايا الحصن، والمعبدين المسيحيين «وهما جزء من ثلاث كنائس نصرانية كبيرة تم الكشف عنها في أيامنا هذه وترميمها جزئياً» وما بهما من أعمدة رخامية وقواعد وكذلك المرفأ القديم الذي تحميه جزيرتان صخريتان بالإضافة إلى خط من الصخور البحرية المتجهة نحو الغرب وكذلك اللسان الصخري الذي يقع غرب المدينة قليلاً والذي يستخدم كسد لكسر الأمواج في الميناء الحديث. لقد نظر باشو لذلك ورسمه بنظرة ثاقبة وأكيدة.

وفي المقابل أشار باشو إلى وجود «رصيف» في شكل مدرج أو مسرح دائري يقع شرق الحصن بمحاذاة الشاطىء. لقد كشفت الحفريات الحديثة في الواقع بأن الأمر لا يتعلق «برصيف» بل بمدرجات مسرح مماثلة لمدرجات تلك المسارح التي اختفت الآن. رغم هذا الخطأ في التفسير الذي قد يبرره قرب هذه المدرجات من المنشآت في الميناء التجاري القديم، وهي منشآت شاسعة وهامة جداً، فإن رسومات باشو أمينة جداً لدرجة أن المرء لا يجد أية صعوبة في التعرف على المكان حتى بعد الترميمات التي أدخلت فيما بعد على هذا المسرح. أما المثال الثاني فيتعلق بكتابة التاريخ.

لم يكن باشو يعرف اللغة اليونانية جيداً ولم يخف ذلك عن أحد فقد كان يستعين بكتب هيرودوت وسترابو وديودورس وبلين مترجمة إلى اللاتينية أو الفرنسية. ولم يدع باشو بأنه يقدم تفسيراً أو شرحاً لما ينسخه من حروف وعبارات.

لقد شاهد باشو في بطليموسة القديمة «طلمثية الحالية» نصاً طويلاً صعب القراءة مكتوباً على جدار بيزنطي وبذل كل جهده، مع ذلك، لنسخ حروفه، ولكن هذا النسخ لم يمكّن ليترون من تفكيك رموزه غير أنه مكنه من معرفة أن هذا النص عبارة عن مرسوم صادر عن الإمبراطور انسطاطيوس الأول (491-518)م Anstase 1er ويتعلق بالتنظيم العسكري لبرقة.

بعد ذلك بربع قرن، أي سنة 1851، تمكن قنصل فرنسا في بنغازيVattier de Bourville من العثور على هذا النص وإزالته من الجدار البيزنطي وإرساله إلى متحف اللوفر في باريس وهو ما يزال موجوداً به إلى يومنا هذا. إن محاولة تفسير هذا النص الهام تجري منه ذلك الحين حيث تمت قراءته وشرحه ثم إعادة قراءته وشرحه العديد من المرات دون أن يتم، مع ذلك، التغلب على كافة الصعوبات الواردة فيه. إن كل من يرغب في قراءته يرجع إلى رسومات باشو التي تقدم له العون الضروري لكتابة العديد من الفقرات الغامضة في النص الذي ربما كان موجوداً على ذلك الحجر.

من هنا نرى أنه بإمكاننا أن نثق كل الثقة في الوثائق التي جمعت في هذا الكتاب الذي لا يزال يعتبر حتى الآن مصدراً أساسياً لدراسة الآثار في برقة. نفس هذه الملاحظات تنطبق على المحتوى الاجتماعي للكتاب، لم يكن باشو، مثل العديد من الرحالة من رجال الآثار، مهتماً فحسب بالبحث عن الآثار العتيقة ووصفها بل كان مهتماً أيضاً بالواقع اليومي المعاصر له، أي نمط الحياة وسلوك القبائل البدوية التي كان يراقبها بعناية وتعاطف.

كان باشو لا يجد صعوبة مع الناس الذين قابلهم، نظراً لأنه قد اعتاد على اللغة العربية وعلى سلوكيات الرحّل بفضل رحلته السابقة إلى الواحات، كما أنه لا يشعر بأي ارتياب لاستقبال هؤلاء الناس الأشداء والبسطاء رغم عدم تعودهم على الاتصال بالأجانب.

تظل اللوحات التي رسمها لنا باشوأحد المظاهر الخلابة في رواية رحلته، وتقدم لنا شهادة مزركشة بالألوان ومفعمة بالحيوية عن السكان في شرق ليبيا، نسوق على ذلك مثلاً: الطرفة التي أوردها باشو في الفصل الثاني عشر (12) عن الزيارة التي قام بها ذات مساء، في سوسة، إلى شيخ كان مشغولاً في الإعداد للأخذ بالثار بسبب مقتل فتى من قبيلته، حيث شاهد باشو مشهداً محزناً.

لقد جلس الشيخ صامتاً وأمامه جثمان القتيل ملطخاً بالدماء ويتم الكشف عنه في

ضوء المشاعل الخافتة لوالدته وزوجة هذا التعيس وسط العويل والنحيب لدى النساء والسخط الواضح على وجوه الرجال الذين بدأوا يمتشقون أسلحتهم، ويخرجون للبحث عن الجناة ومعاقبتهم. لقد كان هذا المشهد يجري تحت دوي الصواعق التي تبرق في الليل الدامس.

وفي مشهد آخر، نرى المشهد اللطيف عن الضيافة التي حظى بها باشو قرب «السواني» عند الشيخ «عزيز Azziz» ذلك الكهل النبيل والسخي «رجل يعمل البر» وبجانبه ابنته الرشيقة «سعيدة» Saidah وكذلك أيضاً، هناك فقرة عند نهاية الرحلة نرى فيها كبار القبيلة من البدو الرحل يقومون بتعليم الشباب فيها أسماء ومسارات النجوم لكي يتمكنوا من الاهتداء إلى طريقهم ليلاً وسط رمال الصحراء.

نرى أن باشو عن طريق، هذه الأمثلة، لم ينج من تأثير من سبقه من البارزين من الرحالة الفرنسيين الذين توجهوا خلال القرن الثامن عشر (18) وبداية القرن التاسع عشر (19) إلى أمريكا، وإلى الشرق الأوسط حيث تأثروا جداً ببساطة السلوكيات البدائية التي لم تفسدها، حتى ذلك الحين، الحضارات الأوروبية. نجد في المشاهد التي رسمها باشو عن عرب برقة خليطاً من ذكريات عن «المتوحش الطيب» التي ولع بها فلاسفة عصر التنوير. لقد كان المؤلف بحق وليد عصره في هذا الاتجاه، كما أن هذه المشاهدة قد زادت من روعة العمل الذي قام به، إذ يمكننا أن نصف رهافة الحس التي ظهرت في مؤلفه بالرومانسية حقاً وذلك دون أية مبالغة من جانبنا.

لقد وردت تلك الرومانسية في عبارات تدل هي الأخرى على ذوق العصر، أي بأسلوب «مفعم ولاذع» كما يذكر ذلك مؤرخه حيث يتضح عنده تأثير الكاتب الفذّ شاتوبريان Chateaubriand.

إن تقليده لأسلوب هذا الكاتب يكون أحياناً تاماً جداً لدرجة أنه يمكننا أن نعتبره نحلاً أدبياً. ومثال ذلك ما ورد في خاتمة الفصل المتعلق بكهوف «الكنيسة» بالقرب من درنة حيث قال «إن تلك الأقبية التي سادها قديماً الظلام، والتي كانت مكفهرة، قام الزمان بتصديعها، وتخللت أشعة الشمس شقوقها لإضاءتها. لقد اندثر سكانها من كل العصور بل وتحولت رفاتهم إلى فريسة للرياح تذروها، وطردت الطبيعة، من هذه الأمكنة، أي علامة على الحداد والأسى، وتركت شعيرات خضراء غضة في نفس المكان الذي كانت تتدلى منه قسائم القماش الأسود التي تدل على الموت والجنائز، وغطت الصخور التي أنهكتها الصلاة

بطحالب خضراء، كما كست سفوح الصخور بعناقيد جميلة من النباتات التي يراقصها نسيم البحر العليل، وتأتي الطيور المهاجرة التي أعياها تعب المشوار لتستريح على أغصانها المزهرة المائسة، وتعيد الحياة للأرض بتغريدها الصداح والنشوان. وهكذا لا شيء يعكر صفو هذا القفر البديع، ولا شيء سيذكره بغايته الأصلية سوى دوي الأمواج الهائجة ودوي الصواعق الذي يتخلل غياهب هذه الكهوف لكي ترد عليها أصوات النحيب والأنين القديم». تلك هي الشاكلة التي جاء عليها هذا الكتاب المثالي الأكبر من سبب فهو وثيقة لا غنى عنها حول منطقة «حول عصر» وهو شهادة صادقة جداً وطريفة ومفعمة بالحيوية، وكتبت بلغة بسيطة ومباشرة تارة وراقية وموزونة تارة أخرى، ولكنها تبقى، مع ذلك، أمينة لا يتخللها أي ادعاء مغرور مثلها في ذلك مثل اللوحات والرسومات الأنيقة التي تجسم نص الكتاب. لقد كان باشو، علاوة على ذلك، مراقباً متيقظاً ومطلعاً وكاتباً أصيلاً ورساماً ماهراً جداً. لعله من الإنصاف أن يقوم الخلف الذي ألقاه طويلاً في غيابة النسيان، أن يعترف أخيراً بمواهبه ويشيد بالخصال الجليلة لهذا الرحالة، وعالم الآثار والكاتب الأديب. إن مركز البحوث الليبية القديمة، إذ يفتتح باكورة دراساته الليبية بإعادة طبع ونشر هذا العمل الضخم بمناسبة الذكرى المائة والخمسين لصدور هذا الكتاب، يفي هكذا بدين يعترف به كل أعضاء هذا المركز نحو رائد دراساتنا في الأرض الأفريقية، ويقدم لذكراه تحية تكون بمثابة تعويض عادل له.

فرانسوا شامو

أستاذ بجامعة السربون

ومدير معهد البحوث الليبية القديمة بهذه الجامعة

تمهيد

خلال زيارتي الأولى إلى واحة آمون[1] كان البدو من أولاد علي يحدثونني غالباً عن الجبل الأخضر وهو الاسم الحديث لإقليم المدن الخمس الليبية.

إن الأوصاف التي قدموها عن موطنهم القديم[2] وعن هضابه الخضراء، وعذوبة ينابيعه، وعجائب آثاره مثيرة جداً؛ غير أنني افترضت أن هذه الأوصاف مبالغ فيها ولكنها كانت تطابق، مع ذلك، التقاليد التأريخية وروايات الرحالة، وزادت من شوقي في ذرع هذه المنطقة الشهيرة.

ومع ذلك، وطبقاً للخطط التي كنت قد رسمتها، كنت أرغب أن أجوب الواحات

---

(1) سأقوم بنشر كتاب ثانٍ حول الواحات المصرية الخمس وذلك وحسب استقبال الجمهور لكتابي هذا، إن كتاب الواحات المذكور عبارة عن ثمرة لتسعة أشهر من المعاناة والتعب في الصحراء الليبية.
إن الحكم المشجع على القسم التأريخي لهذا الكتاب الثاني، والذي أدلى به عالم وصديق وفيّ مدافع وكريم عن الحقيقة هو السيد ليترون مهم جداً. وإن هذا الحكم باختصار نشر في عدة مناسبات وفي عدة أشكال (انظر جريدة العلماء عدد مارس 1826 وكذلك نشرة العلم والتأريخ عددي أبريل ونوفمبر من نفس السنة).
إن هذا الحكم يثبت على الأقل دقتي الصادقة في هذا الفرع من الأبحاث التي أقوم بها. ومهما كانت هذه الجدارة غامضة فإننا عندما ننظر إلى أهمية هذا الموضوع وإلى مكان التقصي لا بدّ وأن يكتسي ذلك أهمية. أود أن أضيف أن هذه الجدارة، وهي نتاج المثابرة، لا يمكن أن تكون إلا في هذا العصر من الحياة - هذا الزمن من العمر - الذي تتوفر فيه للمرء ميزة جمع قوته الجسدية إلى قوته المعنوية وهو عصر سعيد بهذه الأوهام الحافزة التي يجعلها البرد باهتة وقد يبددها قريباً إلى غير رجعة.

(2) كان أولاد علي يقطنون، قبل أن يتمكن الوالي محمد علي من إخضاعهم، الجبل الأخضر وهو عبارة عن صحراء مخضرة اكتسبت هذه التسمية بفضل الغطاء النباتي الزاهي بالمقارنة ببوار وجفاف المناطق المحيطة به.

الأخرى في الصحراء الليبية، ولم أفكر في تنفيذ مشروعي هذا إلا بعد عودتي من واحة الداخلة. بدت هذه الرحلة الجديدة جذابة جداً بالنسبة لي خاصة وأن كل أولئك الذين حاولوا القيام بها قبلي، بعضهم لم يتمكن من اكمالها بينما فشل البعض الآخر فيها تماماً.

في الواقع، قام الجراح الفرنسي Granger غرانجيه نحو سنة 1760 برحلة إلى برقة واشتهر غرانجيه برحلته إلى مصر، وكان دليله في رحلته إلى برقة رئيس عصابة من اللصوص وعده الرحالة بمكافأة كبيرة بعد عودته من الرحلة.

استطاع هذا الرحالة الجسور، تحت عناية هذا الحارس الخطير، أن يزور قرنة وآثارها وأن ينسج عدداً كبيراً من النقوش، غير أن مشقته وأعماله راحت هباءً منثوراً نظراً لضياع مذكراته عند عودته إلى فرنسا[1].

لا أريد التوقف عند تلك المعلومات السطحية التي قدمها لنا كلاً من بول لوكاس Paul Lucas وبروس Bruce الشهير.

في سنة 1812، قام باشا طرابلس الذي كان يرغب في تأديب ابنه حاكم درنة وردع تمرده بإرسال قوات إلى هذه البلدة. كان الطبيب تشرفيلي Cervelli قد صاحب هذه الحملة ودوَّن بعض المعلومات الهامة خلال عبوره لبرقة. وفي سنة 1817، قام الباشا نفسه، بإرسال حملة ثانية ضد عرب برقة وكانت مناسبة ثانية لأحد الأوروبيين ـ ديلا شيلا[2]، مكنته من التحول في برقة وهو شخص متعلم جداً قام بنشر رواية رحلته وحقق لنفسه المجد نظراً لكونه أول من رفع جزءاً من الستار الذي كان يخفي عنا وجه قرنة. رغم ذلك، نجد أن معلوماته عن المعالم الأثرية التي لم يقم برسمها وأن لمحاته المبهمة، رغم كونها إبداعية، أدت إلى إثارة دنيا العلماء أكثر من إشباعها لفضولهم. أما رحلة الأب باسيفك، القاصد الرسولي في طرابلس، إلى قرنة سنة 1819، فإنها لم تضف الكثير إلى المعلومات التي نقلها ديلا شيلا.

---

(1) تأريخ أكاديمية النقوش ـ مجلد رقم 37 ص 389 وكذلك نشرة العلم والتأريخ عددي أبريل ونوفمبر من نفس السنة.

(2) Poalo Della Cella. Viaggio de Tripoli di Barbaria alle Frontière Occidentales de l'egitto Genoua 1819 لقد تم ترجمة هذه الرواية الشيقة إلى اللغة الفرنسية من قبل العالم الفرنسي Eyries وتمّ إدراجها ضمن الحوليات الجديدة للرحلات المجلدين 17 - 18. تجدر الإشارة إلى أن هذا العمل قد ترجم بتصرف إلى اللغة العربية من قبل د. هادي أبو لقمة سنة 1968 ونشرته دار الفكر بطرابلس في نفس السنة. . المترجم.

هؤلاء عموماً هم الرحالة الذين نقلوا إلينا، رغم مناصبهم الشخصية التي قيدت أبحاثهم، أعجابهم، قبل كل شيء، بهذه المنطقة، ثم عرفونا بها. لم يكن بوسعنا التعرف على معالم بلد تعرض لعمليات احتلال متتالية من قبل شعوب مختلفة في اختلافها وأصلها، عن طريق عملية وصف سطحي بل كان ينبغي نسخ هذه المعالم بالرسم لأن الأخطاء الجيولوجية والمعلومات الخاطئة والشائعة بل ومصلحة الجغرافيا نفسها، تقتضي فحصاً متأنياً ومطولاً للملاحظات الإيجابية، إن مثل هذا العمل كان في طريقه إلى الإنجاز.

أقر، اللواء مينوتولي Minotuli سنة 1820 مشروعاً لزيارة برقة بأسرها وكافة المناطق المحيطة بها. اصطحب هذا اللواء Général علماء وفنيين من أجل ضمان نتائج على قدر كثير من الأهمية لعلمه هذا، غير أن آمال أصدقاء العلم، قد خابت مرة أخرى للأسف الشديد. ما كاد اللواء البروسي «الألماني» يصل إلى عقبة السلوم الكبيرة حتى فقد ثلاثة من الأوروبيين[1] وفتت في عضده العراقيل التي وضعها البدو أمامه واضطر إلى العودة إلى الاسكندرية.

تلك هي الحالة حسب علمي، التي وجدت عليها المعلومات التي نحوزها عن برقة عندما قررت أن أساهم بدوري في زيادة وتوسيع حدود هذه البيانات. ولم أكن أطمح، نتيجة لعدم معرفتي الكبيرة إلا بتقديم جزء بسيط من هذا النقص الكبير في معرفة العالم الأثرية والتأريخ والجغرافيا في هذه البلاد، ولكن بفضل الإرادة القوية ومقارعة ارتياب الحماس بالتمحيص المتأني والجلد على المصاعب، تجاسرت بامتلاك الأمل في التوصل إلى إلقاء ضور جديد على الكثير من الحقائق التي تركت وسط الظلام.

كنت أجهل، قبل سفري إلى برقة، أن أحد الضباط الإنجليز، بيتشي Beechy، كان قد استكشف ساحل برقة أكمله سنة 1822، ولم أعرف ذلك إلا في قرنة نفسها، ولا زلت أجهل حتى الآن نتائج العمل الذي قام به. إن مواهب السيد بيتشي معروفة لديَّ وكان يمكنني أن أتخلى عن القيام بهذه الرحلة لو كنت قد علمت برحلته.

---

(1) تذكرنا تلك الحوادث بغيرها وقد جاءت نتيجة لسبب واحد لا بدّ أن يكون عبرة لكل رجل أوروبي. الكثير منهم يستخير مشاعره وأحاسيسه السخية أكثر من قدرته الجسدية ومعرفة مدى تحمله فيقومون برحلات طويلة في أفريقيا قبل أن يمنحوا أنفسهم الفرص للتكيف تدريجياً مع مناخها القاتل. والتعود بصفة خاصة على التعب والحرمان بسبب الصحراء. إذا كان هؤلاء الأوروبيون قد سقطوا ضحية للتغيير المفاجيء في المناخ فإنهم لا شك يحققون نبوءة المثل العربي القاتل بأن الصحراء «تلتهم الرجال الذين لا تعرفهم».

على كل حال، أنا لا شعر بالندم على المشقة التي واجهتني، وقد يكمل بحثانا الواحد منهما الآخر، ويقدمان وبشكل خاص، فائدة جمة للجمهور قد تتمثل في الفائدة الناجمة عن مقارنة روايتين لرحلتين إلى بلاد غير معروفة كثيراً.

عندما تأكدت من مشروعي، أخبرت به السيد مولر Muller المستشرق الشاب الذي أوشك على الموت في واحة سيوة كضحية لتزمُّت سكانها.

لقد أعرب لي عن رغبته في المشاركة في حظوظ هذه الرحلة الجديدة وكانت معرفته للغة العربية مفيدة جداً بالنسبة لي خلال رحلتي السابقة إلى الواحات المصرية وكانت أكثر فائدة في برقة.

تفضل الكثير من الأشخاص بالاهتمام بتحقيق النجاح لرحلتي ومنهم السيد غينيه، الميكانيكي البارع، الذي يقطن القاهرة والذي قدم لي الدعم المادي على تنفيذ هذه الرحلة المكلفة بالضرورة.

لقد تعرفت على السيد عصمان نور الدين أفندي[1] الذي كان ينشر في مصر المعارف التي تلقاها في أوروبا وكان مهتماً جداً بمشروعي وتفضل بتقديم توصية بشأنه إلى الباشا المصري.

قد وجدت عند قنصلي فرنسا وإنجلترا العامين حماساً كبيراً بشأن تشجيع هذا المشروع الذي تحفّه المخاطر تشجيع هذا المشروع الذي تحفّه المخاطر حيث قدما لي القدوة والنصائح المفيدة، وحاولا بكل الوسائل التي في حوزتهما، تذليل عقبات الطريق الوعرة أمامي. بناءً على مساعٍ قام بها السيد دروفيتي Drovetti تحصلت على رسائل منه رسمية صادرة عن محمد الغربي إحدى الشخصيات القوية في مقاطعة بنغازي، والقنصل العام للدولة البربارية «إيالة طرابلس» لدى والي العهد المصري[2].

أما السيد سالت Salt «قنصل بريطانيا» فقد منحني رسالة توصية خفية إلى السيد وارينغتون Warrington القائم بأعمال ملك بريطانيا في طرابلس وإلى السيد روسيني Rossini نائب القنصل البريطاني في بنغازي.

---

(1) يعمل حالياً رئيس أركان الجيش لدى والي مصر.

(2) ورد اسمه الغربي في يوميات حسن الفقيه حسن ـ الجزء الأول ص 297 كما ذكر أنه كان وكيلاً لطرابلس الغرب بالاسكندرية. انظر يوميات حسن الفقيه حسن ـ منشورات جامعة الفاتح ـ طرابلس 1984. . «المترجم».

كان السيد سالت هو الذي أخطرني ببرنامج الجمعية الجغرافية في باريس الذي كان يتعلق برحلة إلى برقة. كان هذا البرنامج قد أعد بناءً على اقتراح من السيد أليكس باربيه دوبوكاج(1) وقد أنار لي الطريق أمام جزء من أبحاثي، وجعلني أتصور أنه قد يكون بإمكاني الحصول على أصوات علماء هذه الجمعية. أخيراً، وبفضل دعم ومساندة كافة هؤلاء الأشخاص البارزين، شرعت بكل ثقة، في تنفيذ المشروع أمامي.

ومهما كانت الأخطار التي واجهتني، كان حظي وافراً في التغلب عليها.

لقد كان يحدوني الأمل، وتقود خطاي ذكريات الماضي التليد، لكي أقدم لدنيا العلم والعلماء حصاداً غزيراً من الوثائق النفيسة لا تتعلق بنتيجة أبحاثي بالفنون فقط بل أيضاً بتوضيح بعض الصفحات المعتمة والمظلمة في التأريخ. إن ما خيب رجائي بصورة جزئية هو التوقيت والطقس والتخلف بوجه خاص، غير أنه إذا لم يكن في استطاعتي رسم صورة العصر الذي وجدت فيه قرنة المستقلة، هذا العهد الرائع، فإنني قد حاولت، على الأقل، أن أقدم صورة أمينة عنها في يومنا هذا.

لقد توفرت لديَّ ميزة الإقامة طويلاً في برقة ولا يهمّ بأي حظ أو صدفة، وتمكنت من قياس ورسم ووصف كل ما كـان يبدو جديراً بالاهتمام بالنسبة لي. إن هذا العمل الذي أقدمه للجمهور يأتي من جراء تضافر هذه المواد ولو أنني قطعت بأن هذا العمل عبارة عن ثمرة لبحوث رحالة واحد؛ بما له من معرفة أولية، فإن هذا يعني أنني أقر بضعف هذا العمل.

إن هذا الضعف كبير جداً لدرجة أنه لا يمكن إصلاحه، من هذا الجانب عن طريق طمس التوقيت والرجال لأهميته القصوى، أو من ذاك الجانب، عن طريق تشقيق زخارف الأسلوب التي يمكنها أن تبرز الموضوع الأقل أهمية بفضل إلباسه ثوباً قشيباً بأشكال زاهية.

إن رواية رحلتي هذه عبارة عن نسيج مفكك أقفز فيه من موضوع إلى آخر بشكل مفاجىء دون أن أضع بين تلك الموضوعات أي رابطة عدا تلك الناجمة عن الأحداث العارضة في مسيرتي.

لقد كتبت بذات الطريقة التي رحلت بها فتارة كنت أقرأ بالقرب من أثر ما، صفحة

---

(1) انظر نشرة الجمعية الجغرافية رقم 6 ورقم 12.

لهيرودوت أو لسترابو، وتارة أخرى، كنت أرسم أو أتفقد النباتات، وتارة ثالثة، كنت أقتفي أطراف الساحل وتارة أخرى، كنت أحل على خيمة لأحد البدو. أما ما يتعلق بالقسم التاريخي الأحفوري لهذا الكتاب، فإن كان أقل عيوباً من القسم الأول، فهو، مع ذلك، يشبهه من حيث كونه ناقصاً.

وحرصاً مني على الأمانة الكاملة قمت برسم الخرائط الجغرافية بنفسي وكذلك بقية المخططات المختلفة. لقد كنت أدخل البهجة على نفسي تارة بتقديم العرفان إلى السيد لابي Lapie على نصائحه التي تكرم بإسدائها إليَّ، وإلى غيره تارة أخرى. أما فيما يتعلق برسوماتي الأخرى، فهي ليست سوى تخطيطات أعتقد بأنها أمينة، ولم يتم التضحية فيها بالحقيقة على الأقل، من أجل زخارف فنية ذات تأثير تصويري.

لقد تم رفع هذه الرسومات بمقياس رسم كبيرة على الطبيعة وتم تصغيرها بعد ذلك، بكل براعة، من قبل فنان موهوب هو السيد كورتان Courtin لكي تتناسب مع عملية الصباغة.

قام السيد آدم، الابن، وهو رسام شهير جداً، بتزيين تلك الرسومات بأشكال لم تنتبه إليها ريشتي غير الماهرة إلا بشكل منقوص.

أما السيد آدم، الأب، فقد قام، بكل سرعة وعناية، بنقشها بإزميله السحري من أجل إخراجها في اللوحات المرفقة طيه.

وإذا كانت أعمال هذه، رغم كافة نواقصها، جديرة بأي اهتمام، فإنني أعترف بأنني مدين إلى صاحب السعادة معالي وزير الداخلية على تكرمه برعاية هذا العمل، وتسهيل عملية نشره، كما لا يسعني أيضاً، خلال هذه الإمكانية إلا أن أقر بعدم إغفال مساندة الكونت شابرول دوفولفيك Chabrol de Volvic لهذا العمل.

ينبغي عليَّ أيضاً أن أشير إلى ذلك التشجيع الذي حظيت به لدى علمائنا الرئيسيين؛ لقد وجدت لدى السيد ليترون الذي يشير ذكر اسمه وحده إلى التبحر الكبير المقترن بموهبته والألمعية الفكرية، أقول، لقد وجدت لدى هذا العام المشهور، كل نصح ودعم ورعاية. إن تفسيراته البليغة للنقوش التي تحويها هذه الرواية، بالإضافة للملاحظات الشارحة التي أثرى بها هذا الكتاب، على الأقل من هذا الجانب، تكتسي أهمية فعلية في نظر المتعلمين.

إنني مدين أيضاً للسيد شامبوليون الذي تشهد أوروبا بأهمية كتبه القيمة، وتصفق لكشوفه السامية التي أنتزعها من آثار Thèbes طيبة «الأقصر.. المترجم» وممفيس لا سيما أسرار العصور التليدة التي ظلت طيَّ النسيان لأمد طويل. لا أحد يعرف أكثر مني أخلاقه الدافئة وهذه الوحدة السخية التي تنهل من حب العلم وتمتد لتشمل أولئك الذين لا يردون إليه سوى خدمات هزيلة!.

يشرفني أيضاً أن أقول، رغم تأييد الوزارة، ورغم تقديري للأكاديميين الممتازين، أنه إذا لم يتم دفن عملي هذا بين طيات النسيان في أحد الملفات، فإنني مدين أيضاً إلى مؤلف كتاب اللاجيديين Lagides. إن مساعيه التي طوق بها عنقي، وتوصياته الملحة أدت إلى موافقة السيد فيرمان ديدو Firmin Didot، لصالح الفنون التي يحبها ولا ينشر سواها، على نشر هذا العمل الباهظ.

يسرني أيضاً أن أعرب عن وافر عرفاني للسيد آيرياس Eyries، هذا الجغرافي الجهبذ والمتواضع، على تكرمه، بفضل طويته السامقة، بقطع وتيرة أعماله المتبحرة من أجل تسهيل صياغة مقالاتي تارة، بفضل إرشادي إلى المراجع الملائمة، وتارة أخرى، بشرح كتب موضوعة في لغات تعتبر غريبة وأجنبية بالنسبة لي. تحتوي رواية هذه الرحلة على الكثير من النقوش العربية التي قام بترجمتها السيد أ. جوبير A.Jaubert.

إنني لست مديناً فحسب لخدمات هذا المستشرق العلامة بل أيضاً للنصائح التي تفضل بإسدائها حول كل ما يتعلق باللغة العربية والتي قد تكون قد ساهمت في تجويد وتحسين كتابي، لو أنني عرفت أن أستفيد منها.

أيها القارىء، إذا كنت قد أسهبت في تناول تفاصيل شخصية، فإنك تدرك، دون شك، قصدي ولن تظن بأنني أضفي أهمية على رحلتي لا سيما وأنني أول من يعترف بأنه ليس هناك ما يوجب مثل هذا الأمر.

لقد كنت أود أن أشيد بكل من تكرم بمساعدتي على تنفيذ هذا المشروع. مهما يكن حكمك على ثمراته الذي قد يلغي كفاءتي المتواضعة، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر على واجب الإشادة بحسن الصنيع.

لقد أردت مع ذلك، وانطلاقاً من خبرتي، واحتراماً لهؤلاء الرجال البارزين، الذين يجد المرء لديهم، وهم في قمة المجد والعلم، أكبر قدر من التسامح، كما يجد لديهم،

وهم في قمة الشهرة، أكرم قدر من الدعم والمساندة. لقد أردت أن أعرّف بهؤلاء الذين يكرسون أنفسهم للرحلات الشاقة، أي تلك المهام التي، إذ ينازع فيها الإنسان الإعياء والمعاناة، تؤدي إلى موت صاحبها، إذا لم يكن المرء متحلياً بعمق المخيلة، وإذا لم تكن المخيلة نفسها مدعومة بحب الحقيقة حباً محضاً خالياً من كل مصلحة.

مقدمة تاريخية

تشكل هذه المنطقة التي تقع بين جبال أطلس ووادي النيل، سهلاً شاسعاً وقاحلاً، ومكاناً موحشاً، كان من الممكن أن يبقى مجهولاً من قبل الجمهور، كما نسيته الطبيعة، لو لم تجد، بين تموجات الصخور المستمرة والسهول الرملية، بعض المناطق الخصبة التي يوجد فيها السكان وكأنهم في جزيرة في وسط البحر.

إذا اتجهنا نحو الجنوب في هذه المنطقة التي يشكل فيها الساحل لساناً بارزاً، يمكننا أن نرى هذه الصحارى الكئيبة وقد تحولت، بفضل معجزة ما، إلى هضاب تكسوها الأشجار وإلى مروج باسمة وزاهية ونرى الينابيع تتدفق فيها من قلب الصخور التي تكسوها الطحالب لتكون بحيرات تنساب منها المياه في هيئة جداول متعرجة عبر السهول، ثم تنكسر في شكل شلالات تنحدر مندفعة نحو الوديان.

ولكي، تكتمل تلك المفارقة، يستطيع المرء أن يشعر بنسيم البحر العليل وهو يراقص الأغصان المائسة لأشجار الغابات، أو يتزلج على المروج المزهرة، ويقي تلك التلال الخضراء من لفح رياح الصحراء.

لا يمكن لبلد حبته الطبيعة بجمال كهذا أن ينجو لفترة طويلة من طمع الشعوب المتحضرة، فمنذ القرن السادس قبل الميلاد جاء مستوطنون من الإغريق إلى هذه المشارف وشيدوا بها مدينة. كانت قرنه مهداً لدولة شهيرة ازدهرت فيها الفنون التي جسدها رجال عظام.

شاهدت قرنه، ابنة اليونان، هضابها وقد علتها معابد رائعة، وينابيع متدفقة، وغابات سكنتها الجنيات وربات المياه. بعد ذلك جاءت الأخلاقيات المتقشفة للمسيح لإنارة الأرض وقد تسرب نور المسيحية إلى قرنه، وحلت الحقيقة محل الأخيلة الكيسة رغم كونها

مضللة. اكتسح الإسلام، بعد ذلك، هذه البلاد وحلت راية محمد [ﷺ - المترجم] محل الصليب، وكانت علامة دمار لأنها خفقت فوق قلاع وحصون ثم على ركام من الحطام[1].

كانت تلك الثورات الدينية مرتبطة بالضرورة بثورات سياسية، بعد أن كان الملوك يحكمون قرنه، تمكنت قرنه من تحقيق الاستقلال لردح طويل من الزمان «نحو مائتي سنة بفضل تحقيق الجمهورية البرقاوية.. المترجم». وكان لها مجد التحالف مع الاسكندر الأكبر، وعار الخضوع لمن خلفه.

إن روما لم تبخل على استقبال برقه وعاملتها أولاً بمثابة ابنتها بالتبني، ثم أحالتها بعد ذلك، عنوة إلى مجرد مقاطعة تابعة. لم تكن قرنه موجودة أبان الحكم العربي حيث ظهرت قرى صغيرة متناثرة على أنقاض المدن الخمس.

ثم، بعد هذه الإهانة وهذا الدمار، هجرت هذه الأرض التي كانت مسرحاً لحضارة لامعة وبراقة، وتم التخلي عنها لصالح شراذم متسكعة لم تأبه، عند احتلالها، حتى في أيامنا هذه، بالمحافظة على ذكرى مجدها التليد. كل هذه المراحل من الازدهار والانحطاط تحتاج إلى مزيد من التعمق.

نحن لا نسعى لمعرفة أصل سكان برقه في العصور التي سبقت التأريخ أي إذا كانت شعوباً مختلفة في أصلها مثل البربر والفنيقيين والليبيين قد كونوا مجتمعات سياسية أو عاشت فيها متفرقة نتيجة للتقاليد واللغة. نحن لا نسعى لمعرفة ما إذا كانت هناك مدن أخرى قبل إنشاء قرنه وغيرها من الفرضيات الأخرى التي لا يمكن وضعها، بصورة يقينية، إلا بالاستناد إلى معرفة تأريخية عميقة.

عندما يمتلك الإنسان مثل هذا الحس الحاذق الذي يمكنه وحده أن يؤدي إلى انبثاق الحقيقة من الصدمات الكثيرة الناجمة عن الأخطاء المتواترة المتولدة عن كر الزمان. لعلنا نقتصر هنا على التقاليد التي كشفت عن مهد هذه المستوطة لأنها تقاليد ترتبط، بشكل وثيق، بالخرافة والأساطير بحيث يصعب التمييز فيها بين الحقيقة والخيال.

لقد كانت جزيرة ثيرا Thera تعاني من عدة سنوات من القحط، وكان أهلها يتضورون من الجوع والجفاف والحرمان.

---

(1) ما كان دخول الإسلام بلداً علامةً على دماره، بل هو دين الحضارة والعمران (المترجم).

أشـار الـوحـي فـي دلـف Delphes الـذي ربمـا كـان علـى علـم بجملـة الأرغـونـات Argonautes، إلى خصوبة بلدة في ليبيا، وأصدر أمره لأحد المستوطنين المنحدرين من الأرغونات بالرحيل إلى تلك الأراضي المضيافة بغية التمتع بالخيرات والنعم التي حرم منها في موطنه الأصلي.

وصل باطوس ومستوطنوه، بعد عديد المحاولات غير المثمرة، إلى مكان تجاوز، بمجرد النظر إليه، ما وعد به الوحي.

كانت الغابات تظلل هذا المكان، وترويه العيون، ويمتد في سهل شاسع من جانب وينحدر في شكل مدرجات تتجه نحو البحر من الجانب الآخر.

قام الليبيون بأنفسهم وكأنهم يساعدون على تحقيق نبوءة الوحي بدعوة هؤلاء الإغريق للإقامة في تلك الأراضي السعيدة «أيها الأجانب قال لهم الليبيون تعالوا وشاركونا آمنين ما حبتنا به الطبيعة. إن القبة السماوية مفتحة بماء منهمر حيث ينزل الغيث لإخصاب الأرض، وتزيين الهضاب في أماكن. أما في الأماكن الأخرى، أبعد من أرضنا، فإن هذا الغيث شحيح ولا يمكن للمرء أن يرى سوى القفار الموحشة» ذلك هو المكان الذي حط فيه المستوطنون القادمون من ثيرا رحالهم وسرعان ما توجت جدران مدينة كبرى قمم الجبال، وأطلق على تلك المدينة اسم قرنه Cyréne. وبنفس الطريقة، ووفقاً لجميع الروايات اليونانية، نرى أن المؤرخين يتنافسون مع الشعراء في إحاطة تلك المدينة باستعارات وكنايات جميلة تتعلَّق بأصل هذه المدينة التي يعشقها أبولو.

نعم لا بد وأن يكون لأرض باسمة وتحيط بها الفيافي الموحشة من كل جانب مثل هذه، بما لها من مياه رقراقة صافية تنبثق من وسط المدينة ومن قلب كهف غامض، آلهة حامية تدير أقدار قرنه.

أجل لقد كان كل ذلك موضوعاً لاختراعات اسطورية وردت تحت أشكال متعددة.

يمكن أن نقارن بين مثل جوستان Justin ومثل الشاعر مانتو Mantou في هذه الأرجاء، كما يمكننا أن نفترض أن الربة قرنه التي تغنى بها الشاعر في أشعاره وهو يتجول على شواطىء أمبراطوريته السائلة «يقصد البحار... المترجم»، ربما تكون حطت رحالها في هذه البلدة لكي تتنفس فيها الصعداء وهواء نظيفاً يمثال نسيم الآتيك Attique «مقر آلهة اليونان القديمة.. المترجم». ربما دخلت ربة الجمال هذه إلى تلك المناطق السرية وفي

تلك الوديان الصغيرة الموحشة. قد يكون الإله أبولو قد لمحها، من فوق عربته، وقرر زيارتها فجأة في تلك الربوع التي قد تكون قد تحولت إلى ملاذ لرعاية حبهما.

نجد أيضاً في قصة أريسته Aristée موضوع عزوبة الآلهة قرنه التي ترعرعت في تلك الغابات الوارفة، وعلى قمم الهضاب التي رتع فيها النحل، ولذا آثرت أريسته بلاد أركاديا Arcadie بالعجائب التي كانت تحيط بها أيام طفولتها في أفريقيا.

رغم أن تلك الخرافات الكيِّسة تبهت وتذوي في أغلب الأحيان مثلها في ذلك مثل تلك المواطن التي كانت موضوعاً لتلك الخرافات، إلا أنها تضفي، مع ذلك، أهمية متزايدة على تلك المناطق التي تكون الآن مهجورة أو بين براثن سكان متوحشين.

إن مؤسس المستوطنة الذي كان يدرك سلطان الدين الفتان على الأخيلة الحية للشعوب التي كان يرأسها، وضع غاية سامية، بين ربوع مملكته الفتية، هي عبادة الآلهة: لقد قام بغرس الأشجار قرب المدينة، وقرب أماكن العبادة، وتم تشييد معبد رائع أمام كهف الربة قرنه حيث تم تكريسه إلى الاله أبولو، تصان في داخله النار الأزلية بينما تملأ أرجاءه تموجات الينبوع وخرير مياهه.

أضاف باطوس بعد ذلك إلى تلك الهياكل الدينية مؤسسات سياسية تهدف إلى توثيق عرى الوحدة بين رعاياه، وتذكرهم بمواطنهم الأم بكل الأعياد الكارنية Carnéennes التي كانت تحتفل بها أسبرطه في اليوم السابع من شهر كارنيوس Carneus.

كانت الناس، في ذلك العصر المجيد، تترك أعمالها وبيوتها وتنتقل معاً دونما تمييز في العمر أو الجنس أو المكانة إلى سهل فسيح قرب أشجار Théon الشيح العتيقة وأشجار الشمارى Sliquiers ذات العقد. هنا في ظل هذه الأشجار تنظم رقصات عسكرية بعد تقديم الابتهال إلى الآلهة والتقرب إليها بأضاحي «قرابين» رسمية. قام سكان قرنه، اعترافاً منهم بتلك النعم عند وفاة أول ملوكهم، بتأبينه والإشادة ببطولاته بل وكانوا يسعون، عن طريق الشعارات الإبداعية، إلى تكريس السلام الداخلي والازدهار الخارجي، اللذين تمتعت بهما المستوطنة تحت حكمه السعيد، فكرسوا نبتة السليفيوم Sylphium له وحده وهي رمز ثرائهم، ونصبوا له ضريحاً في طرف سوق المدينة لكي تنعم روحه بالمشهد اليومي «للمؤتمرات الشعبية» ولكي تظل ذكرى فضائل هذا الملك الطيب خالدة في نفوسهم. لقد بشر حكم أول ملوك الأسرة الباطية قرنه بسنوات طوال من السلام والرخاء والسعادة، غير

أن خلفاءه الذين لم يحذوا حذوه، كانوا جميعاً، كما قال الشاعر بندار Pindare طغاة ومستبدين، جاحدين وقساة وتعساء. إن قصص التأريخ تتفق مع ما ذكره هذا الشاعر.

في الواقع، رغم أن المستوطنة قد وسعت، بعد بضع سنين من إنشائها، رقعة أراضيها عن طريق طرد القبائل الليبية، وإلحاق هزيمة بالقوات المصرية التي هبت لنجدتها، إلا أنها تعرضت إلى قلاقل نجمت عن الشقاق بين ملوكها الذين لم يوفقوا في تحقيق الرخاء مثلهم في ذلك مثل الشعوب التي جاؤوا لبسط حكمهم عليها. توجه سكان قرنه، بعد أن أصابهم الذعر جراء تلك القلاقل، إلى مشرع «رجل قانون» من مدينة مانتينيه Mantinée يدعى ديموناكس Demonax.

لقد استجاب هذا المشرّع إلى توسلاتهم وقسّم الشعب في قرنه إلى ثلاث قبائل، وأعاد إلى الشعب اختصاصاته التي اغتصبها الملوك، ولم يمنح الحكام والملوك سوى أراضيهم الملكية وسلطانهم الديني. لم تصمد، مع ذلك، كافة هذه الحلول والتسويات التي جرت عندما كان الملك باطوس الثالث طفلاً صغيراً وقاصراً، إلا في عهد هذا الأمير بعد بلوغه الحلم.

حاول ابنه أريسيلاس Arcésilas الثالث، الذي شعر بالغيرة على أملاك أجداده، رغم خضوعه لقمبيز ملك الفرس، واضطراره لدفع أتاوة إليه، أن يقوض هذه المؤسسات الشعبية، لصالح طرف واحد، وهي المؤسسات التي قام بوضعها ديموناكس.

لقد فشل في تحقيق هذا الهدف. ثم أجبر ثانياً على الهرب إلى ساموس Samos وهناك حشد جيشاً كبيراً، وقفل عائداً إلى قرنه، ونجح في استعادة سلطته الملكية.

ما كاد هذا الملك يستعيد سلطانه حتى أطلق العنان لانتقامه الشخصي، ثم هلك بعد ذلك بقليل نتيجة لقسوته وجبروته وذلك في مدينة بارقي Barcé «المرج حالياً». لقد أدت هذه المنية إلى حملات ثأرية وانتقامية من أشد حالات الثأر التي ذكرها التاريخ عنفاً.

لم تشعر والدة أريسيلاس الثالث بأي خيبة عندما طلبت جيوشاً من ملك سلامين Salamine الذي أرسل إليها مغزلاً من ذهب Fuseau d'or بدلاً من القوات المطلوبة. لقد نجحت في أن تكسب تأييد ملك الفرس آرياندس Aryandés في مصر. بعد أن قادت قواتها في قرنه، توجهت بعد ذلك إلى مدينة بارقي، واحتلت، عن طريق الخديعة، منطقة لم تستطع الاستيلاء عليها بقوة السلاح.

إن فيرتيم Phérétime التي انقادت وراء غريزة الانتقام الأعمى، لم تدخر حتى أعضاءها التناسلية. لقد كانت على درجة كبيرة من العنف بحيث لم تتورع في إصدار أوامرها ببتر نهود زوجات أعيان بارقي وتعليقها على أسوار المدينة.

إن ما يثلج الصدر حقاً هو أن مثل هذه الفظائع لا تمر دون عقاب، فبعد انتصارها المجيد والمؤزر هلكت هذه الحاكمة المقيتة بطريقة بائسة جداً حيث التهمت الديدان جسدها أمام أولئك الذين لم يكونوا خلال هذه الحملة الطويلة والباهظة، رغم خبث نواياهم، سوى أداة لانتقام امرأة «يقصد الفرس. . المترجم». استمر حكم الأسرة الباطية نحو مائتي عام، غير أن سكان قرنه الذين أعيتهم التشنجات التي هزت المدينة بحثوا عن شكل آخر من أشكال الحكم، عن السكنية والسعادة اللتين ابتعدتا عنهم. لقد ظنوا أنهم حصلوا على ضالتهم عندما حكموها بأنفسهم. رغم أن التأريخ لم يترك لنا إلا معلومات أولية حول الأحداث التي وقعت في المستوطنة التي أصبحت مستقلة وتحولت إلى «جمهورية» مستقلة. يكفي هذا الكم اليسير من الحقائق لإعطائنا فكرة عن الوقائع والأحداث التي قبعت في الظل. فتح الأسكندر المقدوني مصر وتقدم نحو ليبيا لزيارة الوحي في واحة آمون «سيوه الحالية. . المترجم».

قام سكان قرنه بإرسال مبعوثين إلى الفاتح المقدوني يحملون معهم تاجاً ذهبياً وهدايا كثيرة نفيسة. لم يحتقر الاسكندر الأكبر تلك الهدايا بل وعقد معهم حلفاً، وتبع المبعوثين حتى معبد آمون. رفعت الحرب التي نشبت بين برقه وقرطاجه، بسبب النزاع على الحدود بين الدولتين، من مكانة برقه السياسية، فالجميع يعرفون أن هذه الحروب قد توجت بالاخلاص الوطني للأخوين فيلين philaenes، غير أن برقه كانت تنهار من الداخل بسبب القلاقل التي عزيت إلى عيوب تنظيم الحكومة. نظراً لتلك القناعة، لجأت برقه إلى أفلاطون[1] platon ورجته أن يسن لها قوانين أفضل، ولكن ذلك لم يُجْدِ لأن انقساماتهم الناجمة عن ثرائهم الفاحش تجعلهم في حاجة للإعداد والابتلاء من قبل المحن. هكذا رد الفيلسوف على هذا الطلب.

---

(1) قام سكان قرنه بالتوسل إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون لكي يسن لهم قانوناً مكتوباً، ويرسم لهم مخططاً لحكومة جديدة، غير أنه رفض هذا الرجاء قائلاً «من العسير صياغة أي قانون لسكان قرنه لأنهم أثرياء جداً ومنعمون جداً، ولأنه من العسير جداً بل وفي غير متناول اليد، أن يتم ترويض وسياسة أي شخص مقتنع بأنه سعيد» انظر كتاب بلوتارك Plutarque حياة لوكولس، ترجمة اميو المجلد 5 ص ـ 59 La vie de Lucullus - Tard. d'Amyot. T.V.P.59.

وقع سكان قرنة وبرقة بسبب ضعف مؤسساتهم تحت نير العديد من الطغاة، ويمكننا أن نحكم على ذلك من خلال التمرد المذعور الذي وقع نحو عام اربعمائة «400» قبل الميلاد، بقيادة أريستون Ariston الذي نكل بكافة أبناء الطبقة الارستقراطية تقريباً. يمكننا أيضاً أن نذكر الطاغية نيوكراتيس Neocratis الذي تجرأ على ذبح وزير المعابد وأجبر أرملته للرضوخ إلى نزواته وشهواته، نظراً لعشقه لهذه المرأه المسماة ميناليب Mènalippe ورغبته في إشباع شهوته معها. لكن سخط الآلهة التي شعرت بالإهانة، أدى، في الحقيقة، إلى إنزال عقاب عاجل، وذلك بنفس سلاح الشهوة التي دفعته إلى ارتكاب تلك الفاحشة المرذولة. أدت كافة أعمال العنف واغتصاب السلطة إلى عملية نفي وإبعاد: ففي نهاية حكم الاسكندر المقدوني تم نفي عدد كبير من سكان برقه إلى بلدة ثيمبرون Thimbron بجزيرة كريت التي وجدت نفسها، بعد اغتيال هاربالوس Harpalus، تحوز خزائن الاسكندر بالإضافة إلى جيش جرار.

هكذا شرعت ثمبرون في الزحف على قرنه. وحاصرت هذه المدينة الثرية رغم انقساماتها، وخاصة بعد ما عرضت تقديم مبلغ خمسة آلاف مثقال Talents لإقناعها بالعدول عن هذا المشروع[1]. وفي هذه الأثناء، كان الرجل العظيم الذي أضاف إلى فن فتوحاته البراقة فناً آخر أجدى وأنفع تمثل في سياسته الرشيدة، قد فارق الحياة.

وبدأت امبراطوريته الشاسعة التي لم يكن بمقدور أحد سواه أن يتحمل أعباءها، في التحلل والتفكك رغم جهود القادة المجتمعين حول عرش العالم لدراسة عملية إيجاد خليفة له، فوضعوا على عرشه شيخاً هرماً، وابناً للراقصة فيلين philline لكن آريدس Arideé شقيق البطل «الاسكندر» لم يرض بذلك وأعلن نفسه ملكاً على الإمبراطورية. لكن آريدس فشل في حكمها نظراً لتوزيع ملك الاسكندر على رفاقه في السلاح فتحصل بطليموس على حكم مصر. رغم أن بطليموس لم يذهب إلى مصر إلا بصفة واليSatrape إلا أن طموحاته كانت أكبر من ذلك ولذا سعى إلى خطب ود المصريين عن طريق اللين الذي أبداه في إدارة تلك المقاطعة وذلك لتحقيق مأربه.

لم تتأخر هذه السياسة الحاذقة والمفيدة عن خدمة أغراضه حيث لجأ العديد من أعيان برقه من الذين طردوا من قرنه جراء تمرد شعبي وقع خلال حصار ثمبرون، إلى بلاط بطليموس في الاسكندرية.

---

(1) يعادل هذا المبلغ نحو 27 مليون فرنك ـ ديودورس الصقلي المجلد الأول الفصل 18.

اغتنم بطليموس هذه الفرصة بسرعة فائقة بغية توسيع سلطانه تحت ذريعة مزيفة تمثلت في إعادة حقوق «المنفيين» إليهم فأرسل إلى عاصمة إقليم المدن الخمس، جيشاً جراراً بقيادة «أوفله» Ophella.

لم يستطع سكان قرنه الذين كانوا يعانون من الانقسامات آنذاك صد هذا الهجوم الجديد مما أدى إلى سقوط قرنه.

حاولت قرنه، بعد ذلك عدة مرات أن تتحرر من ربقة حكم البطالسة وتمردت ضده غير أن آجيس Agis، أحد قادة بطليموس أخمد أول محاولة للتمرد. لقد تجرأ القرنيون على محاصرة الحامية الأجنبية في مدينتهم، ثم تبرأوا من المبعوثين الذين أرسلوا من قبل حاكم مصر لكي يوفقوا بين الحامية وبينهم.

كان القرنيون قد حققوا انتصاراً كبيراً أول الأمر، غير أن أوفله الذي تمرد على بطليموس وأصبح، بفضل هذا التمرد، حاكماً لبرقه وتحالف مع آغاثكليس Agathoclés الذي كان يشن حرباً على قرطاجة آنذاك، قد وقع ضحية لأسوأ خيانة. لقد أعد جيشاً جراراً وسار مع حليفه آغاثكليس لملاقاة ملك سراقوسه Syracuse، غير أن حليفه انقلب عليه وتحول إلى عدو لدود له، وقتله على رأس جيشه الذي راح ضحية لهزيمة شاملة جراء هذه الخيانة.

أصبحت قرنه، بعد هذا الفشل الذريع، عزلى، الأمر الذي دعا بطليموس إلى الوثوب على هذه المدينة وإخضاعها لسلطانه. كلف بطليموس ابنه مجاس Magas بإدارة المقاطعة وحكومتها تفادياً لأي تمرد جديد.

ظل هذا الحاكم مخلصاً وفياً لبطليموس سوتر Soter ولكنه أعلن عن تمرده بعد ذلك تحت حكم فيلادلف Philadelphe ومنح نفسه لقب ملك، بل وشن حملة عسكرية على مصر، لكن هذه الحملة توقفت بسبب تمرد حدث في منطقة مرمره «البطنان. . المترجم».

استمر إقليم المدن الخمس Pentapoles، بعد وفاته، تابعاً للدولة المصرية وحكوماتها المتعاقبة، وكان أول بطالستها قد انتخب حاكماً لمدة تسعة عشر عاماً «19» بعد وفاة الاسنكدر ثم منحت إلى الحاكم فيسكون Phiscon Evergete كأقليم حكم مشترك مع مصر إلى أن سلمها هذا الأخير إلى ابنه، غير الشرعي، آبيون Apion كمملكة مستقلة. وهكذا كان ينتظر برقه قدر جديد. لو أن الخبرة كانت تفيد شيئاً لكان من المفروض أن تعلم

سكان برقة كيف ينعمون أخيراً بهذا الاستقلال الذي أصبح ثميناً جداً لا سيما وأنه قد تحقق بفضل رعاية دولة كبيرة وسخية.

عندما جاء أجل آبيون، وجد نفسه ابتر دون ذرية أو وريث فقام، بسبب خشيته من وقوع برقه في أيدي المصريين الذين كان لا يحبهم، بتقديمها كإرث أو تركة إلى الشعب الروماني نحو عام ستة وتسعين «96» قبل الميلاد.

رحبت روما بتلك التركة غير أنها تركت الحرية لسكان برقه ولم تحتفظ لنفسها بصفتها الدولة الحامية، سوى بالأراضي الملحقة بأملاك الملك وهي في الحقيقة أراضٍ شاسعة. لكن قدر سكان برقه كان يتمثل في عدم قدرتهم على التمتع بالاستقلال، فقد نشبت بينهم الخلافات ودبت بينهم القلاقل مما أدى إلى حدوث انقسامات داخلية من جديد.

لم تجد جهود سيلا Sylla أيضاً، الذي أرسل من قبل لوكولوس بغية التوسط بينهم وتسوية خلافاتهم. لكن القائد العسكري سيلا، بعد أن ذكرهم برد أفلاطون، قام بمقارعة تعنت طباع سكان برقة بحكمة وبسن قوانين جديدة. رغم ذلك، لم يتوصل إلى تحقيق الهدوء والسكينة مما أجبر روما على تركها مجرد مقاطعة تابعة لها بعد نحو ثلاثين عاماً من تحريرها من السيطرة الأجنبية وذلك من أجل مصلحة السكان. بعد ذلك بوقت قصير، تم ضم برقه إلى جزيرة كريت وتم حكمها وإدارتها من قبل قائد عسكري كنائب عام Proconsul. أما نحو عام سبعة وثلاثين «37» قبل الميلاد رضخ انطونيو Antoine الذي كان يسيطر على الشرق بأسره لرغبة زوجته كليوباترا، فقام بفصل برقه عن الإمبراطورية ونصب عليها، كمملكة مستقلة، ابنته. لكن هزيمته في موقعة أكتيوم Actium دفعت برقه إلى الاعتراف بسلطة وسيادة أغسطس قبل أن يؤول إليه حكم مصر، وتحولت بعد ذلك إلى مقاطعة تابعة للشيوخ Senat يحكمها قاضٍ Préteur.

ومنذ ذلك الحين، بدأت برقه تشاطر روما نفس الحظ والمصير، فقبل أن نراها تسقط مع هذه الإمبراطورية، وتقع أخيراً في أيدي قبائل همجية[1]، دعونا نلقى نظرة على نظامها الداخلي وتنظيمها، ونبحث معاً، إن أمكن ذلك، عن مبررات هذا الثراء الفاحش، رغم تلك الانقسامات وكذلك مبررات هذه الانقسامات رغم هذا الرخاء والازدهار.

---

(1) يقصد الفاتحين العرب.. ومن الافتئات على التاريخ تسميتهم بـ«قبائل همجية» المترجم.

بعد تأسيس قرنه قامت مدينة بارقي، وهي مدينة ليبية وضاحية لقرنه، باستقبال أمراء العائلة المالكة الذين تمردوا على ارسيلاس وتحولت بعد ذلك إلى مدينة كبيرة. استمر ملوكها في حكمها وكان سكانها خليطاً من الليبيين والاغريق وذلك حتى العصر الذي تمكن فيه البطالمة «أو البطالسة. . المترجم» من إنشاء مدينة أخرى على الشاطىء المجاور لها حيث أطلقت عليها الأسرة المؤسسة لها اسم بطليموسة «طلمثية الحالية».

جذبت بطليموسة إليها إغريق بارقي «المرج» التي تركت بأسرها لسكانها المحليين من الليبيين حيث عاد أغلبهم إلى نمط حياتهم البدوية.

بدأ سكان بارقي يثيرون قلق بقية مدن الإقليم نتيجة لغزواتهم المدمرة التي أكسبتهم شهرة لدرجة أن فيرجيل Virgile قال بأن ذكر هذه البلدة قد ملأ أرجاء المنطقة. لقد كانت قرنه تسمى أيضاً «أصل المدن» وقامت بإنشاء أبولونيا «سوسه الحالية» ثم مدينة توخيره «توكره الحالية» ولم تكن أبولونيا في أول عهدها سوى ميناء للعاصمة قرنه ولم تصبح مدينة مستقلة إلا تحت حكم البطالسة.

أما المدينة الثانية توخيره التي سميت بعد ذلك أرسينوى Arsinoé فقد تحولت إلى مستوطنة رومانية نحو سنة «122» مائة واثنتين وعشرين قبل الميلاد. كانت هيسبيريدس «بنغازي» التي عرفت أكثر باسم «برنيقه» Berenice وذلك على اسم ابنة ماجاس وعلى اسم زوجة البطليموس الثالث، المدينة الخامسة في برقه التي تكمل ما يسمى هكذا بإقليم المدن الخمس الليبية. هناك العديد من المدن والقرى الأخرى مثل دارنيس Darnis «درنه الحالية» ومدينة هادريان أو آدريان «دريانه الحالية» ومدينة ليمنياد «قد تكون لملوده الحالية» وغيرها، بالإضافة إلى العديد من الضياع والقرى الصغيرة التي أنشئت في أوقات لاحقة في عصور شتى[1].

لم يُعْنَ التأريخ القديم كما شاهدنا، بعلاقات الشعوب القديمة بعضها ببعض فلا

---

(1) لا أتفق مع المؤلف في هذا الشأن لا سيما فيما يتعلق بمدينة درنه لأنها من أول المدن التي أنشأها الفينيقيون في برقه، قبل لبده وأويا وصبراته. لقد بناها الفينيقيون وهم في طريقهم إلى إقليم المدن الثلاث وأسموها «ديمسي زارين» ـ أنظر دائرة المعارف الإسلامية، فقرة Darnah ـ زد على ذلك تأكيد نزول الاغريق بها بعد جزيرة بلاتيا ثم استقرارهم فيها ثم نقلهم منها ليلاً إلى قرنه من قبل السكان. وعليه نعتقد أن درنه قد أسست قبل كل المدن الليبية الشرقية منها والغربية «المترجم».

يمكننا تتبع سلسلة أعمالهم، ولكنه اقتصر على ذكر بعض المنازعات. وإذا كان التأريخ قد أثار هذه العلاقة بشيء من الحيوية فإنه يردها إلى سلسلة من التناحر والتطاحن. ونتج عن هذا النسق التأريخي الزائف استقطاب التطاحن الداخلي ولا سيما الحروب الشعواء، لانتباه التأريخ بشكل خاص الأمر الذي لا يعتبر السنوات الطويلة من السلام والاستقرار سوى بمثابة ركود عقيم يعزف التأريخ عن التطرق إليه أو النهل من معين وقائعه المرشدة.

كم كان سيكون من الممتع حقاً، مع ذلك، أن نتعرف على العلاقات التي أقامها سكان قرنه مع موطنهم الأصلي، غير أن شاعراً ما قد أفادنا بأنهم كانوا يرسلون إليها ـ أي إلى بلادهم ـ أموالاً Théores كل سنة، كما يقدمون إليها باكورة إنتاجهم من الفواكه. ألم يحتم تقارب الأوضاع وتشابهها قيام روابط بين القرنيين وغيرهم من الدوريين Doriens المعزولين مثلهم في أراضٍ أجنبية؟ ألم يوجب تبادل المصالح ذلك؟.

من المدهش مثلاً أن نلاحظ ورود أسماء مثل كابلس Cablaes وعراروسيلاس Araraucélas في قرنه وفي آسيا الصغرى رغم أن تلك التسميات تشير في قرنه إلى قبائل ليبية وفي آسيا الصغرى إلى مناطق أو مدن. لكن التشابه في التسمية قد يشير إلى وجود علاقات ومبادلات تجارية بين هذه الشعوب التي تنتمي إلى نفس الأرومة والأصل. كان ينبغي على التاريخ، بصورة خاصة، أن يخبرنا عن تجارة قرنه مع أثيوبيا Ethiopie أي دواخل أفريقيا.

إن واحة أمون، تلك المستوطنة التي أقامها تجار ورجال دين في قلب الصحراء تمثل مستودعاً نافعاً ومفيداً لمثل هذه التجارة. إن علاقة آمون بقرنه لا تدع أي مجال للشك فالأعمدة المنصوبة على شرف أعيان وأثرياء قرنه Théores، بالإضافة إلى تقاليد تأريخية أخرى، خير دليل على تلك العلاقات. هل يمكننا أن نتصور أن قرنه قد اقتصرت في علاقاتها على المجال الداخلي الليبي؟ ألم تتمكن قرنه من إرسال قوافلها التجارية، رغم كونها أقل خبرة ومهارة من قرطاجة، إلى مناطق نائية؟.

وإذا كانت قبائل الناسامون تقوم بخدمة مصالح منافستها قرطاجة، ألا يحتمل أن تكون قبائل الأوشيز Auchise أو الأسبيت Asbytes قد أدت نفس الخدمات ونفس العون إلى قرنه؟.

إن احتمال هذه الفرضيات الأخيرة وثيق جداً خاصة إذا أخذنا في عين الاعتبار ضخامة تجارة قرنه التي اخترعت الليمبوس Lembus وهو عبارة عن سفن تدفعها

ستة عشر[1] مجدافاً (16) وذلك من أجل تنشيط حركتها التجارية ودعمها. لقد كانت هذه التجارة متاحة جداً لأسباب هي الأخرى قوية جداً ومنها خصوبة التربة والموقع المناسب الذي جعلها تعاقب بين المحاصيل طيلة ثمانية أشهر من السنة (8) ووجود نباتات نفيسة خاصة بها أو منتشرة في أراضيها.

لقد كان الريف في قرنه مقسماً إلى ثلاث مناطق خصبة وذلك في تعاقب موسمي نادر وثمين. ما يكاد المرء ينتهي من الحصاد وجني الكروم على ساحل البحر حتى يذهب إلى الهضاب وقت نضوج الفواكه بالكامل، ثم يذهب بعد ذلك إلى قمم الجبال التي حبتها الطبيعة بنفس المزايا في المرحلة الثالثة من هذه الخصوبة. إن غابات أشجار Thyons الكثيفة الموزعة على سفوح الجبال في إقليم المدن الخمس، تقدم أخشابها العبقة إلى سكان قرنه لصناعة الأثاث الفاخر والموائد الضخمة التي تستعمل أثناء احتفالات باكوس Bacchus. وفي ذات الوقت، نجد أن نبات السلفيوم، الذي يساوي الفضة آنذاك والذي يقوم القياصرة بإخفائه في خزائنهم، ينمو بوفرة وغزارة في المناطق غير المزروعة من هذه البلدة السعيدة.

إن الكنوز الكثيرة التي قدمتها الطبيعة، وبسخاء كبير، إلى بلاد تحيط بها الصحراء من كل جانب لا بد وأن تزيد من قوة السكان وأن تغمرهم بالترف واللذة. في الحالة الأولى، كان من الممكن أن يؤثروا على الحضارات الأفريقية بفضل توصيل نور الفنون والآداب إلى الدواخل عن طريق حملات شديدة أو أهداف خيرية. وفي الحالة الثانية، يكتفي القرنيون بالتمتع، تحت ظلال الأشجار الوارفة، بخيرات أرضهم، وصد شراذم البدو عن موطنهم الهادىء.

ولما كان القرنيون لا يأبهون بالأمجاد فقد فضلوا الحالة الثانية وأطلقوا لأنفسهم عنان الشهوات واللذة. لقد ملأت مسابقات العربات والموائد الفاخرة والأغاني الشادية والرقصات والأفراح البهية كل حياتهم الكسولة. في الوقت الذي كانت فيه قرنه ممزقة بين عدة طوائف وكانت تكتسح من قبل الجيوش الأجنبية، كانت صرخات الحبور في هذه الأفراح تطمس صرخات السياسة، وكانت الرقصات الإباحية تدور حول صلصلة الأغلال التي كانت تهدد وطنهم.

---

(1) بلينيوس ـ المجلد 1 الفصل 8. 8. Pline. L. 1 Sec.

بالغ القرنيون في ترفهم ولهوهم وانغماسهم في الشهوات. لقد شمل ذلك حتى الفنانين وخاصة الذين يمارسون الفنون التافهة. أما اللذة فقد اقترن اسمها بهذه البلاد بل ولقد تم تكريسها في شكل «طائفة» من قبل الفيلسوف اريستيبوس Aristippe الذي كان، ويا لها من مفارقة غريبة، تلميذاً لسقراط.

«إن التصدي لسوء الطالع والاستسلام غير المبالي والتضحية بالصالح الشخصي من أجل الصالح العـام عبـارة عن أوهـام زينت على أساس أنها فضائل. . . الاغتنام السريع للذة العابرة. . . عدم الانشغـال بالحاضر، وعدم القلق إزاء المستقبـل أو الماضي. . . تركيز اللذات، باختصار شديد، على المتعة في حب الذات وإحاطة الحياة بالورود التي يجب استنشاق عبيرها دون مس شوكها». تلك هي التعاليم الأساسية للطائفة القرنية أو القورينية.

لعل المرء يدرك أن انتشار مثل هذه التعاليم في أي مجتمع، يؤدي حتماً إلى إضعاف أواصر الترابط أكثر مما يؤدي إلى توطيد عرى وحدته التي تكون أساس قوة الدولة. وإذا كانت تلك التعاليم لم تناسب قورينه تحت حكم الملوك، فإنها قطعاً لا تناسبها وهي جمهورية مستقلة.

نعتقد أنه من قبيل الحشو أن نؤكد على أن كل من أسبرطه وروما لم تحصلا على درجة عالية من القوة التي مكنتها من السيطرة على العديد من الدول، من تلك التعاليم.

إن الفقر يضعف القوة، والتقشف الأخلاقي يوطد هذه القوة وإن اتحادهما يزيد من العظمة. لقد كان الفلاسفة قبل اريستيبوس من أمثال كارنيادس Carnéade وإراستوثينوس Erastothéne يشيعون تحت أروقة قرنه، أخلاقاً أسمى وأنقى ولكن ما هو يا ترى تأثير الأفكار العلمية السامقة والتعاليم الفلسفية الراقية على عقول تعكر صفوها، وعلى رجال يتلهفون على المتعة؟ لقد كان النزق موجوداً وكان هؤلاء الحكماء «الفلاسفة» يمثلون بلادهم دون أن يؤثروا على أخلاقياتها وآدابها.

لذا وجب علينا أن نتخلص من دهشتنا إزاء القورينيين لأنهم لم يستطيعوا، إذ اطلقوا لأنفسهم عنان اللذة، وهم في هذا الثراء الفاحش، تحمل أعباء الحرية التي اتيحت لهم في أغلب الأحيان مثلهم في ذلك مثل الأطفال المدللين لا يعصون كل كابح أمامهم إلا لأنه يعرقل نزواتهم ولكنهم يتعثرون حالما يتمكنون من قطعه وإزالته. عندما أصبحت قرنه إحدى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية فقدت شكلها الأصلي وتحول سكانها، بالإضافة

إلى القبائل الليبية من حولها، إلى خليط من الإغريق والرومان واليهود.

كان البطليموس سوتر Soter أول من أرسل اليهود لاستيطان برقه حيث تكاثر عددهم بسرعة فائقة بعد ذلك وارتبطت روما بمعاهدات قديمة مع اليهود ودأبت على تجديدها خلال كل ولاية بابوية جديدة. كانت روما تشجع زيادة عدد اليهود في مقاطعتها لا سيما في قورينه. كما شملت رعايتها يهود الضفة الغربية «يهودا والسامرة» بصورة خاصة.

إن اليهود الذين يزدرون الشعوب الأخرى ولا يتسامحون مع معتقداتهم الدينية، وهذا ما جعلهم مكروهين بين الشعوب التي يعيشون معها، حاذقون في ملاطفة السلطات العليا ولذا تحصلوا منها في عدة عصور على مراسيم وقررات مؤيدة لهم. أكد لهم يوليوس قيصر، الذي اعترف لهم بحسن الصنيع على خدماتهم له في حربه ضد مصر، الامتيازات التي كانوا قد تلقوها من الشيوخ بل ومنحهم ميزات ومزايا وامتيازات جديدة.

إن يهود برقه الذين كانوا يخضعون لسلطان كاسيوس Cassius أو لسلطان بروتس Brutus لم يتمتعوا بتلك الحقوق ولم يتحصلوا على هذه الحقوق إلا في أعقاب حرب فيليب Philippes حيث أصدر انطونيو مرسوماً يقضي بتمكينهم من التمتع بتلك الحقوق المذكورة. كانت امتيازات اليهود التي نصت عليها القوانين عبارة عن استثناءات خاصة بهم مثل «تكوين المجالس اليهودية» وتصدير «الفضة» وغيرها وهي أمور مسموح بها لهم ومحظورة على غيرهم من الرعايا.

كانت تلك الامتيازات تهدف إلى تسهيل اجتماعاتهم الدينية وتسهيل عملية نقل الأموال السنوية إلى القدس «بيت المقدس» وكذلك تحويل أموال الضرائب التي كانوا يدفعونها إلى المعبد[1].

وعندما تم رفض استخدام هذه الحقوق في قرنه في مرة من المرات سارعوا إلى تأمين دعم ومساندة آغريبا Agrippa الذي أمر حاكم ليبيا «القاضي» صراحة بضرورة تعويضهم على الخسائر التي لحقت بهم. كان يهود برقه، على ما يبدو، قد تمتعوا بممارسة حقوقهم بكل رصانة تحت حماية روما..

---

(1) كانت اليهود تعمل في كل وقت وعصر من أيام سيدنا إدريس عليه السلام وأيام السبي في بابل مروراً بأيام قرنه الغابرة، على استيطان فلسطين وبيت المقدس. من يدرك درجة هذا الجلد والمثابرة لا بد وأن يأسف جداً على الخوار والوهن الذي ضرب على أمة العرب «المترجم».

نحن نعرف أنهم كانوا يحظون سنة ثلاث وثلاثين قبل الميلاد[1] «33 ق. م» بمعاملة حسنة في إقليم المدن الخمس، وأنهم كانوا يقطنون برنيقة «بنغازي» بصورة خاصة. كانوا يشكلون فيها تجمعاً سياسياً يحكمه أركونت Archontes.

أساء اليهود استخدام هذه الحماية فيما بعد وشجعتهم على ذلك الزيادة الكبيرة في عددهم.

لقد حاول اليهود الاستيلاء على السلطة وتسببوا تحت حكم كل من تراجان Tragan وأدريان Adrian في فظائع مروعة ومريعة. لقد أقام اليهود، وفقاً لاستقرائنا للتأريخ، بتدمير المقاطعة عن طريق المجازر التي ارتكبوها فيها مما أدى بأدريان إلى إرسال جاليات جديدة لاسكانها فيها بعد إبادة سكانها من قبل اليهود. لكن ديناً جديداً، كان قد ولد بالشرق، قبل ذلك بوقت طويل، وانتشر في قرن واحد، بسرعة عجيبة، حتى وصل إلى أبعد مقاطعات الإمبراطورية الرومانية.

حاول نيرون Néron وخلفاؤه، دون جدوى، إعاقة تقدم هذه الديانة «النصرانية ـ المترجم» غير أن كافة الوسائل المستخدمة كانت تؤدي، على النقيض من ذلك، إلى انتشارها. كلما اشتد الاضطهاد وتجدد، زادت بطولة آباء الإنجيل الأوائل حيث سقط الشهداء بالجملة ولكن سرعان ما يظهر غيرهم من كل حدب وصوب.

حققت هذه الديانة بعد ذلك نصراً مؤزراً تحت حكم الإمبراطور قسطنطين العظيم Le Grand-Constantin الذي اعتنق هذه الديانة وأراد أن يشيد عاصمة لإمبراطوريته على أن تكون جديدة ولم تشهد من قبل أوثان الكفر وشيد القسطنطينية. بدأت القرارات والمراسيم تخرج من بيزنطه وتنظم شؤون ومقادير كافة الشعوب. لقد وصلت النصرانية «المسيحية» إلى قرنه منذ القرون الأولى، ثم قضى الصليب في هذه المقاطعة على هياكل الأوثان وارتفع على أنقاض الديانة اليهودية وذلك تحت رعاية وإشراف الإمبراطور «جوستينيان الورع».

لقد كانت مدينة بوريوم Borium الواقعة في الطرف الغربي لاقليم المدن الخمس

---

(1) هذا هو التأريخ الذي حدده فريريه Freret للنقش اليهودي الذي عثر عليه في برنيقة. لكي يتم التأكد من صحة ذلك كان علينا أن ننتظر مقدم العلامة فرجيل شامبليون الذي قام بإعداد طبعة جديدة لكتاب فيريره ووعد بأنه سيدرس قريباً فحوى هذا النقش وهذا التأريخ وفقاً للمعلم الأثري الذي يوجد بحوزته.

معبداً يهودياً وكان اليهود يؤكدون على أنه يرجع إلى عهد الملك سليمان، ثم تحول إلى كنيسة مسيحية واعتنق أنصار الناموس القديم «أي اليهود» رسالة الرجل الإله «يقصد عيسى عليه السلام» الذي جاء بها للأرض.

لقد انتشرت المسيحية أيضاً، إذا صدقنا مؤرخ الإمبراطور جوستينيان، في رمال ليبيا وانتشر نورها حتى بلغ المعبد السري في آمون حيث أقام الجثمان المقدس في هيرودول Hierodules بالاستغفار والتحلل من أخطائه وحيث التزم الوحي الذي قام بتأليهه حتى فتح العالم، الصمت المطبق، وتم تكريس هذا المعبد لوالدة النبي المنقذ والمغيث «يقصد السيدة مريم البتول رضي الله عنها ـ المترجم» ولم يعد المرء يسمع بعد ذلك سوى الابتهالات التي توجه إلى الرب الحقيقي والوحيد لهذا الكون. لكن ومهما كانت عظمة الانتصارات التي حققتها الديانة المسيحية، فقد ارتفعت جمهرة من الأصوات بأفكار متباينة، بعد ظهور المسيحية بقليل، تتعلق بتأويل المسيحية وتفسيرها.

بغض النظر عن الانشقاقات الدينية التي فتَّتت أنصار المسيحية مهما كانت مذاهبهم، ظهرت طوائف كثيرة شوهت، بهدف إتمام المسيحية، هذه الديانة لدرجة أنها قد تأخرت إلى أعلى درجات الإلحاد. نذكر من بين تلك الطوائف الدينية التي انتشرت طائفة غامضة تسمى طائفة الكاربوقراطية[1] على اسم مؤسسها كاربوقراط Carpocrates الذي كان يقطن الإسكندرية خلال فترة حكم أدريان.

انتشر عدد كبير من تلاميذ كاربوقراط في برقة وهكذا شهد إقليم المدن الخمس الليبية بداية ظهور أخلاقيات مختلفة وتعاليم أكثر إباحية من تلك التي كانت منتشرة في عهد اريستيبوس الإباحي.

لقد استعاض عن أخلاقيات الإنجيل التقشفية بقوانين دينية وظيفية وأحال عملية الامتلاك الحر للمرأة مثل جميع الممتلكات الأخرى إلى عقيدة دينية.

وتم نصب معالم أثرية لمثل تلك التعاليم التي وجد عليها اسم المسيح المقدس منقوشاً جنباً إلى جنب مع ثوت Thot وجوبيتر Saturne «المشتري» وزرادشت Zaroastre وفيثاغور Phytagore وابيقور Epicure وماسداسيس Maçdacés.

---

(1) انظر كتاب مذكرات حول اللاأدرية تأليف مالير. Maller, Mémoires sur les Gnostiques.

ظلت الكاربوقراطية في برقة، وفقاً لهذه المعالم الآثرية، حتى القرن السادس حيث أدت الأعراف والتقاليد التي تبناها أنصار هذه المدرسة، إلى فقد، كوباد Cobad ملك الفرس لعرشه وحياته، نظراً لرغبته في إدخال تعاليمها إلى بلاده بتحريض ماسداسيس الذي يعتبره الكاربوقراطيون نبياً.

إن من حق المرء أن يشعر بالدهشة أمام السماح لمثل هذه التقاليد الإباحية المخزية أن تتفشى في مجتمع متديِّن كهذا حتى وإن كانت تعرف بتفشيها لدى الأنباط Nabatéen دون أن تعكر صفوهم. فقد كان الأنباط في ذروة الوئام والاتحاد وقدوة في هذا المجال[1]. هكذا يطرح تأريخ المجتمعات البشرية أحياناً مشكلات تشكك في كلية أو شمولية المبادىء التي تتعلق بأغلى المشاعر الإنسانية والأحاسيس السامية.

كانت قرنه تتجه بسرعة مذهلة نحو الانحطاط الشامل، فقد قسمت إلى مقاطعتين - قورينه العليا وقورينه السفلى - «الوجه البحري والوجه القبلي أفضل.. المترجم» وكان يحكم كل منطقة منها دوق.

لم يعد للعاصمة قرنه، في القرن الخامس، أبان فترة حكم الإمبراطور أركاديوس Arcadius أي ذكر سوى الأطلال الشاهدة على وجودها وكان أحد القساوسة، من تلاميذ الأب هيباتيا الاسكندري Hypatia d'Alex، يشيد عندئذ بذكرى الفلاسفة فيها.

لقد كان سينوسيوس القوريني أحد شهود العيان على الكوارث التي وقعت في هذا الإقليم التي حولته إلى قفار موحشة. كان يقف على الحطام ويرفع صوته، دون طائل، للاستغاثة برئيس الإمبراطورية. لكن ماذا يجدي صوت فيلسوف واحد في تلك العصور التي انشغل فيها أحفاد القيصر بدقائق المسائل الدينية أو بتلك التي فرقت فيها النزاعات بين الأمم والشعوب.

لم يكن زراع المآسي الرئيسيون في إقليم المدن الخمس سوى أولئك الشراذم من الهمج الذين كان من السهل طردهم إلى الدواخل[2]. لقد نجح في السابق نحو أربعين (40) من جنود الهونز Huns الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان، من صد تلك القبائل

(1) انظر سترابو. الكتاب 1 مجلد 16 القسم 3. Strabon. L. I.XVI,C.3..3.

(2) يقصد القبائل الليبية المحلية.

وإجبارها على التوغل في الصحراء. كان ذلك هو مدى إهمال أباطرة الروم لإقليم المدن الخمس الليبية. لقد أخبرنا سينوسيوس القوريني أن عصابات من قبيلة أوسوري Ausuri الليبية قد انتشرت في ذلك الإقليم في نفس القرن. كان عدد هؤلاء كبيراً جداً لدرجة أنه لم يكن بوسع أي جبل مهما كان شاهقاً أو وعراً أو حصناً مهما كان منيعاً أن يصمد في وجه غزواتهم المدمرة. لقد أصبح كل شيء فريسة لغزواتهم فقاموا بنهب وسلب المدن والمعابد ولم يدخر جشعها حتى قبور الأموات. كانت النسوة المولولة الناحبة يركضن ليلاً خارج البيوت ويلذن بالغابات، ولكن لم يحل جنح الليل الدامس، أو كثافة الأشجار، دون غضب أبناء تلك القبيلة. كانت أكبر الثروات عندئذ تتمثل في قطعان الأغنام والأراضي الخصبة التي تحيط بها الأرياف الزاهية غير أن تلك الأرياف قد وقعت، هي الأخرى، فريسة سهله لألسنة اللهب. أما قطعان الأغنام، فمنها ما نفق أثناء تلك الحرائق المريعة، ومنها ما تم اقتياده مع السكان من الجنسين كعبيد وسبايا إلى أعماق الصحراء. بالإضافة إلى أعمال السلب والنهب التي قام بها هؤلاء الهمج[1].

نجد أن الحكام في عهد ثيودوزيوس الثاني Theodose II قد استسلموا للفساد والرشوة وذلك خلال عجلتهم في ابتلاع آخر فتوحات إقليم المدن الليبية الخمس الذي بدأ يأخذ في الاندثار عندما قام احتلال أخير بتغيير قدر قورينه إلى الأبد واستكمل أعمال الدمار التي بدأها الليبيون. بدأ المسلمون الذين يمكن تفسير فتوحاتهم الخاطفة بسهولة، لقد كانت نتيجة سوء التدبير والوهن الذي يتميز به أباطرة الروم «بيزنطه» في اكتساح أبعد أقاليم الإمبراطورية البيزنطية.

---

(1) ألا يذكرنا هؤلاء الأوسيون الذين ذكرهم سينوسيوس فقط حسب علمي «الرسالة 299-301 Casta 78 بتأويل Dion - Peta» بفضل التشابه في الاسم وقرب الموقع، بقبيلة «الأوسيون» Auseéns التي كانت تقطن، وفقاً لما ذكره هيرودوت «الكتاب الرابع صـ 180» على مشارف بحيرة تريتونيس Tritonis. إن سلوكيات هذه القبيلة العنيفة التي كانت تقدس، بصورة خاصة الربة منيرفا Minerve، تضفي درجة جديدة من الترجيح على هذا الاحتمال وفقاً لما ذكره نفس المؤرخ نرى أن هذه القبيلة كانت توزع بناتها، أثناء الاحتفالات التي تحييها على شرف هذه الربة، إلى مجموعتين ثم تطالبهما بالاقتتال بالأحجار والهرى في معركة عنيفة وتمنح في نهايتها المجموعة الفائزة دروعاً كاملة مصنوعة على الطريقة الإغريقية جزاء على شجاعتها. يقول هيرودوت في ختام روايته أن الليبيين قبل إنشاء المستوطنات الإغريقية بالقرب من أراضيهم، كانوا يحصلون على الدروع من مصر. إن هذه الملاحظة التي لا تدخل ضمن مقارنتي، يمكنها أن تكتسي أهمية كبرى، وتبدو لي جديرة بإثارة ملاحظات أخرى.

قام عمرو بن العاص الذي كان يحظى بدعم الأقباط بالاستيلاء على مصر سنة 640م. سعت قرنه أولاً إلى التملص من النير الإسلامي ووفقت في ذلك المسعى بموجب معاهدة عقدت آنذاك مع الفاتح العربي. احترم عمرو بن العاص الالتزامات التي قطعها نحو سكان إقليم المدن الخمس وفرق بينه وبين مصر التي اعتمدت فيها الحياة، كما كان يقول، على نزق رغباته فقط.

لكن هذه المزايا كانت قصيرة الأجل، فبعد أعوام من استيلاء عمرو بن العاص على مصر، قام بنو أمية المنضوون تحت لواء محمد «صلى الله عليه وسلم ـ المترجم» بالمسير نحو برقه واحتلالها. استقر الأمويون في مدينة بارقى القديمة «المرج الحالية» التي كان يبدو أن قدرها، في جميع العصور، يتمثل في كونها ملاذاً للقبائل الهمجية. خلف العباسيون الأمويين بعد ذلك ثم خلف الفاطميون هذه الأسرة الأخيرة. كان المسيحيون في هذا البلد يعيشون في حالة من المعاناة حتى القرن التاسع ثم أجبر النصارى، خلال هذا القرن، على تركها خلال حكم الأسرة الفاطمية. كانت منطقة إقليم المدن الخمس آنذاك مجرد أطلال ولم تعد بارقي القديمة «المرج» سوى قرية صغيرة، أما مدينتا أجدابيا وسرت Sert الواقعتان على مشارف خليج سرت قد ضمَّتا سواد تلك المنطقة «برقه». قام الأيوبيون بعد ذلك بطرد الفاطميين وذلك عندما أراد أحفاد الأخشيد Colchide، هؤلاء العبيد الذين كانوا يتهافتون على موائد السلاطين، ممارسة السلطة التي لم يكونوا في الماضي سوى أداة من أدواتها.

وقع الخليفة المعظم Moaddam تحت طائلة حكم الموالى فضمن للمماليك، وهو الضحية، السلطة العليا في مصر لمدة قرنين ونصف من الزمان تقريباً.

قام السلطان العثماني سليم الأول، سنة 1517م بالاستيلاء على هذه الدولة «يقصد مصر ـ المترجم» ثم على كافة الأقاليم التابعة لها. بعد مضي حوالى ثلاثين سنة على احتلال مصر «30» تم احتلال طرابلس الغرب بواسطة أحد قادة سليمان الثاني، وتم ضم برقه إلى هذه المقاطعة وكونت معها مملكة واحدة تعاقب على حكمها العديد من الباشاوات. تلك هي المراحل الرئيسية للحضارة الإغريقية في أفريقيا وتلك هي الكوارث التي أدت إلى تقويضها. إن برقه التي تركت لشراذم الهمج، أصبحت الآن مجهولة، فالزمن الذي جمع في أحشائها، العديد من الشعوب، واحداً تلو الآخر، قد خلط بين آثارها وشتت أطلالها. اختفت معالم الفنون التي كانت بمثابة شاهد، وملاذ مدنس، لأجناس بادت وانقرضت ولم يتبق سوى بعض القبور المبعثرة في السهل لكي تدل، بالنسبة للرحالة من أمثالي، على

المكان الذي أقيمت فيه في الماضي المدينة التي كانت تعرف باسم «المدينة ذات العرش الذهبي»[1].

إذا كانت أعمال الرجال قد اندثرت، فإن الطبيعة قد ظلت على ما هي عليه، ولم تعد الشمس تشع أو تسطع إلا على حداد تلك المدينة التليدة، ولم يعد الغيث النافع يهطل إلا على مفازات مجدبة. لكن تلك الشمس لا تزال، مع ذلك، تشرق على مروج خضراء وهذا الغيث لا يزال يروى ظمأ الحقول الخصيبة.

لا تزال الغابات كثيفة والمراعي زاهية ولا تزال أشجار المرسين «حب الآس» Myrtes، وأشجار الغار تنمو في الوديان الصغيرة الموحشة دون عشاق بجنونها أو أبطال يرتدون أوراقها[2].

إن هذا النبع الذي شاهد أسوار قرنه وهي ترتفع حوله لا يزال يتدفق ويجري بكل سلاسة حيث تقطع موجاته وحدها هذا الصمت في تلك القفار إذا لم تمتزج أصوات الرعاة أو مواء الشياه بين الأنقاض بخريره.

---

(1) كانت قرنه تسمى في الماضي «بالمدينة ذات العرش الذهبي» كناية عن ثرائها الفاحش ـ المترجم.

(2) كان العشاق يجنون ثمار أشجار المرسين وكانت أشجار الغار تستخدم في صنع أكاليل من أغصانها وأوراقها تقدم للأبطال إشادة بتضحياتهم. . «هذا ما قصده المؤلف ـ المترجم».

Longitude à l'Orient de Paris

CARTE
DE LA MARMARIQUE ET DE LA CYRÉNAÏQUE

COMPRENANT

M. J. R. PACHO

1826

ECHELLES

DJEBEL AKHDAR

M A R M A R I Q U E

Djebel el Akabah

ALEXANDRIE

D E M A R A D É H

الفصل الأول

الاستعداد للرحلة ـ السفر ـ أبو صير ـ وادي مريوط ـ دريسه ـ مقطارى ـ الشمامة ـ صحراء الكرمة

لم تكن الآراء التي قدمت إليَّ في الاسكندرية حول رحلتي مشجعة. بعض تلك الآراء كان ينظر إلى عزمي الأكيد على أساس أنه ضرب من الطيش، والثقة العمياء، والبعض الآخر كان ينصحني بالذهاب إلى درنه أو بنغازي عن طريق البحر. لقد كان أصحاب تلك الآراء يخشون أن يعتبرني البدو على تخوم برقه كجاسوس تابع للوالي محمد علي الذي كانت نواياه الطموحة وطباعه الحادة، تحرج جميع جيرانه.

كان من الممكن أن أمتثل، بطيب خاطر، لتلك الاعتراضات على رحلتي، وهي الاعتراضات التي لم يبد لي أبداً بأنها عارية من الصحة، غير أن الحدود الجغرافية المختلفة التي حددها القدامى لمقاطعة قرنه كانت تجعل من الشيق والممتع، بل ومن الضروري، القيام باستكشاف طرفها الشرقي.

إن هذا المبرر الذي كان نفس مبرر اللواء مينوتولي، دفعني إلى توسيع نطاق رحلتي لكي تشمل النطاق الذي حدده اللواء الذي سبقني.

كان عليَّ، لكي أحقق نهاية سعيدة لرحلتي، أن أثق في تعودي على معرفة التعب والإعياء في الصحراء، وعلى إلمامي بلغات وأعراف سكان الصحارى، وهو التعود الذي اكتسبته خلال رحلتي السابقة.

لقد أثبتت التجربة عدة مرات، أن أصطحاب الحرس في أفريقيا يضر بالعمل أكثر مما يفيده. نجد أن البدو العرب من سكان المدن يقدمون، نتيجة لخوفهم من الباي أو الباشا، وعودا كثيرة ولكن سرعان ما تتلاشى تلك الخشية عندما يزول هذا الرادع أمام الجشع أو

سوء النوايا، أي عندما يتوغل البدو في الفيافي والقفار، ويجدون أنفسهم في موقعهم الطبيعي، ويبدأون في التحدث وكأنهم أسياد، ولم تعد تُجدي تذكيرات الرحالة لهم بالأوامر والاتفاقات لأنها تتحول جميعها إلى مجرد أوهام، أما الأوامر فيتم التهرب منها أو تحاشيها. إن الرحالة ليشعر بالسعادة في وحدته خاصة إذا لم يقم نفس الرجال الذين اصطحبهم معه من أجل تسهيل مهمته، بإفسادها أو إلحاق الضرر بعملية تنفيذها. هناك من جهة أخرى أشياء قد تسبب ضعف النتائج التي تحصل عليها الرحالة الأوروبي أو تعرقل رحلته ومنها، دون شك، التزمُّت الذي يبديه السكان. لا تُجدي مع هؤلاء دراسة اللغة أو تبنِّي العادات أو التكيف مع الأعراف لأن الأوروبي يعتبر عندهم «نصرانياً» وهذا وحده يكفي للريبة ويفسح المجال أمام التحفظ والكراهية في أغلب الأحيان.

لكن الرحالة يتمكن من تجاوز كافة العقبات واتباع فضوله بفضل الذهب غير أنه لا يكسب أبداً تلك العلاقات الودية الضرورية جداً، مع ذلك، لمعرفة الشعوب التي يقوم بزيارتها معرفة جيدة.

لا يقتصر ذلك التزمت على عزل الرحالة بصورة مستمرة بل ويتعدى ذلك أحياناً بتعريض حياته للخطر، فإذا كان هذا العزل يسمح بوقوع الجريمة فهو يقوم أيضاً بالحيلولة دون وقوعها على الأقل. لا بد وأن يخضع أيضاً كل شخص يدخل إلى أفريقيا إلى تأثير الإسلام ويجد نفسه أمام خيار صعب ومحرج.

إذا اصطحب الرحالة الأوروبي معه عدداً كبيراً من الحراس فإنه سيضمن، على هذا النحو، بقاءه على قيد الحياة، ولكن ذلك يتم بطريقة شائنة، لأنه يتحول إلى عبد لأولئك الذين يقومون بحمايته. أما إذا جازف الرحالة بنفسه أو برفقة ذويه فإنه قطعاً سيكون حراً في تحركاته ولكن المخاطر أيضاً ستحف به من كل جانب. ولو أن مواردي المالية لم تكن تمنعني من الاختيار بين هاتين الطريقتين في تنفيذ رحلتي فإنني اتجرأ على التأكيد بأنني ومن ناحية ذوقية كنت سأختار الطريقة الأخيرة. اقتصرت إذاً على اختيار دليلين لإرشادي إلى حقول الآبار والمعالم الأثرية في المنطقة التي اهتم بزيارتها وهما الحاج صالح أحد تجار درنه والسيد مخروه Makhrou من قبيلة أولاد علي حيث أشار بهما عليَّ، في هذا الصدد، السيد محمد الغربي الذي ضمن لي حسن أخلاقهما. كانت القافلة بما فيها أنا شخصياً والسيد مولر تتكون من تسعة أشخاص واثني عشر بعيراً منها أربعة امتلكها أنا شخصياً. طبقاً للنظام الذي اتبعته في رحلتي السابقة، تقوم الجمال بنقل الأحمال وبذرع أقصر الطرق،

بينما استخدم أنا المهارى، وهي أرشق وأسرع، في التوغل إلى الأرياف في نزهات كلما دعتنا المعالم الأثرية أو أي أشياء أخرى، إلى تجاوز خط سير الرحلة الذي تسير عليه القافلة. تلك هي الموارد والإمكانيات التي كنت استطيع استخدامها لتحدي تقلبات الجو العنيفة، طيلة عدة أشهر، في بلاد دون ملاذ طبيعي زد على ذلك جشع السكان الذي يخيف بصورة أكبر. بعد أن تحصلت على رسالة الحماية التي وجهها محمد علي إلى يوسف باشا والي طرابلس، غادرت القافلة الإسكندرية يوم 1824/11/03. إن مشارف هذه المدينة «الاسكندرية. . المترجم» مألوفة لديَّ جداً لدرجة أنني اعتبر من نافلة القول أن نتحدث مثلاً عن حمامات كليوباترا الواقعة في كهوف المقبرة لأنها، على كل حال، غير مهمة كثيراً أو عن منطقة كيرسونيز «رأس التين. . المترجم» التي حدد سترابو موقعها على مسافة سبعين فرسخاً Stades إلى غرب الاسكندرية والتي وصلنا إليها في الواقع بعد مسيرة ثلاث ساعات «يقصد المقبرة. . المترجم» استمرت القافلة في المسير بين بحيرة ماريوط Mareotis والبحر المتوسط وكان عرض اللسان البحري الذي يفصل بينهما ثلاثة أرباع ساعة من المسير في أعرض منطقة فيه، ثم تجلت أمامنا سلسلة من الهضاب وكأنها تشكل سداً في منطقة ماريوط وتتجه غرباً حتى أبو صير Aboussir التي تقع على مسافة إحدى عشرة ساعة جنوب غرب الاسكندرية. لقد شاهدنا على طول هذه التلال وفي أحيان كثيرة محاجر قديمة تمتد تحت الأرض أحياناً أو تكون على هيئة مدرجات، تحتوي عادة على نباتات شتى وكثيرة مثل اجمات التين البري التي تنبثق، إن جاز لي التعبير، من هذه المحاجر. إن منظر تلك الأشجار، رغم كونها غير واضحة كثيراً، تسر النظر وتريح العين في تلك المناطق التي لا توجد بها سوى بعض الشجيرات البحرية المبعثرة هنا وهناك. لاحظت وجود أحواض صغيرة منحوتة في الصخر كانت تستخدم لجمع مياه المطر ومحفورة في أماكن غير متساوية في ارتفاعها بطريقة تجعل الحوض العلوي يملأ السفلي وهكذا. لم نتمكن من الوصول إلى أبوصير إلا في اليوم السادس عند المساء تقريباً. كان سبب هذا التأخير راجعاً إلى زيارة أقارب وأهل الأدلة حيث أجبرت خلال هذه الزيارة، احتراماً للتقاليد السائدة، على إيقاف القافلة.

إن عمليات التوديع عند البدو مهمة جداً وذات طابع رسمي وكأن هؤلاء الرجال يجددون أواصر العرى التي تربطهم بقبيلتهم، ويبالغون في إبداء علامات المودة ولكن بهدوء وبرود أعصاب تتعارض مع نذورهم ووعودهم وأيمانهم.

بعد أن ينفض الجميع ويتوارى الزوار عن الأنظار، لم يعد بالإمكان رؤيتهم بوضوح

اللهم بعض الإيماءات والتلويح وأطراف الأردية أو الجرود[1]، كآخر علامة من علامات التوديع بالإضافة إلى قوة ألسنتهم التي تستمر في الهتاف وتبادل الأماني وغيرها من الدعابات الودية التي تقترن غالباً بعبارات دينية وذلك عبر هذه المساحة الشاسعة.

قام الكثير من أصدقاء أدلتي بمرافقتنا حتى منطقة أبوصير واضطررنا، عدة مرات، إلى أن نلجأ إلى المحاجر الكبيرة لنحتمي من هطول الأمطار. كانت تلك المحاجر الواقعة على الطرف الغربي لأنقاض المدينة، تعرف بكونها أوكاراً لإخفاء ثمرة عمليات النهب والسلب التي كان يقوم بها البدو، وقد تكون قد شهدت أيضاً عمليات توزيع غنائم السلب وحطام العديد من السفن الغارقة بمحاذاة ساحل خليج العرب. لا تزال هذه السفن تحمل قطعاً من الصواري وهناك سفن أخرى غرقت وغاص نصفها فقط في الرمال. قد يكون من الشيق أن نعرف أن هذا المكان الذي وصف بأنه يتكون من منحدرات كان سكان تابوزيريس Taposiris يجتمعون فيه في أوقات معينة من أجل اللهو والعبث وإقامة الموائد الفاخرة[2] ومهما يكن من أمر، كان من الخطورة بمكان على أي أوروبي قبل عهد محمد علي أن يتوقف في مثل تلك المناطق غير أن حكم هذا الباشا الصارم قد فرض تخوفاً منقذاً حتى على سكان الصحارى المجاورة لوادي النيل.

لم أتورع، مع ذلك، في إشعال نيران كبيرة في الليل حيث أدى ضوؤها إلى إحضار العديد من بدو الجوار وكان أغلبهم من معارف دليلي مخروه. تكفلت بعض الهدايا البسيطة بتلطيف الجو وتحسين أمزجتهم وبعد تناول وجبة فاخرة أمضى ضيوفي عدة ساعات في مزاولة تمرينات رياضية كنا كلنا تقريباً قد مارسناها في طفولتنا دون أن نرتاب في أن أصلها قد وصل إلينا من غابر العصور.

لقد شاهدت مثل هذه الحركات منقوشة بريشة الرسامين على أطلال المعابد الأصلية في بني حسَّان في الوجه القبلي Haute Egypte. رغم عدم أهمية تلك الواقعة إلا أن عنصر المفاجأة كان كبيراً لأنني لاحظت عند البدو هذا النقل الأمين لأعراف قديمة جداً. في اليوم التالي، أي اليوم السابع، قمت بزيارة أبوصير. كان أهم ما شاهدته بين أطلال أقدم آثارها

---

(1) تحدث الكاتب عن عبارة «حرام» Ihram. إنه يقصد الجرد بطبيعة الحال غير أن البدو في المناطق الشرقية يطلقون عليه كلمة «حرام» في حين أن سكان المدن يطلقون ذلك الاسم على أردية النساء.. المترجم.

(2) سترابو. المجلد الخامس. الفصل 17 ص. 358 بترجمة ليترون.

وأكثرها بروزاً، بقايا معبد يقع على قمة تلة بالقرب من شاطىء البحر. كانت جدران هذا المعبد متدرجة على الطراز المعماري المصري وكان عرض الحجارة المستخدمة في بنائه يبلغ قدمين أما ارتفاعها فيبلغ عشر بوصات. كان هذا المعبد على هيئة مربع يبلغ طول كل جانب من جوانبه ثمانين متراً. كان الجانب العلوي ناقصاً، أما الجانب الشرقي الذي يشكل الواجهة فكان مزداناً ببرج رباعي الزاوية يدخل نحو وسط المعبد ويتبع نفس درجة ميله وانحرافه. يوجد بداخل هذا البرج عدد غرفتين جانبيتين صغيرتين قرب المدخل الرئيسي. أما الجانب الخارجي للمعبد فهو يشبه إلى حد كبير المعالم الأثرية في مصر القديمة «انظر بليني 1».

يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد أربع بروزات تشبه تلك الموجودة أمام الباحة الأولى لمعبد الكرنك في طيبة «الأقصر. . المترجم» Thébes. لعلها تستخدم، دون شك، في تثبيت سوارٍ كانت توضع فيها خلال الاحتفالات الدينية أو السياسية. أما المعبد من الداخل فهو في حالة كبيرة جداً من الدمار وكان يستحيل عليَّ أن أتعرف على أي أثر لهندسته الداخلية ولم استطع أن أميز، بين تلك الأنقاض، أي شيء سوى بعض الأجزاء من الأعمدة[1] وبئراً حسنة البناء تقع في قلب المبنى بالإضافة إلى نفق مردوم بالكامل يؤدي إلى البئر عن طريق سلم صخري. إذا كانت الجدران وخاصة التفاصيل التكتونية التي يمكن مشاهدتها في هذا البناء تجعلنا نعتبر أن معبد أبوصير مشابه إلى حد كبير للمعالم المصرية القديمة؛ فإن الملاحظات التي جمعتها لتوي زد على ذلك حجم الصخور الصغيرة التي استخدمت في بناء أساساته وعدم وجود أي رموز هيروغليفية أو أي زينات تتصل بها، ناهيك عن الشكل العام، تدل على أن هذا المعبد يرجع إلى أصل إغريقي. أما بشأن تاريخ إقامة هذا الصرح فإنني أؤكد، وبشكل يقيني، بأنه يعود إلى العهد الذي احتفظت فيه مصر، تحت حكم البطالمة بطابعها المعماري، وكان سادتها الجدد يقلدونها في تلك الهندسة التي اخترعتها ولم تقم أبداً بتقليدها.

توجد، بعد مسافة زهيدة من هذا المعلم الأثري، أطلال أخرى تمثل بناية أخرى كان البحارة يعرفونه باسم برج العرب. يمثل هذا البناء في الواقع برجاً مشيداً على قاعدة ضخمة

(1) لم أتمكن من العثور على أي من الأجزاء العليا، ولو قطعاً صغيرة متناثرة منها غير أن شابرول ولانكريه وفاي ولوبير Chabrol, Lancret, Lepére, Faye الذين زاروا تلك الأطلال في أبوصير سنة 1801 أكدوا آنذاك بأن تلك الأعمدة كانت دورية.

ومقسماً إلى طابقين. يلاحظ المرء أن الطابق السفلي قد شكل على هيئة مثمن أما الطابق العلوي فهو أضيق منه ومشيد في شكل دائري «انظر بليني ـ مجلد 2 ص 2». يمكن للمرء أن يشاهد على الطرف الجنوبي للمنطقة الصخرية التي بنى عليها هذا الصرح كهفاً جنائزياً مقسماً إلى جزئين أيضاً. كما نشاهد أيضاً ثلاثة محاريب فسيحة ولكنها ليست عميقة، كلها مصنوعة بطريقة فجة وبدون أية عناية كبيرة. يعتقد شابرول والعديد من رجال لجنة مصر أن هذا البرج قد شيد من قبل قدامى الإغريق لاستغلاله كمنارة أو نقطة إرشادية للسفن التي تقترب من هذا الساحل الخطير[1]. إن البقايا التي تدل على وجود آثار لسلم صخري على الجزء المثمن من هذه البناية تؤكد صحة ملاحظات المهندسين الفرنسيين وذلك بالإضافة للمظهر الخاص بالبرج الذي يرجح جداً هذا الاحتمال.

تقع آثار أبوصير بصورة عامة على السفح الجنوبي للهضبة كما يوجد بها سد يتجه من الغرب إلى الشرق يبدو أنه شيد جنوب المدينة لحمايتها من فيضانات وادي ماريوط. يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد بين هذه الأكوام الحجرية أساسات لبناية أخرى مقسمة إلى عدة غرف مبطنة بالأسمنت تذكرنا بالحمامات التي زين بها جوستنيان، وفقاً لما ذكره بروكوب[2] Procope مدينة تابوزيريس. هناك أيضاً عدة كهوف طبيعية في أماكن متفرقة على تلك الهضبة، ربما كانت تستخدم كمقبرة حيث قام القدامى بمساعدة الطبيعة عن طريق توسيع مداخل تلك الكهوف أو صنع سلالم صخرية عن طريق نحتها في الصخر الصلد.

هناك العديد من الدوائر الصخرية الفجة التي تزين واجهات تلك الكهوف والتي تماثل الطراز المعماري المصري إلى حد ما، دون أن توجد أعلاها الكرة المجنحة أو أي رمز هيروغليفي آخر.

يمكن للرحالة أيضاً أن يشاهد العديد من الصهاريج على سفح تلك الهضبة، وهي صهاريج ذات فوهات معدة لاستقبال غطاء صخري ضخم بالإضافة إلى وجود أحواض صغيرة في شكل مدرجات تستخدم لتخزين مياه المطر التي تنتقل بين تلك الأحواض عن طريق سواق Auges حتى تصل إلى تلك الصهاريج. يبدو إليَّ أن أبوصير هي تابوزيريس القديمة وذلك بسبب موقعها ونتيجة للتشابه في الاسم والمسافة بينها وبين الاسكندرية[3].

---

(1) بلاط مصر. Cour d'Egypte. 24. anIX, n. 107.

(2) Procope - DE. Aedif. 1. VI. 1.

(3) Procope. DE Aedif. 1. VI. 1.

يقول سترابو حقاً إن هذه المدينة لا تقع على ساحل البحر وإن البحر يفصل بينها وبين بلنيثين Plinthine التي يحدد العديد من الجغرافيين القدامى والحديثين موقعها في هذا المكان.

يمكن تفسير هذا التناقض بسهولة إذا أخذنا في عين الاعتبار أن آثار أبوصير تقع على بعد مسافة قصيرة من البحر، وإذا وضعنا بلنيثين إلى الشرق قليلاً بالقرب من التجويف الذي يشكل الساحل. لقد طرح شامبليون الابن[1] هذه الفرضية التي تساندها، كما يبدو لي، الرحلة المجهولة التي تذكر مدينة تدعى بوزيريون Posirion، على أساس أنها مدينة لا ميناء لها وبها معبد للربة أوزيريس وتبعد مسافة سبعة فراسخ Stades عن بلنيثين[2]. وعليه ينبغي ألا نأبه كثيراً لرواية بروكوب الرخيصة[3] وتركها جانباً خاصة فيما يتعلق بضريح أوزيريس الذي ربما كان، قد أقول، أكثر من ذلك. لقد حاولت جاهداً أن أعثر بين آثار أبوصير على أطلال لمعالم مصرية قديمة ولكنني لم أوفق في الكشف عن أي شيء يماثلها في الطراز الخاص أو المميز باستثناء أطلال لا تظهر لنا سوى ذلك التشابه مع الطراز المصري والتي لا يمكن إرجاع تأريخها، كما قلت آنفاً، إلى فترة أقدم من أول حكام اللاجيديين Lagides أما البقية الباقية من هذه الآثار فلا تخرج عن كونها إغريقية أو رومانية أو عربية.

كنت أعتقد، وتأكد لي ذلك فيما بعد، بأن المصريين لم يشيّدوا أي نصب أو مدينة في ساحل مرمره وذلك قبل سيطرة الإغريق عليه، وبأنه لم يقطن تلك المنطقة، قبل ذلك العهد، سوى شراذم جوّالة أو ربما الهمج أو الليبيين من أصل فينيقي.

يخبرنا التأريخ أن سيوستريس Sèostris قد تجول في ليبيا التي احتلها الفرس مرتين، غير أن رحلة هذا البطل المصري، التي يشكك في صحتها، لم تؤكد لنا وجود أي مستوطنات في تلك المنطقة.

أما بشأن حملات كل من قمبيز Cambyse وأرياندس Aryandes، فإحداهما قد حدثت في الدواخل بينما جرت الثانية بمحاذاة الساحل. نحن نعرف النهاية التعيسة للحملة الأولى والنتيجة العقيمة للحملة الثانية التي اقتصرت على تحقيق انتقام المرأة فيريتيم

(1) انظر مصر تحت الحكم الفرعوني - المجلد 2 - صـ 267 وصـ 268.

(2) IRIARTE. BIBL. Vol. 1 p. 485.

(3) Procope. Ibid.

Phèritime. لو أن المصريين القدامى كانوا، قبل سيطرة الاسكندر الأكبر على مصر، قد شيدوا مستوطنات أو أقاموا معالم أثرية على الساحل، لكان في إمكاننا العثور على بقايا أطلال خاصة وأن قوة معمارهم تحملنا على الاعتقاد بذلك، أو لكنا قد وجدنا بعض الرموز الهيروغليفية، التي كان المصرين يزركشون بها الأبنية، منقوشة على بعض الحطام والبقايا الأثرية. قد يتحجج أحدهم بأن تلك الآثار قد اندثرت بغض النظر عن صلابة المواد التي صنعت منها، ومهما كان موقع إقامتها، في البيداء أو في الحضر، ولكنني أقول بأن هذا الاندثار لا يمنع من وجود بعض البقايا. ولو أننا افترضنا بأن عمراناً جديداً قد حل محل البنايات القديمة، فإن ذات المبرر يبقى قائماً بحيث تظهر البقايا القديمة على العمران الجديد «يقصد استعمال أجزاء من الأبنية القديمة في البنايات الجديدة التي حلت محلها. . المترجم». هذه المعلومات والأفكار التي تتصل بمصر القديمة تلهمنا بعض الأفكار الأخرى التي تتعلق بالطابع العام لآثار أبوصير وهو طابع قد تكرر أكثر من مرة في المناطق التي نحن بصدد زيارتها والتجول فيها. إذا رأى المرء أحجاراً في مصر القديمة، فإن تلك الأحجار لا بد وأن تكون عملاقة غالباً وذلك بسبب كونها بقايا لأحجار معابد وأبنية عمومية، أما الأبنية الأخرى فهي مصنوعة من الطوب الطيني[1] .

أما في منطقة أبوصير وكل المناطق التي تليها في اتجاه الغرب، فإن كافة المساكن القديمة، حتى في أصغر القرى، تتكون من أحجار يتراوح سمكها بين خمسة وستة ديسمترات «5-6 دسم»، ولم نعثر أبداً على أي بقايا للطوب الطيني. إن الخلاف في مواد هذه الأطلال هو الذي يفسر الفارق بين البلدان التي توجد فيها تلك الآثار؛ فأرض وادي النيل الطينية الرطبة بسبب الفيضانات السنوية تقدم مواد رخيصة وسهلة الاستعمال لبناء المساكن. إن الطبيعة في تلك البلاد السعيدة تستبق حاجات الإنسان بل وتعد له بنفسها أكثر الأشياء ضرورة لحياته، ولا يترك له شخصياً سوى مشقة جمعها. أما الأرض في منطقة مرمرة فتخلو من كل تلك المزايا، ولا تستطيع أن تقدم لسكانها نفس التسهيلات المذكورة. كان على هؤلاء السكان أن يقتلعوا من سفوح التلال أو باطن الأرض كل المواد اللازمة لإقامة المساكن. نجحت، في هذا الشأن، كما في غيره، المهارة اليدوية أو الحرفية في خلق أشياء كانت الأرض قد رفضت منحها للإنسان. وهكذا فإننا سنرى الفن الحرفي يساعد

(1) لا تكشف كافة بقايا المساكن المصرية القديمة، سواء أكانت تقع في وادي النيل أو في أماكن نائية في الصحراء، إلا عن وجود هذا الطوب الطيني.

الطبيعة في كل مكان في تلك المناطق. سوف نرى العديد من القنوات المتعرجة عبر السهول وهي تتبع انحدار التلال، وتحل محل الأودية المفقودة، وتستقبل مياه السماء، ثم تنقلها إلى أخاديد متعددة وشاسعة تحت الأرض. تشكل منطقة أبوصير جزءاً من وادي مريوط وهي مقاطعة اشتهرت في القدم بزراعة الكروم[1].

كانت أراضي هذه المقاطعة، في عصر المقريزي، مغطاة بالبساتين الغناء والبيوت التي تمتد حتى مشارف برقة.

ولما كان يحدوني الأمل في اكتشاف أي شواهد عن ماضي هذا الوادي العريق، توجهت بقافلتي في اليوم الثامن (8) إلى بورديم Bourden وهو بئر يقع إلى الغرب من أبوصير على بعد مسيرة ست ساعات.

تركت الوادي برفقة مولر من أجل التجول في الدواخل. بعد مسيرة خمس ساعات نحو الجنوب الشرقي عثرنا على أطلال لقرية قديمة تسمى بوأمناء Bou Mnah حيث وجدنا، بين أكوام الصخور، بناية في وسطها غرفة مستديرة مزدانة بعمودين. يشبه هذا المعلم الأثري الذي أعتقد بأنه روماني، في تفاصيله العديد من الصروح Sireh التي يعثر عليها المرء بكثرة وفي حالة أفضل، في إقليم المدن الخمس.

يوجد أيضاً بين أبوصير وأبو أمناء أطلال لقرى قديمة، وبقايا لقنوات بعرض متر واحد منها قناة في حالة جيدة وتتكون من صفين من الصخور مبطنة بإسمنت يميل لونه إلى الحمرة.

توجهنا من أبو أمناء نحو الجنوب. كانت الأرض التي نجول فيها متموجة قليلاً ويعلوها تراب طيني من شأنه أن يساعد على غزارة الإنتاج، غير أننا لاحظنا أن جزءاً صغيراً فقط من هذه المنطقة مزروع بالحبوب من قبل بدو صننح Sènèneh أحد بطون أولاد علي الأربعة.

تدل آثار القرى الصغيرة التي كنا نقابلها على الطريق على أن تلك المنطقة كانت آهلة بالسكان ولكن هياكلها العظيمة المتناثرة تجثو الآن على أرض سهلية شاسعة يخيم عليها العراء الصامت والكئيب.

---

(1) انظر المراجع التالية: - Strabon. Lxviii, 8. P. 353. Trad. Fr/virg Georg LIIt. 9/Hor. od. 37., v.14.

لم يعد يبقى من تلك البساتين وهاتيك الأجمات التي ذكرها المؤرخ العربي أي أثر، بل والأسوأ من ذلك، أننا لم نعثر على شجرة برية واحدة تظلل تلك القفار. أما الأعشاب فكانت ليفية لا ترقى إلى مستوى الشجيرات وذلك حتى في المنخفضات التي تشكل مصارف لمياه الأمطار.

لا يتفق قصر الغطاجية Ghettadjiah الذي يقع على بعد عشر ساعات من أبوأمناء مع الوصف الرائع الذي قدمه لي بعض البدو. كان هذا القصر عبارة عن مسجد صغير معزول في الصحراء وتم تشييده بفضل انقاض لمعلم أثري قديم في نفس المكان (انظر اللوحة 2 الشكل رقم 1).

يوجد بوسط هذا المسجد عمودان، أحدهما من البروفير الأزرق Prophyre والآخر من الجرانيت الأحمر وهما ملقيان على الأرض (انظر اللوحة الشكل 5).

يمكن للمرء أن يلحظ وجود أعمدة أخرى، خارج المسجد، وهي أجزاء من أعمدة رخامية في الواقع، كما يمكنه أن يلمح، على بعد مسافة من المسجد، آثار لقرية عربية صغيرة مع قباب عرضية Ogires.

يدل موقع قصر الغطاجية في قلب الرمال على زحف الرمال على الأراضي الصالحة للزراعة نظراً لأن المنطقة تخلو حالياً من أي غطاء نباتي وقد كانت في الماضي مغطاة بجميع أنواع الأشجار.

كما أن الزحف الصحراوي قد نجم عن عدم وجود أي هضاب أو تلال مرتفعة، بقدر كاف، ليشكل حاجزاً في وجه اكتساح الرمال التي تدفعها رياح القبلي.

يحتمل أن يستمر هذا الزحف الرملي في القرون القادمة حتى يكتسح أراضي وادي مريوط وتتجه الرمال صوب البحر لكي تتحد مع رماله(1).

اتجهنا من قصر الغطاجية نحو القافلة في بورديم Bourden وفي الطريق، عثرنا على

---

(1) تستند هذه الملاحظة على المظاهر التي تجلت في بعض الأماكن في الواحات.
نجد أن أغلب الأماكن الأثرية أو المعالم التي لا تحميها التلال، معزولة وسط الرمال، يرجع السبب في ذلك إلى أن النصارى ومن بعدهم العرب قد شيدوا أبنيتهم بعيداً عن بيوت السكان القدامى وذلك لأسباب دينية. نظراً لأن هذه المساكن قد هجرت فإن الأشجار التي تحيط بها تفتقر إلى العناية. عندما تم تقويض هذا السد المنيع زحفت الصحارى.

بقايا لأطلال أخرى تسمى أبدرماين Abdermain والحمام el Hammam غير أنني لم أجد بها أي شيء جدير بالذكر. تركنا أبدرماين في اليوم التاسع (9) وعسكرنا في نفس اليوم في قصر اللمايد Lamaid وهو قصر عربي يقع على شاطىء البحر وعلى مسيرة ست ساعات من المكان السابق. لقد كنت أشعر بالذهول عندما قرأت رحلة شولز Scholz إلى منطقة مرمرة لأنه أشار إلى قصر اللمايد على أساس أنه مسجد[1] لا سيما وأن مخططه والنقوش العربية فيه تدل على غايته الحقيقية. يتكون في الواقع، قصر اللمايد من طابقين وهو عبارة من مربع كبير وعلى كل جانب منه يوجد برج قائم الزوايا أيضاً. بشكل البرج الجنوبي المدخل الرئيسي للقصر . إن جانبي المدخل وجبهته Linteul تتكون من حجر الجرانيت الأحمر. يوجد أيضاً بهذا القصر، مثله في ذلك مثل الحصون في العصور الوسطى، باب ثانٍ يتكون من مسطّح حجري ضخم يتم رفعه عن طريق سلاسل جديدة وبكرات مثبتة فوق المدخل الرئيسي. يتربع على واجهة هذا القصر سبعان على رصيف بارز مزدان بخطوط وكتابات عربية لم يبق منها سوى بقايا مشوهة (انظر اللوحة 3) إن ما يضفي أهمية كبيرة على آثار قصر اللمايد بالنسبة للتأريخ هو هذا النقش الذي نحت بشكل بارز على سطحية شبه مستديرة مزركشة بخطوط عربية رسمت بعناية فائقة[2]:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. أمرنا بابتناء هذه القلعة، السعيد الوالي[3] السلطان الأعظم الملك الظاهر ملك العرب[4] ملك رقاب الأمم، ركن الدنيا والدين، أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين أعز الله آثاره، بيد العبد الفقير. . .[5] المغفور له أحمد الطاهر اليغموري﴾[6].

---

(1) Reise In Die General Zwichen Alexamdrien Und Paroetonium Schol3 P.52.

(2) ترجم هذا النص بالإضافة إلى الملاحظات المتصلة به السيد أ. جوبير.

(3) الكلمة تكاد تكون غير مقروءة وواضحة.

(4) توجد كلمة ناقصة. . . كلا لا توجد أي كلمة ناقصة إنما يوجد فراغ بين الكلمتين فظن جوبير أنه مكان لكلمة ناقصة. . . المترجم.

(5) توجد كلمة ناقصة هنا. لا أعتقد أن النقاط المتتالية التي أعقبت عبارة العبد الفقير تمثل كلمة ناقصة هنا. . المترجم.

(6) بـدل الـلقـب الأخير على أصله التركي. أنظر كذلك فيما يتعلق بمعنى كلمة «قسيم» مقالة السيد دوساس في جريدة العلماء ـ كراسة سبتمبر 1825 ص 526 وص 530.

يبدأ هذا النقش مثله مثل سائر النقوش الإسلامية بالبسملة. ربما تكون هذه العبارة الدينية هي السبب الذي أوقع شولز في هذا الخطأ.

قضينا اليوم العاشر إذاً عند قلعة اللمايد.

في اليوم الحادي عشر، وبعد مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة، وصلنا إلى حصن عربي قديم وشاهدت أطلالاً أطلق عليها اسم قصر الشمَّامة، كما شاهدت تفاصيل تكوينية جعلتني أشعر بالأسف الشديد على تعرض هذا الحصن للدمار. كان الحصن مربعاً ويمكن أن يبلغ طول كل جانب فيه عشرين متراً (20) وكان يبدو وكأنه قد شيد من طابقين لأنه يمكن للمرء أن يشاهد في داخله، تحت الأنقاض، ثلاث قباب تشغل كافة مساحة المبنى وترتفع أربعة أو خمسة أقدام فوق سطح الأرض.

لا يزال الجانب أو الركن الشرقي فقط من هذا المبنى قائماً، كما توجد على جدار إحدى الواجهات ثلاث فتحات ترسم شكل مدخل على جانبيه ثلاثة أعمدة مزدانة من أعلى بتيجان وهذا تقليد فج للطراز المصري (انظر اللوحة 5 الشكل 4).

تم بناء هذا المعلم الأثري على أساسات ضخمة من أحجار الصوان grès دون خلطها بالإسمنت وكان سمك الجدار موحداً.

إذا كان هذا الطراز يدل، كما سأتطرق إلى ذلك فيما بعد، على أقدم تاريخ معماري عرفته هذه البلدة، فإن تلك الأبعاد الصغيرة وما يحتويه من قباب وتفاصيل تكتونية معمارية تجعلنا نرجع تأريخ تشييده إلى العهد اللاجيدي الذي شهدنا أكبر أعماله في أبوصير. يمكن للمرء أيضاً أن يعثر على أطلال مشابهة، وفقاً لما ذكره البدو، إلى الشرق من قصبة الشمامة تدعى أيضاً الشمامة. لم أقم بزيارتها لأن تقلبات المناخ أجبرتني على اللحاق بالقافلة.

أستعنت بتقرير عربي عنها مفاده أنها تحوي تفاصيل أثرية مقاربة لتلك التي قمت بوصفها. . يقول التقرير العربي إن التسمية تعود إلى التشابه بين الأعمدة المشدودة وشموع الشمعدان ولذا سميت بالشمامة[1].

---

(1) رغم دقة هذا الرحالة ونزاهته إلا أنه لم يذكر هنا مصدره بشكل صحيح ولا يوجد ثمة شبه بين أعمدة قصبة الشمامة وشموع الشمعدان. . وإلا لأطلق عليها اسم «شماعة». . . المترجم.

لحقت بالقافلة عند منطقة درسية Dresieh وهي عبارة عن آثار لمدينة قديمة تقع على مسافة بسيطة من البحر. هنا، كما هو الحال في غيرها من الأمكنة الساحلية، يتم الخلط بين بقايا المدينة العربية والآثار القديمة. لم أجد في هذه المنطقة أي أثر لبناية قديمة أو حديثة جدير بلاهتمام ولم أجد سوى سرداب مسقوف تكسوه طبقة من الجبس ومقسم من الداخل إلى غرف كثيرة ويمثل، دون شك، أطلالاً لحصن عربي. يستخدم هذا القبو من قبل الرحالة والمسافرين كملجأ من شدة الطقس كما يقوم بدو الجوار بتخزين أجزاء من محاصيلهم في تلك الغرف أو الكهوف. توجد بالقرب من درسيه بحيرة مالحة «سبخة» تمتد على مسافة مسيرة ساعتين بمحاذاة شاطىء البحر الذي لا يفصل بينه أو بينها سوى سد من الرمال. يغطي الملح حوافي تلك البحيرة. وهو ملح ممتاز غير أنه لا قيمة له في بلاد تنتجه بكثرة. غادرنا في اليوم الثاني عشر درسيه[1] التي تعتبر النهاية الحدودية لوادي مريوط وتسمى المنطقة الصحراوية التي تليها في اتجاه الغرب بجبل الكرمة Kourmah. لم يحدث لنا منذ أن غادرنا الاسكندرية أي شيء يستحق الذكر. لم يحدث لنا ما يعكر صفونا أو يعرقل مسيرتنا أو تنزهاتي في الداخل وذلك نظراً لأنني أرتدي «الجرد البدوي».

لم نجذب إلى أنفسنا فضول البدو الذين نقابلهم إلا بشكل سطحي، ولم ينتشر خبر رحلتي بينهم.

عندما تجبرني رسوماتي أو أية مسائل جغرافية أخرى على الإقامة بالقرب من منتجعاتهم، فإنهم يشرفوننا أحياناً ويعتبروننا من التجار أو الحجيج المغاربة العائدين من أداء الفريضة المقدسة وهي زيارة قبر الرسول.

لقد كانت طريقتنا في العيش بسيطة مثل سكان المنطقة التي نقوم بذرعها والتجول فيها. نضع رحالنا عادة عند غروب الشمس في أي منخفض كان لأية مليء بالكلأ. نحن نبحث في العادة عن هذه المنخفضات وهي فقط التي تؤجر أو تعجل لحظة استراحتنا. كنا

(1) يشبه اسم درسية اسم دريس Deris وهو عبارة عن مرفأ قديم ورأس جبلية ذكره العديد من المؤلفين على أنه يقع غرب برج العرب، غير أن موقع درسية في داخل هذا الخليج لا يشكل بأي حال من الأحوال رأساً جبلية، فإن اسم درسية قد يكون تصحيفاً عربياً لهذا الاسم. أما فيما يتعلق بالصخرة السوداء التي تشبه الجلد التي جعلها سترابو علامة على موقع درس، فإنني أشك في أن نتمكن من التعرف على هذه الرأس الجبلية بفضل هذه العلامة الوحيدة لأن كل الرؤوس الجبلية هنا تتكون من حراشف صخرية يمكن لأي رحالة أن يعتبرها، مع قليل من الخيال، مشابهة لهذا الجلد.

نواصل المسير عدة أيام وكنا نلتقي ببدو راحلين عن ديارهم ويرافقوننا للبحث عن مضارب جديدة.

كنت أغتنم هذه الفرصة كلما أتيحت لنا وأنزل عن ظهر البعير، وأمنع خدمي من ملاحقتي، وأختلط بهؤلاء البدو الرحل وأسير معهم وأسبق قافلتي كثيرة الأحمال. كنت أسعى لأكسب ثقتهم بفضل صراحتي وعلامات المودة التي أبديها وقد بلغت مأربي في عدة مرات وينسى هؤلاء البسطاء الحديث عن أصلي وديني ومشروعاتي ويتكلمون عن أمور تتعلق بقبيلتهم وقطعانهم ولكن عندما نتوقف في المساء من أجل صلاة المغرب تذكرهم هذه الفريضة بمبادئهم وبأنفسهم فينصبون خيامهم بعيداً عن خيمتي.

وهكذا نكون قد عشنا معاً طيلة النهار وافترقنا طيلة الليل. إذا كانوا قد اعتبروني في لحظة من لحظات اللهو أو عدم الإمعان في التفكير والتأمل، راعياً بدوياً من الرحل، فإنني سرعان ما أعود لأصبح ذلك الأوروبي «النصراني» في خيمتي. هكذا أرى هؤلاء البدو الذين منحوني، في هذه المناسبة أو في غيرها، ثقتهم كرجال فإنهم سرعان ما يسحبونها مني كمسلمين.

كانت تقدم الرحلات التي رافقت فيها سكان المنطقة التي تجولت فيها موضوعات أخرى جديرة بالمشاهدة غير أنها أقل منها تخزيناً. لا يمكن للمرء أن يتصور قلق العربي أو البدوي في وحدته وهو مسافر على ظهر بعيره، هذا الحيوان الجلد، الذي يستطيع وحده مساعدته على عبور الصحراء.

نظراً لأن البدوي يعترف بخدمات ذلك الحيوان فهو يُضحِّي بذوقه وأحياناً بحاجاته الطبيعية من أجل أن يعسكر في مكان يكثر به الكلأ والشجيرات بغزارة. وإذا ضنَّت الطبيعة على هذا البعير بالعشب فإن البدوي الذي شاطره التعب لا يتردد في مقاسمته طعامه.

كم من مرة شاهدت فيها البدوي في الصحاري المقفرة وهو يخلع رداءه «الحرام» ويطرحه أرضاً أمام البعير البارك لكي يضع عليه بضع حفنات من التمر كان البدوي قد قام قبل ذلك بنزع نواه ونقاه من كل شائبة.

كان مثل هذا المشهد يتيح لي دائماً اهتماماً جديداً. لم أحاول أبداً أن أعزو إلى مسألة الحفاظ على الممتلكات مثل تلك الرعاية والعناية اللتين ترجعان، على ما اعتقد، إلى الاعتراف النزيه بحسن الصنيع. بعد أن استدرت نحو الاتجاه الشمالي الغربي من الساحل

الغربي لخليج العرب، وصلت، بعد مسيرة سبع ساعات إلى مكان يدعى «مقطاريَّة» قادماً من درسيه.

يطلق السكان هذا الاسم على تلة من الأحجار الصوانية التي يمكن للإنسان أن يشاهد فيها نحو مئتي حفرة مصنوعة في الصخر الصلد.

تشكل هذه الثقوب مدخلاً لمغارات بحيث تكون المسافة بين المدخل والآخر نحو ثلاث إلى أربع خطوات. لا تزال بعض الصخور المكدسة على حافات تلك الكهوف متناثرة.

إن هذه الأحجار عبارة عن كتل صخرية تمَّ قلعها من الجبل أثناء عملية حفر تلك الكهوف. يدفعني المظهر الخشن والفج لتلك الكتل الصخرية إلى الاعتقاد بوجودها هنا منذ أمد بعيداً جداً.

عندما دخلت إلى العديد من تلك الكهوف، لم أجد بها سوى طاحونة صغيرة تستخدم في طحن القمح بالإضافة إلى بعض الأدوات الفلاحية الزراعية Aratoires، التي وضعت هنا، دون شك، من قبل البدو القاطنين في جوار تلك الكهوف.

نحتت تلك الكهوف بطريقة فجة وليس بها أي شكل معماري انتظامي، وأغلبها مملوء بالحطام الذي حال بيني وبين معرفة ما إذا كانت متصلة ببعضها البعض أو منفصلة. لم أعثر بها أيضاً على أي دليل يشير إلى استخدامها كمدافن كما أنها لا تبدو منحوتة لاستخدامها كصهاريج لأن أكوام الصخور التي تحيط بمداخلها تسدها وتمنع دخول المطر إليها. زد على ذلك، إن كثرة هذه الثقوب والفجوات كانت سوف تعتبر زائدة لو أن تلك المغارات قد نحتت لاستغلالها كأحواض للمياه فقط.

إن التأريخ لا يذكر وجود أي قبائل تقطن بالكهوف في منطقة مرمرة Troglodytes غير أن هيرودوت وبومبونيوس ميلا Pomponius Mela يعتبران أن تلك القبائل كانت تقطن بالدواخل في الأراضي الجنوبية الغربية في بلاد الجرامنت.

مع ذلك أشعر بالعجز عن تفسير وجود هذا الكم الهائل من الحفر والكهوف الأرضية على أي أساس آخر سوى على كونها قد استعملت للسكنى. في اليوم الثالث عشر وعلى مسيرة ساعة من المقطاريَّة مرت القافلة بالقرب من «بناية أبي سليم»[1] وهي أطلال لبناية

=

(1) يدل اسم البناية على أنها قد رممت وسكنت من قبل شيخ عربي أو بدوي.

مربعة شيدت فوق ربوة وبداخلها بئر. بعد مسيرة سبع ساعات من هذا المكان اجتزنا سلسلة من الجبال الجيرية «الكلسية» تمتد على هيئة مرتفعات من الشمال إلى الجنوب. من هنا، وصلنا بفضل طريق صخرية إلى قصر الجمارنة وهو عبارة عن بناية تعلو ربوة. وتوجد العديد من تلك الأطلال المتشابهة في منطقة مرمرة إن موقعها وسمك جدرانها، وآبارها، جعلتني أفترض بأنها بقايا لنقاط عسكرية كانت تستخدم في الماضي لحماية القرى المجاورة والطريق العام من غزوات البدو القدامى. قد تصبح هذه الفرضية أكثر ترجيحاً إذا تذكرنا أن الرومان كانوا غالباً مجبرين على محاربة سكان مرمرة Marmarides ليس من أجل إخضاع تلك القبائل، ولكن من أجل ضمان حرية التنقل والاتصال بين مصر وبرقة[1]. زودتني عملية فحص الصهاريج الواقعة قرب قصر الجمارنة ببعض التفاصيل الهامة حول طريقة وكيفية نحتها في الصخور.

حفرت تلك الصهاريج في شكل أحواض مربعة منتظمة الحوافي يصل الجانب الواحد فيها إلى نحو عشرين متراً (20) رغم أنها تحتوي على كميات كبيرة من الطمي الذي جرفته إليها السيول.

إن ارتفاع الصهريج الواحد الذي يبرز فوق هذا الطمي يصل إلى أربعة أمتار. أما غطاء الصهريج الواحد فيتكون من كتلة صخرية صلدة تعلوها فتحات ثلاث ويبلغ سمكه نحو ثلاثة أقدام.

يقوم هذا السقف الصخري على ثلاثة أعمدة صخرية مربعة وتغطيها طبقة من الإسمنت الذي يميل لونه إلى الحمرة والذي يتكون من طوب مسحوق ورمل ورماد. نجد أيضاً أن جوانب الصهريج الداخلية مغطاة بطبقة مماثلة ولا يوجد أي أثر لهذا الإسمنت على الأسقف.

لاحظت كذلك أن السقف في الصهاريج الأربعة الأخرى المتاخمة للصهريج الكبير غير متساوية في سمكها، وبأن تلك الأسقف مكونة من طبقتين وأحياناً من ثلاث طبقات صخرية.

= كما يذكر هذا الاسم أيضاً بالقبيلة العربية الشهيرة «بني سليم» التي كانت تحتل في القدم، حسب ما ذكره المقريزي، بلاد برقة وأفريقيا والتي كان يتبعها عدد كبير جداً من البربر.

(1) C.f. Joseph de Bello, Jud. 11,16. vopissus. Vit Prob.

قد يكون هذا الاختلاف في السمك ناجماً، بدون شك، عن صلابة الصخور وتماسكها أو عن الحوادث التي وقعت أثناء عملية حفر تلك الصهاريج.

توجد على مسيرة ساعتين نحو الشمال من قصر الجمارنة، آبار كثيرة وآثار لأساسيات معمارية لا تبعد كثيراً عن الرأس الأرضية التي تشكل الطرف الآخر لخليج العرب.

يطلق السكان الحاليون على هذه الرأس الجبلية اسم «الهيف» el Heyf ويبعد عن العقبة الصغرى مسيرة اثنتي عشرة ساعة[1].

لم أجد، أثناء تجولاتي في تلك المنطقة، أي شيء يذكر من الناحية الأثرية. أما الأمكنة العديدة مثل السمبق Asambak وغفيرة Ghefeirah، التي تظهر على الخارطة، فهي ليست سوى تكرار لتلك الأطلال التي قمت بوصفها. مهما كانت درجة جدب وبوار هذه المنطقة الآن، لا بدّ وأنها كانت عامرة جداً لأننا لا نسير كثيراً، نصف ساعة من المسير تقريباً، حتى نصل إلى بقايا أثرية لقرى عتيقة وصهاريج وقنوات لتوجيه مياه الأمطار إلى تلك الصهاريج.

---

(1) يتمشى موقع الهيف، كما ذكر سيلاكس Scylax مع موقع قرية Leuce-Acte الذي يحدد هذا المؤلف موقعها على بعد مسيرة يوم وليلة بحراً من خليج بلنثين. ذكر أيضاً أنه في حالة الرغبة إلى الوصول إلى تلك النقطة فإننا نحتاج إلى ضعف تلك النقطة. عليه، ووفقاً لهذه المقاسات، فإن أبعد مكان في هذا الخليج لا يمكن أن يكون أي شيء آخر سوى النتوء الجبلي Harmaea وهو المسمى حالياً برأس الكنائس وهو نفس الموقع الذي حددته الرحلة المجهولة «انظر Iriarte, V1. P.485» وكذلك العديد من المؤلفين «انظر Cellar. V.II. P.66» الموقع بلدة لوس أكتي.
ـ أترك لكبار العلماء مشقة التوفيق، إن أمكن ذلك، بين هذه الفقرة عند سيلاكس والعديد من روايات الجغرافيين القدامى. أكتفي فقط بملاحظة أن بروز الهيف، وفقاً لما ذكر هؤلاء ينطبق كثيراً على موقع دريس.
أما فيما يتعلق «بالصخرة السوداء» التي ذكر استرابو أنها تقع بالقرب من دريس فربما نجدها، إذا احتاج الأمر، وكما قلت أنفاً، في الحراشف الصخرية التي تحيط بالهيف. إن العديد من الآثار السكينة التي توجد غرب تلك الرأس الأرضية التي مسافة من الساحل، فإنها تذكرنا بالبلدة الصغيرة المسماة «انتفراي» Antiphrae التي تحدث عنها سترابو. «انظر L.XVII. 5.8.».

الفصل الثاني

العقبة الصغرى ـ القصبة الزرقاء ـ رموز وحروف فوق المعالم الأثرية. باريتونيوم «مطروح» ـ قبور عربية ـ أبيس ـ حجيج ـ أمطار

يشير بطليموس[1] إلى وجود مرتفعين شاهقين في ساحل مرمرة. يدل هذا الاسم الذي يطلق على قريتين قديمتين، ويدل أيضاً، كما نعرف، على الوديان التي يشرف عليها هذان المرتفعان. قد يكون العرب قد استرشدوابهذا التقليد أو بالمظهر البسيط للمنطقتين فأطلقوا على المرتفع الأول «العقبة الصغرى» وعلى المرتفع الثاني «العقبة الكبرى». تعني العبارة الأولى المنحدر البسيط بينما تعني العبارة الثانية المنحدر الصعب أو الوعرة أو الشديد. وهذه نفس الأسماء التي أطلقها جغرافي الاسكندرية بطليموس ـ على هاتين المنطقتين. Catabathmus Parvus العقبة الصغرى Catabathmus Magnus العقبة الكبرى. وهذا أمر مثير للغاية وجدير بالملاحظة. تتقدم تلال العقبة الصغرى نحو البحر بحيث يصبح الرأس الأرضي الذي يسمى «الكنائس»[2] هو ذات المكان الذي أسماه نفس المؤلف المذكور Hermaea Extrema. تتجه تلك التلال من الشمال إلى الجنوب وتمتد، وفقاً لما يذكره العرب، على هيئة مرتفعات متقطعة حتى واحة «قارة» Gharah مع ميل بسيط أو ضعيف نحو الغرب.

---

(1) Cell. Géo. Anti: t II. P.66. -/-Polyp. Excerp. CXV.

(2) يتكون الساحل غالباً، من أبوصير حتى العقبة الكبرى، من سد من الرمال التي يميل لونها إلى البياض. لم أستطع أن أحدد فيما إذا كانت جوانب رأس الكنائس تحتوي على أي مكان ذي أرضية من الرمال ناصعة البياض. وهذا هو سبب تسميته بـ«الأرض البيضاء» Leuce. Acte في القدم.

إن هذه الهضاب التي يصل ارتفاعها على مستوى سطح البحر نحو خمسمائة قدم «500» تشكل، إن صح التعبير، أولى درجات المرتفعات التي تأخذ في الارتفاع تدريجياً حتى تصل إلى جبال قرنة.

عبرنا تلك المرتفعات في اليوم الرابع عشر للرحلة عند الظهر وعسكرنا في المساء عند مجرى مائي شديد الانحدار كونته السيول.

بدأت مياه الأمطار تتخلل شقوق الأرض التي شوتها أشعة الشمس الأفريقية المحرقة وجعلها صلدة. كنا ننتظر سقوط هذا الغيث النافع بفارغ الصبر. كان الاحتفال بهطوله صاخباً عند البدو الرحل في بلاد لا يجري فيها أي نهر ولا يتدفَّق فيها أي جدول.

ويا له من منظر ممتع الذي يقوم به السكان في هذا الفصل من السنة! تتحرك كافة الأسر المبعثرة في أطراف الصحارى من الاسكندرية حتى خليج بومبا. تتساءل تلك الأسر المتنقلة عن أفضل المناطق التي حبتها الطبيعة. عندما يتم تحديد تلك المنطقة، يهرع الجميع بالرحيل إليها.

يتم استخدام الإبل والجياد في حرث الأرض وشقها ثم تبذر بعد ذلك الحبوب التي تشكل جنباً إلى جنب، مع الحليب، الغذاء الرئيسي لهذا الشعب، رغم أن تلك القبائل همجية إلا أنها تمتلك تقاليد مضيافة وبسيطة.

قد جذبت مياه السيول إليها العديد من البدو على ضفتي الجدول، ولاحظنا علامات الفرح والحبور مرسومة على وجوههم بل وتظهر حتى على الأعمال التي يقومون بها، فبعضهم يعد الأدوات الزراعية بينما يقوم البعض الآخر بكيل الحبوب التي يراد بذرها هنا وهناك. إن هذه الاستعدادات تتم بنشاط وحيوية لا نظير لهما عند هؤلاء الرجال الذين يمتازون عادة بطباع حادة ويلتزمون دائماً بالصمت. ويبدو أن قطعان الأغنام قد وجدت هنا حياة جديدة. لقد لاحظنا الحيوانات الهزيلة وهي تقفز قرب السيل وتتجمع حول الشجيرات، بينما تقفز الإبل الجلدة بتثاقل يلائم حجمها وعاداتها، وبطونها الممتلئة بالماء المنعش. لقد جاء هذا الحبور وهذا الرخاء بالنسبة للحيوانات بفضل قليل من الخضرة المألوفة في بلداننا وبرك المياه الجارية في هذا الإقليم اليباب. إن الرضا يؤدي إلى الكياسة وذلك حتى عند الشعوب المتوحشة جداً، ولذا تم استقبالنا بلطف وترفق من قبل هؤلاء الرعاة، ولم يعد للقبي «كنصراني» أي وزن. لقد أخبرتهم بأننا نتجه إلى درنة في تجارة ويبدو أنهم صدقوني.

أصر شيخ المعسكر البدوي «النجع» أن يحتفل بوصولنا عن طريق إعداد وليمة فاخرة. وأمر بذبح خروف لتقديمه بالكامل إلى ضيوفه وذلك طبقاً للعادات والتقاليد القديمة التي لا تزال سارية بين هؤلاء البدو الرحل. لقد خصني الشيخ إبراهيم بحفاوة بالغة وتحدّث إليَّ بصراحة لم يعودني عليها البدو من قبل. لقد أتيحت لي الفرصة مرة أخرى، لكي أتأكد من أفكار هؤلاء الرجال تكسب غالباً في صدقها ما تخسره في حجمها نتيجة الجهل وطريقة العيش.

شكلت مشروعات الولي «محمد علي» لا سيما «نظامه الجديد» محور أحاديث سكان المنطقة. قال لي الشيخ إبراهيم بعض الملاحظات السديدة حول الأحداث التي تمر بها مصر، وحول النتاج التي قد تؤدي إليها وعندها استرعت انتباهي أمور أخرى أهم من الحديث السياسي لهذا الشيخ.

في الوقت الذي كانت فيه العجائز من النساء تعد وليمة الضيوف، وتفرش البسط بداخل الخيمة، كانت الفتيات، بعد أن رفعن أطراف أرديتهن فوق رؤوسهن، قد انتشرن في البرية لإحضار القش والأغصان اليابسة، التي تشكل الوقود الرئيسي، في هذه المنطقة الخالية من الأشجار.

لقد كنت أتابع تحركاتهن الرشيقة وقوامهنَّ الجميل أو تثاقل مشيتهن وركضهن، وكنت أستمع بسرور إلى أهازيجهن التي تتناقض في نغماتها القوية مع أصواتهن العذرية. تنشد واحدة منهن فقط، وفقاً للعرف السائد، الأغنية بكاملها بينما تردد رفيقاتها القافية الأخيرة فقط.

بينما تقوم المنشدة، بكل بساطة، برواية قصة حب يائسة وعلى وتيرة واحدة، لشاب يحب فتاة تدعى فاطمة، أجمل زهرات الصحراء ولكنها تنتمي إلى قبيلة معادية.

بينما تصور المنشدة هذا العاشق وهو وحيد في خيمته ولم يعد يكترث «بقانون الثأر» من القبيلة المعادية، ويترك جواده مهملاً دون رعاية في الوادي، تقاطعها رفيقاتها بين الفينة والأخرى وهن يرددن «يا علم... يا علم..» وتعني هذه العبارة «آه من الحب.. آه من الحب».

توقفت بعد ذلك الأهازيج وخيم الليل على تلك اللوحة البديعة والزاهية التي وقعت عليها أبصارنا. لم أتأثر أبداً بسعادة العيش وبساطة الحياة العربية كما تأثرت هذه المرة. لقد كانت تساورني أفكار كثيرة لا أحب أن أخفيها عن القارىء. جاء بعد ذلك صوت الشيخ

إبراهيم لينتزعني من هذه التأملات وسمعت كلمة «بسم الله» إيذاناً ببدء تناول الطعام. لقد حضر كل أعيان النجع هذه الوليمة.

بينما كان الشيخ يتناول الطعام كانت الشابات الملتحفات بأرديتهن يقمن بتوزيع أقدام الحليب الكبيرة التي تدار بيننا لنشرب منها جميعاً. حان الوقت الآن لإنهاء تفاصيل هذه الحكاية واستئناف خيوط الأفكار التي تتصل برواية رحلتي.

تركنا في اليوم الخامس عشر، وبكل أسف، هؤلاء الرعاة الطيبين الذين استقبلوننا بهذا القدر من الحفاوة. وصلنا بعد مسيرة ساعتين من مغادرتنا لهم إلى مرتفعات تسمى مندار المده Mendar el Medah وتقع شمال غرب أو جنوب شرق المكان الذي قدمنا منه. وهنا تركت القافلة وذهبت برفقة مولر للتجول في وادي ثاوان Thaoun جنوب هذه المنطقة. لقد شاهدت أن بعض شُعَبِ هذا الودي كانت خصيبة وبعضها الآخر قاحلة.

تمتد الشُعَبُ مسيرة ثماني ساعات عن شاطىء البحر حتى بئر ثاون الذي يقع في طرف الوادي الذي يحتمل نفس الاسم.

كانت تلك المنطقة آهلة جداً بالسكان نظراً لوجود العديد من بقايا الأساسات القديمة غير أننا لم نعثر على أي بناية قائمة. اتجهنا بعد ذلك صوب بئر ثاون في اتجاه الشمال الغربي فوصلنا، بعد مسيرة سبع ساعات، إلى معلم أثري مهم يسمى «القصبة الزرقاء»[1]. تقع هذه البناية على ربوة تجعله واضحاً للعيان من بعيد. كان الشكل العام لهذه البناية مربعاً ويبلغ طول الجانب فيه أو الجدار نحو سبعة أمتار (7)م. تم بناء هذا الصرح على قاعدة عريضة وعليها العديد من الأعمدة، كما يكشف الجانب الجنوبي للبناية عن إطار بارز يمثل المدخل (انظر اللوحة 4-2) لكن المدخل الحقيقي يوجد في السقف وهو عبارة عن فتحه مربعة يبلغ طول الجانب الواحد فيها متراً ونصف المر تقريباً. اتضح أن الجزء العلوي في هذه الفوهة ناقص وأنها كانت محاطة بحراشف صخرية لا تزال بعض من شظاياها منتشرة في الجوار.

كان المبنى خالياً وكانت الجدران تكبر في سمكها كلما اتجهنا نحو القاعدة مما يعطي انطباعاً بأن تلك الجدران مائلة. لقد وجدت في هذه النيابة الصغيرة بقايا لعظام أدى وجودها في العراء وتخلل الهواء لها إلى تحولها إلى غبار. أعتقد أن هذا المبنى كان ضريحاً شيد في عهد البطالمة.

---

(1) تعني كلمة قصبة في اللغة العربية القرية الصغيرة، الضيعة، الكفر.

وجدنا، على مسيرة ساعتين شمال هذا الأطلال، معلماً أثرياً ثانياً، كانت قياساته وأبعاده أكثر أناقة من سابقة، فأحجار الأساسات كانت أصغر وكانت أركانه مزخرفة غير أنه كان أقل حجماً من سابقه.

كان هذا المعلم مشيداً على مصطبة مستديرة تشرف على أربعة صفوف من السلالم الصخرية التي سولت قمتها ونحتت في الصخر على هيئة سور على جانبي البناية (انظر اللوحة 4 شكل رقم 1).

تسمى هذه الأطلال القصبة الزرقاء أيضاً ولكن مع إضافة عبارة «البحرية» نتيجة لوقوعها شمال المعلم الأثري الأول.

يشبه هذا المعلم الأضرحة الكثيرة التي شاهدناها في برقة. فقط التقوس الداخلي للأسقف وطبقات الجبس فيها تختلف عن مثيلاتها في برقة ولذا فإنني أشك في استخدام هذه الأبنية لنفس الغرض.

شاهدنا في جوار هذا المبنى، أساسات قد ترجع إلى عهد مزدهر، وكهفاً يستخدم كمدفن ويحتوي على كوه.

كل تلك الآثار تدل على أو تشير إلى كونها موقعاً لمدينة قديمة ربما كانت تسمى جيزيس[1] Gyzis التي عرف مرفأها باسم «المهادة» Mahhadah ويقع إلى الشرق منها قليلاً.

يجب عليَّ، قبل مغادرة هذه الأطلال، ألا أغفل عن ذكر الرموز والإشارات التي شاهدتها. أنني أفضل، وفقاً للخطة التي رسمتها، أن أجمع الحقائق المتصلة ببعضها البعض وتقديمها بعد ذلك دفعة واحدة بدلاً من عرضها بالتفصيل حسب المكان الذي وجدت فيه الواحدة تلو الأخرى. إن مثل هذا النهج أو المنهج قد يزيل الأهمية المكانية لرواية الرحلة بحيث إنها لا تضع القارىء مباشرة أمام الأشياء الموصوفة، وفي المكان المحدد، ولكنه يساعد على اختصار تلك المعلومات وتفادي التكرار، كما أنه يتلاءم بشكل أفضل مع الملاحظات لأنه يجمعها معاً ثم يقدم نتائجها. لا شيء يبدو لي، في الواقع، قد

---

(1) لقد قلت جيزس Gyzis كما ورد هذا الاسم عند سيلاريوس Cellarius لكن دانفيل D'Anville كتب اسمها زيجيس Zygis الذي يدل على مدينة زغرن القديمة Zygren وحدد موقعها على بعد سبع مراحل من مدينة لوس أكتي Leuce-Acte.

يزيد من فائدة أي رحلة في بلد مجهول أكثر من مقارنة الأشياء المختلفة التي تنطوي عليها أو متابعة تسلسل العلاقات التي يكشف المرء وجودها أحياناً بين تلك الأشياء المتناقضة. رغم أن هذا التمحيص النشط لا يؤدي في أحيان كثيرة إلا إلى الشك، إلا أن هذا الشك قد يؤدي على الأقل إلى اكتشاف الحقيقة. وهكذا عندما كنت أفحص لأول مرة هذه الإشارات والرموز التي نحتت على عدة معالم أثرية في مرمرة شعرت أولاً بالدهشة أمام غرابتها، دون أن يستهويني مع ذلك.

وكما فعل شولز، فكرة نسبها إلى بقايا غامضة ونفيسة للغة تليدة غير معروفة!. عندما شاهدت نفس الإشارات والرموز على معالم أثرية جديدة وخاصة في القصبة الزرقاء القبلية والقصبة الزرقاء البحرية، لم يتأكد لي فحسب الرأي الأول عنها بل أيضاً تأكد عندي اعتقادي بمعرفة أصلها وذلك وفقاً للملاحظات التالية:

أولاً، علينا أن نميز بين تلك الإشارات والحروف اليونانية التي لا علاقة لها بها وهي حروف قد يشاهدها المرء أحياناً على معالم أثرية. إن هذه الإشارات منحوتة بصورة انتظامية تارة وبشكل غير منتظم تارة أخرى ومنها ما يرجع إلى عهود سحيقة مثل هذه الإشارات:

A Λ Z Δ N AB BB BΓ,

N Λ H Γ, ፐ Ψ Y

لقد كانت هذه الحروف والإشارات التي جمعتها هنا مبعثرة على عدة أبنية، وهي ليست بقايا لنقوش لأن المرء لا يشاهد أكثر من حرفين منها كما أنها متفرقة وتفصلها مسافات كبيرة في كتابتها. قد تكون هذه الرموز، طبقاً لما أراه مرجحاً، علامات وإشارات وضعها المهندسون والمعماريون الذين رفعوا أساسات هذه المعالم الأثرية. أما بشأن الإشارات التي أعتقد أنها أهم من الحروف والتي لا تنتمي إلى أية أبجدية لغوية معروفة، والتي أثارت بعض الجدل الاشتقاقي ومنها تلك الإشارات السابقة التي وجدت في ساحل مرمرة(1).

---

(1) وردت أغلب تلك الإشارات في كتاب شولز «رحلة من الإسكندرية إلى مطروح» Voyage d,Alex. à Paract. P.56.

أعتقد إذاً أن تلك الإشارات عبارة عن علامات وإشارات خاصة، لا سيما وأنها منتشرة بكثرة على المعالم الأثرية بطريقة غير منتظمة ودون ترتيب. ورد بعضها فجاً وقديماً جداً وبعضها حديثاً، كما يبدو لي. أحياناً يشاهد الإنسان مثل هذه الإشارات على معالم أثرية وعلى صخور عادية ولا يصدق ذلك البتة على الحروف الإغريقية المذكورة آنفاً. لا أعتقد أنه من المجدي، بعد تلك الملاحظات، أن نقول إنها بقايا للغة عتيقة لأن مواقع تلك الحروف وتواليها لا تجيز لنا أن نجزم بأنها تشكل كلمات.

ولكن إذا كانت المسائل الاشتقاقية التي طرحها من سبقني في هذه الرحلة فقد فقدت من أهميتها التي أثارها في محيط العلماء، فإنه لا يزال أمامنا حل طلاسمها. يبدو أن هذا الحل قد جاء بصورة طبيعية أولاً عن طريق منح نفس الطابع الذي أضفى على الحروف الإغريقية إلى تلك الإشارات. لكن ذلك، إن لم أكن على خطأ، يكون بمثابة تقويض الخطأ بالخطأ.

أرجو من العلماء أن يمنحوني لحظة من الانتباه إلى بضع ملاحظات أعتقد أنه من العسير على العلم أن يحل محلها. إن أولاد علي وكذلك البدو في الصحراء، بصورة عامة، معتادون، منذ أقدم العصور، على تمييز قبائلهم بفضل وضع علامات وإشارات معينة: إن قطعان الأغنام والإبل، بشكل خاص، تحمل علامات وسمات تساهم في التعرف عليها عند ضياعها أو إذا تاهت أو اختلطت بحيوانات أي قبيلة مجاورة أخرى.

كل قبيلة عربية، بل كل بطن من كل قبيلة عربية كبيرة، ابتداء من المغرب العربي وحتى تخوم الشام، تمتلك علامة خاصة بها، ولذا يمكننا أن ندرك السبب في التنوع اللانهائي لتلك العلامات والإشارات ودرجة بساطتها أو تعقيدها.

عندما تكبر القبيلة يتم إضافة إشارات أخرى إلى الإشارة الرئيسية بحيث تساعد الإشارات الجديدة على التمييز بين العشائر وبالتالي التمييز بين ممتلكاتها. ولهذا السبب فقط، رأيت عند القبائل التي عرفتها نفس الإشارة أو العلامة المميزة ولكن مع تعديلات أو اختلافات طفيفة التي لا تخفى على فطنة البدوي المتمرس. ولكي نقصر كلامنا على البلد التي تعنينا الآن فإن هذه العلامات مثلاً قد انتشرت ومنها هذه العلامة O أو هذه + مقترنة بخط واحد ــ أو خطين أفقين = أو عمودين ا ا أو مائلين// \\ إن العلامة الأولى مثلاً منتشرة عند قبيلة الحرابي Harabi والثانية عند أولاد علي، لاحظت أن هذه العلامة مثلاً //Λ خاصة بقبيلة «ساملوس» أما هذه الإشارة ⫪ فخاصة بالبدو في منطقة

سرت[1] ينبغي أن نضيف أيضاً بأن البدو كانوا قد اعتادوا على وضع تلك الإشارات والعلامات المميزة لقبائلهم على المعالم الأثرية وأحياناً على الصخور المسطحة[2]. إن كل هذه الإشارات تعود إلى نفس الأصل وإلى نفس المبرر أو السبب، كما يمكن تفسير الخلافات والفوارق بينها بسهولة وذلك عن طريق افتراض أن تلك الإشارات قد كتبت من قبل بدو غرباء من المنطقة التي كانوا يعبرونها، أما البعض الآخر فيعود إلى قبائل الآن منقرضة. إن تلك الفرضية محتملة جداً لا سيما وأننا نعني الأمانة التي يتمسك بها البدوي فيما يتعلق بتقاليد السلف ولذا تراه دائماً يسعى إلى البحث عن الأعراف والتقاليد القديمة إذا غابت عنه تلك التقاليد أو لم يجدها تحت ناظريه[3].

---

(1) يضع البدو تلك العلامات على الإبل بواسطة الحديد الساخن وبطريقة تجعل تلك الإشارات واضحة للعيان حتى وهي محملة. يمكن مشاهدة تلك العلاقات إذا على رؤوس الإبل إذا كانت بسيطة. أما إذا كانت تلك العلامات مركبة أو معقدة فتوضع على الأكتاف أو الأصداغ أو الأنوف، كما أن موقع تلك السمات يميز أيضاً بين القبائل.

(2) إن هذه الملاحظة التي ذكرتها من قبل قد أدهشتني أكثر في قرنة، فقد كان الدليل الذي يرافقني في نزهاتي، وهو من قبيلة الحرابي، يصرخ أكثر من مرة عند عبورنا للوديان في برقة ويقفز وهو يشير إلى كتابات على الصخور العريضة مثل «الله يلعن... الحمدلله اللي أولاد علي خلو بلادنا»... إلخ.

(3) لقد حررت هذا الجزء من رواية رحلتي عندما نشر كل من دينهام وكلابرتون فحوى رحلتهما إلى دواخل أفريقيا وذلك بالاشتراك مع المرحوم أودني. إن التفاصيل التي يحويها هذا الكتاب من بعض الرسومات والإشارات الطارقية تبدو لي مقاربة للإشارات التي كنت قد ذكرتها. وعليه، لكي أقوم بتقدم هذا الموضوع، فإنني سأعتمد على الترجمة الفرنسية للكتاب وهي ترجمة قام بها كل من أياريس Eyres ولارونوديير. إن صحة ودقة الترجمة مضمونتان بفضل هذين المترجمين العالميين. فيما يلي الحروف الطارقية مع ترجمة لأصواتها كما تم نشرها في كتاب الرحالتين المذكورين:

+	Yet.	يت	//	Yiu.	ليو
⁝	Yout.	يوت	#	Youz.	يوز
⁘	Youf.	يوف	ⵣ	Jz.	جز
:	Yow.	ياو	H	...	هـ
•	È.	آيه	w	You.	يو
ʘ	Yib.	يب	Λ	Yid.	يد
ɵ	Yes.	يس	ⵎ	Yir.	ير
ℶ	Yim.	يم	S	Yei.	يّ
Ʒ	Yiche.	يش	ⵉ	Yaï.	ياي
			/	Yin.	ين

في اليوم السادس عشر، وبعد مسيرة ست ساعات في اتجاه شمال غرب القصبة الزرقاء وصلنا إلى مرفأ بحري ذي موقع جغرافي ممتاز وعلى تلك الشواطىء الرملية المغطاة بوشاح من الطحالب، رأيت بقايا منخفضة لقرية صغيرة ولم أميز بين ذلك الحطام سوراً كبيراً لبناية بارزة.

كان هذا السور قد شيد بطريقة فجة ولكنه يحتوي على أحجار تعود إلى عصر قديم.

لقد تم تشييد ذلك المبنى من قبل العرب الحاليين بفضل أحجار العالم التليدة وكان هذا المبنى، وفقاً لما ذكره دليلي، يستخدم كحصن عندما كان أولاد علي يحكمون هذه

= لقد رآها أودني ولأول مرة مرسومة على معالم أثرية رومانية في جرمة في إقليم فزان. «الجزء ـ 1 ـ ص 65» ثم عثر بعد ذلك على المزيد منها منحوتة على الصخور في جميع المناطق التي يتردد عليها الطوارق «نفس المرجع ص 68 وص 105» ولاحظ أن العديد من تلك الإشارات يرجع إلى قرون غابرة بينما يعود البعض الآخر إلى عهد حديث «انظر نفس المصدر ص69». عثر بعد ذلك على شخص يعرف العديد منها ولكن لم يجدأبداً من يفهم معانيها جميعاً «نفس المصدر ص 70» كما أنه لم يعثر على أي كتاب مكتوب بهذه اللغة «نفس المرجع ص 99». إن هذه الحقيقة وضعت عقله في سبات كما يقول لقد أغفل أودني أن يخبرنا عما إذا كانت هذه الحروف قد وردت في نقوش متتابعة، ولكنه ذكر، في الحقيقة، بأنها كتبت بطريقتين، من اليسار إلى اليمين وبالعكس كما أنها كتبت أيضاً في شكل أفقي. يبدو أن ذلك يشير، دون التأكيد على وجود أي تسلسل أو ترابط بين تلك الحروف، إلى نفس الفوضى في الترتيب. اعتبار الوضع تلك الحروف، مثل تلك التي شاهدتها بأم عيني في برقة تفتقر إلى الترتيب. ربما قام محليون بنطق أصوات تلك الحروف والإشارات أمام الرحالة «اودني» غير أنه لا أحد منهم يفهمها جميعاً. يبدو أن بعضها قد خط حديثاً جداً. إذا لم يستطع أحد من الطوارق أن يفهم أو يعرف تلك الحروف فكيف يمكنه إذاً أن يستخدمها؟ وإذا كان قد استخدمها فعلاً ألا يمكن لهذا الطارقي أن يمتلك كتاباً آخر غير الصخور، لنقل إن كل ما هو ممكن كحرف يكون إشارة أو علامة للقبائل العربية. يؤكد أودني أن سواد الطوارق من الرحل «الجزء 1 ـ ص 71» وأؤكد أنا بأن كل الرحل في أفريقيا* وغيرها معتادون على التمييز بين مختلف القبائل عن طريق علامات وإشارات توضع أحياناً حتى على الصخور والمعالم الأثرية لأشعر بالدهشة إذاً إزاء قيام الطوارق بالإكثار من كتابة تلك الحروف «والإشارات» المتعلقة بقبائلهم على الصخور وهم يفضلون المناطق النائية وكانوا يلجأون دائماً إلى الجبال «نفس المصدر ص 71». لقد تم العثور على تلك الحروف عند البدو الرحل في الصحراء وليس في المدن الحضرية ولا يعرف المحليون كافة تلك الحروف بل يعرفون بعضها دون البعض الآخر وعليه فإنه لا يوجد ما يمنع من القول بأنها مجرد «إشارات وعلامات» مثل التي صادفتها في برقة، وتعود إلى قبائل عاشت في عصور متفاوتة ومختلفة. وأخيراً وختاماً، لم يستطع أودني أن يعثر على كتاب محرر بحروف طارقية كما كان شولز يحاول دون جدوى أن يعثر على إشارات منحوتة بحروف عربية أصيلة، عند حديثه عن الإشارات والعلامات التي وجدها في مرمرة**.

* أدرك الطوارق، مثلهم في ذلك مثل العرب، يضعون علامات قبائلهم على الإبل.

** رحلة شولز من الإسكندرية إلى مطروح «بالألمانية» ص 54. ٣

المنطقة كأسياد. ولم يبق من تلك البناية الهشة، رغم كونها فسيحة، سوى هذا السور الذي يرتفع بضعة أقدام على مستوى سطح الأرض. سوف أتطرق فيما بعد إلى أسباب تدميره والعصر الذي تعرض فيه للدمار.

يعرف هذا المكان باسم ألبرتونيوم الشهير Paraetonium [1] «مرسى مطروح. . المترجم» التي عرفها قدامى الجغرافيين والتي ذكرت في أمكنة متعددة في التأريخ.

إن اسم بارتون الذي ذكره علي الغاوي غير معروف كثيراً لدى العرب حالياً. لقد استبدلوه باسم «بيرك» الذي لا يشابه التسمية القديمة.

هناك العديد من المسائل التي تميز تلك المدينة القديمة إما لأنها كانت تعتبر عاصمة للبلاد الليبية[2]، وإما لأنها أصبحت بمثابة محطة Boulevard للأمبراطورية الرومانية في مصر[3]، وإما لأنها قد وردت على أساس أنها كانت الملاذ الذي فر إليه أنطونيو وكيلوباترا[4] أو لأنها كانت نقطة انطلاق الإسكندر الأكبر نحو معبد جوبيتر في واحة آمون التي كانت تسمى أيضاً آمونيا وهي واحة محاطة بتلال صخرية عميقة «عارية».

لم تحصل تلك البلدة على شهرتها تلك إلا بفضل مينائها الذي يحميه صف من الصخور الضخمة، والذي تبلغ مساحته، حسب ما ذكره استرابو، نحو أربعين فرسخاً «مرحلة»[١]. إن الوضع في العصر الحالي يؤيد هذه الملاحظة لأن ميناء برك، من بين كافة موانىء مرمرة القديمة، لا يزال فسيحاً رغم زحف الرمال عليه حالياً بل ولقد كان الميناء الوحيد الذي استقطب بدو «جريم» وأدى إلى وجود نوع من النشاط في قلب الكآبة والعزلة التي تحيط به.

---

(1) أعتقد أنه من قبيل الحشو أن نلح على تشابه موقع باريتونيم الذي تحدث عنه القدامى مع موقع بارتون الذي ذكره الغاوي، أو عن «مرسى بريك» الحالية. من المفيد أن نلاحظ هنا أن المسافة التي ذكرها كلاً من استرابو وأريان من الإسكندرية إلى هذا الموقع تتمشى تماماً مع ملاحظات غوتية إذا اعتبرنا أن «المراحل» التي تحدث عنها استرابو هي سبعمائة في الدرجة الجغرافية الواحدة وإذا انتهجنا أقصر الطرق أو إذا اعتبرنا مراحل Arien على أساس السفر، كما فعل الإسكندر المقدوني، بالالتفاف على تعرجات الساحل، شريطة أن تحسب المراحل بسبعمائة في الدرجة «انظر استرابو جزء 18-1 ص 8 وأريان جزء 1-4.3، والخارطة العامة التي رسمتها بنفسي».

(2) Mannert, Geog. des Grécs de Rom. t.x. Part. II.P.19.

(3) Procope, De Aedif, Lib. V12.

(4) Florus, Lib IV,II.

كان أولاد علي قد أحالوا هذا المرفأ إلى مستودع لتجارتهم، واستقر العديد من شيوخهم بالقرب منه حيث قطن الكثير منهم بذلك القصر أو الحصن الذي أشرت إليه آنفاً والذي أسموه، بشيء من المغالاة أو الفخر، بـ«القلعة» وذلك مثلما كان يطلقون اسم بستان على قطعة بها بضع من شجيرات النخيل التي يتم العناية بها ورعايتها.

كانت المناطق المحيطة بمرسى بيرك موقعاً لنجوع البدو، وكانت القوافل القادمة من سيوة أو جالو تتجه إليه بأحمالها من التمور. كان السكان يأتون من أكثر مناطق مرمرة بعداً لمقايضة أصوافهم وحبوبهم بالأدوية والطرابيش[1] القادمة من درنة أو طرابلس أو بالبارود والخيام والأسلحة القادمة من الاسكندرية. إن مشروعات الباشا المصري لا تناسب النزعة الاستقلالية لقبيلة أولاد علي. لقد كانت تعمل على تقويض ذلك الاستقلال بل ولقد لجأ الباشا إلى استخدام القوة تارة، وإلى استخدام الدهاء تارة أخرى.

لقد قام بإغراء الشيوخ بالحضور إلى بلاطه ثم دمر التحصينات التي خلفوها بعد ذلك. أجبر أولاد علي، رضوخاً لعبقرية هذا الرجل غير العادي، على مقايضة مرسى بريك بمدينتي دمنهور والاسكندرية[2]. قامت رياح الصحراء، منذ ذلك الحين، بدفن بقايا المزروعات وتلك المساكن التي لم تكن أبداً، على طول ذلك الساحل، قرية لها.

من النادر جداً أن نعثر على قبور عربية قرب المعالم الأثرية لمرمرة وخاصة قرب الأضرحة المشيدة على ربوات. لقد لاحظت هذا الأمر لأن الدفن بالقرب من تلك الأضرحة مخالف تماماً للأفكار الدينية للسكان.

إن كافة المعالم الأثرية القديمة، وفقاً لأفكارهم ومعتقداتهم الخاطئة التي تضاف إليها عقيدة دينية وثيقة، قد بنيت من قبل نصارى، وإن كافة المدن المدمرة اليوم كانت مقراً لسكن هؤلاء النصارى.

كيف يمكن بالتالي، أن يتم التوفيق بين الكراهية التي يكنونها لمجرد لقب «نصراني» والازدراء الذي يبدونه نحو أعمالهم وبين هذا العرف الثابت المتعلق بدفن رفاة ذويهم ومعارفهم بالقرب من تلك المعالم التي يحتقرون من بناها ويزدرون الهدف من إقامتها؟

---

(1) Bonnet de drap rouge que portent les Orientaux.
غطاء رأس أحمر يرتديه في الغالب الشرقيون.

(2) وقعت تلك الأحداث، وفقاً لما ذكره اللواء مينوتولي 1819. انظر الرحلة إلى واحة آمون ص 64.

أترك إلى غيري مشقة تفسير مبررات ذلك الخيار الذي يقترن بتزمت شديد يتناقض مع العبقرية التدميرية التي تميز عادة هذه الشعوب.

إن الإبداع الفني الذي يظهره العرب في بناء قبورهم يتناقض، بصورة فريدة وواضحة، مع المباني العتيقة التي يقيم العرب مقابرهم بالقرب منها.

عندما يتم وضع الجثمان في القبر، تقتصر التشريفات الجنائزية على إقامة جدار بسيط ومنخفض يحيط بالقبر أو على مجرد وضع صفوف من الحجر على شكل بيضاوي.

توضع بعد ذلك صخرة منحوتة على شكل صفيحة أو شظية من الحجر على شكل عمامة تدل على موقع رأس الميت في قبره (انظر اللوحة رقم 4 شكل رقم 2). إن الحرص على عدم وضع الجثمان نفسه لا يخلو من أهمية: «لكي تكون الأرض خفيفة على الميت».

هذا هو الدعاء الذي يبتهلون به دائماً فيما يخص النبي (ﷺ... المترجم). نظراً لحرصهم هذا، فإنهم يتبعون المعنى الحرفي ولذا فإنهم يستبعدون وضع الأحجار أو أي شيء آخر قد يشكل فعلاً، على جثمان المتوفي.

قد يشاهد المرء أحاناً، في تلك الفيافي، بعض الأضرحة المشيدة بعناية على نفس النمط أو الشاكلة، غير أنها تختلف عن القبور العادية لأنها مشيدة بالإسمنت. تعتبر تلك الأضرحة قبوراً للشيوخ والأولياء.

لقد اعتاد المسافرون لاسيما الحجيج[1] على التوقف في الأماكن التي توجد بها مثل تلك القبور من أجل طلب حماية الشيخ المتوفى أو قراءة آيات من القرآن بالقرب من قبور تلك الأرواح المقدسة[2].

لقد شاهدت أحد تلك الأضرحة في مرسى بريك وهو ضريح شهير من سكان المنطقة لقد كان منظر القرابين الدينية التي تتوج ذلك الضريح المقدس مشهداً عجيباً في تلك المفازة. توجد العديد من المصابيح على ذلك القبر ويأتي البدو لإضاءتها في المناسبات الكبرى. نجد أيضاً العديد من قطع القماش المزركشة من شتى الألوان معلقة في عصى وتتراقص خفاقة بفضل الرياح وتختلط أحياناً بجدائل الشعر التي تضعها البدويات على

(1) الذاهبون إلى أداء فريضة الحج بمكة.
(2) Manes ـ عبارة تستخدم للسخرية وهي عند الرومان القدامى أرواح الموتى التي يعتبرونها كآلهة.. المترجم.

الضريح وذلك بالإضافة إلى العديد من الأواني المختلفة وبيض النعام. هناك قرابين أخرى أكثر غرابة من تلك التي شاهدتها تدل على فقر هؤلاء الرحل وعلى إيمانهم ببعض المعتقدات. وفي اليوم السابع عشر، ونحن نتجه نحو الغرب، بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف، وصلنا إلى منطقة بون الجوبة، وهي عبارة عن وادي خصيب يحده كثيب من الرمل من ناحية البحر، وبتلال منخفضة الارتفاع من الناحية المعاكسة. وجدنا أشجار النخيل مكتملة النمو. نحن لم نر قبل ذلك تلك الشجرة إلافي شكل فسائل صغيرة في مرسى بريك. لم نر تلك الشجرة كبيرة منذ أن غادرنا الإسكندرية.

كما وجدنا أيضاً أجمات أشجار التين جنباً إلى جنب مع أشجار النخيل.

إن مثل هذا المنظر يجعل الوادي بديعاً وشيقاً للنظارين خاصة لأولئك الذين اعتادوا على عراء وجدب الصحراء.

لقد أحصيت هنا أكثر من عشرة آبار محفورة على عمق نحو عشرين متراً وبها مياه عذبة جداً. لقد رأيت أن البدو قد أقاموا على جانبي كل بئر عمودين متصلين بعارضة Soliveau لا تزال تستخدم لوضع الحبل وإحضار المياه. لقد أقام البدو الحاليون جدراناً حول تلك الأبار لوقايتها من الأتربة وزحف الرمال أو لأحاطة تلك البساتين الصغيرة التي أصبحت الآن مهجورة.

يوجد على قمة التلة التي تحاذي جنوب الوادي بعض البقايا الأثرية لعدد اثنين من المباني لم يبق منها أي شيء قائم سوى القواعد فقط ويدعى أحد هذه المباني «قصر بوسويطي» Bou Souèty وهو على اسم أحد شيوخ عشيرة الشهيبات. لقد أقام ذلك الشيخ، لمدة طويلة، في هذا المحل حيث كان يتعهد الباستين ويعتني بأشجار النخيل والتين بفضل تلك الآبار. كنت قد ذكرت سابقاً أن مرسى بيرك كانت آهلة بالسكان حينما حولها أولاد على مستودع لتجاربتهم. إن خصوبة وادي بون الجوبه وقربه من مرسى بيرك، جلبت إليها النجوع العربية أو البدوية التي كانت تغطي آنذاك منطقة الساحل.

كان قصر بوسويطي محصناً وسط تلك الأنقاض، غير أن تلك التحصينات تعرضت، هي الأخرى، للدمار كما لقي سكانه نفس المصير الذي لقيه سكان مرسى بيرك أبان الكارثة التي ذكرتها آنفاً.

إن موقع بون الجوبه المميز، وكثرة آباره، وأطلال عمرانه القديم، والمسافة بينه وبين

بارتون[1] تمكننا من التأكيد على أن موقع هذا الوادي هو موقع قرية آبيس Apis التي كرست لديانة المصريين. لقد كانت آبيس وفقاً لما ذكره سيلاكس، نقطة الحدود مع مصر. نلاحظ اليوم أن بون الجوبه لا تزال تشكل الحد الفاصل بين دولتي مصر وطرابلس. قد يكون من الممتع معرفة مبرر اختيار المعاصرين لهذه الحدود. إن هذا الحد يعتبر أولاً دليلاً جديداً يضاف إلى العديد من الأدلة السابقة التي يمكن الاستشهاد بها حول مدى احترام السكان للتقاليد والأعراف القديمة.

بعد مسيرة ثلاث ساعات إلى الغرب من بون الجوبه، وصلنا إلى واد سحيق يطلق عليه البدو اسم «عرقوب سوف» ويصب في مرفأ صغير يسمى مرسى لبيث Lebeith.

إن البلاد التي نجوبها الآن منذ بداية العقبة الصغرى تمتاز بنفس المظهر والطابع؛ فهي تتكون من أرض صلصالية مخلوطة بالرمل الذي يضفى عليها اللون الأصفر وهي أرض صخرية بقدر يزيد أو ينقص. لقد شاهدنا بها أطلالاً لأبنية وآثار لصهاريج فارغة أو لأسقف لها.

إن أرض منطقة العقبة الصغرى مرتفعة قليلاً بشكل عام، كما أن سطحها أكثر قليلاً في الارتفاع والانخفاض من وادي مريوط. إن أراضي هذه المنطقة الصالحة للزراعة تشتمل على ربوات صخرية عارية وتستمر هذه المنطقة على هذا الطابع لمدة ست عشرة ساعة من المسير أي من مرسى لبيث حتى الشامس Chammès التي وصلنا إليها مساء اليوم الثامن عشر. دون أن نشاهد أي شيء جدير بالذكر طيلة تلك المسافه.

كان يوجد في هذا المكان الأخير قصر عربي قديم أطلق عليه الأدريسي[2] اسم «برج الشماس». لا تزال أسواره المشيدة بصورة فجة، بارتفاعها الأصلي.

---

(1) حدد سترابو المسافة بين بارتون وأبيس بمائة مرحلة Stades ولكنني لم أسر سوى لمدة ثلاث ساعات ونصف لكي انتقل من الموقع الأثري الأول إلى الموقع الأثري الثاني. هذا يعني أن المسافة لا تتعدى ثمانين مرحلة (80) في كل ستمائة درجة جغرافية غير أن المسافات قد قيست بساعات المسير ولذا فهي عرضة للتفاوت. نظراً لأن سترابو قد استخدم مقاييس اكبر، فإنني أعتقد أن هذا الفارق البسيط يمنعنا من اعتبار أن موقع أبيس القديمة هو موقع الأطلال الحالية لوادي بون الجوبه.
المرحلة Stade مقياس إغريقي يساوي 600 قدم أي بين 147 و192 متراً تقريباً.
المرحلة Lieue مقياس إغريقي طولي قديم يعادل نحو 4 كم برّ ونحو 5.5 ميلاً بحراً. . المترجم.

(2) انظر. .Troisième Cli. p.93.

تنقسم البناية من الداخل إلى ثلاث غرف وبها مدفعان من الحديد مدفونان إلى منتصفهما بين الأنقاض. توجد به أيضاً آبار عميقة جداً حفرت دون شك، قبل بناء القصر وكانت تستقطب كل الذين يعبرون تلك المنطقة.

هناك فئة من الرحالة، بين كل الرحالة، كان ينبغي عليَّ أن أذكرها آنفاً بصورة خاصة، لا سيما وأن مقابلتهم المشؤومة كانت قد سببت لي القلق أكثر من مرة. لقد تجدد هذا القلق قرب قرية الشامس. يدعى هؤلاء الرحالة «الحجاج» وهم هؤلاء الذين يتقاطرون من كل حدب وصوب من المغرب الأقصى نحو مكة لزيارة قبر الرسول ﷺ أو الذين يعودون منها.

كان هؤلاء الناس، في أغلب الأحيان، من أحط الطبقات، وهم عبارة عن كسالى يفضلون حظوظ الحياة المتنقلة والطفيلية على الحرص على العيش في المدن بفضل العمل الشريف.

يتنقل هؤلاء الحجيج في مجموعات صغيرة تتراوح بين عشرة وخمسة عشر شخصاً دون معدات سوى قرب الماء والدقيق، ويرتدون لباساً، يسمى «البرنوس» (أنظر اللوحة رقم 4 شكل 2)، ويجوبون الفيافي ويعشعشون في المناطق التي يعبرونها ولا يتابعون أي اتجاه محدد في مسيرتهم المتسكعة ويتحدثون مع كل من يقابلهم ويقضون الليل في خيام البدو الذين يلقون لديهم حسن الاستقبال والضيافة تقديراً لوجهتهم المزعومة.

الويل لكل رحالة وحيد يسوقه القدر السيِّىء إلى مقابلتهم لأنهم يطلبون منه أولاً أن يشركهم، باسم النبي، في زاده وأحياناً في لباسه. إذا رفض الرحالة أو أبدى أية مقاومة، فإن الطين يزداد بلّه ثانياً. يحسب الحجاج مدية طويلة ذات نصلين يحملها كل حاج تحت ملابسه ويحيطون به من كل جانب حتى لا يستطيع الهرب ويجردونه من كافة ممتلكاته ولا يمنون عليه أحياناً بتركه على قيد الحياة. لم يمر يوم واحد خلال رحلتنا هذه دون أن نلتقي بعصابة من هؤلاء الحجيج. لقد كنت قد حذرت من سوء نواياهم وكان عليَّ أن أكون شديداً وصارماً لإبعادهم عن قافلتي. كان من الصعب عليَّ أن أكون كذلك عندما نعسكر بالليل ولذا كان عليَّ أن أهددهم بإطلاق النار عليهم، وكانوا لا يغادروننا إلا بعد كيل السباب نتيجة لقسوة موقفنا الذي يحملهم على مغادرتنا.

قد يتساءل المرء لماذا يسمح البدو لهؤلاء المتسكعين بارتكاب عمليات الإخلال بالنظام هذه، دون عقاب! . يمكننا أن نرد على المتسائل بأن التزمت هو أقوى الحلول وبأن رحلة الحجيج تعتبر، في حد ذاتها، عملاً مقدساً، لذا لا يتشدد المرء كثيراً في الكيفية التي

يتم بها تنفيذ هذا العمل. يتسم، هؤلاء الحجيج، من جهة أخرى، بالجبن لأنهم لا يهاجمون إلا المسافر القاصي وهذا ما يساعدهم على جبنهم ويسترهم بسهولة أمام تقصي السكان. لا بد لي أن أضيف أن من بين هؤلاء الحجيج قلة من ذوي الورع الذين لا يرتكبون أعمالاً مشينة. وعليه لا يمكن الخلط بين الحجيج من هذه الفئة وبين الحجاج الذين ينتمون إلى الطبقات العليا أو الراقية الذين تطلق عليهم نفس التسمية أيضاً، وخاصة الحجاج القادمين من المغرب ومن فاس «هكذا وردت حرفياً.. المترجم». قد يصل عدد أفراد القافلة الواحدة إلى مائتين أو ثلاثمائة حاج كما توجد بينهم في العادة نساء كثيرات ويسافرون، عادة، على ثلاثمائة أو أربعمائة بعير. إن هدف هذه الرحلة مزدوج؛ الحماس الديني والربح عن طريق أداء عمل خيّر وصالح بالإضافة إلى بيع بضاعتهم بأسعار باهظة في القاهرة أو المدن الأخرى التي يعبرونها وهم في الطريق إلى مكة.

لقد كانت الأمطار، منذ أن غادرنا الاسكندرية، تهطل علينا غالباً. كانت تلك الأمطار تستمر لفترات قصيرة ولم تهطل علينا بشكل مستمر ودون انقطاع إلا عند وصولنا الشامس. ازدادت تلك الأمطار بعد أن تركنا هذا القصر مما أدى إلى توقف مسيرتنا تماماً. ولسوء الحظ، لم نعثر على أية ربوة عندما فاجأنا ذلك المطر المنهمر المقترن بعاصفة، في تلك المنطقة أو في جوارها.

كان علينا أن نتوقف وننصب خيامنا في وسط سهل طيني ولم نستطع أن نجمع منه أحجاراً كافية لاستخدامها كحاجز أو ساتر Tertre يمنع عنا الفيضانات والسيول التي بدأت تعم أرجاء المنطقة.

لقد أكدت لي تلك المضايقات أن كافة الأعراف البدوية تقريباً ثمرة لخبرات متمعنة، وعلى الأوروبي مثلي، أن يحتاط في الحكم على أهميتها قبل أن ينتقد جدواها. يسمى البدو، في أغلب الأحيان، خيامهم باسم «بيوت» أي منازل.

لقد حدث وأن مازحتهم، أكثر من مرة، بشأن تلك التسمية التي يطلقونها على بضع قطع من القماش الخشن، وكنت أقول لهم بأن بيوتهم، بخلاف سرادقات العثمانيين الأنيقة، تبدو ملاصقة للأرض بحيث ترى وكأنها بقع يميل لونها إلى السواد وليست مساكن للبشر. لقد تعلمت في تلك الظروف، أن أفكر بطريقة أفضل، حول قيمة العبارات التي يطوعها هؤلاء البسطاء لاستعمالهم اليومي، وكان عليّ أن أعترف للبدو الذين كانوا بصحبتي بأن خيامهم لا تستحق فحسب أن تسمى «بيوتاً» بل إنني أجدها أفضل من البيوت والمنازل

بالنسبة للرحل، لأنها تمتلك ميزات المنازل ولا تمتلك مساوئها. إن تلك البيوت الفسيحة رغم كونها لصيقة بالأرض، تقاوم قوة الرياح العاتية بفضل هذه الهيئة المتفلطحة وبفضل نسيج قماشها السميك الذي يصنع عادة من وبر الإبل. وهي تضمن للأسرة البدوية ومنقولاتها المتواضعة، ملاذاً لا ينفذ إليه المطر مهما كان عنيفاً ومهما طالت فترة هطوله. نظراً لأنني قد تعودت خلال رحلتي الماضية على المناخ الجاف والسماء الصافية بصورة دائمة في الصحراء الليبية[1]، فإنني فضلت استخدام الخيام التركية في «شوباك» وفي «توسلوك» وهي خيام تعلوها قباب مرتفعة تزيد من التهوئة بينما يعكس نسيج قماشها القطني ناصع البياض أشعة الشمس المحرقة. إن هذه الميزات القيمة في دواخل الصحراء الليبية قد أصبحت مشؤومة في صحراء مرمره المطيرة. لقد أجبرت عدة مرات، رغم كل التحوطات، على إعادة نصب خيامنا نظراً لسقوطها على رؤوسنا بسبب تشبعها بمياه المطر. لقد تتابعت العواصف ودون انقطاع خلال الأيام 19 و20 و21. لقد كان طول هذا الطقس السيّىء سبباً في مرض رفيقي مولر. لقد حاولنا، ودون جدوى، الاحتماء من البلل والرطوبة على أسرّةٍ من الأغصان غير أن أغطية أسرّتنا الصوفية كانت مبلولة جداً لدرجة أننا عجزنا عن تجفيفها.

إن هذا الفصل الذي قمنا فيه برحلتنا يشوبه عيب آخر يمنعنا من التجول في هذه المنطقة ويتمثل هذا العيب في الطبيعة الطينية للأرض التي صارت، بعد هطول تلك الأمطار الغزيرة، كثيرة الانزلاق يعسر على الإبل المحملة أن تزرعها بيسر وسهولة.

لقد أوجدت الطبيعة هذا الحيوان النافع للإنسان بغية مساعدته على قطع الفيافي القفار والرمال. إن أرجله العريضة والمفلطحة الخالية من الحوافر تمكنه من دوس أي شيء دون كلل أو ملل، في السهول الرملية، غير أنها تتعثر بل وتنزلق على الأراضي الرطبة أو تصاب بخدوش وجراح عندما تصطدم بأحجار الطرق الجبلية.

لقد كان هذا السبب الأخير داعياً إلى إبطاء مسيرتنا بل وإلى إيقافها في أحيان كثيرة. عندما تمكننا أخيراً، ولحسن الحظ، من ترك هذه المنطقة، يوم 22 بعد أن قطعنا عدة مراحل Lieues بصعوبة كبيرة، بدأت الأرض عند اقترابنا من منطقة العقبة الكبرى «هضبة السلوم. . المترجم» تتسم بطابع رملي مكننا من استئناف رحلتنا بشكل عادي.

---

(1) تعرف الآن باسم الصحراء الغربية. قد تكون هذه التسمية الحديثة جداً قد أطلقت على هذه المنطقة لاعتبارات سياسية. . المترجم.

وصلنا يوم الثالث والعشرين بالقرب من «قصر أجدابيا» الذي يقع على مسيرة أربع وعشرين ساعة من الشامس. إن هذا المعلم الأثري، أحد أكبر المعالم الأثرية التي شاهدتها في منطقة مرمره، كان قد شيد من قبل العرب القادمى، ولا تزال أسواره قائمة ومحتفظة بارتفاعها. لقد شيدت تلك البناية على أساسات جميلة غير أنها خالية من أي زخارف هندسية. يوجد بالأركان الغربية لذلك المبنى برجان اثنان على هيئة مربع وتوجد بداخله بئر. هناك أيضاً مدرج صخري محفور في سمك الجدار ويؤدي إلى قمة المبنى. إن أبعاد ذلك المبنى الشاسعة الذي قد يكون حصناً، تعطينا فكرة سامقة عن القوة القديمة لأمراء العرب في تلك المنطقة.

إن موقعه الذي يبعد مسيرة أربع ساعات عن جبال مرمره ومسافة مماثلة عن الساحل، يمكنه من الدفاع عن الساحل وعن الدواخل في آن واحد ضد أي اجتياح قادم من الغرب.

يوجد بين قصر أجدابيا والعقبة الكبرى بئر يعود تاريخ حفرها إلى نفس العهد الذي شيد فيه القصر المذكور. لقد كانت مياه البئر ممتازة ولذا تزودنا منه بكميات هائلة وذهبنا لكي نعسكر في وادي لا يبعد كثيراً عن هضبة السلوم.

الفصل الثالث

عقبة السلوم - هضبة زرعة - استقبال الحرابي - وادي دفنة - قنوات ري - طبرق - بومبا - جزيرة بلاتيا - ازيريس - صهاريج

يوجد بمحاذاة عقبة السلوم الكبرى Catabathmus Magnus كما عرفها القدامى، واد على مسيرة ساعة من هذه العقبة. تروي المياه التي تجري شتاء في مجرى ذلك الوادي غطاء نباتياً أخضر غزيراً توجد به العديد من المنتجعات البدوية في كافة فصول السنة.

ليس وجود المياه هو السبب الرئيسي في وجود هذا العدد الكثير من السكان في ذلك الوادي، فالعقبة التي كانت، وفقاً لما ذكره العديد من المؤلفين القدامى، تفصل بين مصر وبرقه، كبلدين وكذلك بين أفريقيا وآسيا في عهد الرومان[1]، تشكل الآن حداً فاصلاً بين دولتي طرابلس ومصر. لقد ذكرت آنفاً في الحقيقة، أن الحدود بين البلدين كانت قد حددت إلى الشرق قليلاً من العقبة الكبرى في منطقة بون الجوبه، وذلك وفقاً للمعلومات التي استقيتها. غير أن شولز يرى أن الحدود تقع في منطقة السلوم.

إن تلك الخلافات في أقوال البدو حول موقع الحدود ليست مذهلة كثيراً لأن سيطرة والي كل من مصر وطرابلس تتمثل في السيطرة الاسمية فقط ولا وجود لها على أرض الواقع.

مهما كان موقع الحدود المفترض، فإن مقاطعة «العقبة الكبرى» نتيجة لموقعها البعيد

(1) انظر. Pomp. Mella. I.L. c.8 - Salluste de Belle Jug c.19.

عن إجراءات حكومتي مصر وطرابلس الفعلية تشكل فاصلاً بين الحكومتين في الواقع لأنها تكفل لسكانها استقلالاً ذاتياً مطلقاً.

قال لي دليلي، الحاج صالح، إن السبب الرئيسي في جذب هذه الأعداد الغفيرة من البدو إلى هذه المنطقة هو لجوء بعضهم إليها فاراً من ثأر خصومه وأعدائه والبعض الآخر يلوذ بها خوفاً من القصاص بالنسبة للجرائم التي ارتكبها أو تأهباً لارتكاب أعمال إجرامية جديدة.

إن أغلب سكان هضبة السلوم من الفارين من القبائل المختلفة وذلك منذ أقدم العصور، وهذا ما يجعل تلك المنطقة مروعة ومرعبة بالنسبة لأي مسافر.

لقد شهد اللواء مينوتولي فشل مشروعاته في تلك المنطقة التي قام فيها السكان من البدو، تحت ذريعة أنه وأتباعه من الجواسيس الذين أرسلهم وإلى مصر، بمنعه من مواصلة رحلته نحو برقه. لقد أقلقتني تلك الحادثة بصورة أكبر من حكايات دليلي، فنحن لا نبعد عن الجبل إلا بمسافة ساعة من المسير. لقد كان الليل حالك السواد وتحف بنا فيه مخاطر كثيرة لا سيما وأن وميض النيران التي أراها بعيداً في الأفق من وقت إلى آخر، يدل على وجود أناس قد يقررون مصير مشروعي، غير أن وضح النهار قد وضع حداً لهذا القلق. لقد كنت أقوم بتشجيع الخدم معي عن طريق تقديم بعض الهدايا البسيطة إليهم من أجل حثهم على مواصلة المسير لأنني كنت عازماً على تحدي أي شيء وعلى عدم الرجوع إلى الخلف.
لا أريد أن أقحم القارىء في جوف تلك المنتجعات البدوية أو في قلب المباحثات والمداولات الهائجة التي جرت بشأني، ولن أذكّره بالقلق الذي اعتراني عندما وجدت نفسي هدفاً للتكذيب المتزمت، وللمضاربات الملحة بشأن الفوائد التي قد تجني مني، لأن مثل تلك التفاصيل التي نجمت عن ظروف نادرة جداً في تلك القفار، هي في الواقع غريبة عن السلوك الاعتيادي للسكان.

عندئذ يصبح هذا الأمر شخصياً بالنسبة للرحالة وحشواً لا طائل منه بالنسبة لجمهور القراء الحصيف. يكفيني أن أقول، بكل بساطة، أن تقشف ثيابي وعزلتي وثقتي في نفسي وربما رباطة جأشي وشدة بأسي، قد دفعت هؤلاء الناس الأشداء إلى القبول بأمر لم يقبلوه من قبل رغم الحرس والألقاب الشخصية لمن سبقني من الرحالة. لقد تمثلت تلك المسألة في السماح لي بتجاوز العقبة الكبرى، أي هضبة السلوم.

كانت القافلة قد عبرت الوادي غير أن مولر الذي حبسه المرض فوق ظهر البعير كان

يشعر بقلق كبير إزاء غيابي الطويل. لقد أشرقت عيناه الغائرتان وكأنهما تعبران عن الفرحة بنجاح مهمتي، عندما رآني عائداً إلى القافلة. إذا كنت أشعر بالفرح إزاء كوني أكثر حظاً ممن سبقني، فإنني كنت أتمنى شفاء رفيق رحلتي غير أن السماء لم تستجب لدعوتي إلا بعد فترة طويلة. لم يعد مولر بأعجوبة إلى الحياة مجدداً إلا بعد معاناة طويلة وآلام قاسية جعلته يشرف على الهلاك غير أن الحياة دبت في جسمه من جديد في قلب الصحراء المقفرة.

استغرقت عملية عبور هضبة السلوم ساعة من الزمن وسلكنا خلالها طريقاً معروفة منذ أقدم العصور كانت محفوفة بالصخور الضخمة التي قامت يد الإنسان بتسوية أركانها البارزة والتي كانت تسد الطريق أحياناً. كان الجبل يتدرج في ارتفاعه عن طريق تموجات طبيعية أو يكشف عن مناطق صخرية وعرة لا يمكن للبعير ذرعها إلا بصعوبة بالغة رغم المحاولات القديمة مثل تخفيف الأحمال أو تخفيف شدة الانحدار.

كانت تلك المنطقة الصخرية تتكون، بصورة عامة، من صخور جيرية مكثفة ترصعها طبقات من الصخور الصوانية الصلدة بل وكنا نشاهد أحياناً صخور الصوان متحدة مع طبقات الحجر الجيري. كانت الشجيرات الصغيرة التي بدأت أوراقها في النمو تغطي المناطق الترابية وتملأ تشققات الصخور. شاهدنا لأول مرة في تلك المناطق أشجار Lentisques وGeriets لم أدخر جهداً في المحافظة على البارومتر الوحيد الذي كان معي غير أن سقوط بعير بما يحمل قد أدى، بكل أسف، إلى تحطمه على صخرة صلدة. رغم أن ذلك البارومتر مصنوع بطريقة فجة إلا أن فقدانه قد سبب لي حزناً شديداً خاصة عندما تبين لي أنه كان من المستحيل عليَّ أن أصلحه. لقد أدى ذلك بالطبع إلى وجود بعض القصور في ملاحظاتي لأنه كان من العسير عليَّ إجراء حسابات تقديرية دقيقة. لقد كانت حساباتي، بدون أداة خاصة، حسابات افتراضية دائماً. لقد بدا لي أن ارتفاع هضبة السلوم قد بلغ نحو تسعمائة (900) قدم حيث يبدأ الجبل مباشرة من ساحل البحر ويتجه نحو الجنوب والجنوب الغربي حتى يصل إلى التلال المحاذية لواحة آمون. يوجد على قمة الجبل سهل يمتد مسافة ثلاث عشرة ساعة من المسير ويبدأ من الجنوب الشرقي ويتجه نحو الجنوب الغربي. رغم أن التربة في هذه المنطقة لا تختلف كثيراً من ناحية اللون والتكوين عن تربة العقبة الصغرى إلا أنها أخصبت منها كثيراً وأكثر منها مزروعات ومن هنا جاءت التسمية «زرعة» التي يطلقها البدو على تلك الهضبة. تعني كلمة زرعة الحقل المزروع. عندما قمنا بذرع تلك المنطقة مررنا بالعديد من النجوع الخاصة بالرعاة حيث انتشرت الأعمال الزراعية التي كانت تشغل كافة أولئك البدو، والتي غيرت من رتابة منظر الهضبة التي تعودنا قبل ذلك على مشاهدتها.

إذا كانت هناك فترة ما من السنة من شأنها أن تنتزع هؤلاء البدو عن جدهم المعتاد فإنها، كما قلت آنفاً، الفترة التي تكون فيها التربة هامدة جامدة. عندما تقوم السماء بمد يد العون إلى الطقس حيث ينتج كل فصل الفاكهة المناسبة له، فإن لحظات جني الثمار تتحول إلى لحظات سعادة وحبور لأن الأرض تنتج محاصيلها، واحداً تلو الآخر، ولذا يشعر المرء أن أملاً جديداً لا يزال أمامه وأن خيرات كثيرة قد تعقب ذلك الأمل.

ليس الأمر كذلك في منطقة مرمره، فالأرض جرداء وشحيحة العطاء، فهي لا تنتج إلا مرة واحدة، ولفترات قصيرة جداً في السنة. حالما تقوم الأرض بمنح الإنسان تلك النعم فإنها سرعان ما يتغير لونها وتذوي نباتاتها. تقوم القطعان المتسكعة، بعد ذلك، بالبحث عن العشيبات الهزيلة التي نجت من قيظ حرارة الشمس في زوايا وأركان الوديان.

في الوقت الذي ينتج فيه البستانيون عندنا الكثير من الفواكه، ويغرس زراع الكروم لدينا ما يغطي سفوح الجبال، فإن سكان هذه المنطقة لا يرون حولهم سوى طبيعة صامتة وميتة.

لذا نجد أن من يقطنها يقبع عاطلاً عن العمل في خيمته ويقضي وقته في الحكايات العجيبة أو في القراءات والدراسات الدينية. يستغل هؤلاء البدو أيضاً اللحظات التي تتجدد فيها النباتات للاحتفال بأعيادهم، فلقد شاهدت خلال إحدى جولاتي في هضبة زرعة، أحد تلك الأعياد التي شدت انتباهي لحداثتها. لقد شاهدت عروساً جالسة على سدَّة Trèteau مثبتة على محراثين تجرهما الجياد. كانت العروس ترتدي على رأسها تاجاً من نبات «الزهيرة» Séneçon وكأنه رمز لعقم تلك التربة.

كان على رأسها أيضاً منديل أحمر اللون من الحرير المزركش بألوان زاهية ويتدلى متثنياً على منكبيها. سمعت أيضاً، أصواتاً صاخبة تحدثها قواقع بحرية كبيرة وعدد من الطبول[1]. كانت الجوقة الموسيقية تتقدم العروس وتتردد على خيام العائلات الحليفة والصديقة بينما كانت كوكبة من الفرسان تحيط بالركب وتقوم بتمثيل مشهد صغير للحرب وذلك بإلصاق الخيول إلى بعضها البعض وإطلاق الرصاص من بنادقهم في أحيان كثيرة[2].

---

(1) يطلق البدو أيضاً اسم «الغندورة» على هذا النوع من الطبول التي تشبه الدف إلى حد كبير.
* يطلق أولاد علي هذه التسمية على «البندير». . المترجم.

(2) هذه ليست محاكاة لأي حرب كبيرة أو صغيرة وإنما هي من صميم تقاليد الأعراس البدوية التي لا تزال سارية إلى يومنا هذا. لقد أخطأ الكاتب هنا فهم مغزى هذا الاستعراض الذي تقوم به تلك الكوكبة من الفرسان. . المترجم.

إذا استثنينا التأثير السار الذي ينجم عن رؤية عربة العروس المضحكة، فإن مشهد الحرب حول الفتاة المتزوجة، وهذا الفرح الصاخب، قد أعطاني فكرة عن السلوك البسيط ولكنه مع ذلك عدواني لأولئك البدو الرحل. بينما كنا نتجول في منطقة «زرعة» لمحت، عندما اتجهنا نحو الشمال الغربي، مرفأ صغيراً على الساحل يطلق عليه البدو اسم «مرسي السلوم» لقد خيل إليّ أنه ميناء بانورموس القديم Panormus.(1) الذي حدده بطليموس بمثابة الحد الفاصل بين مصر و«الأقليم الليبي»، وذكر أيضاً بأنه يقع على الجانب الغربي من وادي العقبة الكبرى. عثرنا على العديد من الآبار التي حفرت بعناية فائقة في الصخر، عندما وصلنا إلى الطرف الغربي من هذا السهل. كانت تلك الآبار عميقة جداً ويعود تاريخ حفرها إلى عصور غابرة. هناك أيضاً أحواض صغيرة منحوتة، هي الأخرى، في قلب الصخور غير أنها تعود، نتيجة لسوء صنعها، إلى عصور حديثة، وتحيط بفوهات تلك الآبار.

توجهنا بعد ذلك من بئر «السمله» Zemlèh نحو هضبة العقبة التي كانت أقل ارتفاعاً من جانبها أو سفحها الغربي وكان انحدارها مريحاً وسهلاً. استغرق هبوطنا من أعلى القمة إلى أسفل الهضبة نحو عشر دقائق، وهناك دخلنا إلى وادي دفنه Dephnèh الذي شكلته السلسلة الجبلية من جهة العقبة والذي يمتد عبر تعاريج وشعاب نحو الغرب. يقع هذا الوادي بين سلسلة جبال العقبة وشعاب من الهضاب الصغيرة والتلال التي توازي تلك السلسلة الجبلية.

لا يعثر المرء، بعد سهل وادي زرعة على أي قبيلة من قبائل أولاد علي: وتشكل دفنة موطن قبيلة الحرابي الكثيرة العدد وهي قبيلة من المحاربين الذين يقطنون برقه بشكل خاص. لمحت، عند دخول قافلتي إلى الوادي، وبعد الالتفاف حول تلك الحراشف الصخرية، منتجعاً كبيراً من الخيام لدرجة أننا أصبنا بذهول كبير من عددها. كانت تلك الخيام المتلاحقة منصوبة على سفح الوادي وتشكل سداً أمامنا لا بد من عبوره. كانت الحركة في ذلك النجع كبيرة، فتذكرت سوء صيت وسمعة الحرابي ولذا وضعت خدمي من النوبيين بالقرب من جمالي الثمينة.

تقدمت القافلة لعدة أمتار وكان يساورني قلق شديد. شاهدت بعد ذلك عدداً من شيوخ القبيلة يمتطون صهوات جيادهم ويتجهون صوب القافلة وترافقهم جمهرة من البدو

---

(1) انظر . Cell. Géogr. Anti. L. 2. p.67.

الراجلين. عندما توجد ريبة قوية بين قافلتين معينتين، فإن القافلتين، وفقاً للأعراف السائدة في البادية، تتوقفان على مسافة معينة تفصل بينهما. يظهر بعد ذلك مفاوضون من الجانبين لمعرفة نوايا القافلتين. وهذا ما قمنا به فعلاً.

تقدم الحاج صالح، أحد الحرابي، من قافلتي نحو القافلة الأخرى داخل الرقعة التي كانت تفصل بيننا. كنت أراقب ذلك اللقاء من بعيد وخاصة حركات واشارات المتفاوضين التي كانت قوية جداً.

لاحظت، بعد ذلك، أن مفاوضي الجانبين قد اقتربا وهم ممتشقون أسلحتهم، وكان ذلك يعني إشارة «السلام» بالنسبة لي. هرعت بسرعة لمقابلة الشيوخ وعرفت أن حرباً ضروساً كانت تدور بينهم وبين قبيلة مجاورة حيث تم اقتراف العديد من أعمال القتل وكانت الضحايا، حتى ذلك الحين، من قبيلة الحرابي وكان الشيوخ قد اجتمعوا بغية أخذ الثأر من أعدائهم بطريقة صاخبة.

ذكر لي هؤلاء الشيوخ أن إشاعة رحلتي قد وصلت إليهم، وكانوا مندهشين من جرأتي على الدخول إلى تلك الفيافي مع هذا النفر القليل، ووصفوا شجاعتي بالتهور والطيش وأشعروني أن مصيري الآن بين أيديهم.

خلال تلك اللحظة، استأنف أكبرهم سناً الحديث قائلاً «إن الأخذ بالثأر وحده هو الذي أدى إلى جمعهم هذا.. نحن نريد دم أولئك الذين قتلوا إخوتنا.. وعليه تابع طريقك والله يحرسك» ثم استدرك قائلاً، بعد أن شعر بأنه أخطأ التعبير «إذا أراد الله أن يحمي نصرانياً». لم أنبس ببنت شفة بشأن تلك الأمنية لأنني اعتبرت نفسي سعيداً ألا يمتد ثأرهم وانتقامهم إلى قافلتي. قمت بشكرهم بهدوء ورباطة جأش. لقد مكّنني هذا اللقاء من التعرف على سلوك الحرابي وسلوك أولاد علي المسالمين وجعلني أتصور كافة الأخطار المحدقة بنا. إن تربة وادي دفنه غامقة اللون، وتبدو أكثر خصوبة من تربة المناطق السابقة حيث تنوعت فيها النباتات وظهر بها الكلأ الوفير في السهول، كما كثرت النباتات والأشجار في الوديان والشعاب. لقد سعيت إلى معرفة سبب تسمية هذه المنطقة بدفنه. لقد شاهدت بعض شجيرات الدفله Nerium بين شقوق الصخور ورغم ندرتها في تلك المنطقة فهي تبدو أنها نبتة محلية الآن وربما كانت تنمو بكثرة في الماضي أو ربما تم إكثارها من قبل السكان الذين زينوا بها حقولهم وبيوتهم. ربما كان السكان في تلك المنطقة كثُراً لأن بقايا مساكنهم كثيرة. ربما كان ذلك الوادي مليئاً بالمدن والقرى الصغيرة. لقد تضاعفت المهارة الحرفية

وذلك بغية مساعدة الطبيعة حيث وجدت فيها قنوات الري منتشرة في كل مكان وتشق السهل في جميع الاتجاهات وتتعرج حول التلال والجبال. يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد تلك القنوات في المناطق الجبلية وهي تتجه تارة بشكل عمودي، وتارة بشكل أفقي، وفقاً للتصميم ولقدرتها على نقل المياه، نحو الصهاريج أو من الصهاريج نحو الحقول. لقد شاهدت قنوات وجداول قد شقت وكأنها أشعة مركزها منخفض، وشاهدت عدداً منها يتجه نحو الحقول النائية، بمحاذاة ضفتي واد صغير. لقد أقيمت تلك القنوات بواسطة مزارع محترف بغية ري تلك الحقول. ولقد رأيت بعض تلك القنوات وهي تتفرع متشعبة وكأنها السواق Zigales في حدائقنا وذلك لتحويل مجرى المياه أو لحجزها حسب الرغبة. رغم أن وادي دفنه كان من الوديان المأهولة جداً في القدم إلا أنني لم أعثر فيه على أي أثر أو أية معالم أثرية جديرة بالملاحظة. إن «قصر الجديد» الذي يقع في مدخل الوادي كان عبارة عن بناية لا شكل لها وبغض النظر عن شكله، فإن اسمه[1] يدل على أنها تعود إلى عصر حديث.

إن الصخور القديمة التي وجدت في جدرانه وكذلك البئر بداخله تدل على أن هذا القصر قد شيد على أنقاض بناية أقدم منه.

يوجد أيضاً قصر قمبوس Cambouss الذي يقع على قمة الجبل على مسيرة ست ساعات غرب قصر الجديد. لقد تعرض ذلك القصر إلى خراب شديد جداً لدرجة أن المرء لم يعد يستطيع فحسب أن يميّز شيئاً بين أكوام الحجارة، بل أيضاً لأن الكثير من تلك الأحجار تعود إلى عهد حديث ومختلطة مع حجارة قديمة جداً.

يمكن للمرء أن يشاهد عموداً أغريقياً أو رومانياً على مقربة من نقوش إسلامية. وضعت كل تلك الأحجار على هيئة قبر وعليه لحد مزركش يدل على كونه قبْراً لأحد البدو.

تثير مثل تلك الأطلال أكثر من غيرها، وبشكل لا إرادي، التأمل والتفكير: أن يرى المرء تلك الآثار التي تعود إلى عدة أبنية ذات غايات مختلفة والتي شيدت من قبل شعوب مختلفة في عاداتها وتقاليدها، أن يرى المرء تلك الشهادات على الماضي الغابر، على نتائج الحضارات المختلفة، موجودة وسط أحجار الصخور العادية في كوم كبير كعلامة لقبر وليّ؛ إن مجرد رؤية هذا المشهد تدفع المرء إلى القول بأن الزمن قد جمع بين الأشياء

(1) يعني الاسم حديث أو محدث.

المختلفة والمتناقضة لتأكيد قوته والسخرية من تلك الشعوب والأمم. أما فيما يتعلق بالمبرر التأريخي لهذا الكوم الغريب من الأحجار التي تتباين في عصورها وأعمارها فيمكن تفسيره بشكل طبيعي جداً ودون الدخول في تفاصيل قد لا تتعلق بسلسلة الشعوب التي توالت على هذه المنطقة والاكتفاء فقط بغزو المسلمين لها لأنهم استخدموا المواد التي وجدوها في الآثار والأطلال الأجنبية، في أهدافهم الخاصة لا سيما دور العبادة. هكذا يكون أمراء العرب قد أمروا بتقويض المعابد والمباني الأخرى من أجل إقامة المساجد والقصور. بعد العرب، قام البدو بهدم كل شيء دون بناء أي شيء وحلت الخيام محل العمار والقرى. بعد المسير طيلة يومي السادس والعشرين والسابع والعشرين، ولمدة تسع ساعات في وادي دفنه الذي يمتد محوره نحو الغرب ونحو الشمال الغربي، أخذ الوادي في الاتساع، وبدأت سلاسل الجبال التي تشكل ذلك الوادي، تتجه في اتجاهات مختلفة. إن سلسلة جبال العقبة تمتد نحو الغرب حتى جبال برقه أما سلسلة التلال والمرتفعات المواجهة للسلسلة الأولى، فهي تتجه في تعرجات كبيرة نحو الشمال.

وكانت منطقة الساحل التي يدخل منها هذا الوادي تسمى «دار الفيال» Dar Fayal. بينما كانت القافلة تواصل المسير على بعد ساعات من الساحل يوم الثامن والعشرين، غادرتها لزيارة ميناء طبرق. كان عليَّ أولاً أن أعبر على أرض وعرة تتخللها الشعاب والوديان وفي أرض يبلغ ارتفاعها نحو ستمائة قدم على مستوى سطح البحر. نزلت بعد ذلك صوب السفح الجنوبي لتلك المرتفعات عن طريق درب ربما كان يستخدمه السكان في طبرق قديماً للاتصال مع سكان الدواخل. لقد تم نحت هذا الممر في الصخور الصلدة وتوجد على جانبيه قناتان محفورتان أيضاً في قلب الصخور الصلبة. إن المنعطفات الكثيرة والمساطب الفسيحة والمدرجات المنخفضة الموجودة حول هذا الدرب، ترمي إلى تخفيف شدة الانحدار وتسهيل نزول المسافر على صهوة الجواد. لقد ذكر لي البدو، في تلك المنطقة، وجود طريق أخرى مماثلة لهذه الطريق، قد تكون هي تلك التي كانت تؤدي إلى ميناء مينيلاس Mènèlas حيث نزل الأمير الأغريقي وأطلقت التسمية على منطقة حله. كما يذكرنا أيضاً بالقائد الشهير أجيسيلاس Agèsilas الذي اختتم من هذا المكان فترة أعماله المجيدة. يقع ذلك الميناء، وفقاً للمقاييس التي ذكرتها الرحلات ولا سيما رحلة سترابو[1] بالقرب من رأس آرداناكسيس Ardanaxès التي تعرف الآن باسم «المله»، ولذا كان ذلك

(1) انظر الكتاب الأول والكتاب 17 القسم 17.17,S.17 L. I et.

الميناء أقرب إلى دفنه منه إلى طبرق التي أكون الآن على مشارفها. إن قرب هذه الرأس الأرضية من دفنه وطبرق يضفي مصداقية كبيرة على قول البدو لأن شهاداتهم بالإضافة إلى ما يوجد الآن تحت ناظري، تتفق تماماً مع القرائن الدالة على وجود العديد من السكان في دواخل المنطقة. كانت العلاقات بالتالي، وفي واقع الأمر، بين سكان الدواخل وسكان المناطق الساحلية وثيقة ونشطة جداً في القدم لدرجة أنها تطلب ضرورة وجود طريقين منحوتين في الصخر على سفح ذلك الجبل ولا تفصل بينهما سوى مسافة قصيرة. يوجد بين تلك المرتفعات والساحل، شريط أرضي رملي تغطيه الصودا والطفلة ونباتات euphorbes. يتراوح عرض ذلك الشريط بين خمس عشرة وعشرين دقيقة من المسير. يحتفظ هذا الشريط بهذا العرض ابتداء من العقبة حتى طبرق ثم يأخذ، بعد طبرق، في الاتساع حتى يصل إلى خليج البومبا. تشجع الآبار في تلك المنطقة المسافر على تفضيل هذا الطريق صيفاً وهو الطريق الذي يمر عبر المرتفعات التي تصل إلى ذلك الشريط الأرضي. عند الالتفاف حول ضفاف ميناء جميل يمكن روية رماله البيضاء، والطحالب التي تغطي تلك الضفاف، وصلنا إلى آثار طبرق. التي تقع فوق الامتداد الصخري للساحل الذي يشكل الميناء ويحميه من الرياح من كل الاتجاهات عدا الجانب الشرقي.

لم أستطع أن أميز، بين أكوام الحجارة المشطوفة وبقايا الفخار عدا بعض الأقواس المنزوعة من قباب قديمة وبعض الآبار المردومة. رأيت كذلك بعض قطع الأعمدة وشظايا متفرقة من المرمر وحجر الجرانيت. كل هذه الأشياء تؤكد قدم هذا الموقع الذي يتفق مع موقع قرية انتيبرغوس Antipyrgus وفقاً لقياس المسافات التي ذكرتها رحلة سيلاكس.

يحيط بتلك الأطلال سور مشيد على أساسات جميلة في حالة جيدة من الصيانة تتناقض مع الدمار الكبير الذي يلاحظ في المدينة. كان هذا السور مربعاً بطريقة غير متساوية ويبلغ أقصى طول فيه مائتي وستة وأربعين متراً، من الناحية الجنوبية والجنوبية الشرقية حتى الشمال والشمال الغربي، بينما يبلغ طول الجانب الجنوبي الغربي الذي يمتد حتى الشمال الشرقي، مائة وأربعين متراً «140».

توجد على الواجهة الداخلية لهذا السور سلالم صخرية «درجات» صنعت في داخل سمكه الكبير وتتجه نحو قمة السور في اتجاهات مختلفة كأنها خطوط متوازية تارة أو متباعدة تارة أخرى (انظر اللوحة 5 الشكل 6). لقد بدت لي هذه البناية حديثة بالمقارنة بالبقايا الأثرية للمدينة القديمة وإنها قد شيدت من قبل الفاتحين العرب.

إن موقع طبرق السعيدة قرب ميناء محصن ضد الرياح قد أغرى بعض أمراء العرب على ضرورة تحصين هذا الموقع البحري. إذا لم يضللني الشكل الخارجي لهذه البناية، فإنني أوكد على وجود شبه بينها وبين قصر أجدابية وقصر اللمايد من حيث البناء ومن حيث درجة الصيانة. هذه القصور عبارة عن صروح ثلاثة شيدت لحماية الساحل. تدل النقوش التي عثرت عليها في قصر اللمايد، كما ذكرت آنفاً، بأنه قد شيد بناء على أوامر السلطان بيبرس.

نحن نعرف أن بيبرس قد أمر بتحصين حدوده وبناء عدة نقاط على الساحل الليبي وحوّلها إلى قلاع مستعدة للدفاع عن بلاده والتصدي للغزاة، وذلك عندما علم بنزول قوات القديس لويس في تونس[1]. وعليه، فإننا لا نجازف كثيراً عندما ننسب حصني طبرق وأجدابية إلى العصر الحديث لأنهما يشبهان حصن اللمايد. عند العودة إلى قافلتي قبل النزول إليها من تلك المرتفعات التي بدأت تبتعد عن الساحل على مستوى قرية طبرق، سرت بمحاذاة الامتداد الغربي لتلك المرتفعات فعثرت على منطقة تدعى «الكلكة» Klekah تحوي أطلال قرية صغيرة وأربع مساطب من الطوب تعتبر بقايا لأماكن رصفت بالحجارة. كانت تلك المساطب الأربع تكوّن الأركان الأربعة لمربع كبير يوجد في وسطه بئر مزودة بدلو Auge ومحفورة في أرض صخرية. يبلغ طول جوانب أكثر تلك المسطحات المرصوفة صيانة وحفظاً نحو واحد وعشرين متراً «21» ومرصوفة بحجارة فتتتها مياه الأمطار لدرجة أنها تبدو موحدة في شكلها المحدب. توجد على مقربة من تلك المسطحات الصخرية صخرة ضخمة من الحجر الجيري مستديرة الشكل وبها ثقب في وسطها. توجد مثل تلك الكتل الضخمة بالقرب من جميع هذه المسطحات الصخرية وهي متماثلة تماماً في شكلها وأبعادها ويمكن القول بأنها تستغل كطواحين ضخمة قد تكون تلك المسطحات، دون شك، بقايا للأبراج الأربعة. وقد تكون هذه الأطلال بقايا لقرية صغيرة كانت تسمى تترابرجيا العتيقة Tetrapyrgia أي نفس التسمية للقرية الغابرة التي ذكرت في هضبة السلوم أو العقبة الكبرى.

نزلت بعد ذلك مجدداً من الكلكلة عن طريق مرتفعات طبرق فوجدت نفسي في وادٍ فسيح يدعى وادي السد الذي يشبه وادي دفنه من حيث توسطه الهضبتين غير المتساويتين في الارتفاع، تسمى إحداهما هضبة طبرق التي تتكوّن من صخور الصوان الصلدة التي زركشتها

---

(1) انظر Michaud, Hist des Crois. t. VII, P.752.

الأكسدة وزادت من ألوانها الزاهية، أما الهضبة الثانية فتتكون من الصخور الرسوبية الصلبة ذات اللون الغامق، وهي أقل ارتفاعاً من هضبة طبرق وتتجه بمحاذاة ساحل البحر، وتمتد مسافة مسيرة إحدى عشرة ساعة حتى تصل إلى خليج صغير Anse يمكننا أن نعتبره الامتداد الشرقي لخليج البومبا. يمكن للمرء أن يشاهد قبل الوصول إلى هذا الخليج بساعتين من المسير، العديد من الكهوف التي تسمى «مغارات الحبس» وذلك على السفح الشمالي لتلك الهضبة. أما على السفح المقابل فتوجد أطلال للعديد من الأبنية الجميلة التي تدل على أنها كانت موقعاً لمدينة قديمة يحتمل أن تكون مدينة بتراس بارفوس Petras-Parvus التي تبعد وفقاً لما ذكره سيلاكس، مسيرة يوم ملاحي واحد من طبرق. تظهر تلك المغارات خصائص مدهشة بسبب طرازها الإغريقي والمصري حيث توجد أمام مداخلها، باحات مكشوفة تحيط بها ونحتت أساساتها في الصخر الصلد وبنى فيها الجزء العلوي فقط. وجدت أن تلك الكهوف كانت مقسمة من الداخل إلى غرف ذات أركان قائمة «قائمة الزاوية» (انظر اللوحة رقم 5 الشكل 1،2) كما توجد بها عدة فتحات في الأسقف مثل تلك التي توجد في الحدائق المصرية. تستحق إحدى تلك المغارات بفضل حالة صيانتها الجيدة وتفصيلاتها المعمارية والهندسية أن توصف بالتفصيل (انظر اللوحة رقم 5 شكل رقم 1). بعد دخول البهو المكشوف الذي يبلغ طوله ثلاثين متراً وعرضه ثمانية عشر متراً «18» نجد ممراً على جانبيه محرابان مربعان ربما كانا يستخدمان لوضع تمثالين كما يوجد عمودان رخاميان Pilastres يعود تاريخهما إلى العهد الإغريقي الدوري يزينان جوانب المدخل وأمامها شجرة Alizier التي تسمى علمياً بشجرة[1] Cractaegus Mora وهي شجرة جميلة وارفة الظلال. تتكون المغارة من الداخل من غرفتين ونجد أن السقف والمدخل يلتقيان في أركان قائمة في الغرفة الأولى بينما نجدهما مقوستين في الغرفة الثانية، التي تبلغ مساحتها نصف مساحة الغرفة الأولى تقريباً وهي مرتفعة قليلاً عنها لأنها نحتت في الصخر على ارتفاع خمسة وثمانين سنتيمتراً (85) من أرضية الغرفة الأولى. يتم الدخول إلى هذه الغرفة عن طريق أربع درجات نحتت هي الأخرى، في الصخر الصلد. تحتوي الغرفة الثانية وعلى مستوى نصف ارتفاعها، على خمس حفر مستطيلة منها ثلاث منحوتة أفقياً وتعلوها حفرتان على مسافة ضئيلة. إن أشكال تلك الحفر وأبعادها تؤكد أنها كانت قبوراً (انظر نفس اللوحة الشكل رقم 3). يمكن للمرء أن يشاهد مقابر كهفية بنفس الطراز والتصميم على قمم سلاسل

---

(1) إنها الشجرة الوحيدة من هذا النوع التي عثرت عليها طيلة رحلتي في منطقة مرمرة.

الجبال الليبية والمصرية. تذكرنا تلك الخصائص من ناحية تشابهها مع المقابر المصرية لا سيما موقعها القريب من خليج البومبا، بما ذكره سينوسيوس القوريني حول التل الذي كان يسمى بومبايا Bombaea وهو مكان موحش حصنته الطبيعة بفضل تفننها كما يقول، حيث تم تشبيه تلك المنطقة بمنطقة المقابر الكهفية المصرية وقد ساعد هذا التل القديس يوحنا على الإختفاء في تعاريجه وشعبه[1].

إن تلك الكهوف بين كافة الكهوف الموجودة بين الإسكندرية وسرت، هي الوحيدة التي يمكن مقارنتها بكل دقة بالأقبية المصرية القديمة. إذا أضفنا إلى كل ذلك مسألة التسمية والتوصيف الذي ورد في نص رسالة سينوسيوس، فإننا سوف ندرك بأن تلك الخصائص المختلفة تشكل شبهاً كبيراً إلى درجة البداهة[2]. تحيط بالخليج الصغير الذي ذكرته، من أقصى الشمال، أرضٍ تغطيها السبخ والنباتات البحرية. تعتبر تلك المستنقعات موطناً لعدد هائل من الضفادع في الصيف وهي التي سمي عليها ميناء باتراكوس Batrachus الذي يقع، كهذا الخليج الصغير، إلى الغرب من بلدة بترابارفوس. يوجد أيضاً ينبوع ماء كبريتي يسمى «نبع عين الغزالة» وينحدر على هيئة جدول بالقرب من ذلك الميناء بعدة أمتار، ويؤكد التفاصيل الأخرى التي ذكرتها الرحلة المجهولة حول هذا المكان[3]. إن مياه ذلك النبع غير صالحة للشرب إلا خلال الفترة التي تزال فيها، عن طريق التجدد، إجاجة الماء عندما تجزر مياه أمواج البحر التي تكتسح ذلك النبع عندما يكون البحر هائجاً. غادرنا في اليوم الثلاثين عين الغزالة ولقينا صعوبة كبيرة في تسلق الحافات المنزلقة لذلك الخليج. سرنا، بعد عبور ذلك الممر من خلال الالتفاف حول الشمال الغربي، على شاطىء من الرمال المستوية بين شاطىء البحر وتلال طبرق التي تدنو كثيراً عند هذه النقطة بحيث لا نفصلها عنها إلا مسيرة بضع دقائق. بعد أن وصلنا إلى جرف كبير رأيت جزيرة صغيرة مستوية لا تبعد كثيراً عن

---

(1) انظر ـ سينوسيوس ـ الكتاب الثاني ـ الرسالة رقم 104.

(2) انظر مانير جغرافية بلاد الإغريق وروما، المجلد العاشر ـ الباب الثاني ص 105.
رغم أن سينوسيوس لا يوضح موقع بومبايا إلا أنه يحدد مكان تلك الأقبية في الجزء الشمالي من إقليم المدن الخمس سوف أوضح فيما بعد لذلك العالم الناقد بأنه لا يمكن العثور، بعد عدة مراحل Lieues من المدرجات التي تطل على المنطقة في الشمال، حتى ولو توغلنا نحو الدواخل، عى أي حفرة منحوتة في الصخر، عدا الصهاريج التي لا يمكن أن تتمشى، بأي شكل من الأشكال، مع وصف سينوسيوس لبلدة البومبا.

(3) انظر .IRIAR. BIBLI - MATRIT - V.I.P. 468

الساحل، ثم شاهدت، من ذلك المكان أيضاً جزيرة البومبا الصخرية المرتفعة التي يمكن مشاهدة بروز حراشفها فوق سطح مياه البحر. لقد ترك لنا هيرودوت الكثير من التفاصيل عن جزيرة بلاتيا Platée ولم يحدد بدقة الموقع الجغرافي لتلك الجزيرة الهامة غير أن سيلاكس كان أكثر منه دقة عندما تحدث عنها بطريقة لا تجعلنا نشك أبداً في موقعها حيث أكد على أنها تقع بين بلدة بترابارفوس وبلدة الكيرسونيز «رأس التين . . . المترجم». أضاف أيضاً أن المسافة بين جزيرتي أيدونيا Aedonia وبلانيا اللتين تمتلكان مرفئين[1] تساوي يوماً ملاحياً واحداً. ولا يمكن للمرء أن يصف بكل وضوح وبدقة كبيرة، هذا الجزء من الساحل الذي يهمنا الآن. لقد وجدت، في الواقع، أن المسافة تساوي فعلاً مسيرة يوم ملاحي واحد واثنتي عشرة مرحلة بين موقع بترا بارفوس الذي يطابق مغارات الحبس وموقع كرسونيز أي رأس التين Chersonèse يلاحظ المرء أيضاً أن تلك المسافة الواقعة بين عين الغزالة والبومبا هي الوحيدة في منطقة مرمرة التي يمكن أن تشكل مرفأ صالحاً لرسو السفن.

بعد مسيرة ست ساعات من عين الغزالة بدأت مرتفعات طبرق تلتف وبصورة فجائية، نحو الجنوب حيث يؤكد البدو أنها تمتد حتى تصل جبال قرنة وتشكل بالاشتراك معها وادي التميمي الذي يأخذ في الاتساع كلما اتجهنا صوب البحر. يتميز وسط مجرى الوادي بوجود أخدود عميق شقته السيول الهادرة وذلك نتيجة لفيضان أودية وشعاب جبال إقليم المدن الخمس في الشتاء، حيث تندفع تلك السيول كما لاحظت ذلك نحو خليج البومبا وذلك على نفس مستوى الجزيرة التي تحمل نفس الاسم. قد يكون هذا السيل العرم هو نهر باليروس Palurius الذي ذكره بطليموس[2] حيث أكد على أنه ينبع من بحيرة تقع في

---

(1) انظر IRIAR. BIBLI - MATRIT - V.I.P. 468.

(2) scylax. Cary. Perip. èdit Voss P.451. يحدد العديد من الجغرافيين القدامى والمحدثين من أمثال دانفيل D'anville موقع جزيرة أدونيا أو أدونيس Aedonis في كل مكان الجزيرة التي تعرف حالياً باسم البومبا ولم يتعرضوا بالذكر لجزيرة بلاتياالتي أكدت على توافق موقعها مع جزيرة البومبا. وبمعزل عن الاستقراء الطوبوغرافي والنباتي الذي سوف أتطرق إليه لاحقاً، ينبغي علينا أن ندرك أن جزيرة البومبا هي الجزيرة الوحيدة الواقعة شرق برقة والتي بدت وكأنها مأهولة بالسكان لفترة طويلة. إنني أجد ما يسند هذا التأكيد لدى العالم الكبير مانير Mannert الذي حدد موقع البومبا الحالي على أساس أنه موقع جزيرة بلاتيا القديمة «انظر جغرافية الإغريق والرومان المجلد العاشر، الباب الثاني ص 39».

أكد لي البدو رؤيتهم للكثير من السفن الراسية بالقرب من هاتين الجزيرتين لاسيما جزيرة البومبا لأن المالطيين كانوا، قبل الاتجار مع برقة في المواشي عن طريق ميناء بنغازي، كانوا يتاجرون في نفس السلعة عن طريق ميناء البومبا. خلال فترة إقامتي في برقة، قام قرصان يوناني بالنزول إلى خليج =

الدواخل. ليس هذا مجالاً الآن لشرح أسباب التناقض بين الروايات القديمة والملاحظات الحديثة نظراً لأن هذا الاختلاف ظاهري فقط وسوف نتحدث عن أسبابه فيما بعد. عسكرنا في نفس اليوم بالقرب من ذلك الوادي لا يزال جافاً في هذا الفصل من السنة حيث يتراوح عرض الوادي بين ثلاثين «30» وأربعين «40» متراً ويبلغ ارتفاع ضفتيه متراً واحداً. تغطي أشجار Tamarix الخروب، الكثيفة التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر أو عشرين قدماً، باطن هذا الوادي. يوجد بالقرب من تلك الأشجار الكثير من الشجيرات والنباتات الأخرى خاصة نبات Soudes Fructescenteو ,Ephedra والعديد من الشجيرات والأحراش الأخرى التي تنمو بصورة خاصة، في الأراضي المالحة. على المرء أن يبحث الآن في منطقة غرب التميمي عن بقايا معبد هرقل Hercule الذي تحدث عنه سترابو[1] بالقرب من مدخل هذا الوادي نفسه، وقد تكون قرية باليروس قد اشتركت مع ميناء مينلاس Ménélas، وفقاً لما ذكره مانير، في شرف كونها عاصمة لمقاطعة ليبية ثالثة. حدثني بعض الرعاة أنهم شاهدوا بعض بقايا الآثار في هذا الجزء من الساحل ولكنهم لم يشاهدوا أية معالم قائمة ولم يسمح لي مرضي وتعب من يرافقني بتركهم والتأكد من هذه الأقوال واكتشاف تلك الأماكن الشيقة. يؤكد لنا الشكل العام لوادي التميمي الوصف الذي تركه لنا القدامى حول ازيريس Aziris. تلك المنطقة التي قطنها المستوطنون الإغريق لمدة طويلة وبنوا فيها مدينة في نفس الوقت الذي كانت فيه هضبة سيرا Cyra «قرنّه» مأهولة بفلول البدو أخبرنا هيرودوت[2] إن ذلك المكان يقع قبالة جزيرة بلاتيا بين نهر وهضاب دائمة الخضرة. يشاهد المرء في الواقع الجانب الغربي لوادي التميمي ويمكن للمرء أن يعتبر مدرجات مرتفعات برقة التي تغطيها الأشجار، ويشقها النهر الذي وصفته قبل قليل، هو الوادي الفسيح الذي يشقه النهر العظيم[3] الذي ورد في الرحلة المجهولة[4] وحددت موقعة بالقرب من بلدة نازاريس Nazaris التي تعتبر تصحيفاً لاسم أزيريس Aziris عثرت أخيراً على دليل جديد وهام جداً يتعلق بهذا التوافق عن طريق الحصول على معلومات طبوغرافية ومقارنة النباتات التي

= البومبا ونهب كافة القطعان التي وجدها في الجوار.

(1) Cellar. Geo. Ant. tom 2 P-75.

(2) انظر الكتاب 17 القسم 17 L.17. S.17.

(3) انظر الكتاب الرابع ص 175 - 157 .L.4.

(4) كان القدامى معتادين على تسمية السيول والوديان بل وحتى الجداول البسيطة بالأنهار وهي عادة مألوفة جداً لدينا.

وصفها لنا أبو التأريخ هيرودوت[1] والتي أكدها بعد ذلك، سيلاكس[2].

وفقاً لما ذكره هؤلاء المؤلفون، لا يبدأ نبات السيلفيوم في النمو إلا بعد جزيرة بلاتيا. يحدد هيرودوت الحدود الغربية التي يتوقف عندها نمو ذلك النبات. سوف أبرهن فيما بعد عن صحة هذا القول. اكتفى الآن فقط بالقول بأنني لم أعثر على أية نبتة، طيلة رحلتي في منطقة مرمرة، لها أي وجه شبيه بالوصف الذي تركه القدامى لنبات السيلفيوم ولكن في الوقت الذي تجاوزت فيه التلال التي تشرف على رأس التين على الأقل في تلك الأحواض التي قمت بتفتيشها. ويمكن للمرء أن يسميها آباراً بدلاً من تسميتها صهاريج لأنها قد حفرت من أجل الوصول إلى المياه الجوفية ولا تستخدم، كسابقتها، كأحواض كبيرة لتجميع مياه الأمطار. سأذكر، وفقاً لهذه الملاحظات الصهاريج الآتية على أساس أنها إغريقية أو رومانية وهي صهاريج أبو صير وبناية أبو سليم وغفيرة والسمبك والزرقاء وسملة ودفنة والكلكة والتميمي. كان العرب القدامى يهتمون بضمان المواصلات على الساحل وإقامة نقاط للدفاع أكثر من اهتمامهم بتخصيب التربة، ولذا قاموا بحفر الآبار بالقرب من الساحل أو من تلك القصور التي تحدثنا عنها آنفاً. نذكر من تلك الآبار تلك التي شاهدتها في قصر اللمايد وبورديم والهيف وبون الجوبة والشامس وإجدابية والحمّام وابدرماين والثاون وغيرها من الآبار النائية عن الساحل والتي تبدو حديثة الصنع، وهي بلدة كرسونيز الغابرة. لقد تكررت مشاهدتي لنبات من فصيلة الخيميات Ombellifère تسمى علميا Laserpitium Derias «نبات الدرياس» الذي يشبه كثيراً نبات السلفيوم[3].

---

(1) .IRIAR. Bibli. Matrit V.T.P 486.

(2) الكتاب الرابع ص 169 169 .L.4.

(3) انظر تقرير مفوض الجمعية الجغرافية حول رحلتي في الحوليات الجديدة للرحلات مجلد رقم 30 - عدد أبريل 1826 ص 103. لقد قام عالم إيطالي بترجمة هذا التقرير وأضاف عليه بعض الملاحظات «انظر جريدة Antologia. Sep. 1862». لقد ساعدتني تلك الملاحظات فيما يتعلق بشكل حول تماثل سلفيوم القدامى مع نبتتي التي عثرت عليها. أنني أحتفظ بهذا الشك لنفسي حتى لا أقلب الوضع من تلقاء نفسي، فيما يخص الروايات التي ذكرها بعض القدامى عن حالة تلك النبتة. أترك هذه المسألة لعناية الجغرافيين مثل الجغرافي الشهير مالت بران الذي نشعر بأسف عميق على فقدانه مؤخراً. نترك اللمرحوم التوفيق بين هذه الفوارق التي واجهت بها طبيعة الأرض روايات القدامى. لقد قام بتفسير تلك الفوارق بما عهدناه لديه من حصافة ودقة في النقد التي تحلت بها كتاباته. أما فيما يتعلق بشخصي فإنني مصر على هذا الشبه وسوف أشرح أسباب هذا الإصرار في الجزء الثاني من رواية هذه الرحلة بفضل تعميق كافة الحقائق المتصلة بتلك النبتة التي لم أتناولها حتى الآن إلا بشكل سطحي جداً.

رغم أن تلك المقاطعة مطيرة جداً وغزيرة المياه إلا أن السكان القدامى، تلافياً للجفاف في فصل الصيف، قاموا بحفر الكثير من الصهاريج على طول ضفاف وادي التميمي وتغليفها بصورة رائعة وذلك من أجل اغتنام فرصة فيضان الوادي السنوي لملء تلك الصهاريج.

إن البدو الذين لم يفهموا على ما يبدو، هذه الأسباب أهملوا ضفتي الوادي وردموا بالتالي أغلب تلك الصهاريج، ولكنهم قاموا بحفر حفر عميقة في مجرى الوادي نفسه، لتعويض هذا الفاقد الناجم عن ردم الأحواض المحفورة على ضفتي الوادي. لكن الحفر الجديدة حولت المياه إلى مياه مالحة غير صالحة للشرب بل وتحولت إلى ملاحات لقربها من شاطىء البحر. هنا وصلنا إلى حدود إقليم مرمرة[1].

إن الموارد الجمة التي كانت تقدمها تلك الصهاريج إلى السكان الحاليين في تلك

---

(1) لم يتفق القدامى من المؤرخين على حدود إقليم مرمرة وقرنة. إن اسم المنطقة الأولى غير معروف لدى أبي التأريخ ولكنه ورد في الكتابات اللاحقة له وكان تارة اسماً يطلق على قبائل المنطقة وتارة أخرى على المنطقة نفسها. من بين الأوائل كان سيلاكس قد حدد موطن سكن قبائل مرمرة Marmarides بين آبيس وبنغازي. أما بلين فقد حدد موطنهم بين العقبة الكبرى «السلوم» وخليج سرت. حدد سترابو موطن هذه القبائل في المنطقة التي تقع بين الجزء الشمالي لبرقة ومصر وواحة آمون. من بين الذين أطلقوا التسمية على المنطقة نفسها بطليموس الذي أطلق اسم مرمرة على الإقليم الواقع بين المنطقة الليبية ومدينة درانيس وكذلك فعل المؤرخ آغاثمير Agathmère الذي حدد منطقة مرمرة بين إقليم المدن الخمس ومصر دون أن يطلق عليها اسم ليبيا. إن حدود برقة أيضاً غير دقيقة هي الأخرى حيث يؤكد كل من سترابو وبومبونيوس وسولين بأن برقة تشغل الحيز بين هضبة السلوم الكبرى وضريح الأخوين فيليني شمالاً حتى واحة آمون جنوباً.
أما بلين فيحدد الحدود الشرقية كمن سبق من المؤرخين غير أنه يحدد مدينة سرت كنقطة الحدود الغربية. أما المؤرخ ايتيكوس Ethicus فيؤكد الحدود الغربية التي ذكرها بلين غير أنه يمد الحدود الشرقية حتى مرسى مطروح. أما إيزودور الأشبيلي Isodore de sèville فقد حدد حدود برقة بين مصر شرقاً وأثيوبيا جنوباً وبلاد القبائل التي تقطن البيوت الأرضية Troglodytes من الغرب ويقسم المؤرخ الجغرافي المذكور أعلاه هذه المنطقة الشاسعة إلى ليبيا القورينية وليبيا البرقاوية «إقليم المدن الخمس». لكي لا نتوه في تلك المتاهة التي تقدمها تلك الآراء المتناقضة ولكي نضفي بعض النظام على وصف هذه المنطقة، اعتمدت الحدود التي ذكرها آغاثيمير ولذا أطلقت اسم مرمره على المنطقة الممتدة من مصر حتى جبال رأس التين الحالية ـ كرسوتيز القديمة ـ تأتي بعد ذلك منطقة قورينة إلى الغرب منها حتى خليج سرت. اعتقد أن هذه الحدود أفضل لأنها ضمن الحدود التي كونتها الطبيعة نفسها.

المنطقة التي شحت فيها الأمطار ورعاية الطبيعة، بالمقارنة بالفائدة الكبيرة التي كانت تمتلكها تلك الصهاريج في العصور الغابرة تحت إشراف سكان أكثر مهارة حرفية وصناعية تدفعني إلى تقديم بعض الملاحظات حول الطرق المختلفة التي حفرت بها تلك الصهاريج. إن الاختلاف في أسلوب حفرها وصناعتها يقدم لنا معلومات هامة حول اختلاف أصلها وعصورها. لقد حفرت تلك الحفر وفقاً لطبيعة التربة، في الصخور الصماء أو في جوف الأرض بعد أن تم تبطينها بطريقة ممتازة بالأحجار الفجة. أظن أنني قد تعرفت على تلك الصهاريج التي تعود إلى أصل إغريقي أو روماني وذلك بفضل أبعادها ومساحاتها ودقة صنعتها ولأنها بطنت بطبقة من الإسمنت أقوى وأصلب من الصخور التي حفرت فيها لأنها قد قسمت إلى عدة غرف تدعمها أعمدة نحتت، هي الأخرى، في الصخر الصلد.

كانت فوهات تلك الصهاريج دائرية أو بيضاوية أو مربعة غير أن أحد هذه الأشكال هو الغالب على ذلك النوع من الصهاريج. أما الصهاريج التي بدت لي تابعة للعرب القدامى أو المحدثين فهي، في أغلبها، مستديرة أو مثلثة ومصنوعة بصورة فجة جداً لدرجة أنها تبدو حديثة وهي مكونة في العادة من قطعة واحدة خالية من أي طبقة إسمنتية أو أعمدة.

الفصل الرابع

نظرة على التأريخ الطبيعي لإقليم مرمره ـ حصر للبطون المختلفة لقبيلة أولاد علي ولأعرافها وتقاليدها

قبل أن نتجاوز جبال إقليم المدن الخمس الليبية المرتفعة، والدخول إلى إقليم جديد تتنافس فيه المعالم الأثرية مع الطبيعة عن طريق مؤثرات تصويرية في كل خطوة داخل تلك المنطقة، ينبغي أن أعيد إلى الأذهان ذكريات شيقة، ونتوقف عند الحدود التي رسمتها الطبيعة بين هاتين المنطقتين المختلفتين، ونلقي نظرة أخيرة على المنطقة التي انتهينا من التجوال فيها. ستكون تلك النظرة الجديدة بمثابة ملخص واستكمال للملاحظات المتفرقة التي وردت في الفصول السابقة.

القسم الأول

التاريخ الطبيعي

تشغل هذه المنطقة بأسرها، التي تقع بين الاسكندرية وخليج البومبا مساحة مائة وست وخمسين مرحلة Lieues من الشرق إلى الغرب أي اعتباراً من الدرجة الجغرافية 27° و 34د و 30ث حتى الدرجة 20° و 49 دقيقة طولاً شرق خط العرض الجنوبي Meridien بالنسبة لباريس.

يشكل الجزء الثاني من تلك المنطقة هامشاً من الأرض القابلة للزراعة ويحاذي الساحل ولا يمتد نحو الجنوب إلا لمسافة تتراوح بين (10&15) عشر وخمس عشرة مرحلة. لن يرى المرء، عندما يتابع طريقه في ذلك الاتجاه نحو واحة آمون، إلا صحراء جرداء تتخللها من وقت إلى آخر بعض السبخات التي صورها لنا، وبصورة إبداعية، الجغرافيون القدامى وخاصة سترابو[1]. تلتقي الهضاب، التي يتدرج ارتفاعها رويداً رويداً كلما نأت عن الساحل، وذلك في جميع الاتجاهات، بشريط ساحلي يتعاقب مع سهول تحتوي على ممرات خاصة بالسهول التي تتدفق من قلب تلك الهضاب شتاء والتي تتجه نحو البحر. كان الساحل مفصولاً، بشكل عام، من أبوصير حتى العقبة الصغرى، عن الأراضي الأخرى عن طريق سد رملي يميل لونه إلى البياض، ويدخل مسافة كبيرة تحت مياه البحر مما يسبب في إحداث هوات بحرية خطيرة بالنسبة للسفن المبحرة التي تقترب من الشاطىء.

---

(1) انظر .Strab., L.2 c.4

نرى أحياناً أن هذا السد الرملي قد انقطع غير أن حوافي الهضاب وصخورها قد حلت محله.

إذا اتجهنا نحو الغرب، بعد العقبة الصغرى، فإننا نشاهد الساحل وقد أخذ في التعرج كما تظهر، في الأفق، عدة مناطق ذات سفوح جبلية وعرة تتكسر عليها أمواج البحر الهادرة. يلاحظ المرء في هذا الجزء من الساحـل، بشكل أوضح من الجزء الذي سبقه، عدة منحنيات خليجية، ربما تم استخدامها، في الماضي البعيد، كمرافىء أو ملاجىء للسفن، غير أن الرمال التي تسد تلك التجاويف، بالإضافة إلى اكتساح البحر لها، قد نزعت أهمية تلك الخلجان الصغيرة التي لم تعد تحتفظ، كموانىء، إلا بسابق شكلها القديم لا سيما في بعض الأجزاء الصخرية. تدل التربة في كل مكان من اقليم مرمره على حدوث ثورات فيزيقية، كما تشير حالات الدمار في تلك المنطقة أيضاً إلى صورة معينة عن ثورات إنسانية.

إن الأصداف التي ترصع الصخور المسامية المتفرقة على الهضاب والتلال، علاوة على تجمع المعادن المختلفة في طبيعتها، بصورة متباينة في وضعها وهيئتها، تشكل سمة عامة لتلك المنطقة. يخرج أي رحالة يتجول في تلك المنطقة بانطباع مؤلم فالعراء المستمر لهذه المنطقة يجعلها أكثر عرضة للخراب ويساعد على انقراض سكانها. لا يشاهد الرحالة أمامه سوى سهول رمادية وتلال جرداء. يستمر هذا المشهد دائماً حتى بعد أن يتقدم الرحالة في مسيرته كما يدل على خلو المنطقة من الناس في هذه اللوحة التي لا حياة فيها ولا لون، سوى صيحات القطعان النائية وثغائها، والبقع السوداء البعيدة التي تدل على خيام البدو. إن أحجار الصوان أكثر من الأحجار الجيرية في وادي مريوط غير أن الأحجار الجيرية تتغلب على الصوانية كلما اتجهنا نحو الغرب وذلك حتى عقبة السلوم. يمكن للمرء أن يشاهد تلك الأحجار مرصعة بالأصداف أو متحدة مع الصوان أحياناً. قد يشاهد المرء أيضاً، بصورة نادرة، طبقات من الكوارتس ورقائق من أحجار Spath البلورية الشفافة.

أما بالنسبة للمنطقة الواقعة بين عقبة السلوم وخليج البومبا، وهي أكثر ارتفاعاً في بعض أنحائها من المنطقة السابقة، كما أشرنا لذلك، فهي لا تختلف إلا قليلاً من ناحية طبيعة التربة حيث نشاهد كتل الصخور الصوانية مضغوطة فوق صخور جيرية كما نرى أحياناً وادياً ما يفصل كتلتين متجاورتين غير أنهما مختلفتان في تركيبهما الجيولوجي. نجد أن الأراضي التي تتكون عموماً من الطين ملائمة أكثر لزراعة، وأن أكثر الأماكن خصوبة في

تلك المنطقة هي المنخفضات التي تحتفظ بمياه الأمطار لفترة طويلة، وهي السهول التي كونتها تلك الهضاب وتحميها من زحف الرمال.

يشاهد المرء في كل مكان من المناطق التي لا توجد بها مثل تلك الحواجز الطبيعية الممتدة من الشرق إلى الغرب، الرمال الزاحفة بفضل الرياح «القبلي» وهي تتحد مع الأراضي الخصبة بل وهي تكتسحها أحياناً حتى تصل إلى شاطىء البحر. لا يساعد تشابه التربة على تنويع الغطاء النباتي في تلك المنطقة حيث توجد بها نفس الفصائل النباتية، عدا استثناءات بسيطة، في كافة أنحاء إقليم مرمره. إن معظم النباتات التي يشاهدها المرء بكثرة، والتي تميز تلك المنطقة الساحلية بمظهرها المستمر، توجد بالقرب من الساحل وبالقرب من السبخات ومنها نبات ephedra والأنواع المختلفة لنبات Soude وخاصة شجيرات Salsola Vermiculata وهي فصيلة خيطية أوليفية تسمى «الشيح» وتوجد في مساحات شاسعة من العقبة الصغرى حتى خليج سرت لا سيما بالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة. أما نبات Scilla Maritima فتشغل نفس الحيز غير أنها تنمو داخل الأراضي الزراعية والخصبة أي في المنطقة المحصورة بين الساحل وتخوم الدواخل ويمكن للمرء أيضاً أن يشاهدها في السهول، بصورة خاصة، ويستخدمها السكان يابسة كوقود وحطب.

إن هذه الشجيرات تضفي جمالاً وزينة على تلك السهول عندما تكون خضراء حيث تسر أزاهيرها ناصعة البياض أعين الناظرين. يشاهد المرء أيضاً، في تلك البقاع، أعداداً هائلة من نبات Scilla. وخاصة نوع من فصيلة Rubia ـ الروبيه، التي تعوزها الأغصان رغم أن ثمارها وفيرة.

تذكرنا تلكما النبتتين بصورة خاصة بما ذكره هيرودوت[1] بشأن المساكن النقالة أو المتنقلة لليبيين، التي كانت تصنع من نبات البلوز Asphodeles المضفورة والخوص، بنباتات شوكية Jonc «الشبرق» وبشأن نسائهم اللاتي كن يصبغن باللون الأحمر القاني جلود الماعز التي كنّ يرتدينها.

يمكننا أيضاً أن ندرج ضمن التصنيف العام لنباتات اقليم مرمره نباتات أخرى مثل roccella والاشنات المختلفة التي نجد بينها، في كثر من الأحيان، فصيلة Pulmonaire

---

(1) انظر الكتاب الرابع ص ـ 190 - 189 - 190 - 189 .L. IV. p

de terre إن تلك النباتات اللازهرية Cryptogame تغطي، عند أول الغيث، الأرض في تلك المنطقة بشكل كثيف، وتجعل من مناخ اقليم مرمره أقرب إلى مناخ أوروبا منه إلى مناخ مصر.

لم أشاهد أبداً أي فصيلة من هذه النباتات في أراضي وادي النيل الطينية التي وجدت فيها الأعفان والاشنات داخل الآبار وفوق العديد من النباتات. وكذلك النباتات اللازهرية التي توجد على قمم التلال غير أنني لم أشاهد أي من تلك الأنواع المورقة التي لا تنمو إلا بفضل الأمطار الغزيرة.

يمكنني أن أضيف أن فائدة نبات الأشنات Lichen غير معروفة كثيراً في مصر علما بأنها تحظى بتقدير كبير في منطقة النوبة لأن القوافل تقوم باحضارها من المناطق المطيرة جنوب المدارات.

إذا تجاوزنا تلك الاعتبارات العامة ودخلنا في التفاصيل سوف نرى الكثير من النباتات البذرية graminées في المنخفضات والسهول بل وفي تجاويف الوديان مثل نباتات Agrostis المرجية ونبات Poa عشبة الكلأ و Festuca الفوستكه والغاب arundo و bormus الشويعرة و Tenuiflorus التريفلور و avena الشوفان وSterielis حشيش الرمل وفصيلة من نبات Osurus الحماض. كما يشاهد المرء أيضاً مركبات مختلفة Syngénès مثل نبات anthrimis Maritima البابونج أو «الفلية» و arabica ربيان ونبات Sencio Laxiflorus المريّر أو الزملوك و glaucus الكوكوس ونبات graphalium Straechaes و Conglaebatum و Crepisfiliformis والعديد من نباتات Aster الزهرية مع العديد من النباتات الصليبية مثل نبات Cleome ونبات eruca الجرير ونبات Cleopola ونباتات Boraginées وخيمية Ombelliferès وأخرى Caryophilleés بالإضافة إلى نبات anchusa bracteolata وLithospermum callosum كما توجد العديد من نباتات Cuminum الكمون و buplevrum التي تنمو في الأراضي الرملية أما في الأراضي الطينية فتوجد نباتات مثل الغسّول Silene pigmaea والرغل العادي Silene pigmata والنجمية Stellaria. كما نذكر أيضاً بعض النباتات التابعة لفصائل أخرى مثل نبات Plomis Samia الجميل حيث تتناقض ألوان أزاهيره الصفراء الفاقعة التي تنمو في عناقيد كثيفة، مع لون التربة الشاحب بالإضافة إلى نباتات تشبه لون التربة مثل شجيرات Lagapoides وamplexicaulis والعديد من أنواع Euphorbes اللبينة ومنها نبات Minima ونبات

heterphylla وخاصة نبات Statice زلقة القبض الذي يوجد في الأراضي الطينية والرملية على حد سواء.

يمكنني أن أضيف الكثير إلى هذه القائمة النباتية، غير أن الفصل الذي اجتزت خلاله إقليم مرمره، كان حاراً جداً لدرجة أن أغلب النباتات قد شوهتها حرارة الصيف ولذا كنت، غالباً، مضطراً إلى تقديم بعض الأمثلة العامة رغم بساطتها.

لقد حالفني الحظ كثيراً في إقليم المدن الخمس الليبية حيث أمكنني أن أقدم، وبدقة كبيرة، الكثير حول هذا الفرع من المعرفة عندما تعرضت بالدراسة لذلك الإقليم، على الأقل، فيما يختص بالقليل من النباتات التي رأيت أنها مهمة من حيث نموها أو جدواها بالنسبة للسكان. لقد ذكرت بعض الشجيرات التي تنبت بمحاذاة الساحل والهضاب أو تنبثق، إن جاز التعبير، من شقوق الصخور. أما فيما يتعلق بالأشجار، عدا أشجار النخيل في بون الجوبه ومرسي بيرك، فإنها إن وجدت في هذه المنطقة، وتخللت عراء تلك الفجاج، فلا وجود لها البتة بالنسبة لعين الناظر هنا. نجد أن الصهاريج المدمرة، في الواقع، وكذلك بقايا المحاجر تحتوي على أشجار التين البري Ficus carica وبعض أشجار الخروب. إن تلك الشجرة القصيرة التي لا ترتفع قمتها عن الأرض إلا قليلاً تبدو كأنها مطمورة في أحشاء الأرض حيث يمكن للمرء أن يخلط بينها وبين الأحراش الصغيرة المحيطة بها إذا كان بعيداً عنها.

تقتصر الحياة الحيوانية في إقليم مرمره على بعض الحيوانات كالأرانب البرية، الحيوان الوحيد من ذوات الأربع أرجل الذي يصادفه المرء بكثرة، مختفيا بين الأعشاب. ينطلق هذا الحيوان بسرعة البرق عند الاقتراب منه ولكن، رغم مهارته وسرعته، لديه عدو أسرع منه بكثير يستطيع اقتناصه ويسمى «السلوقي» وهو كلب من المنطقة الغربية البربرية روضه البدو على صيد الأرانب البرية. يكفي أن يلاحظ هذا الكلب وثبة الأرنب لكي ينطلق وراءه بل ويتعداه في السرعة ثم يعود إليه مسرعاً لإيقافه ومحاصرته بحيث يندر جداً ألا يتمكن من قتله وتقديمه كطعام لسيده. إن قطعان الغزلان تتبع تعرجات الوادي ولا تتقدم، إلا نادراً، صوب الساحل. ورغم أن حركتها أبطأ بكثير من حركة الأرانب البرية إلا أن مرونة أجسامها واختلاف وثباتها المتكررة تنجح في إنهاك أفضل كلاب السلوقي وإبعاده عن مطاردتها. كان هذا الحيوان الرشيق والمفعم بالحيوية موضوعاً لمقارنات وتشبيهات البدو الشعرية، وهذا أمر معروف جداً لدرجة أنه لا يمكنني إضافة الكثير إلى الاستعارات والصور

الذي ذكر فيها هذا الحيوان. إن حوافر الغزال المشقوقة تترك أثرها على الرمال وتفشي هكذا أسرار ملاذه وهربه ولكنها، لا تقدم، في الأراضي الصخرية الصلبة في إقليم مرمره، أي عون للبدوي الذي يصطاد دون كلب سلوقي.

لكن البدوي يستطيع من خلال علامات أخرى، التعرف على مكان مرور القطيع، ومنها رائحة المسك التي تفوح من بعر الغزلان.

لاحظت أن كافة النباتات العطرية وخاصة نبات Statice Tubifora[1] الزلقة الأنبوبية الذي يطلق عليه البدو اسم «حشيش الغزلان» مفضل جداً من قبل الغزلان.

ومن بين الحيوانات رباعية الأرجل الأخرى التي يمكن أن نشاهدها في إقليم مرمره، هناك الذئاب الصغيرة، وبنات آوى، والضباع والقنافذ والجرذان والجرابيع gerboises التي كان القدامى يطلقون عليها اسم «ثنائية الأرجل» dipode[2].

ومن بين الزواحف في تلك المنطقة نجد أن أكثرها مسالمة هي، دون شك، السلاحف التي يجدها المرء غالباً قابعة بين الأعشاب في السهول.

إن الحية القرناء Ceraste التي تشويها رمال صحراء ليبيا المحرقة، وتتجنب مطر الشتاء القارس، لكي تلوذ إلى جحور وإلى شقوق الصهاريج وتلتقي فيها بالعديد من العقارب والسحالي وغيرها من حشرات هذه الفصيلة الكريهة التي لم أكن أبداً أحب أن أقلق راحتها.

عندما عبرت هذه المنطقة في ذلك الفصل لم تبد لي زاخرة بالحشرات غير أنني شاهدت الجراد العادي والعناكب والنمل وأعداداً كبيرة من الجعلان خاصة من فصيلة Scarebaeus Sacer.

كان هذا كل ما رأيت في تلك المنطقة من حشرات.

إن عالم الحشرات بعيونه الحاذقه كان، بدون شك، سيعثر على فصائل وسمات أخرى في تلك الحشرات، بل وربما العديد من الحشرات الأخرى، التي لم يفطن لها شخص مثلي.

---

(1) Statice Pruinosa, Vivia. Flora. Libya. Specim. p. 17.

(2) Herodote, L. IV, p. 192.
كان القدامى يطلقون على هذه التسمية بسبب قصر أرجلها الأمامية وطول أرجلها الخلفية.

إنني لا أضع ضمن هذه الفصيلة الديدان البيضاء التي توجد بكثرة فوق أغلب نباتات المنطقة وتمنحها شكل الأزهار بصورة عامة. إن بعض البدو يقتاتون عليها بدون توابل، ويلقونها، حفنة تلو الأخرى، على نار هشة من العيدان والقش. قد يصلح البدو طعمها بتقديم جراد من الحجم الكبير دون أي تحضير آخر!! كان الفقراء والمعوزون منهم فقط يلجأون إلى تلك الموارد الهزيلة من أجل الحصول على الطعام. إذا كانوا مستمرين في الاحتفاظ بتلك التقاليد القديمة فذلك لأنهم لا يريدون الإساءة إلى ذكرى أسلافهم من الليبيين[1].

إن رؤية شجرة واحدة في منطقة عارية من الأشجار والغابات تأتي بمثابة معجزة ولذا نجد أن أجمل فصائل الطيور التي تشنف آذاننا بصداحها لا ترى إلا بصورة نادرة. إن تلك الطيور المعتادة على البحث، تحت قباب أغصان الغابات الوارفة، عن ملاذ تعيش فيه أفراخها الناشئة وتحتمي فيه من ضوء الشمس اللافحة، تدير ظهرها عن تلك المنطقة الجرداء الموحشة، وتواصل طيرانها نحو اجمات إقليم المدن الخمس الزاهية. أما بالنسبة لطيور الجو[2]، فإنني لم أشاهد عادة في منطقة مرمره سوى طيور لها علاقة بهذا البؤس المحدق بتلك المنطقة لأن التغريد الذي سمعته لا يخرج عن نعيق وصياح وتحليقات وطلعات لطيور كاسرة تبحث عن فريسة. لقد شاهدت النسور والعقبان والحدآت تحلق فوق قطعان الحيوانات، وزمراً من الغربان المتناحرة على رميمة معزولة، والوطاويط والبوم القابعة في الشقوق والتجاويف الصخرية أو تحت الأنقاض الأثرية لتختفي عن نور الشمس.

أما شاطىء البحر فهو لا يقدم أي مشهد أكثر رونقاً وجمالاً فلا يرى المرء سوى طيور alcyons وطائر البجعة وطائر oubara وأنواع أخرى من الطيور المائية التي تشبه تارة النقاط الثابتة في قلب المستنقعات، أو واقفة على الشاطىء في صفوف منتظمة بهدوء كبير لدرجة أنها تسمح لموج البحر بملامستها. قد تعقب تلك الوقفة الثابتة عملية طيران فجائية تحدث بلبلة بينها وتنذر باقتراب هبوب عاصفة رعدية.

وفي نهاية شهر ديسمبر، عندما تكسو الخضرة المناطق الساحلية، يمكن للمرء أن يرى طيور الخطاف والسلوى «السمان. . المترجم» ودجاج الماء، أي أعداداً كبيرة من الطيور المهاجرة التي تحط للراحة في تلك المنطقة قبل استئناف رحلتها.

---

(1) انظر كتاب هيرودوت رقم 4 صـ 162. .Herodote, L. IV, p 162

(2) مقارنة بطيور الماء. . . . المترجم.

القسم الثاني

سكان إقليم مرمره

قمت بتقسيم السكان في تلك المنطقة إلى قسمين وذلك بغية التمييز بينهم. يتعلق القسم الأول بالسكان في المنطقة الواقعة بين الاسكندرية وعقبة السلوم التي يقطنها، بصورة خاصة أولاد عليّ. إن هضبة زرعة التي تكونت من هذه الجبال مأهولة من قبل أولاد عليّ والحرابي. والقسم الثاني يتعلق بالسكان في بقية إقليم مرمره الذي تقطنه قبيلة الحرابي وتسيطر عليه.

تنقسم قبيلة أولاد عليّ الكبيرة إلى أربعة بطون يسكن كل بطن منها في منطقة معينة. البحيرة، أي اعتباراً من الجانب الغربي لبحيرة مريوط حتى مدينة دمنهور تقطنها بطن أولاد خروف. أما وادي مريوط فتشغله بطن صنانه وتقطن بطن الصناقره منطقة العقبة الصغرى ويسكن أولاد علي الأحمر عقبة السلوم الكبرى.

تنقسم تلك البطون إلى عشائر صغيرة أو أفخاذ هي:

- أولاد خروف
- حدّوث
- أولاد منصور
- عيت إبراهيم
- عيت بوزينه
- عيت باهيه
- الصناقره
- عفرات
- مغاوره
- الجباله
- أولاد صنانه
- المحافيظ
- هواره
- هجينه
- الخطيفات
- الشوابه
- أولاد علي بن الأحمر
- اكميلات
- شهيبات
- غناشات.

يمكن العثور، علاوة على هؤلاء البدو، على سكان آخرين في إقليم مرمره ينتمون إلى قبيلة «المرابطين» الكبيرة وهي موزعة على كافة القبائل التي تقطن مختلف الفيافي غير أنها تكوِّن، مع ذلك، صنفاً خاصاً وتنقسم، هي الأخرى، إلى عدة عشائر. تعرف العشائر أو «البيوت» التي تقطن إقليم مرمره بالتسميات الآتية:

- البحيرة ـ شايت / الجوابي ← أولاد علي
- وادي مريوط ـ الشاطور / السامالوس ← أولاد علي
- العقبة الصغرى ـ صتّريت ← أولاد علي
- هضبة السلوم (العقبة الكبرى) ـ موالك / ـ صراهنه / ـ عيت ميره ← حرابي
- ـ شرصات ← أولاد علي
- وادي دفنه ـ حبون / ـ شواهر / ـ غيطان ← حرابي
- خليج البومبا ـ إمنفه / ـ غراريّه ← حرابي

إن السمات الرئيسية التي تميز قبيلة «المرابطين» هي الالتزام الكبير بتعاليم القرآن والمحافظة من حيث السلوك، وتكوِّن، على هذا النحو، طريقة دينية متجددة بنفسها، في حالة غياب المبشرين، بفضل عمل أبنائها. رغم أن المرابطين يقومون بنفس الأعمال التي يقوم بها بقية البدو عموماً، نجد أن بعضهم يقبع في بنايات صغيرة قرب المدن وهو تقليد

نادر لا يمارسه سوى بعض الشيوخ الطاعنين في السن الذين لم تعد سنهم تمكنهم من الحرث أو تحمل وعثاء السفر.

وإذا كان من العسير تقدير عدد سكان مدن المنطقة الشرقية فإن تقدير عدد سكان الدواخل أصعب نظراً لأن القبائل فيها من البدو الرحل. يمكننا فيما يتعلق بالحالة الأولى أن نجد العديد من أوجه المقارنة التي يمكن أن نستخلص منها نتائج مقاربة جداً للواقع. أما بالنسبة للحالة الثانية، فهي، على النقيض، محفوفة بالشكوك، لأن عدم ثبات البدو الرحل في مكان واحد، تضلل الرحالة ولذا عليه أن يكتفي بالمعلومات فقط عند غياب الأدلة الكافية.

عند تمحيص كافة المعلومات التي استطعت جمعها بشأن عدد السكان في إقليم مرمره، فإنني أعتقد أنني سأكون قريباً من الحقيقة إذا اعتبرت أن كل قبيلة من القبائل التي ذكرتها آنفاً تتكون من ثلثمائة خيمة «بيت شعر» وتتكون كل خيمة من أربعة أفراد من الجنسين. وفقاً لتلك الحسابات، وهي أعلى حسابات يمكن قبولها، فإن عدد السكان في المنطقة الواقعة بين الاسكندرية ومرتفعات برقه يبلغ نحو ثمانية وثلاثين ألف نسمه (38000) ويبلغ عدد المسلحينْ منهم نحو النصف فقط. لا أعتقد أن نصف عدد المسلحين منهم الذي يبلغ تسعة عشر ألف نسمه (19000) يقطنون الجانب الليبي وإن خمسهم فقط يمتلك جياداً وهذا يعني أن عدد الفرسان لا يتعدى أربعة آلاف فارس (4000) على أقصى تقدير.

لقد ادرجت، ضمن تلك التقديرات، سكان الحرابي الذين يقطنون الإقليم الغربي لإقليم مرمره. رغم أن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، بالنسبة إلى تلك القبائل، ونظراً لأن الحرابي ينتمون إلى قبائل تقطن إقليم المدن الخمس، الذي سوف يحظى بالدراسة فيما بعد، فإن الصورة السريعة والعجلى التي سوف أعرضها الآن، لن تشمل الحرابي، بل ستشمل، حرصاً مني على الدقة، قبيلة أولاد علي الشهيرة بصورة خاصة.

منذ أن نجح «محمد علي» والي مصر في استقطاب أكثر شيوخ قبائل أولاد علي الكثيرة وزاد حركة ونشاط المدن المصرية، سقط هؤلاء الشيوخ وفقدوا مصداقيتهم وسمعتهم القديمة. إن سمعة وبطولة أولاد علي التي لا تزال تذكر في الأهازيج الشعبية كانت تثير تخوف جيرانهم في القدم، فكانوا يغتنمون الفرص وأقل المتاعب التي تطرأ في مدن مصر، وهي قلاقل يثيرونها أحياناً بأنفسهم، للسطو على الأسواق ونهبها والهرب بعيداً

إلى وحشة الفيافي التي كان يصعب الوصول إليها آنذاك، وهم محمَّلون بالغنائم الثمينة على صهوات جيادهم السريعة. كانوا يحتلون، في تلك الأونة، كل المنطقة التي تقع بين مصر وخليج سرت، وكانت كوكبات الفرسان تتسلل من معسكراتهم العديدة التي تغطي تلك المنطقة الساحلية، نحو الدواخل وتغير على الواحات وعلى قوافل الرقيق، ويواصلون إغارتهم أحياناً بجرأة كبيرة حتى قلب بلاد النوبه. نجد، مع مفارقة عجيبة، أن هؤلاء الرجال الأشاوس من أهل السلب والنهب يتسمون بكثير من الصفات الإنسانية، خارج منتجعاتهم أو عندما يعودون إليها. نجد أيضاً، علاوة على ذلك، أن هذا السلوك مشترك بين البدو الذين يقطنون مختلف المناطق الصحراوية. لقد لاحظ ذلك، قبل مقدمي بكثير، كاتب مشهور.

إن أولاد علي الذين يصبحون أكثر ميلاً للسلم، وأقل عدداً، وأكثر تضامناً في حدود منطقتهم، حسب ما شاهدت ذلك بنفسي، يشكلون مجتمعاً من العسير أن أقوم بتحديد نوعية الحكم فيه. قد أسميته بالحكم الأرستقراطي غير أنه لا يكتسي من الحكم الأرستقراطي سوى شكله ولا يحدث نفس الآثار والنتائج.

إن شيوخهم لا يمارسون سوى سلطة هشة تنجم عن السمعة والتقدير داخل القبيلة وليس عن الخوف أو السلطان. صحيح أن أولئك الشيوخ يؤكدون دائماً ألقابهم، منذ العهد الذي ذكرته، لدى باشا مصر، عن طريق «برنوس» الشرف الذي يقدمه لهم ذلك الأمير المصري. لكن هذا البرنوس لا يعتبر دليلاً على السلطة والتأييد بل على الازدراء والهجران إذا لم يحصل الشيخ على موافقة قبيلته قبل موافقة باشا مصر.

نجد أن هذا الفضل الذي يقدمه والي مصر، لا يحتاج في الواقع إلى أية قوة تجعله لازماً بل ويتحول إلى وهم أحياناً ولذا نرى أن الشيخ الذي لا يختلف في شيء عن سائر البدو، بدون أي علامة تدل على ممارسته للسلطة أو أي دور يسمح له بتعزيزها لصالحه. تتكون ثروة الشيخ عادة من العديد من القطعان ويتكون حرسه الخاص عادة من أبنائه وأقاربه. نظراً لأن الشيخ لا يستطيع أن يمارس سلطته بالعنف فهو يلجأ غالباً إلى اللين والسخاء.

يشاهد المرء، أمام خيمة الشيخ البدوي، امتداداً كبيراً للبيت العربي الكبير الذي صار يشبه فندقاً للقوافل الصحراوية ويتم فيه استقبال كافة المسافرين وتقدم فيه المأكولات

الفاخرة، ويجتمع فيه الأعيان والمسنون من القبيلة، وذلك لبحث القضايا العاجلة. لقد أتيحت لي فرصة حضور مثل هذه المداولات. لقد كانت صاخبة جداً وعنيفة حيث كان الجميع يتحدثون ويصيحون في نفس الوقت، ولكن حالما يطلب الشيخ الكلمة، وهو في العادة رجل طاعن في السن، يهدأ هذا الصياح ويخيم هذا السكون من جديد.

أجساد هؤلاء البدو هزيلة غير أنها حسنة التقاطيع، لهم وجوه سمر وهزيلة ومنتظمة الشكل بصفة عامة، وعيون سوداء براقة، وأنوف كبيرة غير معقوفة وجباه طويلة تشير إلى ابتعادهم عن الزيجات والتحالفات السيئة وتميز بينهم وبين عرب المغرب العربي. إن أذقانهم الخفيفة والقصيرة من ناحية الصدغ وتنتهي عند الذقن، تشتعل شيباً، بصورة واضحـة، في وقت مبكر، الأمر الذي يؤدي إلى ذهول ودهشة الأوروبي عندما يشاهد معالم الشيخوخة وقد اقترنت بعيون براقة بل ويتطاير منها الشرار بكل مظاهر القوة والمهارة.

لا يوجد الكثير من الشعر على بقية الجسد فهل يرجع ذلك يا ترى إلى الحرمان والجوع؟. لقد لاحظت أن البدو الذين هجروا الصحراء واستقروا في وادي النيل يتمتعون بصحة أفضل وبذقون أغزر شعراً. لكن هؤلاء البدو يتعرضون لسخرية وازدراء إخوانهم الذين يطلقون عليهم بشيء من التهكم «بدو الحث Hét» أي سكان المنازل. مهما كان حرص هؤلاء على عدم الاختلاط بالفلاحين، فإنه من الملاحظ أن وجوههم تدل على الرفاهية وعلى فقدان السمات الأصلية رويداً رويداً. لا تؤثر العادات الحياتية على روح الإنسان المعنوية فحسب بل تضفي على ملامح الوجه وقوام الجسد بأكمله سمة خاصة تتعلق بطبيعة تلك الحياة. إذا قام المرء مثلاً بحمل بدوي ما على التنكر في زي الفلاح[1]، فإن نظراته الثاقبة والمعتدة، وطريقة مشيته وحركات يديه، تكشف بسرعة عن شخصيته. إن هذا الاعتداد بالنفس هو السمة المميزة لبدو الصحراء ولذا نراه مطبوعاً على ملامح وجوهم ونواصيهم بل ويمنحهم طاقة من شأنها أن توحى للنظارين بالعزم الشديد الذي يميز صاحبه. إن تقاطيع أولئك البدو تستدعي ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة للفيلسوف. إن وجوههم التي تتسم بالجدية والحزم، عادة دون أن تتسم بالحزن، لا تكشف عن ذلك الطيش، أو تلك الخفه التي يمكن ملاحظتها لدى الشعوب الأخرى بل ولدى من هم أكبر

(1) يطلق هذا الاسم على المزارع المصري.

منهم سناً أحياناً. إذا وقع البدوي في الفاقة بسبب سلسلة من النكبات، فإن تقاطيع ومعالم وجهه، بدلاً من أن تترهل نتيجة للعار أو ثبوط الهمة، تزداد نبلاً. إن هؤلاء الرجال، رغم أسمالهم البالية، يحتفظون بثقة الرخاء وعزة الاستقلال. لا يمكن لمثل تلك الظاهرة الأخلاقية أن تأتي فقط من خلال الخضوع الورع أو الاستسلام الذي يوصي به القرآن.

إن العوز الذي يشوه معالم وملامح الإنسان لا يمقت في أي مكان أكثر من الشرق لأنه يتناقض، بصورة متزايدة، مع الترف الناجم عن الرعب الذي ينشره الاستبداد. قد يرجع أصل هذه السكينة غير المبالية عند بدو الصحراء خاصة في مواجهة نوائب الدهر إلى كل ما يحيط به إذ لا شيء يمكن أن يجبره إلى نسب ذلك، بصورة مهينة، إلى نفسه. زد على ذلك، أن البدوي لا يحتاج إلى أشياء كثيرة. أنه يأمل فقط استرجاع ما يفقده وينتظر دون شعور بالقلق، مصير أفضل ولذا فهو يجد في أواصر الأخوة داخل القبيلة، وفي نواميس الضيافة التي لا يمكن المساس بها، ملاذاً آمناً بالنسبة لحاجاته الأولية في الحياة.

إن هذه العيشة البسيطة وهذه الرغبات المحددة هي السبب، في الواقع، في عدم بذله لأي نشاط بل وفي عدم مبالاته الملحوظة. لا أود أن أبحث هنا فيما إذا كانت الميزات البراقة التي انتجتها أنانية الشعوب المتحضرة، قد تجعل هؤلاء البدو أكثر سعادة، لأن ذلك الموضوع سيستدرجني بعيداً وأنا أريد أن أواصل رواية رحلتي. يشبه زي أولاد علي لباس غيرهم من بدو الصحراء الليبية ويتكون من قلنسوة من القماش الأحمر تسمى «طربوش» وأخرى من القماش الأبيض تسمى «طاقية» وذلك بالنسبة للرأس. يضع الشيخ أحياناً ما يسمى بالكوفيـة على هذا الغطاء غير أنه يصر على ربطها بصورة تختلف عن الربطة العثمانية.

يضع الأثرياء منهم أحذية صفراء «بلغة» مصنوعة في مدن الأقليم الغربي، وسروالاً فضفاض من القماش الخشن مربوطاً من وسطه، وينزل حتى بطات الأرجل، وفوقه قميص فضفاض أيضاً. إذا تم العثور على بدوى لا يرتدي قميصاً فإنه يرتدي دون شك لباساً طويلاً يسمى «الحرام» بدلاً منه. يشكل «الحرام» الجزء الأخير من زي البدوي وأهم تلك الأجزاء وأكثرها تمييزاً له.

يتكون الحرام من قطعة واحدة من القماش الصوفي نسج في شكل مستطيل ويرتديه البدوي دون حياكة أو فتحة رقبة. يتفنن بدو الصحراء في ارتدائه إذ يلبسه بشكل نبيل وبسيط

يصعب على الفلاح أو الحضري أن يقلده في ذلك. إذا قام الفلاح أو الحضري بارتداء الحرام فإنه يتحول إلى رداء ثقيل لا بهاء فيه بل ويعيق مشيته ويعرقل حركات يديه. لذا يمكنني أن أقول بأنه مثقل به فعلاً بدلاً من ارتدائه. عند ارتداء الحضري أو الفلاح لهذا الجواز الضروري في المناطق الليبية، فإنه سرعان ما ينكشف بسبب مشيته أو طريقة لبسه الفجة.

أما إذا قام البدوي بوضع الحرام على جلده الأسمر أو على قميصه الفضفاض فإنه يرتديه بصورة فنية بطريقة لا يمكن تقليدها، لأن هذا الفن ناتج عن العادة وليس عن البحث والتعلم. يقوم البدوي بعقد أحد أطراف الحرام على مسافة ربع طوله ويكون فيه فتحة تسمح بدخول رأسه والذراع اليسرى وينسدل الجزء المربوط تحت الإبط مدعوماً بالعقدة التي تستقر على الكتف اليمنى، ويتم إلقـاء بقية الرداء على الجانب الأيمن دون عناية كبيرة.

ويقوم البدوي قبل ذلك بلفه على رأسه ليقيه حرارة الشمس. إن هذا الزي يشبه زي عصر البطولات والأمجاد السابقة ولا يمكن أن يكون أبسط من ذلك. إن بساطته هي سر نبله وروحه الحربية. في اللحظة التي يقوم فيه البدوي بمسك مقاليد جواده وقمة سرجه بيد، ويلقي بطرف هذا الرداء على كتفه باليد الأخرى منطلقاً في نفس الوقت على صهوة جواده، يرى المرء، وأكرر لكم ذلك، أن تلك اللحظة تمثل حركة مقترنة بالنبل وبساطة التقاليد والسلوك عند هؤلاء الناس. لا يقتصر الحرام فقط على ستر الجسد بصورة نبيلة فقط بل يعوض لوحده جميع أدوات أسرتنا في أوروبا.

فالبدوي يحمل معه سريره وفراشه في كل مكان سواء أكان ذلك في العراء أو تحت الخيام لأنه يتقوقع فيه بطريقة تجعل من أي غريب أو أجنبي عن تلك التقاليد لا يشعر بوجوده إذا دخل إلى الخيمة ليلاً أو إذا توقف بالقرب من أي قافلة. بل وتجعله يبحث عن سكان الخيمة أو سائقي القافلة دون جدوى لولا سماعه، من وقت لآخر، كلمات «هيا» و«الله وأكبر» و«هيا يا مستور» أو أي عبارة أخرى تنطلق بصورة خافته تدل على وجود إنسان تحت أكوام من الأسمال.

ترتدي النسوة أيضاً الحرام ولكن بطريقة مختلفة تماماً لأن جزءاً منه يلتف حول الرأس على هيئة طربوش بينما يتم لف الجسد ببقية الحرام وربطه، في المنتصف، بحزام

يصنع، عادة، من الجلد. أما شعر المرأة، فتتركه ينمو دون قص منذ الطفولة ويجدل حول الجبهة أو يرخى على الأكتاف.

تقوم النساء عادة بتغطية شعورهن بمنديل من القطن أو الحرير يسمى «المدورة»[1] وهو مزركش ولكن في أغلب الأحيان يصنع من الصوف الأسود. تتميز البدويات دون غيرهن بعدم ارتداء الحجاب الذي يسدل على الوجه والذي يسمى «البونه» bounah[2] وهو الحجاب الساتر الذي تفرضه غيرة الرجال في الشرق على كافة النساء دون تمييز في المدينة[3]. إن ملامح وجه المرأة البدوية منتظمة. وإذا لم يشوه الوشم وجوه تلك النسوة أو تشوه آذانهم دوائر وحلقات فضية ضخمة أو زجاجية تتدلى من الأذن أو الأنف في أحيان كثيرة، فإن البدوية لا تفتقر إلى الجمال. لا تكتفي البدوية بوضع تلك الحلقات في الأذن أو الأنف بل تزين بها أيضاً الأذرع والسوق، ويزداد عدد تلك الحلقات كلما زادت حالات التأنق يدل هذا الحمل الثقيل من الثراء، لحسن حظ الأزواج، بالنسبة لليبيات المحترمات، على نفس المضامين لدى بعض الليبيات في القدم[4]. لا يعني ناموس كرم الضيافة المقدس لدى البدو المتاخمين لوادي النيل مجرد كلمة تطلق على تقليد ما، وليست عملية مشاطرة الخبز والملح مجرد طرفة لا تتطلب أي واجب.

إن البدو يعرفون، عند الضرورة، الاستشهاد بحرمة ذلك القانون. لم يعد البدو الذين أفسد طباعهم قربهم من المدن والمتع المختلفة التي توجد بها، يملكون الآن سوى قانون المصلحة... وهي رغبة أخرى تختلف عن الربح.

لقد شاهدت اختلافات وفوارق ملحوظة لدى بدو إقليم مرمره[5] إن مثل هذه الأمور بعيدة الآن كل البعد عن المحافظة على نقاء السلوك في هذه الحياة التي تسودها السلطة الأبوية. أصبحت محبة البدو للنقود قوية بما فيه الكفاية، غير أنه من النادر جداً أن يحمل

---

(1) يطلق اسم «الشال» على لحاف الرأس في إقليم برقة... المترجم.
(2) يسمى هذا الحجاب «بورغو» في مصر.
(3) ينبغي أن نستثني من ذلك المومسات والغوازي Ghouasis وهن عبارة عن راقصات عموميات.
(4) إن نساء قبيلة جيدان Gidanes التي تقطن الجزء الغربي من خليج سرت، كانت تفخر بوضع العديد من السيور الجلدية حول سوقهن ويتفق عدد السيور مع عدد الرجال الذين أشبعوا رغباتهم الجنسية معهن. «هيرودوت الكتاب 4 ص 176.
(5) لقد قلت في هذه اللمحة عن سلوك سكان إقليم مرمرة بأنني لا أفهم سلوك الحرابي.

البدوي ماله معه، زد على ذلك، نجد أن أولاد علي، وفقاً لخبرتي الشخصية وأقوال وشهادات الرحالة المحليين، يحترمون قانون الملكية بشكل عام حيث كان المغاربة يؤكدون بأنهم مطمئنون على حياتهم وممتلكاتهم التي تركوها منذ هبوطهم من هضبة السلوم نحو الساحل.

هناك ملاحظة أخرى كوَّنتها، مع فوارق بسيطة، عن كافة سكان الصحارى الذين عرفتهم وهي: رغم أن هؤلاء السكان يتقيدون جداً بتعاليم القرآن ويتسمون بالتزمت بحكم الواجب، غير أنهم لا يبدون، من خلال تزمتهم هذا، تلك المظاهر العدوانية وتلك الروح غير المتسامحة التي نلاحظها كثيراً لدى سكان المدن من المسلمين. إن الأفكار واحدة في كل مكان غير أن آثارها هي التي تختلف. لقد تعرفت، عدة مرات وأنا أتجول في وادي النيل، على حركات وإشارات التهديد والوعيد والسباب الشديد من قبل «ولي» أحمق أو عثماني عنيف. ولم أسمع أبداً أثناء عبوري لمنتجعات البدو أو دخولي لخيامهم أي إهانة بل حظيت، لدى أولاد علي، باستقبال حار في أغلب الأحيان، وبضيافة كريمة رغم عدم خلوها تماماً من المصلحة. إن الانطباع الأول الذي كونته كان دائماً جيداً لأنني كنت أشعر بأن أحاسيس معينة لديهم، وخارجة عن أفكارهم الدينية، تدفعهم دائماً إلى إكرام وفادة أخ لهم في الإنسانية.. لقد كانوا يشعرون بالآلام التي كنت أعاني منها، وكانوا يميلون إلى مواساتي. لقد كانت اللفتات الطيبة الطبيعية تتبع أحياناً حالات البرود والتحفظ. إن ذلك البرود ناجم، بصورة آلية، عن ترتيل القرآن الملزم والمتكرر الذي يوقف تقدم صداقتنا الناشئة، دون أن يؤدي، مع ذلك، إلى التجريح أو الإهانة.

عندما كان البدو يخرجون معي أثناء تجوالي، كانوا يضحكون شفقة عليَّ عندما ينظرون إلى مختلف الأعمال التي أقوم بها، وكانوا يرثون لحالي أو لسذاجتي التي دفعتني إلى تجشم كل هذا العناء من أجل أمور يرونها تافهة، بل وكانوا غالباً ينصبون كوماً من «الحجارة من أجل النبي»[1] لكي يهديني الله إلى الأمور التي أبحث عنها أو أريد معرفتها.

إنني أذكر تلك التفاصيل لأنها تبدو لي دليلاً على أن هؤلاء الرجال الذين يخشى

---

(1) عادة قديمة تلجأ إليها بعض الممارسات الفردية أو الجماعية أحياناً في الفيافي وفي البادية. يقوم البدوي بوضع عدد من الأحجار فوق بعضها البعض بغية التوفيق في مهمة ما. (يقال «يعمل ناطور» من أجل كذا.. كما يقال ذلك في الحضر خاصة عندما يذهب المرء لتأدية منسك الحج.. فيقوم بوضع «ناطور» لصديقه أو قريبه عساه يبلغ هذا المكان ويؤدي هذه الفريضة... المترجم).

بأسهم في أول الأمر، يمتلكون طوية طيبة تجعل العلاقة معهم عذبة ولطيفة حتى بالنسبة لأوروبي مثلي، لو لم تتعرض هذه المناقب الحميدة، لسوء الحظ، للتغيير بسبب ديانتهم الرديئة العازلة.

إذا نظرنا إلى عادات البدو فإننا نجدها بنفس قدر البساطة وعدم التنوع الذي يميز أفكارهم. تعتني النساء وحدهن بأعمال البيت فينصبن الخيام ويقمن بأعمال التنظيف بداخلها، ويجهزن منتجات الحليب المختلفة وجميع الوجبات، وينتشرن ليلاً لجمع الحطب والأغصان اليابسة في الجوار وفي الأودية.

تتمتع البدوية، فيما عدا ذلك، بحرية كبيرة تبدو لأول وهلة بأنها لا تتفق مع الطبائع الشرقية الغيورة والمرتابة. ليس من النادر رؤية البدويات وهن يتحدثن بنوع من الإلفة، بعيداً عن خيامهن، مع رجال ينتمون إلى قبائل أخرى، دون أن يثير ذلك غيرة أو حفيظة أزواجهن.

إن العرف هو السبب الوحيد، دون شك، في ثقة البدوي في فضيلة زوجته، بل وإن هذه الثقة لا حدود لها مع ابنته ولكن في حالة خيانة الابنة لهذه الثقة، خاصة مع شخص غريب عن القبيلة فإن العواقب تكون وخيمة[1].

يقضي الفتيان والفتيات من مختلف الأسر والبيوت أياماً كاملة معاً دون إثارة أي ريبة أو فضيحة، كما يعجل نموهم المبكر بموسم الزواج ويحدث ذلك غالباً عندما تبلغ البدوية سن الخامسة عشرة.

تباع الحضريات والبدويات إلى أزواجهن مقابل مبلغ، يزيد أو ينقص، من المال

---

(1) كانت إحدى الفتيات البدويات التي تقطن في نجع مصري يقع بالقرب من إحدى القرى، على علاقة مودة مع ابن لأحد الفلاحين. ولما تجاوز العاشقان، اللذان كانا يشعران بحب وشغف مشترك، ودون التفكير منهما وقصد، الحواجز الصعبة التي كانت تحول دون لقائهما، اغتنما جنح الليل من أجل اختلاس موعد. لقد تم اكتشاف هذا الحب المستور وتم القبض عليهما بغتة فقام أهل الفتاة بطعن هذين العاشقين التعيسين بالخناجر وبتشويه أجسادهما ثم رميهما في نهر النيل، وذلك نتيجة الغيرة المفرطة عند البدوي.

قد تقدم مثل هذه الفكرة صورة عن غيرة البدوي المفرطة بصورة عامة، ولكني أود أن أوضح، مع ذلك بأن تلك الجريمة قد ارتكبت من قبل بدو تركوا الصحراء ولكنهم ربما كانوا يريدون استعادة فضائل قديمة كانوا قد هجروها، وذلك بإقامة الدليل على كونهم لا يزالون يفتخرون بأصلهم البدوي، ويتمسكون بالعادات والتقاليد القديمة.

حسب درجة الجمال وقد يتم أحياناً مقايضة العروس بقطيع من الدواب وأقول، بهذه المناسبة، إنه من النادر جداً أن تتعدى قيمة أجمل بدوية بعيرين!!.

إذا كان هؤلاء البدو يشتركون في رذيلة الديانة «يقصد الإسلام. . المترجم» فإنه من الملاحظ، وأكرر ذلك، أن تلك الرذيلة أخف بكثير عندهم من تلك الموجودة لدى سكان المدن. يشكل الفقر الذي تعيش فيه قبيلة أولاد علي ضماناً هاماً لأخلاقياتهم ولذا يندر وجود من يتزوج بأكثر من واحدة بينهم فهل ينبغي علينا أن نعزو أيضاً ذلك الوئام الذي يسود قبيلتهم إلى ذلك الفقر كذلك؟. إن حالات الطلاق الشائنة التي تنتشر بين المسلمين من الحضر والذين يفخرون غالباً بتكرارها، نادرة جداً لدى أولاد علي، بل وإن هؤلاء الرجال، رغم كونهم من أشياع محمد ﷺ «. . . المترجم» إلا أنهم ينظرون إلى زوجاتهم بمنظار الصديقة والصاحبة التي ترافق معاناتهم وتسكن آلامهم، ولا يعتبرونها أبداً بمثابة قطعة من الأثاث تدخل البهجة على أنفسهم. إن هذه الملاحظات التي تبدو هامة بالنسبة لي خاصة، أن أولاد علي يعيشون حياة خاملة، فبعد أن يتم شق الأرض وحرثها ثم بذرها، تقتصر حياتهم على الرعي وعلى الاهتمام بالأسرة. يقوم بعضهم بالسفر إلى مصر أو إلى سيوه أو إلى درنه ويحملون أصواف أغنامهم إلى الإسكندرية أو دمنهور، ويشترون الأردية والأقمشة والأسلحة والبارود.

يسافر البعض الآخر إلى سيوه أو أوجله لإحضار التمور التي يقايضونها بالزبد «السمن. . المترجم» والمواشي ولا يذهبون إلى درنه إلا نادراً وذلك عند تأجير إبلهم إلى التجار القاصدين تلك المدينة.

يتكون طعامهم العادي من التمور ومنتجات الحليب ودقيق الشعير والقمح الذي يعجن ويلقى على الجمر المتقد للحصول على رغيف من الخبز يطلق عليه اسم «الفته» أو إنضاجه في صحن كبير مع شيء من التوابل ويطلق عليه اسم «هدجيم» (ربما طاجين. . المترجم) ويعني الطعام بعينه. إن طعامهم أفخر من ذلك بكثير وذلك خلال أيام الأعياد أو عند تقديم واجب الضيافة، ويتكون عادة من لحم الضأن وهو طعام إجباري عندئذ. أما الميسورون منهم فيمدون معه طبيخ البامية أو الملوخية المصرية[1] مع اللحم في مثل تلك المناسبات.

---

(1) بقلة بستانية يستخدمها المصريون كثيراً في الطعام.

صروف الحرمان على الأرض، ولننظر إلى ثقته في تلك الألوهية وهي ثقة طبيعية جداً في هذه الفيافي المفزعة التي لا يبدو فيها الإنسان إلا بمثابة ذرة من رمل أضيفت إلى بحر من الرمال الميحطة به.

دعونا نتصور معاً تلك اللوحة وتلك الكلمات وتلك الحركات التي اعتبرت سخيفة ومضحكة عند الكثير من الناس، فإنني أؤكد لكم بأنها تفرض الاحترام لا شعورياً عندما لا يكون هنا شاهد عليها سوى «الكنه الأعلى» وعندما يكون مسرحاً لها تلك الفيافي الشاسعة.

لماذا ينبغي ألا يتحلى هؤلاء الرجال المقربون جداً من الطبيعة بخصال ممتازة دون أن يتم تصويرها بمغالاة تدمر وقعها وتأثيرها؟. إذا كان استسلام البدو محموداً فإنه ينفسخ أحياناً أحياناً إلى جمود رديء، وإذا كانت أفكارهم البسيطة تسمو بهم نحو التدين، فإن إيمانهم الأعمى ينزلهم من هذه العلياء نحو معتقدات سخيفة. إن التطير لديهم ناجم عن الجهل ونظراً لإيمانهم العميق بهذه المسألة، فإنهم حتماً يشعرون إلى حد بعيد بأثر ذلك التطير الذي يمكن تفاديه.

يؤمن البدو أيضاً بسلطان السحر والسحرة وتأثير الطلاسم حيث يندر جداً ألا يرى المرء التمائم في العمائم والطرابيش وهي تعزيمات Lisérés مكتوبة في ورق عادي غير أنها محاطة بجلد. تحتوي تلك التمائم على بعض آيات قرآنية وعبارات مبهمة قام بكتابتها دهاة حقراء يلعبون دور الملهمين وذلك لكسب يقين وإيمان أولئك المغرر بهم من الضحايا. يمكن للمرء أن يشاهد تلك التمائم في كل مكان لدى الأطفال والشيوخ، وتتدلى على مداخل البيوت والخيام ورقاب الخيول والإبل وتستخدم في أبطال مفعول السحر وشفاء كافة أنواع الأمراض، والحفاظ على الإنسان والحيوان من كل حادث وبيلة.

لا شيء يؤكد هذا الخلط الغريب في أفكار البدو أكثر من تصديقهم بنفس الثقة الدينية لتلك التمائم ولو قام بكتابتها دخيل أو غريب عن ديانتهم طالما تم اعتباره ساحراً وذلك لكي يضفي على تلك التمائم فعالية كثيرة.

أراد بعض البدو، بصفتي نصرانياً، وبالتالي رحالة أو عابر سبيل، في نظرهم، الاستفادة من فضائل تنبؤاتي العلمية. لقد كنت أكره أن أنزع ثقتهم في شخصي، بهذه الطريقة الرخيصة ولكنني كنت دائماً، ودون طائل، احتج على اعتقادهم بأنني أمتلك قوى

خارقة. لقد كانوا يؤولون مبرراتي على أساس أنها مجرد ذرائع واهية مما اضطرني، في أحيان كثيرة، ونظراً لرغبتي في التخلص من إلحاحهم، إلى خربشة بعض الوريقات ولفها بعناية وتقديمها إليهم مقرونة بشكرهم ورضاهم. إذا كان هذا الإيمان المفرط سخيفاً فإنه يقترن، مع ذلك، ببساطة عظيمة تحملهم على التعلق الكبير بالتقاليد القديمة وتمنع عنهم أي نوع من أنواع التجديد. نظراً لقلة أفكارهم فإنهم يقلدون بكثير من التبجيل، ما وجدوا عليه آباءهم، يكررون بإيمان عميق، كل ما تناقلوه سماعاً أو قولاً.

إذا سأل المرء عن أصل هذه أو تلك التسمية مثلاً فإن الرد يكون دائماً «هكذا كانت الأمور منذ أمد بعيد أو هكذا كان يسمى منذ وقت طويل» بل وتبدو عليهم الدهشة إزاء طرح مثل هذه الأسئلة، وكأن ما توارثوه من أسلافهم حقيقة لا يقبل أي تمحيص أو جدال. رغم أن تقاليدهم تقع غالباً ضحية للتشويه إلا أنها تنطوي على فائدة كبيرة بالنسبة للمراقب وهي احتواء حكايات وروايات هؤلاء البدو لا سيما ما يتعلق منها بالتسميات التي تطلق على المناطق وعلى الآثار النفيسة التي تعود غالباً إلى العصور الغابرة.

يتمثل ثراء أولاد علي في القطعان التي يمتلكونها. الشيوخ فقط وبعض الموسرين من بسطاء البدو يمتلكون الخيول وبعض الحمير الهزيلة والقصيرة ولكنها معتادة على جلد يقارب صبر البعير وتستخدم أيضاً في نقل المتاع من منتجع إلى آخر. يستخدم فقراء البدو الحمير في أسفارهم الطويلة غير أنهم يحرصون على عدم الابتعاد عن الساحل حيث يسهل العثور، أغلب الأحيان، على الآبار وصهاريج المياه. لم نر بعد تجاوزنا لوادي مريوط، الأبقار والثيران إلا نادراً لأن الأراضي لا تقدم بصورة عامة، أية مراعي غنية بالكلأ تلائم تلك الحيوانات، غير أننا لاحظنا كثرة قطعان الإبل والحيوانات الصغيرة في هذه المناطق.

إن خراف إقليم مرمرة قصيرة الذنب قليلة الصوف وأقل سمنة من الخراف المصرية ولكنها، رغم تلك الأوصاف، لا تزال أكبر حجماً من خراف إقليم طرابلس. أما الإبل فتتباين في أشكالها وألوانها وفي طبيعة أوبارها من مقاطعة إلى أخرى ولا تخفى تلك الفوارق الطفيفة عن العين المتمرسة غير أنه من الصعب وصفها بدقة. قد تتحول تلك الاختلافات الضئيلة إلى فوارق واضحة بل وإلى طباع متناقضة وذلك، بعد تجاوز مساحات شاسعة، ومقارنة الإبل بعضها ببعض، وسأجد لاحقاً مناسبة لعقد مقارنة بين تلك الحيوانات النفيسة. سوف أكتفي الآن بملاحظة أن الطبيعة، التي تعتني بكل شيء، قد حبت

الإبل في مناطق شمال أفريقيا، من أجل حمايتها من عوامل المناخ في الشتاء، بأوبار كثيفة وغزيرة بألوان غامقة بينما زودت إبل الدواخل بكساء وبري أخف وبألوان أبهت.

لقد أجبرت قلة عدد آبار المياه غير المدمرة أو المردومة وبعدها عن المناطق المأهولة، أولاد علي على ريّ الإبل كل ثلاثة أيام، ولكي يتم تفادي وجود قبيلة بأسرها على مورد المياه، فإن مختلف العشائر تحدد أياماً متعاقبة لسقاية كل منها ولا تتوجه إلى البئر المشترك إلا في اليوم المتفق عليه. يذهب هؤلاء البدو وأمامهم الماشية، على ظهور الإبل المحملة بأحواض من الجلد وحبال تستخدم في إخراج المياه من البئر لسقاية الماشية والإبل ولملء القِرَب للاستخدام المنزلي.

عندما يقترب الركب من المشرب يتم وقف القطعان المتقدمة وبينما يهتم البعض بذلك، يهتم البعض الآخر بإجراء الاستعدادات الخاصة بسقاية الماشية. تتمثل تلك الاستعدادات في تنظيف الحفر سابقة الصنع، وإقامة أخاديد لتوجيه المياه إلى تلك الحفر، أما إذا كانت الأرض الواقعة حول البئر حجرية فإن البدو يستخدمون القصعة لري حيواناتهم. يقوم البدوي بعد ذلك بتسريح عدد صغير من الحيوانات نحو الماء لأن إطلاق سراح جميع الحيوانات يجعل الخراف والحمير والجمال تتصارع على الماء ولا تستطيع الضأن أن تشرب إلا بعد أن تصدر الحيوانات الكبيرة. . أي بعد وقت طويل جداً. يكفي في الواقع، بدوي واحد لحراسة قطيع كبير حيث يصعد إلى ربوة ويجلس القرفصاء ويمسك ببندقية أو «بالنبوت»[1].

يلتفت الراعي يمنة ويسرة إلى الفيافي المحيطة به، ويحاول إذا لم يكن هناك ما يثير قلقه، أن يملأ وحشة وقت الفراغ بأهازيج مشابهة لمشاعره وأحاسيسه فتصل نغمات صوته القوي الذي اعتاد على الانطلاق في البراح إلى غيره من رعاة البدو الآخرين فيردون عليه بنفس المقاطع والأهازيج. يعقب ذلك الرد فترة صمت قصيرة أي بين النغمة والرد. عندما يلمح ذلك البدوي صدفة قافلة كبيرة في الأفق أو يتراءى له أي شيء قد يثير قلقه أو مخاوفه، فإنه يسارع إلى لملمة قطيعة وينذر ذويه عن طريق إشارات متفق عليها، من الخطر المحدق بهم.

لا يعرف أولاد علي، بل وكل بدو الصحراء، بصورة عامة، الزراعة النظامية أو

---

(1) عصا غليظة أو نوع من أنواع المطارق الخشبية يوضع الحديد عادة على أحد طرفيها.

البستنة. فأعمالهم الزراعية تقتصر على زراعة الحبوب لا سيما الشعير الضروري لهم ولحيواناتهم خاصة الجياد. يتم حرث الأرض سطحياً مرة واحدة بفضل محاريث مصنوعة من القصب ولا توجد بها، غالباً، أي أنصال حديدية. بعد بذر الحب يتم تغطيته بطبقة خفيفة من التراب وبعد مضي نحو ثلاثة أشهر على يوم البذر، يصبح المحصول جاهزاً للحصاد. يتم حصد الشعير مع ترك مسافة ثلث طول النبتة في الأرض ثم يتحول الحقل إلى منطقة لدرس الشعير بعد ذلك. رغم أن الطبيعة تحتاج، في تلك المناطق، إلى عناية صناعية أو حرفية كبيرة لجعلها تقوم بتنويع محاصيلها إلا أن غياب هذه المهارة الحرفية ليست السبب الرئيسي في حالة الجدب الذي تعاني منه. إن البدوي يعتقد أنه يتخلى عن نبله ويعرض استقلاليته للخطر، إذا استقر في مكان معين ولو كان ذلك الاستقرار من أجل عمارة المكان وتخصيبه وزراعته. إن هذا الأمر تقليد «الفلاحين» الذين يحتقرهم البدوي. كما أن الاستقرار يعني بالنسبة للبدوي التخلي عن حياة الترحال من أجل حياة مستقرة يخشى عقباها.

تجعل طريقة حياة البدوي هذا البدوي غريباً عن لطائف وملذات الحياة المستقرة التي يمكن استلهامها من الذكريات حول المناطق التي يولدون فيها ومعهم عادات قديمة وانطباعات الطفولة حول هضبة ما، أو أجمة ما، أو حتى مجرد درب بسيط يؤدي إلى القرية التي كانت شاهداً على ميلاده. تأتي كل تلك الانطباعات لكي تسيطر على أفكارهم ولكي تداعب صورها أحلامهم بفضل الذكرى وتذكر العديد من المناسبات التافهة. غير أنها، رغم ذلك، عزيزة جداً.

إن تلك الانطباعات المحلية لا يمكن أن تسيطر على عقل البدوي الذي اعتاد، منذ نعومة أظفاره، على الحل والترحال، والذي لا يفضل شيء آخر أكثر من ذلك، لأن وطنه هو الصحراء وذكرياته هي تلك الفيافي الشاسعة. عندما يجمع البدوي الحصاد وعندما تقضي قطعانه على كلأ المراعي في أي وادٍ، يرفع خيمته ويشد رحاله. يقوم البدوي بطي جريد النخل[1] على هيئة نصف دائرة ثم يوضع ذلك فوق ظهر البعير لحماية النسوة والأطفال من قيض حرارة الشمس. يتحرك بعد ذلك الركب بأكمله وتبدأ القطعان بالمسير أولاً في المقدمة وهي ترعى الكلأ هنا وهناك تحت إشراف وحراسة الكلاب التي تحيط بالشاة القاصية من كل جانب وتدفعها نحو الأمام وتمنع أي مسافر أو رحالة من الاقتراب من

---

(1) الأغصان التي تحمل ورق النخيل.

القافلة المرتجلة. تأتي المواشي والإبل في المؤخرة التي تحمل كافة الأواني المنزلية ونتاج الحصاد وكل أموال العشيرة، بعبارة أخرى، على ظهورها. إذا نظرنا إلى النجع بعد مغادرته، فإننا لا نكاد نعثر على موقعه إلا بفضل أثر مواقع الأثافي والأرض التي تم رصفها من كثرة الدوس. كل هذه علامات سرعان ما تمحوها الأمطار والرياح لكي تعود المنطقة إلى الوحشة حتى تقوم الصدفة، مرة أخرى بإحضار عشيرة جديدة إليها.

الفصل الخامس

الجانب الشرقي لجبال برقة ـ ايراسا وتسته والوصول إلى درنة ـ استقبال الأهالي

بعد أن اجتزنا بحيرة كوَّنها خليج البومبا، وصلنا إلى أول مرتفعات جبال إقليم المدن الخمس الليبية القديم حيث تجبر الوديان التي تتخلل سفوح تلك المرتفعات، القوافل إلى الالتفاف عدة مرات حولها. تبدو قمم الجبال أمامنا، خلال تلك المسيرة، وكأنها تتراجع كلما اقتربنا منها، وكأنها جسر غامض سنكتشف وراءه آلاف الأشياء الجديدة غير أن خطى الإبل المتثاقلة على هذه الأرض الصخرية لم تسعف قلة صبري. تتغير الطبيعة أمامنا مع ذلك كلما تسلقنا تلك المرتفعات ولم نرَ، في بداية الأمر سوى بعض أشجار الزيتون المنتشرة وبعض الشجيرات الغريبة عن إقليم مرمرة حيث ترد إلينا الأرض نظرنا كئيباً لعدم وجود الأشجار الكثيرة. تتبع غزارة الغطاء النباتي تدرج ارتفاع الجبل. بعد أن وصلنا إلى قمة الجبل، أي بعد مسيرة أربع ساعات، شاهدنا منظراً جديداً يمتد أمامنا، بينما كانت التربة تميل إلى اللون الأصفر أو كثيرة الرمال في المناطق السابقة، رأينا أنها قد تلونت باللون الأحمر والبنِّي، وشاهدنا جداول المياه تنساب من كل مكان وتساعد على نمو غطاء نباتي زاهٍ ينبثق من الصخور التي تغطيها الأشنات والطحالب ويكسو الهضاب والتلال وينبسط في شكل مرج أخضر ثم يتحول إلى غابات من أشجار العرعر وأشجار البطوم والزيتون. لقد ارتسمت هذه اللوحة الخلابة للطبيعة المتحركة، التي لم يكن المرافقون لي من المصريين والنوبيين يعرفون مثيلها، على وجوههم في انطباعات قوية. لقد شعرت بالفرح لدهشتهم نظراً لأن أبصارهم لم تكن تألف سوى رؤية قمم التلال العميقة والعارية التي تشرف على وادي النيل ولم يعرفوا أي مياه أكثر صفاء ونقاء من فيضانات نهر النيل التي تأتي، كل عام، لتروي حقولهم الترابية والرمادية ولم تكن لديهم أية معلومات عن مثل هذه

الصخور النحاسية الندية التي تنبت عليها الأشنات والطحالب، وعن هذه المراعي التي تزدان بها سفوح الوديان، وعن هذه الأقاليم التي تباين في ارتفاعها، وعن هذه الألوان المختلفة والزاهية التي تكوّن، مع ذلك، كلاً متكاملاً ومنسجماً.

لقد ولد المرافقون لي، بعبارة أخرى، في منطقة يقع الجزء المأهول منها في طبيعة كئيبة وغبراء حيث تقدم لهم الصحراء صورة فظيعة عن الطبيعة. لم يكن يخطر ببال أحد منهم رؤية مثل هذه الثروات الرائعة والبديعة للطبيعة التي تحول القفار، إذا كانت أحوال المناخ فيها جيدة، إلى منطقة أكثر روعة من المناطق المأهولة. وصلنا بعد ذلك إلى سهل كونته الصخور المحيطة به وغطته أعشاب زاهية، ويتعرج في وسطه جدول رقراق يتدفق من أعماق مغارة مزدانة بشجيرات متسلقة أو زاحفة Lierres وأجمات من شجيرات Cytise التي تراقص أغصانها فورة وهدير نبع يسمى «ايراسم» Erasem «عين أم الرزم... المترجم» كما يدعى أيضاً نبع «إرسن» Ersen ويقع مباشرة في أقصى هذا السهل الفسيح الذي يمتد على تلك الهضاب نحو الغرب لكي يكون ما نسميه «هضبة برقة» حيث تنمو أشجار العرعر وحيث يحجب ستار من عرعر لوسي Lyice الأفق ويفصل بين مختلف الأشجار بفضل لونه الغامق. كان رفاق رحلتي في فترة راحة وكانت الإبل تلتهم بنهم أعشاب إيراسم البديعة.

لقد أدى هذا المكان الرائع إلى إيقاظ الذكريات التأريخية في ذهني خاصة وأن موقعه وتشابه الاسم، بصورة خاصة، بينه وبين إحدى المناطق التأريخية الهامة. ينتمي الليبيون في منطقة إزيريس «ام الرزم الحالية... المترجم» وفقاً لما ذكره أبو التأريخ، إلى قبال الجيلغام Giligammes [1].

شعر هؤلاء الليبيون بالغيرة تجاه إقامة الإغريق الطويلة في بلادهم، فأقنعوهم بمغادرتهم واقتادوهم إلى الغرب بعد أن وعدوهم بالحصول على أرض أكثر خصوبة من أرضهم وعبروا بهم تحت جنح الليل مدينة ايراسا «قد تكون مدينة درنة.. المترجم» واقتادوهم، في الواقع، إلى منطقة أكثر خصوبة فعلاً نظراً لاتفاق غزارة العيون المائية مع ما وعدوا به الإغريق الذين أنشأوا في هذه المنطقة الجديدة موطنهم الدائم [2].

---

(1) قطنت تلك القبائل الجزء الشرقي لهضبة برقة بداية من جزيرة أفروديس Aphrodisias حتى مشارف عقبة السلوم (هيرودوت الكتاب 1 الجزء 4 ص 169).

(2) نفس المصدر ص 158.

يذكر نفس المؤرخ أن سكان قرنة قد تسببوا، نتيجة لاحتلال أراضي جيرانهم من الليبيين، في قيام إبرياس Apries بحملة على الإغريق غير أن الجيوش المصرية هزمت في منطقة ايراسا، قرب نبع تسته Thestè [1].

نظراً للتشابه الكبير بين اسمي ايراسم Erasem وايراسا Irasa قد بدا لي أن تلك المنطقة، بفضل موقعها على هضبة برقة، تناسب الإغريق تماماً لصد أي هجوم من جهة الشرق.

يقترب هذا الموقع أيضاً من موقع بلدة ازيريس Aziris الذي يبدو لي أنه مناسب للتحوطات التي اتخذها الليبيون لإخفاء بلدة ايراسا عنهم رغم اقتيادهم إلى منطقة أخرى أكثر خصوبة منها.

العديد من العلماء لا يعترفون بضرورة هذه المسألة ولكنني أعتقد، منذ تلك العملية، أن مبرر اصطحاب الليبيين للإغريق إلى نبع قورى هو حرصهم على تملك المنطقتين، أي أزيريس وإيراسا[2]، وضمان حريتهما والتخلص من جوار يخشونه، أو ربما كان ذلك نظراً لأن نبع تسته كان ملتقى لرعاة المنطقة كما هو الحال الآن.

أود أن أضيف تلك المبررات الاحتمالية مبرراً آخر لا يدع أي مجال للشك حول هذه النقطة في الجغرافية القديمة وأرجو أن يحظى هذا المبرر بتأييد ومباركة العلماء. يذكر بندار Pindare في أنشودته التاسعة اسم مدينة آنتيه Anthée التي تقع قرب ايراسا[3].

يمكننا أيضاً أن نلاحظ أن سيلاكس Scylax يطلق على الرأس الأرضية التي تقع عليها

---

(1) المرجع السابق ص 159.

(2) وفقاً لما ذكره المؤرخ راوول روشيت Raoul Rochette في كتابه «التاريخ المدون للمستوطنات الإغريقية» المجلد الثالث ص 263، نجد أن ايراسا هي المكان عينه الذي أقام فيه الإغريق مدينة قرنة.
يبدو أن هذا الرأي قد حظى بتأييد المؤرخين غاتيرير Gatterer وهيرمان Hermann وغيرهما ولكن هذا الرأي المخالف لرأي هيرودوت وللفقرة التي أشرنا إليها، على وجه التحديد، تم تفنيده بما فيه الكفاية من قبل المؤرخ ثريج Thrige «تاريخ قورينه ص 74 رقم 58». يتضح من الفقرة التي ذكرها هيرودوت أنه لا يمكن الفصل بين نبع تسته وبين ايراسا وأنه لا ينبغي الخلط بين نبع تسته ونبع قورى Cyre كما سوف نشاهد ذلك لاحقاً عند فحص ودراسة المنطقة.

(3) بندار ـ الأنشودة التاسعة ـ الجزء 5 ص 285.

بلـدة ايـراســم اســم كـرسـونيـز انتيـد Chersonèse Antide [1] «رأس التيـن الحـاليـة. . المترجم» . إن الاختلاف الطفيف بين هذا الاسم وبين اسم العملاق الذي ذكرته الأسطورة لا يشكل أي صعوبات كبيرة خاصة اسم العملاق الذي ذكرته الأسطورة لا يشكل أي صعوبات كبيرة خاصة بالنسبة لي نظراً لأن العالم لوكان Lucain الذي كان وصفه الجغرافي دقيقاً ونزيها بشكل عام، قد أكد بطبيعة الحال على هذا التشابه غير أنه حدد موقع مملكة آنيته في هذه المنطقة بالذات من ليبيا التي توجد فوق تلال صغيرة وصخور وعرة[2].

---

(1) انظر طبعة غرونفيوس Gronovius ص 111. يطلق سيلاكس في بداية هذا الفصل ص 107 اسم كرسونيز الكبرى التابعة لبطليموس على بلدة كيرسونيز آشيتيدس Chersonese Achitieds وهي دون شك البلدة الكبرى التي أسماها، في نهاية نفس الفصل، انتيديوم Antidum وذلك وفقاً لما لاحظه فوسيوس Vossius «المرجع السابق». يبدو لي أنه بدلاً من تصويب اسم آشيتيدس باسم آزيريتس Aziritis كما فعل غرونوفيوس «سيلاكس ص 107 و 108» يمكننا أن نقرأ آنتيدس Antides وهذه ملاحظة تتمشى مع التسمية التي أطلقت على كيرسونيز والتي تركها هذان المعلقان التاريخيان دون أي تفسير بديل.

(2) Inde. Petit Tumulos Exesasque hdique rupes Anthaei que regna-Vocat non vana Vetustas phars. L.IV.V. 589-590.

إن اسم آنيته أو آنتاى أو آنتيد Anthee, Anthaee, Antide يذكرنا أيضاً باسم بحيرة آنتيا Anthia التي تحدث عنها إتيان البيزنطي V. Anthia» Etieume de Bysance»، ورغم أن هذه البحيرة تدل أولاً على بحيرة ترتيوني Tritonis التي تقع في ايراسا وفقاً لرأي العالم الذي استشهد به بندار. «الأنشـودة 9 جـزء 5 ص 185» غيـر أن هـذا الـرأي قـد تـم تفنيـده، بكـل وضـوح، بفضـل مـا ذكـره هيرودوت. إذا كان يمكننا أن نجعل من آنيته مطابقة لموقع كونشليوم Conchylium الذي ذكره بطليموس وأن تحدد موقعها جنوب كرسونيز آنتيد فإن ذلك يستساغ. اعترف مع ذلك بأن هذا التنطع الجديد في غير محله، وأن أفكار كهذه لا تخرج عن السفسطة إذا لم نطلع، بشأن هذا الموضوع الذي يعنينا، على ما ذكره بطليموس وعلى ما ذكرته «الرحلة المجهولة». لقد حدد الأول موقع اكسيليس Axilis والثانية موقع نازاريس Nasaris غرب بلدة كيرسونيز بينما حدد وصف سيلاكس وهيرودوت موقعهما إلى الشرق من تلك البلدة. لديَّ أكثر من سبب يجعلني أختار شهادة المؤرخين القدامى وأفضلها على أقوال من جاء بعدهم من المؤرخين، نظراً لأنه من الثابت أن هيرودوت قد رحل إلى برقة وهو لا يستطيع بالتالي أن يقدم معلومات خاطئة عن الأماكن التي زارها. وعليه فإن النهر الذي حدد موقعه هيرودوت بنفسه وحددته كذلك الرحلة المجهولة، واتفاق الروايتين، لا يمكن إلا أن يكون قبالة جزيرة بلاتيا Platee التي تقع إلى الشرق من كرسونيز ولا تقع على هضبة برقة نفسها حيث لم أشهد بها أي دليل على هذا الوجود القديم أضيف إلى ذلك أيضاً أن ميناء آزاريوم الذي ذكره سينوسيوس القوريني «الرسالة 4» يقع أيضاً وبكل وضوح إلى الشرق من كيرسونيز قرب خليج بومبا وليس إلى الغرب منها حيث يتسم الساحل بكونه وعراً بصورة عامة. أود أن أدلي باختصار ـ لقد حان الوقت لمثل هذا الاختصار ـ بهذه الملاحظة الأخيرة: ألا يدل الموقع الغربي لبلدة اكسيليس عند=

وهذه طريقة بديعة لتحديد المقاطعات الشمالية لإقليم المدن الخمس التي لا تشكل فيها المدرجات التي نحتت بصورة فجائية سوى نموذج مصغر لهضبة جبال الأطلس. بعد ساعة من المسير، وتركنا لبلدة إيراسم، اتجهنا، كما فعل قبلنا المستوطنون الإغريق، نحو نبع أبولو، وكنا في الواقع أسعد منهم وأوفر حظاً لأننا عبرنا بلدة إيراسا الزاهية في وضح النهار. لقد شقت الطريق المؤدية إليها بواسطة ألسنة اللهب وذلك عبر غابة كثيفة من الأشجار المحروفة التي نثرتها الرياح على الأرض دون نظام، وشاهدنا الوديان التي تكون في فصل الشتاء، شلالات صغيرة وتساهم في تباين مظهر وشكل هذه المنطقة وتمنحها الحياة والرخاء من جهة، والشباب والقدم من جهة أخرى.

سرنا نحو ساعتين داخل تلك الغابة ثم لفتت الأدلة انتباهي أثناء المسير، إلى ضرورة ربط أفواه الإبل نظراً لوجود نبتة تسمى «الدرياس» Derias من فصيلة الخيميات، بدأت تكاثر في ذلك الفصل وملأت الأرض بأوراق مضيئة وكانت سبباً في هذه الحيطة. وأذكر هذا الحدث الآن لكي أحدد موقعه هنا ولكنني سوف أتعرض إلى ذلك بالشرح في مكان آخر من هذا الكتاب.

استمرّت المنطقة، بعد تلك الغابة، في التعرج والانحدار لأنها منطقة صخرية ولكنها خصبة جداً. إن قرب موقعها من درنة يؤدي إلى سهولة العيش فيها وقد يكون ذلك هو السبب في قلة الأشجار بها. إن البدو لا يعرفون أي نوع من الزراعة سوى زراعة الحبوب ولذا، يبدو أنهم قد جردوا تلك المنطقة من الغابات التي كانت تغطيها بغية مضاعفة الحصاد.

لا تبدو الطبيعة نفسها، في الجزء الشرقي لبرقة، بأنها قد استنفدت كل قواها في إثبات الكلأ والعشب. إن غابة إيراسا تدل على ذلك لأنه لا توجد بها أشجار تتعدى في ارتفاعها عشرة أو خمسة عشر قدماً.

لا بدّ من مواصلة المسير قدماً داخل إقليم المدن الخمس الليبية لمشاهدة تلك المشارف الكثيفة من غابات السرو «Cyprès الشعرة» التي تجذب السحب اللواقح، إلى منطقة قورينه، وكأنها عمة حداد.

= بطليموس على تصحيف للاسم القديم الذي ذكره هيرودوت؟ أما فيما يتعلق بالنهر العظيم الذي يقع في نازيريس وهو ليس نهر بالأريوس Palarius الذي ذكرته الرحلة المجهولة، فيمكن أن نتساءل ألا تدل هذه التوليفات Compilateris ومن أمثلتها رواية إتيان البيزنطي، على حالات التكرار الكثيرة وعلى خلط مشوش بين الأوصاف القديمة والحديثة.

لم ألمح في تلك المنطقة التي قمت بوصفها أية معالم أثرية جديرة فعلاً بالاهتمام اللهم بعض الأطلال المكومة فوق بعضها البعض والتي تدل، كما هو الحال في إقليم مرمرة، على أطلال الحصون وقلاع عربية قديمة، أو على بعض الأبنية المعزولة التي شاهدت مثلها في المنخفضات والتي كانت عبارة عن موطن البدو الرحل. ربما يتعين عليّ أن أجوب هذه المنطقة بعناية أكبر لكن المرء يدرك أن جمع المعلومات وتتبع نفس خط السير المحدد أو القيام بجولات يميناً ويساراً، قد تضيع عليه فرصة العثور على أشياء أكثر أهمية، كما أن كل من كان معي كان متعباً جداً وأن منعهم من الذهاب إلى المدينة القريبة منا سيكون أمراً متسماً بالعنف وذلك من أجل البحث عن بضع صخور عتيقة. لذا وجهت قافلتي نحو مدينة درنة وقمنا، في هذا الاتجاه، بالالتفاف قليلاً نحو الشمال، وكان هذا اليوم بمثابة عيد بالنسبة للخدم ممن معي، فقد كان كل فرد منهم، رغم التعب والإعياء، يرتدي أجمل ما لديه من ثياب لأنهم سوف يصلون أخيراً إلى «المدينة» أي المدينة التي كانت دائماً موضوعاً لأحلامهم ونذورهم.

لقد اتجهت كافة الأنظار، وذلك منذ الصباح الباكر، إلى الأفق لرؤية المدينة وكانوا قد خصصوا مكافأة لمن يراها أولاً. لقد كان ذلك هو شرطهم الوحيد. ولكن المظهر الطبيعي قد أذهلهم جميعاً ودفعة واحدة وبشكل غير متوقع، فقد حلت التعرجات والشعب الصخرية محل السهول المنبسطة وحالت دون وصول أبصارهم إلى المدينة، وفجأة ودون وجود أي شيء في الأفق أمامي يدل على مدينة، تصاعد صياح عام بين أفراد القافلة وسمعت بشكل مفاجىء.. «البلاد.. البلاد» أو البلدة وكان الجميع يصيحون بأعلى صوت. كانت تلك البلدة في الواقع هي درنة التي توجد على مسافة قريبة منا ونحن على ارتفاع نحو مائة قدم. لقد فسر لي هذا الموقف الطرائف التي كان يطلقها الأدلة والذين كانوا يسخرون من لهفتنا بين الفينة والفينة والأخرى.

لقد كنا فوق الطرف الجنوبي لهذا الجزء من هضبة برقة حيث يوجد سهل، شريط أرضي ضيق، يفصل بين منحدرات الهضبة والساحل. لقد أقيمت المدينة جزئياً على هذا السهل وعلى سفوح المرتفعات التي تشكل قواعد جبال برقة. لقد شاهدنا، من موقعنا هذا، بيوت السكان وقبب الأولياء في المدينة في شكل بقع بيضاء من خلال أجمات أشجار النخيل أو منثورة في عدة أماكن وسط بساتين وحدائق صغيرة ومحيطة بها.

بعد مضي نحو شهرين على حياة الترحال التي كانت شاقة في أغلب الأحيان في بلاد

دون ملاذ يأوينا «من عوامل المناخ» فإن البهجة قد كانت كبيرة جداً عند النظر إلى تلك المساكن البشرية. مهما كانت حقارة تلك المساكن فقد بدت، في هذه اللحظة مثل القصور، وأصبحت ملاذ للراحة ومقراً للرفاهية والوفرة. رغم أن الفارق الديني وما يقتضيه ذلك من فتور بالنسبة لاستقبال الأوروبي، إلا أن الأوروبي يأمل، على الأقل، أن يستعيد قواه في مجتمع لا يريد منه هذا الأوروبي سوى الضيافة المؤقتة.

لقد كانت تلك الأفكار تشغل بالي ولكنها كانت أشد وأقوى على رفاق رحلتي، فإذا كان جسدي الذي اعتاد على إعياء الصحراء وحرمانها سليماً ولم يتعرض إلى أي مرض، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لصديقي مولر ولخدمي.

لقد كان مرض الزحار «الدوسنتاريا» يعتصر جسد رفيقي المستشرق لدرجة أنه أنهك قواه فلم يعد قادراً، إلا بشق الأنفس، على الجلوس على ظهر البعير، وكانت شدة الحمى تهدد حياة خدمي المخلصين من النوبيين وساسة الجمال من المصريين.

نجد، علاوة على ذلك، أن المسلم يجد أخاً له في كل مكان يوجد به غيره من المسلمين، ولذا ترى وجوه هؤلاء المتورمة والممتقعة قد تهللت بمنظر المكان الذي رأوا أنه يشكل نهاية لمعاناتهم، ورغم أنني السبب الرئيسي في التوجه إلى درنة فإنهم يصلون على النبي ﷺ ويشكرونني على هذه الرعاية.

كنت قد أرسلت، عشية وصولنا إلى درنة، بدوياً لإخطار قائمقام «الدولة البربرية» «يقصد آيالة طرابلس. . المترجم» حيث لقيت هذه اللفتة نجاحاً كبيراً، فلم نهبط إلا جزءاً بسيطاً من المرتفعات حتى استقبلنا العديد من الخيالة وهم جنود تابعون للحاكم في هذه البلدة حيث جاء على رأس المستقبلين.

لقد أثار زيّهم العربي دهشتي وفضولي صدرية من القماش الأحمر دون أكمام ومطرزة بخيوط ذهبية تتراءى للناظر تحت «الجرد» ومسدسات مربوطة بحزام من الجلد على جنب الفارس وتزين هذا الحزام الجلدي ضفائر من الحرير معقودة بخيوط ذهبية. يعتبر النطاق سمة من السمات الرئيسية للزي العسكري العربي وهو مشدود نحو الأعلى بسيرين صغيرين يتم استخدامها أيضاً لشد «الجرد» بطرق شتى، ولتزيين الملابس عن طريق الاختلاف في ألوانها مع لون الملابس. يمتشق الفارس أيضاً سيفاً يماثل سيوف فرسان أوروبا، في عصر الفروسية، يتدلى من أعلى الكتف في غمد من الفضة الخالصة. يكون هذا السيف، في الغالب، هدية يقدمها الحاكم إلى الضباط عند اضطلاعهم بمهام مناصبهم الجديدة.

لكي أقدم للقارئ فكرة كاملة عن الزي العسكري لا بد من الإشارة إلى الأحذية المصنوعة من الجلد الأحمر وهي مرنة كالجوارب ويتم ارتداؤها فوق جوارب صفراء، كما يحمل العسكري معه «غدارة». إن هذا النوع من السلاح الثقيل والمزعج يحل محل البندقية عندهم وكان الفرسان يمسكون به في مقدمة السرج مشدوداً في خيوط من الحرير. كانت مهمة هؤلاء الفرسان تتمثل في موافقتنا حتى درنة حيث التقينا بهم عند قدم الجبل فطلبوا منا الحل، والاستراحة عند أجمة من أشجار التين الشوكي Opuntia حتى يصل كبار المسؤولين من درنة كما أعربوا لنا عن رغبتهم في إدخالنا إلى المدينة بالطريقة اللائقة وفقاً لما ذكروه. بعد برهة من الانتظار وصلنا، في الحقيقة، مساعد الباي - الشاوش رئيس الكتاب والقائمقام حامد الغربي، وأعيان البلاد، وخلفهم جمهور غفير من السكان من مختلف الأعمار بغية مشاهدة منظر الأوروبي الذي يرتدي الزي العربي، وهذا أمر جديد بالنسبة لهم، هذا الأوروبي الذي وصل إلى بلدتهم من الصحراء. بدأنا بعد ذلك في التحرك نحو المدينة ودخلنا شوارع ضيقة بل أزقة توجد على جوانبها بساتين عديدة وفي وسطها بيوت منتشرة بطريقة غير منتظمة ولكنها جميلة. كانت أغلب النوافذ والأبواب مزدانة بأشجار الكروم التي تستر بأغصانها الخضراء الغضة الفتيات من النساء اللاتي لا يقدرن، مثل الرجال، على إشباع فضولهن بحرية مشاهدة مرور موكبنا أمام البيوت.

عندما وصلنا إلى قلب المدينة تم استقبالنا في القصر الذي كان يشغله قديماً محمد باي نجل باشا طرابلس حيث تم وضعه تحت تصرفي. بدأ الضباط، بعد هذا الاستقبال السخي، في الانسحاب رويداً رويداً وقاموا بتأجيل بحث الأمور التي جاءت بي إلى بلادهم في الديوان الكبير إلى اليوم اللاحق. مع ذلك، ولكي يتم طمأنتنا ولو بشكل مؤقت، فقد أذاعوا بصوت مرتفع وعلى أبواب القصر أن المدينة قد أغلقت علينا بضيافتها وبأنه يجب على الجميع احترامنا كضيوف. جاء الخدم بعد ذلك لإحضار المشروبات والمرطبات.

قمت بعد ذلك بوضع حصيرة في أعلى شرفة في هذا المسكن الجديد، ونظرت من تلك النقطة، إلى قمم التلال بإقليم المدن الخمس الذي أجد نفسي الآن عند قدم جبالها. كان الخدم من مرافقيَّ تبدو على وجوههم معالم الفرح وكانوا يهنئون أنفسهم بسلامة الوصول. لما كنت قريباً جداً من هدف رحلتي وموضوع دراستي، ولما كنت أشعر بالغبطة إزاء الفرح البادي على رفاق رحلتي، استكنت قليلاً إلى أحلام اليقظة الحلوة.

نظراً لأنني ألزمت نفسي بألا أقحم القارئ طويلاً في أمور شخصية جداً، فإنه كان

سيسرني أن أؤكد الأحاسيس التي يشعر بها المرء بعد أن يستريح من عناء السفر ويخلد إلى الراحة ويترك الآلام ليخرج إلى الفرح والحبور.

إن تلك الأحاسيس والمشاعر عظيمة جداً لا سيما وأن مدتها قصيرة جداً. عندما يعاني المرء، غالباً، من الآلام الطوال، فإنه لا يحصل غالباً على مثل هذه اللحظات العابرة التي تنسيه تلك الهموم. وهناك اعتبارات كثيرة جعلتني أركز تلك المشاعر في نفسي نظراً لأن جمهور القراء الذين يقرأون رواية رحلتي، في مجال تقليدي لا يشبه، بصورة عامة، جمهور قراء أي عمل أدبي محض.

إن هذا الجمهور الفاتر بطبعه لا يتأثر بما يسميه بالروايات التافهة عند يفتح كتاباً كهذا لأنه يريد أن يعثر فيه على وقائع. وإذا كان هذا الجمهور يهتم بالرحالة فلا يعود سر ذلك الاهتمام إلى ما يدور بخلد الرحالة وقت الراحة والاستجمام بل لما يصفه لهم من وقائع أثناء قيامه برحلته، ولذا تراهم يثقلون عليه حتى يستكشف لهم المنطقة بصورة مستمرة. لا بد أن يجد القارىء إذاً في كل صفحة بل وفي كل سطر نتائج لا بدّ ألا تكون هذه النتائج مجرد جرد جاف للصخور والأحجار والنباتات والأطلال الأثرية.

إذا قام المؤلف، سيِّىء الطالع، بترك أحاسيس الإنسان الكامن فيه تطفو على السطح في هذا الوصف الفاتر لما يراه، أو إذا استبدل عملية تحليل مناظر الطبيعة الخلابة بعملية تحليل جسده ونفسه، فإن القارىء الصارم سيقلب هذه الصفحة الخاملة بازدراء والتي تجعله، في حالة تكرارها، يترك الكتاب إلى الأبد.

مهما كانت هذه الأحوال الذوقية شديدة فإنني لا ألومه أبداً عليها لأن الموضوع يبررها بل وربما جعلها ضرورية. رغم ذلك، فإنني عندما أشعر بعدم القدرة على جرجرة نفسي دائماً إلى تلك التفاصيل التي لا لون لها ولا طعم وتلك الأوصاف التي لا حياة فيها، أترك مجال العلم لكي أتقرب من الطبيعة وتكون الراحة من الإعياء هي غايتي الوحيدة، لأن كل إنسان قادر على نسج وقائع مع بعضها البعض أو على التشدق بالعلم، غير أنه ينبغي على المرء أن يمتلك موهبة حقيقة لكي يثير الاهتمام عن طريق اتباع طريق مختلف.

لقد تم إعداد كل شيء في القصر من أجل استقبال السلطات في درنة التي أخطرتني بزيارتها الرسمية لي في مقر إقامتي. إن أقل حدث، في مدن الشرق الصغيرة، يؤدي إلى حالات ضخمة من المراسم الهامة والأبهة التي يجب على الرحالة أن يتقيد بها إذا أراد أن

يوافق في مهمته. بقدر ما كان البدوي في الصحراء بسيطاً في ملكه وكان يتهرب من بهرجة الاجتماعات، كان الحضري يسعى إلى ذلك بل وتستهويه هذه المسائل.

إن البدوي الذي ينعزل بنفسه في المفازات الشاسعة يكبر نفسه معها، إذا جاز لي التعبير، ويحكم كسيد في خيمته ويستقبل بنوع من السخرية ذلك الأوروبي الذي يستعرض عليه بالبهرجة التافهة لملابسه أو الذي ينصب خيمته التركية ذات الشكل المضحك.

أما الحضري، فعلى النقيض من ذلك، تكبله أصفاد نصف حضارة يعيش فيها وهو معتاد على إخضاع جبينه لخدمة الغير ولا يشبع من مظاهر الثراء كما يبدو أنه يحترم بل ويحتفي بأي شخص تظهر عليه علامات الثراء.

لقد كنت، اعتباراً لتلك الأسباب، أفكر في الأثر الذي قد تحدثه نتائج هذه الزيارة المعلنة سلفاً للسلطات بدرنة على نجاح مشروعي، لذا حاولت أن أظهر حولي كافة علامات البهرجة وأستعرض تعابير الأبهة عند الأجنبي الذي يحمل توصية من باشا مصر. لقد كانت الحيرة واضحة جداً في أعيْن خدمي خاصة وأن أعمالهم المعتادة لا تساعد على إبراز معالم شخصية بهذا القدر من الأهمية.

لقد ساعدني، لحسن الحظ، خدمي على هذا التحول، فلقد لعب النوبيان المدججان بالسلاح، دور الشاوش أو الحرس الخاص، وقام الذي يعول القافلة «الطباخ... المترجم» وهو سوري ضيق الأفق، بارتداء زي مملوكي وقلد بكل ما يستطيع من مهارة وقفة ولهجة الياور، بينما قام سائسا الجمال من فلاحي مصر بتهذيب سلوكهما الفظ وتحول أولهما إلى سائس للخيل Seys والآخر إلى «قهوجي» أي نادل لقد غيرت أنا أيضاً من عاداتي الصحراوية وتزينت ببدلة فاخرة خصصت للمناسبات العظيمة، وجلست على أريكة قرب صديقي مولر الذي لعب دور «الوكيل Oukil» «أي المساعد أو المعاون.. المترجم» وانتظرنا جميعاً وبكل الجدية الشرقية، وصول ممثلي السلطة في المدينة.

لم يطل هذا المشهد المزعج حتى سمعنا صوت حوافر الخيل الذي يعلن عن وصول الزوار الذين كنت أنتظرهم بصورة رسمية. بعد برهة، دخل نفس الأشخاص أو الشخصيات الذين كانوا في استقبالنا ومرافقنا إلى درنة وجلس كل واحد فيهم في المكان الذي يليق بدرجته ومكانته.

ألقى الحاج إحميدة، القائم مقام حامد الغربي، الكلمة موجهاً الحديث إلى

الأشخاص المحيطين بنا وقال لهم إنه قد وصلت إليه رسائل من الاسكندرية، قبل حضورنا، أبلغ فيها بمشروعات الرحالة وبالاهتمام الذي أولاه والي مصر بالرحلة وبأنني أحمل رسالة من هذا الباشا إلى يوسف باشا يوصيه فيها بالاهتمام بمشروعي وحمايتي. قمت بدوري بتأكيد ذلك وبالإعراب عن امتناني العميق لهذه الضيافة الكريمة التي حظيت بها وبأنني لا أريد أن أستغل هذا الكرم كثيراً لأنني أنوي الذهاب إلى قرنة Grennah لأنها الهدف الرئيسي من رحلتي.

لقد كانت هذه الكلمة، كما كنت أخشى، النقطة الوحيدة الشائكة في هذا النقاش. لقد كنت مباشراً ودون تحوط خطابي غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للدبلوماسيين الدهاة من حولي فقد صاحوا معاً مؤكدين بأنهم لا يستطيعون الموافقة على رحلتي نظراً لأن الصحراء، وفقاً لما ذكروه، مليئة بقطاع الطرق، ولأنه يستحيل الدخول إليها دون المجازفة بتحمل أخطار وخيمة، ولأن الرسائل التي أحملها تلزمهم بالسهر على راحتي ورعايتي شخصياً، ولأنهم يرغبون في إنجاز ذلك الواجب على أكمل وجه؛ غير أنهم لا يستطيعون القيام بذلك إلا بإذن أو تصريح أو أوامر خاصة من الباشا أو الباي. لقد أكد لي الأعيان أنه في وسعي التمتع بهدوء هذه البلدة. وأن أتجول، إذا كان ذلك مناسباً لي، في أرجائها وفي ضواحيها بكل حرية مصحوباً بحارس مكلف بحمايتي.

بكلمة واحدة، لقد كان من المستحيل استخدام التفافات في الحديث أكثر مهارة من هذه لإخطاري بقرارهم الرسمي بعدم السماح لي بذلك.

لقد توقعت مثل تلك الصعوبات حيث أخطرني محمد الغربي بذلك في مدينة الاسكندرية ولذا لم أقم بالتشكيك بفضل أقوال تافهة في هذا القرار الذي تم اتخاذه سلفاً وباتفاق الجميع ولكنني، بدلاً من ذلك، أسرعت بإيفاد مبعوث إلى طرابلس يحمل معه رسالة باشا مصر وتوصيات صادرة عن السيدين دروفيتي وسالت «الأول قنصل مملكة إيطاليا بمصر والثاني قنصل المملكة المتحدة. . المترجم». قضيت بعد ذلك أربعين يوماً قاتلة قبل وصول الرد.

إن فكرة رؤية مشروعاتي وقد شلت خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة، وكذلك فكرة إجباري على السكن بالمدينة، كانت تساورني كثيراً وتثير مخاوفي. ونظراً للمشقة التي تحملتها نتيجة لعدم القيام بأي عمل أو نشاط أثناء تلك الفترة، بدأت أتصور مشروعات غير معقولة، وكما كان يحدث غالباً، لا تخطر ببال المرء أي فكرة إلا بعد أن تشطح به المخيلة

كثيراً. لقد لجأت إلى أبسط الحلول. لقد كتبت إلى الباي في بنغازي ورجوته السماح لي بالتجول على الأقل في المنطقة التي تخضع لنفوذه حتى وصول مرسوم «فارمان» باشا طرابلس. عندما بدأت أشعر بالمطأنينة والأمل في نجاح هذا المسعى، اغتنمت حريتي القليلة في التحرك للقيام بنزهات وجولات متكررة في المدينة وضواحيها.

الفصل السادس

ـ درنه ـ

درنه عبارة عن خمس قرى منفصلة عن بعضها البعض عن طريق مسافات قصيرة وهي مدينة مشيدة بصورة منتظمة حيث يوجد جزء منها على سفوح الجبال ويوجد الجزء الآخر وسط السهل. تشكل كل تلك القرى مجتمعة مدينة أي العاصمة أو بلاد السور أي المدينة والمحصنة وتليها قرية المغارة[1] وهي تقع إلى الغرب قليلاً من البلاد وعلى مستوى أكثر ارتفاعاً منها. أما قرية الجبلية فهي أقرب إلى البحر وتعود هذه التسمية إلى حالتها المهجورة أكثر من موقعها المعزول وأخيراً قريتي «أبو منصور الفوقاني» و«أبو منصور التحتاني»، وهما قريتان يفصل بينهما وبين القرى الثلاث الأخرى واد يجري شتاءً في سيول جارفة وهادرة. تقع قرية «أبو منصور الأولى» على قمة الضفة الجنوبية للوادي، أما الثانية فهي على مستوى السهل تقريباً وتقع بالتالي تحت القرية السابقة غير أن موقعها ينحرف قليلاً نحو الشرق. يقع ميناء درنة قبالة تلك القرية، وهو عبارة عن مرسى صغير ورديء وتكثر بقاعه الحراشيف الصخرية.

أما مدخله الفسيح جداً فلا يوفر للسفن الراسية فيه أية حماية. ولذا فإن السفن لا ترسو فيه إلا نادراً وذلك في فصل الصيف.

تدل العديد من المقابر التي تشاهد في درنة وضواحيها على وجود مدينة قديمة كانت تقع إذا لم أجانب الصواب، وسط القرية الحالية في مكان بلاد السور. ليس هناك أدنى شك في كون تلك المدينة العتيقة هي دارنيس Darnis أو دار دانيس Dar Danis التي حدد

(1) تسمى هكذا بسبب وجود بئر قديم في وسطها.

بطليموس موقعها في الطرف الشرقي لهضبة برقة[1]. كانت هذه المدينة التليدة قد شيدت على الأرجح في عهد لاحق للاستقلال الذاتي لإقليم المدن الخمس الليبية[2] لأنها لم تكن معروفة من طرف أي مؤرخ من مؤرخي العصور التليدة مثل هيرودوت أو سترابو أو سيلاكس، أما الرحلة المجهولة فتشير إلى دارنيس على أساس أنها مدينة زراين القديمة Zarine [3]. يرى المؤرخ مانير Mannert حقاً أن تسمية زارين لم تكن تطلق إلا على الساحل[4] غير أن التصحيفات والأغلاط في التسميات والمسافات[5] تحملنا على الاعتقاد أن اسم زراين ملائم جداً لمدينة دارنيس من تلك التي ذكرناها آنفاً ولا يمكن لهذا الاسم أن يدل فقط على الميناء أو الشاطىء.

تم على كل حال، ذكر مدينة دارنيس عند كافة المؤرخين اللاحقين لبطليموس مثل رحلة انطونان Antonin[6] ورحلة هيروكليس Hierocles [7] أما أميان مارسولان Amien-Marcellin فيجعلها بين أكبر المدن في برقة[8]، كما ذكر أنها كانت عاصمة لبرقة السفلى[9].

لقد كشفت حوليات الكنيسة عن أسماء كبار القساوسة فيها، واحتفظت باسم

---

(1) انظر وصف إقليم مرمرة في متن الكتاب ص 55 باللغة الفرنسية.

(2) نحن نخالف الكاتب فيما ذهب إليه لأن المدينة قد كانت أول مدينة أنشأت في ليبيا بأسرها من قبل الفينيقيين أي قبل الإغريق تحت اسم ديميس زراين انظر بحثنا في العلاقات الليبية الإغريقية قبل الميلاد. باللغة الفرنسية السربون 1993 ولو لم تكن هذه المدينة قائمة قبل قدوم الإغريق لما تمكن أهلها من نقل هؤلاء ليلاً إلى قرنه وفقاً للروايات القديمة.

(3) تقع مدينة زراين المجهولة على بعد مائتين وخمسين مرحلة من كيرسونيز «رأس التين الحالية.. المترجم». إن هذه المسافة القصيرة جداً تدفعنا إلى رفض أي تماثل في الموقع بين زراين ودارنيس لو لم تكن كافة المواقع التي تليها غرباً مطابقة للوثائق القديمة والحديثة.

(4) جغرافية الإغريق والرومان ـ المجلد 10 الجزء 2 ص 78.

(5) مثل بوزيريون Posirion بدلاً من تابوزيرس Taposiris ونازاريس Nasaris بدلاً من إزيريس Isiris.. إلخ.

(6) طبعة Wesseling ص 68.

(7) المرجع السابق ص 734.

(8) الكتاب الثاني عشر ص 16.

(9) Wesseling في هيروكليس ص 734 ومع ذلك ووفقاً لهيروكليس فإن تلك الحاضرة تطلق على السلوم.

«حاضرة» في كافة الملاحظات الجغرافية المقدسة[1] كما ذكر سينوسيوس القوريني أنها كانت أبرشية من الدرجة الأولى[2].

نجد، مع ذلك، حالة المقابر في دارنيس، وهي دليل لا يرقى إليه الشك عن درجة عظمة المدن القديمة، تدل على أنها لم تصل إلى درجة كبيرة من الازدهار بل وهيهات أن يكون الأمر كذلك. لقد جاءت أهمية هذه المدينة في أعقاب انحطاط إقليم المدن الخمس ولم تظهر تلك الأهمية إلا في فترة كانت فيها المنطقة مدمرة وأغلبها قاحل. لقد ولدت تلك المدينة مع الديانة الجديدة التي انتشرت في الشرق. كانت تلك الديانة متواضعة وبسيطة كالإنجيل، وغامصة ومنقسمة على نفسها كشتى الديانات في مراحلها الأولى. لقد كانت بعيدة جداً عن تزيين الأرض بأسرها وتنويرها. لقد كانت تلك الحقيقة الجديدة ـ يقصد الدين المسيحي ـ تطارد آلهة العصور الغابرة، وتلاشت معها الفنون التي تمثل بنات المخيلة واندثر معها الشرك الشاعري. وإذا كانت مدينة دارنيس قد صارت مدينة بفضل عدد سكانها، فإنها لاتزال قرية إذا نظرنا إلى مبانيها. قام القرآن هنا أيضاً، يمكنني أن أقول ذلك، بطرد الإنجيل من هذه المنطقة بل وحاربه وكون أشياعاً يسمون بالمسلمين في تلك البلدة. هناك حقيقة جديرة بالاهتمام وهي أن قبيلة بدوية تعرف باسم «المرابطين» كانت تسكن منذ أقدم العصور الجزء الشرقي للمدينة ولا تزال تعرف اليوم باسم «عيت مريم» أي آل مريم البتول ويعرف هؤلاء البدو في المنطقة بأنهم أحفاد النصارى[3].

تشكل بلاد السور بالنسبة للقرى المحيطة بها ما تشكله مدينة صغيرة في أوروبا بالنسبة لضواحيها فهي مقر السلطة وكل أثرياء البلدة، وفيها تقام الأسواق، وتلجأ القوافل المارة، وتوجد بها القصور، وفيها ما يشبه الحصن المحاط بسور، وهو مقر الباي عندما يقوم بزيارة المدينة، وهناك حصن آخر أصغر منه حجماً غير أنه أفضل وأجمل منه هندسة وعمارة وهو ذلك الذي تم وضعه تحت تصرفي للإقامة به يمكننا أن نشاهد على قمة من القمم المحيطة بالمدينة قلعة حصينة كان قد شيدها الأمريكيون (انظر اللوحة 71). ليس هذا الكتاب مجالاً للحديث عن الاحتلال المؤقت الذي كان من الممكن أن يغير قدر تلك

(1) الجغرافية المقدسة ص 56 ص 184.

(2) الرسالة رقم 67.

(3) هناك خلط واضح، وتلبك واجتهاد شخصي لا سند له تاريخياً. قد يكون المؤرخ قد رجح هذا الرأي باعتبار الاسم، وقد يكون الأمر كذلك كما هو الحال بالنسبة لعشيرة القضائي من «الشواعر» أو «الصناقرة» من أولاد علي، فجد العشيرة الأولى إغريقي وجد العشيرة الثانية نمساوي. . «المترجم».

المنطقة إذا كان قد حظي بتخطيط أكبر. وسوف تتاح لنا الفرصة، في مكان آخر من هذا الكتاب، للحديث عن أسباب هذا الاحتلال ومدته ونتائجه السلبية.

يوجد فارق بسيط أو طفيف بين سلوك سكان قرية بلاد السور وسكان القرى المجاورة لها لأن سكان القرية يمارسون التجارة وهم من المستقرين والقاطنين في البيوت الثابتة، أما سكان بقية القرى فهم أكثر شجاعة وفقراً ولا يختلفون كثيراً عن البدو ويقومون بأعمال الزراعة في الحقول المحيطة ويسافرون إلى الدواخل بل ويجسرون على الدخول إلى غابات برقة لتسويق بضائعهم إلى البدو في الدواخل.

إن سكان برقة يخضعون، مع ذلك، ودون تمييز، «لقانون الدم» - أي الثأر - ويتناصرون من قرية إلى أخرى مثلهم في ذلك مثل بدو الصحراء الذين يتطاحنون من قبيلة إلى أخرى. تستمر تلك الحروب طالما استمرت الأسباب غير أنه يمكننا، مع ذلك، أن نقارنها بحالات الحمى التي تفتر بعد الارتفاع الشديد. شيدت كافة المنازل في درنة من الأحجار، ويمكن لأي شخص يحضر من مصر أن يلاحظ أنها جيدة البناء بصورة جيدة عاملة وأنها نظيفة، كما تدل دواخلها على ذوق واضح يماثل ذوق سكان إقليم المدن الخمس الليبية «يقصد الإغريق - المترجم». شيدت هذه المنازل على أعمدة رخامية تشابه، بصورة عامة، الطراز الإغريقي - الدوري ويميل لون حجارتها إلى البياض الناصع لكونها حجارة جيرة هيئة جداً، وذلك ما يجعل تلك الأحجار سهلة التشكيل ويمكن إزالتها أيضاً بيسر من البناية. ترتفع أبواب المنازل ومداخلها، بشكل عام، بمعدل ثلثي ارتفاع المنزل ويمكن الدخول إليها عن طريق مدرجات. تعلو تلك المداخل في العادة كرمة معلقة تسمح للسكان، في فصل الصيف، من تذوق طعم السعادة دون الخروج من المنزل، أي سعادة شم النسيم العليل تحت ظل شجرة جميلة وتناول فاكهتها الحلوة. أما منازل القرية الوسطى فهي أيضاً محاطة بجدران أو بأسوار من شجر التين الشوكي Nopal، كما توجد أشجار الكروم التي تشكل بفضل تشابك أغصانها الغضة ملاجىء وممرات ظليلة. كما توجد أيضاً أشجار الخوخ والرمان والتين والتفاح والبرتقال والزيتون والتوت والموز بتلك البساتين. أما الخضروات مثل الطماطم والبسلة والفول والخيار والقرع الضخم فهي تنمو بشكل متفرق بين أشجار البساتين، التي تزرع فيها أيضاً النباتات العطرية وبقلتي الملوخية والبامية المصريتين.

لقد ساورني الاعتقاد وأنا أتجول في وسط هذه المحاصيل التي توجد أيضاً في بلادي

بأنني في مقاطعة بروفونس Provence في فرنسا، وبأنني في بلدي غير أن النخيل الصحراوي الذي رفع هاماته فوق أشجار بلادي هذه سرعان ما ذكرني بأنني في ليبيا.

يوجد بالمدينة ينبوعان غزيران أطلق عليها ديلاشيلا اسم «بؤبؤ»[1] حيث تتدفق منهما من قلب الصخور في وادي درنة. تجري مياه كل ينبوع منهما بالقرب من كل ضفة من ضفتي الوادي، ويتم توزيع المياه على كافة بساتين المدينة. يقوم سكان المدينة، بالإضافة إلى هذه النعم التي أغدقتها الطبيعة، بنشاط ملحوظ جداً وغير مألوف بالنسبة للشرقيين. أما ضفّتا الوادي فهما وعرتان وشديدتا الانحدار بصورة عامة؛ غير أن المرء يعثر فيهما على مناطق ترابية في شكل مدرجات مدعومة بجدران، بحيث تكون حقولاً صغيرة تغطيها الأشجار المثمرة في شكل زاهٍ وبهي لأن بعضها يعلو في الارتفاع البعض الآخر. كما يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد كتلاً كبيرة من الصخور لم تتمكن أيدي الحرفيين من إزالتها، ولذا فهي تقطع استمرارية تلك الحقول وامتدادها. قام السكان بزراعة شقوق وتصدعات تلك الكتل الصخرية من أجل تزيينها وتجميل منظرها وخاصة بأشجار التين والزيتون والخروب، كما تنبثق أيضاً من بين تلك التصدعات الصخرية فسائل النخيل وكأنها طافية فوق أجمة جوية، وتتباين في شكلها ولونها واتجاهها. في أسفل الوادي، يوجد قاع أو سرير الوادي حيث تنمو فيه وبشكل وفير وخاصة في الأجزاء المنخفضة من هذا المجرى شجيرات «الدفلى» Nerium حيث تغطي أزاهيرها الكبيرة والجميلة النباتات الشوكية التي تتداخل أغصانها في تلك الشجيرات وكأن شجيرات الدفلى قد حوصرت بين الأشواك. يمكن أيضاً للمرء أن يشاهد وجود الغدران والبرك المائية المنتشرة في ذلك الوادي التي كونتها السواقي المنسابة بالقرب من ضفتي الوادي وعلى ارتفاع ثلثي الضفتين تقريباً، كما تكوّن تلك السواقي شلالات صغيرة عند سقوط المياه من مستوى أرض إلى آخر أقل منه ارتفاعاً، أو من صخرة إلى أخرى. يضيف خرير هذا المياه الجارية رونقاً إلى تلك اللوحة الغناء البديعة.

إن هذه المنطقة التي جملتها الطبيعة قد أصبحت خراباً فإنني أرجو منكم تصور ماذا ستكون النعم التي تنتجها، وما هي الموارد التي ستمثلها لو أنها كانت تحت سيادة الأوروبيين؟.

---

(1) إن السبب في هذا الخلط عند الرحالة قد نجم عن خطأ في الترجمة لأن كلمة «عين» باللغة العربية تعني «بؤبؤ» كما تعنى أيضاً «ينبوع». انظر Golius.

إن صنعة وحرفية السكان الحاليين محمودة، دون شك، غير أنها تبقى مع ذلك إسلامية. لقد استفاد الأمريكيون كثيراً، أبان إقامتهم في درنة، من مساقط مياه الشلال في ذلك الوادي عن طريق إنشاء طاحونة للحبوب، لا توجد في ذلك الوادي أي معدات أو آلات معقدة غير أن عبقرية السكان تمثلت في المحافظة على تلك الطاحونة حتى تستمر في العمل دون السعي، مع ذلك، إلى تقليدها أوالإكثار منها في المنطقة. ينطبق نفس الأمر على الساقية التي تم إنشاؤها مؤخراً بأمر من حامد الغربي وذلك في وادي «بورديس» الذي يعرقل مرور وانسياب جدول «أبو منصور» (انظر اللوحة 8). لم يكن بوسع سكان درنة «الدراونة كما وردت» أبداً إبداع مثل هذه الأعجوبة التي تم بناؤها بجهود عمال أجانب.

يتكوَّن سكان درنة من طرابلسيين واسكندرانيين وبعض العائلات الفزانية التي جاءت للعيش في تلك المدينة بعد احتلال باشا طرابلس لها، كما يوجد بها يهود وهذا أمر ليس بالغريب لأن اليهود يوجدون في كل مكان غير أن سعادتهم تتوقف، بقدر يزيد أو ينقص، حسب معاملة السكان والمدن والتي يعيشون فيها في الشرق. نجد أن اليهود يعيشون في سعادة تامة أو في تعاسة وخزي. لا تساوْر المرء أي دهشة في رؤيتهم بكثرة في القاهرة التي يمتلكون فيها حيا منفصلاً وخاصاً بهم، وهو حي مظلم وقذر جداً، ولكن لا بدّ لي من الاعتراف بأن هذا الحي الكبير جداً، يكوِّن مجتمعاً مختلفاً، (يقصد السكان من العرب والأقباط. . المترجم). لأن معالمه البائسة من الخارج تخفي بيوتاً مريحة من الداخل حيث يعود «الصيرفي اليهودي» إلى داره في المساء لكي يتخلص من الأسمال الكالحة والبالية التي يرتديها نهاراً ليضع بدلاً منها ثياباً فاخرة. عندما يعود إلى بيته وذويه يشعر وكأنه في «إسرائيل»[1] بصحبة أصدقائه في جو من الدماثة واللطف بين أسرته لكي يعوض عن الخشونة والازدراء الذي يعاني منه خلال النهار.

كيف يمكن لليهود العيش في مدينة صغيرة «يقصد كدرنه. . . المترجم» يعانون فيها الأمرين حيث يبصق على وجوههم ويشعرون بالذل والهوان ويشعرون فيها بالعزلة ويتحملون إهانات أكثر من تلك التي يمكن لعدد كبير منهم أن يتحملها دون أي نوع من التعويض؟

---

(1) تعني هذه الكلمة مشروع الدولة اليهودية المثالية التي كان اليهود يحلمون بها منذ أيام التيه والسبي ولقد استخدم الكاتب هذا الاصطلاح قبل أكثر من مائة عام على إنشاء ما يعرف الآن «بإسرائيل». . المترجم.

توجه إليهم الإهانات ويصمتون، يُبصق على وجوههم فيخفضون النظر ويطأطئون الرؤوس. لقد أعربت في مرة من المرات عن سخطي إزاء هذه المعاملة أمام الحاج أحميدة وسألته لماذا يتم معاملة هؤلاء الرجال بقسوة وأشد من معاملة البهائم ولماذا لا يتركون البلاد؟

رد عليَّ، ببرود شديد، بأنهم «ولدوا فيها وسيبقون فيها». إنني أدرك أن حب البلد يمكنه أن يحول الرمال إلى مكان صالح للعيش، وأن الإنسان قد يجد نفسه يتضور جوعاً بسبب الحرمان غير أنه يقاوم، بالصبر والعزيمة، مع أقرانه لكنه ينعم فيه بالاستقلال والحرية، إن بلاده التي تزدان بهذه الهبة التي لا تقدر بثمن «أي الحرية. . .» قد تجعل من كوخه الحقير الذي تحرقه أشعة الشمس، وتحيط به الفيافي والقفار، مساوياً لأي قصر تحيط به الخضرة والنماء والجداول الرقراقة والصمت. . . صمت الخوف. . . ما هي إذاً تلك القوة التي تربط أناس يتم ازدراؤهم وتحقيرهم بجلاديهم الجفاة؟ ما هو ذلك السحر الذي يحبِّب إليهم التراب الذي ولدوا عليه حقاً ولو كان، مع ذلك، شاهداً على ذلهم وخزيهم؟ هل هو حب الذهب. . .؟ قال لي شخص آخر. . إنهم يغشون من يحترمهم فيرتدون الأسمال البالية ولكنهم يخفون وراءها كنوزاً لا تعد. . إنهم محتقرون ومهانون غير أنهم أثرياء. لا بد لنا الآن من وضع حد لهذه الأفكار المحزنة والمؤلمة التي تنجم عن مثل تلك الموضوعات، وأن نستمر في سرد روايتنا للرحلة.

لقد تم تشييد قريتي «أبو منصور الفوقاني» والجبيلة بالقرب من منطقة مقابر قديمة أو مغارات لدفن الأموات أو فوقها مباشرة. ويأتي هذا التناقض في سلوك المسلمين من الفائدة الكبرى التي تقدمها تلك الحفائر والكهوف إليهم في هذه المنطقة المطيرة حيث تتحول تلك الحفر إلى أحواض للمياه. لم يساورهم هكذا أي قلق حول احتواء تلك الحفر الأرضية رمم الكفرة في الماضي، بل ولقد استفاد منها البعض وحولها إلى مستودعات لتخزين الحبوب داخل منزله أو إلى ورشة يقوم فيها بصنعته المتواضعة. نجم هذا الاستخدام أيضاً عن كون تلك المغارات مقسمة من الداخل إلى عدة غرف أو متصلة بسردايب مظلمة يمكن لهؤلاء الرجال، السذج كالأطفال، أن يسمعوا فيها أصواتاً سحرية أو يروا بها أشباحاً مخيفة تمنعهم من دخولها. لا توجد في الواقع أي مغامرة منها مقسمة إلى أكثر من ثلاث غرف بل وإن أغلبها مكونٌ من غرفة واحدة فسيحة تتلقى ضوء الشمس عن طريق كوة أفقية لإنارة المغارة المظلمة.

لا تقدم لنا تلك المغارات، من الناحية الفنية، أي سمات خاصة تذكر داخلياً أو خارجياً، فلا توجد بها أي نقوش أو زخارف بل نجدها عبارة عن كهوف صنعت بشكل فج، بصورة عامة. يلاحظ المرء أيضاً وجود مستطيلة في جوانبها كانت تستخدم كقبور.

لقد قام سكان قرية الجبيلة ببناء بيوتهم بطريقة تحصر المغارات بالداخل وذلك لاستخدامها في تخزين ثمار حصادهم الوفير نظراً لأن السماء مطيرة، ولأن نظام العمارة الشرقي يضفي على ذلك الاستخدام عكس الأثر الذي نشاهده في أوروبا، لأن الكهف يحل محل المخزن. يمكننا أن نؤكد أخيراً على أن هذه القرية «أي الجبيلة» قد هجرت تماماً تقريباً وذلك بسبب ا نتشار وباء الطاعون الذي أدت إليه الحروب بين سكانها[1].

أما مغارات «أبو منصور الفوقاني» فقد كانت منحوتة في واجهات الجبال حيث كان بعض تلك السفوح والواجهات الجبلية صلداً وأملس تارة، وتعلوه الأعشاب والخضرة تارة أخرى. لقد تم تحويل أكبر تلك المغارات إلى ورشة للنسيج التي تشابه تماماً ورش النسيج في مقاطعة بروفونس بفرنسا.

إن موقع القرية الذي يشرف على الوادي وعلى درنة بل وعلى كافة القرى الأخرى يسر النظر. لقد تنزهت في تلك القرية عدة مرات وكنت دائماً أشعر بالمتعة عند التوقف أمام تلك المشاغل وكنت أشاهد الحرفيين من الجنسين وهم منهمكون، دون تمييز، في نسج الصوف والكتان[2]. لقد كان الفتيان يجلسون قبالة بعضهم البعض ويزيدون من نشاطهم الجماعي عن طريق الغناء. لقد شاهدت نظراتهم الذكية بينما كان مكوك الآلات يتحرك عبر خيوط النسيج وكانت أصداء غنائهم البدائي، رغم كونه لطيفاً تملأ أرجاء المكان وهو يصور الحب والأمل وهم في ريعان الشباب. توجد أيضاً في ضواحي درنة مغارات كثيرة تماثل كهوف درنة غير أنه يجب علينا أن نستثني المغارات الكنيسية، الواقعة إلى الشرق قليلاً من درنة، من تلك الكهوف لأنها تقع على قمم جبلية شاهقة وتطل مباشرة على ساحل البحر. لقد قام القدامى بنحت مدرجات صخرية لا يزال أثرها قائماً، غير أن المياه تتسرب إليها من خلال الشقوق والتصدعات حتى امتلأت بالطحالب والأشنات التي جعلت مداخلها شديدة

---

(1) ورد تحت عبارة درنة بدائرة المعارف الاسلامية أن عدد سكان المدينة قد بلغ سبعة آلاف نسمة قبل انتشار هذا الوباء وأنه قد أصبح خمسمائة نسمة بعد استفحال هذا الداء القاتل. . . المترجم».

(2) لقد كانت المرأة في درنة تعمل جنباً إلى جنب مع أخيها الرجل حتى قبل ذلك التاريخ وكان لها بالتالي قصب السبق في هذا المجال. . المترجم.

الانزلاق وخطيرة. هناك، مع ذلك، مجموعتان من النباتات الخيطية تساعد المتسلق على الوصول إلى مداخل تلك المغارات ثم الوصول إلى شرف شبه دائرية صغيرة تحيط بها مصطبة دائرية كانت عائلات دارنيس تستخدمها في الجلوس عليها والاستراحة أثناء تأدية واجباتها الجنائزية. كدفن أو زيارة الأموات.

توجد فجوة في وسط تلك المصطبة الصخرية الطويلة (انظر اللوحة 7) تمتد تلك المصطبة أمام كافة المغارات ولكنها تتفادى أكبرها التي كانت معبداً قديماً ثم تحولت بعد ذلك إلى كنيسة نصرانية. أما بقية المغارات المحيطة بهذه المغارة الكبرى فهي عبارة عن مقابر.

جعل الفارق في ارتفاع مواقعها واختلاف واجهاتها وسطوح صخورها منظر تلك المغارات خلاباً. يمكن للمرء أن يعثر في داخلها على أقواس وقباب ومحاريب من جميع الأشكال والأحجام، من الدائرة الرومانية الكاملة إلى المخروط الكامل الذي انتشر في العصر الوسيط. يمكن للمرء أيضاً أن يطلع هنا، كما هو الحال في كافة إقليم المدن الخمس الليبية، على جهود الكنيسة التي دخلت على عبادة الأوثان. لقد وضع النصارى قناديل جنائزية على قبور أغريقية ورومانية، وكان التابوت أو القبر الواحد يستخدم عدة مرات ولعدة أجيال، كما كانت تلك المغارات تعج بعدة لغات تعبر عن ديانات مختلفة، غير أن الصلوات فيها كانت، مع ذلك، واحدة ولم تتغير فيها سوى الرموز. إن تلك التجاويف التي كانت كالحة ومظلمة في الماضي قد طالتها يد الزمن فصدعتها وأدخلت إليها أشعة الشمس لإنارتها. لقد اختفى رجال من عصور مختلفة بل وتلاشت رفاتهم وأصبحت فريسة للرياح الذاريات. لقد طردت الطبيعة من هنا كل صورة للحداد ووضعت بدلاً منها أكاليل من النباتات الشعرية الخضراء وفي نفس المكان الذي كانت تتدلى فيه «الأشرطة الجنائزية». لقد كست الطبيعة جوانب الصخور التي أنهكتها الصلاة وابتلتها بالطحالب، وكست سفوح الجبال بعناقيد جميلة من النباتات التي يراقص نسيم البحر أغصانها. تأتي الطيور المهاجرة التي أعيتها مشقة الرحلة الطويلة لكي تستريح على تلك الأغصان المائسة والمزهرة، وتشيد بالأرض بصداحها الجذلان.. وهكذا لن يعكر شيء بعد الآن صفو هذه الوحدة اللطيفة، ولن يذكر شيء تلك الكهوف بغايتها الأولى، فإذا كانت ضوضاء الأمواج الهادرة، ودوي العواصف الرعدية، تدخل أحياناً إلى الكهوف فهي لا ترد عليها أو إليها سوى أصوات الأنين القديم والنحيب البالي.

الفصل السابع

مغادرة درنة ـ هيدراكس وباليبيكا ـ وادي بيت قاعات قصر مارة ـ المساخيط أو المدينة المتحجرة ـ زيفيريوم افروديسي ـ معبد فينوس. حمامات.

انقضى اليوم العشرون وأنا أنتظر، في فترة من الكسل الذي أجبرت عليه، وصول الرد أخيراً من بنغازي. لقد كانت رسالة الرد هذه سبباً في إخلاء سبيلي. لقد أدت مساعي القنصل الإنجليزي السيد روسوني Rossoni الملحة إلى قبول الحاكم بالسماح لي بزيارة المنطقة الواقعة بين درنة وقورينة، غير أنه أمرني بعدم تجاوز حدود المنطقة حتى وصول المرسوم «فارمان» من طرابلس.

لقد منحت أيضاً عدة رسائل توصية إلى شيوخ القبائل الرئيسية وأصدرت الأوامر إلى كتابة الحاج عبد العزيز بمصاحبتي خلال الرحلة وذلك بغية العمل على حمايتي، قدر الإمكان، وضمان سلامتي من الأخطار التي اتهمت بتعريض نفسي إليها بصورة عمياء.

لقد تعكر صفو الغبطة التي غمرتني نتيجة لهذا الخبر بسبب تردي صحة رفيق الرحلة مولر التي لم تعد تبعث كثيراً على الاطمئنان. لقد تفاقم مرضه، بدلاً من أن تخف وطأته، بصورة جعلته عاجزاً عن تحمل أي إعياء جديد. ومهما كانت درجة الألم التي شعرت به تجاهه، كان لا بدَّ لي من أن أتركه في درنه خاصة وأن الحاج أحميدة قد تكفل بالسهر على راحته حتى شفائه كما تركت إلى جانبه أخلص خدمي من النوبيين بغية مداواته، وبدأت رحلتي الصحراوية.

إذا كانت القيود والتحوطات التي يلزم بها الأوروبي في مدن الشرق الصغيرة، وهو يزورها طواعية، تؤدي إلى إزعاجه، فلنتصور درجة القلق الذي تحدثه الإقامة الجبرية فيها.

عندما يتحرر الأوروبي هكذا من تلك القيود ويدخل إلى المفازات والفيافي، فإنه يشعر بأنه قد انعتق من قيود ثقال. إنه يترك زي المدينة المزعج ويرتدي ملابس الصحراء ويشعر، سواء أكان ممتطياً صهوة الفرس المطيعة أو البعير الهادر، برغبة في الانتشار في البراح وتنسم هواء الصحراء بشيء من اللذة. . . . نسيم الحرية الذي يتحول إلى لذة وأمن. . . . لذة الهول. . . ومع ذلك ورغم كون الأماكن في الصحراء مفزعة إلا أن مظهرها يضيف شعوراً ما إلى لذة استئناف رحلة المغامرة.

إن الجزء من الهضبة الذي يمتد فوق مدينة درنة ممتع حقاً رغم عدم وجود أية نباتات طويلة أو عالية به بشكل عام وذلك لأن الوديان تتخلل هذا الجزء وتتجه نحو الشمال غير أن خصوبة التربة تقل كلما اتجهنا نحو الجنوب.

إن الآثار التي شاهدتها فيه لا تكاد تذكر في حد ذاتها غير أن الذكريات التي تثيرها في نفسي ليست غفلاً من الأهمية. لقد شاهدت، جنوب درنه، وعلى مسيرة نحو ثلاث ساعات منها، بناية معزولة حديثة العمارة وهي عبارة عن مسكن لولي صالح Santon. بعد متابعة الطريق، وفي نفس الاتجاه خلال أربع ساعات من المسير، وصلت إلى منخفض لا يكاد المرء يشعر به أو يلاحظه ولكنه يتضح من خلال السهل المتجه لمدة مسيرة ساعتين ونصف نحو الغرب.

لقد رأيت في طرفيه قصراً مشيداً بطريقة فجة عن طريق أحجار قديمة، وآثار لقرية صغيرة عتيقة على بعد مسيرة ساعة إلى الشمال من ذلك القصر.

رأيت أيضاً أشجار الزيتون منثورة هنا وهناك حول القصر وهي التي منحته اسمها حيث يطلق عليه «قصر الزيتون» بالإضافة إلى بعض أشجار التين التي منحت اسمها إلى تلك القرية الصغيرة والتي سميت «بقرية الكرموس». يمكن للرحالة أن يعثر في هذين الموقعين على آثار قديمة ومشوهة لأضرحة غابرة (انظر اللوحة 9 رقم 1-2) من العبث أن تدخل في تفاصيل وصفها، لأن الفرصة سوف تتاح لنا أكثر من مرة للتوقف أمام أو عند مثل تلك الأضرحة التي تكاد تغطي إقليم المدن الخمس الليبية والتي تدل حالتها الجيدة مع صورة الحداد المتبقي وحيداً أو بمفرده تقريباً في تلك المنطقة وما بها من علاقات وأدلة على ماضيها العريق والعظيم وهناك الآن أشياء أخرى تلفت الانتباه.

رأيت، على مسيرة خمس ساعات إلى الغرب من تلك الأماكن، أطلالاً لقرية أخرى يوجد بها برج عتيق كان مسكناً لشيخ بدوي أطلق عليه اسمه «بوحسن» (انظر اللوحة 9

الشكل رقم 3). لا تقدم لنا تلك الأطلال الجديدة أي شيء يذكر ولم أتعرض لها بالذكر إلا أن موقعها الذي يتصل، وفقاً لافتراضاتي، بآثار القرية السابقة التي تكون أكثر أهمية من هذه.

توجد هاتان القريتان على تخوم أراضٍ خصبة جداً ولا يمكن للمرء أن يشاهد، بعد مسيرة لمسافة قصيرة إلى الجنوب منها، أية نباتات أخرى عدا نبات «الشيبة» الخيطية Arthèmise وبعض الشجيرات المنثورة في المنخفضات.

إن موقع هاتين القريتين يذكرني ببلدتي هيدراكس Hydrax وباليبيسكا Palaebisca التي حدد سينوسيوس القوريني موقعهما على تخوم برقة القاحلة[1] أو في دواخل برقة حسب ما ذكره بطليموس[2] أو كجزء من إقليم المدن الخمس وفقاً لما ذكرته الجغرافية المقدسة[3].

ومع ذلك، لا يمكن للمرء إلا أن يضع افتراضات عائمة حول هذا الموضوع لو لم يترك لنا رئيس قساوسة بطليموسة «طلمثيه. . . المترجم» معلومات موضوعية: لقد أخبرنا أن البلدتين تابعتان لكنيسة ايريترا Erythira [4] المدنية التي تقع على ساحل البحر والتي سوف أتحدث عنها فيما بعد. رغم أن التبعية الدينية قد أدت في ذلك العصر إلى امتلاك الأراضي المحيطة بها[5]، إلا أن موقعها مجاور لقرية هيدراكس قد صار مثارا للجدل بين قساوسة ايرتيرا ودارنيس. لقد وصف سينوسيوس القوريني الذي تم الاحتكام إليه في هذا الخلاف، المكان الذي كان السبب في ذلك الشجار، بكونه مليئاً بأشجار الكروم والزيتون وبه قلعة تعرضت للدمار نتيجة لهزة أرضية تم بعد ذلك بناء جزء من سورها[6]. يقع ذلك القصر، كما يقول سينوسيوس، في مكان أقرب إلى دارنيس منه إلى ايرتيرا[7] ولذا حكم بتبعيته مع كافة ملاحقه إلى رئيس قساوسة دارنيس ـ القس ديوسكور Dioscure [8] وفقاً

(1) الرسالة 76 طبعة Peta ص 208.
(2) الكتاب الرابع ـ القسم 4. إن الأب لوكيان Le Quien يرى أن باليبيسكا قد تكون هي نفسها بلدة اليباكا Alibaca التي ذكرها بطليموس «النصرانية الشرقية ـ الجزء 2 ص 627».
(3) الجغرافية المقدسة ص 284.
(4) الرسالة 67 والجغرافية المقدسة ص 210.
(5) نفس المصدر ص 212 وص 213.
(6) نفس المصدر ص 211 - 213.
(7) انظر خارطتي الطبوغرافية.
(8) نفس المصدر ص 211 - 213.

لذلك الوصف الذي قدمه شاهد لا يمكن رفض شهادته والذي يتفق تماماً مع موقع الأطلال وآثار الزراعة التي شوهدت في قصر الزيتون، فإن موقع هيدراكس لا يمكن أن يكون إلى الجنوب كثيراً كما ورد في بعض الخرائط التي أطلعت عليها[1] ولأن المرء لن يجد لها أي أثر مهما توغل نحو الدواخل في أراضٍ صالحة لزراعة الزيتون إلا إذا كان السبب يؤدي إلى نفس النتيجة كما حدث في واحة آمون. علاوة على ذلك، فإن المكان الذي وصفته كانت الأشجار فيه تحظى برعاية الزراع لأنها لم تك موجودة في أرضها الطبيعية. عندما هجرت تلك الأشجار وتركت دون رعاية أصبحت عبارة عن أشجار دون ورق ولم تعد تحمل أي شيء اللهم بعض الأغصان الهزيلة. لم يمر ذلك الظرف مرور الكرام على عقل البدوي البسيط لأنه كان فضولياً في الغالب، لذا أطلق على هذا المكان اسم «قصر الزيتون» نظراً لوجود تلك الأشجار التي أدهشته منظرها بسبب وجودها في غير محلها الطبيعي. تقع آثار«بو حسن» عند مدخل وادي هاردن Harden الذي يتسع أوله ثم يأخذ في الضيق حتى يصبح مجرد ممر ضيق جداً، ويطلق البدو على الامتداد الذي يقع وراء هذا الممر الضيق اسم «وادي بيت قاعات». لقد دفعتني رغبتي في التعرف على كامل أجزاء المنطقة إلى الدخول إلى هذا الممر Gorge رغم احتجاجات عبد العزيز القوية الذي كان يرغب في تحويل اهتمامي عن ذلك المكان.

لقد بدأ الشك يساورني بشأن طباع هذا العجوز الضعيف ولكي أتّقي عواقب عملي الوخيمة، واصلت طريقي إلى الداخل. يتجه المحور العام لهذا الوادي من الشمال إلى الجنوب وتكثر به التعرجات والشعاب تجعل مظهره متبايناً وتحدث فيه فوارق غير متوقعة. نجد أن ضفتي الوادي تتجه إلى الأعلى كثيراً وتقترب من بعضها البعض تارة، وتغطيها أشجار كثيفة، وتبتعد عن بعضها البعض تارة أخرى، في شكل نصف دائرة مكونة مدرجات متتالية لا يدخلها ضوء الشمس أو مسارح زاهية من المروج الخضراء.

كانت مسيرتنا تتعرض، في أغلب الأحيان، إلى بعض العرقلة بسبب زيارة بعض البدو لنا الذين يخرجون من خيامهم المخبأة في أكثر الأماكن ظلاماً وكأنهم يخرجون من الحجور. قد يكون ذلك هو السبب في توسلات عبد العزيز وهواجسه لأنه كان يتعين علينا في كل مرة أن نعلن عن أسمائنا وأهدافنا. إن ممثل الباي الخائف، بدلاً من أن يظهر سلطته

(1) انظر لوحة دواخل ليبيا وفقاً لبطليموس وخارطة الامبراطورية الرومانية، الجزء الشرقي، وفقاً لدانفيل Danville.

بنوع من الغطرسة والتعالي، كان يبدي الكثير من اللين والود والتأدب في رده. لقد بدأ منذ ذلك الحين يردد على مسمعي بأنه يفضل غالباً الهواء الطلق والخلاء والسهول على الشعب الخفية والغابات الكثيفة التي تلحق الضرر بصحته.

لقد بدأت هاهنا ألمح معالم النظام الذي اتَّبعه القورينيون في الذود عن بلادهم: لقد كانت ضفَّتا «وادي بيت قاعات»[1] مغطاتين قديماً بمواقع محصنة تبعد مسافات قصيرة عن بعضها البعض حيث كانت هذه القلاع تسهر على راحة السكان.

توجد فوق أعلى نقطة وعلى مسافة ثلثي الوادي تقريباً، أفضل تلك الآثار حالة. تتكون هذه «النقطة العسكرية» من بنايتين مربعتين مشيدتين فوق كتلة صخرية ضخمة وعرة جداً. توجد تحت هذه الأطلال مباشرة حفرتان مردومتان تماماً في وسط الصخور بالإضافة إلى وجود صخرتين ضخمتين ومسطحتين يبدو أنهما كانتا تستخدمان لسد مدخل كل بناية سداً محكماً. يشاهد الإنسان أن تينك الصخرتين قد وضعتا على الأرض بصورة أفقية. إن مثل تلك الحفر المذكورة والأحواض توجد بكثرة في إقليم المدن الخمس الليبية وتحت أنقاض آثار مشابهة لهذه الأطلال وذلك بغض النظر عن موقعها، سواء أكان ذلك في المرتفعات أو في السهول غير أن اختلاف المواقع يدل على اختلاف الأغراض.

تكون تلك الحفر أو السراديب في الحقيقة، تارة مخازن ضخمة أو صهاريج عميقة، وتارة أخرى تكون ممرات أرضية تسمح بنزوح السكان عن المنطقة في حالة الحصار. كانت تشكل أيضاً في الماضي ملاجىء ومحاريب ومعابد مزخرفة بأعمدة تدل على هذا «الاستخدام الديني» كما كانت تستخدم كسراديب حول القصور حيث اكتشفنا وجود مدافن صغيرة ربما كانت توضع فيها رفاة أولئك الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن ضد هجوم الهمج والبرابرة[2] توجد العديد من القرائن والمؤشرات التي تدل على تلك الاستخدامات المختلفة لتلك السراديب والأبنية، غير أن الفحص المتأني لها قد يسلط المزيد من الضوء على أعراف وتقاليد وعادات السكان القدامى في تلك المنطقة.

---

(1) ربما قصد المؤلف وادي «بتقات». . المترجم.

(2) عندما يتحدث المؤلف عن سكان قرنة أو قورينه أو إقليم المدن الخمس الليبية فإنه دائماً يقصد الإغريق والرومان، وعندما يتحدث عن الهمج أو البرابرة أو الليبيين فإنه يقصد سكان البلاد الأصليين. . . . المترجم.

إذا أراد المرء أن يدرس إقليم المدن الخمس الليبية فعليه أن يغوص في أحشاء الأرض وأعماقها ولا يكتفي بمجرد ذرع المنطقة وحدها.

إن الهمج الذين دمروا المباني لم يتمكنوا من تدمير الجبال ولذا فإن المدن والمعابد والهياكل قد اختفت غير أن الأقبية والسراديب لا تزال باقية. يوجد على مسافة ليست بعيدة من مغارات وادي «بيت قاعات» ينبوع ماء تندفع مياهه الفوارة من قلب الصخور وتتشعب، وفقاً للعراقيل التي تصادفها أمامها، في اتجاهات متباينة، ناشرة خصوبتها في كل مكان مضيفة إلى سحر الطبيعة الذي نشاهده ونلمسه على قمم جبال الوادي الخلابة مزيداً من الرونق والبهاء.

يمكن للمرء أن يطلق العنان لبصره وراء تلك النقطة العسكرية، كما يمكنه أن يتمثل رؤية الشراذم المعادية من كل مكان. لقد أدت هذه المسألة إلى ورود العديد من الأفكار في ذهني.. لقد أرشدني أحد الرعاة كان بالقرب مني على الآثار التي كنت أرغب في مشاهدتها. لقد ذكر أنه كان يذهب لمشاهدة وادي القبة في الشمال، أما في الشرق، فكان يقوم بزيارة هضبة السراديب ثم أشار إلى نقطة سوداء تتراءى أمامنا في الأفق وهي تمثل معبد الفواكه الذي تقع وراءه مدينة الأصنام أو التماثيل. إن ذهني الذي كان منتبهاً تارة لحكايته وتارة أخرى شارداً لا إرادياً نحو ذلك العصر الذي كان يتحدث عنه والذي كان فيه أصحاب هذه الأرض القدامى يسهرون عليها ويحرسونها من هذه النقطة التي أوجد فيها الآن، ويراقبون السهول ووصول شراذم الأفارقة ثم يدحرونهم بعد ذلك نحو الصحراء. كم تغير هذا الزمن! لأن من يقوم الآن بإرشادي هو ممثل عن تلك القبائل المتوحشة وهو متوحش مثلها ويتحدث عن آثار تلك المدن التي كانت تحكم إقليم المدن الخمس بتسميات مصحّفة ومحرفة بل ومشوهة.

إن تلك الأبراج التي كانت تجعل فرائص أسلافه ترتعش من شدة الخوف والهلع قد انهارت الآن حيث يدوسها هذا الليبي بازدراء لأنه يجهل غرضها وغايتها القديمة في الوقت الذي ترعى فيه قطعانه العشب الذي ينبت الآن بين تلك الأنقاض وتغطي فيه خيامه وتلك السهول والوديان وهو يتأملها وهو جالس على تلك الجدران التي كان يخشى بأسها في القدم، ويتغنى الآن بحروبه الدامية أو حبه المتوحش والبدائي.

بدأت أنزل ببطء وذهني مشغول بتلك الأفكار من أعلى قمة في وادي «بتقات» ودخلت، من جديد إلى شُعَبِ الوادي، وعندئذ توقفت تلك الانطباعات ولم تعد تحدث

نفس الأشياء ذات التأثير أو الأثر في نفسي كلما رأيت آثاراً أخرى أو مواقف أخرى. تركنا بعد ذلك تلك الشُعَبَ المظلمة ودخلنا إلى واد أرحب هو وادي القبة. لقد حملتني بعض الأطلال لأبنية بهية على ألا أشك في اقترابي من بلدة من أكثر البلدان أهمية في إقليم المدن الخمس الليبية. ولكن قبل أن أمضي قدماً نحو الغرب، دعونا ندخل الآن إلى وادٍ جديد يشكل امتداد الوادي القبة ثم يلتف فجأة نحو الشرق ويتجه شرقاً حتى يصل إلى درنة. إن نظام روايتي قد يبدو لي أهم من نظام مسيرتي. يسمى هذا الوادي الجديد في بدايته بوادي «طراخنت» وهو أقل ضيقاً من وادي «بتقات» ولكنه أكثر منه نباتاً وأشجاراً. إن النباتات والأشجار فيه كثيفة لدرجة أنها تغطي الهضبة بأسرها بل وتتزاحم في قاع الوادي بحيث لا يمكن المرور بينها إلا عن طريق صنع ممرات من خلال أعداد هائلة من الشجيرات والأحراش. لمحت، عند التجول في أرجاء ذلك الوادي، نقطة عسكرية محصنة فوق إحدى القمم الشاهقة المطلة على هذا الوادي.

إن مثل هذه الأطلال كثيرة جداً في مثل هذه المواقع لذا سوف أكتفي بذكرها عندما أمر بجانبها، ولن أدخل في التفاصيل إلا عندما تنطوي تلك المواقع الحصينة على سمات ومعالم خاصة. يعتبر قصر «ماره» ضمن تلك المواقع حيث يقع ذلك الحصن على السفح الشمالي للوادي الذي يحمل نفس الاسم والذي يشكل الامتداد الشرقي لوادي «طراخنت». لقد تم بناء ذلك القصر على صخرة جرداء بالقرب من بلدة قديمة. وذلك في شكل مربع يصل طول كل جانب من جوانبه إلى عشرين (20) متراً، ولا يمكن للمرء أن يتعرف على أي شيء بداخله اللهم إلا الأساسات الخاصة بأربع من الغرف متصلة ببعضها البعض عن طريق أقواس وقباب لا تزال قائمة.

يبدو أن تلك البناية، وفقاً لأبعاد أساساتها، ولطبقات الإسمنت بداخلها، كانت تابعة لعرب القدامى غير أن الخندق العميق الذي يحيط بها من ثلاثة جوانب فقط يرجع بالتأكيد إلى عهد سابق لبناء ذلك القصر. قد جعلنا ذلك نعتقد بأن هذا القصر قد شيد على أنقاض لآثار قديمة خاصة وأن الخندق قد نحت في الصخر الصلد ويحتوي على كهوف جنائزية ومدافن في الجوانب المقابلة لجدارن القصر، وحيث تتفرع تلك الكهوف إلى سراديب تحت الأرض. لقد حوَّل العرب هذه المغارات والكهوف إلى ورش، إن جاز لنا أن نطلق عليها هذه التسمية، وذلك نظراً لوجود أوتاد مثبتة في شقوق وتصدعات تلك الكهوف. كانت تستخدم تلك الأوتاد في شد خيوط الصوف لكي يتم جدلها بعد ذلك بمهارة لصنع «الحرام».

إن مشهـد ورش «مارة» مشهد غريب يزخر بالدروس والعبر. ليس من قبيل المفاجأة أن نرى، قرب مداخل هذه المغارات، بنادق تحمل خناجر، بدلاً من أدوات وآلات الدفن، وأن نسمع صوت الرصاص أو البارود يدوي في تلك المدافن التي كرست في القدم للصمت والأسى، خلال أعراسهم المتوحشة والبدائية. لم يعد المرء يشعر بأي دهشة إزاء قيام البدو بوضع طعامهم داخـل القبور نفسها، وإزاء رؤية الطفل الصغير أو الرضيع عارياً وهو يتحرك في الحـوض الصخـري الصغير الـذي كـان يستخـدم لتطهير الجثمـان قبـل تسجيتـه في الرمس.

لكن المرء لا يتمالك نفسه بل ويعتصر حزناً وألماً عند رؤية عظام تلك الرفاة الغابرة وهي تخرج من القبور، بعد عدة قرون من الراحة، وذلك لاستخدامها كمكوك لصنع أقمشة فجة. إن الجمع بين تلك العصور وعكس استخدام الأشياء، يؤدي إلى وجود تناقضات غريبة يقف عندها الرحالة المتأمل بل وتدفعه إلى الاستغراق في الأحلام. بعد أن يغادر المرء «ماره» ثم يتجه نحو الغرب، يقع نظره على قصر آخر يسمى قصر «الحرامي»[1] حيث يدل اسمه على نوعية البشر الذين كانوا يستخدمونه كوكر، ولذا لم تحدوني أي رغبة في الدخول إليه. يجد المرء، بعد مسافة بسيطة من هذا القصر، أطلالاً لقرية قديمة تسمى Kasth-Moursek وعلى بعد ست ساعات منها يصل أخيراً إلى مدينة المساخيط» وهي عبارة عن آثار لمدينة كبيرة. إنني أرغب في نقل القارىء إلى هذه المدينة قبل أن نتجول به سريعاً في القصور الكهفية أو الأحافير الأرضية التي تستخدم كمساكن.

يمكن لموقع مدينة «المساخيط» أن يقدم لنا فكرة عامة وبسيطة عن عاصمة قورينه التليدة حيث أن القمة الجنوبية للهضبة قد نحتت في ذلك الموقع على هيئة جرف يتراوح ارتفاعه بين عشرين وثلاثين قدماً ويكون بالتالي واجهة جبلية ملساء حفرت فيها بعد ذلك القبور في كل مكان. إن الهدف من صنع هذا الجدار الجنائزي الطويل هو دعم أسوار المدينة القديمة التي توجد أنقاضها مبعثرة ومتناثرة في كل مكان، ولا يستطيع المرء أن يجد فيها أي معالم أثرية يمكن التعرف عليها بسهولة اللهم قصر وحيد يعود إلى العصر الروماني إلا أن شظايا الرخام وقطع التماثيل بها وخاصة العدد الهائل من القبور، تدل، بما فيه الكفاية، على أن تلك المدينة الصغيرة كانت مزدهرة جداً في القدم. دعونا الآن نواصل عملية فحص تلك الأنقاض التي أوجدها الدمار. إن الحفريات المصنوعة في قلب الصخور الصلدة، هنا وهناك، والحالة الجيدة

(1) أي قصر اللص أو السارق.

التي توجد عليها، هي التي أثارت انتباهي. لقد كانت حفر مدينة «المساخيط» مذهلة من ناحية عدد الكوات والمحاريب بها التي توجد في مداخلها بل وحتى في الكتل الصخرية الصلدة التي توجد في الأعماق «انظر اللوحة رقم 12». سوف يشاهد المرء واجهة يرجع تاريخها إلى العصر الدوري وتوجد بها كوات ومحاريب مزخرفة بطريقة غريبة وهي مختلفة الأحكام من صغيرة إلى كبيرة، والأشكال من مربعة إلى بيضاوية، وهي أيضاً إما مجتمعة أو متفرقة، كما سوف يشاهد الإنسان الكثير منها في القمة أو عند القاع أو بين الأعمدة الرخامية. لا يوجد أدنى شك في أن تلك الزخارف، بل لنقل تلك التشويهات الهمجية تعود إلى العصر الوسيط أي إلى عهد بداية انتشار الديانة النصرانية التي نشر أصحابها في كل مكان رموز تلك الديانة الوليدة أو الناشئة. يبدو أن أكثر تلك المغارات اتساعاً قد كانت تستخدم ككنائس، أما البقية الباقية فهي أشبه بكهوف للدفن وتشبه الكهوف الجنائزية المصرية وربما تكون قد استمرت في الاحتفاظ بهذا الاستخدام. يوجد أيضاً العديد من التماثيل والقناديل الجنائزية في تلك الحفر، التي تختلف في أحجامها والتي حفرت من قبل الأسر الحزينة أو الورعة. كما أن صور القديسين والقديسات التي قد انتشرت فيما بعد في الحقول المجاورة قد تكون السبب في زرع فكرة اطلاق اسم «المساخيط» من قبل بعض البدو وبعض الأوروبيين الذين يماثلونهم في السذاجة على هذه المدينة. إن كلمة «المساخيط» تعني «المتحجرة». رغم أن ما أنوي القيام به الآن هو استشراف لنتائج وملاحظات لاحقة فلا ضير من شرح السبب في هذا الاعتقاد. إذا تركت خطأ فادحاً دون تصويب في حينه فإن هذا الخطأ سوف يظل دون تصحيح في أي وقت بل وربما لن أتطرق إليه في أي مكان آخر عدا ذلك المكان الذي يساعدني في تقديم هذا التفسير أو الشرح. لم يكن لومير Lomaire أول من أذاع في أوروبا فكرة «المدينة المتحجرة»، بل لقد قال الياقوتي، منذ القرن الخامس عشر الميلادي، يوجد مدينة قديمة شرق نهر النيل تسمى «الإنسانة» Ensana تحوَّل سكانها إلى حجر، ويتواجدون الآن في الهيئة والأوضاع التي كانوا عليها قبل تحويلهم إلى أحجار[1]. تناقل بعد ذلك العديد من المؤرخين الشرقيين حكايات مثل هذه حول قرنه وضواحيها ولذا قام بعض العلماء الذين لم يكن بوسعهم تصديق مثل هذه المسائل بالبحث عن تفسيرات أخرى غير أن التفسيرات التي قدموها كانت، هي الأخرى ولسوء الحظ، غير معقولة[2].

---

(1) De Guignes. Les Notices et les Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque du Roi.

(2) تاريخ أكاديمية النقوش. المجلد 7 ص 224.

لقد نسبوا هذه التسمية إلى وجود «ألسنة صخرية أو متحجرة» وغيرها يمكن في الحقيقة أن تشاهد داخل كهوف قورينه وفي سائر أنحاء إقليم المدن الخمس الليبية. لكن المظهر الأسطواني، وصغر حجم تلك الألسنة الصخرية المتحجرة، لا يمكن لها أن تؤدي إلى ذلك التأثير على عقل البدوي مهما كان بسيطاً. يبدو أن شاو Shaw قد قام بنقل حكاية الياقوتي بالكامل غير أنه حدد موقعها في منطقة «راسم»[1] وهي محطة يمكن للمرء أن يعثر عليها وسط رمال الصحراء بين بنغازي وواحة أوجله حيث قمت أنا شخصياً بزيارتها.

أخيراً قام الأب غودفروا Godefroi وغيره من المبشرين بالنصرانية بتحديد موقع تلك المدينة على مسيرة عشرين نهاراً «وليس يوماً.. المترجم» من جنوب بنغازي حيث تحول كل شيء في هذه المدينة إلى حجر وذلك عقاباً من عند الله[2]. إن هذه المعلومات الأخيرة، مهما كانت درجة سخفها أولاً، قد أصبحت نفيسة بالنسبة لي لأنها ساهمت في إعطائي مفتاح سر تلك الرواية الغريبة ذات المصادر المختلفة، كما رأينا، رغم أنها كانت في نفس الظروف.

لقد كان البدو يعزون تحول تلك المدينة إلى حجارة إلى نفس الأسباب التي ذكرها غودفروا، وكانوا يتحدثون عن مدن مسخوطة لأنهم يعرفون الكثير منها. قد يكون ذلك هو السبب في عجلتي للذهاب إليها لمعرفة سر هذه المعجزة الكبرى! انظر لأنني لم ألمح شيئاً خارقاً للعادة أو الطبيعة بين هذه الأنقاض التي أتفحصها فقد أعربت عن خيبة أملي إلى الأدلاّء الذين كانوا معي، فأشاروا إلى قطع التماثيل المنثورة في الحقول وقالوا لي: «لقد كان يوجد العديد منها كاملة... هؤلاء الناس هم الذين سخطهم الله وحولهم إلى حجارة». لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك الشديد عند سماع تلك الكلمات، وكنت أفكر كيف يمكن لرواية شعبية تافهة كهذه أن تؤثر بطريقة رخيصة وسخيفة على علماء عظام. ليس من المفيدالآن أن ندخل في المزيد من التفاصيل فذلك وحده يكفي لحل المشكلة. إن كل الأماكن التي يشاهد فيها البدو تماثيل تحول في نظرهم إلى «مدن متحجرة» ويسارعون بتسميتها «المدن المسخوطة» أو «المساخيط» أي ما يشبه الإنسان، وهكذا نجد أن العديد من المواقع الأثرية في برقة تحمل نفس الاسم نتيجة لنفس السبب.

إن المعلم الأثري الروماني المزخرف بالنقوش البارزة في قرزة[3] Ghirza يحمل أيضاً

---

(1) رحلة شاو ـ المجلد 2 ص 84. Voyage de Shaw. t.IIP.

(2) حالة مملكة طرابلس ص 46. état du Royaume de Tripoli P.

(3) رحلة في أفريقيا بقلم دنهام وكلابرتون، الترجمة الفرنسية ـ أطلس ص 7 و 8.

نفس الاسم ويطلق عليه بدو برقة اسم «المساخيط»، ويبرز ذلك ما ذكره الأب غودفروا، عن موقعه الذي يبعد مسافة مسيرة عشرين يوماً من بنغازي. هكذا نرى أن عاصمة الدولة النبطية «البتراء Petra» التي لا تزال تحوي، حسب أقوال العلماء من الرحالة أمثال بركاردت Burckardt وبانكس Bankes، عدداً كبيراً من التماثيل والصور والرسومات، تحمل أيضاً نفس الاسم طبقاً لما ذكره الياقوتي في «الأنسانة»[1] إن شدة انتباه القارىء إلى موضوع كهذا، يعني استغلال وقته وصبره، وبغض النظر عن كثرة الحفر والمحاريب التي ذكرتها، فإن إقامة النصارى في مدينة «المساخيط» واضحة جداً من خلال النحوت الموجودة داخل المغارة التي تقع على الطرف الغربي للمدينة.

يوجد عمودان رخاميان بتيجان لم يكتمل أحدهما بعد، تدعمان زوايا أو أركان قنطرة داخلية نحتت مثل العمودين في قلب الصخر الصلد. تتكون هذه القنطرة من بروزات Frise على ثلاثة أوجه أو جوانب بحيث نحت كل جانب فيها بطريقة مختلفة عن الآخر. يمكن مشاهدة دائرة على هيئة أوراق الغار وبداخلها صليب محاط بزوج من الثعابين في الجانب الذي يقع قبالة المدخل.

توجد، على جوانب الدائرة، رسومات وخطوط عربية فجة توجد بينها وبكثرة صور لقلب الإنسان. لقد شاهدت رمز المسيحية «يقصد الصليب. . المترجم» منحوتاً على الجانبين الآخرين أيضاً ولكن كان قد شوه من قبل ضربات الفأس التي تدل على حقد المسلمين الذين يحاولون طمس هذا الرمز الخاص بديانة محظورة في هذه المنطقة. إن هذه النوايا السيئة واضحة جداً لأن زخارف أخرى لم تمس بل ولا تزال كاملة كما كانت عليه مثل أشجار الكروم التي تتدلى عنها عناقيد العنب. إن هذا الاسم إشارة طبيعية إلى «نبيذ النبي عيسى»، ومثل صور الأسماك، وهي القرابين الاعتيادية والمألوفة لسكان برقة «انظر اللوحة 13». تدل كافة تلك العلامات على أن «المساخيط» كانت قرية هامة في إقليم المدن الخمس الليبية الذي انتشرت به النصرانية، ولكن ما هي هذه القرية؟ لقد جعلني نقص المعلومات حولها في حالة جهل مطبق غير أنني أتجرأ على تسميتها «أولبي» Olbie، العاصمة الدينية التي ذكرها سينوسيوس القوريني[2]، والتي حددت موقعها، وفقاً لقائمة غير جغرافيّة جداً في الواقع، الجغرافية

---

(1) إن كلمة الأنسانة تتفق تقريباً مع كلمة «المساخيط» لأن معني إنسان في اللغة العربية تعني «الرجل» أو البشر انظر D'Herbellot وكلمة إنسان.

(2) انظر الرسالة 76.

المقدسة، على تخوم إقليم المدن الخمس الليبية[1] دعونا نترك الآن هذا الحطام المشوه الذي يمثل آخر عصور الحضارة في تلك المنطقة، ونذهب إلى عصور أقدم منها، ونسير فوق أطلال وبقايا أكثر منها تشويهاً، لكي نحصل على معلومات أكيدة وذكريات أكثر أهمية. يمكن للمرء أن يشاهد جنوب مدينة «المساخيط» ربوة مرصعة بأطلال أثرية يبدو منظرها من بعيد ضخماً.

لقد أسرعت نحوها حيث بدأت تتضح أمامي معالم لبناية شاسعة شيدت من صخور الجرانيت ويبلغ سمك الكتلة الصخرية الواحدة ستة أقدام، ويصل طول كل جانب من جوانب تلك البناية إلى ثلاثة وأربعين متراً. لقد طالتها أيضاً يد الزمن مع ذلك وتم تقويض تلك الكتل الهائلة بحيث لم يعد يبقى منها قائماً فوق سطح الأرض سوى بضعة أمتار.

أما داخل هذه البناية، فإن جهود التخريب والتدمير قد أحدثت أضراراً فادحة ولم ينجُ من ذلك الخراب سوى بروز دوري مشوه Corniche وأربعة تيجان من الرخام مزخرفة بأوراق نبات Acanthe. وعناقيد من العنب «انظر اللوحة 27 الشكلين 3-4». يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد هذه الأشياء مردومة حتى منتصفها في الأرض وذلك وسط كتل صخرية كسرت زواياها وعدداً من أبدان الأعمدة التي قلبت فوق بعضها البعض. لا تقدم لنا تلك الأنقاض أي دليل أثري سوى كونها قد وضعت بطريقة لتخفي معالم مخطط البناية المذكورة «انظر اللوحة 11 الشكل 3».

تدل تلك الأطلال البالية، مع ذلك، على أننا بالقرب من معبد موغل في القدم. كم يكون أسف الإنسان شديداً عند رؤية هذا الخراب، وكم يكون هذا الأسف أشد عندما يستقرىء التاريخ حول تلك الأماكن. «إن رأس التراب» الذي يقع على مسافة بسيطة شرق المساخيط وعلى بعد خمس مراحل ونصف Lieues من مدينة درنة، لا بد وأن يكون دون شك، ميناء زيفيريوم Zephirium القديم الذي تطرقت إلى ذكره الرحلة المجهولة، وحددت موقعه على بعد خمسة عشر فرسخاً Stades من مدينة زراين[2].

---

(1) الجغرافية المقدسة ص 284.

(2) IRIARTE., Bibli, Marti. L.V,P 486, Strabon. L.XVII, c.2.

ذكرت تلك الكتب مرتين اسم زيفيريوم وحددت موقعة بين نوستاثموس والكيرسونيز، فالأول ملجأ للسفن وقد ذكرت الرحلة المجهولة، والثاني يتفق مع رأس درنه. أما بطليموس فقد حدد موقع زيفيريوم بين درنه وقرية كرسيس Chershis الواقعة شرق نوستاثموس أما بومبونيوس Pomponius «الكتاب الأول فقرة 8 فلا يعرف على طول الساحل عليه سوى نتوئين أحدهما يسمى زيفيريوم والآخر يسمى نوستاثموس.

طبقاً لنفس المقاييس المرحلية للمسافة، نجد أن هناك محطة أخرى تسمى أفروديس Aphrodisias وتقع على بعد ستّين فرسخاً إلى غرب سابقتها. لقد سميت تلك المحطة بذلك الاسم نتيجة لوجود معبد للربة فينوس بها. يقول سيلاكس بأن جزيرة أفروديس تقع في ذلك المكان[1].

ولقد ذكر هيرودوت هذه الجزيرة أيضاً[2]. وقد تكون إحدى الجزيرتين اللتين تحملان نفس التسمية واللتين وردتا لدى إتيان البزينطي[3] وربما تكون جزيرة لايا Laea التي تطرق إلى ذكرها المؤرخ بطليموس[4]. لقد حالت ظروف معينة دون زيارتي لهذا الجزء من الساحل، ولم أتمكن بالتالي من التعرف على الجزيرة الذي ذكرها التاريخ القديم. مع ذلك، يمكننا أن نستخلص من الروايات القديمة وجود معبد للربة فينوس في هذه المنطقة.

قد تكونت آثار «بيت تامر» الضخمة الموجودة قبالة الموقع الذي يظن أنه موقع جزيرة أفروديس أو ميناء أفروديس، رغم أن تلك الآثار تقع على قمة ربوة، هي دون شك أطلال معبد فينوس. إن تلك البناية التي تعود إلى العصور الأولى في إقليم المدن الخمس الليبية تتفق تماماً مع النظام الذي تبناه القورينيون، ومع أية بناية تنصب على شرف ربة الجمال وتكريماً لها. هل كان من الممكن أن نتصور مثلاً إقامة معبد ربات الجمال على شاطىء قاحل أو على

---

(1) طبعة غرونوف ص 108. يمكن تفسير هذه الفقرة بنص مختلف لدى كل من فوسيوس Vossius وهدسون Hudson حيث يرى هذا الأخير ضرورة إعادة وضع وترتيب علامات الترقيم في الجملة الإغريقية لكي تقرأ «من الكيرسونيز إلى جزيرة أفروديس، المراحل تبلغ خمسمائة وأربعين». غير أنه لا يمكن ترجيح هذا الرأي لأن الدرجة الجغرافية الواحدة تساوي «700» مرحلة، ولما كانت هذه المسافة تساوي540 مرحلة فإن هذا الرأي يجعل جزيرة أفروديس التي ذكرها سيلاكس تتفق مع موقع محطة زيفيريوم.

(2) الكتاب الرابع ص 169.

(3) انظر كلمة أفروديس. يحدد بطليموس مكان جزيرة فينوس المسماة أيضاً لايا Laea على نفس خط الطول لمدينة أبولونيا. أما إتيان البيزنطي فيشير إلى وجود جزيرة قرب قرنه تسمى أفروديس وهي، دون شك، الجزيرة التي ذكرها بطليموس. هناك جزيرة أخرى على الساحل الليبي قد تكون تلك التي تطرق إلى ذكرها سيلاكس وهو المؤلف الوحيد الذي ذكر وجود جزيرتين بنفس الاسم في برقة. يميل المرء، وفقاً لحالات التكرار والتشابه في كتابة الأسماء، إلى اعتباره هاتين الجزيرتين واحدة.
* «قد يكون الخلط قد نجم عن معنى فينوس ومعنى أفروديس. في الحقيقة أن التسمية كلمتان لمعنى واحد فأفروديس هي فينوس وفينوس هي أفرودويس وهي ربة الجمال لدى الإغريق... المترجم».

(4) انظر بطليموس. الكتاب الرابع، القسم الرابع L. IV, C. IV.

جزيرة صخرية[1] بينما تقدم الهضاب المجاورة بساطاً من الخضرة والمراعي الزاهية والجداول الرقراقة؟ هل كانت هذه الفكرة يا ترى مخالفة للتقاليد المحلية التي سمت جداً بفضل الإغريق أم هل تكون فكرتي أكثر جودة وملاءمة؟

يمكن للمرء أن يشاهد، من فوق ربوة بيت تامر، أجمات وارفة من الأشجار عند قدم الربوة ثم ينطلق البصر بعيداً في الأفق على اتساع ذلك السهل الشاسع الذي يطل على البحر. هكذا يمكن لمعبد فينوس أن يقدم للعشاق من الفتيان ملاذاً لإطفاء لهيب الحب والشوق في السر تحت ظلال الأشجار، كما يقدم لهم صورة جميلة لاستمرار هذا الحب وفقاً لهذا الأفق اللامتناهي أمامهم.

بعد هذه الربوة، نحو الشرق، توجد أعداد غفيرة من أشجار حب الآس أو المرسين في منطقة شيقة، وهي أشجار سامقة لا تزال تكسوها الأوراق الخضراء رغم أن الزمن قد صدع جذوعها. لقد كانت تلك الأشجار البهية دون شك شاهداً على العديد من القرون بل وربما كان عمرها نفس عمر المعبد غير أن قدر كل منهما ورمزهما قد تغير، لقد تحطم المعبد ولم تبق منه سوى شظايا وأشلاء منثورة وضاعت رموزه العتيقة بينما ازدانت جذوع أشجار المرسين رغم الشقوق والتصدعات، برونق الشباب والخضرة.

إن شجرة المرسين هي شجرة الجمال بل ولقد ازدادت رونقاً وجمالاً في شيخوختها. هناك قرائن أخرى تزيد من ترجيح آرائي، وتثبت على الأقل، أن هذه، كانت أكثر المقاطعات ازدهاراً في إقليم المدن الخمس.

إن هذه المنطقة بارزة وبعد مسيرة ساعتين شاهدت ربوتين كل واحدة منهما مليئة بمقابر نحتت في الصخر بينما تناثرت على أرضها أطلال لقرى صغيرة في كل مكان. يمكن للمرء أن يلمح بعيداً في الأفق تلالاً مستديرة وكأنها عمائم صخرية مزركشة ببقع سوداء وهي تمثل قريتي «أزرق» Asrak وتادنت Tadenet بالإضافة إلى قرية القبة.

أما مناطق كفرام وزطره وكراعات فتملأ السهول بأنقاض مبانيها وتحتوي كل منها على

---

(1) لن يتم إقناعي أبداً أن بلاوت Plaute قد حدد في كتاب رودانس Le Rhudens موقع معبد فينوس على شاطئ قاحل. سوف أثبت فيما بعد أن هذه المسرحية لم تحترم المواقع. إن وضع هذا المعبد بالقرب من أبولونيا له ما يبرره إذا يمكن الإشارة إلى مدينة كبرى هي قرنة. يمكننا أن نقدم نفس الأسباب عندما حدد سترابو موقع معبد فينوس وسط بحيرة ترينونيس في برنيقة «بنغازي».

قصر صغير. أما في أقصى نقطة من هذه المساحة فيوجد أحد المعالم الأثرية التي تستحق الاهتمام. يوجد ثمانية من الأعمدة الرخامية الكاملة بتيجانها وقواعدها، وهي متشابهة، وتشكل رواقاً مسقوفاً بكتل صخرية، يستند إلى الهضبة، غير أن تلك الوضعية لا تبرر اسم «القبة» الذي يطلقه البدو على هذا المكان. تجدر الملاحظة بأن هذه البناية تتميز بسمات معمارية مصرية. توجد داخل ذلك الرواق فتحة نحتت في الصخر على مستوى الأرض يمكن الدخول إليها عن طريق مدرجات صخرية عندما يعتاد بصر الإنسان على الظلام بداخلها، يمكن أن يشاهد عندئذ كهفاً مقوساً تنمو على سقفه الطحالب وهو على شكل قبة، يجري تحتها نبع ماء رقراق. يدل خرير المياه على تدفعه في قناة أرضية. تمر المياه، في الواقع، تحت هذا النفق ثم تتدفق إلى خارجه لكي تنتشر بعيداً في الوادي، وتؤدي إلى خصوبة الأرض بصورة كبيرة لدرجة أنها دخلت ضمن أمثال البدو في برقة.

لم تكن تلك المياه كبريتية[1]. كما كنت أعتقد أول الأمر رغم أنها تحتوي على طعم الكبريت. تقوم تلك المياه بدبغ التربة التي ترويها باللون الأسود بينما نرى أن لون بقية التربة المحيطة بها في المنطقة المجاورة يميل إلى الأحمر القاني. ليس هناك أدنى شك، وفقاً للعلامات التي لا تزال موجودة، في أن هذا المكان كان يستخدم بمثابة حمامات في القدم.

توجد مصطبة أمام القبور وعليها آثار تدل على وجود أحواض مبطنة بالإسمنت، وأخرى منحوتة في الصخر ولكنها نحتت على مستوى يقل في ارتفاعه عن الأحواض الأولى، ونحتت بطريقة تمكنها من استقبال مياه الينبوع من الأحواض العليا عن طريق فتحة «عطفة» تفصل بينهما «انظر نفس اللوحة».

تدل أساسات الأسوار التي تحيط بهذه الآثار على أنها كانت موجودة قديماً داخل هذا الرواق بل وتكوِّن جزءاً لا يتجزأ من القبو. على كل حال، إن ما تبقَّى من هذه البناية يحمل دلائل الماضي العتيق، ويبدو أنها تعود إلى نفس العصر الذي شيد فيه معبد فينوس، بل وربما كانت هذه الحمامات تابعة لهذا المعبد. إن ما يرجح هذا الافتراض هو قرب تلك البناية من المعبد، ولذا كان هذا الاحتمال قد استهواني كثيراً، بل وسيطر على أفكاري بالكامل رويداً

---

(1) كان مقياس الحرارة المائي الذي بحوزتي يشير، عند منتصف النهار، إلى درجة تسعة فوق الصفر غير أن هذه الدرجة قد ارتفعت إلى إحدى عشرة درجة عند وضع المقياس في قلب العين. قد يكون هذا الارتفاع الملحوظ قد نجم عن ضيق المكان الذي وجد فيه طرف مقياس الحرارة.

رويداً وقدح مخيلتي وجرجرها نحو تلك العصور الغابرة التي كان فيها الفتيان من الإغريق يأتون إلى ذلك المكان من أجل ترطيب أغصانهم الحساسة من قيض الشمس في ليبيا.

هل كانت هناك غابة ظليلة تحيط به؟ لقد شرد ذهني، وكان سادراً في هذا الحلم الرائع وذلك بمساعدة الأوهام المغرية. لقد صورت لي أحلامي تلك الدروب الظليلة التي تحنو عليها أشجار المرسين «حب الآسي» وأشجار الشعرة الزكية، بينما تتجول فيها، ربات الغابات من ذوات الأجسام الرشيقة، وابتساماتها اللطيفة، وهي تتسكع في تلك المروج الخضراء الزاهية، وتتغنى بأناشيد لفينوس، وهي تدور في حلقات رقص ناعمة، ثم تدخل بعد ذلك إلى هذا الملاذ الغيبي لخلع ملابسها في هذا المكان الذي أوجد فيه الآن. إنني أرجو أن يستمر هذا الحلم طويلاً، غير أن الاستمرار فيه لمدة أطول مما ينبغي، يعني إضافة حكايات غريبة عن موضوع رحلتي الهام. دعونا نترك إذا تلك الأماكن المغرية.

لقد حان الوقت لذلك، ونتجه إلى مكان آخر، ولكن هل يا ترى لا تزال فينوس تمارس، وسط هذا الحطام، أي تأثير غيبي؟.

الفصل الثامن

شنديره ـ مولر ـ لملوده ـ الكربوقراطيون ـ قصور وسراديب

نمضي قدماً في إقليم المدن الخمس الليبية، على خط متعرج، وفقاً لما نجده أمامنا، على التخوم الشمالية لهضبة قورينة، أو وفقاً لدرجة التوغل في الدواخل. نمر تارة بوديان أو سهول، وتارة أخرى، بأشجار أو شجيرات.

لقد اتجهنا إلى هذه المنطقة بعد مغادرة مدينة المساخيط حيث تحولت الأرض إلى سهل منبسط مليء بأشجار البطوم Lentisques والشعرة، واكتست الأرض ثوباً قشيباً من الخضرة لدرجة أن الأشجار الأخرى الموجودة بين تلك الأشجار تبدو وكأنها غريبة. لقد سرنا لمدة ساعتين نحو الغرب، ثم وصلنا إلى قرية تسمى «دبك» وقصر آخر يدعى شنديرة الذي تمكننا حالته الجيدة من وصف تفاصيله وهو موقع عسكري حصين.

يدعم هذه البناية جدار مائل على هيئة كثيب مستدير الأركان وبه ثلاث فتحات على مستوى الأرض على جوانب ثلاثة منه، وهي فجوات مستديرة وضيقة لا تسمح بمرور أي شخص إلا إذا كان راكعاً. «انظرا اللوحة رقم 14». بعد دخولنا إلى البهو العام عثرنا على بهو آخر مفصول عن البهو الكبير بفضل ممر ضيق وتوجد على جوانبه أبواب مربعة بطول قامة الإنسان مع وجود منافذ خارجية.

يمكن للمرء أن يشاهد داخل هذا الحصن، رغم كثرة الأنقاض، أن مساحته قد قسمت إلى سبع غرف مقببة متصلة ببعضها البعض، وأن طابقاً ثانياً كان يرتفع فوق هذا الطابق الأرضي وهو أيضاً مقبب حسب ما تدل عليه الأشلاء المتناثرة، غير أن حالته لا تسمح بمعرفة فيما إذا كان الطابق قد قسم، هو الآخر، إلى عدد من الغرف.

تكشف هذه البناية على قدرة هندسية وتكتونية رائعة حيث يشاهد المرء، على أرضية الدور السفليّ، علاوة على الغرف المذكورة آنفاً، غرفة صغيرة أخرى على هيئة نصف دائرة تنتهي، هي الأخرى، بقبة مزدانة بعمودين «انظر اللوحة رقم 11 الشكل 4». يتكرر هذا التصميم المعماري، الذي يقترن دائماً بنفس التفاصيل، باستمرار في كافة المعالم الأثرية من نفس الطراز ونفس العهد.

يوجد هذا التصميم، علاوة على ذلك، في العديد من أطلال الهياكل والمعابد النصرانية في برقة، وكذلك في القصور العربية التي يرجع تأريخها إلى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى «انظر اللوحة رقم 99».

قام المسلمون، بعد سيطرتهم على هذه المنطقة، بتقليد هذا الطراز المعماري في بناء قصورهم، ومحاكاة جزء من الأشكال والتصاميم التي عثروا عليها في تلك الهياكل.

ليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة في ذلك اللهم تشابه المباني التي تمثل، بطبيعة الحال، نقاطاً عسكرية، مع أبنية صممت، بالطبع، لأغراض دينية، كمعابد. إن هذا الأمر وحده هو الذي يشكل وجه الغرابة، ولقد حرص فيلسوف إقليم المدن الخمس[1] على ذكر ذلك وعلى ذكر الأسباب.

لقد ذكرت، عند تقديم ملخص تأريخي عن قرنة، أن الليبيين كانوا يغيرون على حقول إقليم المدن الخمس التي فقدت مجدها القديم. ولما كان السكان «يقصد الإغريق. . . المترجم» غير قادرين على صد ودحر هذه الموجات البشرية المدمرة، فقد كانوا يلوذون فراراً إلى القصور التي تحولت إلى «مكان عام» كما ذكر سينوسيوس «حيث كانوا يحتفون بالغيب المقدس ويتضرعون ويصلون فيه عندما يعلمون باقتراب الهمج «يقصد الليبيين. . المترجم» من مقاطعتهم بغية تدميرها وتخريبها»[2].

تبدو لي تلك المعلومات القيمة كافية لتبرير وتفسير هذا التشابه الذي تمَّت ملاحظته بين أبنية ذات أغراض وغايات مختلفة جداً. لقد كانت الغرف الصغيرة المزدانة بالأعمدة التي

---

(1) الفيلسوف المقصود هنا هو سينوسيوس القوريني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد والذي ولد بقرنه وقطن بالحمامة قرب البيضاء. (انظر بحثنا حول العلاقات الليبية الإغريقية الموغلة في القدم.. المترجم).

(2) Synes, epist, 67-èdit, pet. p. 212.

شاهدناها داخل تلك القصور، تستخدم ككنائس يؤمها السكان المذعورون للتضرع «لله العالي» لكي يرسل إليهم نجدة، كان من الممكن، لو كانت لديهم بعض الحيوية والقدرة، أن يجدوها في أنفسهم.

تدل نفس الفقرة أيضاً عند سينو سيوس على أن سبب وجود هذا العدد الكبير من هذا الطراز من الأبنية، الذي سنشاهده كثيراً في إقليم المدن الخمس، هو التحصن ضد هجوم وإغارة الليبيين عليهم.

لن تساورنا أية دهشة إذا رأينا، بالقرب من أطلال أية قرية، أنقاضاً لقصر، كان السكان يستخدمونه كملجأ أو مصلى. أن قصر شنديره مثله في ذلك مثل قصر عين مارة، محاط بخندق نحتت في جوانبه العديد من الكهوف الجنائزية والمقابر. إن الأحواض الصغيرة التي لاحظت وجودها في «مارة» في حالة ممتازة وهي منحوتة تحت القبور مباشرة.

إن تلك القبور قد نحتت هي الأخرى في قلب الصخر الصلد على ارتفاع بسيط من الأرض. إن هذه الوضعية وهذا الإسمنت الذي الذي يميل لونه إلى الحمرة، يؤكد افتراض الأول ولا يترك لدي أي مجال لأي شك.

دعونا الآن نواصل المسير نحو الغرب. هناك آثار أخرى تسمى «مل الراش». لقد شدت الأطلال انتباهي نظراً لوجود نفس القصر الصغير والضروري بين الحطام المنثور بالقرب من قرية قديمة. لم أشاهد أي شيء آخر أكثر أهمية من ذلك. تتشابه تلك الآثار كثيراً مع بعضها البعض، بصورة عامة، لدرجة أنها لا تختلف إلا في الأسماء والمواقع. لذا يُلقي الرحالة نظرة سريعة على تلك الأطلال الحزينة ويواصل مسيره فور ذلك، لأنه يسارع إلى البحث عن مكان آخر أو عن زاد أهم يشبع به فضوله. سرعان ما تغيرت طبيعة الأرض أمامنا وهذا ما عوضني عن رتابة مشهد الآثار المذكورة وتكراره.

لقد تجلى أمامي ستار شاسع من أشجار الكرز البري «الشماري» بل وغطى السهل بأسره أمامنا. إن جمال الورق ولون الجذوع العنابية، ورونق المنظر العام لتلك الأشجار، يسر النظر حقاً. لقد كانت تلك الأشجار عراقيل لذيذة العبور غير إن الإبل[1] التي أسرعت الخطى بدأت أرجلها وأخفافها تغوص بين الأغصان والأراق ولا تتجاوز رؤوسها المزبدة

---

(1) لا تأكل الإبل أوراق شجرة الشماري.

سوى الشجيرات الصغيرة والأحراش. لقد اختفت جمالنا، بهذه الطريقة، بين الأشجار وبدأت تعطي انطباعاً لراكبها النبيل بأنه يسبح فوق بحر من الخضرة.

أمام هذا المشهد غير المتوقع، وعند سماع فرقعة الأوراق والأغصان الغضة تحت خف البعير، في تلك الغابة الشاهقة، التي كانت بالأمس هادئة، والتي كنا نعتقد أنها خالية من أي سكان، بدأت تصيح فجأة بصياح سكانها المذعورين الهاربين في كل اتجاه. كان هؤلاء السكان من الغزلان التي شردت نحو السهول، والأرانب البرية التي قفزت بسرعة البرق، وسُحُب من الحمام حولت لون الجو إلى اللون الأبيض، وأسراب من الحجل التي تسللت بتثاقل نحو الخارج ثم تعود مسرعة إلى الغابة بعد مرورنا لكي تجد فيها، من جديد، الأمن الذي تم تعكيره خلال برهة من الزمن.

لن يكتفي هواة الصيد أو الطرائد على وجه الخصوص بمجرد فحص هذه الأشياء الجميلة مثلي، بل سوف يحاولون الاستفادة منها لو وجدوامثلي في هذه الغابة. لقد كان الامبراطور آدريان Adrien من بين هؤلاء الهواة غير أنه مهما بلغت درجة حماسه لذلك، فإنني لا أعتقد، أسوة بديلا شيلا، بأنه كان سيصل برحلات صيده حتى إقليم برقه، وذلك وفقاً لما ذكره إليان Elien الذي أكد على أن ذلك الإمبراطور كان يمد نزهة صيده حتى ليبيا وذلك خلال إقامته بالإسكندرية. أقول ذلك لأن غزلان وأرانب إقليم مرمرة وحده كانت ستكفيه، دون شك، لإشباع هوايته دون أن يضطر إلى عبور منطقة تمتد نحو مائة وخمسين مرحلة وذلك من أجل مطاردة أسراب من الحجل والحمام في إقليم المدن الخمس. بعد أن تجاوزنا هذه الغابة الشاسعة من أشجار الكرز البري «الشماري» وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام آثار لمدينة تقع على أحد سفوح الهضبة. ولقد كنا، في تلك الساعة من النهار، نشاهد الشمس وراء الأفق، وترمي الأرض بضوء خافت وغير متكافىء حيث يمكن للمرء أن يرى الظلام هنا، وأن يرى بقية ضوء يحتضر هناك في الأفق البعيد. لا يملك المرء، في مثل هذه اللحظات، سوى التأمل. إن هذا الصراع بين النور والظلام يغوي العيون عن طريق أحاسيس روحية ويغير منظر الأشياء عن طريق تغيير أشكالها. تأتي تلك الأحاسيس والانطباعات، بصورة خاصة، عندما يزور الإنسان بلدة مجهولة كهذه كان التأريخ قد تركها في غياهب النسيان.

لعلَّ المرء يستسلم بسهولة للأوهام المضللة، وهنالك، نعتقد بمخيلتنا الساذجة بأننا نعيش لحظات سامقة وعجائب تليدة في ذلك المكان الذي لا توجد فيه، في الواقع، سوى أجزاء من جدران أو أحجار منثورة، يغطيها جنح الليل بلحافه القاتم. لقد كان ذلك هو

الاثر الذي أدت إليه في نفسي آثار لملودة للوهلة الأولى. ليس من شأن هذا التأثير، في الحقيقة، أن يقدم فكرة صادقة.

سوف أنتظر إذاً حتى يتنفس الصباح ويزيل سحر عسعسة الليل البهيم في تلك المنطقة. سوف أغتنم أيضاً هذه الفترة للعودة إلى موضوع رفيق دربي الذي كنت قد تركته مريضاً في درنة. لقد كان مولر، منذ أن تركت تلك المدينة، يبعث إليّ برسائل تؤكد أن صحته قد شهدت تحسناً، وأنه يرغب في اللحاق بي، غير أن تقلبات هذا الفصل، تجعل التجول في صحراء برقه أمراً عسيراً حيث كانت الأمطار منهمرة بصورة متواصلة، وكانت العواصف تتعاقب بشكل يومي تقريباً. لا يستطيع الإنسان السليم والمعافى جداً لا سيما ذلك الذي يحتقر المعاناة والألم أن يطيق ذلك إلا بشق الأنفس، وأن يتحمل تلك الجولات التي تكتنفها المغامرة، فكيف يمكن لشخص أنهكت قواه علة مزمنة أن يحتمل ذلك؟. كانت تلك هي المبررات التي أوضحتها لرفيقي مولر غير أن توسلاته قد اشتدت لدرجة أنه كان ينبغي عليّ أن أستجيب، ولذا التقينا معاً قبيل الوصول إلى لملودة.

سرعان ما تحقق، بعد ذلك، ما كنت أخشاه: إن رغبته في التعرف على الأماكن التي زرتها، وقد زاد من شغفه حكايات سكان درنه العجيبة، قد أدت برفيقي الشاب للاستماع أكثر إلى فضوله الحماسي ولم يأبه بالنصائح التي أسديت إليه بشأن الاهتمام بصحته. لقد عاوده المرض الذي ساعدت فترة الراحة في درنه على تلاشيه مرة أخرى وكانت أعراضه هذه المرة خطيرة... ولسوء الحظ، تغير الوضع السياسي في تلك المنطقة أيضاً حيث تم استدعاء الباي من قبل باشا طرابلس، وأصبحنا وحيدين في جبال برقه لا راعي لنا سوى الله. لم يكن بوسعي إذاً أن أفكر في إعادة مولر إلى درنة. لم تخطر ببالي إلا فكرة واحدة حتى لا أشاهده يموت أمام ناظري، وبين يدي. تمثلت هذه الفكرة في تغيير نظام عملية الاستكشاف. إذا كان هذا المكان أو ذاك مثلاً يحتوي على مغارة فسيحة، فإني أسوق إليه القافلة بأسرها، وأوقد النار فيها لطرد الرطوبة منها فتتحول، بعد ذلك، إلى ملاذ دافىء يدخله رفيقي لكي يتقي تقلبات الطقس ويسهل علينا عملية إعداد الطعام.

كنت أطيل الإقامة حتى أساعده على الشفاء، وهكذا تتحول المغارة إلى مقر أو مركز لإقامة القافلة ومنطلق أغادر منه أثناء نزهاتي وتجوالي في المنطقة، وأعود إليه في الظروف العصيبة. لقد كان هذا الترتيب ملائماً جداً للجبان الرعديد عبدالعزيز الذي لم يعد يشعر بالارتياح، وسط بدو برقه، منذ مغادرة الباي. رغم كراهيته العلنية للأماكن المعزولة فقد شعر بالأمان في تلك الكهوف المظلمة بسبب وجودنا معه بل وكان يقوم أحياناً بدور الخفير

أو الحارس عندما يكون ذلك في صالحه دائماً. إذا اقترب بعض الغلمان أو الحمقى من الكهف الذي نقيم به، فإنه ينهرهم بقوة وغلظة، ويمنعهم من الدخول.

أما إذا اقتربت كوكبة من الفرسان، أو فرق من الحجيج فإنه يغير لهجته، ويتكلم معهم بلهجة ورعة أو معسولة وفقاً للظروف.

كان مولر، رغم مرضه الشديد، يواجه صفاقة البدو وجشع العصابات. وهكذا نرى أن الشجاعة الحقيقية هي التي تنطوي على رباطة الجأش أو الفرائص... لم تكن مواقفه تتسم بالإيثار، ولم يتبجح بالسباب والشتائم، غير أن شجاعته مقروءة في عينيه وفي صمته.

لا يجدي أن يعتصر الألم جسده، لأن الشجاعة في الروح، ولا يمكن للألم أن يتغلب عليه، لأن روحه تمده بأسباب المقاومة، وهذا ما يثير إعجاب حتى تلك القبائل التي تشكل الشجاعة لديها فضيلة. وأكرر قولي، إن تلك الفضيلة تساعدنا على تحمل آلام الجسد المعنوية في الحياة، وتعزز أيام رفيق رحلتي بل وتطيل عمره. لقد أجبرته ضرورة معينة على امتشاق السلاح رغم ما يعانيه من وهن في الجسد ورغم ثقل السلاح، لقد كنت أطيل الغياب أحياناً فكان يضيف إلى معاناة المرض، لوعة القلق الذي تمليه عليه الصداقة.

لقد كانت تصله أحياناً بعض الحكايات المضللة أو المقصودة عني، وكانت تسبب له فزعاً، غير أنه كان ينتظر، بفارغ الصبر، الإشارة بعودتي. كنت أعود إليه أحياناً في ليالي عاصفة حيث يقوم أحد النوبيين الذي يرافقني، بإطلاق عدد معين من العيارات النارية، فيرد عليها من داخل الكهف حتى يتسنى لي تحديد النقطة التي اتجه إليها. إن الحوادث الطارئة والأخطار التي نتجشمها تجعل لقاءنا أكثر متعة وأحاديثنا أنشط وأكثر تشويقاً من ذي قبل. قد يجد مثل هذا الحديث عن المرض والمعاناة من ينتقده بين القراء. إن مثل ذلك قد يعرقل سير الرحلة ويشتت نتائجها دون أن يضيف إليها شيئاً.

لدي سبب قويّ في هذا الشأن. إنني سوف أعترف بخستي لو لم أشر إلى ذلك ولو أدت هذه الإشارة إلى شيء من التأخير. إنه اعتراف مني بحسن الصنيع، ودَين في ذمتي ألتزم بتأديته، ولقد فعلت ذلك إخلاصاً مني ولم يكن ذلك الدَين أهون الديون مطلقاً بالنسبة إليَّ بلا شك. إنني لم أطِلْ على القارىء في شيء وأعود الآن إلى الآثار بغية تأدية ديون أخرى[1].

(1) عندما تحدثت عن الدين لا يسعني أن أصمت عن أفضال السيد غينيه بشأن هذه الرحلة المكلفة. لقد=

لقد انقشعت أوهام ظلام الليل الدامس بعودة فلق الصبح، ولم تقدم لنا آثار لملودة أي جدير بالملاحظة أكثر من الاسم والموقع.

يذكرنا هذا الاسم، في الواقع، بمدينة ليميناد القديمة Limniade التي ذكرها أنطونان Antonin في رحلته[1]، وكذلك موقعها الذي يبعد تسع مراحل عن درنه، بأن كل شيء يتفق مع مسافة الأربعة والعشرين ميلاً التي حددتها تلك الرحلة بين دارنيس وليميناد، ومع الموقع الذي حدده دانفيل D'Anville لهذه البلدة[2].

يبدو، علاوة على ذلك، أن تلك الآثار تعود، من حيث شكلها، إلى العصر الروماني، ولكن أليس من الغريب ألا يذكرها أحد من قدامى الجغرافيين وخاصة بطليموس؟

يأتي ذكر هذه المدينة، لنفس السبب، بين المدن النصرانية في إقليم المدن الخمس الليبية تحت اسم ليماندوس Lemandus في الجغرافية المقدسة[3] أو ليمناندي Lemnadi عند القديس بولس[4]، وتحت اسم لامبونيا Lamponia عند سينوسيوس[5].

لعلَّ حدود إقليم مرمرة، طبقاً لما ورد في تلك الرحلة، التي تبدأ كما قلنا من «عقبة السلوم الكبرى» حتى دارنيس، قد امتدت، خلال العصر الزوماني، حتى ليمانيا أي لملودة[6]، رغم أن بلدة إزيريس كانت الحد الفاصل، في ذلك العهد، بين مصر وبرقه[7].

يدل هذا على شيء واحد هو أن تسمية الإقليم الذي يمتاز بالجفاف، قد امتدت تدريجياً واجتاحت إقليم المدن الخمس القديم واتسعت كلما أخذت عظمة هذا الإقليم سيّىء الحظ في التلاشي. دعونا الآن نتفحص تلك الآثار.

= ساعدتني خدماته على تنفيذ هذه الرحلة، ولذا سأقوم بواجب حقيقي إذا قدمت لهذا الميكانيكي الماهر والقدير آيات العرفان من جديد.

(1) edit. Wesseling, p. 68.

(2) Orb. Rom. pars Orientalis.

(3) Geo. Sacra, p. 283.

(4) Orient. Chris, t. II, p. 630.

(5) Epist. 67. edit. Pet. p. 215.

(6) يقال إن المدينة كانت قد اكتسبت هذه التسمية، أبان العهد الروماني، بسبب وجود اليهود فيها بكثرة بل تكاد تقتصر عليهم دون غيرهم ولذا أطلق عليها اسم «لمة يهودا» ثم صحفت التسمية بعد ذلك لتصبح لملودة.. المترجم.

(7) ut. Supra, p. 70.

تكون تلك الآثار، عن بعد، مسرحاً تشكلت مدرجاته بفضل المدرجات المختلفة للهضبة، وتكون أبواباً وأركاناً وأبنية، وأقواساً لاتزال قائمة، تغطي هذا المسرح من جميع جوانبه، وتكون مجموعة غريبة، ليس لكونها مدينة مدمرة، ولكن لأنها أي الأحجار قد وضعت معاً لإعادة بناء تلك المدينة.

بعد هذه النظرة العامة على الأطلال نجد أن أول ما يسترعي الانتباه، عند الاقتراب منها من الجانب الشمالي، هو وجود حوضين مربعين يبلغ طول الجانب الواحد فيها نحو عشرين متراً، وهما منحوتان في الصخر الصلد بعناية فائقة.

يوجد، فوق هذين الصهريجين مباشرة، صهريجان آخران فتت الزمن جوانبهما غير أنه لايزال بالإمكان تمييز معالمهما الأنيقة «انظر اللوحة رقم 25 شكل رقم 5». لقد حُفر هذان الحوضان بتلك الطريقة من أجل السماح للمياه بالانحدار، عن طريق الاستفادة من انحدار الهضبة الطبيعي نحو الحوضين السفليين[1]. لايزال هذان الحوضان الأخيران معبّئين بالماء الذي تعلوه أعشاب ونباتات مثل نبات Potamogéton الذي تتفرع أغصانه فوق الماء بينما توجد أقاحي الماء ذات الأوراق المستديرة ونبات يدعى Scripe ونبات القصب. لو كان يرافقني في هذه الرحلة عالم طبيعي لأسرع إلى التعرف على أسلاف مختلف أنواع الزواحف والحشرات التي تعيش في تلك الأحواض منذ قرون حيث قد يضفي أصلها القديم رونقاً على أشكالها الكريهة. ربما كان في مقدوره أيضاً أن يكتشف شيئاً جديداً. أما أنا، فقد أكتفيت برمي عدد من الحصى في تلك الأحواض فرأيت جيشاً من الضفادع السابحة في تلك الأحواض، كما رأيت حيواناً آخر يشبه الثعبان غير أن جسمه مفلطح. إنني أعترف، وهذا أمر مخزٍ بالنسبة لي، بأنني لم أحاول الإمساك به. وهكذا، دخلت في افتراضات مبهمة، بدلاً من تقديم ملاحظات إيجابية، بشأن تلك الأحواض وتخيلت العصور التي كانت الأساطير فيها تداعب مشاعر الناس بمخلوقات غريبة أو شاعرية تعيش في المياه أو الغابات.

قد تجد حتماً هذه المخيلة شيئاً من ذلك الأحواض الضخمة جداً بالنسبة لبلدة صغيرة كهذه. ألا يعقل إذاً أن تسكن الجنيات تلك الأحواض[2]؟ أو أن تمنح اسمها إلى تلك المدينة خاصة وأنه لا توجد أي بحيرة أو غدران بالجوار؟

---

(1) Mannert, Gèo des Grecs et des Rom, t. X Part II, p. 78.

(2) لقد لفتنا الانتباه من قبل عندما اجتزنا إقليم مرمرة إلى محاولة مماثلة لا شكل واضح لها وضعت بنفس الطريقة.

يوجد سرداب على بعد بضع خطوات من تلك الأحواض. ساعدنا هذا القبو أو النفق على التعرف على استخدامات أخرى كان يقوم بها سكان برقه. يمكن الدخول لذلك النفق عن طريق مدرجات صخرية حيث يعثر المرء بداخله على غرفتين جانبيتين. تحتوي إحداهما على كوة مستديرة في السقف كانت قد سدت بكتلة صخرية. تؤدي تلك الفتحة إلى أرضية غرفة صغيرة أخرى، تقع فوق الغرفة الأولى مباشرة وتؤدي إلى ممر طويل يمتد مسافات كبيرة تحت الهضبة، غير أن الحطام الذي يسد هذا الممر يمنعنا من معرفة طوله وحجمه «انظر اللوحة رقم 25 الشكل 4».

يتصل ذلك الممر الأرضي، وفقاً لما ذكره البدو، بقصر يمكن مشاهدته على قمة أعلى ربوة بين آثار المدينة. إن السرداب يتجه، في الواقع، نحو تلك الجهة، كما أن هناك وقائع مماثلة، سوف نشاهدها فيما بعد، ترجح مثل هذه الأقوال.

أما بالنسبة للقصر فهو أكبر وأكثر خراباً من قصر شنديره ويحتوي على نفس التفاصيل تماماً. يستند جدار البهو فيه على جدار دعامي مائل، ومدخله صغير ومقوس وتوجد به أقواس أخرى وبقايا حطام من قباب بالية متراكمة داخل البهو. أما المدافن والكهوف الجنائزية في لملوده فهي تقع خارج المدينة وفي شمالها على وجه التحديد.

تتميز تلك الكهوف عن مقابر المساخيط بتحدب سقفها وهذا خير دليل على كونها تعود إلى العصر الروماني ولا تشبه أبداً الطراز المصري، وهي خالية من أي نقوش أو زخارف معمارية، غير أن أحدها كان غريباً بالنسبة لي بسبب الرموز التي يحتويها وبفضل طريقة تصميمه. ينقسم هذا الكهف الفسيح إلى عدة غرف حيث يوجد في أقصى غرفة منها مصلى يحتوي على ثلاثة أعمدة ويحتوي على محرابين يوجد بينهما صليب منحوت بطريقة فجة محاط بخطين على جانبيه. كان هذان الخطان متعرجين بما يشبه الثعابين الملتفة على بعضها البعض. لقد استرعى مثل هذا المنظر اهتمامي عندما كنت، قبل ذلك، في مدينة المساخيط ولقد لفت الانتباه حينها إلى الثعابين التي اقترنت برمز النصرانية «يقصد الصليب. . . المترجم».

لقد ذهلت عندما رأيت الآن هذا الحيوان المقدس وهو في وضعية مختلفة. . أي على الوضعية التي كان يعبد فيها في القدم. لقد اختلطت تلك الفكرة الوثنية بديانة المسيح «عليه السلام. . . المترجم»، الأمر الذي حدا بي إلى تذكر طائفة دينية كانت تسمى بالكربوقراطية. كان أشياع هذه الطريقة، وفقاً لاستقراء التأريخ، يعيشون في إقليم برقه.

لقد اقتبست تلك الطائفة رموزاً كثيرة من أعياد أثينا النسائية[1] ومن شعائر عبادة الربة إيزيس، وهي رموز تصور لنا الثعبان وهو يجر عربة تارة، أو يعض ذنبه تارة أخرى. وهذه صور تجسد الخلود[2].

من المعروف أيضاً وطبقاً لما ذكره آباء الكنيسة والمؤرخون الشرقيون، أن أنصار الكربوقراطية، عن طريق مزج فظيع بين أشد تعاليم الإنجيل وزرادشت المجوسي التي لم يحسن تأويلها، وتعاليم فيثاغور[3] الإغريقي، والتطبيق الحرفي لمبادىء ماسداسيس، أحد أنبياء الكربوقراطية، قد قاموا بتحليل التمتع المشترك بالأملاك العامة والنساء.

إذا كان الاستخدام الأول يضفي شرفاً على فلسفة الكربوقراطية، فإن الاستخدام أو العرف الثاني يؤدي إلى تحقير أنصارها غير الجديرين بالحياة في مجتمع متدين إذا كانت القبائل البدائية المتوحشة مثل الناسامون والماساجيت والأسيان تمارس ذلك، وإذا كانت بعض المجتمعات التي تفوق هؤلاء نظاماً وتنظيماً، مثل الأنباط، قد مارست ذلك أيضاً، دون الشعور بالعار أو الإخلال بالآداب، فإن التأريخ، وقد لا يعقل هذا الأمر، يؤكد بأن النصارى أيضاً قد مارسوا مثل هذا الأمر علناً بين غيرهم من النصارى. قد يكون ذلك صدمة غير أنه محتمل. إذا قبلنا، وفق ما هو ثابت، وجود الكربوقراطية في برقه، فلا بد وأنها كانت، دون شك، طائفة مستقلة تعيش في مكان معزول يستخدم كستار لممارسة هذه العبادة غير المحتشمة. ما هذا الستار إذاً إن لم يكن سفح الجبل؟ وما هي تلك الملاجىء الآمنة إن لم تكن تلك الكهوف التي توجد في كل مكان في قلب جبال برقه؟ لقد لجأت إلى تلك الكهوف فلسفة أخلاقية وليدة الظلمات واحتفلت في عتمة تلك الكهوف بتلك الديانة الإباحية.

ربما كانت تماثيل آلهتهم تملأ تلك المحاريب التي توجد الآن خاوية، وربما كانت القناديل تضيء أحشاء الأرض التي تحمل بقية حياء الكربوقراطيين على إطفائها ساعة الانغماس في الشهوات، رغم أن عظام الأموات، في تلك الكهوف، تعتصر ألماً من آهات الشبق الجنسي.

---

(1) تعني كلمة ليمنياد كما يعرف الجميع «جنية البحيرات».

(2) (عبارة عن طقوس وشعائر كانت النساء في أثينا تحتفل بها وتحييها خلال الأعياد التي تقام على شرف الربة ديميتير وابنتها كورى. تتخلل تلك الأعياد طقوس دينية تنطوي على طلاسم ورموز محددة... المترجم).

(3) De Matter, Inscrip, In Cyrenaica, reperta.

كانت تلك هي الأفكار التي ساورتني وأنا أجوب كهوف لملودة. لقد ألهمتني الرسومات الغامضة، والتصاميم العجيبة الغريبة تلك الأفكار غير أنني لست بصدد تأكيد ذلك على أساس أنه حدث تأريخي. لقد كنت في هذا التشبيه وغيره أصور كل شيء بما في ذلك مشاعري الشخصية. ليس لهذه المشاعر، في مثل تلك الموضوعات، لهذه السراديب والأقبية التي توجد مداخلها في وسط القصر أو الحصن والتي يتم النزول إليها عن طريق مدرجات صخرية. يجد المرء نفسه بعد النزول إليها وسط غرفة كبيرة يدعمها عمودان نحتاً في الصخر الصلد في منتصف الغرفة. يرى المرء، في الجانب الخلفي لهذا الحوض، قناة حفرت على ارتفاع قامة الإنسان وتتجه إلى خارج المبنى، وقد تكون مخرجاً للطوارىء في حالة الحصار. أما على يسار تلك القاعة الكبيرة، فيمكن للمرء أن يشاهد غرفة مستطيلة صغيرة أخرى تتصل بالغرفة الكبيرة عن طريق ثلاث فتحات مقوسة منحوتة في الصخر وبها عمودان يصل ارتفاعهما إلى السقف.

توجد بين العمودين فتحة مخروطية الشكل، من الناحية المعمارية والهندسية، وهي مسدودة بصخرة كبيرة بنفس الشكل المخروطي مثلما شاهدنا ذلك في نفق لملودة. يوجد على جانب العمودين حوض كبير ومنخفض في ارتفاعه أي على مستوى سطح الأرض أو أعلى قليلاً بارتفاع أربعة أقدام توجد على حوافيه بروزات. يمكننا أن نتصور أنه كان يستخدم في تقليد محلي خاص بسكان القصر «انظر اللوحة رقم 25 الشكل رقم 5».

لا يبطن الإسمنت جوانب تلك الغرف وذلك لأن الإسمنت كان مخصصاً للصهاريج فقط. يوجد أحد هذه الصهاريج قرب الغرفة الأرضية أو القبور ولكنه لا يتصل بها من أي جانب آخر سوى عن طريق فتحة حفرت على وجه الأرض «انظر نفس اللوحة».

وهكذا نرى أن تلك القصور، سواء أكانت في قلب المناطق الآهلة بالسكان أو بعيداً عنها، كانت مجرد ملاجىء للسكان المذعورين أو كانت تستخدم كأخاديد وخنادق لصد الغزوات المعادية.

لقد بدأت تلك الأقبية والسراديب تؤكد افتراضاتي، وبدأت تقدم لنا تدريجياً دلائل دافعة على استخدامات أخرى. ولكن دعونا نواصل الآن جمع المعلومات التي، إن وضعت جنباً إلى جنب، قد تقدم لنا أية قيمة تذكر. إنني أقر وأعترف بذلك. لقد شيدت لملودة، كما قلنا آنفاً، على قمة هضبة صغيرة معزولة وسط سهل شاسع.

لقد كان هذا الموقع يعرض المدينة إلى غزوات شراذم الهمج، وكان السكان يسعون

إلى وضع عراقيل وحواجز أمامها، واغتنموا كل المناسبات المتاحة واستغلوا كل الفرص السانحة لإقامة قصور أخرى على الربى المجاورة، غير أن الربوات المختلفة مثل أم لحم، والحراش، وغلاب سوينو، ورفة، وبومناء تحمل فوق قممها قصور مماثلة[1]. لتلك التي قمت بوضعها قبل الآن، وكانت كلها تعود إلى العصر الروماني عدا قصر سينيو الذي يرجع تاريخه إلى عهد أحدث «انظر اللوحة رقم 15 الشكل رقم 1».

يوجد قرب هذه القصور وبداخلها أنفاق كثيرة. لقد رأيت في اثنين منها بعض تفاصيل جديدة سنحاول تعريف القارىء بها. لاحظنا أنه بسبب تحدب الأرض وبعدها عن الوديان التي ترويها العيون الجارية، قام القدامى ببذل جهود مضاعفة لضمان تغذية نقاطهم العسكرية بالمياه.

إن قصر رفه ليس كبيراً ولكن يقع مع ذلك على ربوة صخرية ويقدم دليلاً واضحاً على هذه الجهود. هناك قناة مغطاة على وجه الأرض، وهناك صفائح صخرية يبلغ طول الواحدة منها خمسة أقدام كانت تستخدم في سد وفتح هذه القناة بين القصر الحصين وأحواض بومناء التي تقع على بعد ربع مرحلة من الحصن. يقدم حوض بومناء الضخم جداً في أبعاده وضعيات مختلفة بيانات جديدة. قد يشعر الكثير من الناس بأنني دقيق جداً، وقد أُتهم بالإطالة والإطناب والاهتمام بأمور صبيانية تافهة، وقد يقال بأنني لم أترك شاردة أو واردة.

أقول، مع ذلك، للقارىء الكريم بأن حالات الأعياء والعناء التي لم أقصها عليك، والعديد من الوديان التي عبرتها، والأحجار التي وقفت عليها من أجلك، لم أتعرض إليها أبداً. عندما لا يكون لديَّ أي جديد أخبرك عنه فإنني أفضل الصمت.

وإذا كان النزر اليسير الذي أطلعتك عليه لا يكتسي أية أهمية كبيرة، فإن الخطأ، في ذلك، يرجع إلى أولئك الهمج[2] الذين دمروا هذه المنطقة الجميلة. لا بد من تفتيش أحشاء الأرض وتقليب صخورها المنثورة من أجل الحصول على بضع معلومات نجت من الدمار وقد تكون تلك البيانات والمعلومات بالنسبة لك شوارد وأموراً تافهة.

---

(1) Halo. 1824 Memoire sur les Gnostiues. Ibid.

(2) انظر الخارطة الطبوغرافية بمتن الكتاب بين منطقتي رأس نيكوس ودارنيس.

الفصل التاسع

المنطقة الشمالية لإقليم المدن الخمس

هياكل - أريثرون[1] نوستاثموس - غرطابولوس - السواني

لقد كنت وفياً لنظام رحلتي، فبعد أن زرت الشق الجنوبي للملودة، اتجهت بعد ذلك، نحو الشق الشمالي إن المعلومات التي جمعتها قد دفعتني هذه المرة، إلى التجول في تلك المنطقة الساحلية.

لقد شاهدنا، حتى الآن، في إقليم المدن الخمس لوحات فنية ولكننا لم نشاهد بعد صوراً عن العظمة. لقد رأينا أراضي خصبة ووديانا جارية بهية، وجداول رقراقة، وأجمات كبيرة وليست غابات.

أما تلك الشلالات الهادرة الساقطة على الصخور، وتلك الأشجار الكثيفة من الشعرة التي تتوج قمم الجبال وتلونها بلون غامق، وتلك الصخور التي تتخللها الكهوف المفتوحة التي تمكن المرء من رؤية بسط خضراء وملاجىء رائعة، وتلك الأخاديد والشقوق المخيفة التي تمزق أحشاء الأرض بل وتشطرها إلى نصفين ولأن كل نصف منها جدار متعرج ووعر، فإنها لاتزال مجهولة بالنسبة لنا ولم نصادفها قبل ذلك.

تلك هي اللوحة الخلابة، رغم ذلك، التي سوف نشاهدها في هذه المنطقة الشمالية التي نهم الآن بدخولها[2].

---

(1) Erythron هي قرية الأريثرون وتعنى باللغة الإغريقية القديمة «الأحمر» وسميت كذلك نتيجة للون التربة الأحمر القاني أما أريتريا فتعنى «الحمراء» وربما هي التي منحت البحر الأحمر اسمه الحالي. . . المترجم.

(2) لقد اتجه الرحالة أولاً فوق قمة الجبل واتبع ما يعرف «بالطريق الفوقية» حتى وصل إلى لملودة عن=

لقد عثرت على موقع ملائم جداً لراحة القافلة يتمثل في ممرات جبال لملوده. حالما تركنا تلك الآثار وبعد مسيرة ساعتين، بدأت الوديان تزداد عمقاً والمنحدرات تزداد وعورة وتعرجاً، وبدأت النباتات الكثيفة تظهر أمامنا بصورة أوضح وأقوى، ثم حلت الممرات الجبلية الضيقة محل الوديان وذلك حتى وصلنا إلى المكان الذي أرشدنا إليه البدو. لم تضللنا أقوالهم. لقد وصلنا إلى هضبة «الحوش» التي تطول بفضل ارتفاعها عن المرتفعات والروابي المجاورة لها. هذه الهضبة مفصولة عن السلسلة الجبلية بفضل تعرجات ومنحدرات متماثلة في تربتها. لقد كان ذلك الموقع سبباً في تقدير السكان القدامى لها حيث شيدوا حصناً منيعاً على قمتها وحفروا تحتها خندقاً ضخماً أطلق عليه البدو اسم «الحوش» أي المنزل[1] وذلك بفضل ضخامة أبعاده، وتماثل صنعته.

لا تحتوي تلك البناية على أية تقسيمات داخلية، أو أية تشعبات رطبة ومظلة التي تميز، في نظر الأوروبي، الكهوف القديمة ولكنها تبعد البدو عن الحصن بفضل ما تحدثه من تأثير على مخيلتهم الرعديدة.

تتكوّن تلك البناية من قاعة مربعة يوجد على قاعها محرابان وتزدان بعدد من الأعمدة «ثلاثة». لم يعد قائماً منها سوى القواعد، غير أن الطبيعة قد أصلحت صروف الزمن حيث حلت صفوف أشجار «الشعرة» محل الأعمدة المنهارة وشكلت بفضل أوجها الهرمي الشكل وجذوعها البرونزية سرادقاً مهيباً وبديعاً. لقد حطت قافلتنا رحالها في هذا المكان الخلاب. لم يصادفنا قبل ذلك أي مكان، إلا فيما ندر، يقدم لنا مقراً محمياً كهذا. لقد شعرنا جميعاً بذلك لا سيما وأن العواصف قد تجددت بعنف أشد بينما كنت أتجول في المناطق المجاورة. يتحول البعير، في المناطق الشرقية الشمالية لإقليم المدن الخمس، مطية غير مناسبة بل وخطيرة. إن هذا الحيوان الماهر جداً في السهول المنبسطة قد خلق من

= طريق القبة وبيت ثامر ولكن رجع بعد ذلك حتى كاد أن يصل درنه وعاود مسيره، حسب خطته، بمحاذاة الساحل وبدأ الرحلة بقرية الأريثرون الساحرة... المترجم.

(1) فسر غوليوس Golius هذه الكلمة بشكل مختلف حيث قال هذا المؤلف بأنها تعني «الأرض البوار» أو «مغارات الجان» انظر إلى معجمه تحت لفظ «حوش». لا يستعمل، مع ذلك، سكان برقة أو إقليم المدن الخمس حالياً هذا الاسم في هذا المعنى أبداً. إن البدو يطلقون هذه التسمية كذلك على خيامهم أحياناً. قد تكون التسمية أصلاً هي «الغوش» وليست «الحوش» أو ربما صحفت بعد ذلك لأن كلمة «غوش» باللهجة البدوية الشرقية تعني «سرادق» فيقال «غوش بطوم» عندما تتجمع أشجار البطوم لتكون سرادقاً يقي البدو من ويلات البرد القارس... المترجم.

أجلها فقط. يمكن للمرء، إذا شاهده وهو يسير، شامخاً برأسه إلى الأعلى، وأنفه في قلب الريح، وجسمه يتحرك بإيقاع فني، وأرجله تتهادى بانتظام، أن يشبهه فعلاً بسفينة قامت الرياح الطيبة بنفخ أشرعتها. عندما تزداد قوة الرياح فإن الجمل يمخر عبابها وكأنه فوق لجة مزبدة وعلى الربان الحاذق أن يبدأ في إنزال الأشرعة حالما يلمح الميناء حيث يكفي الدفعة الأولى لإيصال السفينة سالمة إليه. هذا هو المهري، بطيء في حركته الأولى وينشط دون شعور من الراكب ثم يضع رقبته التي كانت في عنان السماء، بالقرب من الأرض وكأنه يرغب في ملامستها، ويتطاير الغبار حول جنبيه الساخنين. يتابع المهري طريقه في خط مستقيم، فإذا أراد المرء إيقافه، وهو في عنفوان اندفاعه، فما عليه إلا أن يخفف من هذا الاندفاع تدريجياً ولفترة طويلة حتى يتمكن من إيقافه تماماً.

عليه، يستطيع المرء أن يدرك أن البعير الذي يتحلى بتلك الصفات، لم يخلق للمناطق الجبلية الوعرة لأن أرجله الطويلة وضخامة جسمه، تجعله غير ملائم لتسلق الجبال أو النزول من المرتفعات أو تجاوز الوديان أو عبور السيول المتدفقة.

ولهذا السبب، لم يعر سكان برقة اهتماماً كبيراً بهذا الحيوان الذي لا يمكن تقديره بثمن في الجزيرة العربية أو السهول الإفريقية الشاسعة.

لا يعتز سكان برقة إلا بالجياد وهم، دون شك، على حق، لأن الجياد في برقة، رغم أنها مشوهة، أي من جنس قديم جداً كان قد تغنى به بندار، قد اكتسبت، بفضل فائدتها، ما خسرته في مظهرها ورشاقتها.

يستطيع البدوي في برقة وهو على صهوة جواده أن يتجول في كافة أنحائها فيزور أكثر مناطقها وعورة، ويسير بمحاذاة أعمق الحوالق الشاهقة، دون أي شعور بالخوف، لا يقود الفارس جواده بل يترك له اللجام على الرقبة فيقوم الجواد نفسه بشق طريقه.

إذا كان الممر عمودياً وعراً، وكانت الأمطار غزيرة لدرجة أنها تجعل الصخور زلقة، فإن هذا الحيوان الحاذق يشق طريقه، يتسلق ويثب ولكنه لا يخر أبداً. ليس هذا الكتاب مكاناً للحديث عن الخيل غير أنني تحدثت عنها رغم أنفي وربما كانت قلة خبرتي هي السبب في ذلك. إن جهلي هو الذي جعلني أسير بنفس الجمال التي اجتزت عليها الفيافي والقفار في مرتفعات برقة. لن أتحدث بعد ذلك، عن المودة التي أشعر بها تجاه هذا الرفيق القديم. إن هذا هو السبب الذي قد لا يستسيغه أغلب القراء والذي كان وراء هذه الجملة الاعتراضية، أو وراء هذا الخروج غير المفيد عن لب الموضوع. غير أن هذه الجملة

الاعتراضية أكثر فائدة بالنسبة لي لأنه كان عليَّ منذ البداية، أن استبدل جمالي بجياد. لقد استخدمت الجواد خلال كافة جولاتي في إقليم المدن الخمس حيث أستعير الجياد من القبيلة التي أحط بين ظهرانيها أو أقيم في جوارها وكان صاحب الجواد يرافقني ويرشدني أحياناً. لقد كان الوضع كذلك عندما تركت القافلة وتوجهت إلى خليج «رأس الهلال» لما كانت رغبتي في التعرف على شتى المناطق في هذا الساحل أقوى من رغبتي في اجتياز تلك المنطقة الحبلى بالمرتفعات الوعرة، فقد تراجعت نحو الشرق من جديد.

لقد زاد هذا الاتجاه من غبطتي، للأسباب المذكورة، نظراً لتباين المواقع التي أراها في كل خطوة أخطوها. لقد كنت أمر بالقرب من سفوح جبلية غير متساوية وتعلوها الأشجار خاصة على المدرجات الشاهقة التي تطل على الساحل في إقليم المدن الخمس.

لم أعد أرى هنا أي سهول شاسعة أو وديان بسيطة الشُعَبِ والتعرجات بل وجدت نفسي في أعماق وادٍ سحيق أو على قمة هضبة شاهقة، أو داخل مسالك مزدانة بشجيرات أنيقة أو أقطع غابات كثيفة. إنني أحب، علاوة على إضافة غرابة ذوقي إلى نزق الطبيعة، أن أجتاز كل العراقيل، وأن أصل إلى كافة الأماكن الوعرة. إن مجرد كون هذا أو ذاك المكان وعراً ويصعب بلوغه، يستقطب انتباهي ويسترعي فضولي، ولذا فإنني قد أمردون مبالاة أو اهتمام أما آلاف الكهوف والجحورالتي كنت أستطيع الدخول إليها بكل يسر غير أن خيالي يقدح بسرعة بمجرد رؤية أخاديد مظلمة على أية قمة جبلية وعرة أو شديدة الانحدار لا سيما إذا اتسمت بدلائل الماضي العتيق، فيتحول هذا المكان بالذات إلى أهم الأماكن في نظري.

لا يشكل أي شلال منحدر بقوة أو أي سيل مندفع بعنف عند قدم هذا المرتفع أو ذاك أي عقبة أمام خيل برقة الماهرة التي تجتاز مثل هذه العراقيل بكل سهولة ويسر. أقوم بعد ذلك بتسلق الجبال الصخرية لمشاهدة أجمات من أشجار البطوم وحيث تساعدني جذوع أشجار العرعر المليئة بالعقد على التسلق حتى أبلغ المغارة التي أنشدها. إن منظر هذه الطبيعة الساحرة يعوضني، إن لم أجد ضالتي في تلك المغارة عن التعب الذي تجشمته في بلوغها وتعتبر تلك الأحاسيس الرائعة التي أشعر بها عند تأمل الطبيعة الغناء أفضل، في نظري، من أي كشوف فنية أو تساويها على الأقل.

لقد أخطأت عدة مرات بهذا الشكل وذلك أثناء تحوالي في تلك المتاهة من الأودية المتعرجة والكهوف الضخمة حيث لم أجد غالباً، بعد تحمل مشاق جمة، سوى آثار الزمان وعوامل التعرية بدلاً من آثار الإنسان، وحيث كانت الأطلال التي لمحتها عن بُعد عبارة عن

صخور مقلوبة أو كهوف تمتد إلى ما لا نهاية تحت الجبال الشم. كانت النسور والطيور الجارحة تندفع مذعورة عند اقترابي من تلك الأمكنة.

لقد رأيت ذات مرة فتحة محفورة، بصورة معزولة، في قلب الصخر الصلد حيث كانت النباتات المتسلقة Lierre تبطن أعماقها وتتخللها نباتات القرنفل ذات الأزاهير الذهبية وكذلك نبات Lystes بأزهاره الوردية وأزاهير نبات Eorymbes المستديرة بلونها الأبيض الناصع. إن هذه النباتات الزهرية تنمو معاً في قلب تلك الفجوة الصخرية العميقة، وكأنها أزاهير وضعت في مزهرية، ويمكنني أن أقول بأنها نسقت بطريقة فنية بغية تزيين تلك الصخور الجرداء إذا كان يمكن للفن أن يقلد أو يحاكي روعة الطبيعة.

إذا كانت تلك النزهات شيقة في حد ذاتها، فقد كانت أيضاً وفي بعض الأحيان، مثمرة بالنسبة لمعرفة التقاليد والأعراف القديمة، فقد كنت، تارة، أعثر على قبور ومدافن منثورة هنا وهناك على سفوح الجبال وضفاف الوديان. إن مثل تلك الملاجىء الآمنة التي تضم بين طياتها رفاة شخص واحد أحياناً تظهر وكأنها معلقة فوق شلال هادر أو مستورة بلحاف من أشجار السرو البري «الشعرة». تؤدي تلك المناطق التي تحظى بإعجاب السكان القدامى دون شك، إلى الشعور بتأثيرها الكئيب أو الأخلاقي فهي تمثل الراحة بعد مشقة الحياة أو برودة الموت وجموده الحزين حيث لم يعد بوسع حفيف الأشجار في الغابة أو فرقعة أغصانها، أو هزات الرياح العاتية أن تحرك تلك الأجساد الساكنة.

أجد نفسي أحياناً أمام هياكل صغيرة تختلف في وضعيتها، ولكنها تتسم دائماً بكونها محفورة في الجبال ولا توجد بالقرب منها أية آثار تدل على مساكن عتيقة. لقد رأيت منها ما تم تشييده على مدرجات خضراء يمكن الوصول إليها من أية جهة وتتعرض باستمرار لأشعة الشمس التي تجعل ألوانها متباينة مع الطبيعة الغناء وبفضل ألوانها الفاتحة. لقد شاهدت منها أيضاً ما تم بناؤه في مواقع نائية وفي قيعان الوديان السحيقة ولا يزينها أي شيء سوى التصدعات والشقوق والأحجار المتراكمة والنباتات الزاحفة والشجيرات والضريع والنباتات الشوكية. لم أر أي منها مزخرفاً بفضل فن الإنسان فليس ثمة أعمدة أو بروزات أو أية تفاصيل معمارية أنيقة. إن هذه الآنية مجرد قاعات مربعة صغيرة، تتباين في أحجامها ويتم النفاذ إليها بفضل درجتين أو ثلاث من الصخر. أما من الداخل، فتوجد بها مقاعد صخرية تحيط بمصطبة مربعة «مكان القرابين» نحتت فوقها كوة لوضع تمثال الرب الذي كان يسيطر على تلك المنطقة. إن بساطة مصطبة القرابين الرفيعة تناسب تماماً مواقع تلك المعابد حيث

تشكل مناظر الطبيعة الغناء الزخرف الوحيدة لها وكان من الممكن أن يؤدي فن الإنسان إلى تشويهه بدلاً من إضفاء آيات الجمال والسحر عليها. لا تقدر الزينة أو تثير الإعجاب إلا في المدن لأنها مكان ومهد انتشارها وانتصارها، ولكن إذا عزلت وسط الطبيعة الغناء بلوحاتها الخلابة، فإن الزخرف يقضي على الانسجام مع الطبيعة. يبدو لي أن هذا الحس الرفيع في الأعراف المحلية مألوف لدى سكان إقليم المدن الخمسة، لأن وضعهم لهياكل القرابين الريفية في أماكن معزولة، واختيارهم لمواقع ملائمة لغايتها يرمي إلى لفت الانتباه إلى رمز محدد يتمثل في أثر المشاهد الطبيعية.

إن هذا الأثر الذي لا يوصف، وذلك الانسجام السعيد بين الألوان والمظاهر والظلال والأضواء، تحرك شغاف الروح أكثر من أية طقوس صامتة في بناية يتسم مظهرها الخارجي بمعمار فاخر وهندسة مغرورة.

أما الآن، بعد هجران تلك الهياكل والمعابد القديمة، لم يعد فيها مصاطب قرابين سوى كتل حجرية متآكلة في قلب الصخور التي تحمي تلك الهياكل، والتي قد توجد الآن مطمورة في الحقول المحيطة، وتحتفظ بزينتها الأولى، بل وربما تقدم لنا، وفقاً لمظهرها الحالي، فكرة عن غايتها الغابرة.

وإلا كيف يتم صنع حفر في بعض هذه الكهوف الدينية في مواقع رائعة وسط المراعي الزاهية. وبسط من الخضرة، وقرب دروب مزهرة، وبعضها الآخر في قلب الصخور الوعرة المليئة بالأخاديد القاتمة وفي مواجهة العواصف الهوجاء، دون اختيار معين أو قصد مدروس؟ هل كانت لهذه المواقع المختلفة غاية واحدة؟ هل كانت ستلهم نفس الأفكار؟ هل كان الشباب من الإغريق يتسلقون تلك الجبال الوعرة لوضع قرابينهم في تلك الكهوف القاتمة، ويبتهلون إلى فينوس أم إلى ربات الغابة؟ هل كان الرعاة المذعورون من دويّ العواصف المرعدة يلوذون بها بغية التضرع للآلهة لكي ترفع سخطها عن هذا الوادي الهادىء الوديع الذي لا تنمو فيه سوى أشجار حب الآس ـ المرسين ـ وأشجار Cytises وحيث يدل كل شيء فيه على الأمن والسكينة.

يكفي فقط أن نشير إلى تلك التناقضات لكي نؤكد عدم ملاءمة ذلك، وترجيح افتراضاتي. ومع ذلك، نظراً لأن الافتراضات والاحتمالات لا تشكل الهدف الخاص برواية رحلتي، فإنني أترك وبأسف شديد، تلك المناطق التي أوحت إليَّ بهذه الافتراضات وأتحدث عن أمور أكثر يقيناً فيها.

لم أعثر خلال تلك الجولات غير المنتظمة، في أكثر الأحيان، والتي أبدأها دائماً بالتراجع إلى الوراء قليلاً، على أية آثار لأية قرية ذات أهمية تذكر. إذا كانت وعورة الأرض في هذه المقاطعة تجعلها، مع ذلك غير ملائمة لإقامة المدن، فإنها تشكل أخاديد طبيعية للدفاع عن المنطقة. وقد عرف السكان القدامى أهمية تلك المواقع الطبيعية.

يوجد هنا قصران كبيران هما «المشيدي» و «لميز» بينهما مسيرة ساعة من الزمن، ويقعان على طرف مدرج وعر بمحاذاة سفح هذا الجزء من الجبل. يصل طول الجدار فيها، من كل جانب، إلى نحو أربعين متراً وهما مشيدان على قواعد ضخمة على الأرض مباشرة. يتكون كل منها من طابقين، ويحتويان على أقواس داخلية مختلفة التصميم ولا توجد بهما الغرفة المستديرة الصغيرة التي تحتوي على عمودين. . . أي علامة العهد النصراني والتي عرفنا الآن فائدتها وطريقة استخدامها.

لقد تم تشييد هذين القصرين قبالة البحر ويبدو أن الغرض منهما هو بالتأكيد، الإنذار، في أي عصر من العصور، عن أي غزو بحري أو حرب، مثل تلك القصورالحصنية المقامة على قمم الجبال الداخلية لصد الغزوات الجنوبية.

شاهدت أيضاً الكثير من الأبراج والقرى الأخرى ومنها «قصر يادم» وقصر «تغيغ» وقصر «اغطاس» وقصر «تبلبح» غير أن أيًا من هذه القصور لا يحوي أي شيء جدير بالذكر، عدا القصر الأخير الذي لا يبعد عن قصر «الحوش» إلا مسافة قصيرة. يمكن للمرء أن يشاهده فوق قمة هضبة معزولة وهو مكون من عدة مدافن وقبور من الحجر الجيري التي نحتت على جانبي الطريق اللولبي الذي لايزال يحمل أثر عجلات العربات الإغريقية أو الرومانية التي كانت تحمل، دون شك الكتل الصخرية الضخمة.

يطل برج تبلبح على تلك المنطقة، ولا يزال جزء من جداره الذي يزدان بزخارف ونقوش، قائمة. تدل، تلك السمة التي لم نصادفها في أية بناية مماثلة، على أنه لم يكن خالياً من الأناقة. يوجد، علاوة على ذلك، نَفَقٌ صُنع بأسلوب جديد بالنسبة لنا. عند قدم الربوة التي بُني عليها ذلك البرج.

نرى صفين من الأعمدة الرفيعة يرتفعان من قلب ينبوع ماء وتنتهي في أعلاها إلى أقواس وقباب، وتمتد على مسافة كبيرة في الجبل. إن عذوبة الماء وصفاءه تغري أي رحالة بالدخول إلى ذلك المكان رغم الظلام الدامس في قلب البناية، يتم الدخول إلى الماء أولاً ثم يسير حتى يبلغ مستوى الماء حزام الإنسان ثم يصبح الماء عميقاً جداً عند الاقتراب من

مدخل البناية ولكن المرء يشاهد كوة أسطوانية نحتت عن طريق الإزميل في سقف البناية تتفق تماماً مع قاعدة البرج الذي يوجد على ارتفاع نحو مائة قدم فوق هذا الينبوع.

يكفي هذا الاكتشاف وحده أي مراقب. إن الفتحة الموجودة بالنفق تعكس الأعمال الكبرى التي قام بها القدامى من أجل ضمان الاتصال بين نقاطهم الحصينة كما تمثل أيضاً التحوطات التي اتخذوها من أجل ضمان حرية جريان الماء. إذا كانت هذه العناية وتلك الأعمال قد نجمت عن عصور مختلفة. فلعلّه من المجدي والمفيد أن ننتظر نتائج ملاحظاتنا اللاحقة.

لقد وصلنا الآن إلى المرتفعات الشاسعة التي تشكل قواعد هضبة قورينه الكبرى حيث لم أشاهد في برقة أية مرتفعات أخرى أكثر منها انحداراً ووعورة. على المرء الآن أن يثق ثقة عمياء في جياد برقة لكي يتجول، دون شعور بالخوف، في تلك الدروب الصخرية الضيقة التي تطوق وتحيط بقمم حادة الارتفاع توجد تحتها أجراف وحوالق شاهقة تغطي سفوحها نباتات زاهية مختلفة مثل شاي درنه «التفاح»[1] وإكليل الجبل وشجيرات من Cysles و Serpolet وكميات هائلة من النباتات العطرية النامية بشكل غير منتظم ولكنه ممتع، في قلب غابة من الأشجار والشجيرات المعروفة في شمال إقليم المدن الخمس وغيرها من الأشجار التي لم أشاهد مثلها إلا هنا مثل أشجار الصنوبر الأبيض وأشجار السرو البري «الشعره» دائمة الخضرة. إذا كان من العسير التجول في تلك القمم، فإن النزول إلى تلك الحوالق أصعب ولكن عندما نزلنا في النهاية إلى قدم المرتفعات وجدنا شريطاً أرضياً يفصل بين تلك الجبال والبحر وعبرنا على أطلال قرية كانت تدعي النطرون Natraun.

إن البدو، مثلهم في ذلك مثل الأطفال، لا يمكنهم تصور الأشياء في مظهرها الحقيقي بل يخلطون بينها في الغالب ويضخمونها ويرون آلاف الأشكال فيها وفقاً لنزواتهم وذلك في أبسط حوادث الطبيعة. من هنا جاءت أقوالهم التي تتسم بالمبالغة والحكايات الزائفة التي يروونها للرحالة.

مع ذلك، نرى أنه من المفيد دائماً، ولنفس الأسباب التي ذكرتها، والتي تدعونا إلى عدم تصديق أي أنباء من مجرد سماع أقوالهم، أن يتم التحقق من تأكيداتهم ومزاعمهم. لقد

---

(1) نبات عطري بري درج سكان درنه على وضعه في الشاي لإضافة نكهة إليه ولذا سمي بشاي درنه ويطلق عليه البدو اسم «تفاح الجبل».... المترجم.

قام البدو، وفقاً لمخيلتهم الشاطحة، بوصف قرية النطرون على أساس أنها مدينة شيدت في البحر ولذا أطلقت هذه التسمية على أطلالها. كان سبب تلك التسمية بسيطاً جداً كما توقعت. لقد تم بناء تلك القرية على طبقة أرضية غير سميكة يتراوح سمكها بين اثني عشر وخمسة عشر قدماً توجد فوق طبقة صخرية هشة تارة، وتكثر بها التصدعات والشقوق تارة أخرى، ولذا لم تصمد مثل هذه الجهود الهزيلة أمام الموج. لقد أدت أمواج البحر إلى عدة انهيارات أرضية من عدة جوانب حتى شملت تلك الانهيارات الكبيرة آثار القرية نفسها. وجعلت أجزاء منها تخر في البحر، وقسمت ما تبقى إلى جزر صغيرة. ساهم الموج أيضاً في تكويت لسان أرضي بارز في الجزء المتبقي الذي لا يزال لاصقاً باليابسة، غير أن السفوح الرخوة لهذا الجزء المتبقي، تتعرض لكر أمواج البحر باستمرار بل وقد صارت فريسة لهذه الأمواج.

يغطي حطام كثير متراكم فوق بعضه البعض بصورة غير منتظمة، تلك الرأس الأرضية، ويتكون ذلك الحطام من أجزاء من جدران، وأقواس منفصلة كانت تدعم قباباً سابقة كما تبرز هنا وهناك بقايا أركان مختلفة تقوم بشق قشرة الأرض التي أدت أمواج البحر إلى انهيارها من جميع الجهات.

إن تلك الأنقاض تكون مع بعضها البعض مجموعة غريبة من الأشياء، وقد يكون ذلك هو السبب في حكايات البدو العجيبة. كانت هذه الأشياء هي آثار المدينة غير أن المناطق المجاورة لها رغم خلوها من أبنية ملحوظة، قد احتوت على أشياء أكثر أهمية.

إن الوديان التي تحاذي شاطىء البحر حبلى بالكهوف الصغيرة التي تخلو من أية زخارف أو نقوش ولكنها نحتت في مواقع شيقة. يوجد درب لايزال يحمل أثر عجلات العربات القديمة وقناة مائية تسير بمحاذاته، وهما يتعرجان معاً حول الجبل. لم تنضب المياه الجارية في تلك القناة بعد ولكنها انحرفت عن مجراها بسبب هجران السكان لتلك المنطقة. يمكن للمرء أن يشاهد المياه وهي تسقط في شكل شلال تندفع مياهه من أعلى المرتفعات إلى قاع الوادي المجاور.

تتدفق تلك المياه متعرجة في ذلك الوادي في كل فصول السنة ثم تتشعب بعد ذلك إلى عدة جداول وسط مروج كثيفة العشب. لقد كان هذا الوادي موطناً لعائلة بدوية منذ أقدم العصور تسمى «عيت بوشفه أو بوشعفه» ولذا عرف ذلك الوادي باسم وادي بوشفه أو بوشعفه.

إن السحر البري لهذه المنطقة، وغزارة مياهها العذبة، من الأسباب الرئيسية في نضارتها المستمرة مما جذب إليها انتباه السكان القدامى في قورينه حيث وجدت بها كروم عتيقة وجذوع لأشجار البرقوق والرمان. إن بقايا المزروعات القديمة في وادي بوشعفة تدل على أن ذلك الوادي كان آهلاً بالسكان في كل عصر وأوان. يحتمل أن يكون السكان قد قطنوا هذا الوادي حتى قبل تشييد مدينة النطرون التي شاهدنا أطلالها. إن الاستقراءات التأريخية التالية هي التي تحملنا على الاعتقاد بذلك.

قد تكون هذه المدينة هي تلك المدينة القديمة التي تسمى أريثرون Erythron التي حددت الرحلة المجهولة موقعها على بعد ست وسبعين مرحلة Stades من مدينة زيفيريوم[1]. قد تكون هذه المسافة قصيرة قليلاً، غير أنها أضيفت إلى التشابه في الاسم وإلى قرب مدينة نطرون من رأس إيريثرا Erythra[2] الذي يتقدم نحو الشرق قليلاً. إن كل ذلك لا يترك أمامنا أي مجال للشك حول هذه المسألة. دعنا نقول أيضاً، لمصلحة هذا الرأي، إن أريثرون، لم تكن في عهد بطليموس سوى مكانٍ بسيطٍ على الساحل القوريني[3]، بينما تمت الإشارة إليه كمدينة من قبل المؤلفين اللاحقين لقد تحدث عنها، بتلك الصفة، كل من إتيان البيزنطي[4]، وكتاب الجغرافية المقدسة[5].

أما سينوسيوس القوريني فقد ذكر، علاوة على ما تقدم، أن ايريثرا كانت، كما رأينا، حاضرة لبلدتي هيدراكس وباليبيسكا. ينبغي أيضاً أن نضيف أن هذا الفيلسوف النصراني الذي شكلت كتاباته منجماً نفيساً من المعلومات حول إقليم المدن الخمس الليبية، قد حرص على مدح فضائل النبع الذي ذكرته آنفاً فقال: «إن صفاء مياهه وطعمها الألذ من الحليب قد جعلها مرغوبة في عصره لدرجة أنه قد قام، خلال أحد أسفاره، بالرسو خصيصاً على شاطىء إيريثرا لتغذية سفينته بتلك المياه»[6]. إن المسافات التي ذكرتها الرحلة

---

(1) Iriarte. Bibi, Matrit, V.L. P. 486.

(2) ويذكر أيضاً رأساً أرضية باسم أريثرا في ليبيا ArtiMedore, Geog. I. VII.

(3) Ptolémée. L. IV, C. 4.

(4) Voce. Erythra.

(5) Géog. Sacra. p. 284.

(6) لقد قرأت في الرسالة «SI» أن خليج اريثرا بدلاً من مضيق البحر الأحمر كما ذهب إلى ذلك الأب بيتو Pétau، أن سينوسيوس قد غادر ميناء فيكوس في البحر ووصل إلى إيريثرا في مساء نفس اليوم، وهذا أمر مرجح جداً. غير أن ما لا يمكن القبول به أبداً هو أن يجعله الأب بيتو يصل في مساء ذات اليوم إلى مضيق البحر الأحمر. إن هذا خطأ جسيم لا يمكن تبريره.

المجهولة، ومؤلفات بطليموس تتفق تماماً من حيث تحديد إيرثيرا على مسافة قصيرة إلى الشرق من كرسيس[1] إن بطليموس يؤكد على أن هذا الموقع الأخير عبارة عن قرية صغيرة[2].

لقد شعرت بالدهشة بسبب عدم إشارة البدو إلى أي شيء آخر في هذه المنطقة، رغم المعلومات التي حصلت عليها في قرية النطرون نفسها. يمكن للمرء أن يشاهد من بُعد، إلى الغرب من النطرون رأس الهلال، وهو عبارة عن نتوء أرضي غير مرتفع كثيراً ويتقدم إلى داخل البحر، ويشكل خليجاً واسعاً ومفتوحاً جداً عند جانب النتوء الشرقي. لقد اتجهت نحو هذا الرؤوس الأرضية بمحاذاة الساحل الذي يفصله شريط سهلي عن الجبال، وهو سهل ممتد في تكوينه الأرضي. يأخذ هذا السهل الضيق في الاتساع عندما يصل المرء إلى منتصف الخليج، وهنا يشاهد أطلالاً لقرية قديمة والعديد من البرك والغدران المائية الصغيرة وسط الرمال. إن هذه الأشياء غير جديرة بالملاحظة في حد ذاتها ولكنها تفيد في التأكيد على صدق التفاصيل التي نقلتها الرحلة المجهولة وهذه أمانة علمية يسرنا أن نلاحظ وجودها غالباً[3]. بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف من النطرون وصلنا إلى رأس الهلال. إن تلك المسافة تتفق تماماً مع تلك التي حددتها الرحلة المجهولة[4]، بل وتتمشى، بصورة أفضل مع موقعها النسبي بالمقارنة بـ «ابولونيا» «سوسة» التي كانت تسمى دون شك نوستاثموس والتي ذكرها البعض على أساس أنها بروز أرضي[5]، بينما ذكرها البعض الآخر على أساس أنها ميناء[6] كما ذكرها سترابو أخيراً على أساس أنها من أشهر الأمكنة على ساحل قورينة[7].

---

(1) Iriarte. p. 486.

(2) بطليموس الكتاب الرابع. القسم الرابع Ptolémée, L. IV, C.4.

(3) توجد بين اريثرون ونوستاثموس قرية قرب خليج مفتوح جداً حيث يمكن يمكن للمرء أن يشاهد المياه على الرمال ـ انظر Iriarte. Ibid.

(4) على بعد سبعين مرحلة من النطرون ـ انظر Iriarte. Ibid. VI. p. 486.

(5) Pomp. Mella. L.1, C.8.

(6) Ptolémée, L. IV, C. 4 و Scylax. edit, Grouo. V, p. 486.

(7) L. XVII. C. 2.

يفسر سيلاريوس Cellarius هذه الفقرة لدى سترابو بعبارة Nobilioribus Cocis. Cyrenearum «الجغرافية القديمة الجزء 2 ص 71» أما ليتون فقد ترجمها بعبارة أشهر ميناء أو مرسي أو الأماكن الآهلة في المنطقة ـ انظر الترجمة الفرنسية ص 487 و ص 488.

إن موقع هذه الرأس الأرضية الرائع، وهذا الخليج الجميل الذي شكلته تلك الرأس، والذي يتكون قاعه من رمال غطتها الطحالب دون وجود أي صخور أو حراشف صخرية، على الأقل بصورة واضحة، يدل على أنه قد استخدم، دون شك كمحطة بحرية في العصور السالفة.

إذا استثنينا، مع ذلك، القرية التي تحدثنا عنها، لم أر أية قرية أو آثار لأي موقع عدا قصر وحيد شيد في أقصى أطراف هذه الرأس الأرضية. يعود تاريخ هذا القصر إلى العهد الروماني نظراً لأنه يشبه في وضعيته والهندسة قصر شنديره رغم وجود بعض النقوش والمزاريب المنثورة بين الأنقاض كما هو الحال في قصر تبلبح. رغم أن مظهر هذه المنطقة ينفق مع صمت التأريخ حولها، إلا أنه يبدو لي أنه من غير المحتمل ألا تحظى مقاطعة كهذه باهتمام القورينيين. واستناداً إلى العديد من الأمثلة المشابهة، فقد ارتبت في الأمر وفكرت في البحث عن بقايا آثار المدينة القديمة على قمم الجبال المحيطة وليس على الساحل مباشرة. ولكن كان يلزمني أولاً الحصول على أية مؤشرات ضرورية قبل أن أشرع في البحث عن تلك الآثار. لقد سألت كثيراً دون جدوى، العديد من الرعاة الذين كنت أقابلهم لأنني لم أحصل إلا على نتف من المعلومات العائمة. لكن قال لي شخص هرم بأنه يعرف أشياء أخرى أكثر من غيره وطلب مني مكافأة مقابل الإفصاح عن مكان الآثار. قمت بمنحه تلك الكافأة سلفاً حيث ولَّدت ثقتي فيه ثقته في، فقال لي إن آثاراً ضخمة لأبنية ودور رائعة توجد في أول مدرجات الجبل التي تقع قبالة الرأس الأرضية وقال لي بأنه لا يستطيع أن يقودني إليها بنفسه نتيجة للحرب الضروس التي تدور رحاها في تلك الأونة بين مختلف قبائل المنطقة والتي تحول بينه وبين دخولها. كانت معالم وجه الرجل تدل على صدق حديثه لأن الكذب لا يؤدي إلى ظهور مثل تلك الملامح. لقد صدقت أقوال العجوز بأسرها وتوجهنا، بعد تمحيص تلك المعلومات مع دليلي، إلى البحث عن تلك الآثار التي كانت تهمني بصورة خاصة لا سيما وأنها مجهولة من قبل سكان المنطقة.

إن الجبال التي رأينا أنها تحتوي على مرتفعات ومدرجات ضخمة من مدينة النطرون قد تغيرت في شكلها وصارت ضيقة من هذه النقطة بل وبدأت تشكل أولاً ربوة كبيرة منحدرة يعلوها ثانياً السهل وتارة أخرى نراه أجرد دون أية أشجار وتتخلله ربوات صغيرة تشقها وديان.

كانت التربة في هذه المنطقة متباينة فهي خصبة جداً هنا، وقاحلة جداً هناك. وينبغي

على المرء أن يصعد، بعد هذا السهل، إلى سلسلة جبلية ثانية تتكون من هضاب ومرتفعات تعلوها مدرجات تنتهي بهضبة قورينة الشاسعة. تستمر تلك الهضبة الجيولوجية على نفس المنزال تقريباً وذلك حتى قرية فيكوس، وسوف تتاح لنا فرصة الاقتناع بذلك عندما نباشر هبوطنا من هذه الهضبة.

كان ينبغي علينا أن نعثر على المدينة القديمة التي تحدث عنها الراعي المسن، جنوب غرب الرأس الأرضية بعد اجتياز الربوة الكبيرة، وكان جزء من تلك الأطلال مختفياً وسط الأشجار بينما يوجد الجزء الآخر منها في وسط السهل المجاور. إن معلومات هذا الشيخ، رغم كونها إيجابية، كادت ألا تكون كافية.

لقد وصلنا، منذ الصباح، إلى قمة الجبل وذرعنا تلك المنطقة وتجولنا هنا وهناك وزرنا كافة المرتفعات سعياً وراء اكتشاف أي شكل من أشكال الآثار، وكنا نتجاوز تارة المكان الذي أرشدنا إليه الشيخ، ونعود إليه تارة أخرى، وانتهى ذلك اليوم، على هذا الحال، دون العثور على أي شيء يذكر.

قررت، صبيحة اليوم التالي، أن أتخلى عن البحث والتقصي نتيجة الإعياء الذي أصابنا عشية اليوم السابق، ونتيجة انقسامات البدو التي أدت إلى نفورهم منا وذلك إما بسبب الخوف أو الريبة. سوف تكون إذاً أية محاولة جديدة للبحث عن هذه الأطلال غير مثمرة، ولذا قررنا الرحيل.

لقد تراءت أمامي نقط يميل لونها إلى الزرقة وكأنها صخور معزولة وسط غابات كثيفة، فشد ذلك فضولي بصورة ثانوية مما دفعني إلى التوجه نحوها لإشباع ذلك الفضول أكثر من أي شيء آخر. لم أجد أية مسالك تؤدي إليها وكان عليَّ أن أصنع بنفسي درباً وذلك خلال غابة من أشجار الكرز البري (الشماري) الكثيفة واستغرقت في هذا الأمر لدرجة أنني لم انتبه إلى تلك الصخور إلا بعد أن صارت أبنية في حالة جيدة حيث اتفقت أناقة شكلها وتفاصيل هندستها على إبرازها داخل تلك الغابة بحيث أصبحت وكأنها قد ظهرت بطريقة سحرية. هناك أحاسيس لا تؤدي إلى الشعور بها إلا الرحلات. كان مظهر تلك الآثار الجميلة التي ظلت مجهولة لعدة قرون أحد تلك الأحاسيس القوية. إن عملية رسم تلك الأطلال غير مجدية لأن الموقع والمنطقة والظروف تضيف إلى هذا الاكتشاف آلاف الانطباعات المختلفة التي يشعر بها المرء بقوة والتي لا يستطيع، رغم ذلك، التعبير عنها بسهولة. لم أشاهد حتى الآن مثل تلك الآثار في حقول إقليم المدن الخمس الموحشة، ولم

أر بعد ذلك، أي شيء أجمل منها. أطلق البدو على هذه الأطلال الصغيرة اسم «السواني» أو «الصنيبات العويلية»[1] «وزاوية معازيق» يتفق هذا الموقع تماماً مع وصف الراعي الهرم غير أن اختلاف الموقع في تلك المقاطعات بصورة خاصة، يجعل من العسير العثور على هذه المنطقة بسهولة ودون مرافقة أحد من سكان المنطقة شريطة أن يكون هذا المواطن يعيش في تلك المنطقة منذ نعومة أظفاره. لا بد وأن يتوه الإنسان، دون هذا المرشد المحلي، كما فعلت لتوي، وإنني أرجو الصفح من القراء من أجل الفائدة العامة التي جعلتني أتخبط في العديد من الصفحات.

إن الأثر الجميل الذي أحدثته تلك الأبنية الواقعة في هذه الحقول الزاهية، في نفسي وذلك منذ الوهلة الأولى قد تغير عندما ألقيت نظرة بداخلها. لقد تلاشت تلك الأبهة ولم تكن تلك الأبنية سوى أضرحة يحتوي أكبرها على حاجز طولي يقسمه إلى شقين أي غرفتين مفصولتين على مستوى الارتفاع، بفضل ثلاثة صفوف صخرية لكي تشكل كهوفاً جنائزية على طول البناية.

توجد بتلك البناية نقوش إغريقية دورية ونحوت يزدان بها المدخل المزدوج.

هناك كتل صخرية من قطعة واحدة تغطيها وتشكل مثلثاً مفلطحاً من طراز أنيق سوف نشاهده، من الآن فصاعداً، منسوخاً، في أغلب الأحيان، في مدافن إقليم المدن الخمس الليبية. يرتفع متن البناية على أربع قواعد ضخمة على هيئة مربع. توجد أمام هذا الضريح شجرة زيتون تغطي بظلالها الوارفة قمة هذا الضريح بصورة خلابة «انظر اللوحتين 16 و 19 الشكل 1 وكذلك التفاصيل الأخرى». يوجد على بعد خطوات من هذا الضريح البديع، ضريح آخر أقل منه حجماً غير أنه أفضل منه حالة. يحتوي هذا الضريح على غرفة واحدة «انظر اللوحتين 17 و 19 الشكل 2 وكذلك التفاصيل الأخرى». هناك ضريحان آخران يقعان على مدى إطلاقه عيار ناري من هذا الضريح كان أحدهما يشبه تماماً هذا الضريح الصغير وهو مطمور في قلب الغابة.

أما الضريح الثاني فهو مختلف تماماً عن البقية حيث يمكن اعتباره هيكل القرابين

---

(1) لقد استخدم المؤلف كلمة نابية يحول الحياء دون ذكرها. لما كان البدوي يتحدث على السليقة، بطيبة وسذاجة وصراحة وربما أنصح للمؤلف عن الاستعمال الذي آلت إليه تلك الأضرحة، وهذا ما دفعني إلى البحث عن الاسم الحقيقي لهذا المكان الذي لم أسمع به قبل ذلك. أفادني، بعد ذلك أستاذي البروفسور اندريه لاروند، أن هذا المكان يسمى بـ «زاوية معازيق»... المترجم.

نظراً لأبعاده الصغيرة وشكله المربع، وسطحه المستوي، قد تكون هذه المصطبة قد رفعت تخليداً لبعض الآلهة الريفية في تلك المنطقة «انظر اللوحتين 17 و 19 الشكل 3». لا يوجد أي مدخل بهذا الشكل الأخير. بعد أن نجحت في اقتلاع كتلة صغيرة من جداره، بعد جهد جهيد، رأيت أنه يتكون من ثلاث غرف منفصلة مليئة تماماً بجماجم الأطفال الصغار.

إن مثل تلك الآثارالمشيدة بعناية فائقة، علاوة على وجود عدد هائل من الكهوف الجنائزية التي تزينها واجهات دورية أو توجد مبعثرة بالقرب منها، لا بد وأنها تدل على وجود مدينة عتيقة في الجوار. لقد لفت انتباهي أثر عجلات العربات القديمة في الصخور. الأمر الذي دفعني إلى المسير في اتجاه هذا الأثر حتى وصلت، بعد العديد من حالات الانقطاع في الأثر، إلى غابة من أشجار الزيتون تقع على مسيرة ربع ساعة من الشرق من الأضرحة. لقد شاهدت أخيراً أطلالاً لمدينة قديمة في تلك الغابة. أدت أحدث هذه الجولات أخيراً إلى تقديم نتائج جديدة. كانت تلك الآثار، بفضل هذا الموقع، أكثر سلامة من غيرها رغم كونها مقلوبة رأساً على عقب.

توجد تلك المعالم الأثرية داخل سور يحيط بها من جميع الجوانب يصل ارتفاعه إلى ثلاثين قدماً، وقد يصل إلى خمسة أو ستة أقدام فقط وذلك وفقاً لاختلاف مستوى سطح الأرض. توجد على جانبه الغربي بوابة كبيرة جداً. يجد المرء نفسه، عند الدخول من هذه البوابة، في متاهة من أجزاء من جدران لا تزال قائمة وأبدان أعمدة رخامية مقلوبة وكتل مبعثرة من الحجارة تحيط بها جذوع ضخمة لغابة من أشجار الزيتون.

إن الطبقات المختلفة الأغصان والأوراق لتلك الأشجار المهيبة لا تسمح بمرور أشعة الشمس إلا بصورة متباينة هنا وهناك بحيث تنشر ضوءاً خافتاً على تلك اللوحة من الفوضى الشاعرية. لقد اكتشفت أن المخطط العام لهذه الآثار يشير إلى وجود منحدر طفيف نحو الشرق ولذا سرت في هذا الاتجاه حيث وجدت مشهداً جديداً في انتظاري.

لم أكن أدرك بأنني كنت فوق قمة وادٍ سحيق تزدان ضفتاه الشديدتا الانحدار بصورة مفاجئة، بصخور مختلفة الألوان ويوجد بالقرب منها غلام يرعى قطيعاً من الماعز. لقد أخبرني هذا الغلام اليافع أن تلك الآثار تسمى «غرطابولوس» وأن هذا الوادي الذي نشاهده الآن أمامنا يحمل نفس الاسم وينحدر صوب الميناء(1).

---

(1) يبدو أن هذا الجدول هو الذي كان السبب في تكوين برك وغدران الماء على شاطىء الخليج وهي=

بعد أن لخصت كافة الملاحظات حول هذه المواقع، لا يسع المرء إلا أن يستغرب عدم تعرض الجغرافيين القدامى لهذه المدينة الواقعة في مقاطعة نوستاثموس «سوسة» لا سيما وأن آثارها تدل على كونها مدينة مزدهرة في العصور الغابرة. إن عبارة «الشهيرة» التي وصف بها سترابو مدينة نوستاثموس تعتبر خير دليل على ماضيها العريق. تبرز تلك الآثار ذلك الوضع تماماً غير أنها لا تتعلق بهذه الآثار الحالية.

رغم نقص المعلومات، هناك رواية بدوية لا ينبغي استبعادها. إن اسم «هياره»[1] الذي يطلقه البدو على مجموعة من الهضبات جنوب السواني، يحملنا على الاعتقاد بأنها مقاطعة «هياريا Hieraea الغابرة التي كانت تقع ضمن أراضي قورينه وفقاً لما ذكره إتيان البيزنطي[2].

= البرك المائية التي ذكرتها الرحلة المجهولة.

(1) لقد أشار سميث Smith إلى اسم هذه البلدة ولكنه حدد موقعها إلى الشرق كثيراً.

(2) انظر لفظ هياريا.

الفصل العاشر

حرب بين البدو - وادي الكرموس «التين»

لقد عكرت القلاقل الكبرى، مع ذلك، هدوء وسكينة فيافي برقة. إن سفر الباي «منحنى» قد حرر البدو من احترامهم الضعيف لحكومة طرابلس، ذلك الاحترام الناجم عن العادة وليس عن السلطة.

بعد إطلاق العنان للأحقاد الوراثية التي كانت تقسم القبائل المختلفة، وتحريرها من قيودها، أصبحت تلك الأحقاد أكثر عنفاً ودموية مما مضى. لقد هجرت أعمال الفلاحة في كل مكان، وكان بعض البدو لا يجرأون حتى على ترك حدود قبيلتهم، بينما كان البعض الآخر، أكثر شجاعة لدرجة أنه يذهب للتجسس ويقوم بغزوات ليلية من أجل الثأر. يتم شن تلك الغزوات بفضل حشد كوكبة من الفرسان تقوم بالهجوم على الطرف المعادي في قلب منتجعه أو الدفاع عن منتجعهم في حالة الإغارة عليه من قبل أي عشيرة أخرى.

يسمع المرء كل صباح، نحيب أم فقدت ابنها أو ولولة زوجة موتورة وذلك على أرض الهمج هذه، لقد بدأت الهمجية هذه المرة تدمر نفسها. يملأ الصراخ والعويل أرجاء الوديان، وتعيد الجبال صداه، ويؤدي كل هذا إلى ترديد أهازيج الثأر والانتقام والحرب. إن هذه الحرب دليل آخر على المآسي الجديدة ومبرر أو سبب لثكل أو ترمل جديد. ينبغي أن نضيف إلى ذلك عمليات تقتيل أخرى يقوم بها مجرمون مطرودون من قبائلهم أو مبعدون من المقاطعات الشمالية في برقة، يخرجون من كل مكان، إلى ذلك الانتقام القبلي المتوارث عبر الزمن وإلى الأثر العنيف لقانون الدم «الثأر». لقد كانت الغابات موطن هؤلاء المبعدين المطرودين، والوكر الذي يتجسسون منه على ضحاياهم. تؤدي الكهوف دور كاتم الصوت بالنسبة لذلك الصياح، وتصبح، بعد ذلك، المكان الذي يشهد إخفاء معالم الجريمة. قد يتساءل القارىء: كيف يمكن لأوروبي مثلي أن يتجول بمفرده في هذا المسرح

الملـيء بـالضغـائـن، وأن يتفـادى هـذه الصـدمـة، وأن يتفـرغ لأعمـال تحتـاج إلـى هـدوء وسكينة؟. عندما أشبع فضولك، أيها القارىء الكريم، فإنني قد أتمكن من جعلك ترثي لحالي وقدري، غير أن أكثر الحقائق بساطة وسذاجة قد تبدو، في مثل تلك الحالات، وكأنها ضرب من الكذب في نظر الغير.

هكذا هو حال بعض الروايات التي يكون بطلها من يرويها، بينما يقوم شخص آخر، أحدُّ منه دهاءً، بتصنع تصديقها. وعليه يدفع الراوي ثمن اعترافاته الحقيقية، رغم سخفها أحياناً، ويكون مثله مثل الذي يقدم الخرطال إلى جواد لاهث. إنني أتخلى، بالتالي، وبطيب خاطر، عن ذكر مثل هذه الحكايات. بل سوف أحول نظري عن تلك المشاهد المؤلمة التي أشاهدها في جميع أنحاء برقة تقريباً. يعني تصوير مثل هذه المشاهد بالنسبة لي ضرباً من التسلية، وتقديم خدمة للإنسانية. لقد قال فيلسوف جنيف[1]: «إن الناس أشرار أما الإنسان فخيّر» يمكن أن تناسب هذه العبارة هذه القبائل البدائية، كما يمكن أن تتلاءم مع الشعوب المتحضرة. عندما ينطوي الإنسان على نفسه، فإنه سوف يتمكن من العثور على فضائله الأولى بكل يسر التي تؤثر فيها بل وتبليها عملية الاحتكاك في المجتمع. قد تكون تلك الفضائل أكثر نداوة لا سيما عندما تتناقض مع الرذيلة المحيطة بالإنسان. وهكذا نجد أنه في الإمكان أن يعثر المرء، وسط تلك القبائل والشراذم المتعطشة للدماء والسلب، عائلات محبة للنظام والدعة والسكينة وتفضل العيش في مناطق نائية لكي تنعم بالميزات النفيسة التي تكتنفها هذه المنطقة الخصيبة. لقد أجبرتنا تلك الأحداث على ترك «السواني» بسرعة، ودخلنا، عند المساء، إلى كهف من أجل الاستراحة لأنه من الغفلة أن نلجأ إلى منتجعات البدو الثائرة. كنا نسمع هناك أصوات الرعد المدوية كل ليلة، وكنا نرى الودق منهمراً وكأنه شلالات تسقط من السماء، وكانت الرياح عاتية جداً لدرجة أنها تتسرب من شقوق الصخر الصلد وتكاد تمنعنا من إضرام النار التي كنا نريد أن نجفف عليها ملابسنا دون جدوى.

جاءت بعد ذلك أشعة الشمس الصباحية الأولى لكي تملأ كهفنا هذا بالنور، فلمحت

---

(1) يقصد المؤلف الفيلسوف جان جاك روسو الذي يؤكد على أن الإنسان منفرداً خير بطبعه. ولد جان جاك روسو بجنيف حيث شاهدت، أبان إقامتي في هذه المدينة، لوحة تذكارية خطت على متجر كبير يسمى بلاسيت مفادها أن الفيلسوف قد ولد بالمنزل الذي كان في مكان السوق الممتازة... المترجم.

أمامه منخفضاً وكأنه محاط بسور خارجي من الصخور. لقد أخطرني دليلي أن هذا المكان يسمى وادي الكرموس «أي التين» وهو موطن الشيخ «أعزيز» الشهير في كافة أنحاء تلك المنطقة بفضل تواضع سلوكه ورقة طبعه. طلب مني الدليل أن نذهب إليه طلباً للضيافة. اتجهنا، فور ذلك، نحو ذلك الوادي الذي وصلنا إليه عندما بدأ شفق الصباح يلون قمم الهضاب، وعندما يبدأ بنشر أشعته الذهبية الدافئة على البسط الخضراء التي تغطي سفوح الهضاب أمامنا. لقد كانت هذه اللوحة الطبيعية خلابة. يحد وادي الكرموس من الشمال سور طويل من الصخور المتصدعة حيث تنبثق منها أشجار التين البري وتتخلل تلك الشقوق أشجار Coromilles المرنة وأشجار السدر الشوكية ومجموعة كبيرة من النباتات الزهرية. أما في الجانب المقابل، فتوجد أجمة من أشجار الخروب فوق بساط أخضر رخو يتجه تدريجياً نحو قمة الجبل التي يتوجها ستار من أشجار السرو البري «الشعرة» لقد هدأت الآن العواصف على اليابسة، ولكنها لاتزال مدوية فوق مياه البحر حيث تردد الصخور الصدى الأجش لأمواج البحر الهادرة التي ألمحها عن بعد. يضيف هذا الدوي ومظهر هذا الوادي الزاهي طابعاً يتسم بالأمان خاصة على قاع الوادي الذي يجري به جدول لا يسمع المرء خرير مياهه إلا بين الفينة والأخر. يزدان هذا الجدول بنباتات الأقاحي البيضاء والبنفسجية التي ترتفع تويجاتها البلهاء في الجو ولم تقصمها العواصف التي أسقطت العديد من الأشجار الكبيرة حولها.

دخلنا لمسافة طويلة في ذلك الوادي حتى قام دليلي بإعطاء إشارة التوقف.

شاهدت عندئذ، في منخفض من تلك الأجمه، خيمة شيخ طاعن في السن، يقوم بتأدية صلاة الصبح. يدل المظهر الهادىء لهذا الناسك الورع وهو يؤدي هذه الطقوس الورعة، على ثقته الكبيرة في الربوبية. إن هذه الثقة، مهما كان شكلها، واللغة التي تجسدها، تبرهن، على الأقل، على حسن طوية هذا الرجل. وهذه نعمة لا تعد ولا تحصى تحظى بها الأرواح البسيطة والصادقة.

لقد كان هذا العجوز هو الشيخ «أعزيز» حالما فرغ الرجل من صلاته، توجه نحونا وطلب منا الاستراحة في خيمته وذلك خلافاً للعرف السائد في البادية وهو السؤال عنا وعن وجهتنا. لقد شعرت بالذهول عند دخولي إلى خيمته جراء نظافتها وحسن ترتيبها. لقد كانت مرتبة ومنظمة جداً، لدرجة أن المرء، عندما يلقي نظرة على القسم الخاص بالنساء، يعتقد أنه قد خصص لنساء لم تسكنه بعد.. أي قد أعد لاستقبالهن. حالما بسط الشيخ، مع

ذلك، بساطاً فوق الحصيرة العادية المخصصة للاستخدام اليومي وطلب منا الجلوس والاستراحة في الخيمة، خطا بضع خطوات إلى الخارج وبدأ يصيح بصوت مرتفع لم تؤثر فيه سنه الكبيرة. إنِ هذا الصياح يمثل صرخة النداء التي قد تستخدم أحياناً للإنذار. لقد عكرت مثل تلك الصرخات صفونا عدة مرات، غير أن هذه الصرخة الأخيرة لم تكتسِ أي طابعِ أو جرسٍ معادٍ في تلك اللحظة. لقد تردد صدى صوته، وبعد برهة وصلت إلى أسماعنا أصداء رقيقة عذبة تمثلت في صوت «سعيدة». قال الشيخ وهو يهم بالدخول: «ستصل سعيده.. إن الضيافة تجمّل الصحراء.. إنها زهرة يقتطفها المرء وهو في الطريق.. مثل هذه الزهرة تماماً، نجد أن أريج الضيافة لطيف لطافة الشخص الذي يقبلها ولطف الذي يقدمها.. أيها الأغراب، لا بد أن تمكثوا عندي كائن من كنتم».

شاهدنا، بعد ذلك بقليل، فتاة يافعة تمشي بين أشجار الأجمة وفي إحدى يديها منجل، أما اليد الأخرى فكانت تمسك حزمة من الحطب على رأسها. كان من الممكن للمرء، وفقاً لرشاقة قوام هذه الفتاة وحركة جسدها المنسابة العذبة، أن يتصور أنها إحدى «ربات» الغابة اللاتي يلبين نداء الربة ديانا Diane. عند النظر إلى سرعة الجري وثقل الحمل قد يعتقد المرء أنها شابٌ في ملابس نسائية «يقصد المؤلف أنها تتمتع بقوة الشباب بالإضافة إلى جمالها ورشاقتها.. المترجم». وصلت سعيدة أخيراً إلى باب الخيمة ووضعت أرضاً حملها من الحطب ونظرت إلينا ثم اختفت ثم عادت مرة أخرى وهي تجر خلفها معزة ثم بدأت في حلبها فوراً. أوقدت بعد ذلك النار في طرفة عين. بينما كانت ألسنة النار تتهادى، كانت سعيدة تقوم بكل شيء، بكل حيوية ورشاقة وبرقة ممتعة خاصة وأن تلك الرقة قد نجمت عن ارتباكها. إنها تثير الإعجاب فعلاً لأن إبداعها هذا منحها نوعاً من أنواع الاستكانة إلى طريقة تحركها التي تجسد اللذة.

في الواقع إن رؤية هذه الصبية اليافعة التي تحتمي بوجود والدها لم تحرص أبداً على إخفاء معالم جسدها الناشئة. إن رؤيتها وهي نصف مستورة بملابسها التي يبدو أنها لا تستر هذا الجزء من جسدها إلا لكي تبرز معالم ذاك الجزء أو تزيد من شدة الإغراء. إن منظر نظراتها الثاقبة دون صلف، وأوضاعها التي تثير اللذة دون تبجح أو قلة حياء، وحركة يديها الحرة والبريئة مدعاة للإعجاب رغم بدائيتها. في هذه الأثناء، كان الطعام جاهزاً وجلسنا أمام مدخل الخيمة حول هذه المائدة المضيافة. لقد كنا نرى، من مكاننا هذا، كافة أنحاء الوادي. لقد كان الصباح جميلاً كأي صباح يعقب العاصفة. وكان هذا الملاذ آمناً خاصة عندما نتذكر أخطار اليوم السابق.

قام العجوز بعد ذلك بإخبارنا عن منطقته قائلاً: «كان أجداده يسكنون هذا الوادي، الذي ولد به ولم يغادره أبداً إلا نادراً جداً. ولم يسافر بعيداً أبداً إلى درنه أو بنغازي.. إنه لا يعرف أية مساكن أخرى غير الخيام.. ولا يعرف أي بساتين أخرى غير الحقول» دلنا بعد ذلك على جذوع الأشجار التي كان يجني منها العسل، والمغارة التي كان يستخدمها كمستودع لتخزين التبن، والمكان الذي يدرس عليه القمح ثم قام بتسمية جميع مناطق الوادي بأسماء منتوجاته أو فوائد تلك الأمكنة، ثم قال: «لا يجب أن تشعروا بالمفاجأة أو الدهشة إزاء وجود هذه الأكياس المصفوفة التي تحيط بنا.. إنها لا تحتوي على أي كنوز ولكنها تحتوي على نعم الأرض.. إذ يكفيني وابنتي جزء منها، أما الباقي فهو لعابر السبيل.. إن هذه الأردية من صنع ابنتي سعيدة التي تقوم بذلك خلال فصل الصيف لكي يستخدمها الفقير خلال فصل البرد القارس.. إننا نقوم بعمل الخير الذي يتوقف علينا ولذا لا يقوم أحد بإيذائنا.. إن حياتنا الخالية من الخوف والهم وديعة وهادئة مثل هدوء هذا الوادي.. وتمضي برفق مثل مياه هذا الجدول بعيداً عن العذاب الذي تؤدي إليه الرغبة وعن أيدي الأشرار الذين يمزقون أنفسهم بعيداً عنا. أيها الأغراب، صدقوني.. وصدقوا تجربتي.. اعملوا الصالحات إذا أردتم أن تكونوا سعداء.. إن سكينة روحي وعذوبة حياتي تعود إلى أعمال البر.. إن عمل الخير يصل إلى شغاف القلب ويداوي جراحها مثله في ذلك مثل نسيم الصحراء الكبرى[1] العليل الذي يجدد قوى الرحالة المنهارة.. عمل البر يزيد من سعادة المتصدق ويجعله أكثر سعادة من متلقيها.. لقد كان ذلك سر حياتي وسر سعادتي».

لقد كنت أراقب تقاطيع وجه هذا الإنسان البر وهو يتحدث، كانت ملامح وجهه، مثل أقواله، حبلى بالطيبة، والتواضع والبساطة، وكانت نظراته تتسم بالحيوية والهدوء في آن واحد وكأنها تعبر عن انفعالات عذبة تختلج، في تلك اللحظة، في هذه الروح المطمئنة. لقد مرت لحظات البهجة بسرعة لأن الوقت المتأخر من النهار قد نبهني بضرورة اللحاق بقافلتي. لم يكن فراقي لهذا الوقت المتأخر من النهار قد نبهني بضرورة اللحاق بقافلتي. لم يكن فراقي لهذا المضيف أمراً سهلاً، كما يمكن لأي إنسان أن يتوقع ذلك، لقد شعرت بالأسف على فراقه واحتفظت طويلاً بذكرى هذا اللقاء السعيد. لقد كنت دائماً أرى في مخيلتي شيخ وادي الكرموس وابنته اليافعة.

---

(1) صحراء دواخل افريقيا.

الفصل الحادي عشر

الجوش - ترت - جبره - ديونيس - وقوف ورحيل قافلتي - غرنيس - سوسه

تنطوي عملية وصف أي بلاد من بلدان افريقيا على أحد المساوىء التي لا مناص منها والتي تنجم عن التسميات البدائية أو الهمجية المحلية التي ورد نموذج منها أو اثنان في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب، ناهيك عن الأسماء الصلدة والجافة لمناطق الدواخل التي تشابه الصخور الجرداء المنتشرة في تلك السهول القاحلة والتي ملأت أرجاء وصف روايتي هذه.

ولكن أليس من قبيل الإثارة والتشويق أن يتم نثر بعض الأسماء المتوحشة والصعبة خلال جولات المرء في صحراء قاحلة أو خلال نزهاته في مواقع حبتها الطبيعية وجعلتها زاهية ولطيفة؟. لقد تكونت لديَّ بصورة خاصة هذه الأفكار التي ربما تكون قد راودت القارىء وذلك عند وصولي إلى مكان من أجمل الأماكن في إقلم المدن الخمس الليبية. يقع ذلك المكان على بعد مسيرة ساعة إلى الغرب ويسمى «الجوش» أو «الجوص».

أرجو من القارىء أن يتصور معي جمال هضبة تتوجها أشجارالخروب وتوجد في وسطها أطلال لقرية قديمة بالإضافة إلى كهوف فتانة. يجد المرء أمامه مرجاً جميلاً يمتد، على شكل قوس، أمام تلك الغابة وتنمو به نباتات Lamiuais بأزاهيرها الوردية ونبات Steclias بأزهارها القرمزية، وشجيرات «الزهيرة» ومختلف أنواع الأزهار الذهبية والبنفسجية ونباتات العطر المتعرشة وسط كساء من نبات «الدرياس» البري الذي يشكل اليوم رمزاً لخصوبة الأرض كما كان يشكل رمزاً لثرائها. ويتعرج تحت هذه التجمعات النباتية الكثيفة والغناء، جدول رقراق يتزايد خرير مياهه بأصوات شتى ناجمة عن انحدار

ووعورة الهضبة، وكأنه شقشقة عصافير مختفية خلف الأغصان المائسة. إن خرير مياه الجدول العذب يشنف الآذان حقاً دون معرفة السبب في ذلك.

لكي تكتمل هذه اللوحة، يرى المرء شريطاً من أشجار السرو البري «الشعرة» قاتمة اللون وقد أحاطت بالجزء الشمالي لهذا المرج، وأبرزت فيه نقاطاً فاتحة اللون لامعة بفضل تمايل الأغصان والأوراق القاتمة والظلال الوارفة. إن هذا التباين في اللون متكرر كثير في تلك المنطقة ورغم ذلك فهو يثير الإعجاب دائماً لأنه يضفي شيئاً من الكآبة على أزهى المواقع الطبيعية.

أعود الآن إلى فكرتي. هل يوجد شخص بعقلية جافة ومخيلة باردة لا يشعر بشعورسلبي عندما يسمع أن مكاناً جميلاً كهذا يسمى باسم همجي هو «الجص». ألا يبدو أن هذه التسمية الفظة وكأنها تزيل شيئاً من سحر هذه اللوحة الطبيعية الفتانة؟ لو كانت تلك التسمية تقدم على الأقل أي شبه بالأسماء العتيقة، لكان في إمكان المرء، بفضل هذا العون، أن يعيد إلى هذا المكان اسمه التليد خاصة وأن آثاره الجميلة تدل على كونه مهماً خلال المراحل اللامعة لإقليم المدن الخمس. يشاهد المرء، في الواقع، على الأطراف الغربية للقرية القديمة، آثاراً لبناية ضخمة لم يعد قائماً منها سوى غرفة واحدة شيدت فوق قواعد ضخمة مبطنة على الطريقة المصرية «انظر اللوحة 20». توجد بالقرب من تلك البناية أشلاء عديدة من المرمر منثورة في الطبيعة، وبقايا مشوهة لتماثيل لا يمكن تميـيز أي شيء فيها عدا الجزء العلوي اللطيف لصدر امرأة.

يدل، علاوة على ذلك، وجود مثل هذه الآثار، في قرية صغيرة كهذه على أنها تقع في جوار مدينة أهم أو أنها كانت آهلة جداً بالسكان في القدم. ما كدنا نواصل مسيرتنا نحو الجنوب حتى تحقق كلا الاحتمالين.

أتضح، وفقاً للتكوين الجيولوجي لهذه المنطقة الذي نعرف عنه شيئاً ما، أن السهل قد بدأ يفسح المجال مجدداً لمرتفعات وعرة ووديان عميقة. يكشف لنا هذا السهل الذي أسميناه «هضبة قورينه» عن نفس الملامح هنا التي شاهدناها في الأجزاء الأخرى التي كنا قد زرناها ولكن مع وجود دليل على كونه آهلاً بالسكان. هناك أطلال لقرية تسمى الآن «ترت» تقع على هذه الهضبة، وتوجد حولها أطلال لقرى قديمة تقع على بعد مسيرة ساعة إلى الجنوب منها.

يوجد عدد سبعة أعمدة تدعم مسطح من قطعة واحدة لبناية ضخمة واحدة، بالإضافة

إلى وجود قصرين وعديد الأحواض، وأجزاء من جدران وأقواس وقباب. كان كل ذلك مشيداً أو محفوراً على قمة ربوة، على شكل هضبة. ليتصور المرء معي كل هذا حتى يكوّن فكرة عن هذا الحطام الكئيب لهذه المدينة التي تشبه إلى حد كبير، قرية لملوده.

نجد، مع ذلك، أن المنخفض الذي يمتد غرب هذه المدينة جدير بالاهتمام وذلك لوجود عدد من القبور المصنوعة من كتلة صخرية واحدة وكأنها توابيت بعضها قائم والبعض الآخر مقلوب. كان أغلب تلك التوابيت مطموراً في التراب إلى المنتصف. إن هذا المشهد غريب حقاً في منطقة توضع فيها التوابيت الصخرية الضخمة على قمة المرتفعات أو ترتب على قارعة الطريق أو تغرس إلى منتصفها في قاع الأرض. من المرجح أن تكون تلك التوابيت الثقيلة المصنوعة من الصخور الفجة دون عناية أو زخرف، قد اجتثت من الأقبية والسراديب خلال اجتياح شراذم الهمج «يقصد الفتح الإسلامي. . المترجم» لإقليم المدن الخمس الليبية. يبدو لي أنه من الطبيعي أن يكون هذا العدد الهائل من القبور الصخرية، المنثورة الآن على وجه الأرض، قد كان يزيّن، في الماضي، جانبي الطرقات في هذه المدينة.

لقد عرفنا هذا التقليد القديم وهناك أمثلة عديدة لذلك. هل نجمت هذه الفوضى عن أعمال تخريبية؟ لكن هذا التخريب، لو صح ذلك، لكان يدخل الفوضى على الترتيب المتسلسل، ولكان سيؤدي إلى تقويض تلك الدروب والطرق المستقيمة التي كانت ترمي إلى تعريف القدامى بمظهر الموت عن طريق تلك التوابيت الموضوعة على جوانبها.

إن آثار ترت أقدم من آثار لملوده، ولهذا السبب رأيت أن هناك شبهاً ضئيلاً في التسمية مع مدينة ثنتيس Thintis القديمة وهي مقاطعة حدد بطليموس مكانها في دواخل قورينه[1]، كما أن إتيان البيزنطي قد ذكرها على أساس أنها كانت مدينة[2] ثم ذكرت بعد ذلك على أساس أنها كانت أبرشية نصرانية[3] تحت اسم ديسثيس. مهما كانت، مع ذلك، أوجه الشبه فنظراً لأنها لا تستند إلا على بعض المعلومات العائمة، فقد اكتفيت فقط بذكرها دون الوقوف طويلاً عندها على أمل أن يقوم من هو أجسر مني بتقليب هذه المعلومات وتعميقها.

---

(1) جغرافية بطليموس. الكتاب الرابع. القسم الرابع.

(2) انظر لفظ تستيس وتين. Thestis و Tyne.

(3) الجغرافية المقدسة ص 284 وكذلك النصرانية الشرقية ـ الجزء الثاني ـ ص 630.

هناك آثار أخرى على بعد مسيرة نصف ساعة شمال ترت تسمى «جبورة». وهنا أيضاً نجد التوابيت الصخرية بالقرب من أطلال قرية صغيرة تشبه في وضعها ومعمارها وأناقتها أضرحة «السواني» رغم خلوها من أي تفاصيل معمارية. توجد تلك التوابيت، مثل توابيت السواني، فوق مصاطب يتم الصعود إليها عن طريق مدرجات صخرية، ومغطاة بكتل صخرية مثلثة.

الجدير بالذكر أيضاً أن هذه القبور منحوتة في الصخر بحيث يتضح من مواقعها والمسافة الفاصلة بينها أنها قد كانت في قلب هضبة تم حفرها بأسرها من أجل الحصول على كتل صخرية ضخمة تم تشكيلها فيما بعد على هيئة قبور «انظر اللوحة 22».

يشاهد المرء، بالقرب من هذه المعالم الآثرية، أطلالاً لبناية ضخمة، لم يبق منها، للأسف، سوى ركن واحد في حالة جيدة. يوجد داخل هذا الركن، وعلى ارتفاع بضعة أقدام من سطح الأرض، حوافٍ بارزة Frise يكشف سطحها، غير المستوى، عن أشكال بيضاوية صغيرة وضعت أمام محاريب عميقة منحوتة في قلب الجدار «انظر إلى نفس اللوحة». يوجد في وسط البناية عمودان يعودان إلى العصر الدوري والعديد من الأحواض المستديرة تشبه تلك التي عثرت عليها في الكهوف والأحافير الجنائزية.

لقد دفعتني هذه الإشارات إلى الاعتقاد بأن تلك البناية كانت تستخدم لأغراض الدفن وربما كانت الفجوات البيضاوية التي وضعت في البروزات المذكورة في عصور مختلفة تستخدم لوضع أواني رماد رفاة بعض الأسر الشهيرة أو إحدى الطوائف الدينية المحظوظة. ألم يحمل الغرور الإنسان، في جميع العصور، على الرغبة في التميز عن عامة البشر، وذلك في الحياة أو الممات.

أما جنوب هذه القرية وعلى بُعد مسيرة ساعة منها، فتوجد آثار أخرى استرعت انتباهي بفضل تسميتها. وجدت بها قصراً كبيراً شيد بأسلوب فج يطلق عليه البدو اسم «قبو يونس» «انظر اللوحة 21».

إن تلك التسمية جديرة بالاهتمام فعلاً لأنها تذكرنا وبصورة مذهلة بما ذكره سينوسيوس عن الاستبداد الذي مارسه في هذه المقاطعة كل من آغاثو كليس Agathocle وديونيسيوس Dionysius[1].

(1) سينوسيوس القوريني. الرسالة 6.

يوجد إلى جوار هذا المكان قبر دائري جميل يقع على رأس ربوة، وأطلال لقريتين صغيرتين هما «بو عبيله» و «القوافل»، كما يشاهد المرء، إذا تقدم إلى الدواخل قليلاً، قصراً ضخماً تحيط به خنادق واسعة حفرت في الصخر يطلق عليها السكان اسم «ثغات» ويبعد عن ترت مسيرة نصف ساعة نحو الجنوب الشرقي ويوجد في أقصى شمال هذه المجموعة الأثرية. إن هذا الموقع الذي يشبه إلى حد كبير قصر «بو مناء»، يؤكد الفرضيات التي وضعتها حول نظام الدفاع القوريني لصد هجمات الشراذم المحلية. ألا يدل وجود هذين الحصنين الواقعين على نفس الخط، والمعزولين في الدواخل، على استخدامهما كسد منيع للدفاع عن المقاطعتين المذكورتين؟

دعونا نعود الآن إلى «الجص» Jdous وهو المكان الذي تركت فيه القافلة في كهوف صغيرة وجميلة وذلك لكي نغادر معاً هذا المكان ونتجه نحو الغرب بحثاً عن مساكن جديدة صالحة لإقامة رفاق رحلتي ولكي أنقب فيها وفي كافة المناطق المجاورة لها عن أطلال أخرى.

لا يعجب هذين الحل والترحال خدمي كثيراً، أنهم يلتحفون ملابس «السائس» ويتجمعون حول نار دافئة ويعزون أنفسهم باستنشاق دخان التبغ، وبالسخرية من جنون هذا النصراني الذي يقودهم إلى تلك المناطق القارسة، ويضحكون، ربما يكونون على صواب، من منظره وهو يجوب وديانها وجبالها، دون انقطاع، بينما يهطل المطر أمام مدخل الكهف، وترتعش فرائصه من شدة البرد، الذي يشعر به حتى النخاع.

أما عبدالعزيز الكسول الذي يتعب أحياناً من قراءة القرآن، أو من تكرار التسابيح الكثيرة التي لا تنتهي حول صفات الرسول، وهي تلك الصفات التي منحت له مجاناً، فيتخلى أحياناً عن هيبته كضابط عثماني، وينضم إلى سمر الخدم ولا يتردد في إضافة بعض عبارات السخرية إلى أحاديثهم.

يقوم، في هذه الأثناء، مولر الذي يعاني من آلام شديدة، بإلقاء نظرات حائرة على تلك المنطقة الجميلة التي يحول مرضه بينه وبين ذرعها. إن شوقه إلى التجول فيها يزيد من حدة آلامه. لقد كنا نختار لهذه التنقلات يوماً مشمساً، غير أن التحضيرات للسفر كانت طويلة، ولم أر طقساً متقلباً في أي مكان آخر أكثر من إقليم المدن الخمس. إن أنفس جزء من أمتعتي يتمثل في مكتبتي وتتكون من كتاب سترابو - ترجمة ليترون، وكتاب اللاجيديين Lagides ترجمة شامبوليون، وكتب هيرودوت، وبلين، وديودورس وسولين،

وسينوسيوس، وعدد من كتب الرحلات. إن شكل هذه الكتب لا يساعد على حملها ولكنها ضرورية لأنها تحتوي على ذخائر نفيسة حول هذه البلاد.

أما بقية متاعي فهي أوتاد حديدية لتحريك ورفع كتل الصخور. ومعاول للحفر، وحبال طويلة للنزول إلى الآبار بالإضافة إلى صناديق فارغة للعينات والموجودات، وبسط، وخيام. لا بد من إخراج كل هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى من باطن الكهف وربطها على ظهر البعير. لا يتم أحياناً التحميل إلا وينهمر المطر فنسارع بإنزالها وإدخالها إلى الكهف من جديد ولا نملك سوى الانتظار حتى يصير الجو صحواً.

تهب علينا العواصف أحياناً عند بدء المسير، ولكن علينا أن نتحملها آنذاك، ونواصل السير، ولا اكترث بدوري قليلاً بتقاطيع وجوه خدمي حيث تبدو عليها علامات الغضب.

ينبغي على المرء أن يتصور مدى استغرابهم، وأن يرى عبدالعزيز «الشجاع» صامتاً. دعونا الآن ننهي هذه الحكايات التافهة، ودعونا نصل، تحت أي ظرف مناخي كان، صحواً أو مطيراً، إلى «صفنه» التي تقع على بعد ساعة ونصف إلى الغرب من «الجص».

لقد لفت انتباهي وجود بناية عالية يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة. كانت هذه البناية، عند اقترابي منها، آثاراً لبرج قديم وسط أطلال لقرية. لم تقدم لي آثار تلك القرية أي شيء جديد، غير أن الحفريات التي كانت في هيئة ووضعية جديدة قد عوضتني عن هذا التكرار. لقد لفت الانتباه قبل ذلك إلى وجود ربى صغيرة محفورة أفقياً وكأنها أضرحة شعبية متواضعة ولكنها كانت قوية ولا يمكن تدميرها بسهولة، وذلك كملاذ أخير للفقراء القورينيـين.

أما هنا فقد شاهدت عكس ذلك تماماً، فبدلاً من رؤية تلك الارتفاعات الأفقية، رأيت منخفضات غير منتظمة يتراوح عمقها بين خمسة عشر وعشرين قدماً. توجد في سفوح هذه المنخفضات والحفر قبور دائرية صغيرة على بساط من الخضرة، ويمكن الوصول إليها عن طريق درجات منثورة هنا وهناك.

أما فوق تلك الحفر فيمكن للمرء أن يعثر على مدافن أخرى ولكنها مدافن فاخرة يوجد بها أحياناً تابوت معزول في بهو مكشوف، وأحياناً قباب وأقواس في شكل مخروط ولا تحمل الطابع العربي القديم وذلك بالإضافة إلى التفاصيل السابقة «انظر اللوحة 25 الشكل 2». لم يعطل فحص هذه الآثار القديمة في صفنة مسيرتنا طويلاً. لقد تابعنا المسير

نحو الغرب وننحرف، بضع درجات جغرافية، أحياناً نحو الجنوب. لقد دفعتني بعض المعلومات إلى السير في هذا الاتجاه الذي يصل بنا إلى آثار أكثر أهمية.

إن الأرض التي تمتد أمامنا في هذه المنطقة خالية تماماً من الغابات وأكبر الشجيرات فيها تتكون من أشجار «الشماري» وكما ينمو بها الدرياس في أماكن متفرقة حيث تظهر، بين أوراقه العريضة اللامعة، غصون طويلة تتلألأ في أعلاها فصوص فضية، حرصنا على إبعاد جمالنا، الغريبة عن تلك المنطقة، عنها.

بعد مسيرة ساعة ونصف، وصلنا إلى مكان يدعى «قرنيس»، Ghernès وهي مدينة قديمة حيث شعرت بالدهشة إزاء هذا العدد الكبير من الأبنية التي لاتزال قائمة، في حين أننا قد اعتدنا ألا نرى عادة، في تلك القرى الصغيرة، سوى أكوام من الحجارة.

شاهدت أول الأمر ضريحين أنيقين فوق ربوة ومشيدين مباشرة فوق كهف جنائزي «انظر اللوحتين 24 و 25 الشكل 2 والتفاصيل». شاهدنا بعد ذلك، وعلى مسافة بسيطة، بقايا لمعلم أثري كبير وبه باب أو مدخل تزدان واجهته المخروطية بكوة architrave ومزهرية بارزة. «انظر اللوحة 25 الشكل 3»، كما يشاهد المرء، بعد ذلك مباشرة، قصراً محاطاً بخندق في منخفض صغير، ثم أطلال لحمامات قديمة لاتزال في حالة جيدة.

تثير تلك الحمامات الانتباه نظراً لوجود أقواس وقباب شبه دائرية تنتهي أفقياً، وكذلك في القمة، بحجرات صغيرة مربعة ومبطنة بالإسمنت الذي يستخدم للصهاريج، وبالجبس من الخارج. إن هذا المعمار وهذه التفاصيل ولا سيما النوافذ الصغيرة «ضوايه» التي صنعت في الجانب العلوي لهذه القباب التي تشبه، إلى حد كبير جداً، الحمامات التي نشاهدها في الشرق «انظر اللوحتين 23 و 24 الشكل 1». إن هذه التفاصيل تدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذه الأطلال تعود إلى العهد العربي خاصة وأن آثار المدينة نفسها تمتلك نفس السمات التي تعود إلى نفس العصر.

لاتزال المساكن المشيدة بطريقة بديعة محتفظة بارتفاعها ولا تبعد عن بعضها البعض إلا بمرتين أو ثلاثة. نستنتج من هذا الالتصاق بالنسبة لتلك المنازل وإلى الارتفاع الكبير فيها الناجم عن صغر مساحتها، أن تلك الأبنية لا تعود إلى عصر قديم جداً. إن استخدام العربات التي كانت شائعة جداً، لم يكن يسمح للقورينيين ببناء مدنهم على الطراز الشرقي الحالي الذي لا يمكن أن يكون قد وصل إلى قورينه إلا بواسطة العرب القدامى.

إن هذا الشعب، القديم منه والحديث، الذي لا يعرف مطية أخرى غير الجياد، والذي يقطن أرضاً تحرقها صيفاً حرارة الشمس، قد اتبع، بالنسبة لبناء المساكن، تقليداً استمر حتى يومنا هذا. تمثل هذا الأسلوب فيترك دروب ضيقة بين المساكن مع رفع الجدران بغية زيادة كمية الظل، وتسهيل اندفاع تيارات الهواء. إن هذه التحوطات كانت ضرورية أكثر لسكان الدواخل بالمقارنة بسكان السواحل أو لمرتفعات التي تكثر بها الأشجار والتي يرطب نسيم البحر العليل جوها.

بعد أن تجولنا بين رفاة تلك القرى الحزينة وصلنا إلى العاصمة، أي إلى قرنه الشهيرة التي لا تبعد عنا سوى بضعة مراحل «فراسخ». إن شهرة عجائبها التي ضخمتها المخيلات الملتهبة رغم التشويش الذي يكتنفها، وكثرة شطحات الخيال، قد ملأت أرجاء الصحراء خاصة أحاديث الزنوج في السودان وتومبكتو.

لا بد وأن تحظى تلك الشهرة التي زادت في أوروبا لأسباب أخرى، فضول القارىء الذي سئم، دون شك، إسهابي في الكثير من الجمل الاعتراضية، وهو على صواب ومحق في مطالبته لي بإشباع ذلك الفضول. إن رغبتي لا تقل عنفواناً عن رغبته؛ ولكن نتيجة لذلك الصيت الذائع وللكشوفات التي تبشر بها تلك المدينة، فإنني أخشى أن أهمل بعض التفاصيل الكبيرة التي قد تكون أقل فائدة، لا سيما وأنه لم يعد هناك الكثير من الآثار التي يمكن رؤيتها في إقليم المدن الخمس وهكذا نترك «قرنيس» وتتجه قافلتنا صوب الشمال الغربي عبر الجبال المطلة على الميناء الذي لايزال مشهوراً عند السكان الحاليين وخلافاً لما أتوقع، لم أجد في المدرجات الجبلية التي ذرعتها أية معالم أثرية جديرة بالاهتمام، ولم أصادف دليلاً واحداً على وجود أية طريق قديمة. إن خط السير الذي اتبعته مجهول حتى من قبل البدو في المنطقة حيث كان ينبغي علينا التوقف، بين حين وآخر، لقطع أغصان الأشجار وشق درب أو ممر عبر غابات السرو البري «الشعره» وأشجار العرعر. لقد عطلت مثل تلك العراقيل تقدم القافلة وجعلتنا نسير ببطء وبدون انتظام بل وصعبت علينا عملية تقدير المسافات المقطوعة لأننا تركنا قرنيس عند طلوع الشمس ولم نصل سوسه إلا عند الظهيرة «الساعة الثانية عشرة ظهراً». وهنا نجد، مثلما ما وجدنا في مدينة نوستماثموس، سهلاً مستطيلاً يفصل بين ساحل البحر والمرتفعات المطلة عليه.

لقد ذهلنا، عند وصولنا إلى الشاطىء، إزاء مشهد العديد من المواقع الأثرية العتيقة التي توجد بها. يوجد سور من الصخور وبه ثغرة كبيرة لا يتصل طرفاها ببعضهما البعض

بالقرب من الشاطىء، وقد تكون أساسات لأطلال مدينة ضخمة وقديمة. كانت تلك المدينة محاطة بأسوار ضخمة القواعد تمتد على طول تلك الصخور. لم يتبق منها سوى الجزء الذي توجد به، وعلى مسافات منتظمة، أبراج صغيرة مربعة.

نجد، في الجانب المقابل لهذا الجزء من السور، أن أمواج البحر تتكسر مباشرة على قواعده الضعيفة، بل وتمكنت تلك الأمواج، كما حدث في قرية أريثرون، من فتح العديد من الفجوات، وتكوين الكثير من الألسنة الصخرية التي يعلوها الحطام، هنا وهناك. لم أستطع، من خلال هذا الركام الضخم من الأحجار التي تغطي مكان تلك المدينة القديمة، تمييز أي شيء سوى بقاء أطلال لمعبدين عتيقين يحتوي الأول على عشرة أعمدة بينما يحتوي الثاني على ستة فقط.

إن هذه الأعمدة مصنوعة من الرخام الأبيض المزركش بخطوط طويلة يميل لونها إلى الزرقة وتعرف علمياً، على ما اعتقد، باسم Pentéliques لقد كان هذان المعبدان من المعابد النصرانية وذلك بصرف النظر عن طراز تيجان الأعمدة، وهي دليل على العصر الوسيط «انظر اللوحة 27 الشكلين 1 و 2».

يمكن للمرء أن يرى صلباناً منحوتة بشكل بارز وفوقها كرة أرضية كانت تقترن دائماً، في مناطق أفريقية كثيرة، بأداة القياس المصرية التي تعتبر رمز النصرانية في مصر[1]. «انظر ذات اللوحة الشكل 2». تحملنا تلك الخاصية أو السمة على الاعتقاد بأن أوائل النصارى في إقليم المدن الخمس[2] كانوا يستخدمون نفس التحوطات التي كان يستخدمها سكان الواحات.

من المؤكد، طبقاً للأطلال التي لاتزال قائمة، أن هؤلاء النصارى قد تبنوا صليب قدامى المصريين المفلطح ربما لإخفاء الصحوة المعنوية وراء هذا الرمز العتيق للصحوة المادية[3]. . أي إخفاء تلك العقيدة الناشئة التي لم يكن بوسع أوائل النصارى اعتناقها علناً.

---

(1) L'anse أداة عمارة مصرية تشبه المنقلة إلى حد كبير تستخدم في بناء أقواس الجسور وغيرها. . المترجم.
لقد أقر الصليب المفلطح الأطراف من قبل النصارى في واحة طيبة. ويوجد بمقابر Ghabaouet جنباً إلى جنب مع أشهر مشاهد العهد القديم.

(2) تم التبشير بالإنجيل في قرنه منذ ظهوره. النصرانية الشرقية ـ الجزء الثاني ص 622.

(3) جابلونسكي ـ المقابر المصرية. . Jablonski, Panthéon égypt. L. II. C. 7.

يشاهد المرء أيضاً في قلب هذين المعبدين غرفة مستديرة كبيرة تشبه تلك الغرف التي وصفتها في الأبراج والقصور الرومانية حيث سبق وأشرت إلى السبب في ذلك التشابه بين أبنية ذات غايات مختلفة.

لا يكشف قلب آثار المدينة عن أي أشياء أخرى يمكن التعرف عليها. أما خارج السور، في الطرف الشرقي منه، يمكن للمرء أن يشاهد رصيفاً رائعاً يتكون من ثلاثين درجة على هيئة مسرح «انظر اللوحة 28». وفي الجانب المقابل له، توجد بقايا لحمامات قديمة نحتت في قلب الصخر وهي الآن مغمورة بالمياه. أما الميناء الذي يعتبر أكثر أهمية والهدف الأساسي من هذه الجولة، فيمكنه أن يقدم لنا، رغم اجتياح البحر له، فكرة عن حالته القديمة. يتضح أن صخرتين كبيرتين لا تفصلهما مسافة كبيرة تحملان آثاراً قديمة وكانتا تشكلان المدخل الرئيسي لهذا الميناء. هناك الكثير من الحراشف الصخرية البحرية التي تعتبر امتداداً لهذين الجلمودين. إن هذه الحراشف تمتد نحو الغرب وتحمي ذلك المدخل تماماً، من ذلك الجانب، من كر أمواج البحر التي لم يعوقها كثيراً البروز الأرضي الذي يتقدم إلى مسافة لا بأس بها نحو الغرب. لايزال هذا الميناء، رغم التغيرات التي طرأت عليه في أعقاب انهيارات أرضية، قادراً على أن يكون محطة بحرية جيدة وذلك باعتبار موقعه وشكله القديم. إن الكتّاب القدامى وخاصة سيلاكس يذكرون موقعه الملائم الذي يجعل الدخول إليه آمناً وسهلاً في كل فصل وأوان[1]. لا يمكننا أن نشك في الواقع في أن تلك الآثار التي قمنا بوصفها الآن وخاصة إذا أخذنا في عين الاعتبار موقعها بالمقارنة مع مدينة نوستاثموس[2] هي آثار مدينة «ابولونيا» وأن هذا الميناء هو بالتالي الميناء الذي استخدمته قرنه في العصور الأولى للاستيطان الإغريقي. كان سترابو، وفق ما ذكره ليترون، المؤلف الوحيد الذي حافظ على ميناء قورينه والذي أسماه «ميناء أبولونيا»، أما بقية المؤلفين القدامى فقد تحدث بعضهم، في الحقيقة، عن هذا الميناء دون تحديد لاسمه، بينما كان البعض الآخر يذكر اسم أبولونيا دون الإشارة إلى كونها ميناء..

---

(1) يحدد كل من سيلاكس وسترابو المسافة بين مينائي سوسه «نوستاثموس» وقونه بنحو مائة مرحلة. أما الرحلة المجهولة فتحدد هذه المسافة بنحو مائة وعشرين مرحلة. يدعونا هذا الاختلاف وغيره من الاختلافات المشابهة له، إلى الاعتقاد بأن المرحلة قد حسبت على أساس أنها سبعمائة في الدرجة الجغرافية الواحدة.

(2) بلين الكتاب الرابع، القسم 5.

يمكننا تفسير ذلك على أساسا القبول بأن هذا الميناء لم ينح أي اسم إلا بعد قيام الإغريق ببناء المدينة التي أطلق عليها اسم ابولونيا[1] وذلك تكريماً وتشريفاً للإله الراعي لتلك المنطقة

ظلت هذه المدينة تابعة لقرنه أمداً طويلاً، ولم تك أولاً سوى منطقة مستودعات ومخازن خاصة بتجارتها[2]. قد يكون في وسعنا أيضاً أن ننسب إلى هذه المدينة، وفقاً لما ذكره إتيان البيزنطي، وهو المؤلف الوحيد الذي قال ذلك، أن اسمها أيضاً كان قرنه[3].

مهما يكن الأمر، لقد أصبحت هذه المدينة مستقلة ذاتياً تحت حكم البطالة حيث وضعها هؤلاء الملوك ضمن المدن الخمس التي تشكل «إقليم المدن الليبية الخمس»[4]. يحتمل أن يكون ميناء فيكوس قد حل، خلال هذا العهد، محل ميناء أبولونيا، رغم بعده عن الحاضرة ورغم وجوده في موقع غير ملائم بالنسبة لها[5]. إن هذا هو ما حدث لاحقاً وفق رواية سينوسيوس[6].

نتيجة لإحدى تلك الصدف التخريبية التي ارتبطت بالمدن والامبراطوريات، فقد أصبحت تلك المدينة التابعة بدورها لإقليم المدن الليبية الخمسة «الوجه البحري» تعرف باسم جديد هو اسم سوزيسا Sozysa وهي التسمية التي احتفظت بها حتى يومنا هذا[7] بينما سقطت قرنه الرائعة أشلاء ولم يعد لها بعد ذلك سوى دور ثانوي في تلك البلاد التي حسدتها على ذلك المركز.

---

(1) Wesseling - in. Itin. Roman. p. 732.

(2) سينوسيوس القوريني ـ الرسالة رقم 51 ص 100.

(3) لفظ أبولونيا. يطلق إتيان في نفس هذه الفقرة هذه التسمية على مدينتين في ليبيا فأين تكون المدينة الثانية يا ترى؟ لم يسعفنا أي مؤلف آخر في هذا الشأن.

(4) بلين ـ الكتاب الرابع، القسم الخامس.

(5) Wesseling. in. Itin. Roman. p. 732.

(6) سينوسيوس. الرسالة 51 ص 100.

(7) هيروكليس ـ طبعة ويسلنغ ص ـ 732 والجغرافية المقدسة ص 56. ووفقاً لما ذكره آخرون فإن العاصمة لم تكن أبولونيا في هذا العهد ولكنها كانت بطليموسه «طلمثيه» انظر المرجع السابق ص ـ 283.

انظر أيضاً إلى الدور الذي لعبته سوريا خلال العصر النصراني وكذلك أسماء كبار قساوستها في كتاب لوكيان Le Quien ـ النصرانية الشرقية ـ الجزء الثاني ص 618. تجدر الإشارة إلى أن معنى اللفظ الروماني القديم «سوزيسا» هو «مدينة المنقذ» أي المسيح عليه السلام. . المترجم.

لقد ذكرت آنفاً أن ساحل البحر بالقرب من ابولونيا يتكون من سور صخري يعتبر الامتداد المفلطح لقمة جبال قورينه. يمكن للمرء أن يشاهد بين نهاية كل سور صخري وآخر رمالاً حمراء. لقد حدث هذا اللون بفضل كائنات بحرية ذكر عنها ديلا شيلا معلومات غريبة. إننا نأسف على عدم قيام هذا الرحالة الحاذق بالتجول في مناطق ساحلية أخرى لا سيما بالقرب من نوستاثموس وأريثرون. كان من الممكن أن يثري العلم بملاحظاته السديدة. يمكن للمرء أيضاً أن يملأ الكثير من الخزائن من هذه الأشياء التي يمكن جمعها على هذه الشواطىء مثل النباتات والحيوانات البحرية التي توجد في قلب الأصداف حيث يخلط الإنسان العادي وغير المتمرس، بينها وبين الأصداف البحرية نفسها.

أما بالنسبة لي، فأنا أجهل تماماً هذه الكائنات البحرية. ونظراً لعدم رغبتي في حمل أعباء أخرى قد اكتشف فيما بعد بأنها مجرد رمال أو بقايا تافهة أخرى، فإنني اقتصرت على الاهتمام بأمور تافهة أخرى لكنها انطوت، بالنسبة لي، على قدر من الأهمية. من بين تلك الأمور الملاحظة التي استوحيتها من موقع ميناء قرنه، ومن الساحل القاحل المحيط به الذي يخلو من أي نبات أو عيون.

كان السكان القدامى، لتعويض هذا الجفاف، يشيدون قنوات عبر السهل وذلك من منطقة الغابات أو عند قدم الجبل حتى شاطىء البحر. لازالت بعض بقايا هذه القنوات موجودة... إنها تتكون من كتل صخرية موحدة وضعت على أساس متباين في ارتفاعه حسب طبيعة الأرض وعليها بعض النقوش الرومانية.

لقد كانت تلك النقوش فجة جداً لدرجة أنه كان يتعذر عليَّ تفكيك طلاسمها. قام البولونيون، علاوة على ذلك، بالاستفادة من الأماكن التي تبرز فيها الصخور على وجه الأرض، وجروا إليها مياه الأمطار وحفروا حولها العديد من الصهاريج. إن تلك التحوطات الجديدة من شأنها أن تستمر أكثر من سابقتها «أي القنوات» حيث لاتزال أهميتها قائمة حتى يومنا هذا لأنها لاتزال وحدها تغذي أفراد قبيلة Scénites التي تقطن هذه المنطقة الجرداء[1].

---

(1) ربما تعني هذه الكلمة الإغريقية القديمة قبيلة الحاسة لا سيما وأنها ذكرت أكثر من مرة عند هجوم قبائل الجوار في قرنه على المستوطنين الاغريق... المترجم.

سوف يتذكر الكثير من الناس، وفقاً لهذا الوصف، أحد المشاهد الرائعة للكوميديا القديمة وسوف يعجبون بالرسوم والنقوس المحلية للمؤلف.

إن جدب الساحل حول ميناء قرنه، وصعوبة وجود المياه فيه، والمشقة التي ينبغي على المرء أن يتحملها لكي يحفر بئراً، قد جسَّدها تماماً مشهد مسرحية رودانس عند بلوت Plaute الذي صارت فيه جرة الماء بمثابة أجمل تعبير وأفضل صنيع تقدمه البطلة امبيليسك Ampelisque ولو كان ذلك إلى وصيفها[1]. رغم اعترافي، مع ذلك، وبطيب خاطر، بأمانة النقل المحلي في هذا الفصل من مسرحية الشاعر الروماني، فإنني أرى من واجبي أن أشير إلى بعض الأخطاء التي ارتكبها في أماكن أخرى ليس بالنسبة لوصف الشاطىء ولكن بالنسبة لموقعها النسبي من قورينه. نحن لا نعرف موقع تلك المدينة إلا بفضل المعلومات عن الماضي الغابر. لقد حدد بلين موقعها على بعد ألف ميل من شاطىء البحر[2] أما سيلاكس فقد حدد مكانها على بعد ثمانين مرحلة وأضاف هذا الأخير بأنها تقع على قمة جبل وهو موقع يزيد من المسافة نظراً لصعوبة الوصول إليه. كيف يمكننا أن نوفق بين بُعد قرنه عن شاطىء البحر وبين النزهات التي تقوم بها الشخصيات في مسرحية بلوطوس Plaute من مكان إلى آخر بين ابولونيا وقرنه في فترة لا تزيد عن ثماني أو تسع ساعات[3]؟

زد على ذلك أن بلوطوس لم يذكر مدينة أبولونيا أبداً رغم أن هذه المدينة وحدها هي التي كانت تلائم مسرحية رودانس. صحيح أن إتيان البيزنطي قد ذكر، كما قلنا آنفاً، أن أبولونيا كانت تدعى أيضاً قرنه ولكن هذا المبرر الذي يبدو أنه مجرد ذريعة لعالم، لا يمكن الاحتجاج به لصالح بلوطوس لأنه، مثل هيرودوت وسينوسيوس، قد تحدث عن مجلس الحكم في قرنه Sènat.

لما كنت أخشى أن تتفاقم هذه الملاحظات وتأتي على شكل تعليق مغرور، فإنني أود

(1) مسرحية رودانس ـ المشهد الثاني ـ الفصل الرابع.
(2) بلين ـ الكتاب الرابع ـ الفصل الخامس.
(3) أن مكان المسرحية قرب معبد فينوس الذي يقع بالقرب من ميناء قرنه حيث خرج صادة السمك صباحاً من هذه المدينة.. وحيث يبدأ الفصل الثاني أما الفصل الثالث ـ المشهد السادس، فإن بلوسيديب يجرر تاجر الرقيق أمام قضاة قرنه.. أما الفصل الرابع، فنرى تراشاليون وصيف بلوسيديب، يذهب للبحث عنه ويعود معه من قرنه إلى المشهد الأول من الفصل الخامس.

أن أنهيها بهذه الملاحظة العامة. إن الشعراء القدامى، بصورة عامة، لم يخلصوا كثيراً للدقة الجغرافية، وإنهم قد ساعدوا بذلك على تفسير الجغرافيا وأحياناً على إيجادها. إذا وجدنا بلوطوس هنا مخالفاً لهذا المبدأ فذلك يرجع إلى كونه قد اقتبس موضوع مسرحيته من المؤلف الأغريقي Diphile كما ورد في مقدمة المسرحية. ربما قام بلوطوس، بفضل توزيع جديد للمشاهد، إلى تغيير هذا أو ذاك المكان الذي قد يكون قد ورد بكل أمانة في النص الأصلي.

الفصل الثاني عشر

منتجع بدوي

لقد تحدثت آنفاً عن حروب طاحنة كانت تمزق بدو برقة، ثم قمت بوصف السمات الشخصية لشيخ يحب أعمال البر بالإضافة إلى حب الخير، وقلت إنه كان يعيش منزوياً في وادٍ هادىء.

لما كنت مؤرخاً يتسم بالدقة ليس فيما يتعلق بمغامراتي الكسولة، بل فيما يتعلق بالوقائع التي يمكن الاستفادة منها في وصف تلك القبائل، ولذا فإنني سوف أحاول أن أقدم فكرة عن واقعة جديدة. قد يحل مدى وفائي للرواية، مثلما حدث في القصة السالفة، محل موهبة الراوي.

تركت أبولونيا منذ الصباح الباكر بحثاً عن آثار عتيقة أخرى في طريق قرنة القديم أو في الجوار، غير أن بحثي كان بدون جدوى بسبب قلة المعلومات أو اندثار هذه الآثار واختفائها. لقد قادني هذا التقصي إلى مكان بعيد عن قافلتي. وكنت أقطع المناطق الجبلية برفقة أحد البدو الذي يصحبني خلال هذا البحث الطويل ونصحني، عدة مرات، بالعودة إلى سوسة، غير أنني لم أعترف بجدوى نصائحه إلا في وقت متأخر جداً.

بدأت سماء الصباح المشرقة تتلبد بالغيوم شيئاً فشيئاً. إن العواصف في إقليم المدن الليبية الخمس قصيرة غير أنها تهب وتسكن بصورة فجائية. كان المطر الذي تعصف به الرياح يجبرنا على اللجوء إلى الأماكن الأكثر كثافة في الغابة. لقد حل الظلام ولم تهدأ العاصفة خلافاً لما كنا نتوقع. لم تهدأ العاصفة لحظة إلا لكي تبدأ من جديد بصورة أكثر عنفاً وشدة، ولذا كان ينبغي علينا أن نعثر على مكان نلوذ به لقضاء هذه الليلة. ها نحن الآن نشق الغابة ونغوص تارة بين الأحراش ونصطدم تارة أخرى بأغصان وفروع أشجار السرو

البري التي يزيد لونها القاتم من حلك الظلام. عفواً لقد نسيت بأنني كنت قد وعدت القارىء بألا أحدثه عن نفسي، ولذا سوف أقوم بإعفائه من سرد أحداث تلك الليلة وتلك الجولة المشؤومة، وأدخل به فوراً إلى منتجع «نجع» البدوي الذي وصلنا إليه صدفة رغم رداءة الطقس. كان ذلك المعسكر البدوي في حالة من النشاط والحركة وكان دليلي من أقرباء شيخ ذلك النجع. سمحت لنا هذه القرابة التي اعتمد عليها دليلي بالحصول على مكان في الخيمة الرئيسية دون أن ألفت الانتباه، كما جرت عليه العادة، وكان الحضور جميعاً يتحدثون عن أمور ومصالح كبرى.

بينما كان الصخب كبيراً في المنتجع خيم الصمت فجأة في الخيمة التي أجلس فيها وكان هذا الصمت المطبق أقسى من ذلك الصخب إذ بدا وكأنه الغضب المركز. كانت علامات الحزن الشديد تظهر على الشيخ الذي كان حانياً رأسه على صدره وواضعاً إحدى يديه على لحيته والأخرى على سلاحه. كان سكون جسده يكشف عن الحركة في نظراته، وكانت تعابير عينيه متباينة بين اليأس والاستلام، وبين السخط والحنو وكأن تلك الأحاسيس تتنازع فيما بينها مرة منتصرة ومرة مهزومة.

كان أعيان القبيلة جالسين على شكل قوس بالقرب منه. يشعر المرء، رغم اختلاف وضعية جلوسهم، بأن فكرة واحدة تسيطر عليهم جميعاً لأن كل واحد منهم كان مطرق الرأس وكان بصره ثابتاً على الأرض بحزن شديد ثم يلقي، بين الفينة والأخرى، نظرة على كوم من القماش وضع في وسط هذا الجمع.

لقد كانت بعض المشاعل الموضوعة أمام مدخل الخيمة تدفع ألسنة اللهب إلى داخلها، وفقاً لقوة الريح، وكان الضوء يخفت تارة ويسطع تارة أخرى. لقد كان الضوء يكشف عن أنبل اوسلحة تارة وعن الملامح الساخطة للحضور تارة أخرى. لا تنشر تلك المشاعل على هذا المشهد الصامت سوى ضوء خافت جداً أشد قسوة من الظلام الدامس تارة ثالثة.

نظراً لأنني لم أتجرأ على طرح أي سؤال على أي شخص، فضلت الانتظار حتى يتحدث أحدهم لمعرفة سبب ما يدور في هذا المنتجع البدوي. لمحت بعد ذلك، في الغابة المجاورة، بعض البدو يحملون مشاعل وفي مقدمة المجموعة امرأتان تهرولان مسرعتين نحونا ثم دخلتا أو بالأحرى ألقتا بنفسيهما داخل الخيمة. عند ذلك، قام الشيخ من مكانه وعلت علامات العبوس أسارير وجهه ثم بدأت حركات التشنج تعرقل إشاراته ووضع يديه

على كوم القماش ورفع جزءاً منه قائلاً «هذا هو ابنك يا زهرة . . وزوجك يا سليمة . . » . لقد كان جسد ذلك الشاب هامداً ودامياً .

عندما رأيت هذا المشهد غير المتوقع ، لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بالهول لأن المشهد حولي قد تبدل حيث حلت شلالات الدموع محل رباطة الجأش لدى الشيخ ، وحل السخط والحنق محل الصمت المطبق لدى الجميع .

رغم قوة الضجيج الذي ساد الخيمة ورغم صرخات اليأس ، دوى عويل الأم المنكوبة في جميع أرجاء النجع حيث علا صوتها على كل الأصوات كما لو كان الألم الذي أصاب الأم يمتلك قوة غير طبيعية أو كما لو كان ينبغي لهذا الألم أن يفوق كل الآلام . إن هذا المنظر الذي يمزق نياط القلب بسبب موضوعه المريع ونتيجة لطريقة التعبير عنه ، قد اقترن بسواد الليل الحالك ، وبشدة العواصف المزمجرة ، وقد كان له أعمق التأثير على نفسي لقد كان يبدو لي وكأن الطبيعة قد تكيفت مع ضوضاء الإنسانية حيث اختلط دوي الريح في الغابة مع صخب المنتجع ، وكانت ألسنة البرق الطويلة تنشر ، أثناء نفاذها إلى الخيمة ، ضوءًا شاحباً على هذه اللوحة الفظيعة . بدأت العاصفة ، في تلك اللحظة ، في الهدوء غير أن هدوء العاصفة زاد من حنق الرجال ولم يعد المرء يرى أي مجال لعلامات الغضب العام أو الصياح الساخط بل بدأت أسمع كلمات وعبارات مختلفة مثل «الدم . . الدم . . الثأر . . الثأر» وهي تردد في كل مكان . . كانت الجياد تسرج في كل مكان أيضاً وكانت فرقعة أزندة البنادق تصل إلى مسعى من كل مكان كذلك . كانت النسوة فقط مستمرة في العويل والنحيب ويتجولن بين أرجاء النجع وشعورهن تغطي وجوههن ويرفعن أطفالهن الصغار على صدورهن ثم يدفعن بهم إلى وجوه الحضور ويولولون طويلاً حيث تردد الجبال هذه الولولة . لقد كانت تلك النسوة تحرض الرجال على القتال .

كان عدد كبير من البدو قد هم بالتحرك وكان الشيخ في المقدمة . لقد تركت خيمته لأنها كانت موضعاً للحداد والحزن . لقد حاولت مجموعة من البدو منعي من الحصول على ملاذ في الجوار ولكن رغم الضجيج وصخب الأصوات المنتحبة ورغم تأثري البالغ بالعديد من المسائل العظام ، استطعت أخيراً أن أنال قسطاً من الراحة .

الفصل الثالث عشر

رأس فيكوس - مدينة البعل - حدائق هسبيريدس
بارقي «المرج» بطليموسه «طلمثية»

ها أنذا أغادر أبولونيا تاركاً قرنة على يساري، مواصلاً مسيري نحو الغرب. إجتزت الكثير من المدرجات الجبلية العالية التي ترسم في الأفق على هيئة مرفق الإنسان ممتدة نحو الشمال ومكونة الرأس الأرضية التي يحيط بها الضباب من كل جانب. كنت، خلال جولاتي، قد وقفت أو اقتربت، مرات عديدة، من مثل تلك الواجهات الصخرية غير أنني لم أتمكن خلال تلك الفرص، كما هو الحال الآن من زيارتها.

مع ذلك، وتعويضاً عن النقص الذي يمثله عدم الحديث عنها في هذه الرواية فإنني سوف أستقي بعض المعلومات من الدراسات القديمة حول هذا الرأس. لقد ذكر سترابو أن تلك الرأس الأرضية أقرب بروز أرضي من البحر على الساحل الليبي وكانت تعلوه مدينة صغيرة[1]. أما بطليموس[2] فقد ذكر وجود حصن يدافع عن تلك المنطقة غير أن سينوسيوس يقول بأن «المكان خطير بالنسبة للسكن بسبب المياه الآسنة والروائح الكريهة التي تنبعث منها» كما تحدث عن وجود ميناء عند الطرف الغربي لهذه الرأس الأرضية[3]. أكدت الرحلة المجهولة حيث إن المنطقة المجاورة لهذه الرأس الأرضية كلها صخرية وعرة عدا مكان واحد تغطيه الرمال «يمكن للمرء أن يستريح فيه» وفقاً للتعبير الذي ورد في هذه الرحلة.

---

(1) سترابو - الكتاب 17 القسم الثالث.

(2) بطليموس - الكتاب 4 الجزء الرابع.

(3) سينوسيوس - الرسالة رقم 113.

يبدو أن هذا الميناء الذي صار فيما بعد ميناء قرنه، أي خلال فترة انحطاط إقليم المدن الخمس قد عرف منذ أقدم العصور التاريخية لا سيما من قبل الفينيقيين الذين أسموه برأس فيكوس[1] أي فينيقوس.

يمكن، وفقاً لتلك الملاحظات، للمرء أن يحاول التعرف على آثار الآية جالية من هذا الشعب الحاذق في التجارة وذلك من خلال المعالم الأثرية المشيدة في «قصر المقدم» التي توجد على قمة الجبل الذي يبعد قليلاً عن ميناء فيكوس.

أميل، وفقاً لما أجرته من حسابات خاصة، إلى تقدير المسافة بين هذه الأطلال ورأس فيكوس بنحو اثني عشر فرسخاً بحرياً إلى الغرب من قرنه. قد تكون تلك التقديرات غير مؤكدة أو أكيدة نظراً لتعرج خط سيري ولكنها لا تمنعني من الاعتقاد بأن مدينة «بن مقدم» هي مدينة بالاكريس Balacris العتيقة التي تقع على طريق طلمثية التي تبعد خمسة عشر ميلاً بحرياً عن قرنه حسب تقديرات بطليموس وإثني عشر ميلاً وفقاً لحسابات بوتانجية Peutinger. إن هذا المؤلف الأخير يقول بأن تلك المدينة كانت تحوي معبد أسكولاب Esculape لكن هذا القول غير كاف، ولن يحظى بأية أهمية علمية لو لم يوجد شبه آخر استندت إليه في وضع فرضياتي.

إن اسم بالاكريس يذكرنا، في واقع الأمر، باسم «باليس» Balis التي يوجد منه الكثير خاصة في يهودا «الضفة الغربية لنهر الأردن. . المترجم» والتي تقع، وفقاً لما ذكره إتيان البيزنطي، بالقرب من قرنه. اقد اكتسبت المدينة تلك التسمية بفضل الرب بعلوس Baâleus الذي كان معبد بها. إن هذا البعلوس هو نفسه الإلّه البعل، أحد آلهة آشور وفينيقيا. لم يفت العلاّمة، الذي حقق لكتاب إتيان البيزنطي، هذا التشابه في التسمية فاستنتج بأنه لا يمكن لاسم باليس أن يستند إلى اشتقاق غير هذا[2].

نحن نعرف أيضاً أن الفنيقيين قد شيدوا العديد من المدن على الساحل الأفريقي، وأطلقوا عليها أسماءهم. إن هذا أمر معروف في التاريخ لا نحتاج في إسناده إلى أي شهادة أو دليل. إذا جمعنا تلك الملاحظات المتخلفة فإننا سندفع إلى الاعتقاد بأننا موجودون في أكثر مناطق برقة أهمية حيث يرجع تأريخ الآثار فيها إلى ما قبل الاستيطان الأغريقي.

---

(1) تطلق الرحلة المجهولة اسم «فينيقيوس» على ميناء فيكوس انظر ص Iriarte 486.
(2) انظر Pinede، في إتيان البيزنطي عبارة باليس رقم 28.

لنفحص، مع ذلك، هذه الآثار ونَرَ فيما إذا كانت حالتها تساعد على تعزيز تلك الافتراضات بطريقة ما.

إن موقع هذه الآثار موقع شاهق في أوحش مناطق برقة حيث تحيط به أودية سحيقة ومتعرجة كثيرة الممرات الضيقة. أما من ناحية الشمال فإن الجبل يتدرج في الانخفاض حتى ساحل البحر بخلاف الناحية الجنوبية التي توجد بها روابٍ مرصعة بالحصون. أما فيما يتعلق بآثار «بن مقدم» نفسها فهي أطلال مبعثرة ومتفرقة يقع جزء منها في عرق الوادي بينما الجزء الآخر على منحدرات وعرة.

يمكن، ها هنا، للمرء أن يجد حفريات في قلب الصخور غير أن مظهرها لا يدل على كونها قد سكنت من قبل أو على استخدامها كمساكن وقبور نظراً لعدم وجود مداخل منتظمة بها أو قباب موحدة أو قاعات مستطيلة.

ليست هذه الحفريات سوى كهوف أغلبها من صنع الطبيعة إذ يمكن أن نشاهد فيها، هنا وهناك، آثاراً فجة للأزميل وتكثر بها نباتات arum وaristoloche كريهة الرائحة. وهكذا، رغم أن آثار «بن مقدم» تذهل المخيلة بفضل ما يكتنفها من قدم وغموض إلا أنها لم تقدم لنا أية معلومات حول فرضياتي السالفة.. أي سكن الفينيقيين لهذه المقاطعة أو عدمه ولا يوجد أي دليل يؤيد أو يخالف ذلك. لن أهتم كثيراً ببعض الإشارات المنحوتة، بطريقة فجة، على جوانب تلك الكهوف. لقد شرحت سبب ذلك من قبل. إنني أجد الآن تلك النقوش في مكان يحتمل أن يكون قد عمر بالفينيقيين ولكنني، وجدتها أيضاً على جدران قصر عربي قديم. دعونا نتطرق الآن إلى موضوع آخر. أرى أنه من الملائم، قبل أن نبتعد عن رأس فيكوس، أن نبحث في مسألة هامة تتعلق بهذه الرأس وذلك وفقاً لفرضياتي - أقصد موضوع «رياض هسبريدس» الشهيرة[1]. لقد أجبرت على الشك في آراء علماء مثل مانير وثريج Thrige ومالت بران الذين أربكهم اللغط في المعلومات القديمة بشأن حديقة هسبريدس Hespérides ولذا أختاروا أيسر السبل وجعلوا هذه الحديقة من بنات الأفكار الشعبية وليست أمراً واقعاً أي في الأساطير وليست في الجغرافية كانت الأفكار الخرافية تقترن قديماً، وفي أغلب الأحيان، بالتاريخ بل وتمتزج به كثيراً لدرجة أنه يصعب على المرء أن يفرق بين تلك الآراء والتأريخ نفسه ولكنها ليست مستحيلة أو غير مرجحة مع ذلك نظراً

(1) تعني هذه العبارة «رياض الآلهة» وقد أطلقت هذه التسمية على مدينة بنغازي أبان العهد الدوري وتشييد مدينة برنيقة.. المترجم.

لأننا رأينا تأريخياً أن هذه الحديقة قدوضعت تارة في جزيرة من جزر المحيط وتارة أخرى في أقصى غرب افريقيا ثم أخيراً في برقة.

لا ينتج عن تلك الآراء بأن تلك الحديقة واحدة لأن التشابه في التسمية يمثل، كما يبدو لي، فكرة واحدة، ولكنه لا يمثل موقعاً واحداً فلا شيء يمنعني إذاً من الاعتقاد بوجود حدائق هسبريدس مختلفة أخذت اسمها من موقعها الغربي في المناطق المختلفة، لا أرمي، ها هنا، إلى تناول موضوع هذه الحدائق أو مختلف المناطق المختلفة. لا أرمي، ها هنا، إلى تناول موضوع هذه الحدائق أو مختلف المناطق التي عرفت قديماً بهذا الاسم، بل سوف أكتفي بهذه الحديقة التي حدد التأريخ القديم موقعها في برقة. لقد شهد على وجودها في تلك المنطقة مؤلفون كثر منهم سيلاكس وهيرودوت وسترابو وثيوفراست وغيرهم.

لقد ترك لنا الكاتب الأول وصفاً مفصلاً عنها يكفي وحده لإثبات أن تلك الرواية تستند إلى ركيزة جغرافية نظراً لأنها تتمشى مع مظهر وشكل وفتوحات المنطقة تماماً. لقدآثار شاهد عيان حصيف جداً وهو ديلا شيلا Della-Cella هذه الملاحظة من قبل، ولكنه لم يسهب فيها، ولذا فإنني أحاول سد الثغرات التي نسيها بفضل التفاصيل، وسوف أبدأ مثله بالاستشهاد بفقرة من سيلاكس: ـ «إن الخليج الذي يشكله رأس فيكوس صعب. . وهنا توجد حديقة هسبريدس. . وهو مكان من ثمانية عشر ضلعاً Oryges تحيط به الحوالق الوعرة والشاهقة من جميع الجهات ولا يمكن الوصول إليه من أي جانب من تلك الجوانب. . يبلغ عرض هذا الصرح نحو مرحلتين في جميع الاتجاهات، كما أن طولها يساوي عرضها. إن هذه الحديقة مليئة، بالأشجار المتراصة التي تتشابك أغصانها وهي مكونة من نبات اللوتس وشتى أنواع التفاح والرمان والآجاص والكرز والتوت وحب الآس أو المرسين، وأشجار الغار وأشجار الزيتون البستانية والبرية والعديد من اللوزيات»[1] هل يمكن للمرء أن يجوز بأن هذا الوصف التفصيلي لا يمكن إلا أن يكون من قبيل الخرافة؟ أليس هذا الوصف عبارة عن طوبوغرافية لا علاقة لها، كما سوف نرى لاحقاً، بالخيال أو الأسطورة؟ يمكنني أن أضيف بأن جميع الأشجار التي ذكرها سيلاكس ما عدا الجوز «اللوز الخزائيني» والآجاص موجودة حتى يومنا هذا في إقليم الغابات في برقة. إذا سلمنا بأن هذا الوصف واقعي ولا علاقة له بأي خرافة، فإنه ينبغي لنا أن نبحث عن المكان الحقيقي الذي يلائم هذا الوصف أكثر في تلك المنطقة.

(1) انظر سيلاكس طبعة غرونوف ص 110.

إن الرأي السائد لدى كافة العلماء يحدد موقعها بالقرب من برنيقة Bérénice وذلك نظراً لأن هذه المدينة كانت قد سميت في أول الأمر، باسم هيسبيريس Hespéris ولذا منحت اسمها للحديقة أو العكس. إن الشكل الجغرافي ومنتوجات هذه المنطقة بالمقارنة بما ذكره سيلاكس تناقض تماماً هذا الرأي. إن برنيقه أي بنغازي الحالية تقع في أقصى غرب إقليم المدن الخمس وتفصلها عن منطقة الغابات مسافة ستة فراسخ بحرية تقريباً أي بينها وبين المرتفعات الممتدة وراءها حتى هضبة برقة. إن منطقة بنغازي عبارة عن ساحل أجرد وقاحل وكثير الرمال ولكنه منبسط وحجري، بصورة عامة، وتكثر به أشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك.

هذا هو موقع برنيقة القديمة وضواحيها التي أطلق عليها ليكان Lucain[1] لقب «المحرقة». نتفق إذاً على أن هذا الموقع يتناقض مع «المكان الذي تحيط به الحوالق الشاهقة من كل جانب والذي يصعب الوصول إليه من أي جانب من الجوانب» كما يخالف وصفه «بالمكان الذي تكسوه خضرة زاهية» والذي أدى وصفه الدقيق إلى اعتباره أسطورة من الأساطير، بل ولا يتمشى مع الفكرة التي قدمها لنا الكتّاب القدامى عن حدائق هسبريدس ومع خصوبة إقليمها الذي تم اعتباره من أفضل أقاليم برقة[2]. لا أجهل أن البعض لم يتورع حتى ذلك الحين، احتراماً للآراء السائدة، وللتقاليد المحلية، في وضع هذه الحديقة قرب برنيقه وفي التشبث بهذا الرأي. إن وجود بعض شجيرات التين البري والخروب مبعثرة هنا وهناك على رقعة صغيرة من الأرض الطينية قد أقنعهم بأن برنيقة تفي تماماً بهذا الوصف القديم. بالنسبة لي أنا شخصياً لا أخشى أن أتصدى إلى هذا الضرب من الآراء عندما أجدها لا تطابق طبيعة الأماكن التي زرتها وذلك لأن رأيـي في التبحر العلمي ليس له، دون شك، ذاك الوزن والقيمة. لن أضيع الوقت لمدة طويلة في تقويض الرأي الذي ذكرته. سوف استخدم ناظري وحسبي تعويضاً بها عن غزارة العلم، وسوف أسعى إلى التعرف على الموقع الفعلي لحديقة هسبريدس البرقاوية. أميل، بعد أن تزودت بهذا العون المتواضع، إلى التمسك بفكرتي وسوف أغض الطرف عن برنيقة القاحلة وأتسلق رأس فيكوس وأستريح قليلاً بالقرب من ميناء الفينيقيـين.

سوف أشعر بالسرور إذا اعتبرت أن هذا الميناء هو نفسه الذي نزل به الأرغونوت

---

(1) الحضارة الزاهية. الكتاب التاسع - الجزء الخامس ص 524.

(2) هيرودوت - الكتاب الرابع. ص 198.

Argonautes عندما دفعت الرياح الشمالية مراكبهم نحو ليبيا في الوقت الذي كانوا فيه بالقرب من رأس «ماليه» Malée. سوف أقوم بتقدير قياسات رأس فيكوس بعيني، وسوف أجوب الغابات الكثيفة والأجمات التي تغطيه. سوف أقوم أيضاً بحصر الأشجار والشجيرات التي أصادفها وعندما أجد نفسي أمام مكان «محاط بحوالق شاهقة ولا يمكن الوصول إليه من أي جانب» دعوني أحلم أو أتوهم، فإني أعتقد بأنني قد وصلت إلى حديقة هسبريدس القديمة، بل وسوف أقوم بأكثر من ذلك، واشرح الرموز البلاغية والأمثال القديمة برموز أخرى: إن التنين العنيف الذي كان يحرس الحديقة الغامضة سوف يكشف عن ظهره الصخري أمام ناظري وسوف يحيط بفضل حراشيفه المتعرجة تلك الحديقة ويحميها من دخول الأرغونوت من جنوة وبروفونس حتى يومنا هذا. إنني لن أخسر إذا تخيلت ذلك.

لقد استوحيت هذا التوهم من بلين الذي رأى ذلك بنفسه بالقرب من تنين ليكوس Lixos الذي يقف الآن قرب منطقة «أعمدة هرقل» مثله في ذلك مثل تنين بيلوبونيز القديمة، متحدياً كل عوامل التعرية وينتظر تفسيرات العلماء. إن شكل تلك الرأس الأرضية التي تشبه تقريباً رأس فيكوس وما يعلوها من صخور بارزة، وما تخللها من لسان مائي، جعل الإغريق القدامى، وفقاً لما ذكره ذلك المؤرخ الطبيعي القديم، يدّعون بأنها محروسة من قبل تنين[1].

ومع ذلك، رغم أنه من المفيد أحياناً أن ينزل المرء عن ذوقه ورغبته، فإنني أتوقف هنا عند هذا الفيض من الفرضيات التي أرجو أن تحظى بقبول حسن لدى أشدالنقاد حدة.. أواصل رحلتي الآن وأنا مستعد للحلم من جديد إذا سنحت لي الفرصة مجدداً. أترك إذاً آثار «المقدم» واتجه مباشرة نحو الغرب عبر أودية وغابات متنوعة بشكل واضح. وصلت بعد ذلك إلى الطرف الغربي لهذه الهضبة فنزلت منحدراتها حتى وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام أطلال لمدينة قديمة تبعد ثلاثة أو أربعة فراسخ بحرية عن الساحل وتقع وسط مجموعة من الهضاب في سهل صغير وخصب يطلق عليه السكان اسم «المرج».

لقد شاهدت به آباراً عميقة وبعض القبور وأجزاء من جدران كبقايا من العصور السحيقة وهي آثار لا أهمية لها في حد ذاتها ولكنها اكتسبت أهمية كبرى لأنها أدت إلى

---

(1) انظر بلين ـ الكتاب الخامس.

ملاحظة وجود مدينة قديمة كانت قد لعبت، في هذا المكان، دوراً بارزاً في تاريخ برقة. إن تلك المدينة القديمة هي «بارقي» Barcé. سيكون من قبيل الحشو هنا أن نتطرق إلى الخلط الذي وقع فيه العديد من المؤلفين، من القدامى والمحدثين، بينها وبين طلمثيه التي تقع قبالتها على شاطىء البحر. لقد أثبت مانير وثريج وغيرهما من العلماء، بما فيه الكفاية، هذا الخطأ الذي لم يعد يشكل أي معضلة بعد شهادة ديلاشيلا الواضحة، وبعد أن اقتنعت بما شاهدته بنفسي.

وهكذا فإنني أرفض روايات سترابو، وبلين، وسويداس Suidas، وسرفيوسServius بل ورواية إتيان البيزنطي الذي أطلق على المدينتين، لكي يحسم كعادته الصعوبة التاريخية، نفس التسمية[1]، وأتقيد فقط بالمعلومات التي قدمها لنا بطليموس[2] وقدمها قبله سيلاكس الذي فرق بين المدينتين وحدد موقع إحداهما في الدواخل على بعد مائة مرحلة من ساحل البحر، وحدد موقع الأخرى «أي طلمثيه» على الساحل مباشرة[3] وهذا يتفق تماماً مع الوضع الجيولوجي للمنطقة، ومع الآثار الموجودة بها. دعونا نلقي نظرة الآن، قبل الموافقة على هذا الرأي، على حوليات هذه المدينة الشهيرة التي احتفظ التأريخ بأهم سماتها وملامحها.

قد يكون بوسعي أن اعتقد، خلافاً للرأي الوضعي الذي صرح به هيرودوت، ولكن باستقرار ما ذكره في بعض الفقرات، إن بارقي كانت قد شيدت من قبل إخوة اركيسيلاوس، الملك الرابع لقرنه[4]. أما إتيان البيزنطي فقد أكد على أنها بنيت من الطوب وأن الذين أسسوها هم برسيه Persée وزاسينت Zacynthe وارسطوميدون Aristomedon وليكيس Lycus. لا تختلف هاتان الروايتان إلا ظاهرياً إذ يحتمل أن تكون الأسماء التي ذكرها إتيان أسماء لإخوة اركيسيلاوس، وأن يكون هيرودوت قد غض الطرف عن ذكر أسمائهم. ربما أكون أيضاً قد قدمت ها هنا استنتاجات شخصية. يؤكد القديس جيروم St. Jerôme أن بارقي كانت عاصمة لقبيلة ليبية[5]. لقد وجدت كذلك العديد من الفقرات في مؤلف هيرودوت التي تؤيد هذا الرأي حيث ورد، تحت حكم الملك الثالث لقرنه، ذكر اسم

---

(1) انظر إلى عبارة بارقي Barcé.
(2) الكتاب الرابع ـ القسم الرابع.
(3) سيلاكس ـ طبعة غرونوف ص 109.
(4) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 160.
(5) Epist and Dardan.

للملك الليبي المحلي «اذكران» Adicran الذي كان يشعر بالتذمر من الاجتياح القوريني لأراضيه فطلب يد العون من المصريين من أجل طردهم[1]. ورد بعد ذلك أيضاً لدى سيلاكس أن اركيسيلاوس قد تحالف مع «العزير» Alazir ملك بارقي ثم لجأ بعد ذلك إلى هذا الأمير[2]. هذه الأسماء ليست إغريقية كما لاحظ ذلك مانير وأن هذه السلسلة من ملوك ليبيا التي تعاملت مع دولة قوية مثل مصر، والتي تحالفت مع الأسرة المالكة في قرنه تفترض بالضرورة وجود قرابة سلطوية ونقطة ارتكاز أو مقر خاصة وأن سكان بارقي كانوا متقدمين من الناحية الاجتماعية نظراً لأن الروايات التأريخية قد ذكرت بأن مينيرف Minerve كان يدربهم على قيادة العربات الحربية، وبأن نبتون Neptune كان يدربهم على ترويض الخيول[3]. يحتمل ألا تكون بارقي قد شيدت من قبل الإغريق في العهد الذي ذكره هيرودوت ويحتمل أنها كانت قرية كبيرة قبل ذلك عندما كانت القرى الجنوبية في إقليم المدن الخمس صغيرة أي مجرد منطقة فسيحة ومحاطة بأسوار تتسع لوضع قطعان الماشية وبناء أبراج عالية من أجل الدفاع عنها.

نستنتج من رواية هيرودوت أن حكام بارقي حتى بعد اختلاط البرقيين بالإغريق، استمروا في حكم البلاد. إن انتقام هؤلاء الحكّام من أركيسيلاوس، وهو الانتقام الذي طال ملكهم العزيز، قد أثار أحداثاً معروفة بما فيه الكفاية وسيكون من قبيل الإطناب أن نكرر سرد هذه الأحداث. لعلَّ الجميع يتذكرون أيضاً حملة أرياندس وحيلة أمسيس الحربية للاستيلاء على بارقي والعنف والخسة التي مارستهما فيرتيـيم Phérétime. لقد أدت تلك الكارثة إلى تقويض المدينة وحولت سواد السكان إلى عبيد تم إرسالهم إلى مصر ومنها إلى باكتريان Bactriane حيث أسس هؤلاء الأسارى قرية صغيرة حملت نفس الاسم أي اسم مدينتهم الأم. صمت التأريخ بعد ذلك عن مدينة بارقي ولم يستأنف ذكر حولياتها إلا عند التطرق إلى كارثة جديدة أدت، رغم كونها أقل حدة من سابقتها، إلى توجيه ضربة قاصمة للوجود السياسي البرقي.

حالما سيطر البطالمة على إقليم المدن الخمس تم تأسيس مدينة على الساحل في نفس المكان الذي كان يعتبر ميناء لبارقي وبنفس الطريقة التي أنشأت بها أبولونيا قرنة.

---

(1) هيرودوت ص 159.

(2) المرجع السابق ص 164

(3) انظر إتيان البيزنطي ـ عبارة بارقي.

بدأت المدينة الجديدة في الاتساع واستقطبت الإغريق من سكان بارقي القديمة، بل وكانت سبباً في ذهابها طي النسيان لدرجة أن أغلب الجغرافيين قد خلطوا بينها وبين المدينة الجديدة.

استمر الليبيون، مع ذلك، في العيش في بارقي القديمة «المرج الحالية» ولكنها تحولت إلى مدينة إغريقية. لقد عاد سكانها إلى عاداتهم القديمة وبدأت غزواتهم من جديد وذاع صيتهم، بصورة كبيرة، بسبب السلب والنهب لدرجة أن جميع السكان في برقه انضموا إليهم حيث أطلق على الجميع اسم «البارقيون» Barcéens.

تلخيصاً للوقائع والأحداث والفرضيات التي أثرتها حول مدينة بارقي، لا ينبغي أن يشعر المرء بالدهشة من الظلام الذي أحاط به التأريخ هذه المدينة وحول عدم ذكرها من قبل بعض المؤرخين مثل الأتروب Eutrope واميان Ammien وسينسيوس وانطونان Antonin وهيرقليط Hiéroclés وبروكوب Procope. يبدو لي، مع ذلك، أن هذه المدينة التي كانت آهلة بالسكان الليبيين فقط قبل الاستيطان الإغريقي والروماني، قد تجاوزت كل الكوارث بل وبدأت، بعد اختلاط الليبيين بالإغريق والرومان، تلعب دوراً هاماً في العصر النصراني حيث ظهر منها كبار القساوسة في هذه الديانة وكانت حتى تلك الآونة، منفصلة أو مستقلة عن طلمثية أو بطليموسه[1].

عادت، أخيراً، بعد سقوطها في أيدي المسلمين، إلى مصيرها البدائي إن جاز لنا التعبير. لقد قامت الهمجية بإعادة بناء جدرانها ورفع أبراجها لنشر الذعر والفزع من أعالي تلك البروج، وأحاطتها بمفازات قاحلة حيث منحت اسمها بعد ذلك إلى الإقليم بأسره وذلك بنفس الطريقة التي منح بها البارقيون اسمهم إلى كافة القبائل المحيطة بهم. دعونا نذهب الآن إلى طلمثيه أو بطليموسه التي أشرت إليها من قبل. حالما هبطنا آخر مدرجات الجبل رأيناها أمامنا، وهي تبعد عن شاطىء البحر، كما ذكر سيلاكس، نحو مائة مرحلة. تمثل هذه المدينة أطلالاً لمدينة البطالمة حيث حافظ السكان الحاليون عليها وفقاً لما تسمح به لغتهم وأسموها «طلمثية». لقد اكتسح البحر أغلب تلك الآثار مثلها في ذلك مثل أغلب المناطق التي زرتها، غير أن بعض الأبنية والبقايا الهامة مثل كتل الرخام وأعمدة المرمر والبورفير توجد هنا بأعداد هائلة حيث يمكن رؤيتها من بعيد وبكل وضوح من خلال شفافية مياه البحر هامدة على القاع.

---

(1) الجغرافية المقدسة ص 283 و 284. يذكر لوكيان Le Quien في كتاب النصرانية الشرقية، الجزء الثاني ص 626 أسماء ثلاثة من كبار القساوسة في بارقي وذلك بمعزل عن قساوسة طلمثية.

سوف يكون من العسير، وفقاً لهذا الوصف، أن نعرف شيئاً ما عن وضعية ميناء المدينة القديم. إذا حكمنا على هندسته من حالته التي يوجد عليها الآن، فإنه سيكون من الصعب علينا أن نصفه بصورة أكثر دقة من وصفنا لميناء أبولونيا. على كل حال، هناك صخرة ضخمة وبارزة ومعزولة تعلوها أجزاء من أسوار قديمة يمكن مشاهدتها على بعد نحو ربع فرسخ بحري «ميل بحري» داخل الميناء من الناحية الشمالية الشرقية، وهي بلا شك، الجزيرة الحصينة التي تحدثت عنها الرحلة المجهولة تحت اسم إيلوس Ilos[1] وأطلق عليها بعد ذلك كل من بطليموس[2] وسينوسيوس اسم ميرمكس Myrmex حيث أكد هذا الأخير على وجود منارة بحرية بها[3]. أما بشأن المعالم الأثرية لبطليموسه، فإن المعالم الوحيدة التي استطاعت أن تقاوم صروف الدهر توجد على بعد مسافة قصيرة من شاطىء البحر، على آخر تموجات الجبل. إن إحدى أهم هذه المعالم تمثل معسكراً حربياً رومانياً محاطاً بخندق ضخم وأسوار مزدوجة[4]. يمكن للمرء أن يشاهد بداخله الأفران التي كان يستخدمها الجنود كما يمكن مشاهدة ثلاث كتل ضخمة من الصوان مدسوسة في قاعدة هذا المعسكر وعليها نقوش إغريقية طويلة ولكنها فجة جداً لدرجة أن أشهر علماء الاشتقاق، مثل السيد ليترون، قد أكدوا على أن فك طلاسمها ورموزها بالكامل يعتبر أمراً عسيراً إن لم يكن ضرباً من ضروب المحال. إن المعلومات الزهيدة التي تمدنا بها تلك الصخور تزيد من شدة أسفنا لأنها تحتوي على نص لمرسوم للأمبراطور أناسطاس الأول Anastas يتعلق بأمور ومسائل مختلفة من الإدارة العمومية وخاصة الخدمة العسكرية[5].

توجد آثار بروناوس Pronaos على مقربة من هذا المعسكر في وسط المدينة ولايزال قائماً منها ثلاثة أعمدة تدل على وجود معبد روماني في أسفله قبو كبير مقسم إلى تسعة سراديب مبطنة بالإسمنت ومصممة، دون شك، لاستخدامها كصهاريج للمياه. يمكن للمرء أن يشاهد أخيراً وفي أقصى غرب تلك المعالم الأثرية بنايتين كبيرتين على شكل برجين مشيدين على الطراز المصري حيث يبدو أنهما كانتا تشكلان المدخل الرئيسي للمدينة[6].

---

(1) Iriate. p. 486.

(2) L. IV C.4.

(3) Epist. 4.

(4) انظر اللوحة 29 الشكل رقم Voyez pl. L IX. fig. 2.2.

(5) انظر جريدة العلماء ـ عدد مارس سنة 1826 ص 168.

(6) انظر اللوحة رقم LXNIII, LIX fig. 1;LXXII

أما الآثار الأخرى التي يمكن التعرف عليها فيتكون جلها من كهوف جنائزية محفورة في الجوانب المستديرة لعدد خمسة أو ستة أحواض محاذية للساحل. لا يوجد أي شيء جدير بالاهتمام داخل تلك الكهوف. يمكن مقارنتها. من الخارج، ورغم ما ذكره عنها ديلاشيلا، بمغارات قرنة بيد أنها تختلف عنها من ناحية الشكل العام، ومن ناحية وجود بعض التفاصيل الخاصة.

بدلاً من الواجهات الدورية المتباينة من حيث الطراز والأنيقة من حيث الأبعاد التي تزين مدافن العاصمة قرنة، نرى أن مدافن بطليموسة «طلمثية» عبارة عن مداخل وفجوات صغيرة نحتت في قلب الصخر ونحتت فوقها نقوش بطريقة غير منظمة وفي عصور مختلفة[1]. توجد تلك النقوش محاطة بإطار تارة هي إطارات مربعة بارزة أو خاوية وتارة أخرى، على هيئة معينات تعلوها أنصاف دوائر أو مثلثات حادة الزوايا بقدر يزيد أو ينقص. هناك مدخل به عمودان وتعلوه كوة مستديرة rosace. وبغض النظر عن شكل تلك الإطارات فإنها تتصل غالباً بأوتاد tenons بحيث تبدو وكأنها معلقة على جانب الكهف.

إن هذه اللوحات الصغيرة المنحوتة هنا وهناك في قلب الصخر الفج تضفي رونقاً خاصاً لأنها تبدو وكأنها تجسد فكرة النواطير المخروطية التي تقام على القبور القدامى على أساس أنها الزخرفة الوحيدة التي كانت عائلات الأموات ترغب في جعلها الزينة السائدة لملاجىء الحداد هذه. توجد، مع ذلك، العديد من المعالم الجنائزية الأخرى في بطليموسة تكتسب أيضاً طابعاً آخر من الأهمية. إن النظام المعماري أو الهندسي الذي لاحظنا وجوده قرب قرية جبّورة منتشر هنا أيضاً على نطاق واسع. لقد تم نحت هضبة بكاملها إلى الغرب من تلك الأطلال ثم حفرت بعمق من أجل إنشاء كتل صخرية مربعة تفصل بينها مسافات بسيطة حيث نحتت القبور في تلك الصخرية. إن هذا النظام لم يشمل

---

(1) لقد فكرت في المقدمة بأن هذه الرواية سوف تعتمد ترجمة ليترون وهذا عمل لم تمكنني معرفتي المتواضعة باللغة الإغريقية منه، ناهيك عن القيام به. ومع ذلك، ورغم أنني تحليت، منذ أن كتبت تلك المقدمة، بصبر دام سنتين من السهر على موضوع غامض كموضوع قرنة، إلا أنني أخشى أن تكون حصيلة هاتين السنتين هزيلة جداً أو مشكوكاً فيها. لقد قررت ألا أدرج، لهذا السبب، ترجمة لتلك النقوش أو الشروح العلمية حولها في هذا الكتاب والتي كان في إمكاني الحصول عليها بمساعدة عالم الاشتقاق الذي ذكرته آنفاً حيث كان من الممكن أن تتناقض مع فقهي الذي لا يخلو من المجازفة والعبارات الوصفية. هل كان من المفضل أن نضع بعض كتل الرخام هنا وهناك في هذا العمل «الكتاب» الهزيل لجعله أقوى؟

أكبر تلك الكتل الصخرية الصلدة التي تتكون قاعدتها من الصخور الصلدة بينما تتكون قمتها من أحجار هشة جميلة. لقد اتضح أنها ضريح يحتوي على طابقين حيث تم تقسيم الطابق الأرضي إلى عشرة أقبية جنائزية عرضياً وإلى خمس غرف أفقية على كل جانب بينما تم تصميم المدخل على هيئة مثلث تكوّن من بروز الصخور التي تنتهي أطرافها بالتلامس.

إن تلك الوضعية الأخيرة مثيرة للاهتمام لأنها لا توجد في أي مكان آخر في برقة وهي تشبه تماماً مدخل هرم «خوفو» Cheops وكذلك قلب معلم أثري لاجيدي في إقليم مرمرة[1].

نميل، وفقاً لهذا الشبه بينه وبين الأبنية المصرية، إلى إرجاع تلك البناية إلى عصر البطالمة وإلى الاتفاق مع ديلاشيلا في الرأي القائل بأن مؤسسها كان البطليموس فيسكون. نحن نعرف أن هذا الأمير كان قد تحصل، بموجب مرسوم صادر عن الشيوخ في روما، على حكم شرق ليبيا وبرقة وأنه قد حضر إليها لإنهاء الخلافات والقلاقل التي شجرت بينه وبين أخيه فيلوميتور.

يحتمل إذاً، كما ذكر ديلاشيلا، أن يكون هذا الضريح قد أقيم قبل ذلك العصر إذ لا يمكن أن يكون قد أقيم بعد ذلك نظراً لغيرة المصريين المعروفة بشأن مراسم الدفن، وعليه لا يمكن أن نفترض بأن أول ملك مصري لبرقة، لم يسع إلى تميـيز قبره عن قبور رعاياه في المدينة التي شيدها. إنني استشهد، بطيب خاطر، بهذا الرأي السديد الذي أعرب عنه ديلاشيلا، غير أنني أخالفه في رأي آخر حول آثار بطليموسة وهو الرأي الذي نستنتج منه أن كل ما تبقى من تلك المدينة مصرياً، وبأن هذا الطراز، رغم كونه فجاً، يحتوي على جانب من العظمة يذهل المخيلة ويستدعي الاحترام.

لقد استند ديلاشيلا في هذا الحكم، بكل تأكيد، على رسومات كل من بول لوكاس Paul Lucas ونوردن Norden وبوكوك Pococke لأنه لو كان قد زار الآثار المصرية الضخمة، لما كان هذا الرحالة الحاذق الحصيف يقع، بكل تأكيد، في هذا الخطأ الذي كان يمكنني أن أتستر عليه بكل طيب خاطر كعادتي لولا أن تقويضه يبدو لي مهماً جداً بالنسبة للتأريخ الأثري لبرقة.

يبلغ محيط آثار بطليموسة نحو أربعة أميال. إن هذه المساحة الضخمة، وتلك

---

(1) انظر اللوحتين رقم LXXI - LXX.

المعالم الأثرية التي وصفتها آنفاً، تبرز الصفات اللغوية مثل «مهمة جداً. . وكبيرة جداً» التي أطلقها المؤرخ بطليموس وكذلك الرحلة المجهولة على تلك المدينة التي مدح بروكوب[1] مجدها التليد وكثرة سكانها. لا يجد المرء، مع كل ذلك، أي صهريج أو نبع بين تلك الآثار باستثناء القبو الذي تمت الإشارة إليه آنفاً. إنني أبدي هذه الملاحظة التي تبدو تافهة بعد وصف أبولونيا لأنها تدل على الدقة الشديدة للمعلومات المتواترة تأريخياً حول هذا الموضوع.

يمكن للمرء أن يشاهد في بطليموسة، مثلما كان عليه الحال في أبولونيا، بقايا قناة لنقل المطر من قدم الجبل حتى وسط المدينة، ويمكننا أن نزعم أن هذه القناة كانت السبب الرئيسي في ازدهارها وفي انحطاطها في آن واحد. في الواقع، ونظراً لإهمال ولاة الرومان لها، انهارت تلك القناة في الفترة التي سبقت حكم الأمبراطور جوستنيان، الأمر الذي أدى إلى وجود نقص كبير في مياه الشرب، وأجبر الأغلبية على هجر تلك المدينة. إن اهتمام وعناية ذلك الأمبراطور الذي أعاد بناء القناة أدى إلى عودة السكان إليها. ولم تنتظر بطليموسة كثيراً أو طويلاً حتى استعادت مجدها الغابر[2] غير أن هذا الحال لم يدم طويلاً. لقد تهدمت القناة مرة أخرى في القرن الخامس بعد الميلاد وهذا ما تفسره غارات الهمج، بما فيه الكفاية، في ذلك العصر.

إن ذلك هو ما أكده المطران في بطليموسة السيّئة الطالع حيث كان يطالب، نظراً لعدم وجود الماء بين جدران مدينته، بالخروج منها لإحضار الماء بقوة السلاح من الآبار والجداول المحيطة وهو الماء الضروري جداً لحاجة السكان[3].

---

(1) DE Aedific-L. VI, C.2.

(2) Procop. DE Aedific L.VI, C.2.

(3) سينوسيوس القوريني ـ الرسالة رقم 131 Syn. Spist.

الفصل الرابع عشر

توخيره «توكره» ـ نهر أكسوس ـ ادريانوبوليس «دريانة»

يبدأ الساحل في الانبساط والتساوي بعد بطليموسة وفي اتجاه الغرب، كما هو الحال بالنسبة للسهل الذي يفصل بينها وبين المرتفعات الجبلية، وهو سهل خصب جداً وتماثل خصوبته منطقة الغابات. إذا اجتاز المرء هذا السهل في فصل الربيع، فإنه سوف يشعر بالدهشة إزاء هذا الكم الهائل من أزهار نبات الخشخاش الأحمر القاني التي توجد جنباً إلى جنب مع اللون الأصفر الشاحب لأزاهاير الأقاحي. سوف يشاهد أيضاً العديد من النباتات العطرية التي تغطي أجزاء كبيرة من هذا السهل لم يتم زراعتها بعد، كما يقوم نسيم البحر العليل بمراقصة أغصانها المائسة والمزهرة حيث يعبق الجو بأريجها الوسنان وطراوتها المنعشة. يشعر الإنسان بالارتياح أينما يوجه ناظريه حيث يشاهد الروابي المتباينة في شكلها ومظهرها، وهي ترسم أمامه ألف شكل وشكل من جهة، أو يشاهد البحر وامتداده الضخم ينشر زبد أمواجه بكل لطف على الشواطىء الهادئة من جهة أخرى. إن وجود بعض الأطلال المشوهة هنا وهناك، يقدم لنا، وسط هذه اللوحة الفنية المفحمة بالحيوية، صورة للدمار والخراب، غير أنه لا يحدث أي تأثير مؤلم على الذهن. يقلل منظر الطبيعة الزاهية من آلام تذكر العصور الغابرة.

بعد مسيرة تسع ساعات على طريق شيقة كهذه، وصلنا إلى آثار توكره التي تقع على مرتفع صغير قرب الساحل. هنا، كما هو الحال في طلمثية، يشعر المرء بالذهول أمام الشبه بين الاسمين القديم والحديث لأن الآثار التي نحن الآن أمامها لا يمكن أن تكون آثار توخيره، إحدى المدن التي كانت تكوّن إقليم المدن الخمس. إن موقعها الذي حدده كل من سترابو وبطليموس بين برنيقة «بنغازي» وبطليموسة «طلمثية»[1]، بشكل عام، جاء أكثر دقة

(1) سترابو ـ الكتاب 17 القسم الثالث وبطليموس الكتاب الرابع القسم الرابع.

عند هيرودوت الذي جعلها تقع في أرض بارقي «المرج» حيث يمكن للمرء أن يلمحها فوق قمة الجبل[1] غير أن الرحلة المجهولة قد حددت مكانها بدقة أكبر عندما حددت المسافة بينها وبين طلمثية بمائتي وخمسين مرحلة، وهذا يتفق تماماً مع المسافة التي ذكرناها[2]. إن آثار تلك المدينة محاطة بسور على شكل مربع غير منتظم الأضلاع يبلغ محيطه نحو ميلين. توجد على هذا السور الذي لايزال في حالة جيدة أبراج في أركانه الأربعة تم بناؤها عن طريق مواد بناء قديمة جداً أقدم من مواد بناء السور نفسه. إن الدليل على ذلك يتمثل في وجود النقوش الكثيرة المنفصلة عن بعضها البعض أو المقلوبة رأساً على عقب أو المبعثرة في أماكن متفرقة من تلك الأبنية. لقد ذكر بروكوب، أن الإمبراطور جوستنيان قد قام بتحصين هذه المدينة[3]. رغم أن بركوب لم يذكر نوع تلك التحصينات، فإننا لا نجازف كثيراً إذا نسبنا لنفس الأمبراطور الذي أعاد ترميم برنيقة وباريتونيوم «مطروح»، عملية إعادة بناء هذا السور. مهما يكن الأمر، فإنه رغم وجود هذا السور في حالة جيدة، إلا أن المدينة مدمرة من الداخل ولم تعد سوى ركام من الحطام الذي لا شكل له. لقد ذكر الرحالة ديلاشيلا الذي زار تلك الآثار اثنين من المعالم الأثرية التي يمكن للمرء أن يتعرف عليها بسهولة حيث يوجد على إحداها نقش مكلل بأوراق الغار ويحتوي أسماءً وتواريخ. أما البناية الأخرى، فكانت مكرسة للرب باكوس Bacchus وذلك إذا حكمنا عليها من كتل التيجان الرخامية المزدانة بأوراق أشجار الكروم وعناقيد العنب. لايزال أحد الأعمدة الرخامية الذي كان يبدو أنه يشكل المدخل الرئيسي للبناية قائماً، وهو مزدان بنحوت ونقوش من أوراق النخيل وأزاهير أخرى أنيقة[4]. أما مقابر توخيره فهي مثل مقابر طلمثية كثيرة ومشيدة بنفس الطريقة وبنفس الطراز المعماري وتحتوي على أطر صخرية ونقوش شتى. إن ذلك مخالف لمقارنة ديلاشيلا بين مقابر توخيره وبين المغارات الدورية الأنيقة في قرنة، وكذلك لما ذكره هيرودوت في هذا الصدد. لقد قال ديلاشيلا إن توخيره كانت خاضعة أيضاً لنفس القوانين السائدة فيقرنة. ورغم أن هذا الزعم مرجح بحكم الوقائع، إلا أنه لم يذكر في أي مكان، حسب علمي، عند أب التاريخ[5].

---

(1) هيرودت ـ الكتاب الرابع ص 171.

(2) الجغرافية المقدسة ـ الكتاب الرابع ص 486 و 487.

(3) بروكوب ـ في العمارة ـ الكتاب الرابع القسم الثالث.

(4) انظر اللوحة 27 الشكل 6.

(5) أعتقد، إذا لم أكن على خطأ، أن ديلاشيلا قد خلط بين قبيلة الكابال Cabales التي تقطن، وفقاً لما=

من المؤكد، مع ذلك، أن قرنة هي التي أسست توخيره[1]، وبأنها كانت إحدى المدن المهمة في حقبة الاستقلال الذاتي لإقليم قورينة وبأنها صارت بعد ذلك مستوطنة رومانية في بداية القرن الثاني للميلاد[2].

كانت مدينة توخيرة تسمى تحت حكم البطالمة ارسينوى Arsinoe وكانت لاتزال تعرف بتلك التسمية حتى احتلال ثمبرون Thimbron لها، غير أنها لم تحتفظ بهذا الاسم الجديد طويلاً حيث عادت إلى اسمها الأول «توخيرة» في فترة لم يحددها التأريخ بدقة ولكنها قد تعرف، بقدر يزيد أو ينقص، من خلال الروايات المتعاقبة لمختلف المؤرخين والمؤلفين.

إن أقدم هؤلاء المؤرخين مثل هيرودوت وسيلاكس وبعض الشعراء يطلقون عليها اسم توخيرة، أما سترابو فكان يطلق عليها هذا الاسم أو ذاك. المؤرخ بومبونيوس Pomponius الذي جاء بعد سترابو ببضع سنوات لم يطلق عليها سوى اسم ارسينوى. أما المؤرخ بلين الذي أطلق عليهااسم ارسينوى فقد أكد على أنها كانت تسمى شعبياً «توخيرة» ولكن بطليموس أطلق عليها الاسمين معاً. إن مؤرخي القرنين الثالث والرابع الميلادي لم يذكروا هذه المدينة أبداً إلا تحت اسم توخيرة ويمكن أن نضيف إليهم سينوسيوس أيضاً. غير أن ما يدهش حقاً هو أن إتيان البيزنطي الذي جاء بعد هذا الأخير ببضع سنوات أكد على أن توخيرة ويمكن أن نضيف إليهم سينوسيوس أيضاً. غير أن ما يدهش حقاً هو أن إتيان البيزنطي الذي جاء بعد هذا الأخير ببضع سنوات أكد على أن توخيرة كانت تسمى في عهدها ارسينوى رغم أن بروكوب لا يطلق عليها، بعد ذلك، سوى اسم توخيرة ثم عرفت بتلك التسمية، دون غيرها، من قبل المؤرخين اللاحقين وخاصة في المؤلفات التي تناولت تأريخ إقليم المدن الخمس النصراني. ينجم عن تناقض تلك الروايات عجزنا على تحديد المدة التي سميت فيها تلك المدينة ارسينوى غير أنه بإمكاننا أن نؤكد أنها حملت اسم توخيرة دون

= ذكره هيرودوت، ضواحي توخيرة، وبين سكان هذه المدينة. يقول المؤرخ إن قبيلة الكابال تمارس نفس التقاليد والأعراف التي تمارسها قبيلة سبيست Asbyste التي تقطن جنوب قرنة «هيرودوت الكتاب الرابع ص 171». يبدو أن هناك خلطاً أيضاً في هذا الصدد وتصحيفاً في النطق رغم أن هيرودوت وديلاشيلا وباشو يذكرون قبيلة الكابال تحت هذا الاسم. إلا أن العديد من المؤرخين ومنهم البروفسور اندريه لاروند يرى أن الاسم الحقيقي لها هو الباكال وليس الكابال... المترجم.

(1) بندار ـ الأنشودة الرابعة.

(2) أوسيب ـ أحداث تأريخية ـ كرونيك Eusébe - Chroniques.

سواه خلال القرون الأولى والأخيرة للحضارة في برقة، وعليه فإن هذه التسمية الأخيرة هي المناسبة. إن هذا هو ما أستطيع أن أقوله أمام صمت التأريخ حيث لم أجد أي شيء آخر عدا الذكر العقيم لتلك المراحل المختلفة لهذه التسمية. علينا إذاً أن نذهب إلى مكان آخر للبحث عن معلومات أكثر تحديداً وعن وقائع أكثر أهمية. يأخذ السهل الممتد غرب إقليم المدن الخمس بين شاطىء البحر والمنطقة الجبلية في الاتساع تدريجياً كلما اتجه هذا السهل نحو الجنوب الغربي. إن هذا السهل الذي يبلغ عرضه، عند مدينة طلمثية، عدة دقائق من المسير، يصل عرضه إلى ربع مرحلة عند توخيرة ثم يصل إلى خمس أو ست مراحل عند مشارف برنيقة التي تبعد نحو خمسة عشر فرسخاً بحرياً من آثار توخيرة. يزداد هذا الاتساع كلما اتجهنا نحو الجنوب، ولكن ما يهمني الآن هو قصر كل انتباهي على المنطقة الواقعة بين توخيرة وبرنيقة. إذا جاب المرء هذا السهل من ناحية الجبل فإنه سوف يسير دائماً فوق أرض تغطيها المروج والمزروعات. أما إذا ذرعه من ناحية الشاطىء، فإنه سوف يسير على أرض مليئة بالأسباخ وتربة تغطيها قشور ملحية حيث تشكل منخفضاً طويلاً يحتمل أن تكون مياهه جارية في القدم. ليست هذه الملاحظة غفلاً من أية أهمية لأنها تقدم لنا تفسيراً لمسألة جغرافية متعلقة بهذا الجزء من برقة.

إذا فحصنا الوضعية الجيولوجية بدقة في هذه المنطقة، فإننا سنبحث دون طائل، على تفسير لنهر إكسوس أو بحيرة تريتونيس أو لاثون Lathon الذي حدد التأريخ القديم موقعه شرق برنيقة الذي كان يصب في ميناء تلك المدينة. كنت ذكرت، عند وصولي إلى مدن ساحلية أخرى تقع عند قدم الجبل تقريباً، أن السكان القدامى كانوا مضطرين إلى بناءقنوات لنقل المياه من الهضاب المجاورة إلى وسط المدينة.

كيف يمكن لهذه المياه التي تضيع عادة قرب مصدرها أن تجتاز، في القدم، سهلاً يصل اتساعه إلى ست أو سبع مراحل؟ وكيف يمكنها أن تكوّن مسطحاً مائياً هائلاً يمكن أن نطلق عليه اسم نهر؟ إنه من قبيل الحشو أن أؤكد على أنه لا يمكن للمرء أن يعثر على أي أثر في هذا السهل لأي جدول ناهيك عن نهر.

وهذا ما ذكره أيضاً ديلاشيلا الذي أعرب عن دهشته إزاء تناقض هذا الوضع مع الرواية التي ذكرها التأريخ القديم في هذا الشأن.

اعتقد، إن لم مخطئاً، أن السبب في هذا التناقض يعود إلى الأمر التالي: لقد قلت إن المنطقة الساحلية الواقعة بين توخيرة وبرنيقة عبارة عن حوض مكوّن بشكل متعاقب، من

سبخات وأراضٍ ملحية يابسة ومفصولة عن البحر عن طريق سد ترابي بسيط متفاوت في صلابته وقوته بقدر يزيد أو ينقص.

لم تكن تلك البحيرات، دون شك، موحدة في القدم ولم تكن بالتالي نوعاً من أنواع الأنهار الراكدة التي تمتد حتى ميناء برنيقة.

هل سيكون من ضروب المجازفة أن نفترض أن هذا الحوض الطويل من المياه المالحة هو النهر الذي ذكره الجغرافيون القدامى؟ ألا يمكن ترجيح مثل هذه الفرضية لاسيما عندما نجد أن بعض القيعان الجافة وغيرها لاتزال تحتوي على برك صغيرة حول مدينة بنغازي مثلها في ذلك مثل نهر إكسوس الذي كان يحيط بمدينة هسبريدس وفقاً لما ذكره سيلاكس؟[1].

إذا احتج المرء، أي إمرىء، على هذا القول بسبب وجود حد فاصل بين السبخات الحالية التي كانت، وفقاً لما أراه، تشكل النهر الراكد، فإن هذا الاحتجاج يبدوقيّماً نظراً لوجود أمثلة عديدة لبحيرات جافة وأنهار مالحة حتى في دواخل ليبيا. سوف أذكر أكثر من ذلك، إن جفاف هذا الجزء من نهر إكسوس يفيدني، على النقيض من ذلك، في تفسير نقطة أخرى هامة من الجغرافية القديمة التي تتعلق بهذه المسألة. يفرق سترابو بين بحيرة تريتونيس ونهر لاثون الذي يصبُّ فيها بينما لا يذكر كل من بطليموس وسيلاكس سوى النهر. مهما يكن من أمر، فإن ذلك الخلاف في الرواية غير مهم كثيراً نظراً لإمكانية إطلاق اسم «نهر» على أي اتساع للنهر بالقرب من برنيقة، وهو الموقع الذي حدده سترابو لنهر تريتونيس والذي نجد فيه أكبر عدد من البحيرات المالحة. إن ما يكتسي أهمية أكبر بالنسبة لنا هو احتواء هذه البحيرة، وفقاً لما ذكره هذا الجغرافي، على جزيرة يوجد بها معبد للربة فينوس «افروديت. . المترجم». لم يكن بوسع المراقب الحاذق ديلاشيلا إلا الاعتراف بأن البحيرة التي وصفتها أنا هي بحيرة بالوس تريتونيس Palus Tritonis رغم أنه اندهش لعدم وجود جزيرة أو معبد بها، إنني على ثقة بأن تلك الدهشة لن تدوم في ذهن القارىء الذي سوف يتذكرمسألة جفاف نهر إكسوس التي وصفتها آنفاً والذي سوف يستنتج أن جزءاً من هذه البحيرة قد جف من جراء جفاف النهر المذكور وقد أدى ذلك الجفاف إلى اندثار الجزيرة.

---

(1) سيلاكس ـ المرجع السابق.

نجد، في الواقع، حسب مساحة الأراضي المغطاة بالتركيزات الملحية، والواقعة حول بحيرة تطابق تريتونيس، أن البحيرات قد تضاءلت بمعدل الثلث بالمقارنة بحجمها الأصلي. لن يشعر المرء بعد ذلك بأي دهشة إزاء اختفاء الجزيرة التي كانت توجد بها لأنهاقد صارت جزءاً من الأرض اليابسة المحيطة بالبحيرة. يبقى أمامنا، مع ذلك، أن نعثر على أطلال معبد فينوس «حتى يتم تأكيد تلك الفرضية».

قد تؤدي الحفريات الأثرية في الجزء الشرقي للبحيرة القديمة إلى العثور على شيء ما. إن أقدم هذه البيانات، من أجل استرعاء انتباه الرحالة الجدد، دون تشجيعهم للبحث عن شيء لم يذكره سوى واحد من الجغرافيين القدامى، تعود إلى عصر البطالمة. قد لا تكون تلك الجزيرة موجودة في عصر بطليموس ولم يعرفها بالتأكيد أولئك الذين سطروا بكل دقة وأمانة الرحلة المجهولة «أي مجهولة المؤلف... المترجم».

يصادف المرء عدداً كبيراً من الآبار على الطريق بين توخيرة وبرنيقة بالإضافة إلى بعض القرى التي تعود إلى الفتح العربي مثل «برسس» وهي من أهم تلك القرى العربية وتعتبر المركز بتلك القرى والسبخات المحيطة بها ولاتزال تلك المنطقة تعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا.

يبدو، نظراً لصمت القدامى، أن تلك المنطقة لم تكن مأهولة كثيراً في الواقع لأن الأراضي الملحية المحيطة بها ربما كانت في الماضي، ووفقاً لافتراضاتي الشخصية السالفة، مغمورة بالمياه المالحة. قد يقدم ذلك تفسيراً مرضياً لما ذكرته.

من المؤكد، مع ذلك، وفقاً لما ورد في رحلات أنطونان وهيروكليس وبوتانجيه Peutinger، أن يكون القرن الثاني الميلادي قد شهد عملية بناء مدينة في هذه المنطقة الساحلية تبعد ثمانية وعشرين ميلاً عن برنيقة، وثمانية عشر ميلاً عن توخيرة، أطلق عليها اسم الإمبراطور آدريان. إن التاريخ لا يشير بوضوح إلى أية زيارة لهذا الأمبراطور إلى ليبيا[1]، غير أنه يؤكد أن الأمبراطور المذكور قد أرسل إليها مستوطنين لإعادة إعمارها وإنقاذها من الدمار الذي أحدثه الهمج والانقسامات والقلاقل الضارية التي كانت تعاني منها[2]. لقد وصلت إلينا عملية سك ميدالية في القرون القديمة تجسد الإمبراطور أدريان

---

(1) Antonin, August, Itiner, ed, Wessel, p. 67-Hierocles, Synod, p. 633, Peuting tab.

(2) Eusébe, Chroniques.

على أساس أنه الراعي المساند والمحسن لليبيا. لقد كانت تلك الميدالية قد سكت احتفاء وتخليداً لذلك[1]. إذا حكمنا، مع ذلك، على الآثار المذكورة والواقعة في تلك المسافة التي أشار إليها المؤلفون المذكورون، فإن مدينة أدريان هذه لا تستحق أكثر من تسميتها «قرية» حيث يلاحظ المرء وجود حصن روماني بالإضافة إلى وجود برج شيدت قاعدته بصورة جيدة بينما أصلح الفاتحون العرب قمته عن طريق صخور فجة. لم نجد أي إشارات أو أدلة مهمة أو زخارف هندسية بين تلك الأحجار الجميلة المبعثرة في أكثر قرى برقة خراباً ودماراً. إن هذه الملاحظة أقل من الملاحظات القدمة. لقد ذهلت من عدم ذكر بطليموس الذي يحتفظ لنا بقائمة مفصلة عن كافة مدن برقة الساحلية منها أو الداخلية، والذي عاش في عهد ماركوس أوريليوس، أي بعد الأمبراطور أدريان، أي شيء عن تلك المدينة. يمكنني أن أضيف بأن صمت بطليموس وسينوسيوس وإتيان البيزنطي عن ذكر مدينة أدريان هذه في ليبيا، يجيز لنا أن نشك في وجودها القديم وذلك لكونها غير معروفة في عصور شتى لدى أدق جغرافي ولدى فيلسوف إقليم المدن الخمس سينوسيوس وكذلك لدى إتيان البيزنطي. لم نعرف فيما إذا كانت مدينة أدريان هذه أبرشية نصرانية بين المدن الستّ الرئيسية لإقليم المدن الخمس وذلك بغض النظر عن الاتفاق في الموقع الجغرافي لدى المؤلفين المذكورين وعن ملاحظاتي الشخصية[2]. ماذا يمكن أن نستنتج من تلك التناقضات غير كون هذه الوثائق التي وصلت إلينا عن برقة مبهمة جداً وحبلى بالنقص، وأن ما نجده غالباً يقيناً يعود لكي تكتنفه الشكوك في روايات أخرى؟.

(1) قام بلران Pellerin بنشر صورة للميدالية التي تحمل صورة أدريان باللباس الرسمي وهو يحمل في يده اليسرى قرطاساً، ويرفع باليد اليمنى امرأة راكعة أو جاثية ترمز إلى ليبيا ونقشت تحتها هذه العبارة: Restotutori. Aug. Lubyae s.c. انظر بلران ص 207 ربما قام هؤلاء المستوطنون الرومان بإقامة المدينة تكريماً لهذا الأمبراطور المنقذ وأطلقوا عليها اسمه مدينة أدريان أو أدريانابوليس ـ وهي مدينة دريانة الحالية. . . المترجم.

(2) الجغرافية المقدسة ص 56.

الفصل الخامس عشر

مخازن تحت الأرض - مدن ومقابر قرنة

لا أريد أن أطيل انتظار القارىء في برنيقة فلقد اختفت معالم المدينة العتيقة تماماً، وإذا كانت هناك بعض الأطلال فإنها لاتزال مطمورة تحت المدينة العربية التي سوف نعود للاستراحة بها قبل عبور السهول الرملية في طريقنا إلى الواحات الصحراوية. دعونا نتعجل إذاً بالعودة إلى الهدف الرئيسي من هذه الرحلة أي إلى القرية الشهيرة التي نعرف الآن ضواحيها كافة وقد حان الوقت لمعرفتها في حد ذاتها. ها نحن الآن في مرفأ أبولونيا ونسرع في اجتياز السهل الذي يفصلها عن المرتفعات الجبلية ونذهب إلى وادٍ يذهب الناس عادة إليه ومن خلاله إلى سهل قرنة Grennah التسمية الحديثة لحاضرة برقة القديمة.

لقد تحدثت طويلاً عن التركيب الجيولوجي لتلك الجبال والمرتفعات، وعن الكتل الصخرية القائمة بذاتها وما فوقها من غطاء أو كساء نباتي مرتفع، وعن الأجمات الزاهية على سفوح تلك الجبال أو في قيعان الوديان لدرجة أن إعادة وصفها سيكون أمراً سمجاً لا سيما وإنني لم أعد، في هذه اللحظة، اهتم كثيراً بهذه الناحية. لم يعد يحلم كل منا، من مصريـين ونوبيـين وأوروبيـين سوى بالعودة إلى قرنة والتحدث عن آثارها الغامضة. لقد عبرنا أول المرتفعات الخلابة وفي أذهاننا جميعاً كل تلك الاهتمامات والانشغالات حتى وجدنا أنفسنا أمام «المغارات» وهو مكان مليء بالغابات. أطلقت عليه تلك التسمية نتيجة لوجود كهوف واسعة وعميقة به.

إن تلك الكهوف الضخمة التي تقع في منتصف الطريق بين قرنة وأبولونيا تذهل الناظر إليها للوهلة الأولى حيث يمكنه رؤية مداخلها المشرعة من بعيد رغم وجود أجمات من الأشجار التي تستر نصفها تقريباً.

قد تمثل هذه الأشياء كهوفاً مظلمة تسيطر على مخيلة البدو الحافلة بمختلف

الحكايات المفزعة. بعد زوال هذا التأثير، تأتي لحظة المشاهدة عن كثب، ويساور المرء الشعور بالارتياح بعد الهول.

يمكن للمرء أن يدخل إلى كافة تلك الكهوف وهو على صهوة جواده، فهي كهوف بين ثلاثين وأربعين متراً وهي مدعومة، كما يمكن للمرء أن يتصور، بأعمدة صنعت بصورة منتظمة وغير منتظمة طبقاً لصلابة الطبقة الصخرية. لم يتعرف المرء داخل تلك الكهوف على أي دليل ولو كان هزيلاً، على غاياتها الجنائزية.

يوجد بالعديد منها رواق نحت في الصخر الموحد، وباحة مفتوحة، بينما توجد العديد من الممرات المتعرجة أو المستقيمة. يتميز أحد هذه الممرات بوجود سلم صخري جميل نُحت، هو الآخر، في قلب الجبل وهو مسقوف على مدى طوله. لقد كان هذا السقف يُستخدم، دون شك، في وقاية سكان قرنة من عوامل التعرية خاصة وأنهم كانوا يأتون إلى هذه الكهوف لمعاينة البضائع القادمة من أبولونيا، لأن تلك الكهوف كانت تُستخدم دون شك، كمخازن عامة.

لقد ذكرت، وفقاً لرواية ديودورس، أن أبولونيا كانت مستودعاً لتجارة قورينه لردح طويل من الزمان. رغم العناية التي بذلها السكان بغية تخفيف وعورة الطريق العام المؤدي إليها، فإن هذا الطريق لم يكن مسلكاً سهلاً بالنسبة للعربات المحملة بالسلع والبضائع.

علاوة على وعورة المرتفع أمامنا، كان علينا أن نجتاز مرتفعات أخرى مماثلة، بعد تلك المستودعات آنفة الذكر، لكي نصل إلى قرنة. إن المسافة التي تفصل بين هاتين الربوتين مرصعة بمنحدرات ومرتفعات صغيرة تشقها الأودية من كل اتجاه. يبدو أنه كان من الضروري إنشاء مستودع في وسط الطريق لوضع الأشياء الثقيلة أو كبيرة الحجم مثل الرخام والمعادن وغيرها من المواد الغريبة عن أرض برقة، والتي تم إحضارها من بلاد الإغريق أو من آسيا الصغرى. يبدو لي، بالتالي، أن الهدف من إنشاء تلك الكهوف له ما يبرره، فالعناية التي أبداها القدامى في حفرها ونحتها، وخاصة بتلك الأحجام الهائلة، تدل على صحة المعلومات التي تركها القدامى بشأن الحركة التجارية الكبيرة لليونان مع الموانىء الرئيسية الأفريقية في البحر المتوسط.

إن تلك الغرف الأرضية الواقعة بعيداً عن طريق القوافل المتجهة إلى مكة، وعن الطريق المؤدي إلى درنة وبنغازي، قد أصبحت تستخدم، منذ سنين كثيرة، كمساكن مريحة لبدو برقة. لقد قامت بعض العصابات من قطاع الطرق والمجرمين باجتياح هذه الملاجىء

الهادئة وطردت مالكيها وحولتها إلى أوكار لممارسة النهب والسلب أحياناً، غير أن تلك العصابات لم تنجح في البقاء فيها طويلاً. اتحدت القبائل المجاورة وقامت بتشتيت تلك العصابات، وإعادة الكهوف إلى أصحابها الشرعيين لممارسة حقوقهم في هذه القرية «الكهفية».

يمكننا أن نعزو إلى أنصار تلك الاغتصابات المؤقتة أو بالأحرى إلى هؤلاء المغتصبين الأجلاف، وهم من أكثر سكان الصحراء كسلاً ورذيلة رواية مشابهة حقاً لرواية المدينة المتحجرة «المساخيط. . . المترجم»، وهي الرواية التي تناقلها العديد من الرحَّالة بل وتداولها العديد من العلماء.

إنني أقصد بالطبع القبيلة الليبية التي تتحدث لغة غير معروفة وتسكن بين جبال قرنة وأبولونيا. لا أريد أن أكتب المزيد من الصفحات دون طائل أو أن أقدم أي شروح أو معلومات أخرى حول هذا الموضوع.

لقد ارتحنا، كما كان يفعل الرحالة القدامى، عند هذه المحطة القائمة على قارعة الطريق ثم واصلنا مسيرنا بعد ذلك. قليل جداً من المواقع، حتى في أجمل مقاطعات ايطاليا، تبدي هذا المنظر الخلاب الذي تجسد في الدروب والمسالك مرصعة، هي الأخرى، بالأطلال التي تحدث بالضرورة، رغم صعوبة التعرف عليها، تأثيراً مخالفاً، في هذه المنطقة، عن ذلك التأثير الذي تحدثه مشاهدتها في اليونان الأوروبية نفسها. إن المرء ليشعر بدهشة سارة عندما يلمح تارة عموداً رخامياً أسقطه كر الزمن على الأرض وكأنه يوجه إلينا دعوة للتأمل في ظل أشجار الأرز الضخمة ذات الأغصان الأفقية الوارفة، أو عندما يلمح، تارة أخرى، جذع تمثال ناعم لربة ما، كانت تعبد في قورينة وأغصان أشجار المرسين «حب الآس» تتشابك فوقه وكأنها تريد حمايته من أيدي الهمج العابثة.

لن انتهي من مثل هذا الحديث، إذا أردت أن أصور هذا الكم من التفاصيل التي تعتبر مصدراً لآلاف الأحاسيس والمشاعر تولدها أقل الحوادث أو تنسيها غيرها. لقد تأملت كثيراً، وسررت كثيراً بما كان يحيط بي من مناظر أثناء مسيرتي. سأقوم الآن بمواصلة المسير لأن ذلك أفضل من هذا الهراء.

وصلنا، بعد مسيرة ساعة ونصف من الكهوف الأرضية التي تبعد عن أبولونيا مسيرة ساعتين، إلى قدم الهضبة الثانية. يوجد الآن أمامنا درب فسيح منحوت في الصخر وتوجد به آثار إطارات العربات القديمة.

سرنا على الدرب وتتبعنا معه المدرجات الجبلية التي كان يشقها بشكل مائل. حالما بدأنا المسير على ذلك الدرب، رأينا العديد من القبور الأنيقة مصفوفة على جانبيه حيث يزداد عددها كلما تقدمنا في المسير، وترامت، إن جاز لي التعبير، أمام ناظري تلك القبور الأنيقة. وصلنا بعد ذلك إلى أعلى نقطة في هذا الدرب، فلاح أمامنا منظر مذهل: إن السفح الجبلي الممتد أمامنا مليء بالقبور والكهوف والأطلال المختلفة حيث تمتد هذه المعالم الأثرية على مرمى البصر، أمامنا، وحيث تنتشر هذه الأطلال إلى أبعد نقطة في السهل الذي نطويه الآن أمامنا، وحيث ترصعت المرتفعات والقمم الجبلية بها. ها نحن الآن وسط مدافن ومقابر قرنة الشاسعة.

إن هذا الجمع الغفير لأنقاض من مختلف العصور، وهذه الفوضى الشاعرية المتنوعة لهذا الحطام تذهل الأبصار جداً لدرجة أنها تزيد من حيرة الإنسان الذي يحتاج إلى المزيد من التفكير لكي يستطيع أن يميز هذه الأشياء عن بعضها البعض. لقد عجلنا أو سارعنا، في هذا الصدد إلى البحث عن ملجأ للقافلة بين هذا الكم الهائل من الكهوف فعثرنا على كهف فسيح يقع في قلب مدينة المقابر هذه ويحتوي على الكثير من الغرف الفسيحة. لقد دخلت إليه القافلة بأسرها حيث تم توزيع أماكن الإقامة وحيث حططنا أخيراً رحالنا قرب هذه الآثار التي كنا نتلهف كثيراً لرؤيتها. لعلَّ المرء يدرك، مع ذلك، أن أي أوروبي مثلي، لا يستطيع أن يحصل على كهف مريح جداً كهذا دون مفاوضات ومساومات وشروط في وسط السكان من السينيت «ربما يقصد الحاسة. . المترجم» Scènites الذين يقطنون تلك المقاطعة. حالما وصلت القافلة الأجنبية الصغيرة، تم عقد اجتماع «لديوان» كبير حيث هرع كل شيوخ القبيلة في المنطقة لحضوره.

إن المراسم الرسمية كانت بسيطة جداً ولكنها صارمة حضرتها شخصيات متوحشة من ذوي اللحى السوداء الغزيرة والعيون الوهاجة الثابتة، والتي يمكن للمرء أن يشاهدها نصف مستورة تحت ألبسة فضفاضة ممتشقة البنادق والخناجر الكثيرة. كانت الجياد تحيط بهذا الاجتماع الهام وتزينه. كان الأوروبي، في موقع الصدارة، حيث طلب منه إبداء أسباب هذه الزيارة غير المتوقعة وحيث أخرج الإذن الذي منح له من قبل الباي الذي لا يحظى بأي احترام أثناء إقامته في المنطقة والذي يصبح موضوعاً للسخرية والاستهزاء إذا غاب عنها.

على الأوروبي إذاً أن يفكر في حلول أخرى ومنها أن يتحدث إليهم بصراحة ويعدهم بعدم التعرض للأراضي المزروعة والسير على الأراضي الصخرية فقط، وألا يسكن إلا بين

الآثار والأطلال القديمة، ثم يقوم بعد ذلك، بتوزيع بعض الهدايا البسيطة والمتواضعة مثل البارود والأسلحة وهذه أشياء مغرية جداً بالنسبة لمضيفيه في الصحراء. عندئذ تبدأ نظراتهم القاسية النفاذة في الهدوء، ثم ينظرون إلى أمتعة الأوروبي. إن أمتعتي وممتلكاتي غير ذات بال فهي عبارة عن رؤوس «إخفاف» من الإبل تجتر في أحد الأركان كمطايا، وألبسة فجة، وأسلحة كزينة. إن مثل هذا المتاع لا يثير الجشع كثيراً، بل وينم عن روح الإخاء والسخاء. يتردد الشيوخ أولاً ثم يقتنعون ثانياً وتبدأ الأيدي في التصافح من الجانبين ثم نتعانق ونشترك في أكل «الخبز والملح» وهكذا تصبح إقامتنا الشرعية أمراً واقعاً لا رجعة فيه. ينفضّ بعد ذلك هذا الاجتماع الحاشد، ويتفرق الجميع، وتبدأ عملية الاستكشاف. تم تكريس الأيام الأولى، كما هو متوقع، لاستطلاع المكان بشكل عام، وللبحث العلمي، إن جاز التعبير، ولوضع مخطط عام لهذا الموقع.

لقد استرعت انتباهي كثيراًتلك الكهوف المنحوتة في قلب الصخر. لقد شدت حتى الآن كل انتباهي وذلك من بين آثار قرنة كافة.

إن هذه العادة التي اكتسبتها أثناء زياراتي لكل القرى حتى الصغيرة منها، قد صارت نوعاً من الضرورة في العاصمة. رغم مساحة قرنة الهائلة، إلا أنه لا يمكن التوصل إلى فكرة واضحة ومحددة حول التصميم الهندسي أو المعماري القديم لتلك الآثار إلا من داخل هذه المدافن بعددها الهائل وروعتها الفائقة. يعتبر هذا الأمر غريباً لأن تلك الكهوف التي كانت تحوي أكثر الأشياء حزناً وكآبة، قد صارت الدليل الوحيد الآن على المجد الغابر.

لقد كانت مقبرة قرنة الشاسعة، كما وصفتها قبل ذلك، مدينة مقابر أو مدينة للأموات ومفصولة تماماً عن مدينة الأحياء. إنها مدينة حفرت بأكملها في سفح الجبل بل وتتبعه في تعرجاته المختلفة، وتدخل معه إلى الأودية، وتتقدم معه إلى الأمام أو الخلف وفقاً لوضعية الجبل. إن هذه الوضعية غير المنتظمة التي تكونت بفعل الطبيعة في هذه الجبال، قد حظيت، مع ذلك، بتعديلات وتحويرات من قبل الإنسان. رغم وجود تلك الأركان العميقة في مدينة الأموات هذه، ورغم اختلاط هذا الركام المختلف الذي يغطي أرضية تلك المدافن، يمكننا أن نميز فيها وجود عدة مصاطب ومدرجات صغيرة تعلو إحداها الأخرى بمحاذاة الجبل أفقياً حيث يفصلها إلى شقين طريق عتيق لايزال يحمل آثار إطارات العربات القديمة، كما يحوي، في عدة جوانب منه، درجات قليلة الارتفاع. تمثل كل واحدة من تلك المصاطب سلسلة من الواجهات الأنيقة التي تتخللها الكهوف الجنائزية بصورة قلما تكون غير متواصلة. إن شكلها الأنيق متعدد الطراز وحالتها الجيدة بصورة خاصة تتناقض

مع هذه الأكوام من الحطام المحيط بها من كل جانب. توجد القبور المنحوتة في صخرة موحدة داخل الهضبة نفسها، في مقدمة تلك المصاطب وتحاذي هذه السلسلة من الواجهات الجبلية. تبدو هذه القبور الفجة التي نحتت من الصخر، دون أن تعلوها نقوش أو زخارف، بالمقارنة مع تلك القبور الفارهة التي تزيد من إبرازها، وكأنها كتل صخرية كبيرة وليست قبوراً.

لقد كانت تلك القبور دون شك، مخصصة للطبقة الفقيرة من سكان قورينة. إنها تمثل قبور الشعب، أما قبور العظماء والكبار فهي هناك. نفس الفوارق ونفس المصير في الممات كما هو الحال في ا لحياة. لنترك الآن قبور الفقراء الفجة في مكانها فهي لن تخبرنا بشيء في مجال الفن ولقد وعدت القارىء بالاهتمام بأمر الفن. يمكن للمرء أن يلاحظ أن القورينيين متى كان في إمكانهم، كقاعدة عامة، أن يحفروا قبورهم في الصخر، لم يترددوا في ذلك أبداً. هذا ما أشرت إليه في مناسبات عديدة خلال تجوالي بين آثار إقليم المدن الليبية الخمس وهذا ما نكرر، بصورة مذهلة، في مقبرة قرنة. دعونا نكرر، بصورة عجلى، للأشخاص الذين لا يعرفون جيداً الهندسة القديمة، بأننا لا نجهل، بشكل عام، أن القبور الإغريقية والرومانية في آسيا الصغرى أو في مدينة البتراء الشهيرة، تكشف أيضاً عن ذات الوضعية المعمارية. وانطلاقاً من هذا المبدأ، لن يشعر المرء بأي دهشة إذ لم ير كافة هذه الواجهات الأنيقة التي تزدان بها هذه المدينة المقبرة، غير محفورة في الصخر. إن عدم تواصل المحيط الطبيعي فقط هو الذي حال دون نحت القليل منها. في هذه الحالة الأخيرة، لجأ الإنسان إلى تسوية أو تربيع الصخور التي تشكل قاعدة لتلك الواجهات، وذلك بطريقة أفقية تارة، أو عمودية تارة أخرى، بمعدل النصف أو بمعدل الثلاثة أرباع ثم وضعت فوق هذه الصخرة التي تم تسويتها، أو إلى جانبها أو في وسطها، قواعد أخرى سدت الفراغات أو أكملت الارتفاع أو الغرض في تلك الواجهات. إن هذا الضرب من الترقيع، إن صح التعبير، لا يمكنه إلا أن يسر الناظرين لأنه تم بشكل فني جميل، ولأن الجزء الذي نحت في الهضبة نفسها قد تحلى بخطوط تشبه الفواصل بين الكتل الصخرية الموضوعة فوقها بحيث تبدو وكأنها فواصل طبيعية أو حقيقية. كان الهدف من تلك العناية دون شك، يتمثل في الحرص على قوة واستمرار بقاء هذه المعالم الأثرية ولقد تم بالفعل بلوغ ذلك الهدف.

يسيطر الطراز الدوري على هذا الكم الهائل من القبور، وذلك بصورة مستمرة. قد يجده المرء تارة أخرى بدون شائبة من طراز آخر بتيجانه المثلمة ومزاريبه، وقد شوهد أيضاً مختلطاً بتفاصيل ودقائق مصرية مثل الحوافي Corniches والأطر Cadres وتارة أخرى،

بطراز مختلف تماماً ينتمي، رغم احتفاظه بالنموذج أو الطراز الأولى، إلى الهندسة القورينية. تتمثل السمات المميزة لهذا الطراز في وضع Consoles بدلاً من الأعمدة وزوايا قصيرة ومفلطحة في أدق تفاصيله وتعريقاته، بدلاً من الزوايا القائمة. لا يميز هذا الطراز العديد من المعالم الأثرية في إقليم المدن الخمس فحسب، بل يوجد أيضاً، وبنفس الطريقة تماماً، في المباني الإغريقية والرومانية في واحة آمون «سيوة». إذا كان التأريخ لم يذكر لنا شيئاً عن مستوطنة الآمونيـين حول تحالف هذه المستوطنة أو تبعيتها لقرنة المستقلة ذاتياً، أو عند تبعيتها للرومان، فإن هذا التشابه في الأشكال الهندسية يجعلنا نفترض ذلك ويفيدنا، على الأقل، في التثبت من القرائن التأريخية.

ليست كل تلك الكهوف الجنائزية مع ذلك مليئة بالواجهات الهندسية، بيد أنه يمكن للمرء أن يشاهد جزءاً منها مشابهاً لتلك التي تم وصفها في مقاطعات أخرى من برقة والتي توجد بها مداخل مربعة عادية تم نحتها في قلب الصخر. هل هذه الكهوف سابقة أو لاحقة؟ هذا ما لا أستطيع تأكيده رغم أنني أرجح، ولعدة أسباب الاحتمال الأول.

إن هذه الكهوف الأخيرة فقط تستحق أن تسمى بالكهوف الأرضية لأنها وحدها التي تحتوي على أجنحة شاسعة تحت الأرض وتمتد، أحياناً إلى مسافات طويلة تحت الجبل. أما بقية الكهوف فيمكن أن نطلق عليها اسم «الأضرحة المنحوتة» إلا أنها لا تحتوي على غرف جنائزية شاسعة بل تتكون، على النقيض، من مربعات جنائزية تفصل بينها حواجز منحوتة بشكل دقيق جداً في الصخر وتنتهي من الخارج في واجهة تقوم على أعمدة Pilastres أو دعامات وأروقة. رغم تساوي تلك المربعات في العرض، فهي تختلف في الأطوال والارتفاعات أحياناً، وهي نفسها مقسمة، عن طريق حواجز صخرية أخرى مقامة على مصاطب أو منحوتة في قلب الصخر. إن الأضرحة الواقعة في ضواحي نوستاثموس قد كشفت لنا عن مقابر مشيدة بهذه الوضعية المعمارية مثل مقابر قرنة حيث يشاهد المرء في هذه المقابر كما هو الحال في تلك، عدد اثنين أو ثلاثة مربعات محفورة فوق مستوى الواجهة حيث لا تتعدى تلك المربعات أبداً حدود المربعات العمودية الأخرى من ناحية عرضها بل وتشكل أحياناً، امتداداً لها. غالباً ما يأخذ هذا العرض في الضيق تدريجياً بطريقة تجعل تلك المربعات تبدو وكأنها مجرد انخفاضات أو حفر متوازية الأضلاع يختلف العرض فيها عن الطول[1] تلك هي الكهوف والمقابر ذات الواجهات في قرنة.

---

(1) انظر اللوحات رقم XLI, XXXI, XXXIV.

لم يعد يبقى لي سوى الحديث عن أسلوب جديد في الهندسة في هذه المرافق إن لم يكن ذلك طرازاً جديداً من الناحية المعمارية. يشترك هذا الطراز مع الطرازين السابقين في سمات كثيرة، ويجمع بين الحجم والأناقة ولذا يصبح عظيماً بفضل هذا الجمع مما يحدوني إلى إطلاق تسمية «الكهوف الرواقية»[1] على الكهوف التي تمثل هذا الطراز المعماري.

لقد نحت أكبر تلك الكهوف في قمة الجبل تقريباً ولذا فهو يشرف على هذا النحو، على المقبرة بأسرها، ويمتد أمامه، وعلى مسافة طويلة، رواقاً طويلاً رائعاً قد يظن المرء، عند رؤيته لهذا الرواق، أنه وسط الأطلال المصرية الهائلة. عندما يصل المرء إلى هذا المعلم الأثري، فإنه سوف يكتشف أن هضبة بأسرها قد قسمت إلى أجنحة جنائزية تزدان خارجياً بعدد ستة وعشرين عموداً رخامياً كبيراً في هيئة خط مستقيم حيث وضعت على الطبقة الصخرية العليا للهضبة التي تغطيها الحقول والشجيرات وحيث استخدمت تلك الطبقة أساسات لتلك الأعمدة. إن كل ذلك يجدد الجهود الرائعة للفن المصري الذي اقترن بروعة الإزميل الإغريقي وفضل آلهة الآتيك[2] في الوقت الذي لا نعتقد فيه أن ضخامة هذا الكهف كانت نتيجة لأعمال تمت في عصور مختلفة. يبقى المرء على قناعة، بفضل تباين هذه الطرازات التي توجد في هذا الكهف، والتي تجعل منه عدة معالم أثرية متميزة ومجتمعة على خط واحد، بأن تلك الأعمال قد تمت في فترات مختلفة. إن ما يشد انتباه الإنسان أولاً هو تلك الواجهة الأنيقة التي تحتوي على عمودين معرقين Cannelées وتيجان من مادة Volute يحملان قنطرة architrave مزدانة بنقوش خفيفة.

لكي يتمكن المرء من رؤية تلك التفاصيل الدقيقة لهذه النقوش المنحوتة بدقة متناهية في قلب الصخر الصلد، عليه أن يطرح جانباً الأعشاب والطحالب والأشنات أي الزخارف التي وضعتها الطبيعة على هذه الزخارف المعمارية الفنية وكأن الطبيعة تهدف إلى حمايتها من صروف الزمان. إن الأجزاء الأخرى من الرواق أو بعبارة أخرى، الأروقة الأخرى المجاورة لهذا الرواق لا تنطوي على نفس أناقة العمل بل هيهات أن يكون الأمر كذلك. توجد بتلك الأروقة أعمدة عريضة عند قاعدتها ورقيقة عند قمتها كما توجد أعمدة ضخمة

---

(1) أي الكهوف ذات الأروقة.. المترجم.

(2) الآتيك هو المقر الذي كان يحكم فيه ومنه كبير الآلهة الإغريقية «دزوس». على كل حال، يمكن معرفة المزيد حول الآلهة والأساطير الإغريقية القديمة في كتب متخصصة مثل كتاب Robert Graves «الأساطير اليونانية». طبعة بنغوين ـ لندن ـ 1959 وغيره... المترجم.

عليها تيجان من Volute وأروقة أخرى صنعت بنفس الطريقة غير أنها لم تستكمل بعد.

إن هذه الأروقة الناقصة تقع في الطرف الشرقي لهذا الكهف الضخم وهذا ما يؤكد الملاحظة السابقة حيث لا يوجد أي شك في تبعية تلك الأروقة إلى عصور لاحقة للأولى[1]. ينبغي ألا نغفل أيضاً، وفقاً لعادة أشرت إليها عديد المرات في متن رواية هذه الرحلة، وجود مقاعد ومصاطب طويلة داخل تلك الأروقة كانت تستخدم للراحة وجلوس زوار هذه المقابر. يمكن للمرء هنا، كما هو الحال في أمكنة أخرى، أن يشاهد وجود كتابات نحتت بدون عناية على الصخور وذلك كشاهد على حضور هؤلاء الزوار وعن نواياهم الورعة.

دعونا نذهب الآن إلى الطرف الآخر لمقبرة قرنة وسوف نجد فيها نفس الطراز المعماري الذي أحدثت عليه تعديلات محلية، والذي يكشف عن مظهر أكثر فجاجة وتبايناً. يفصل بين هذا الجانب من المقبرة والجانب لسابق وادٍ سحيق، يجري في وسطه جدول طيلة العام حيث تغطي الشجيرات والأشجار المختلفة سفح الجبل الذي حفرت به تلك القبور.

لا بد أن نضيف إلى تلك السمات التي تميز الجانب الغربي للمقبرة سمة أخرى تتمثل في وعورة هذا الجزء من الجبل وشدة انحداره وكثرة جلاميده، قد يكون هذا هو السبب في قلة عدد تلك الكهوف والحفريات الجنائزية وعدم انتظام مواقعها لأن المرء لا يستطيع صنعها على خط مستقيم. لذا يمكن للمرء أن يشاهد صنفاً طويلاً من الكهوف التي تمتاز بنفس الطراز المعماري الذي وصفته قبل قليل غير أنها تخلو من الأروقة الموجودة في سابقتها. تتابع، في هذا الجزء، أعمدة على نفس الشكل، تعلوها تيجان ولكنها ليست مفصولة عن المدخل بل منحوتة في الواجهة الصخرية الخارجية وفي جوانب تلك المداخل. إن صغر المسافة التي تسببت فيها وعورة الجبل، هو السبب الرئيسي، دون شك، في هذه الفوارق في الطراز المعماري.

إن هذا النقص الإجباري في الأرض يتضح جداً في ثلاثة من الكهوف الواقعة بالقرب من تلك الكهوف الأخيرة حيث يوجد جلمود ضخم وبارز نحو الأمام قليلاً رغم أنه لم ينجُ من الجهود الفنية لسكان قرنة حيث تم نحت كهفين، أحدهما فوق الآخر، في قلب هذا

---

(1) انظر، بشأن مظهر وتفاصيل هذا المعلم الأثري، اللوحتين XXXVII و XXXVIII.

الجلمود الصخري، بشكل يجعلهما يرسمان زاوية قائمة أفقياً، وزاوية حادة جداً عمودياً. يدرك المرء أن التموجات الأولى لهذا الجلمود هي السبب الوحيد في اختلال استقامة تلك الخطوط. كما أن كثرة وتنوع النباتات والأعشاب التي تزين تلك الكهوف تبدو منسجمة تماماً مع هذا الخلل الفني في طبيعة الموقع الأثري.

إن أشجار العرعر التي تحمل سوقها العديد من العقد، وأغصانها الطويلة الفارعة تحيط بهذه الصخرة وتلقي بظلالها على واجهتها الخلابة. تنمو وتعلو قرب هذا النوع من الأشجار أشجار «الشعرة» التي تبدو، بفضل أشكالها الهرمية وكأنها أطر، إن صح التعبير، لتلك اللوحة.

تنساب أمام تلك الأشجار وبينها مياه جدول رقراق ثم تنكسر على هيئة شلالات متتابعة تنحدر، قرب هذا المكان، مندفعة إلى قاع وادٍ سحيق. على المرء أن يقارن علاوة على هذه المربعات الجميلة من الخضرة بين ألوان الصخور البنية القاتمة التي لوّن الزمن قشرتها بألوان تميل إلى الزرقة، وبين الألوان الزاهية للنباتات المختلفة والأزاهير التي ترصع الشقوق وحوافي القبور، بالإضافة إلى آلاف النباتات الزهرية والعطرية من شتى الألوان مثل الزهور البرية ونبات Seneçon «الزهيرة» والقرنفليات المختلفة وشاي درنه والعطرشان وغيرهما حيث تمتزج تلك النباتات الرائعة مع عدد لا يحصى من النباتات البذرية germinées، حتى يحصل على فكرة بسيطة عن اختلاف الأشكال والألوان، وتباين المظاهر التي توجد في تلك الكهوف التي اطلعت عليها، وحتى لا أكرر نفسي، دون طائل، المواقع البرية المتوحشة رغم كونها أكثر نواحي الجزء الغربي للمقبرة بهاء وسحراً[1].

بعد هذه اللمحة العجلى عما تقدمه كهوف قرنة من السمات المعمارية، من الملائم أن ندخل الآن إليها لمعرفة ماذا يوجد بداخلها. لقد لمحت دون ترك الجزء الذي نزوره الآن وبعد أن سرنا قليلاً بمحاذاته نحو الجنوب، وعلى جانب الدرب الضيق الذي يمر أمام سلسلة الكهوف التي وصفتها، خمساً أو ستّاً من المغارات التي تسد مداخلها صخور ونباتات شوكية مختلفة. لا يبدو على مظهرها الخارجي أي شيء يثير الاهتمام.

مع ذلك، ونظراً لأن الأماكن المستورة والمواقع الغريبة هي التي تسترعي انتباهي بصورة كبيرة، لم أمر على هذه الجحور المظلمة مرور الكرام. لقد قمنا، على نقيض ذلك،

---

(1) انظر اللوحتين رقم XLII ورقم XLIII.

ببذل أقصى جهد بغية الدخول إليها، ومن ثم استخدمنا الفؤوس والعصي، واحدة تلو الأخرى، فأخذت الثعابين والبوم تهرب فزعة وفي عجلة من أمرها. لقد تمكنا أخيراً من دخول هذا العرين ورأيت نفسي مضطراً إلى الاعتراف، رغم إصابتي ببعض الرضوض والجروح، بأن شذوذ التفكير قد يساعد أحياناً على اكتشاف الفن. حالما اعتادت أبصارنا على الظلمة، شاهدنا أمامنا قبرّ رائعاً مصنوعاً من الرخام الأبيض وفي حالة ممتازة من الصيانة ومزداناً بنقوش بارزة bas-reliefs من جوانب ثلاثية، وأعمدة على شكل نسوة Carystides في وضع رائع بملابس شفافة، وعدداً من الفتيان الذين لا يستر عورتهم سوى زنار Tablier ويحملون أكاليل الزهور والأوراق التي تتدلى منها عناقيد العنب، بالإضافة إلى رؤوس ترمز للحداد والحزن، ونقوش زهرية rosaees في وسط دوائر تكونت بفضل تموجات تلك الأكاليل. إن غطاء أو سقف ذلك الضريح كان مهيباً، ولقد نُحتت فوقه أوراق متطابقة غير أن البدو كانوا قد تمكنوا من تحريكه وتعديل وضعه العمودي بغية أخذ ما به.

لا يوجد أي معلم أثري من هذا النوع في كافة أرجاء برقة لم يتعرض إلى العبث. رأيت، علاوة على ذلك، أن الكهف قسم إلى ثلاث غرف تحتوي كل منها على قبر. كانت تلك القبور، إذا حكمنا عليها من خلال الشظايا المتبقية من حطامها، أقل جودة وروعة من ذلك الضريح الذي صمد وثبت.

يوجد على أحد تلك القبور مشهد لرحلة صيد Chasse منحوت جيداً بينما يوجد على قبر آخر عدد من حيوانات griffons[1]. إن ضياع هذا القبر الأخير لا يثير الأسف كثيراً لأننا سوف نعثر على غيره من القبور المشابهة له وسنرى ما بها من رموز في كهف آخر.

لقد عثرنا على هذا القبر في أكبر كهوف المقبرة أي في ذلك الكهف الذي اخترناه كملاذ لقافلتنا. إن كل من يدخل إلى ذلك الكهف يرى هذا الضريح بوضوح. إن هذا الموقع الأثري الجميل كان سبباً في تحطيمه إلى عدة أشلاء. نظراً لعدم قدرتنا على نقل آثار قرنة إلى أوروبا، فقد اكتفينا بجمع تلك القطع المتناثرة وقمنا بعملية ترميم مؤقت لذلك الضريح.

لقد نتج عن ذلك الترميم وجود ضريح لا تزينه نقوش كثيرة مثل القبر السابق، ولكنه

---

(1) الغريفون حيوان أسطوري له جسم أسد ورأس وأجنحة نسر وآذان جواد وزعانف سمك... المترجم.

يثير الإعجاب بفضل بساطته وبفضل الحيوان اوسطوري المجنح الذي نحت فوقه. لقد وجدت عليه عدد «2 غريفون» رسمت بطريقة ممتازة مرتكزة على شمعدان ضخم Candelabre. أما جانبا الضريح، فأحدهما مزدان برؤوس تيوس الماعز، والثاني يحمل أكاليل من الزهور[1].

إن مثل هذه الرموز والشعارات التي نصادفها في المواقع الأثرية القديمة وعلى معالم أثرية مماثلة لهذا الضريح، لا تقدم لنا أي جديد، لذا علينا، دون التوقف كثيراً عند هذا القبر، أن نواصل زيارتنا.

آه، كم من مرة تعرضت برقة السيّئة الحظ والطالع إلى الدمار والخراب! وكم من بناية معرضة لعوامل التعرية وأنظار البشر قد اندثرت تحت تأثير هذا الغضب المدمر. يمكننا أن ندرك بسهولة أن جزءًا كبيراً من هذا الدمار ناجم عن قسوة الطقس في هذه البلاد. لكن ألا ينبغي للفن العتيق أن ينعم بالنجاة في الملاجىء المستورة والكهوف المطمورة في أحشاء الصخر؟ ألا ينبغي أن ينجو الأموات الذين يحظون بالاحترام في بلدان أخرى، لا سيما أولئك الذين ينتمون إلى عصور غابرة، من العبث؟ إن هذا يحير المرء لدرجة أنه يتساءل فيما إذا كانت الجهود التي بذلت لأحداث مثل هذا الخراب مساوية تماماً لأسباب حدوثها!

يمكن للمرء أن يختار أي كهف من بين هذا الكم الهائل من الكهوف في قرنة فلن يجد سوى القليل منها لا يكشف عن هذه اللوحة المرعبة والمروعة من الفوضى والدمار أو يستطيع الولوج فيها بسهولة دون معاناة وتعب في إزالة ما يسد مداخلها. إن المرء سوف يعثر على عراقيل جديدة حتى إذا وفق في إزالة ما يسد هذه المداخل. تتمثل تلك العراقيل في الأعمدة المقلوبة والأضرحة المدمرة أو قطع من الصخور تم إزالتها بواسطة الإزميل من جوانب وجدران تلك الكهوف. على الإنسان، بالتالي، أن يستخدم نفس الوسائل لإزالة هذا الركام الذي يسد الطريق. عندما ينجح المرء في هذه المسألة، فإن عليه أن يزحف على ركام من الأتربة وأن يحتاط كثيراً من أجل الاحتفاظ بمشعله مضيئاً. قد يصادف الإنسان أثناء زحفه، أسراب من الوطاويط المذعورة ولا يجديه أن يُخفي رأسه حيث ينبغي عليه أن يتحمل ملمسها الكريه، لكي يصل بعد ذلك إلى قلب الكهف. سيكون هذا الإنسان، خاصة

---

(1) انظر اللوحة LXIII.

إذا كان أوروبياً، سعيداً جداً إذا ما عثر على بضعة أجزاء متفرقة من النقوش أو الرسوم وذلك بمثابة مكافأة استحقها على هذا التهور الذي أدى إليه الشباب. إن هذا ما يثلج صدره حقاً. إن مثل هذه المكافآت نادرة حيث ينبغي عليه أن يكتفي برسم مخطط عقيم لهذا الكهف أو ذاك وذلك بمثابة المورد الوحيد الذي تحصل عليه أثناء هذا التقصي والعناء. قد يظن المرء، وفقاً لهذه اللوحة، التي قام برسمها، أن نتائج الجولات التي تمت تحت الأرض غير ذات بال إذ ما قورنت بما صادفه من عراقيل وصعوبات.

أقدم إليك، مع ذلك، أيها القارىء ما يلي من الملاحظات. إن إحدى المغارات الصغيرة التي نحتت في سفح الوادي في مقبرة قرنة تقدم وحدها أكثر مما تقدمه كل تلك الكهوف مجتمعة من حيث الكنوز والنفائس الأثرية. تحتوي تلك المغارة الخالية من المحاريب والقبور، على بئر جنائزية تغطى جوانبه الأربعة رسومات شتى يبدو أنها تمثل ألعاباً جنائزية.

إن أفضل تلك اللوحات حالة وأكبرها أهمية هي تلك التي رسمت على طول أحد جوانب هذه البئر. تمثل تلك اللوحة سلسلة من الشخصيات بعضها يرتدي ملابس فارهة وتسير مسيرة رسمية، بينما تنقسم بقية الشخصيات الأخرى إلى مجموعات وهي ترتدي ألبسة عادية. تقدم تلك الرسومات فكرة عن سكان قرنة الذين كانوا يحضرون احتفالاً ما ويحتشدون أمام الأعيان وكبار الشخصيات. يوجد في مقدمة هذه اللوحة مائدة يقوم بعض الفتيان حولها بإعداد وجبات الطعام وترمز دون شك للوليمة التي تقام قديماً بمناسبة الاحتفالات الشعبية، كما توجد أيضاً، مائدة مغطاة بأكاليل الزهور وسعف النخيل، يوجد بالقرب من هذه المائدة ثلاثة من الأشخاص الذين يرتدون تيجان الأساقفة[1] Mitres. يقف كل منهما على منصة متكئاً على مطرقة كبيرة ويبدو أن أحدهم يقوم بمباركة أكاليل الزهور وسعف النخيل. بينما يقف الآخر موقف الخطيب وكأنه يريد إثارة انتباه الجمهور الذي يحيط به[2].

ذلك هو الأثر الذي تحدثه للوهلة الأولى هذه اللوحة الفنية الهامة بغض النظر عن أي استنتاجات علمية. أما فيما يتعلق بالملاحظات التي يمكن أن تعبر عنها هذه اللوحة، فيمكنني أن ألخصها في ملحوظة واحدة، أن هذه اللوحة رومانية. هذا هو حكم أحد

---

(1) غطاء للرأس يشبه غطاء رأس البابا لدى النصارى. . المترجم.

(2) انظر اللوحة XL.

المتخصصين، في هذا الشأن، على الأقل، خاصة إذا ما قورنت بلوحة أخرى وجدت في نفس الكهف وتعود، بطبيعة الحال، إلى نفس العصر[1]. نجد أن لباس الشخصيات الثلاث سواء أكانت من البابوات أو من الحكام Orchontes غير مهم كثيراً. إن ما يهم كثيراً هو أن هذا اللباس لا ينتمي إلى التقاليد الإغريقية أو الرومانية. إن أغطية الرأس المذكورة والجلاليب الطويلة المخضبة بالزهور وكذلك الأحزمة التي تتدى منها سيور من القماش، تذكرنا على النقيض، بزي شعوب قديمة في الشرق. ذكر المؤرخ سالوست Salluste أن شعوب الميد Mèdes والأرمن قد استقرت قديماً في ليبيا، وعقدت أحلافاً مع السكان[2].

إن تلك الرواية التي ذكرها هذا المؤرخ النوميدي قد عثر عليها مدونة، بصورة غير جلية كثيراً في مدونة تأريخية جاء فيها أن القبائل التيكانت تقطن ضواحي قرنة حتى إقليم Coelésyrie كانت عبارة عن مستوطنات من شعوب الميد والفرس[3] Medes, Perses. يمكننا أن نستنتج من تلك الروايات التي تعززت الآن بفضل هذه الرسومات، أن أعراف وتقاليد الميديـين والأرمن قد انتشرت في قورينة التي سادت فيها أعراف وأديان مختلفة.

يبدو أن هذا الأمر مرجح وصحيح لأنه من النادر أن يستقر شعب أجنبي في منطقة ما، أو أن يقوم بعبورها، دون أن يترك أثراً على استقراره، أو عبوره لدى سكان تلك المنطقة.

مهما كان هذا التفسير جذاباً بفضل الطريقة التي أوجدها بين تقاليد وروايات من التاريخ الغابر وبين معلم أثري حديث، فإنني أقر بأن المعلومات التي يستند إليها هذا التعليل غير واضحة تماماً، بل وغامضة جداً، لدرجة أنني لا أميل للموافقة عليها.

إذا سمح لي أن أدلي برأي في هذا الموضوع، فإنني أفضل، نتيجة لنفوري مما يمكن تسميته بالعجائب أو الغرائب في حقائق التأريخ، أن أؤكد بأن هذا المعلم الأثري يعود إلى اليهود. إن النفوذ الذي مارسه اليهود في إقليم المدن الخمس في العهد الروماني معروف جداً. لقد ذكرت آنفاً أنه كان لديهم حاخامات وحكّام Orchontes في برنيقه نتيجة لتزايد عددهم، بصورة كبيرة، في برقة لدرجة أنهم كانوا يتصرفون فيها كأسياد تقريباً بفضل عطف القياصرة عليهم.

---

(1) Lettronne. Moniteur, 29 Decembre 1825.

(2) Salluste, De belle, Jugurth. c. 18.

(3) Chronic, Paschale,p. 32.

هل يمكننا إذاً أن نرجح أن تلك الطائفة أمرت، في مرحلة من مراحل سيطرتهم على برقة، بتنفيذ تلك اللوحة الفنية التي لا تكشف عن أي شيء مخالف للتعاليم والقوانين التي أرساها سليمان «عليه السلام.. المترجم»، والتي كشفت عن أزياء تذكر فعلاً بالزي العبراني. على كل حال، ومهما كان مدى ترجيح هذا الافتراض، فإنني أقدمه، كعادتي، إلى فقهاء التأريخ لدراسته والمصادقة عليه. أريد الآن، دون الوقوف كثيراً عند هذه الفرضية، أن أواصل زيارتي لهذا الكهف. إنني أقف الآن أمام الجانب الخلفي للكهف، وألاحظ ههنا في أحد أركانه، لوحة فنية أخرى تمثل شجاراً أو نزالاً وكأنه ضربٌ من ضروب المصارعة. توضح تلك اللوحة ملامح وأشكالاً لبعض الرياضيين الذين لا يسترون عوراتهم ولو بورقة من أشجار الكروم. يلاحظ الناظر إلى تلك اللوحة الجهود المبذولة والدماء التي تسيل من جراحهم وتلون الأرض بالحمرة. يرى المرء أيضاً إحدى هذه الضحايا سيئة الطالع خامدة على الأرض. لقد كانت تلك، على الأقل، هي نية الفنان الذي رسم هذه اللوحة، إلا أنه قد رسم الرياضي المذكور فوق اللوحة وكأنه يسبح في الهواء وكان يفترض أن يكون على المستوى الأفقي غير أن عدم الخبرة فيما يتعلق بالأبعاد الهندسية كان معروفاً بما فيه الكفاية في الرسومات القديمة. إن وجودها هنا لا يذهل أحداً لأن ذات الملاحظة قد تسري أيضاً على اثنتين من الأواني التي تحتوي على الفرشاة والزيت المستخدمة في طلاء الجسد. لا تكشف تلك التفاصيل عن أي شيء غريب أو غير مألوف ما عدا فيما يتعلق بتلك العقرب المتدلية من يد معزولة إلى جانب هذه اللوحة الفنية[1].

لا أدري فيما إذا كانت هذه الحشرة التي أزيل سمها قد صارت، مثل كثير من الحشرات الأخرى، ترياقاً يستخدمه البشر إذ نلاحظ أن سكان برقة الحاليين يستخدمون العقارب لوقف تعفن الجراح كما يقولون.

لم أستطع التحقق مما إذا كان هذا التقليد قد استخدم في الحالة المذكورة آنفاً غير أنه يبدو قديماً جداً لدرجة أن تلك اللوحة قد جسدته أو دللت على شيوعه. أما بقية اللوحة فقد تمثلت في مشهد لسباق العربات غير أن هذا الجانب من اللوحة قد تضرر كثيراً جداً لدرجة أنه أصبح من العسير على المرء أي يميز بها أي شيء سوى أثر لعربات تجرها خيول أربعة[2]

---

(1) انظر اللوحة LIII الشكل 2.

(2) عربة قديمة جداً تسير على عجلتين وتجرها أربعة جياد، يدخل عليها المصارع إلى داخل الحلبة. لقد شاهدنا مثل هذه العربات في أشرطة الخيالة الإيطالية القديمة مثل «مصارعي أسبرطة» وغيرهم... المترجم. =

وعدد هذه العربات أربعة أيضاً. يمكن للناظر أن يرى أن إحداها لايزال في حالة جيدة وهي تشبه تلك العربات المنقوشة عللى الميداليات. يرتدي سائس هذه العربة لباساً خفيفاً وينحني بشدة نحو الأمام أي صوب الجياد الأربعة وهو ممسك باللجام بيد واحدة، أما خط النهاية في هذا السباق فتمثله بناية مربعة تشبه الخيمة البدوية إلى حد كبير. لقد شعرت بالأسف كثيراً إزاء الجانب الآخر لهذا الكهف الذي يحمل لوحة فنية على كبر حجمه وهي تمثل المصارعين أو المبارزين القدامى gladiateurs غير أنها قد تعرضت إلى التخريب، لم ينجُ منها سوى جزء صغير نجد فيه أن المبارز يرتدي درعاً حديدياً ويخفي معالم وجهه وراء قناع أو خوذة بينما يزدان رأسه بريش من عدة ألوان[1].

إن هذه الصفة الأخيرة جديرة بالملاحظة لعدم وجودها، حسب علمي، في أي لوحة قديمة مماثلة، وهذا ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن هذا التقليد محلّيّ. لقد كان صيد النعام الموجود في الصحاري المتاخمة لإقليم المدن الخمس يشكل الهواية الوحيدة لسكان قرنة في وقت السلم[2].

يحتمل أن يكون ريش هذا الطائر العملاق ذو الألوان التموجية، قد ألهم سكان قرنة تلك الزخرفة في الملابس العسكرية التي تمت الإشارة إليها آنفاً، والتي تحولت، في العصور اللاحقة، إلى جبين المحاربين في أوروبا.

أما فيما يخص بقية تفاصيل الدرع في لوحة المبارزة هذه، فلا تكشف عن أي شيء غير معروف في المعالم الأثرية الجنائزية القديمة لا سيما بعد اكتشاف النقوش على ضريح سكاوروس Scaurus الذي تم اكتشافه في بومبي Pompéi. لم يبق أمامي إذاً أي شيء آخر أقوله سوى الحديث عن لوحتين في حالة ممتازة من الصيانة يمكن للمرء أن يجدهما حتى يومنا هذا في الكهف. تمثل اللوحة الأولى سركاً وتمثل اللوحة الثانية مشهد صيد. إن اللوحة الأولى غريبة جداً لأنها تمثل حيوانات مقدسة كالأسد والنمر وهي واثبة على ثور بري إلى جانب الماعز والغزلان والكلاب التي سرعان ما يلاحظ المرء أنها من نوع «السلوقي» المحلية في شمال أفريقيا[3].

---

(1) انظر اللوحة LIII الشكل 1.

(2) انظر سينوسيوس. الرسالة 133 طبعة Petav ص 271.

(3) انظر اللوحة LIII الشكل 2.

أما اللوحة الثانية فتثير الدهشة والاستغراب نتيجة لوجود حيوان الأيل الذي يطارده صياد مع وجود كلب سلوقي مربوط في أحد يديه بينما يهز الصيّاد بيده الأخرى سوطاً لحث الكلب على مطاردة ذلك الأيل[1].

رغم أن حيوان الأيل، كما أكد ذلك هيرودوت[2] وخلافاً للخطأ الذي ارتكبه الموارنة Maronites في كتاب جغرافية النوبة[3]، لا يوجد في أي مكان في أفريقيا. ولذا يمكننا أن نؤكد أن هذا الحيوان قد أحضره الإغريق إلى إقليم المدن الخمس الليبية. يبدو أن تلك اللوحة تدل على ذلك بالإضافة إلى تأقلمه في هذه المنطقة التي قد تفسرها معالم أثرية أخرى.

يمكن أن نعزو ذلك، دون شك، إلى عبادة الربة ديانا Diane وهي إحدى ربات قرنة الرئيسية كما سوف أتحدث عن ذلك لاحقاً. أكتفي الآن بالحديث عن هذا الحيوان الذي كرس لها والذي وجد أحياناً منحوتاً على قلائد سكان قرنة. أن الملاحظات التي أخذتها خلال تجوالي في تلك الكهوف الأرضي تدفعني إلى زيارة كهف نصراني بالقرب من الكهوف التي قمت الآن بوصفها.

في الوقت الذي لا تقدم فيه الرسومات التي تغطي جوانب هذا الكهف أي دليل يقيني على هذا العصر الديني، نرى أن وجود نقوش خطية مقترنة بصليب تثبت ذلك بكل تأكيد.

ينبغي عليَّ أولاً أن أقدم فكرة عن الهندسة المعمارية والتقسيمات الداخلية لهذا الكهف الذي يشكل معلماً أثرياً بالفعل. يوجد بداخله ضريح نُحت، بطريقة فنية في غاية الدقة، ومزدان بأكاليل من الزهور وبرؤوس تيوس الماعز، وتعلوه قبّة صغيرة نُقشت فوق الصخر.

---

(1) انظر نفس اللوحة. إن تلك الطريقة لحث السلوقي على مطاردة الغزال لاتزال شائعة في أيامنا هذه في إقليم برقة.

(2) هيرودوت، الكتاب الرابع، ص 192.

(3) جاء هذا الخطأ من جراء خلط الموارنة مثلهم في ذلك مثل العديد من مؤلفي كتب التأريخ القديم وخاصة فيرجيل Virgile، بين الأيل والغزال وذلك وفقاً لرأي هربلو Herblot.
إنني أرى، وهذا ما يبدو مرجحاً، أن ذلك قد نجم عن الخلط بينه وبين حيوان الرتم le bubale، الذي صنفه علماء الحيوان، من فصيلة الغزلانيات، غير أنه أكبر جسماً منها ولكنه مساوٍ لها في الرشاقة مع اختلاف في شكل القرون. إن قرون الرتم طويلة ولولبية. لقد شاهدت هذا الحيوان كثيراً في دواخل ليبيا لا سيما في ضواحي واحة آمون.

يشاهد المرء، على جانبي الضريح، وجود كوتين تحتوي كل منهما على مزهرية أنيقة الشكل[1]. إن جانبي الكهف اللذين يشكلان زاوية قائمة بفضل تعامدهما على الجانب الخلفي يحتويان أيضاً على قبور منحوتة وعلى تقويسات Cuitres بعضها تم تلوينه، وتكشف عن نفس التفاصيل سالفة الذكر[2]. إن هذه الفوضى التي تذهل المرء في هذا الوصف، لا تؤثر كثيراً على شكل مظهر هذا العلم الأثري لأنها تنوع هذا المظهر وتنسجم مع بعضها البعض.

أما بالنسبة للرسومات التي تلطخ هذين الجانبين أكثر مما تزينهما، فهي تتكون من هذه الرموز والشعارات. أشجار من الكروم الربانية التي تشكل شعار العهود الأولى للنصرانية وتشبه في شكلها نبات Thyrse المكرس للرب باكوس Bacchus. ها هي تلك الشجرة بأليافها وعناقيدها الحمراء وأوراقها الكبيرة وهي تتسلق حول العديد من العصي المغروسة إلى جانب تلك الأضرحة.

توجد هذه الشجرة، أي شجرة الكروم، في أي مكان آخر على شكل دالية داخل تلك الأقواس Cuitres وهي تلتوي وكأنها زخارف لهاتيك الأعمدة الرخامية الموجودة حول ذلك المعلم الأثري نفسه.

نجد بعد ذلك طائر الطاووس وإلى جانبه السمكة وهذا ما يراه المرء غالباً في المغارات الجنائزية في هذه المقبرة. لقد شاهدت هذا الرمز، عدة مرات، مرسوماً فوق الأضرحة والقبور، وها أنذا أشاهده الآن كموضوع أساسي لهذه اللوحة الفنية التي تغطيه بالكامل. يوجد هذا الطائر في وسط سلة كبيرة بأذنين ناشراً ذيله المزركش وسط باقات من الأزاهير التي توجد مقترنة بالهموم والانشغالات المنثورة بين قبضات من الورود. إن طائر سيريس Sèrès هذا، يجسِّد، دون شك، في هذه الأماكن الجنائزية قرباناً معيناً رغم إنني لا أعرف سبباً لهذا الاختيار الرمزي. يمكنني، في الحقيقة، أن أفترض أن تلك الرسومات تعود إلى عهد الكربوقراطيين. لقد استعار أنصار هذه الطائفة أغلب الرموز الغيبية لسيريس. يمكن للطاووس هنا أن يمثل رمزاً جديداً، غير أن مثل هذه التفسيرات محفوفة بالمبالغة، ولذا فإنني سوف أكتفي بذكرها بشيء من الحيطة، وأتجاوزها إلى تفسير آخر لا يبدو لي محفوفاً بأي مجازفة فكرية. لقد استوحيت هذا التفسير من لوحة أخرى أصغر من اللوحات

---

(1) انظر اللوحة XXXIX الشكل 1.

(2) انظر اللوحة LV.

السابقة غير أنها أفضل منها حالة. لقد جسدت تلك اللوحة الصغيرة راعياً وبيده عصا ويحمل على كتفيه حملاً وسط قطيع من الغنم. يمكن أن يمثل هذا الراعي ها هنا الراعي الطيب للنصرانية لا سيما وأن فجاجة الملابس، وسوء الذوق الفني، تدل على أن هذه اللوحة تعود إلى العصور الوسطى أي إلى عصور انحطاط الفن. لكنني وجدت نفسي، مع ذلك، أمام لوحة لأسماك من مختلف الأنواع موضوعة على شكل قرابين ويتضح هذا القصد بجلاء نظراً لرسمها بحجم كبير يصل إلى ثلاثة أضعاف حجم خرفان الراعي، ونظراً لأن الفنان الذي رسمها قد أبرزها كما لو كان يرغب في جعلها معلقة أو متدلية[1] ex-voto. إن هذه المسألة جديرة بالاهتمام حيث يرى المرء أن تقليداً كهذا لايزال يرسم بصورة متكررة، بعد أن اجتاز الكثير من القرون، على المعالم النصرانية وذلك حتى يومنا هذا. لا يوجد شخص واحد زار ايطاليا دون أن ينتابه شعور بالدهشة من جراء هذا الكم الهائل من الأسماك الفضية والذهبية أحياناً التي تتدلى من أسقف الكنائس، والتي تحمل صور القديسين والقديسات. أريد الآن أن أدخر على القارىء هذا الدفق المبتذل من الملاحظات والافتراضات الشخصية. أود أن اعترف، مع ذلك، بأنه من المحزن حقاً بالنسبة لأوروبي مثلي يجوب آثاراً تعود اسمياً إلى أهم العصور القديمة ألا يجد بها، في حالتها الراهنة، سوى الإحباط المستمر الذي شهدته تلك العصور.

يشعر المرء بإحباط كبير عندما يصادف، على أرض قرنة القديمة، مسوخات رومانية تلطخها آثار نصرانية لا شكل لها ناتجة عن عبقرية النصرانية في العصور الوسطى، بدلاً من تلك الآثار والمعالم المقدسة لحكام من أمثال باطوس وأريكسيلاوس. لقد تعبت كثيراً من الزحف داخل هذ الأقبية القورينية المدمرة في هذه المقبرة دون طائل، ولذا قررت الخروج منها، كنوع من أنواع التسلية، للتمتع بالمواقع المختلفة التي تحويها هذه المدينة في الخارج. لقد اغتنمت فرصة من عدة أيام وكان الجو فيها صحواً للقيام بجولات خاملة حول الجوانب المزهرة لبعض الينابيع والعيون.

لقد كنت أشعر بالغبطة والحبور إثر رؤية تدفق المياه التي تلونها شمس أفريقيا باللون الذهبي وهي تتعرج بين نباتات Vèroniques العطرية والكرفس والجرجير وغيرها من هذه النباتات المعروفة جداً في أوروبا، غير أن النباتات التي شاهدتها في ليبيا، رغم كونها معروفة لديّ، قد اكتست جاذبية جديدة. كنت أتسلق أحياناً الصخور الوعرة والشاهقة لأن

---

(1) انظر اللوحة LIV.

صحو الطقس يسمح لي بالتمييز بين شاطىء البحر والسهل المنبسط، وربما كانت أتخيل قدوم بعض السفن الشراعية من مقاطعة بروفنس Provence، أو ربما لأن العاصفة التي كانت تحرك الأشجار حولي، وتلبد السماء بالغيوم، قد تسمعني الصرخات المختلطة واللامتناهية لتلك القبور القديمة، وتجعلني أعترف بأن هذا الكم الهائل من التناقضات للأزمنة الغابرة مع زمننا هذا مدعاة للتأمل.

رغم ما يعانيه المرء من إعياء كبير، وإحباط شديد لآماله، فإنه لا يشعر بالندم على ضياع بعض أيام قضاها في المنفى بعيداً عن وطنه. لقد لمحت في الجانب الغربي للمقبرة، بفضل واحدة من تلك الجولات التي لا أريد أن أسهب في ذكر تفاصيلها، غاراً معزولاً نُحت في قمة جلمود صخر.

كنت قد ذكرت آنفاً بأنني كنت أفضل دائماً أن أزور الكهوف التي يعسر الوصول إليها، أو التي يحيط بها شيء عجيب أو غريب. رغم إنني قد سئمت مثل هذه الجولات الأرضية، إلا أنني عزمت على أن أجرب ذلك مرة أخرى.

لقد كانت نتيجة تجربتي هذه مثمرة ولم يذهب جهدي سدى. بعد أن تسلقت تلك الصخرة الضخمة، وجدت نفسي أمام قاعة صغيرة متساوية الجدران التي تم طلاؤها باللون الأخضر الفاتح. لقد كان هذا اللون يضفي عليها مظهر مقصورة طائرة من الداخل بدلاً من مظهر كهف جنائزي.

إن الجانب الخلفي فقط لهذه المغارة هو الذي أكد لي غايتها الجنائزية لأنه كان يحتوي على قبر منحوت في قلب الصخر وتعلوه شفة زخرفية Triglyphes تحتوي على Mèlope به رسومات أنيقة في حالة ممتازة.

إن ما راد من دهشتي هو أن تلك اللوحة كانت تعبر عن المراحل المختلفة لأمة سوداء. كان هذا، على الأقل، هو الاستنتاج الذي توصلت إليه بفضل تلك الرسومات الجميلة.

لقد شاهدت في تلك اللوحة وعلى التوالي علاقة الصداقة، ومراحل تعلم هذه الفتاة اليافعة، وطموحها للحصول على الجواهر والحلى، وضروب الترفيه التي جسدتها أرجوحة، والحمام الضروري في المناخ الحارق لليبيا، ثم فراش الموت حيث كانت الفتاة الزنجية مستلقية عليه وقد أسبلت عينيها، وحيث كان سيدها القوريني الأبيض إلى جانبها

وقد بدت عليه علامات الأسى والحزن لفقدانها. إن الملابس والتسريحات التي عبرت عنها تلك اللوحة الدقيقة التي تسمى فنياً بالمنمنمات تثير الانتباه بفضل أشكالها وألوانها. إن الفساتين الزرقاء المشبوكة، وأغطية الرأس الحمرء المضفورة مع الشعر أو الملفوفة حول الرأس على شكل عمة حمراء، تشبه كثيراً الملابس والتسريحات الإفريقية الحديثة وخاصة الملابس النسائية الشائعة في إقليم فزان[1].

ليس لهذه الملاحظات التي تستند إلى فرضيات بسيطة أي قيمة كبيرة إذا قورنت باللوحة التي تليها والتي تعتبر فعلاً وثيقة تأريخية على قدر كبير من الأهمية.

نحن نعرف أن قدامى الإغريق والرومان كانوا يحبذون، في الماضي السحيق، الإماء من الزنوج[2]. يؤكد لنا بلوت Plaute، بشكل يقيني وقاطع، أن سكان قرنة يمتلكون عبيداً وإماءً يقومون على خدمتهم[3].

تدفعنا تلك اللوحة إلى الاعتقاد بأن العبيد في قورينة على الأقل، خلافاً لما كان مألوفاً في روما وأثينا، لم يكونوا من البيض فقط، بل كان هناك العديد من العبيد من الزنوج ومن الجنسين. إذا كان التفسير الذي قدمته قليل فيما يتعلق بتلك اللوحات الصغيرة يكشف عن قدر من الحقيقة، فذلك يعني أن القورينيين مثلهم في ذلك مثل الشرقيين، بدلاً من قصر الزنجيات اليافعات على مهنة الخادمة المشينة، كانوا يحرصون على إقامة علاقات الود والمحبة معهن بل ويرتبطون معهن بعلاقات خصوصية جداً.

إنني أميل إلى إقرار هذا الرأي خاصة وأنه في السودان وهو منطقة مجاورة جداً لإقليم برقة، لا يمثل فيها الجنس اللطيف، تلك التشوهات الأنفية، وغلظة الشفاة الزنجية التي تتسم بها غالبية الإفريقيات. إذا كان لشهادتي هذه أي قيمة في هذه المسألة الهامة، فإنه يسعدني أن أضيف أن، خلال الفرص التي أتيحت لي لقطع مسافات صحراوية، جمال تقاطيع هؤلاء الإفريقيات، وسحر عيونهن الكبيرة السوداء، ورشاقة أجسامهن لا تجعل منهن محل نفور.

فيما عدا ذلك، ومهما كانت قيمة هذا الكم من الافتراضات التي ألطخ بها بين الفينة

---

(1) انظر اللوحة LIV.

(2) .Terent, Eunuch, act. 1. sc. 2.

(3) .Plaute, Rudens

والأخرى صفحات هذا الكتاب، كان من العسير عليَّ ألا أتحدث عنها أو أجعلها تستند إلى أرضية صلبة.

إن تلك الافتراضات وحدها تضفي، في رأيي، نوعاً من الحيوية على تلك الأماكن التي أقوم بذرعها. لولا تلك الفرضيات لكنت قد سئمت بسرعة هذه النتوءات الصخرية وهاتيك الصحاري الصامتة. لقد شدت هذه الافتراضات من أزرى خلال هجرتي الطويلة إلى ليبيا، وأرجو أن تساعد كل من يرغب في الإطلاع على روايتها العقيمة.

الفصل السادس عشر

مدينة قرنه

بعد أن تتبعنا الطريق المؤدية إلى السهل المرتفع الذي ينتثر عليه حطام أطلال قرنه، لم يكن في وسعنا سوى التوقف عند نبع جميل يندفع بشدة من جوف الهضبة الواقعة بين آثار المدينة وقمة الهضبة. يجري هذا النبع الذي تجمعت مياهه أولاً في بحيرة واحدة في قناة فسيحة حفرت بعمق أمام الجبل.

عندما تصل المياه إلى الطرف الخارجي لمجرى القناة، تصادف مرتفعاً جبلياً فتنبثق منه فوارة ومندفعة بقوة لكي تشكل خزاناً مائياً ضخماً يحميه جرف كبير من صنع الأيدي الفنية التي ساعدت الطبيعة، يوجد هذا الخزان تحت هذا المرتفع مباشرة. تحيط الصخور التي تعلوها الطحالب بهذا الحوض الضخم من كل جوانبه حيث تعكس مياهه الصافية الرقراقة نباتاً «Adiante» التي تمثل الزينة الملازمة لكهوف قرنه حيث يتم العثور عليها في كل مكان وهي بمثابة النموذج المائي لتلك الفصيلة. تفيض تلك البحيرة المائية، مع ذلك، من فوق جوانب هذا الحوض، وتتدفق صوب الحقول المجاورة وتغمرها لو لم تقدم لها قناة قديمة صنعت من الحجارة مجرى جديداً تندفع فيه مسافة مائتي متر تقريباً حتى تصل إلى السفح الداعم وشديد الانحدار أمام هذا النبع الثرار.

تندفع مياه النبع مع دوي كبير في هذا المكان وذلك بين أجمات من أشجار Lentisques وأشجار Cytises وتتجه نحو الطريق المؤدية إلى المقبرة، ثم تنحدر، بعد ذلك، في شكل شلالات من مدرج جبلي إلى آخر لكي تتبع المجرى المتعرج الذي صنعه القدامى تارة أو تخرج عنه تارة أخرى لكي تعود إليه مجدداً حتى تصل إلى السهل الحجري الذي يغلب على المنطقة الواقعة في أسفل المقبرة. هنا تندفع المياه إلى واد صغير ثم تصب في جدول ضخم تكون بفضل اتحاد المياه المتدفقة من عدة عيون تقع إلى الغرب من ذلك

الوادي. تندفع المياه بعد ذلك نحو الشمال لكي تضيع وسط شعب ووديان متعرجة تقوم هنا، مثلما هو الحال في مناطق أخرى، بوقف تدفق المياه وابتلاعها بسبب وجود العراقيل التي تضعها أمامها، وبسبب تشتت المياه وتفرقها في أماكن مختلفة.

بعد هذه النظرة الخارجية العامة على أكثر عيون برقة غزارة، قد ينتاب المرء شعور بالفضول لمعرفة القناة الأرضية. إن هذه مسألة مختلفة تماماً. لنستمع أولاً إلى حكايات سكان المنطقة من «الحاسة» Scènites التي يتلخص معظمها في وجود مشعوذين وسحرة وأشباح تمسك عصى سحرية وسيوف ملتهبة بالإضافة إلى أصوات عجلات دوارة بصورة مستمرة، وضجيج مخيف وغير ذلك. إن تلك الأشياء قد حالت، في كل عصر، كما يقولون بكل قناعة وإيمان، وذلك حتى عند أشجع الناس، دون الدخول إلى ذلك السرداب المظلم. في حالة تمكن أحدهم من الدخول، فإن هذه الأشياء تعاقبه على جرأته. إن القارىء قد لا يشعر، مع كل ذلك، بالذعر من هذه الحكايات المرعبة وقد يرغب في معرفة القناة التي تجري تحت الأرض، فإنني سوف أحاول الدخول إليها من أجله.

لقد تمكنت من إقناع أحد النوبيين ممن يرافقوني بالدخول معي لحمل المشعل، وبدأنا المسير وسط الماء. بعد عدة خطوات من مدخل هذا السرداب وصلت المياه إلى مستوى النطاق.

نحن الآن في شهر فبراير، ولا يؤدي هذا الحمام الإجباري إلى مجرد الشعور بالبرد بل إلى... إن ذلك لا يهم كثيراً. واصلنا التقدم حتى وصل مستوى الماء إلى خمسة أقدام. إن عرض هذه القناة يسمح لرجلين بالمرور جنباً إلى جنب، أما جوانبها التي لا تكشف عن أي مهارة معمارية متقنة تظهر مع ذلك، تساوياً واضحاً. يمكن للمرء أن يميز بين مختلف الطبقات الصخرية في جوانب السرداب حيث تتعاقب الطبقات الجيرية ذات اللون الأحمر الفاتح مع الطبقات ذات اللون الأصفر القاني.

لقد دفع الطقس بأطنان من الرسوبات الطينية إلى قاع القناة ولذا صارت شديدة الانزلاق لدرجة أننا نتوكأ على جانبي القناة حفاظاً على التوازن. قد دخلنا بهذه الطريقة مسافة طويلة إلى داخل هذا السرداب فوجدنا كل التفاصيل المذكورة آنفاً مع تفاصيل أخرى مهمة.

لقد لاحظنا على جانبي القناة وفي مستوى سطح الماء تقريباً وجود شريط طيني تعلوه آثار خفيفة لم تثر اهتمامنا إلا بشكل ثانوي. عندما وصلنا، بعد ذلك، إلى مكان كانت

فيه تلك الطبقة الطينيـة عريضـة، وكثرت عليها تلك الآثار، أردنا أن نخمن أسباب وجودها. لقد فوجئنا عند التعرف عليهـا وتحديدها بأنها آثار لأرجل ضبـاع وحيوانات صغيرة أخرى أو أرجل ذئاب وثعالب. قد تكون هذه الحيوانات هي تلك الأشبـاح والسحرة والمشعوذين.

لقد توقفنا عن المسير فوراً وحل التفكير محل الدهشة، وبدأنا نحاول تحديد اتجاه تلك البصمات. توجد تلك البصمات فوق بعضها البعض تماماً مثل آثار أقدام المسافرين على أي طريق ترابية، لدرجة أنه يستحيل، في هذا الصدد، تكوين أي فكرة حول الاتجاه الذي جاءت منه تلك الحيوانات.

سرعان ما لمحنا، بعد ذلك، أن هذه البصمات مغطاة بطبقة ترابية خفيفة. ثم عندئذ إضافة تلك المعلومة إلى انقطاع الأثر بين الفينة والأخرى على هذا الطريق، فاستنتجنا أن حجم الماء الذي يزداد بفضل تسرب مياه المطر شيئاً، كان يغطي في ذلك الوقت جزءاً من الطريق الذي لا بد وأنه كان جافاً في فصل الصيف، وبأن هذه الوحوش كانت تبحث عن ملجأ لها خلال هذا الفصل بالذات. بعد أن شعرنا بالاطمئنان إلى هذه الملاحظات خاصة عندما أدركنا بأننا نصادف أي شيء سوف يفزعنا، واصلنا التقدم داخل هذا القبو. قد يكون للخيال المشبع بمعتقدات خيالية سلطان كبير على الناس حتى الذين يتحلون منهم بشجاعة معروفة. إن صديقي النوبي الجسور والمخلص لا يزال يتحكم في نفسه، فهو يتقدم وبيده المشعل، غير أن ملامح وجهه لا تكاد تخفي الرعب الذي يسيطر على باطنه. كان يحاول السيطرة على هذا الخوف بترديد عبارات احتجاجية. لقد سمعته مثلاً يقول: «إن البدو كالأطفال، لماذا لا يحاولون الدخول إلى هذا القبو؟» «أين الأشياء التي تتحدث عنها حكاياتهم المضحكة؟». سوف نرى فيما إذا كان هذا النوبي يتحلى برباطة جأش حتى النهاية. رغم أن محور القناة يتجه من الشمال إلى الجنوب إلا أن بعض التعرجات التي أدت إليها طبيعة الطبقة الصخرية قد تخللتها.

بعد أن قمنا باجتياز إحدى تلك التعرجات سمعنا دوياً أجشَّ أدركت فوراً سببه؛ غير أن النوبي صمت فجأة، وبدأ يرتعش رغم استمراره في التقدم. عندما زادت شدة ذلك الدوي لم يعد النوبي يحتمل أكثر من ذلك فتوقف مذعوراً جداً لدرجة أنه فقد السيطرة على المشعل الذي أوشك على السقوط من بين يديه. فأسرعت بالتقاطه قبل أن يصل إلى الماء.

لقد أسرع هذا الفتى اليافع والجسور الذي لا يخشى أي خطر إلى الوقوف ورائي

مرتعشاً وكأنه طفل صغير. إن هذا الدوي في هذا الممر الضيق يتردد عالياً بفضل تيارات الهواء المندفعة بشدة لدرجة أنه يحدث أصواتاً أجشة وناعقة.

لم نتأخر كثيراً حتى وصلنا إلى مصدر تلك الأصوات الصاخبة. لقد وجدنا، في الجانب الشرقي لهذا القبو، تصدعاً كبيراً تندفع من خلاله المياه بقوة وضجيج كبيرين. لم نتمكن من معرفة الشكل الداخلي لهذا الدهليز باستخدام المشعل وذلك نظراً للضيق الشديد لهذا المكان. غير أن ذلك يبدو ممتداً مسافة طويلة تحت الجبل وفقاً للصوت الذي تحدثه المياه، ثم تسقط هذه المياه في شكل شلالات من على ارتفاع مئات الأقدام تحت مستوى هذه القناة.

إذا جاز لي أن أقدم افتراضاً آخراً، فإنه يحتمل أن يصب هذا الشلال الجوفي في كهف يقع إلى الغرب من مقبرة قرنه حيث يتدفق منه جدول ربما كان يتجه قديماً إلى مستودع أبولونيا عن طريق القناة المائية التي وصفتها آنفاً.

فيما عدا هذه الحادثة، لا يوجد في تلك القناة أي شيء آخر جدير بالاهتمام. إن التجربة قد صدّقت، لحسن الحظ، ملاحظاتنا السابقة حيث إننا لم نصادف أي شيء مرعب خلال هذه الزيارة ليس في هذا المكان فحسب بل حتى في عدة مناطق تنتشر فيها الوحوش. وهي المناطق التي وجدنا بها العديد من عظام الجمال وبقايا حيوانات رباعية الأرجل كدليل على وقوعها فريسة التهمت في الصحراء. أخيراً وبعد أن وصلنا إلى مسافة تبعد مائة وخمسين متراً من مدخل القبو لاحظنا أن عمل الإنسان قد انتهى، ولم نعد نشاهد أمامنا سوى صنع الطبيعة. وهنا نرى أن القناة التي انتهت في شكل زاوية قائمة في طرفها العلوي كشفت عن وجود فتحة غير منتظمة الأبعاد لا يمكن المرور من خلالها إلا زحفاً وسط الماء لكي يصل الإنسان، بعد ذلك، إلى كهف فسيح جداً ولكنه منخفض وتملأه الألسنة الحجرية والبلورية النازلة Stalagtites. إذ استمر المرء في اندفاعه بفضل فضوله فعليه أن يحتفظ بنفس الوضعية التي دخل بها إلى هذا النفق الجديد أي الزحف على بطنه. عليه أيضاً أن يلتف حول الأحجار أثناء تقدمه خاصة وأنه لن يرى شيئاً وسط الظلام الدامس، وأن يتحمل قطرات المياه على رأسه وظهره وهي تتساقط فوقه من كل مكان حيث يبدو أنها تخرج من أحشاء الأرض أو تتساقط من آلاف الشقوق والتصدعات عمودياً من ذلك السقف البلوري.

سيكون المرء عندئذ غارقاً في الماء حتى رقبته وتتساقط قطرات الماء المتتابعة فوق رأسه. أخيراً، بعد زحفه، هنا وهناك في أحشاء هذا الجبل لا بدّ أن يشرف على حفرة نحتت

وسط الألسنة البلورية النازلة من السقف، فإنه سوف يضطر إلى الخروج نظراً لاستحالة تمكنه من التقدم إلى الأمام. لن يتمكن إذاً من مواصلة اكتشافاته المائية هذه بسبب طبيعته الإنسانية أو البشرية.

بعد خروجنا من ذلك النفق المظلم إلى وضح النهار، وبعد أن أعربنا عن سرورنا لما وصلنا إليه بفضل فضولنا، كان علينا أن نقوم بتجفيف ثيابنا وانتظارها حتى تجف. لقد كنت أحاول أن أستفيد من وقتي، ولذا بدأت أتجول عند المغارة القريبة من الينبوع، وتفحصت، باهتمام شديد، جميع أركانها حيث عثرت على نقش أغريقي لم أنتبه إليه في السابق وقد نحت في انبعاج صخري في شكل بيضاوي ويحتوي على هذه العبارات التي عرفت من قبل العالم بأسره «قام دنيس بن سوتر الذي يمارس مهنة رجل الدين بإصلاح هذا الينبوع»[1].

لم يأتِ هذا النقش بجديد بالنسبة إلى غير أن راسي الذي تملأه الذكريات التاريخية يحاول أن يجد له أسانيد أخرى في وقائع أخرى.

لقد صعدت إلى قمة الجبل الذي ينبع منه هذا النبع حيث استطعت، من هذه النقطة المرتفعة، أن أجول ببصري بعيداً وأن أحيط، بنظرة واحدة، بمساحة واتجاه آثار المدينة. إن مظهر تلك الآثار غير مشجع لأنه لا يتمشى مع الشهرة الذائعة لقرنه الشهيرة. على كل حال، دعونا نتابع الآن مسار بحوثنا، ونحاول، بعد ذلك، جمع بعض الحقائق بين هذه الحطام المشوهة، قرنة مدينة انتشرت أمامي وتتكون من نباتات صخرية تمتد مسافات بعيدة نحو الجنوب، وتكثر بها الدروب التي تقطعها دروب أخرى أصغر منها. لقد قمت باتباع نفس الاتجاهات الخاصة بتلك الدروب، وأستعنت بها على تحديد مساحتها. لم يصمد أي أثر من آثار جدرانها وأسوارها أمام نوائب الدهر. لقد وجدت، بفضل محورها العام وشكلها غير المنتظم، أنها في شكل معين هندسي Trapèze وهو الشكل الذي عرفت به في التأريخ القديم. إذا نظرت الآن إلى الينبوع المتدفق تحت قدمي، فإنني على يقين بأنه كان يوجد داخل أسوار المدينة نفسها. إن هذه الملاحظة البسيطة قد كشفت عن عدد هام من الحقائق التأريخية المتعلقة بهذه البلدة الهامة.

لقد قلت في نفسي: «هذا إذا هو نبع أبولو الذي ارتفعت حوله أسوار

---

(1) ترجمة ليترون وفقاً لنسخة أحضرها ديلا شيلا «حوليات الرحلات تأليف Eyriès ايرياس ومالت بران Malte-Burn ـ المجلد 17 ص 337».

المدينة[1] وهذه هي المغارة الباسمة سيره Cyré هذا هو الملاذ الأخضر المنعش الذي تغنى بجانبه كاليماك بحمامات بالاس Pallas[2] وانتصار إله الوثام»[3].

تلك إذاً هي المنطقة الخلابة التي وعد بها الجليغام Giligammes مستوطني أزيريس، إنها هنا أمام ناظري في هذه الحقول المترامية أمام الينبوع الذي حط عليه باطوس رحاله[4] لقد تخيلت بأنني أرى حفيد أوفيم Euphème على رأس أنصاره من ذوي الوجوه الوسيمة، والجبهات العريضة المتوجة، وهم يروون ظمأهم عند هذا النبع الترار ويتوضؤون بمائِهِ ويشكرون وحي دلف على أوامره الكريمة. لقد تخيلت أيضاً الأسبيت، سكان المنطقة، وعليهم جلود الماعز المخضّبة باللون الأحمر وبأيديهم الرماح والفؤوس الحجرية والمطارق الضخمة[5].

وهم يهرعون، دون أية نية سيئة، من الغابة المجاورة، ببشرتهم السمراء وعيونهم اللماعة الشرسة، ليرحبوا بهؤلاء الأجانب الذين يعتبرونهم رعاة، ويفعلون كما فعل الجيلغام، ويدعونهم إلى استصلاح هذه المقاطعة الخصبة قائلين لهم أن الأرض لكل البشر ولهم أن يزرعوها بسلام ويعيشون معاً كإخوة. لقد قبل باطوس هذا العرض واستولى على المنطقة ولكن، بدلاً من أن يزرع أسواراً من أشجار Guérets فقد رفع أسواراً من حجر وأرسى دعائم مدينة عظيمة[6]. دعونا نترك، مع ذلك، الخيال ونلجأ إلى أمور أخرى أكثر أهمية.

كنت قد ذكرت وجود بعض الحطام الرخامي الرائع منشوراً على مدى الحقل الذي

---

(1) Pindare, Pyit IV.

(2) Galli, Lavacr. Pallard.

(3) Idem, Hymm in A Poll.

(4) هيرودوت الكتاب الرابع ص 158.

(5) ديودورس الكتاب الرابع القسم الرابع.

(6) نبحث هنا، كما فعلت في المقدمة التاريخية لهذا الكتاب، رواية هيرودوت وأفضلها على رواية كاليماكوس بشأن أسباب وظروف قدوم بافلوس إلى نبع أبولو وفقاً لما ذكره كاليماكوس، قام غراب بقيادة من مستوطني ثيرا إلى هذا النبع، ربما نجد أنه من المفيد أن نقول إن هذه الرواية، مثل أغلب الروايات القديمة، تستند إلى وقائع محلية لأن الغراب هو الطائر الوحيد الذي يوجد في كل مكان في ليبيا لاسيما في المناطق الصحراوية، إن هذه الملاحظة هي التي تبدو ملائمة لتفسير رواية كاليماكوس، كما يمكنها أيضاً أن تفسر أسباب تكريس هذا الطائر، رغم زعيقه وسواد لونه، لأله الوثام أبولو الذي وقع في عشق الربة قورينه.

يمتد أمام النبع بل ويغطيه بالكامل تقريباً. تبدي لي تلك الأنقاض بقايا من معبد أبولو الذي شيد في قورينه في العصور الأولى للاستقلال الذاتي[1]. هذه هي مبرراتي الشخصية. أود أن أشير أولاً إلى أنه لا يوجد أي مكان في المدينة أكثر ملاءمة من هذا المكان لإقامة هذا المعلم الأثري لإله وصفه التاريخ والأسطورة بكونه عشيق الربة قورينه Cyrène أو ابنة ملك هيسبه Hyspèe بعبارة أخرى. إن اللهب الدائم الذي تتم المحافظة عليه في هذا المعبد[2]، بالإضافة إلى تلك القناة الجميلة التي كرست مياهها للرب أبولو، مَثَلٌ رمزيّ لا ينبغي تجاهله عند البحث عن الحقائق التي ترجع إلى تلك الأزمنة الغابرة والتي كان دور الخيال فيها كبيراً. ذكر بندار، علاوة على ذلك، أن الملك باطوس قد قام بتعبيد شارع كبير لتمكين الموكب الديني من السير بسهولة حتى معبد أبولو[3].

تعتبر هذه اللفتة الدينية الورعة ـ استناداً على وضعية المكان الحالي، بمثابة برهان جديد على صحة رأيي. تتخذ الأرض التي تفصل بين وسط المدينة والنبع وبالقرب من هذا النبع شكل منحدر وتعرجات كثيرة. يبدو أن لصنعة الإنسان فيها دوراً هاماً، كما يبدو أنه ناضل كثيراً صد وعورتها في القدم.

إن هذا أمر لا يمكن الشك فيه خاصة إذا عرفنا أن الشوارع الأخرى في قرنه لم تعبّد أبداً لأنها شقت أصلاً في قلب الصخور الصلدة وهي لا تزال تحمل أثر إطارات العربات القديمة. أود أن أضيف ملاحظة أخرى إلى تلك الملاحظات وهي أنني قد وجدت بين حطام المعبد نقشاً رخامياً يمثل صور لفتاة عارية حتى صرتها دون أن تبدو عليها علامات الربوبية.

كان هذا التمثال جذعاً يعوزه الرأس[4]. إن هذه الشخصية اللطيفة التي تذكرنا ملابسها الرائعة وكذلك معالمها الرقيقة بعصر بيريقليط Pèriclès قد تمثل الحورية «قورينه» التي كانت تتوج نبع أبولو. إنني متردد، مع ذلك، في تأكيد هذه الفرضية التي قد تؤدي إلى إضعاف البراهين والأدلة الموضوعية التي أقمتها فيما يتعلق بنقطة من أهم النقاط في التاريخ الأثري لإقليم المدن الخمس بدلاً من تعزيزها. دعونا نتقدم الآن وسط آثار المدينة عن

---

(1) كاليماس ـ إبتهال ـ لابولونيا. Callim- Hymm in Appll

(2) بندار ـ الأنشودة الخامسة. Pindare, Pyth.V.

(3) بندار نفس المصدر Ibid.

(4) انظر اللوحة L.X.

طريق سلك الدرب الذي عبّده باطوس أي هذا الشارع الذي يستخدم في يومنا هذا، كما كان يستخدم في القدم، كحلقة وصل بين سهل قرنه ونبع أبولو. توجد بالقرب من هذا الشارع أحد أهم المعالم الأثرية التي لا زال في الإمكان التعرف على ملامحها. حالما اجتزنا الانحدار الوعر الذي لا يبعد كثيراً عن نبع أبولو، عثرنا على أطلال المسرح القديم حيث طمرت مدرجاته السفلية في الأرض، وعلى العديد من أبدان العمدة الرخامية المتناثرة أمامه. لقد عثرنا أيضاً على جذوع تماثيل يبدو أنها كانت تمثل فلاسفة وذلك نظراً لملامحها وملابسها الفضفاضة. توجد أيضاً كتلة ضخمة من المرمر على شكل معين وذلك وسط عدد كبير من الأعمدة وكأنها نصب Stèle مصري وذلك نتيجة لوجود كرة أرضية منحوتة في أعلى هذه الصخرة. لم أنجح في تخمين الغاية التي أقيم من أجلها هذا النصب ولم أدرك ما يرمز إليه. لا شك أبداً في كون هذه الكتلة وتلك الأعمدة التي تحيط بها كانت جزءاً من بناية شيدت في هذا المكان نظراً لوقوعها عند قدم هضبة تعلوها باحة فسيحة وتغطيها أنقاض أثرية ضخمة من جميع جوانبها. لقد كانت بعض الخطوات كافية للوصول إلى تلك البناية الواقعة على يمين شارع باطوس، وعلى أعلى نقطة تشرف على سهل قرنه. وهنا سرعان ما تعرفنا على هيكل قيصر Caesareum وهومعبد كبير نُقِشَ عليه Porticus Caesarie أي رواق قيصر فوق كتلة رخامية ضخمة.

لقد تم بناء هذا المعبد عن طريق استخدام أنقاض أثرية أقدم منه وذلك نظراً لوجود كتل صخرية تحمل نقوشاً مقلوبة رأساً على عقب، وأحجار مختلفة الأشكال والأحجام.

لقد ذكرت هذه الملاحظات عدة مرات وها أنذا أكررها هنا لأن السبب قد تكرر على نطاق واسع. إن المواد النفيسة كالمرمر والرخام والجرانيت دخيلة بالنسبة لأراضي برقة، وهي مواد مستوردة إليها من بعيد وربما كان ذلك إبان عهد الاستقلال المزدهر. يبدو أنه كان ينبغي استخدام مواد قديمة كانت قد استخدمت، هي الأخرى، لإرضاء غرور أمير لاجيدي من قبل ذلك أو من أجل إرضاء غرور أمير روماني. قد تكون نفس المواد التي استخدمت لتكريم باطوس ما أو أركسيلاوس ما. ذلك هو التاريخ الأثري لقورينه الذي جسدته تلك المعالم وذلك أيضاً هو السبب في تشويهها فوق أرضها، وهذا ما يجعل تلك الآثار غالباً مبهمة، وغير واضحة المعالم، أي في شكل حطام متناثر لأبنية عتيقة.

قد يضلّل أي شخص يحاول تحديد أصلها أو زمنها بدقة بسبب هذا الخليط المشوش من الركام. وسيكون هذا الشخص في وضع الذي يريد أن يحدد ما إذا كان حيوان «غريفون» طائر النسر أم حيوان الأسد.

دعونا نعود الآن إلى معبد قيصر الذي رصعت جدرانه بأحجار وبقايا تعود إلى عصور مختلفة. أما بالنسبة لهذا العدد الهائل من الأعمدة الرخامية المتناثرة هنا وهناك، فإن القليل منها فقط يتشابه في شكله أو طبيعة أحجاره.

إن بعض هذه الأعمدة مستدير، وبعضها من الجرانيت الوردي وبعضها الآخر من البورفير الأزرق. ينبغي أن أضيف إلى تلك التفاصيل ملاحظة أخرى هامة، تبدو ذات صلة بذلك المعبد:

يمكن للمرء أن يشاهد خارج أسواره وعلى بعد سبعين متراً نحو الغرب، جذعاً لتمثال عملاق من الرخام الأبيض يمثل جندياً. لقد رصع درع هذا العسكري بنحوت دقيقة وهو في حالة جيدة.

يمكن للمرء أن يلاحظ الرموز التالية في هذه النقوش والنحوت. يرى الملاحظ في وسط الدرع على صدر العسكري مباشرة صورة لامرأة مجنحة تغطي رأسها بخوذة، وتحمل بيدها اليمنى سيفاً وباليد الأخرى ترساً، وتمتطي وهي واقفة ظهر ذئبة.

اعتقد أنه من قبيل الحشو أن نؤكد أن هذا هو رمز روما المحاربة وهي تقف على صهوة الحيوان الذي أرضع أول ملوكها. يوجد أيضاً مخلوقان مجنحان منحوتان على جانبي هذه الصورة كرمز للجنيين الذين يسيطران على مصير هذه المدينة البطلة.

أما الصفائح المعدنية لهذا الدرع فهي تشبه الزوائد المتدلية في الملابس الليبية[1] وتحتوي، وهي الأخرى، على نسور روما، والعديد من النقوش الأخرى التي تحلّي هذا الدرع دون أن تجعله سمجاً.

إذا نظر المرء الآن إلى وضع هذا المعلم الأثري النفيس، وحجمه الضخم، ودقة

---

(1) يقول هيرودوت إن الإغريق قد استعاروا من الليبيين رمز أثينا «مينرفا» وهي أصلاً ربة القبيلة الليبية الأوسيّة Aussèens القاطنة على ساحل سرت. إن نسوة تلك القبيلة كما ذكر هيرودوت وأيده في ذلك كلاً من أبولونيوس الرودسي، وهيبوقراط، يرتدين جلود الماعز ويفصّلنها بطريقة تجعل فيها أجزاء متدلية على هيئة سيور جلدية تصل حتى الركبتين. لقد كان الإغريق يعتقدون أن تلك السيور الجلدية كانت ثعابين. إن أبا التاريخ قد حرص على التأكيد بأنه عبارة Egide الإغريقية قد اشتقت من هذه الملابس الليبية «هيرودوت الكتاب الرابع - ص 189». يعني أن كلمة «ايجيد» جاءت من كلمة «جلد» العربية... المترجم.

صنعته، فإنه سوف يتعرف، دون شك، على صاحبه، أي يوليوس قيصر، الذي طرده الهمج رغم قمة مجده، من تلك البناية الرائعة ودحرجوه إلى ذلك الحقل مع الأعمدة والقباب التي كانت تزيد من هيبة هذا القائد في القدم.

على المرء الآن أن يجد العذر للرحالة الذي لا يقدر أن يمتنع عن التفكير في هذا التخريب للعظمة الإنسانية أو عن الابتسام أمام هذا الكم الهائل من الزهو والغرور الذي آل إلى ذلك العدد الهائل من الإهانات. وإذ يقف المرء أمام هذه اللوحة الفلسفية بصفته الكائن المفكر الوحيد وسط هذه الصحراء الشاسعة، له أن يقول ما يشاء. إنه من حسن حظ القارىء الكريم أن يقوم أحد المزارعين من بدو قرنه بحراثة حقله بالقرب من هيكل قيصر لكي يرتطم محراثه بتمثال «هذا الرجل الإله» الذي يوجد الآن مطموراً حتى منتصفه في التراب.

إن هذا البدوي الذي شطف مجد روما وعبقرية حماتها قد يصرخ صرخة أجشة، وقد يستشيط غضباً لتعرض محراثة لتلك الصخرة التي تعوقه. قد يصحو الأوروبي عندئذ من أحلامه ويجد في هذه الحادثة الجديدة نصاً جديداً لأفكاره، غير أنه يتردد، بالقرب من هذا البدوي الغضوب، في الإفصاح عنها بصوت مرتفع، ويقرر أن يغادر المكان لكي ينعم بحلم آخر في مكان آخر.

عثرت، غرب معبد قيصر، على آثار قليلة البروز ولكنها لا تخلو من الأهمية. تكمن تلك الأهمية في اتفاق موقعها مع موقع معبد أبولو. نستطيع أن نحكم، وفقاً للنقوش التي عثرنا عليها، بأنها ترجع إلى عهد قريب.

يأخذ الوادي السحيق الذي يستقبل مياه الينابيع في المقبرة الغربية، في الاتساع كثيراً من الناحية الشمالية، ثم يبـدأ في الضيق تدريجياً كلما اتجهنا نحو آثار المدينة، ثم يتسع مرة أخرى متجهاً نحو الشرق ولكنه يتدفق في وادٍ متعرج بشكل طفيف بدلاً من أن يجري بين ضفاف وعرة الانحدار. وعندما يصل إلى نقطة موازية لمعبد قيصر أي على بعد سبعمائة متر تقريباً من معبد أبولو، فإننا نجد على جانبه الغربي جداراً داعماً أقل سمكاً من ذلك الموجود قرب معبد أبولو، ولكن مثله يرمي إلى دعم أرضية مدرج صغير يحتوي، هو أيضاً، على بقايا بناية رخامية. توجد العديد من النقوش بين هذا الحطام من بينها نقش منحوت على عمود داخلي Pilastre يعود تاريخه إلى عهد الاستقلال الذاتي، أو يعود، على الأقل، إلى عهد الملوك اللاجيديين Lagides غير أنه لا يكشف، لسوء الحظ، إلا عن أسماء

مختلفة[1] يوجد، بالقرب منه، نقش آخر ترجمه ونشره لترون وفقاً لنسخ أحضره الطبيب ديلا شيلا حيث يعود تاريخ هذا النفش، وفقاً لرأي هذا العلامة أي لترون ـ إلى عصر الأباطرة وينص هذا النقش على: «قامت كلوديا فينوستا ابنة كلود كابستين بنصب تمثال لباكوس بالإضافة إلى المعبد الذي يوجد به، وذلك على نفقتها»[2]. يبدو للوهلة الأولى، أن النتيجة النهائية في هذه الوثيقة الأخيرة، أن الحطام الذي نراه الآن أمامنا يعود إلى العصر الروماني، وأن الشبه في المظهر والموقع الذي اعتقدت أنه موجود بين آثار هذه البناية وآثار معبد أبولو لم يوجد إلا صدفة، ولا يؤدي بالضرورة إلى نوع من المعاصرة بين هذين المعلمين الأثريين. إنني غير مقتنع تماماً بهذا الدليل الجديد، بل سوف أقدم سنداً جديداً يدعم افتراضاتي السالفة. قد يكون النقش الذي يعود إلى العصر اللاجيدي مطموراً بين هذا الحطام الذي يعود إلى العصر الروماني. سبق وأن عثرت على مثل هذه الاختلافات بين النقش والمعلم الأثري قرب نبع أبولو، وقرب معبد باكوس، وهذا لا يشكل دليلاً جديداً على ما زعمته عند التطرق إلى معبد قيصر. يحدوني ذات الاستقراء بالتالي إلى الاعتقاد بأن هذا النقش، كما هو الحال لذلك الموجود قرب نبع أبولو، أو ذلك الذي وجد قرب هضبة معبد قيصر، يعود إلى العهد اللاجيدي أو إلى عصر الاستقلال الذاتي لقورينة حيث وجد معبد تم إعادة ترميمه وبنائه في العهد الروماني وهو المعبد الذي يحتمل أن غايته قد تغيرت ولم تبق كما هي عليه وقت بنائه. دعونا نرجع الآن من جديد إلى شارع باطوس حيث أثارت بناية أخرى قريبة منه انتباهنا وذلك بعد رؤيتها من فوق الهيكل القيصري.

لم نسر طويلاً حتى وصلنا إليها بالقرب من البناية الضخمة الي رأيناها. إن نظرة واحدة فقط كانت كافية لإزالة الهالة التي تكونت في أذهاننا حول تلك البناية. إذا كان هذا الموقع الأثري الجديد لا يقدم لنا، مع ذلك، أي جديد بالنسبة للتاريخ الأثري لقورينة، فإنه يستحق على الأقل الصفة التي ذكرناها[3].

نجد أن تلك الأطلال عبارة عن باحة مربعة يبلغ طولها مائة وثمانين متراً، وعرضها مائة وخمسة وعشرين متراً، وهي مقسمة إلى جزئين. يتكون الجزء الأول من باحة مسورة ولا تحمل أي أثر لتقسيمات ثانوية أخرى، أما الجزء الثاني فيتكون من أربع غرف مقببة،

---

(1) وذلك وفقاً لرأي لترون. انظر الحوليات الجديدة للرحلات ـ المجلد 17 ص 343.
(2) نفس المصدر ص 340.
(3) أي كونها ضخمة... المترجم.

ومبطنة بالإسمنت الذي يشبه أسمنت تبطين الصهاريج. لا يزال اثنتين من تلك الغرف قائماً إلى يومنا هذا وبها حروف لاتينية وهي عبارة عن رموز وضعها المهندسون والمعماريون كعلامات ولا تدل إلا على كون هذه البناية ترجع إلى العصر الروماني. توجد، من جهة أخرى، قناتان متصلتان بهذه البناية وتنقل إحداهما المياه من نبع الصفصاف، وهي قرية تبعد مسافة أربع مراحل بحرية إلى الشرق من قرنة. يبدو أن القناة الثانية تقوم بتوزيع المياه إلى أجزاء عديدة من المدينة. تحملنا هذه التفاصيل على الاعتقاد بأن تلك البناية كانت خزاناً ضخماً شيد في قلب مدينة قرنة بغية سد حاجة السكان من المياه بصورة ملائمة. لا أعتقد بأن هذه البناية قد استخدمت بأكملها قديماً في حفظ وتخزين المياه بل ما استخدم منها هو الجزء المسقوف فقد وهو ضخم في حد ذاته. لقد تحول هذا الاعتقاد إلى يقين وذلك عندما عثرت على طبقة من الاسمنت فوق جدران الجزء المسقوف فقط.

يبدو لي أنه من قبيل الحشو أن أثقل كاهل هذا الوصف بذكر تفاصيل أخرى دقيقة تتعلق بكتل الصخور التي يصادفها الرحالة أثناء تجواله في سهول قورينة. عندما ذكرت أن بعض جوانب هذا الجدران لا تزال قائمة هنا وهناك بين الآثار، وأن قطعاً مختلفة من الأعمدة الرخامية، والسراديب الصغيرة، وقطعاً متباينة من البقايا الأثرية من شتى الأنواع، وأن هذه المناطق الصخرية تحمل أسماء حديثة مثل «المقتلة» و«شقية» و«بوغدير» وغيرها، فإنني لا أعتقد بأن القارىء سوف يشكرني إذا ما قمت بصهر وإذابة كل تلك المعلومات الثمينة في بضع جمل. تكفي خارطة تلك البقايا الأثرية لتوضيح تلك الأشياء، على الأقل، بشكل مقتضب - ينبغي عليّ إذاً ألا أتوقف إلا في المكان الذي أجنى فيه معلومات أخرى. إن شوارع قرنة منتشرة أمامي، وأشعر برغبة في التجول فيها. بعد أن درست هذه المسألة، رأيت أنها لن تقدم لنا أي معلومات مختلفة، ولا تستحق أن تعرض بالكيفية التي جمعت بها أي بواسطة جرجرة القارىء خطوة خطوة عبر هذه الدروب المهجورة. أفضل أن أقدم إليه، بدلاً من ذلك، كل هذه المعلومات موجزة وأن أتركه يستريح.

يبلغ عدد شوارع قرنة بالإضافة إلى جادة باطوس خمسة شوارع، من بينها شارع واحد يشق المدينة من الشرق إلى الغرب، أما الشوارع الأخرى فتغوص نحو الجنوب بشكل غير منتظم وتنتهي جميعها بتكوين زاوية حادة. لا تزال تلك الشوارع تحمل أثر إطارات العربات القديمة. هذا ما يمكن أن يلاحظه المرء في أي مكان صخري لا تغطيه أي طبقة ترابية. يبدو أن أحد تلك الشوارع كان مخصصاً لسباق العربات فإنه ليس فحسب أرحب الشوارع في

قرنه، بل أيضاً، لأنه يحمل آثار إطارات العربات القديمة بصورة أعمق وبعدد أكبر من غيره من الشوارع المذكورة.

إن عبارة 111111ko Σ التي نقشت بصورة عميقة في شكل حروف تصل إلى عدة بوصات على جانب الجدار الصخري الذي يشكل حافة هذا الطريق، تدل بما لا يدع أي مجال للشك، أن هذا الشارع كان يستخدم كمضمار لسباق العربات. في الوقت الذي يبلغ فيه عرض هذا الشارع عشرة أمتار، فإن عرض بقية الشوارع لا يزيد عن أربعة أمتار. يبدو أيضاً أنه قد شق على فترات ووفقاً لطبيعة الأرض.

يمكن للمرء أن يرى أن هذه الشوارع قد شقت وشيدت تارة عن طريق صفتين من الصخور المربعة التي وضعت على مسافات متساوية على الجانبين، وتارة أخرى، محفوفة بالجدران الصخرية المنخطفة التي تم نحتها بشكل عمودي، وتارة أخرى، محاطة بمصاطب صخرية صغيرة. يمكن للمرء أن يشاهد على جانبي هذه الشوارع، ما عدا في المناطق التي تتساوى فيها أرضية الشوارع بالأرض، سلسلة من الكهوف المشابهة لكهوف المقبرة. توجد أيضاً نقوش أغريقية أو رومانية داخل أو خارج تلك الكهوف. تخبرنا تلك النقوش بأن فلاناً قد مات منذ نحو ألفي سنة، وبأن هذا المدفن له ولذويه فقط.

توجد فوق تلك الأحافير، بل وحتى في المناطق الخالية منها، قبور صخرية أنيقة ومغطاة بأسقف كانت مزدانة، دون شك، بالتماثيل في القدم، وقد وضعت في صفوف متوازية. بصرف النظر عن تلك القبور التي يلهمنا موقعها المرتفع ومكانها الذي يقع في قلب المدينة، أفكاراً مؤثرة. يمكن للمرء أيضاً أن يشاهد كمية من القبور الصخرية التي نحتت في كتلة صخرية موحدة أو واحدة بطريقة فجة والتي وضعت على جوانب تلك الشوارع.

يمكنني أن أؤكد بأن تلك الدروب التي تقترن بهذه الشواهد وبهذا الورع الجنائزي، تحدث في نفس الإنسان بصورة مصغرة نفس التأثير الذي تحدثه مقبرة قرنه بصورة مكبرة. يشاهد المرء أيضاً في المساحات التي تفصل بين تلك الشوارع هنا كما هو الحال في الجزء الجنوبي لأطلال المدينة، أكوام عديدة من الحجارة، وهي بقايا آثار لكنها آلت إلى ذلك المصير بسبب الفلاحين الذين يحرثون حقولهم المحيطة بالمدينة. لقد كان هذا مصير أحد الحمامات المشيد بالطوب والذي لا يزال يحتفظ بعدة غرف مسقوفة بالإضافة إلى ساحة تحمل، هي الأخرى، علامات تشابه علامات الشوارع، والعديد من المعابد الكهفية التي تعود إلى العصر الروماني، والتي تحمل شعارات النصرانية.

يرى المرء كذلك العديد من الحصون ومن بينها زوج من الحصون يقع في الطرف الشمالي لهذه الأطلال وكل منها يقع عند الزاوية الحادة التي كوَّنتها الشوارع المذكورة. أكبر هاتيك الحصون هو أكثرها بعداً إلى الشرق، وهو الذي، إن لم تخنِّي الذاكرة أو تضللني عمليات الترميم المختلفة، أصبح مشهوراً جداً في التاريخ بعد أن حاصره ثمبرون Thimbron أبان تمرد القورينيين ضد اللاجيديين، ونتيجة للمذبحة التي ارتكبت ضد المبعوثين المصريين وغيرها من الأحداث المعروفة[1]. يظهر القصر في حالته الراهنة كل سمات العصر الروماني لا سيما التقوّس الكامل Cintre الذي يعتبر دليلي العادي بل والأكيد في هذا الصدد. يوجد في كل ركن من أركانه حصن منيع يتصل بباحة قوية تشبه تلك التي ذكرتها عند الحديث عن المباني الرومانية من نفس الطراز، ويمكن للمرء أن يشاهدها من أسفل الحصن أو القصر الحصين، ويحيط بها خندق محاط، هو الآخر، بأسوار خارجية. لا يجب أن نذهل من موقع أكبر قصور قرنة في جنوب المدينة لأنها، كما سأثبت ذلك فيما بعد، لم تكن تخشى، خلال عهد الاستقلال الذاتي، من غارات جيرانها من الليبيين، غير أنها كانت مضطرة إلى مراقبة تحركاتهم ورصدها ومحاولة إبقائهم في مناطقهم.

إن تلك القلعة الضخمة التي شيدت كموقع أمامي متقدم في مواجهة قرى السكان المحليين في دواخل قورينة، كانت قادرة في تلك الآونة التي اتسمت بالمجد والقوة، على نشر الذعر والهلع من داخلها في جميع سهول الجنوب القوريني، وضمان قيام امبراطورية مذهلة في ممكلة ليبيا اللامعة، على حساب شراذم الهمج المحيطين بها. لكن الأمر قد اختلف خلال عصر الحكام من القضاة الرومان Prèteur [2]. لقد تغير الزمن وصار غير مناسب فتغيرت هذه القلعة، فبدلاً من مساعدة سكان قرنة كما هو الحال خلال عهد الاستقلال، على حكم الليبيين الأشداء، إن لم يكن ذلك بمثابة ملوك فبمثابة أسياد على الأقل، تحولت إلى مجرد سد لصد هجوم الليبيين الجريء.

إن موقع قلعة قرنة الجنوبية، وفقاً لهذه الوضعية، يتفق تماماً مع غيرها من المباني

---

(1) انظر فيما يتعلق بهذا الموضوع، كتاب ديودورس DroDore. L.X.I.X,C. 79 وكذلك كتاب Polyen, L.II.C.28.

(2) حاكم روماني يقوم في نفس الوقت بفض المنازعات والحكم في التقاضي ولقد استحدثت روما هذا المنصب Prèture سنة 389ق.م وكان المنصب يقتصر على الطبقات الأرستقراطية ثم فتح أمام الطبقات العادية سنة 327ق.م عندما ضمت روما العديد من الدول الأجنبية استحدثت «القاضي الحاكم الريفي» لمساعدة الحضري أو الجوال Pèrègrin أو لمساعدة المستقر Urbain. . المترجم.

أماكن أخرى بعيدة عن الساحل. إن المماثلة التي كنا قد صادفناها على قارعة الطريق في هذا الشأن. تفيدنا هذه قيام الرومان بإعادة بنائها يعتبر ضماناً جديداً لهذه الاستقراءات في شكل حطام الأبراج الإصلاحات والترميمات التي تقترن بأبعاد هذا الصرح الضخم، في التعليقات المحزنة، إن جاز التعبير، التي ذكرها العملاقة التي تغطي الآن وجه الأرض، في سينوسيوس، بل وتقدم عليها أدلة واضحة جداً لدرجة أنه يصبح من الابتذال أن نقول بأنه كان يوجد حصن صغير على كل هضبة من هضاب السهل الممتد جنوب قرنه، بين كل حصن وآخر مسافة أربعة أو خمسة فراسخ. كما أنه يصبح من الحشو أن نؤكد أن تلك الحصون تعود إلى فترة الانحطاط والبؤس، أي إلى العصر الروماني. هناك ملاحظات أخرى تتصل بالمكان الذي نتواجد فيه الآن أستوحي منها عقدة مقارنات أخرى لا تقل أهمية في نظري في عن سابقاتها. ينتهي الشارع بالقرب من القصر الكبير. يتحول ذلك الشارع، عند هذه النقطة، إلى طريق فسيحة تتجه فجأة نحو الشرق. تحمل هذه الطريق طيلة عدة فراسخ آثار العربات القديمة، وتؤدي إلى أطلال ليمنياد Limniade، وإلى آثار ثنيتس Thintis. من المهم أن بقية شوارع قرنة لا تنتهي بمثل هذا الطريق الرحب، الذي يبدو أنه قد شق في العصور الغابرة رغم كونه في حالة جيدة نظراً لاتجاهه نحو الشرق واستخدامه حتى يومنا هذا كوسيلة اتصال بين سكان درنة وسكان قرنة من «الحاسة» Scénites يشاهد المرء، على مقربة من القلعة، وفي جانبها الجنوبي، وتنبت به أشجار الخروب الضخمة التي أنهك الزمان قواها، رغم نمو شتلات صغيرة من هذا النوع تحتها أو متناثرة هنا وهناك في هذا المكان المحصور الذي تحول إلى بستان وارف الظلال. إن هذا الواقع يثير الدهشة خاصة وأن بقية سهل قرنة خالٍ من هذه الأشجار وبصفة خاصة، قرب المواقع الآثرية. ألا يمكن إذاً أن يكون هذا المكان الجميل، وفقاً لهذه الملاحظات، هو سوق قرنة الذي تغني به مطرب الأناشيد[1]؟ أعتقد أن الأمر كذلك لا سيما إذا تذكرنا أن الأسواق كانت تفصل عن المدن في العصور السحيقة.

ينبغي أيضاً أن نلاحظ أن أكبر النواحي الآهلة بالسكان في قرنة هي الأجزاء الشرقية. إن العدد الكبير للمواقع الآثرية الذي يوجد في هذه النواحي، بالإضافة إلى موقع الحاضرة نفسها بالمقارنة نسبياً بآثارها يشكل أدلة ملموسة على ذلك. إن الطريق التي تشق، من هذا الجانب، العديد من المدن والقرى، وكذلك العدد الذي لا يحصى من تلك القرى والضياع

(1) بندار - الأنشودة الرابعة.

الصغيرة، يجعل من هذه المنطقة التي نتحدث عنها مكاناً ملائماً جداً، في بلد زراعي كهذا، لإقامة سوق عام. إن المنطقة التي تشبه البستان التي تحدثت عنها آنفاً كانت ضرورية في الصيف بسبب أشعة الشمس المحرقة في ليبيا، وكذلك لحماية الناس، من جميع الاتجاهات، وذلك عندما يحضرون إلى ذلك السوق لعرض بضاعتهم.

إذا كانت افتراضاتي تلك صحيحة فيما يتعلق بسوق قرنة، فإنها حتماً سوف تتعارض مع الأفكار التي طرحها ثريج Thrige في هذا الصدد، وذلك بناء على ما ذكره أحد الرحالة الذي كنت قد برهنت سابقاً عن سذاجته، وأرى الآن أنه مراقب سيِّىء إن سلسلة الكهوف الطويلة الواقعة في الجانب الغربي للمقبرة التي وصفتها آنفاً، وهي التي زودتنا، أحب أن أكرر ذلك، بالنقوش الضريحية Tumulaire، وذلك من الخارج والداخل. لقد ظهرت تلك الكهوف بالنسبة للومير Lemaire بمثابة متاجر نُحتت في الصخر وقسمت إلى غرف ونوافذ[1]. وفقاً لهذا القول الذي يعتبره الغير خطأ فادحاً، لم يعد من المدهش أن يذكر العالم الدانماركي بأن سوق قرنة كان قد أقيم في ذلك المكان الذي حدده لومير، وبأن هذا المكان يعتبر دليلاً على النشاط الاقتصادي الكبير الذي مارسه سكان قرنة[2]. هكذا نرى أن الجولات العجلى للرحالة في هذه البلدان التقليدية لم تقدم لنا سوى لمحات سطحية أدت أحياناً إلى غموض في التاريخ بدلاً من أن تؤدي إلى توضيحه. لو أن لومير الذي لم تكن لديه أية فكرة عن علم الآثار المقارن، قد أسهب في وصفه، أو لو أنه أضاف بأن تلك المتاجر كانت تقع على سفوح الجبال الوعرة، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق تسلق الوديان السحيقة، أو سلوك دروب ضيقة جداً، لما كان من الممكن أن يقع العلامة ثريج، وفقاً لهذه الأوصاف، في هذا الخطأ، ولما حدد موقع سوق المدينة في هذا المكان، خاصة وأنه كان يستقبل أعداداً كبيرة من العربات القادمة من كل حدب وصوب، بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الناس من الفلاحين والتجار والأثرياء. إن كافة تلك الملاحظات تحملني على الإلحاح بشدة على أن موقع سوق قرنة هو البستان الذي أشرت إليه. إنني أستلهم منه أيضاً فكرة جيدة. رغم أنها فكرة عائمة جداً في الواقع، إلا أنني أقدمها لأنني لم أستطع مقاومة جاذبيتها.

يوجد في نهاية الشارع أي في المكان الذي توجد به القلعة والأسواق، إنني مضطر

---

(1) انظر ـ بول لوكاس ـ الجزء الثاني ص 90.

(2) انظر ـ ثريج ـ تاريخ قورينه ص 268 و 277.

لتكرار ذلك، مجموعة من الكهوف أرى أنها، من خلال إنقاضها، لا تقل روعة في إنجازها أو في ضخامة أبعادها عن أغلب معالم المقبرة الأثرية.

لقد ذكر بندار أن قبر باطوس الأول كان قد حفر في نهاية سوق قرنة[1]، أما كاتولوس Catulle فقد ذكرنا بهذه الرواية بالطبع عندما تحدث عن القبر المقدس لباطوس الأول أو الكبير[2]. هل يا ترى إنني أنزل بسهولة عند ميولي إلى ترجيح افتراضاتي خاصة إذا افترضت أن أحد هذه القبور الموجودة حتى الآن قرب الحديقة الهادئة، قد حوى، دون شك، بقية رماد رئيس المستوطنين القادمين من جزيرة ثيرا Thera؟

لقد بحثت بكل دقة بين أكوام الحطام الذي يسد تلك الواجهات وتلك القبور، غير أنني لم أعثر على أي شيء يساعدني على إثبات وتأكيد هذه الاحتمالات. لقد أثار انتباهي، مع ذلك، اسم كارنياد Carnèade الذي نُحت مع مكعب من المرمر بشكل جميل وجذاب[3]. إن هذا التشابه في التسمية الذي كنت أرغب في الوقوف عنده قد يداعب العقل لا إرادياً في هذه الفيافي الموحشة غير أنه لا يستطيع إقناعه بشيء من هذا القبيل.

لم يعد أمامي سوى الحديث عن واقعة أخرى تؤدي إلى معارف أخرى رغم أنها تعود، كسابقاتها، إلى نفس العصر. لا بد لي من من مغادرة المكان الذي أتواجد به، لكي أتمكن من إقناع القارىء بما أريد قوْله. لا بد لي أن أجتاز آثار قرنة بأسرها وكذلك أسوارها الافتراضية وأذهب إلى منطقة تقع غرب المقبرة. لقد سبق وأن ذكرت أن مجموعة من البدو يقطنون هذا الجزء المزدان بالأشجار من المقبرة. إذا تقدم المرء، بمحاذاة الجبل الذي يتجه نحو الغرب، فإن عدد هذه الأشجار يزداد أكثر فأكثر، بل ويغطي كل الهضبة طيلة مسيرة بضع دقائق. بعد ذلك، يصل المرء إلى وادٍ سحيق تشرف عليه حوالق شاهقة، وتعلوه نباتات كثيفة. تذكرنا، تلك الغابة الوحيدة في سهل قرة وضواحيها، بالغابة التي غرسها باطوس الورع قرب المدينة، والتي كرسها إلى الآلهة[4].

لقد جذبت إلى تلك الفرضية بسهولة لا سيما وأن أحد المعالم الأثرية المهمة يعززها كثيراً: يشاهد المرء، في أقصى الغابة، وعلى حافة الوادي الذي يحدها، معبداً منحوتاً في

---

(1) بندار ـ نفس المرجع. 5ـ ص 124.

(2) كاتولوس ـ المقامة السادسة. 5 و 6. /Catulle. Od. VI.X6.

(3) انظر اللوحة رقم LXV الشكل رقم 4.

(4) انظر بندار ـ الأنشودة الخامسة.

قلب الصخر. إن هذا المعبد من أكبر وأجمل المعابد التي شاهدتها في إقليم المدن الخمس. توجد أمام مدخله درجات منحوتة بعناية فائقة تساعد المرء على النزول إلى هذا المعبد من السهل، وعلى الصعود إليه من مجرى ذلك الوادي. إن تلك الدرجات عريضة بما فيه الكفاية لكي تسمح بمرور شخصين متقابلين، وتبدو غالباً، على شكل بروزات في سفح الوادي، كما تدخل إلى جوف ذلك السفح أحياناً، بطريقة تجعلها تبدو وكأنها قد نحتت في الصخر المرتفع كثيراً. لقد أضافت عوامل الطقس الطبيعية إلى تلك الفوارق من حيث الزوايا وغيرها فوارق أخرى. إن سماء قرنة المطيرة، وحرارة جوها المخصبة قد جعلت تلك النباتات قوية جداً لدرجة أنها تتسلل إلى كل مكان، وتتخلل كل الشقوق، وتغطي كل ربوة، بل ويبدو أنها تقارع بقوتها صلابة الصخور لا أنها تنافسها، في كل خطوة، على التراب، بل وتقوم بتفتيت تلك الصخور الصلدة إلى أجزاء صغيرة وتزحف حتى على أصغر الشقوق فيها. لكي نعود أخيراً إلى موضوعنا، فهي تتغير من مجرد شجيرات هزيلة إلى أشجار سامقة ذات جذوع معقدة وظلال وارفة فوق مسطحات من الصخور الصقيلة والجرداء الخالية من أي نبات. وهكذا كان محيط السلم الصخري الجميل الذي يؤدي إلى ذلك الهيكل. يستطيع المرء أن يدخل الكهف بواسطة ثلاث درجات كبيرة. يجد المرء نفسه، بعد ذلك، وسط باحة مربعة وفسيحة يحيط بها مقعد صخري طويل ومنخفض. يشاهد المرء في وسط الباحة مكان القرابين Autel أو «المذبح» في شكله المربع ويعلوه محراب صغير مخصص للرب الذي كان يحكم أو يحرس تلك المنطقة. تغطي النباتات الزهرية لا سيما تلك التي تحبذ الرطوبة والظل كافة الوجهات الداخلية للمعبد بصورة كبيرة جداً لدرجة أنه لا بد من إزالة قبضات منها لكي يتمكن المرء من فك رموز بعض النقوش المنحوتة على جدرانه.

بعد أن يقوم المرء، في هذا المكان التليد، وبكل أسف، بتجريد تلك الجدران من تلك النباتات وكأنه يدنس هذه الزخارف الحقلية، تكفيه نظرة واحدة على مجمل تلك النقوش لكي يقتنع بأنها ترجع إلى عصور متباينة.

تزركش تلك النقوش كل مكان، وبصورة متباينة، على تلك الواجهات غير أن بعضها منحوت بعمق في شكل حروف من خمسة أو ستة بوصات، وبعضها الآخر قد نُحت بخط رفيع جداً يكاد يجعلها غير واضحة بالمرة. لا توجد أية علاقة بين هذا النقش وسابقة أو الذي يليه. فيتكون كل نقش من جمل قصيرة جداً وقد تعرضت، في أحيان كثيرة، إلى فعل عوامل التعرية.

يمكن للمرء أن يلاحظ هنا وهناك وجود سلسلة من الأسماء المعزولة والمتشابهة مثل أرسطوكليس Aristocle والإسكندر وجازون Jason وأغاطوكليس Agathocle وغيرها.

عند تلخيص هذه الوثائق الهامة تلخص إلى أن هذا الكهف قد كان معبداً مكرساً، دون شك، إلى أحد الآلهة الرئيسية لقرنة، وأن الأجانب كانوا يأتون لزيارته كما لو كانوا يؤدون واجباً مقدساً. إن موقع هذا المعبد بالقرب من الغابة الوحيدة التي يراها المرء في سهل قرنة يبدو لي متفقاً تماماً مع أصل وغاية تلك الغابة التي تعود إلى المراحل الأولى للاستيطان الإغريقي في ليبيا. إن أشجار الصنوبر المهيبة هي التي تكوِّن تلك الغابة، وقد تكون حفيدة لتلك الأشجار التي كرسها رئيس الأسرة الباطية إلى الأرباب.

إن تلك الغابة النذرية ثمرة لسياسة حكيمة لملك حظي بشعبية كبيرة اجتازت كل العصور في إقليم المدن الخمس الليبية. لقد بقيت بعد تغير الحكومات والأخلاق مبجلة من قبل كل حكام هذه البلاد، ولم تتدهور إلا أخيراً أمام الديانة الشرقية الجديدة؛ النصرانية المتقشفة التي قد يجد المرء آثارها ورموزها هنا وهناك في محاريب صغيرة تشوه مدخل هذا المعبد المقدس.

كانت تلك هي الأنقاض النادرة التي شاهدتها في ذلك المكان الذي كان يقع في مكان مرتفع في قرنة بالإضافة إلى العدد البسيط من الأسماء المذكورة آنفاً. لكي أقدم فكرة كاملة وغير منقوصة عن هذه المدينة الشهيرة، لا سيما عن آثارها العظيمة، ينبغي عليَّ أن أعوض ما أحدثته صروف الزمن بالرجوع إلى الكتب. إن هذه الكتب تشكل حطاماً آخراً لعصور قديمة ولا أجد فيها، بكل أسف، سوى بضع معلومات جديدة أو عميقة أو مبعثرة هنا وهناك بين طياتها.

ذكر بعض المؤلفين أن مدينة كانت تدعى زوس أو زورا Zoes أو Zoa قد وجدت قبل قرنة وفي نفس موقعها. ادعى بعضهم أنها قد شيدت من قبل باطوس ثم تغيرت تسميتها إلى قرنة[1]، بينما زعم البعض الآخر بأن باطوس لم يكن سوى المؤسس الثاني لها[2]، غير أن العديد من العلماء ومن بينهم ويسلينغ ووالكانير Walkanaer وثريج بصورة خاصة، قد تصدوا لهذا الرأي بما فيه الكفاية، وقد أثبتوا أنه ناجم عن خطأ اشتقاقي في طبعة هيرودوت

---

(1) Frich. in Annot. ad. Callim. Hymn in Apoll. V.88.

(2) Schnaid ad. Pind. P.134.

من فالا Herodote de Valla. لن أنهك نفسي إذاً في محاولة توضيح الأصل الحقيقي لاسم مدينة قرنة دون طائل، سأترك الفرصة لغيري لتحديد ذلك الأصل ومعرفة فيما إذا كانت التسمية قد جاءت من ربوة أو نبع «قورى» Cyrè، كما قال كاليماك أو فيما إذا كان هذا الاسم ليبيًّا أو إغريقيًّا رغم أن «مارو» يشك في كونه إغريقيا، أو فيما إذا كانت قرنة قد سميت نسبة إلى قورينه بنت الملك «هيبسه» Hypsèe الذي ذكر تاريخه بندار بصورة فجة، والذي تم شرحه بعد ذلك، وبطرق شتى، من قبل دويودو واوستاث Eustahte وجوستان Justin وإتيان بل وأصبح شهيراً جداً بفضل أناشيد الشاعر فيرجل Virgile. إن ما يمكن أن نستنتجه من تلك الروايات الغامضة والمعقدة دون إثارة أي احتجاج، هو أن تلك المدينة قد شيدت فوق قمة الجبل بالقرب من النبع الجميل الذي وصفته آنفاً، وأن هذا النبع قد كرس بعد ذلك للرب ابولو، وأن المدينة قد سميت قرنة، ولا يهمنا كثيراً فيما إذا كانت تلك التسمية تعزى إلى جبل أو ينبوع أو نجلة الملك هيبسه. إن قرنة قد كانت، دون شك، أكبر المدن الأفريقية المعروفة إذا ما استثنينا قرطاجة. إن طول وعرض شوارعها يدلان على ذلك وإن هذا الدليل لا يزال قائماً إلى يومنا هذا[1].

ذكر سترابو أنها كانت تقع على سهل مرتفع ومستوٍ وكأنه سطح مائدة على بعد مائة مرحلة Stades من ساحل البحر. إن هذا الموقع وهو الذي مكن الجغرافي الشهير من رؤيتها من على ظهر سفينته في إحدى رحلاته البحرية.

إن تلك المعلومات مفيدة جداً في جميع العصور، ولم يغير فيها الزمن شيئاً حيث تأكدنا من كونها أمينة جداً.

لا يمكننا أن نقول ذات الشيء عن الأبنية التي كانت السبب في تسمية قرنة «بالعظيمة» أو «العظمى» أو «البديعة» Magnifique أو «بالمشيدة حقاً» Très bien bâtie أو «بالمدينة ذات العرش الذهبي»[2] رغم أننا لم نعثر، في مكان تلك الأبنية سوى على حطام منثور وبقايا من الحجارة، فإن الأعداد الغفيرة للقبور، وأناقة عمارتها وهندستها، تدعونا إلى

(1) يرى البروفسور لاروند في لقاء أجرته معه مجلة فيقارو مقازين 92/11/21 «Figaro-Magazine» أن قرنة كانت ثالث أكبر مدينة في القدم بعد أثينا وساراكوزا وذلك حتى بناء الإسكندرية. يقول ناحوم سلوخ أيضاً أن عدد سكان قرنة من إغريق ورومان ويهود قبل حكم بطليموس قد وصل 300.000 نسمة «انظر مشروع استيطان اليهود في برقة ص 70»... المترجم.

(2) بندار الأنشودة الخامسة.. Pindar, Fyth.V.

تصديق المطرب بندار خاصة وأن التاريخ قد ذكر العديد من تلك الأبنية. علاوة على معبدي أبولو وباطوس اللذين ذكرتهما آنفاً، ذكر هيرودوت أن هضبة تقع إلى الشرق من قرنة كانت قد كرست للآلهة جوبيتر Jupiter Lycéen [1] وربما وجد عليها معبد أطلق علي بوزانياس Pausanias اسم «الأولومبي» Olympien بينما أطلق عليه تاسيت Tacite اسم «إسكولاب» Esculape حيث كان القوينيون يخفون كنوزهم في إحداهما[2]. يمكننا أن نذكر أيضاً معبد منيرفا Minerve ومعبد «ريا» Rehea ومعبد زحل Saturne وأخيراً معبد ديانا Diane الذي كان يحتفل فيه بأعياد ارتيميسيا والذي كرس للربة آرتيميسيا Artemitia.

يقول ثيوفراست إن تلك المعابد قد شيدت من الخشب الصلب من أشجار Thyon[3] ورغم أنه لا يمكن تطبيق تلك التعابير إلا على الأسقف فقط، إلا أن كثرة أشجار Thyon تبرر هذا الاستخدام إن تلك الأشجار تغطي إقليم المدن الليبية الخمس بأسره وقد يكون ذلك قد نجم عن عدم وجود المرمر وغيره من المواد الغربية عن المنطقة أرى، علاوة على ذلك، أن تلك الرواية تضفي مصداقية جديدة على ما ذكرته بشأن التدمير الكامل للأبنية التي شيدت في عهد الاستقلال. إذا ذكرنا أيضاً الحرائق التي نشبت أكثر من مرة التي أشعلها الهمج الغزاة القادمون، خلال القرنين الرابع والخامس، من جميع مناطق جنوب برقة حيث ذكر لنا سينوسيوس مشاهدها المروعة أكثر من مرة، فإن الدهشة سوف تزول إذا عرفنا أن المعابد التي نجت من الحريق بفضل إعادة ترميمها من قبل الرومان، قد وقعت مرة أخرى، فريسة لألسنة اللهب لدرجة أنه لم يعد يوجد لها أي مكان سوى أكوام من الحجارة المنثورة. نجد، في نفس الوقت، آثار أقدم منها بكثير قد قاومت عوامل الزمن في بلدان أخرى، ولا تزال تقاوم، وسوف تقاوم لأمد طويل فعل الإنسان وكر الزمن[4].

---

(1) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 203

(2) في المعبد الأولومبي وفقاً لبوزانياس وفي معبد اسكولاب وفقاً لرواية تاسيت ـ انظر كتاب ثريج ـ تاريخ قورينه ص .248 L.VI.C.19

(3) Théoph. Hist. Plant. L.V.C.5.

(4) يبدو أن المؤلف قد نسي أو تناسى أن أكبر حريق مروع في هذه المدينة بل وفي برقة بأسرها كان بسبب ثورة اليهود على الرومان. حيث ذكر جازون Jason مؤرخ اليهود في قورينه أن ثورة المكابيين سنة 185 ق.م. بتحريض من الحاخام أكيبا قد أبادت في برقة وحدها نحو 220,000 نسمة من الإغريق والرومان وأشعلوا الحرائق في قرنة ودمروا المعابد. (انظر ناحوم سلوخ ـ اليهود في برقة. وكتاب Dio Cassius L.XVIII وكتاب غي جورجي ـ راع من سرت ص 246). . المترجم.

الفصل السابع عشر

أرياف وحيوانات قورينة الأليفة

نعرف بفضل التاريخ القديم أن الأرياف الخصبة كانت تحيط بقرنة[1] تحدوني ملاحظاتي الشخصية إلى الإضافة بأن تلك الأرياف، سواء أطلقنا هذه التسمية على السهول الممتدة عبر ضواحي قرنة أو على الهضاب الساحلية، لا تقل جمالاً وبهاءً عن أجمل المناطق في إقليم المدن الخمس.

إن خصوبة تربة قرنة تفسِّر النمو السريع الذي شهدته مدينة باطوس، والعدد الكبير من الأجانب الذين حضروا إليها من شتى أنحاء بلاد الإغريق بعد إقامة المستوطنة وذلك لغزوها وتقاسم الأراضي التي يملكها الليبيون فيما بينهم. رغم أنني ذكرت، قبل الآن، التوزيع الزراعي لقرنة كما نقله إلينا أبو التاريخ إلا أنني سوف أكرر هنا هذه الرواية النفيسة لأنني أستطيع أن أثبت صحتها بل وأقدم معها معلومات قديمة أخرى تتصل بها. تنقسم حقول قرنة إلى ثلاثة أقسام يتمتع كل منها بفترات خصوبة ونضج متوالية مع غيره وذلك خلال ثلاثة فصول مختلفة تشغل سكان قرنة لمدة ثمانية أشهر في العام. يبدأ المزارعون بالحصاد وجني ثمار السهول الساحلية، ثم يذهب المرء بعد ذلك إلى المنطقة التي أطلق عليها هيرودوت اسم «بون» Bunes بمعنى روابٍ أو تلال حيث يتم جني الفواكه التي تكون الآن ناضجة بعد فترة الحصاد.

بعد جني فواكه هذه المنطقة تبدأ الثمار في المنطقة الثالثة في النضج أي في المناطق الواقعة على قمة الجبل.

إن الموقع السعيد لهذا الجزء من ليبيا الذي يتقدم صوب البحر المتوسط على شكل رأس أرضية شبه مستديرة، وتدرج تلالها المغطاة بالأشجار، وتنوع مواقعها، وتعاقب

---

(1) Pind. Pyth. IV. V. 14 Pyth. V.V. 94. Herod. L.IV 158.

الوديان والسهول وتعرض جميع أنحاء المنطقة لنسيم البحر المنعش، وحماية الجبال لها من لفح رياح الصحراء المحرقة قد جعل هذه المنطقة ملائمة للخصوبة المتتالية. أستطيع الآن أن أؤكد بأن شهادة هيرودوت صحيحة ولا يرقى إليها أي شك ولا تشوبها أية مبالغة.

لا يعوز وصف هيرودوت سوى تحديد المسافات الطوبوغرافية ولكن سترابو وبلين عوّضا هذا السهو حيث ذكر بأن الأراضي التي تبعد مائة مرحلة عن ساحل البحر مغطاة بالأشجار والغابات وأن الحقول المزروعة بالحبوب توجد بعدها بمائة مرحلة أيضاً[1]. إذا تم مقارنة هذه الشهادة الجديدة مع حالة قرنة الراهنة، فإن المرء سيجدها لا تقل صحة وصدقاً عن سابقتها، إن الغابات التي تغطي كل أرجاء الجزء الشمالي لبرقة لا تتعدى أربعة فراسخ Lieues من الساحل وهو ما يتفق تماماً مع المائة مرحلة التي ذكرها المؤلفان آنفاً. أما فيما يتعلق بمساحة الحقول المخصصة لزراعة الحبوب والخالية من الأشجار، فلا تبدو مخالفة، للوهلة الأولى، للشكل العام لهذه المنطقة، لأن الحقول الحالية تمتد إلى الجنوب مسافة ستمائة مرحلة وذلك بعد قمة الجبل أي نحو خمسة وعشرين فرسخاً نحو الجنوب.

رغم ذلك، وبغض النظر عن هذا الاختلاف الكبير في القياسات، فإنني أعتقد بأنه ناجم عن تردد في تحديد المسافة أكثر من كونه مجرد خطأ في قياس المسافة. لا يرغب كل من سترابو وبلين التحدث عن أي شيء آخر سوى عن الحقول التي كانت تابعة لسكان قرنة دون غيرهم «يقصد الإغريق. . المترجم». إذا كان هذا الاحتمال صحيحاً، فإن المسافة المحددة من قبل كل منهما تكون سليمة جداً لأن أقصى الأجزاء الجنوبية كانت دائماً تابعة لليبيين «يقصد السكان المحليين»، غير أن ذلك يحتاج إلى تفسير وشرح.

عند مغادرة المرتفعات الشمالية التي أسست فيها المدن الخمس المعروفة بإقليم «المدن الليبية الخمس» وهو اسم جماعي، وعند التوغل في دواخل المنطقة عبر المرتفعات فإن هضبة قورينة التي تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة تتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين فرسخاً، فإن المرء يسير في سهول تتخللها أودية بصورة متواصلة وهي قابلة للزراعة بل وإن أغلبها كان مزروعاً فعلاً، وتوجد بها نباتات مختلفة ومتعرشة غير أنها خالية تماماً من الغابات والأشجار.

يبدأ هذا السهل الشاسع خلال الفصل المطير، في الاخضرار من جديد، وتبدأ

---

(1) Strabon. L.XVII, C.3 - Pline. L.V.C.5.

الجداول الكثيرة رغم كونها مؤقتة، في التدفق ثم تصب في المنخفضات. هنا يبدأ البدو في مغادرة الغابة المطيرة والتوجه نحو السهول لإعادة الحياة إليها بواسطة بيوتهم ومنتجعاتهم. أما خلال فصل الصيف فيختلف الأمر كثيراً لأن الشمس تشوي بأشعتها المحرقة تلك السهول الجرداء وتحول مروج الشتاء إلى أرض قاحلة يميل لونها إلى الرمادي، وتجرد الأشجار من أوراقها حيث يشاهد الإنسان تلك الأوراق يابسة ومنثورة على الأرض بالقرب من جذوع الأشجار.

يخيم بعد ذلك الصمت الذي يعقب ضوضاء منتجعات البدو، ويستطيع الأوروبي أن يتحول، بكل أمن وأمان، في هذه السهول غير أنه يشعر بالحزن عندما تصبح تلك السهول قاحلة وموحشة.

يوجد مع ذلك، عدد قليل من العيون التي تبعد كثيراً عن بعضها البعض تروي بعض الأودية المحظوظة في هذا الفصل، وتجذب إليها أفقر البدو الرحل في تلك المنطقة، أو أولئك الذين يقاتلون قبائل أخرى.

هنا أيضاً توجد دلائل وعلامات على العصور الغابرة، ولكنها ليست علامات على الحضارة بل تذكّر، على النقيض، بآثار الهمج التي تركوها على الساحل. تتكوّن هذه الآثار من أبراج عالية وضخمة على شكل أهرامات مشيدة من الطوب، وتحيط بها أحياناً باحات فسيحة. إنها، دون شك، آثار لمنتجعات بدوية ليبية شغلت هذه السهول خلال المراحل اللامعة للاستقلال الذاتي في قرنة وكذلك خلال مراحل الانحطاط.

لا يمكنني أن أشك في أن هذه المنازل أو بالأحرى الأوكار تعود إلى السكان المحليين ليس فقط بسبب عدم وجود أي شكل محدد لهندستها ومعمارها ولكن أيضاً لعدم وجود أي صلة أو وجه شبه بينها وبين الآثار الإغريقية والرومانية في المنطقة الساحلية، كما أنها تتفق تماماً مع ما ذكره ديودور الصقلي بشأنها حيث عرفنا من خلال أقواله بأن أقوى القبائل الليبية في برقة لا تقطن في مدن، بل تعيش في صوامع مشيدة بالقرب من العيون.

تستخدم هذه الأبراج أيضاً في تخزين كل ما يستخدمونه أو يستعملونه[1].

إن تلك «النجوع» الثابتة لليبيين التي تساوي في عددها عدد عيون الأجزاء الجنوبية

(1) Diodor - Sicul. L.I.V. C.4 édit. Basleac, Henri Petri. P.84.

للهضبة يمكنها أن تفسر لنا أيضاً مسألة جغرافية هامة تتعلق بهذه المقاطعات في قورينة. لقد حيرت هذه المسألة العديد من العلماء ومن بينهم العلامة مانير، بل وضللتهم. يبدو أن الأماكن المذكورة في جداول بطليموس والتي حددت مواقعها جنوب قرنة مثل مارانثيس Maranthis وآندان Andan وآشابيس Achabis وإيخينوس Echinos وفيلاوس Philaus وآريمانثوس Arimanthos وغيرها، قد تكون مدناً ليبية أو قرى يقطنها السكان «المحليون» في قورينة، قد تكون أيضاً تلك المنتجعات المحلية التي قدمت لها وصفاً آنفاً. إن أقصى القرى الإغريقية أو الرومانية في الجنوب هما هيدراكس Hydrax وبيلابيسكا Palaepisca حيث حدد سينوسيوس القرني موقعهما على تخوم «ليبيا القاحلة» وحيث قمت آنفاً بتحديد موقعهما الصحيح. إن هذه الحالة التي لا تشكل سوى تطوير لفكرة مانير(1). وقد تعفي بعض المدققين من الجغرافيين أو تعفيني، أنا شخصياً، على الأقل، من البحث، بكل تأكيد، بين تلك الأسماء التي أطلقها الإغريق، على تلك الصوامع والأبراج الليبية، عن آثار لمدن همجية أو القيام بوضع فرضيات أخرى من هذا القبيل، رغم العون الكبير الذي تقدمه لنا تلك الأبراج بأسمائها الحديثة مثل تكاسيس Tkassis وثيغاربو Thègarebou وغيرهما، لأنها مفردات غريبة، في رأيي، عن اللغة العربية، ورغم التشجيع الكبير الذي يقدمه لنا أحد تلك الأسماء وهو «مراده» الذي يشبه اسم مارانثيس Maranthis والذي ذكره بطليموس.

اعتقد بأن ذلك يكفي الآن حول تلك المنطقة القاحلة في سهول قرنة وقد كانت الملاذ الأخير للسكان المحليين، وعلينا الآن أن نعود إلى الأرياف الخضراء، والغابات الظليلة أي أن نعود إلى أرض الحضارة.

لقد استطرد الشعراء القدامى في مدح هذه المنطقة الخلابة حيث مدح هوميروس خصوبة أرضها الشديدة ومرتفعاتها الزاهية؛ أما بندار فقد أطلق عليها اسم «المثمرة حقاً» Frugifère واسم «روضة جوبتير» أو «روضة فينوس». أمّا شاعر قورينة الذي تسري في عروقه الدماء الملكية فقد استخدم نفس العبارات تقريباً. رغم أن الأوصاف الشعرية التي ذكرها لها ما يبررها، بصورة كبيرة، لا سيما منظر حقول برقة البديعة والتي لاتزال كذلك حتى يومنا هذا، فإننا نجد روايات أخرى تناقض ذلك تماماً.

---

(1) Gèo des Grecs et des Romains, t. II, p. 2, p. 105.

لقد ذكر ثيوفراست أن تربة قورينة خفيفة سريعة التعفن وتهب عليها رياح جافة بيد أن أشجار الزيتون والصنوبر، كما قال، تبلغ فيها جمالاً نادراً[1]. ذكر ديودور أن تربتها ليست خصبة جداً فحسب بل إن مزارع الكروم والزيتون والمراعي والعيون فيها رائعة[2]. أما آريان Arrien فقد ذكر أن تربتها كانت كثيرة العشب، وأن المنطقة مطيرة جداً وبها أعداد كبيرة من المروج الزاهية وتنتج شتى أنواع الفاكهة[3]. يمكنني أن أحصر من بين أشجارها المثمرة وفقاً لما ذكره سيلاكس أشجار التفاح من شتى الأنواع، والرمان، والإجاص، والكرز البري «الشماري. . المترجم» والتوت، والزيتون، واللوزيات بأنواعها. أعتقد أنه من نافلة القول أن أضيف أن اللوزيات والإجاصيات من النباتات الغريبة عن أرض أفريقيا وقد أحضرت من بلاد الإغريق إلى ليبيا وهذا ما يمكنه أن يقدم فكرة أفضل من شهادتي هذه، عن الموقع السعيد لهضاب قورينة الشمالية. إن هذه الهضاب لا تلائم فحسب الأعشاب والنباتات المحلية في أفريقيا بل أيضاً كل النباتات التي تزدان بها جميع المقاطعات الإيطالية. لم يذكر سيلاكس العديد من النباتات التي كانت تزرع في بساتين قورينة أو التي كانت تنمو بصورة طبيعية فيها كما هو الحال الآن والتي تحدثت عنها كثيراً عبر هذه الصفحات مثل أشجار التين والبطرم Cornouiller والسدر ونبات Lentisques. إذا أراد المرء أن أقدم له أدلة تأريخية حول هذا الموضوع فإنني سوف استشهد بالفقرة التي ذكرها بلوت Plaute والتي يقول فيها بأن أحد خدمه لا يأكل في قورينة سوى التين[4] أو بالفقرة التي وردت عند بلين التي تفيد بأن ثمار البطوم وثمار السدركانت تستخدم في تحضير بعض الأطعمة في قورينة.

أود بعد هذه اللمحة العامة عن الريف في قورينة أن أقدم بعض المعلومات عن التقسيمات الإدارية «المقاطعات» التي عرفت بها قورينة في العصور السحيقة غير أن أبحاثي التي ربما كانت سطحية جداً لم تسعفني في معرفة مقاطعة «هيرايا» Hieraea التي حدد موقعها بالقرب من خليج نوستاثموس وذلك وفقاً لتشابه اسمها في الرواية البدوية مع اسم «بائية» وكذلك موقع أبروسيليس Aprosylis التي ذكرها سينوسيوس القوريني. لا أستطيع إذاً أن أحدد المواقع التي أقيمت عليها هاتان المقاطعتان بيد أنه يبدو لي من المرجح أن

---

(1) Theoph. L. VI, C. 27, L. IV, C. 3.

(2) Diodr. Sicul. C. IV, C. 4.

(3) Arrien. de Exped. Alex. C. 28.

(4) Plaute, L. XV.

تكون «باثية» أو «بطية» في أقصى جنوب البلاد نظراً لأن الليبيين قد عبروها أولاً أبان اكتساحهم لإقليم المدن الخمس في طريقهم إلى ابروسليس ومن ثم بقية مدن الإقليم[1].

أما بالنسبة للتقاليد الفلاحية والزراعية فقد كانت خلال فترة الاستقلال الذاتي مشابهة للتقاليد الإغريقية. نحن نعرف أن الفلاح في كلا البلدين يغرس ويطعم الأشجار مع بداية هبوب الرياح الصيفية أي خلال شهر أغسطس[2] كما أن المقاييس المستخدمة في الأراضي الزراعية حتى بعد سقوط قورينة في أيدي الرومان كانت «المرحلة» Stade [3] الإغريقية وليست الأقدام الرومانية. لا بد لنا أيضاً من إضافة أن سواد الأراضي في قورينة كان ملكاً عاماً حيث أكدت ذلك الجمهورية الرومانية نظراً لأن حالات التقاضي بشأنه كانت تتم من قبل «الرقباء» Censeur الرومان وذلك بحضور السكان[4]. إن ذلك، دعوني أقول، يضعف من حماسي في ما يتعلق بسخاء روما التي أرادت أن تترك للقورينيين حريتهم التي عرضتها وصية آبيون Apion للخطر الشديد. لقد احتفظت روما لنفسها بأملاك عامة وفرضت على السكان دفع جزء لا بأس به من كنوزهم إلى خزائنها. وحول القوانين والتقاليد الزراعية المنظمة للنشاط الفلاحي فيه، فإنني سوف أتحول إلى الحديث عن الحيوانات الأليفة التي توجد في هذا الريف. إن الجياد في قورينة معروفة بما فيها الكفاية بفضل أناشيد بندار الخالدة، ولذا سيكون من قبيل الحشو أن أتحدث ها هنا عما ذكره العديد من المؤلفين غيره من أجل مدحها والثناء عليها. يبدو أن عدد تلك الجياد يضاهي شهرتها لأنه قد تم نقل الكثير منها إلى عدة مقاطعات في بلاد الإغريق[5]. من العسير عليّ إذاً أن أجزم بأن تلك الشهرة قد جاءت من قوتها ومهارتها. قد تكون ناجمة عن رشاقتها وتقاطيع جسمها.

إن تباين شكل الأرض بصورة متواصلة ووجود الوديان العميقة، والمرتفعات الوعرة في المناطق التي كانت آهلة بالسكان في الأزمان الغابرة في إقليم المدن الخمس قد أدى إلى تشجيع تربية وترويض الجياد في هذه الظروف البيئية الصعبة. إن ولع البدو والعرب بشكل

---

(1) Synes, epist, 125.

(2) Pline. L. XVII.

(3) Cicèron, Harangue Contie Rullus au sujet des Lois agraires.

(4) ترجمنا كلمة Stade بالمرحلة وهي تبلغ 600 قدم وكلمة Lieue بالفرسخ وهو يبلغ 5,556 كيلومتر طولي....

(5) ثريج - تاريخ قورينة - ص 259.

عام بالخيل معروف بما فيه الكفاية. إن الخيل تشكل بالنسبة لهم موضوع ترفهم وكبريائهم واعتزازهم وعنايتهم. من المحتمل أن يكون البدو، ونصفهم من الفرسان، الذين يقطنون الآن في قرنة الحديثة، قد أهملوا جنساً من الخيل الرائعة التي يشهد لها بالرشاقة والسرعة، وأحالوها، إذا ما نظرنا إليها الآن، إلى ما يشبه الماعز الرشيق والماهر لأنها لم تعد تلك الجياد الأنيقة والسريعة[1].

علاوة على ذلك، نجد أن السمات التي تميز اليوم خيول برقة والتي تجعلها مرغوبة في كل المناطق الغربية، كانت موجودة فيها في القرنين الرابع والخامس للميلاد حيث امتدحت جياد إقليم المدن الخمس وتم الإشادة بمحاسنها وميزاتها التي جعلتها ملائمة جداً للحرب والصيد وجر العربات.

إذا كانت خيول بلاد الإغريق والرومان تتجاوز خيول برقة في ضخامة الجسم فإن خيول برقة تبزها في القوة والرشاقة وهذا ما ذكره، على الأقل، سينوسيوس القوريني[2] لقد استخدم الليبيون في برقة لا سيما سكان «بارقي» أي المرج، الخيول منذ أقدم العصور. لقد استشهدت في هذا الشأن، برواية إتيان البيزنطي، كما إننا نعرف التفسيرات التي قدمها العديد من العلماء عن تلك الرواية. لقد افترض الكثير منهم أن الخيل غريبة عن بلاد الإغريق وأنها قد أحضرت إليها من أفريقيا عن طريق الفينقيين، ومن هنا جاءت أسطورة الجواد الذي قدمه نبتون Neptune هدية للربة أثينا. وبغض النظر عما يمكن قوله عن تلك الافتراضات البديعة، فإنه يبدو لي أن الليبيين القاطنين على الساحل وكذلك البارقيون «سكان المرج» كانوا لا يستخدمون، قبل سيطرة روما على المنطقة، سوى الخيول، ولم يستخدموا الإبل في الأعمال الزراعية ونقل المتاع. لم يدخل الجمل، هذا الحيوان النفيس، إلى تلك المنطقة إلا خلال الفترة الرومانية وذلك عندما أحضره الليبيون من دواخل افريقيا إلى إقليم المدن الخمس. لقد عرفنا بعد ذلك أن هؤلاء كانوا يستخدمون الإبل في غزواتهم المدمرة[3].

يمكنني أيضاً أن أضيف بأن تلك الجمال كان من النوع الملائم جداً الذي يسمى بـ

---

(1) أقول ذلك رغم تأكيدات عالم النبات تورنفور Tournefort الذي أشاد برشاقة وبهاء خيول برقة - انظر كتابه Voyage du Levant. t. I. p. 313.

(2) سينوسيوس القوريني - الرسالة 40.

(3) سينوسيوس القوريني - الرسالة 113. طبعة Petav ص 254.

«الهجين»[1]. إن ما يشفع في هذا الاستخدام أيضاً استعمال الطوارق، وهم من البدو الرحل الذين يقطنون دواخل جنوب برقة، لهذه المهارى الشهيرة نظراً لكونها أسرع وأرشق نوع من الإبل في افريقيا. هذا هو السبب في انتشار حيوان الرمال «يقصد الجمل. . المترجم» في حقول برقة الشمالية التي يوجد بها بأعداد غفيرة، والذي كان يغطى، في عهد سينوسيوس كل أرياف برقة[2]، رغم أن المؤلفين السابقين له وخاصة كبير قساوسة بطليموسة لم يتعرضوا بالذكر إلى وجود تلك الأنعام بين حيوانات برقة. أما فيما يتعلق بالبغال والحمير التي كان يستخدمها سكان برقة في نفس الفترة[3] فإن فوائدها جمة في بلاد جبلية كهذه. غير إنني أشك في استخدامها من قبل الليبيين في العهود الغابرة. ليس الأمر كذلك بالنسبة لقطعان الأبقار والأغنام والماعز التي تشكل المصدر الرئيسي لثراء سكان هذا الجزء من ليبيا من الإغريق والرومان والليبيين والبدو[4].

إن أعداد الأبقار هائلة في هذه المنطقة وذلك منذ أقدم العصور لدرجة أن جلودها قد استخدمت في التجارة وصدرت إلى الخارج[5]. كانت البقرة، علاوة على ذلك، تعتبر في مصر رمزاً للربة إيزيس Izis حيث أدت هذه الصورة الرمزية إلى عبادة الأرض ومنتوجاتها. لقد وجدت هذه الرمزية أيضاً في قرنة وضواحيها حيث كرسها تقليد مماثل لنفس الغرض[6]. ذكر هيرودوت، في الواقع، أن نساء قورينة ونساء الليبيين المجاورين لها لا يأكلن لحم البقر وذلك توقيراً للربة إيزيس ورمزها[7]. إن تغير الحكومات والديانات لم يقض تماماً على هذا التقليد العتيق في هذه البلاد حيث استمرت النسوة في الحفاظ عليه

---

(1) استدل على صحة هذا الرأي حول استخدام البدو الرحل في برقة في القدم للمهاري خلال الحملات العسكرية النظامية، بالتذكير بهؤلاء البدو التابعين لقوات كسرى Xerxès الذين كانوا يمتطون الإبل التي تعادل في سرعتها سرعة الخيل وذلك وفقاً لما ذكره هيرودوت «انظر هيرودوت ـ الكتاب السابع ـ ص 86».

(2) سينوسيوس القوريني ـ الرسالة 129 ص 265.

(3) نفس المصدر ـ الرسالة 109 ص 252.

(4) اعتقد، وقد أكون على خطأ، أن المؤلف هنا قصد بعبارة «الليبيين» سكان المدن من الليبيين حيث درج المؤرخون، خاصة القدامى على التفريق بين الليبيين والبدو كما فرق التأريخ القديم بين «العرب» وسكان «سبأ» والحيرة ومعين وغيرهم. . المترجم.

(5) Thrige, Histe, Cyren. p. 257.

(6) قد يكون ذلك هو السبب الرئيسي في عدم إقبال سكان المنطقة في القدم وحتى عهد حديث جداً على أكل لحوم البقر. . المترجم.

(7) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 186.

وذلك حتى العهد المسيحي أو النصراني[1]. إن ما يثير الدهشة حقاً هو استمرار هذا التقليد حتى يومنا هذا حيث يعزف بدو برقة عن شرب حليب البقر بينما يستخدم حليب الحيوانات الأخرى بصورة كبيرة. لقد عرف الإغريق حيوانات برقة الصوفية وذلك بفضل الأرغونوت Argonaute قبل استقرار جالية ثيرا على الأراضي الأفريقية، وشاهدنا على ذلك، هو الأمر الذي أصدره الوحي الإلهي في دلف والوعود التي تحققت بشأنه[2].

يمكننا أن نجزم أيضاً بأن الماعز قد وجد بأعداد غفيرة في هذه البلاد بل وكانت تتجاوز في عددها عدد الأغنام لا سيما وأن الروايات القديمة تتفق مع حالة الطقس في هذه المنطقة. وكما أشرت إلى ذلك سالفاً، نجد أن الطقس مختلف في مناطق الغابات الشمالية عنه في المناطق الجنوبية. نلاحظ أولاً، أن كل الليبيين، وفقاً لما ذكره ديودور[3] وأن نساءهم فقط، وفقاً لما ذكره غيره[4] يرتدون جلود الماعز. نستنتج من ذلك، دون شك، أن الماعز كان يشكل جل الحيوانات الصغيرة للبدو القدامى كما هو الحال الآن. لنضيف أيضاًبأن جو ليبيا ملائم جداً للماعز والأغنام حيث لا تستطيع هذه الأخيرة، بشكل عام، أن تعيش في مناطق الغابات إلا في فصل الصيف فقط إذ يضطر الرعاة من البدو إلى نقلها شتاءً إلى السهول الجنوبية الخالية من الغابات فتكون تلك السهول بمثابة مراعٍ غنّاء لقطعان الغنم دون أن تتعرض إلى العواصف العاتية التي تهب على تلك المقاطعة في فصل الشتاء خاصة على المرتفعات الشمالية. يتم نقل الأغنام إلى السهول لأنها لا تتحمل هذا الطقس بسهولة. أما الماعز فهي، على العكس، لا تعاني من ذلك أبداً بل وتحبذ تسلق المرتفعات الوعرة، ولذا نجدها في هذا الإقليم بأعداد هائلة طيلة فصول السنة. كل شيء هنا يحملنا على الاعتقاد بأن الوضع كان كذلك في الأزمنة التليدة.

يوجد حيوان آخر أليف في منطقة قرنة غير أنه أصبح اليوم محظوراً بسبب قانون محمد «ﷺ. المترجم» الذي يقدم لنا ملاحظات عجيبة عن الإصحاح لدى الليبيين القدامى. إن هذا الحيوان الخنزير بالطبع. يوجد هذا الحيوان الآن في حالة متوحشة في جميع الأنحاءالشمالية التي توجد بها الرمال. يبدو أن السكان المحليين في تلك المنطقة قد

---

(1) سينوسيوس القوريني ـ الرسالة 147 ص 257.
(2) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 155.
(3) ديودور الصقلي ـ الكتاب الرابع ـ القسم الرابع.
(4) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 189

اغتنموا وجود هذه الهدية التي منحتها لهم الطبيعة لإشباع حاجتهم من الطعام وسط السهول القاحلة.

مع ذلك، تذكر الروايات القديمة أن الليبيين لا يأكلون لحم الخنزير سواء أكان برياً أو أليفاً وذلك خلافاً للقورينيين «يقصد الإغريق» الذين يأكلونه بشراهة ونهم[1].

يوجد نفس الامتناع عن أكل لحوم الخنازير لدى البارقيين «سكان المرج»، وهذا، دعوني أقول ذلك، يؤكد افتراضاتي التي ذكرتها في مكان آخر من هذا الكتاب، حول الأصل الليبي لسكان المرج أو البارقيين.

لا يوجد بين الأعراف التي سنها المشرع العربي دون شك أي عرف يتمشى مع حرارة المناخ في الشرق، سوى هذا العرف الذي يمنع تناول لحوم الخنزير الثقيلة التي لا تهضم إلا ببطء شديد.

يبدو لي أن صحة الليبيين تعزو دون شك إلى تجنب الآثار الضارة لهذه اللحوم وهي صحة ملحوظة جداً بالمقارنة بأعراف سكان قرنة[2]. لا يشعر المرء إذاً بأي دهشة عندما يتذكر قول هيرودوت بأنه «لم يجد بين جميع الشعوب التي زارها شعباً أكثر صحة من الليبيين»[3].

رغم ذلك، تقترن الميزات الكبرى التي حبت بها الطبيعة أرياف قورينة ببعض المساوىء الخطيرة رغم كونها، في الحقيقة، عارضة. لقد كانت الحقول والبيوت والحيوانات تتعرض لغزوات سحب من الجراد. لقد سعى القورينيون خلال السنوات الأولى للاستيطان إلى اتقاءانتشار آثار تلك الآفة في إقليم المدن الخمس عن طريق إصدار قانون يأمر السكان بتدمير هذه الحشرة سنوياً وذلك في كافة أطوار حياتها ونموها وإلا تعرض كل مخالف منهم إلى دفع غرامة[4]. لقد أدت تلك الإجراءات الوقائية إلى نتائج حسنة خلال سنوات الاستقلال ولكن إهمالها من طرف «الحكام القضاة» من الرومان أدى إلى عودة أسراب الجراد إلى برقة وعاثت فيها فساداً. لقد ذكر التأريخ أساساً هذه

---

(1) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 186.
(2) نفس المرجع ص 170.
(3) نفس المرجع ص 187.
(4) بلين ـ التأريخ الطبيعي والكتاب الثاني القسم 29.

الاجتياحات المريعة لأسراب الجراد الفتاكة تحت حكم القناصل الرومان بلوتس وهيسبه وفلافيوس Flavius وفلاكوس Flaccus. تأتي هذه الحشرة في أسراب هائلة من دواخل أفريقيا، وتدفعها الرياح نحو البحر المتوسط ثم تدفعها رياح البحر نحو الشاطىء. لقد أحدثت هذه الآفة أضراراً بالغة بل وأدت إلى انتشار وباء راح ضحيته ثمانية آلاف من القورينيين ونفقت[1] جراءه أغلب القطعان. لقد تجددت تلك الغزوات في القرن الخامس الميلادي حيث ظهرت، خلال تلك الفترة العصبية، الزلازل والطاعون ونشبت الحرائق التي دمرت، الواحدة تلو الأخرى، إقليم المدن الخمس[2].

مع ذلك كان يكفي بعض الوقت من الأمن والسلام، وإعادة التوازن لعناصر البيئة المختلفة، حتى يستعيد الريف البرقاوي، في هذه البقعة الجميلة من ليبيا، رونقه وبهاءه. إن شاهدنا على ذلك يتمثل في تلك الصور واللوحات الرائعة ذات الألوان الزاهية التي ذكرها لنا سينوسيوس، مراراً وتكراراً، عند وصفه لهذه البلاد. صحيح أن فيلسوف مثله يؤمن بمبادىء الأبيقورية رغم كونه يلقب بكبير قساوسة المنطقة، وكان مرتبطاً بالأفكار الأفلاطونية، قد يكون قد أضاف لمسات جمالية على وصفة استوحاها، بصورة خاصة، من منظر الحقول الغناء وما تؤدي إليه من أحلام وأخيلة.

لنستمع إلى هذا الفيلسوف وهو يصف شعوره حول برقة. إنه لا يستطيع إلا أن يتفاعل مع منظر هذه الأرياف الخضراء النضرة التي تلونها شمس أفريقيا الساطعة. لا بد وأنه سوف يحتفي بروعة تلك المنطقة على حساب مناطق أجمل منها مثل قبرص أو هميت Hymette أو فينيقية Phynècie «يقصد لبنان» يقول سينوسيوس: «كل إنسان يحتفي بوطنه. لا شيء عندي يساوي حقول إقليم المدن الخمس. إن ما تنتجه تلك الحقول أفضل من منتوجات البلدان الأخرى. هل نتحدث عن النبيذ؟ أين نجد أعذب منه إلا في قورينة؟ هل نتحدث عن العسل؟ إن عسل هميت لا يقارن بعسل قورينة. لا يوجد مكان في العالم يوجد فيه عسل أثخن، وزيت أحلى، وقمح أثقل من قورينة». يضيف سينوسيوس قائلاً: «من يستطيع أن يشاهد هذه الهضاب الخضراء، وهذه الوديان الغناء الأنيقة في قورينة دون مبالاة أو اكتراث؟ من يستطيع أن يصف هذه الملاجىء المنعشة، وهذه المغارات الحلوة

---

(1) Julius, Obsquens, de. Prod. C. 90 - Orose L.V. C. II.

(2) أي خلال فترة التمرد اليهودي الذي أدى إلى تدمير برقة وتقتيل أهلها. انظر في هذا الشأن إصحاح المكابيين.. المترجم.

التي يستطيع المرء أن يحلم بداخلها وهو متّكىء على أريكة من العشب؟ من يستطيع أن ينظر دون إحساس إلى الصباح الرائع في إقليم المدن الخمس، عندما تبدأ الشمس في إيقاظ الأرض، وحمل الأمل إلى قلوب البشر، وإدخال السرور حتى على الدواب، حيث يسمع المرء صهيل الخيل في كل أرجاء المكان، وثغاء الماعز والشياه، وأزيز النحل الساعي إلى الزهور والرحيق، وهو يتنقل بين زهرة وأخرى؟

كلا ليس هناك موسيقى أكثر انسجاماً وأعذب من تلك الصرخات التي تحدثها الطبيعة. كلا لا يمكن أن توجد موسيقى تدخل البهجة على الروح وتشعرها باللذة أكثر من موسيقى الطبيعة».

الفصل الثامن عشر

نبات السلفيوم - بعض النباتات الأخرى في برقة عرفت في العصور الغابرة

لقد قدمت المعلومات الرئيسية التي وصلت إلينا عبر التأريخ القديم عن الريف في برقة، ولم يعد يبقى أمامي سوى الحديث عن بضع نباتات عرفت تاريخياً بفائدتها حيث استخدمت من قبل السكان القدامى، ويأتي نبات السيلفيوم، دون جدال، في مقدمة تلك النباتات. لقد لعب الخيال دوراً كبيراً، وأثر تأثيراً كبيراً على معتقدات العصور الغابرة فهي لم تكتف بإحاطة مهد بعض المشاهير بهذا الخيال العجيب بل ونشرت أيضاً تلك العجائب المتعلقة بأصل هذه الغابة أو تلك، هذه الهضبة أو تلك، بل وهذه النبتة أو تلك، حيث يزيد تصديق الناس لتلك الأمور من نفعها أو جاذبيتها. وهكذا أصبحت نبتة السلفيوم في برقة مشهورة جداً بفضل الخواص التي عرفت بها وعنها، ولا يمكن لها أن تشارك في مكانتها، في هذه المعتقدات الشعبية، أية نبتة أخرى من أعشاب الحقول الأخرى. لذا كان لا بد وأن يختلق لها أصل عفوي بل وتم نسب أصلها إلى معجزة سماوية. لقد تمثلت هذه المعجزة في هطول أمطار من البسلة في فترة حددت في العام الرابع لإنشاء روما أي سبع سنوات قبل إنشاء قرنة[1].

لا يمكننا أن نقر القس بيلي Belley[2] فيما ذهب إليه بشأن تلك الظاهرة وخاصة الحل الذي قدمه، لأننا ندرك أنه فيما يتعلق بهذا الموضوع، كما هو الحال بالنسبة لغيره من

(1) Theoph. De Causa Plant. L.I, C. 5-Pline L.XIX< C.3.

(2) افترض القس بيلي أن بذور نبات السيلفيوم قد حملت من قبل الرياح التي هبت من دواخل إفريقيا نحو برقة فنبتت بها وأدت إلى مولد تلك الرواية Memoires de l'Académie. t. 38 P. 22.

الموضوعات، قد يكون قد استخدم ظاهر الأشياء ثم طوعه حتى يتحول إلى واقع لا سيما وأن أوراق السلفيوم تشق الأرض سنوياً وتبدأ في الظهور مع موسم الأمطار. لا نبرر مثل تلك التفسيرات سوى الأشياء التي وصلت إلينا من العصور التليدة حول نبتة السيلفيوم. ونبتة أخرى عثر عليها في برقة تحمل ذات الخصائص. سوف أقوم إذاً بالسعي إلى عقد هذه المقارنة، وسوف ألجأ أولاً إلى علماء النبات القدامى. عندما قمت بجمع عدة فقرات من مؤلّف ثيوفراست عن تلك النبتة، تبين لي أن جذرها سميك وملتظ وحيوي، وأن ساقها يشبه ساق نبتة الكمون، وأن أوراقها تشبه أوراق نبات Selissum وأن بذورها كبيرة مفلطحة ومجنحة وتشبه بذورها نباتPhyllise تقريباً[1]. أما وصف بلين فيختلف قليلاً حول هذا الموضوع عن وصف عالم النبات الإغريقي لدرجة أنه يبدو قد نحل هذا العالم مع إضافة بعض المعلومات الأخرى[2]. لقد ذكر بلين أن جذور النبات محاطة بقشرة سوداء، وأن النبتة ترتفع أكثر من ذراع عن سطح الأرض، وأن درنة على مستوى سطح الأرض تظهر في ساق النبات، وأن عصارة بيضاء تسيل من تلك الدرنة في حالة خدشها أو شقها. ذكر أيضاً أن بذورها مفلطحة، وأن أوراقها تسقط عنها كل سنة مع بداية رياح «القبلى» حيث تتحول في هذه الفترة، كما ذكر بلين، إلى اللون الذهبي، وهذا تحول يمر به عدد كبير من النباتات، كما نعرف، في فصل الخريف. ينبغي إضافة معلومات أخرى إلى تلك المعلومات وهي لا تقل أهمية عنها، بل وتساعدنا على تفسيرها. تتمثل تلك المعلومات في البيانات التي حصلنا عليها من ميداليات قرنة. يوجد على الكثير من تلك «الميداليات» نقش لرأس جوبتير أو آمون، أو باطوس على أحد الوجوه، ونبتة السيلفيوم على الوجه الآخر. يدرك المرء من النظرة الأولى أن تلك النبتة تنتمي إلى فصيلة الخيميات Ombellifère وتتميز بتقابل وانفصال أوراقها، ويدل الكساء السميك الذي يحيط بها، وخاصة عند بداية الجذر Pèdoncules، والشكل العنقودي للزهرة وخاصة الشكل العام L'ombelle الذي يعلو الساق، على أن تلك النبتة من الفصيلة التي وصفها، بطبيعة الحال ثيوفراست، وذلك قبل بلوغ مرحلة التزهير والنضج الكامل. أستطيع أن أضيف بأن ما «يشبه القاعدة» الذي يحمل الساق ويبدو وكأنه درنة مثلما ذكر بلين، وأن تلك الدرنة ليست سوى عقدة ساقية ضخمة دون شك. تلك هي النبتة في حد ذاتها. دعونا ننظر الآن إلى موطنها. ينمو نبات السيلفيوم، وفقاً لما ذكره ثيوفراست، حول رياض الإله أو هيسبيريدس «أي بنغازي»، ذلك

(1) ثيو فراست ـ تاريخ النبات. الكتاب السادس الفصل الثالث.
(2) بلين ← .Pline. 1. XIX. C. 3

بصورة عامة أما سيلاكس وهيرودوت فيحددان مواطنه في أماكن متفرقة على ساحل إقليم المدن الخمس بداية من جزيرة بلاتيا حتى بداية خليج سرت[1] «أي اجدابيه . . المترجم» .

يحدد كاتول Catulle موطن النبتة قرب مدينة قرنة[2]. رغم ذلك، نرى أن الكثير من المؤلفين مثل آريان، وبلين، يضعون النبتة على حدود الأراضي الخصبة[3] وأن غيرهما، مثل سترابو، وبطليموس، يحدد موقعها في الأجزاء الوسطى في جنوب برقة[4]. عثر بعض العلماء على طريقة بسيطة جداً من أجل التوفيق بين هذه الآراء المختلفة والمتناقضة لهؤلاء المؤلفين، وتتمثل في ضم الأجزاء الجنوبية لبرقة بما في ذلك إقليم سيوة، إلى برقة. اعتقد هؤلاء العلماء، انطلاقاً من هذا المبدأ، أنهم قد اقتربوا من الحقيقة، عندما افترضوا أن نبات السيلفيوم ينمو في جميع أرجاء برقة، ولذا تم تحديد موطنه بعدة طرق إما في الشمال أو في الجنوب. ومن هنا أيضاً وجدوا التبرير للاسم القديم لبرقة «برقة السيلفيوم» أو «ليبية السيلفيوم» حيث ترددت هذه التسمية لدى المؤلفين القدامى. لكن لا يمكن لهذه التسمية للأسف الشديد، أن تتمشى مع طبيعة التربة المختلفة. هيهات أن يكون الأمر كما قالوا في المناطق الشمالية أو المناطق الجنوبية لبرقة. يستحيل على المناطق الجنوبية لبرقة. يستحيل على المناطق الجنوبية لبرقة والتي تتكون من الرمال والأرض السبخية وقد أنبتت في عصر ما، نبتة يتوفر فيها أدنى شبه مع نبتة السيلفيوم مثلما وصفت من قبل القدامى، ومثلما ظهرت على المعالم الأثرية.

هكذا، وبعد أن تخليت أنا شخصياً عن إيجاد مبرر لهذا التناقض في الآراء، حيث يبدو لي بأنه غير قابل للتبرير، اقتصرت على عقد مقارنة بين ملاحظاتي الشخصية وملاحظات المؤلفين التي تتطابق مع جيولوجية هذه المنطقة التي تجمع لصالحها بين أمرين، القدم الزمني بالنسبة للفترة التي عاشوا وكتبوا فيها، وكفاءة الرواية في مثل هاتيك الموضوعات.

يعثر المرء على نبتة السيلفيوم بداية من القمم الجبلية المطلة على بلدة كرسونيز «رأس التين . . المترجم» البرقاوية حتى الساحل الشرقي لخليج سرت. وتقع هذه المنطقة ضمن

---

(1) سيلاكس ـ طبعة غرونوف. ص 108 هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 169.

(2) Laserpiciferis Jacet. Cyrenis. ode. à Lesbie. V.4.

(3) Arrien, de Exped. alexand. L.III, C.28 Pline L.V.C.5.

(4) Strabon. L.II.C.5. L. VIII C.3- Ptolèmèe. L.4.C.4.

الحدود التي أكدها كل من سيلاكس وهيرودوت لوجود نبات السيلفيوم. ويقتصر وجودها على الجزء الشمالي فقط على مسافة لا يتعدى عرضها ثمانية أو عشرة فراسخ. توجد في هذه المنطقة فعلاً «نبتة خيمية» كبيرة يسميها البدو «درياس» وهذه سماتها الرئيسية: نبات وتدي الجدر وهو مكتنز وطويل يميل إلى البني. أما الساق فهي مخططة ويتراوح ارتفاعها بين اثنين وثلاثة أقدام، ويوجد عليها عقدة حلقية سميكة يخرج منها، في حالة قطعها، سائل لبني أبيض يشبه السائل الذي يخرج من نبات «اللبينة» Euphorbes أما الأوراق التي تنمو حول الجذور فهي كثيرة ولمّاعة وتنمو فوق بعضها البعض بشكل متراص، أما البراعم الإبطية فتحتوي على فصوص طولية، وتشكل البذور النهاية لكل برعم، وهي بيضاوية ومضغوطة أو مفلطحة وكأنها ورقة. يغطي هذه البذور غشاء شفاف يميل لونه إلى اللون الفضي. تنمو الزهرة في الصيف ولم أرها شخصياً، غير أنها وفقاً للمعلومات المختلفة التي تحصلت عليها، صفراء اللون ومتفتحة جداً.

أعتقد أننا نتفق على أن تلك النبتة تنتمي إلى فصيلة Ferula و Laserpitium أنها تنتمي إلى الفصيلة الأولى من حيث الارتفاع الكبير للسوق، والشكل البيضاوي للبذور، وإلى الفصيلة الثانية من حيث الأغشية البذرية والتفتح الكبير للزهرة.

لقد سمحت لي هذه الصفات بوضع النبتة في فصيلة Laserpitium ولكن لم أتمكن من العثور على هذه الفصيلة فقررت أن أطلق على النبات الذي وصفته اسم .Laserpitium-derias

هل يمكنني الآن يا ترى أن أستمر في الإلحاح والتأكيد على وجود شبه من حيث المظهر الخارجي، بين نبتتي هذه التحليلات والأوصاف لكي نقتنع بوجود هذا التشابه. دعونا نذهب الآن إلى أوجه أخرى لهذا التشابه وهي أوجه أقل وضوحاً من سابقتها لأنها تتأتى من الخصائص الذاتية لهذه النبتة.

أكد لي علماء النبات المذكورون آنفاً أن نبات السيليفيوم يخدر الأغنام، ويكثر عطس الماعز وأنه يقتل بصورة عامة، كافة الحيوانات بشكل مفاجىء، رغم أنه يستخدم أحياناً كمسهل لها، ويجعل لحوم الحيوانات ألذ وأشهر من ذي قبل. أن نبتتي هذه لا تزال تحتفظ بتلك الخصائص مع ملاحظة أنها لا تخدر سوى الأغنام الدخيلة على برقة.

كنت قد ذكرت بأنني قد أخذت بعض التحوطات عند وصول قافلتي إلى مرتفعات

برقة حيث نصحني البدو بمنع الإبل من أكل نبات «الدرياس» الذي بدأ ينمو وينتشر، في تلك الفترة، في المنطقة.

لقد كانت تلك التحوطات ضرورية جداً ولا سيما وأن جمالي مصرية وقد أنهكها المسير، ولأنني أعرف أن الأضعف دائماً هو الذي يقع أولاً فريسة لهذه النبة. لقد أخبرنا الرحالة ديلا شيلا أن إبل الباي التي كانت تحمل أمتعة ومعدات الجيش قد وقعت ضحية لنبتة خيمية سامة تنمو في جبال ومرتفعات برقة، وأن عدد الإبل التي نفقت كان كبيراً جداً بل وأن الجيش كاد يفقدها جميعاً، غير أن الباي[1] قد تمكن، بفضل نصائح طبيبه الماهر، من إنقاذ جزء منها، عن طريق نقلها إلى مراعي خالية من تلك النبتة اللعينة.

يبدو أن قدرتها على إحداث الإسهال كبيرة جداً عندما تكون النبتة جافة حيث تكفي بضعة أغصان منها في العلف الذي يقدم للحيوانات لقتل أقوى بعير دخيل على برقة، أو مولود تحت سماء غير سماء برقة. إن هذا الشبه في الخصائص مذهل وعلينا أن نعترف بأن هذه الخاصية الوحيدة التي شاهدناها والتي تشترك فيها هذه النبة مع نبتة السيليفيوم.

إن أنفس الخصائص التي يتم الحصول عليها بفضل الصنعة، هي تلك الخاصية التي تعتبر الآن نائمة في سبات مع النبتة نفسها، وهي الحصول على العصارة اللبنية من الساق والجذر حيث كانت تجني هذه المادة عن طريق خدش الساق تسمى Thysias. أما المادة التي يتم الحصول عليها من الجذر فكانت تسمى Caulias.

لقد أطلق بعض المؤلفين على هذا اللبن، بغض النظر عن مصادره، الساق أو الجذر، اسم «دموع برقة». يبدو أنه من المؤكد بأن عصارة الجذر كانت أفضل من عصارة السابق لأنها قابلة للتخزين لمدة أطول. كان القورينيون، من أجل الاحتفاظ بها ومنعها من الفساد، يضيفون إليها شيئاً من الدقيق، وكانوا يعزون هذه الطريقة إلى Auistè وهو الذي أذاع ونشر الفنون الزراعية حيث ذكرت الأسطورة أنه كان أحد أجدادهم القدامى[2]. يدرك الإنسان، مع ذلك، أنه عندما يمس جذر أي نبتة، فإنه يجازف بتدميرها، ولذا صدر قانون ينظم أسلوب شق النبات ويحدد مدة جني العصارة، ومقدار الكمية التي تستحلب من النبتة حتى

---

(1) يقصد المؤلف محمد باي الباش يوسف القرمالي الذي كان على رأس حملة لتأديب سكان برقة (بنغازي ودرنة) الذين ناصروا أحمد باشا القرمالي في تمرده ضد باشا طرابلس سنة 1817. انظر كتاب ديلا شيلا في هذا الشأن. . . المترجم.

(2) ثريج ـ تاريخ برقة ص 244.

لا يتم قتلها. تعتبر تلك العصارة، إذا صدقنا بلين، ترياقا عاماً لشفاء كافة الأمراض، ولتطهير المياه الآسنة والأجواء الملوثة[1].

«رغم أن تلك الخصائص قد تكون مكتنفة بالمغالاة، فإن هذه المغالاة نفسها هي التي تفسر شهرة السيلفيوم وفائدته العظمى في القدم لدرجة أن الأثرياء كانوا يضعون هذا النبات في خزائن أموالهم جنباً إلى جنب مع الذهب والفضة. . . . المترجم[2]».

لم يقم القورينيون بتكريس هذه النبتة لملوكهم فحسب، بل قاموا، كما أشرت إلى ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب، بنقشها على الميداليات، بل وصار اسمها «مثلاً دارجاً على كل الألسن» يرمز إلى الثراء والغنى.

لقد كانت هذه النبتة السلعة التجارية الرئيسية لقرنة وخاصة في مبادلاتها مع قرطاجة وأثينا حيث كان غصن واحد منها يعتبر من أثمن الهدايا وأنفسها وخليقاً بالحاكم أو الآلهة. يمكننا أن نستشهد بأدلة أخرى ومنها ما ذكره العلامة ثريج بشأن شهادة هيرميب Hermippe في قصة آثينيه Athenée حيث أكد بأن «نبتة السيلفيوم أنفس السلع القورينية».

كما أكدت أيضاً إحدى شخصيات مسرحية أرسطوفان بأنها: «لن تغير نمط حياتها ولو قدمت لها نبتة سيلفيوم باطوس» أما الأمبليوط من الليبيين Ampéliotes فقد أرسلوا غصناً من نبات السيلفيوم إلى معبد دلف، وغصناً آخر كهدية للأمبراطور نيرون[3]. يمكننا أخيراً أن نحكم على قيمة تلك النبتة من المكانة التي يمنحها الرومان لها، ومن قيمتها التجارية الكبيرة حيث وضع هذه النبات في الخزانة العامة لروما، وأن يوليوس قيصر قد جنى من ورائها، في بداية الحرب الأهلية، ألف وخمسمائة مارك من الفضة. لذا لا نشعر بأية دهشة إذا عرفنا بأن القدامى كانوا يطلقون عليه اسم «كنز الإفريقيين». بصرف النظر عن الملاحظة الموضوعية التي أدلى بها ثيوفراست، فإن هذه الفقرات التاريخية تؤكد، رغم وجود نبات بنفس التسمية في مناطق أخرى مثل سوريا وآراخ Arach وأرمينيا وميديا وجبل برناس، والجبال التي تفصل بين الهند وبلاد فارس، بأن نبات السيلفيوم القوريني يمتاز بخصائص أرقى من مثيله في المناطق المذكورة، وهي خصائص استمدها هذا النبات من

---

(1) بلين ـ الكتاب الأول. والثاني عشر. الفصل 23.

(2) انظر إلى بحثنا باللغة الفرنسية بجامعة السربون حول العلاقات الليبية الإغريقية الغابرة.

(3) يرى ثريج أن هؤلاء الأمبليوط الليبيين الذين لم يذكرهم أحد، حسب علمي، من المؤلفين القدامى سوى أرسطوفان، يسكنون أحد مدن الساحل في برقة ـ انظر كتاب تاريخ برقة ص 242.

مناخ ليبيا حتى وإن كانت النباتات الأخرى تماثله تماماً. إنني لا أستطيع أن أؤكد هذا الأمر أو أن أنفيه. يبدو أيضاً أن الشبه بين نباتنا هذا في قورينة والنباتات الأخرى في المناطق المذكورة أعلاه قد تمثل في استخدامه في الطعام حيث ينتظر سكان قورينه سقوط الأوراق ثم يأكلون الساق بعد شيِّها[1].

ولقد اقتبس الإغريق هذا التقليد من السكان المحليين[2].

نحن نعرف أيضاً أن جيوش الاسكندر المقدوني التي عانت من القحط في منطقة باكتريان Bactriane قد عاشت على هذا النبات المتوفر بكثرة في تلك المنطقة[3].

لم يعد يبقى أمامي سوى قول كلمة أخيرة حول الاندثار التدريجي لهذه النبتة النامية في جبال برقة. لقد أدى ذلك الاختفاء إلى إجراء العديد من الدراسات والبحوث من قبل جمهرة من العلماء دون التوصل إلى حل مرضي يبرر هذا الاندثار التدريجي.

عندما نتتبع الروايات القديمة حول هذا الموضوع، فأننا نرى أن عملية الجني كانت تتم بعناية، وبأن النبات كان ينمو بكثرة في برقة عندما كانت دولة مستقلة ذاتياً. لكن النبات قد بدأ يتناقص عندما أصبحت المقاطعة رومانية لقد ذكر بلوت Plaute، في الحقيقة، الذي عاش قرناً من الزمان، قبل هذا الحديث إن الناس كانوا يجنون في عصره نبات السيلفيوم الذي ينمو بوفرة[4].

لكن نبات السيلفيوم بدأ يندر في عهد سترابو[5] وانقرض نهائياً في عصر بلين[6]، ولم تعد توجد فيه إلا نبتة واحدة في حديقة، في القرن الخامس الميلادي، لمشاهدتها على أساس أنها من النباتات النادرة وذلك في عهد سينوسيوس القوريني[7] رغم ذلك، يشاهد المرء هذه النبتة غالباً في جبال برقة.

إن التاريخ يقدم لنا، إن لم أكن على خطأ، براهين كافية لتفسير هذه التناقضات. يعزو سترابو مثلاً ندرة النبات في عصره إلى غزوات الهمج «يقصد السكان المحليين..

---

(1) بلين ـ الكتاب 19 الفصل الثالث.
(2) سولين .Solin. Polyhist. C. 14.
(3) Aelian. Varior. Hist. L.XII. 37
(4) Plaute. Ruclens. act. III Sc. 2. V. 15.16.
(5) سترابو ـ الكتاب 17 الفصل 3.
(6) بلين ـ 1 - 18 ـ الفصل 3.
(7) سينوسيوس ـ الرسالة ـ 106.

المترجم» الذين حاولوا اجتثاث النبتة من جذورها. يؤكد سولين، علاوة على تكرير هذه الواقعة، مساهمة القورينيين في تدمير النبات وذلك للتملص من دفع الضرائب الباهظة التي فرضت عليه. أما بلين الذي ذكر أن النبات لا يزال ينمو في المناطق البرية وغير المزروعة، فيعزو أسباب انقراضه إلى خصائصه القاتلة بالنسبة لقطعان الحيوانات.

إذا تذكر القارىء الآن ما سبق وإن ذكرته عن النتائج الضارة لهذه النبتة على الحيوانات الدخيلة على برقة وخاصة على الإبل، فلا يمكننا أن نستغرب إذا ما قام الليبيون الذين يستخدمون الإبل في عصر سينوسيوس باجتثاث هذه النبتة من أجل غزو المدن في إقليم المدن الخمس، لأن تلك النبتة تؤدي إلى نفوق مطاياهم بصورة أكبر مما يحققونه من السلب والغنائم. إذا أضفنا إلى ذلك السبب الرئيسي، تبذير حكام الرومان الذين اهتموا أساساً بهذا النبات.

وإذا تذكر القارىء أيضاً طريقة استحلاب النبات لأخذ عصارته، وهي الطريقة التي تؤدي إلى قتله لدرجة أن الدولة المستقلة في برقة قد أصدرت قانوناً ينظم تلك العملية، فإننا لن نشعر بالدهشة أيضاً وبالتأكيد إذا أضفنا تلك الأسباب إلى بعضها البعض، الأمر الذي قصر وجود نبات السيلفيوم الآن على الأجزاء الشمالية فقط من إقليم المدن الخمس، وتعرض هذا النبات إلى العديد من المساوىء والمصالح المتناقضة حتى انتهى به الأمر رويداً إلى الانقراض لدرجة أنه تم الاحتفاظ بشتلة واحدة منه في حديقة على أساس أنها نبتة نادرة.

إن وجود هذا النبات اليوم بغزارة يعود إلى سبب أوضح كثيراً. إن الطبيعة التي تتعرض لمعاكسة الإنسان تتنازل أمامه لفترة ما، حالما تبدأ جهود الإنسان في الفترة، تسترد الطبيعة حقوقها بسرعة. لقد اجتث الليبيون والأجانب السيلفيوم، ولقد دمرته أيدي الفلاحين التعساء بسبب الضرائب الفاحشة، لكن بعد اندثار الليبيين في هذه الجبال، بدأت هذه النبتة المحلية في التكاثر في برقة. لقد كان يكفي وجود نبتة واحدة أو اثنتين لإنجاز هذه الأعجوبة حيث تقوم الرياح بنثر البذور المجنحة في القفار. لقد ظهر سيلفيوم باطوس من جديد في جميع أنحاء موطنه. هذا ما شاهدته بأم عيني حيث تغطي هذه النبتة، في يومنا هذا، جبال ليبيا، غير أن شهرتها لم تمتد إلى الأمم البعيدة، ولم يعد المرء يغلق عليها الخزائن العامة، ولم تعد تقدم للملوك والآلهة. يا له من انقلاب عجيب في الحال والأحوال!!.

بعد مرور العديد من القرون على أرض برقة، وبعد أن صنعت أنفس عطايا الطبيعة رجالاً فيها، قاموا بتدميرها ثم اندثروا فظهر النبات من جديد بنفس النضارة والقوة كما لو كان نفس نبات العصور الخالية.

إن نبات السيلفيوم اليوم يرمي على جمر متوهج ويستخدم كطعام لبعض الرعاة الكسالى. لقد كان هذا الاستخدام هو الاستخدام الوحيد لدى قبيلة Asbytes قبل وصول الإغريق إلى ليبيا.

ساهمت نباتات برقة الأخرى رغم قلة شهرتها، مع ذلك. في تجديد حقول برقة. إن أشجار Tyhon التي كان الرومان يطلقون عليها اسم Citrus، استخدمت من قبل القدامى في عدة أغراض وذلك بسبب عدم تسوسها بسرعة وبفضل رائحتها الزكية التي تنشرها حولها.

لقد استخدم الجذع، كما قلت ذلك من قبل، في بناء المعابد حيث لا شيء أفضل من تلك الجذوع، فقد كانت تشكل بأسلوب جميل وحيث كان من اليسير تطويع هذه الأشكال. لقد كانت موائد النبيذ الفارهة التي تكرس لأعياد باكوس تصنع منه. لقد أكد علماء الاشتقاق أنه كان لاسم Thyrade الذي أطلق عليه في عهد الاحتفال بأعياد باكوس، صلة بأشجار Thyon حيث لاحظ بلين وجود هذا الشبه.

تعود شهرة أشجار Thyon أيضاً إلى أمير الشعراء حيث يتذكر الجميع أن هوميروس قد وضعه بين الأخشاب العطرة التي كان سرسيه Circè تبخر بها كهفها. لقد كانت تلك النباتات في جبال برقة، دون شك، وذلك وفقاً لما ذكره ثيوفراست[1].

لا يوجد بين أشجار برقة حالياً أي شجرة، كما قال ديلا شيلا، يمكنها أن تشابه شجرة Tyhon في ارتفاعها وضخامة جذعها، وشذاها الذي ينبعث من خشبها، وجمال ساقها، سوى شجرة العرعر الفينيقي «الشعره».

---

(1) ثيوفراست ـ تاريخ النبات ـ الكتاب الأول ـ 16 والكتاب الخامس الفصل الخامس.
أضاف هذا العالم الطبيعي أن تلك الشجرة تنمو قرب واحة آمون ولقد اعتمد كل المترجمين هذه الترجمة غير أنه يبدو لي أن هناك خطأ إما في النص الإغريقي أو في الروايات التي أدت إليه نظراً لأن تربة واحة أمون (سيوة) وتربة المناطق المحيطة بها لا تصلح لا لأشجار النخيل والتمر الهندي أو السدر Tamarix حيث تغطي تلك الأشجار هذه المنطقة، ولا يبدو لي أن هذه الأرض، كانت قادرة، في أي عصر من العصور، على إثبات شجرة زكية الرائحة وخاصة الأشجار المخروطية مثل شجرة Thyon حتى لو افترضنا بأنها ليست أشجار العرعر الفينيقي.

يمكننا أيضاً أن نلاحظ، وفقاً لهذا التماثل ولملاحظات سبق وأن أبديتها في مكان آخر، أن هوميروس قد جمع بين أشجار الأرز Cèdres وأشجار Melèses وأشجار Thyons في بيت شعري واحد. إن هذا الجمع بين تلك الأنواع من الأشجار يدل على أن أشجار Thyons من الأشجار المخروطية التي تحمل بذورها في مخروطات.

إذا تجول الإنسان، في فصل الربيع، في غابات أشجار Thyons التي تمتد بين قمم الجبال والوديان الساحلية، فإن المرء يرى تحت هذه الأشجار نبتة زهرية من فصيلة النرجسيات Lilacèe كانت تلك النبتة قد اشتهرت هي الأخرى بمنافعها وفائدتها في التاريخ الزراعي لبرقة. إن تلك النبتة هي نبتة الزعفران Safran. رغم انتشار هذه النبتة بكثرة في بلدان أخرى، ورغم ميل لونها في برقة إلى السواد[1] وهذا ما تؤكده حالياً حبوب اللفاح المتواجدة في طلعها، فإن أغلب المؤلفين قد اتفقوا على بهاء وجمال نبتة الزعفران البرقاوية[2]. إن تعدد استخدامات هذه النبتة يبرر شهرتها التي طمست قليلاً في عصرنا هذا. لم يقتصر استخدام النبتة في خلطها بالأطعمة، كما نفعل الآن، ولكنها استخدمت أيضاً في التداوي، وفي الصباغة، وفي العطور، وكانت يضاف إليها الزيت فتتحول إلى مادة مرغوبة جداً من قبل الإغريق والرومان[3]. لكن لا يمكن مقارنة تلك المادة «بروح الورد» التي كانت تحضر في برقة والتي أشاد التاريخ القديم بقيمتها، والتي نسبت عند اكتمالها وتمامها إلى برنيقا Bérénice نجلة الملك ماجاس Magas.

بصرف النظر عن استخداماتها في أغراض واقعية الفائدة، فإن «روح الورد» هذه كانت تستخدم في تطهير الجروح، ومنع تعفن وتحلل الجثث. كانت تستخدم أيضا كمادة حافظة يطلى بها الأثاث الثمين بغية صيانته من عوامل التعرية. لذا لا يمكننا أن نستغرب قيام سكان قورينة بصنع هذه المادة بعناية فائقة لأنها كانت تستخدم أيضاً في تعطير الشعور والملابس وكل الأشياء الفاخرة[4]. إذا كانت شهادتي هذه مفيدة في هذا الصدد، فإنني أود أن أضيف بأن تلك الورود النضرة الجميلة التي أشاد بها التاريخ العتيق، رغم عدم قيمتها بالنسبة للبدو، لا تزال تزين بنضارتها وديان المنطقة.

---

(1) بلين ـ الكتاب 21 ـ الفصل 6.

(2) إنني أعرف نبتة مشابهة جداً غير أن لونها يميل إلى الاخضرار يطلق عليها بدو برقة اسم «الفرعون». المترجم.

(3) ثريج ـ تاريخ قورينه الصفحات 251 - 252 - 253

(4) المرجع السابق. ص 254 رقم 35.

لقد شاهدت من هذه الورود نوعين على الأقل. أحدهما يتكوّن من شجيرات ذات تويجات بيضاء تبدو مماثلة في صفاتها ومميزاتها لتلك التي يطلق عليها علماء النبات اسم «ورود سيلفيستريس Silvestris» أما النوع الثاني فهو Spinosissima ولا يمكنني أن أتجرأ على التأكيد بأن تلك الورود التي تنمو الآن بريا مع نباتات أخرى، هي ذاتها تلك الورود التي غرست في الحدائق العامة والتي تنشر الأريج الذي وصفته في كل مكان. يذكر المؤلفون القدامى أيضاً نوعين آخرين من النباتات الليبية الشهيرة وهما Sphagnos و Bryon أو Misy. وصف القدامى النبات الأول على أساس أنه أشنة عتيقة تتدلى على أغصان الأشجار. يصعب عليَّ الآن أن أُحددهما بشكل أكيد نظراً لعدم وجود أي نبتة مماثلة، رغم وجود الكثير من النباتات الزاحفة والمتسلقة Cryptogame في غابات برقة التي تمتلك أريجاً جديراً بالملاحظة.

من المؤكد أن يجد الإنسان، في المناطق الرملية من أرض الساحل الليبي ضرباً من ضروب الكمأة «الترفاس... المترجم» بيضاء اللون حيث أكد لي البدو وجود هذه الدرنة بشكل كبير على سواحل خليج سرت. إنني أكرر هنا ما سمعته فقط، ولا يمكنني بالتالي، أن أقدم أي شيء إيجابي حول هذا الموضوع.

الفصل التاسع عشر

العلاقات التجارية لسكان قورينة

بعد أن تحدثنا عن الحالة الطبيعية لبرقة وذلك بإيجاز، سواء أكان ذلك عن طريق ملاحظاتي الشخصية على عين المكان، أو بفضل الرجوع إلى الوثائق التاريخية القديمة، من الملائم الآن أن نلقي نظرة على سكان قورينه الذين جاءوا من بلاد الإغريق لإدخال الحضارة إلى هذا الإقليم من أفريقيا. يبدو أن أقدم العصور القديمة لم تشهد ملاحة قوية بسبب عدم تجرؤ البحارة على قطع مسافات بحرية كبيرة. لقد كانت تلك الملاحة نشطة جداً ولكنها كانت تتم بمحاذاة السواحل، وأدت إلى وجود الكثير من القراصنة الذين كانوا يجوبون السواحل.

هذا ما يؤكده موقع المدن في تلك العصور الغابرة حيث كانت تبعد عن الساحل قليلاً لكي لا أخرج من صميم موضوعي، فإن ذلك هو ما يمكنني أن أؤكده نسبياً بشأن موقع قرنة. وفقاً للإشادة التي ذكرها إيزوقراط Isocrate عن سكان قرنة، وعن الحيطة التي تحلّوا بها عند تشييد مدينتهم في موقع يجعلها خارج مدى ونطاق غزو الأعداء[1].

تبرر ذات الملاحظة أيضاً نفس الموقع الوسطي بالنسبة لبارقي ونوستاثموس، وأفروديس Aphrodisias حيث تقع كل منها على قمة جبل قبالة الموانىء الطبيعية التي شكلتها الشواطىء بالقرب منها. هناك مدن أخرى قد شيدت، في الواقع، على الساحل مباشرة، غير أن تلك المدن كانت قد شيدت جميعها بعد قرنة وقد أحيطت بأسوار وتحصينات[2]. إن اتساع رقعة السهل الذي يفصل بين أفضل ميناء في برقة والمناطق

---

(1) Isocrate, in Orat. ad. Philipp.

(2) نحن لا نتفق مع المؤلف فيما ذهب إليه حيث سبق وأن أشرت إلى أن درنة مثلاً كانت أقدم من قرنة=

الجبلية قد أدى إلى تأسيس مدينة برنيقة «بنغازي». أما فيما يتعلق بـ«ابولونيا» وبطليموسه «سوسه وطلمثيه» اللتين كانتا، في أول الأمر، مجرد مينائين، فلم تصيرا مدينتين إلا بفضل ازدياد وتنامي حجم التجارة بالنسبة للأولى، وتغير الأسرة الحاكمة بالنسبة للثانية. . لم تصبحا من كبريات المدن الليبية في إقليم المدن الخمس إلاَّ عندما تم التمكن من صد هجمات القراصنة الذين كانوا بمثابة وباء استفحل على السواحل.

تحملني تلك الفكرة على التأكيد، بطبيعة الحال، على أن القورينيين، خلال الفترتين التاليتين لعظمة مستوطنتهم قرنة، عندما كان يحكمهم ملوك منهم، وعندما حكموا أنفسهم بأنفسهم في إطار الجمهورية البرقاوية، لم يشعروا بالقلق من جيرانهم من السكان المحليين. لقد تمكنوا، على العكس، من دحرهم نحو الجنوب ولكن بعدما سقطت هذه المدن تحت الاحتلال الروماني، وخضعت لسلطة روما، لم تعد تلك المدن، بسبب إهمال ـ القضاة الحكام من الرمان Préteurs أو بسبب الضعف العام الناجم عن فقدان الحرية، تخشى أي هجوم بحري، ولكنها كانت مضطرة إلى السعي إلى المحافظة على وجودها في المنطقة نفسها التي انتصرت فيها وسادتها في السابق. لقد كان على الحضارة أن تنطوي على نفسها وتحيط نفسها بالقلاع والحصون للدفاع عن نفسها.

لقد تحول الليبيون الذين تم تجريدهم أول الأمر إلى مغتصبين يهاجمون القورينيين في عقر دارهم، فحرّقوا الحقول، ونهبوا الغلال والقطعان، ثم انتهى بهم المطاف إلى إلحاق الإهانة بمن اغتصب أرض آبائهم وأجدادهم لدرجة أن القورينيين كانوا يفزعون ويهربون عند اقتراب الليبيين من المدن وكأنهم قطعان من الغنم. كان القورينيون التعساء يهربون إلى الكنائس الحصينة ولا يواجهون تلك الهجمات بأي سلاح سوى سلاح الدموع والتضرع.

وبغض النظر عن تقديم البراهين التي تدل على هاتين المرحلتين من العظمة والانحطاط عند القورينيين، من القوة والضعف، فإن الآثار نفسها تقدم أدلة لا يمكن رفضها. إن كافة القلاع والقصور الواقعة في دواخل برقة تحمل الطابع الروماني دون أي استثناء. إن القلعتين الوحيدتين اللتين سبقتا هذه الفترة هما قصر المشيدي وقصر لمليز Lemlez اللذان يشرفان على خليج نوستاثموس. لقد تم تشييد هذين القصرين، دون شك،

= والدليل نزول الإغريق بالقرب منها وحيلة سكانها لنقلهم ليلاً إلى قرنة وهي، كما يعرف الجميع مشيدة على البحر مباشرة. . المترجم.

من أجل الدفاع عن هذا الجزء من الساحل ضد الغزوات البحرية. إن القورينيين لم يحتفظوا بنمط منشأهم الأول إلا خلال المرحلتين الأوليين من إقامة مستوطنة ثيرا، وقدموا لنا تنظيماً سياسياً ذا طابع عظيم يرتسم أمامنا الآن «يقصد من خلال هذه الآثار»، في شكل مهيب يعود إلى العصور الخالية التي يمكننا أن نتصورها بخيالنا الآن أكثر من مشاهدتها على الواقع.

ومهما تكن عملية دراسة هاتين المرحلتين اللامعتين، عن طريق إجراء مقارنات تأريخية، هامة وخاصة رؤية تلك الشجرة التي أحضرت من بلاد الآتيك Attique أي الإغريق، وهي تغرس في ليبيا، وتنمو وتترعرع وتغطيها الأزاهير والفواكه، فإن خطة هذا الكتاب لا تسمح لي بالإسهاب، الآن، في هذا الموضوع. سوف أكتفي بالتالي، وفقاً لهذه الإشارات المحلية، بتقديم فكرة موجزة عن العلاقات التجارية لسكان قورينة، وهكذا فإنني أحترم، كما كان الحال دائماً هكذا وحتى الآن، موضوع وعنوان هذا الكتاب، ولن أتجاوز، دون مناسبة، حدود هذه الرحلة.

يدل موقع قرنة على البحر المتوسط على أن الزراعة كانت حرفة السكان الأولى، ولم يتمكن السكان من بيع سلعهم إلى الخارج أو مقايضتها ببضاعة فارهة أخرى إلا بعد أن بدأت الأرض تدر عليهم انتاجها الوفير. لم يأت هذا النمو والازدهار الاجتماعي بالنسبة لمستوطنة ثيرا إلا في فترة متأخرة. لقد مر نصف قرن على إنشاء قرنة قبل أن تصبح ثرواتها كثيرة ووفيرة.

هذا ما يمكن للمرء أن يستنتجه من السخط الذي ساور فاتح مصر قمبيز الذي اشتكى شح سكان قورينة في تقديم الهدايا التي وصلت إلى خمسمائة مثقال Mines من الفضة، بينما تقبل، بطيب خاطر، هدايا أقل منها بكثير، من الشعوب المجاورة[1].

بدأت ثروات القورينيـين، بعد مضي قرنين على هذه افترة، في النمو السريع لدرجة أن أفقر قوريني كان يمتلك العديد من الخواتم التي تبلغ قيمة الواحد منها عشرة مثاقيل Mines وكانت مصنوعة بدقة تثير الإعجاب[2].

---

(1) هيرودوت ـ الكتاب الثالث والفصل 13.

(2) Eupole., dans Elien, L. XII, 30.

لقد ترجمت عبارة Mine بكلمة مثقال وذلك لتقريبها من العبقرية العربية غير أن هذا الوزن الإغريقي القديم يساوي في الحقيقة نصف Setier وهذا الأخير يساوي نحو ربع لتر.. المترجم.

يمكن أن يساورنا الشك في حصول سكان قورينة على المواد النفيسة كالذهب والفضة والأحجار الكريمة من دواخل أفريقيا، غير أنهم كانوا يصنعون الحلى والعملات التي تضاهي جودة صياغتها أو سكها صناعة الحلى. هذا ما تدل عليه المعالم الأثرية التي وصلت إلينا.

إن موقع واحة آمون وأوجلة يجعل منهما محطتين تجاريتين ملائمتين. إن العلاقة التي قامت بين قرنة والواحة الأولى لا يمكن نفيها بل ويبدو أنها كانت قائمة في جميع العصور. إن الأعمدة الرخامية النذرية التي تزدان بالدلافين والتي يمكن للمرء أن يشاهدها على الطريق المؤدية لسيوه، وكذلك التشابه المعماري الذي يلمسه المرء في معالم البلدتين، زد على ذلك، رحلة القورينيين إليها لمقابلة الإسكندر المقدوني وخدمته كأدلة أو مرشدين له في زياراته «لمعبد الرب الليبي»، تدل جميعها على أن العلاقات بين البلدتين كانت قائمة حتى قبل مقدم البطل المقدوني حيث يبدو أن القورينيين كانوا أسياد تلك الواحة في ذلك العصر. نحن نعرف أن البطالمة قد أعلنوا، بعد ذلك، تبعية هذه الواحة لهم بصفتها محمية بطلمية. كما أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الليبية إبان الحكم الروماني، وكانت لاتزال تابعة لليبيا خلال حكم الإمبراطور جوستنيان. إن مساحة الواحة، وعذوبة مياهها الفوارة، وخصوبة أرضها، وكذلك، موقعها التجاري الممتاز في قلب ليبيا، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، تفسر الاهتمام المستمر الذي أولته لها كافة الشعوب المتحضرة التي احتلت الساحل. قد يكون الحال كذلك إذا عادت الحضارة من جديد إلى الأقاليم التي هجرتها منذ زمن بعيد[1]. أما فيما يتعلق بواحة أوجله التي حرمت من أغلب المزايا التي تمتعت بها الواحة الأولى، فإنها لم تكن في جميع العصور سوى محطة للقوافل. نظراً لأن موقعها أقرب إلى قرنة من واحة آمون فقد كانت تستغل من قبل القورينيين كنقطة اتصال أو حلقة وصل مع الجرامنتيين الذين يبدو أنهم مارسوا أنشطة تجارية بفضل اقتلاع أحجار Grenarts من جبال أطلس[2]، ونتيجة لتجارة جلود الأبقار والماعز النشطة والمزدهرة في العصور الغابرة[3]. كما هو الحال عليه الآن بين سكان برقة وفزان. لقد كانت مدينة كاراكس القديمة «سلطان أو سرت القديمة . . . المترجم» التي

(1) هذه دعوة صريحة إلى إعادة استعمار ليبيا وخاصة الشق الشرقي منها. . المترجم.

(2) سترابو. الكتاب 17 الفصل 3 من الترجمة الفرنسية. ص 469 رقم 6.

(3) ثريج ـ تأريخ قورينة ـ ص 257.

تقع على مشارف خليج سرت تمثل مستودعاً تجارياً لتجارة قرنة مع قرطاجة، وكانت أول السلع وأكثرها أهمية في هذه المبادلات التجارية هي نبات السيلفيوم[1]. قد يكون من المرجح أيضاً أن تكون قرنة قد دخلت في علاقات تجارية مع مصر عن طريق تعامل مطروح مع الإسكندرية أو بفضل التبادل التجاري بين واحة آمون وبين طيبة Thèbes غير أننا نفتقر إلى المعلومات القديمة حول هذا الموضوع..

يبدو لي أنه من الجائز أن أؤكد أن الملح كان ينقل من قرنة إلى مصر وهو ملح واحة سيوه الذي كان يوجد مطموراً في الأرض كما هو الحال في يومنا هذا. إن ما ذكره سينوسيوس بشأن الملح يدل على ذلك حيث قال: «إن هذا الملح جميل في منظره ولطيف في مذاقه»؛ إن خبرتي وتجربتي تحملني على التأكيد على رواية القس الفيلسوف نظراً لأن ملح سيوه كان مرغوباً جداً بسبب نقائه[2]، كما كان يستخدم في أغراض طبية وكذلك في القرابين[3].

يمكننا أيضاً أن نضيف بأن سكان قورينة كانوا يسافرون إلى «مطروح» لإحضار نوع من الأحجار الجيرية أو الطباشيرية البيضاءالتي سميت عليها المدينة[4]. يمتلك هذا الحجر شكلاً من أشكال زبد البحر الذي اختلط بالطين حيث يصقل وهو مهم لأعمال البناء بسبب متانته وصلابته[5]. إن أغلب صهاريج مرمره القديمة جداً، إذا لم تخنّي الذاكرة، قد بطنت من الداخل بهذا الإسمنت الأبيض الذي يعود إليه الفضل في بقائها حتى يومنا هذا.

تمثلت التجارة التي مارسها القورينيون، علاوة على نبات السيلفيوم، والجياد، وجلود الأبقار والماعز، في زيت الزيتون والنبيذ. لقد أشاد كل من ديودور وهيرودوت بلذة وعذوبة نبيذ قورينة الذي كان ينقل إلى صقلية وجميع بلاد الإغريق.

لقد عرفنا، بفضل ما ذكره سترابو، أن سكان قرطاجنة كانوا يقايضون على حدود برقة بضاعتهم بنبيذ قورينة. يمكنني أن أقول نفس الشيء عن زيت قورينة الذي أشاد بجودته عدد من الكتّاب في عصور متفرقة. إن العدد الهائل لأشجار الزيتون التي يشاهدها المرء في هذه

---

(1) سترابو ـ الكتاب 17 ـ الفصل 3.

(2) سينوسيوس ـ الرسالة ـ 147.

(3) آريان ـ حملة الإسكندر. I. - III. الفصل 4.

(4) أي البيضاء.. المترجم.

(5) بلين. الكتاب 35. الفصل 6

البلاد يحمل على الاعتقاد بأن إنتاج أرض قورينـة قد مكَّن سكانهـا من الثراء. ولذا يمكننا أن نؤكد بإيجاز أن القورينيـين قد أقاموا علاقات تجارية وسياسية مع عدة شعوب تحيط بالبحر المتوسط لا سيما المستوطنات الإغريقية الأخرى. هذا ما يمكن استنتاجه من التشابه في أسماء المدن والسكان في البلدان المختلفة. أما فيما يتعلق بالعلاقات الأساسية التي قامت بين قورينة والسكان المحليـين يمكنني أن أزعم، بطبيعة الحال، بأن شعب قورينة لم يتحالف في أي عهد من العهود مع هؤلاء السكان لأنهم يعتبرونهم همجاً Barbares، وأن هؤلاء السكان، بدورهم، عاشوا مستقلين عن أسياد إقليم المدن الخمس ودون الخضوع لسيادتهم.

إن الأدلة التأريخية تؤكد ذلك الزعم الأول، بينما تؤكد المواقع النائية لمنتجعات البدو من السكان المحليـين في الأجزاء الجنوبية من البلاد الزعم الثاني. إن هذا التحفظ الإغريقي المفرط قد حافظ على نقاء الدم الإغريقي وأدى إلى تلقيبهم بـ «القورينيـين البيض»[1].

إذا كانت كافة المزايا تكمن هنا، دعونا نعترف بأن تلك المزايا لا يمكنها تعويض سلسلة من الأخطاء السياسية قام القرطاجيون الذين كانوا أكثر حكمة من الإغريق، بتفاديها وعدم الوقوع فيها.

إذا قمنا، في هذا الصدد، بتحليل النوايا التي أدت بهذين الشعبين «يقصد الإغريقي والفينيقي» إلى إقامة مستوطنتيهما على الساحل الإفريقي، وإذا فكرنا في التدابير التي اتخذت من قبل كل منهما لتحقيق الاستقرار، ولتحقيق النمو والتطور، فإننا سوف نجدها مختلفة تماماً.

سوف نضطر إلى الاعتراف بأن الآثار التي أحدثتها تلك التدابير جديرة بالتكيف مع أسباب مختلفة جداً. لم يقم القورينيون كما فعل القرطاجيون باستقطاب العنصر المحلي عن طريق دفع مبالغ مالية ثم ضمان اعتمادهم بعد ذلك على القرطاجيـين، بل قاموا باكتساح أراضي المحليـين وطردوهم منها.

---

(1) إن لقب «أبيض» الذي أطلقه ستراتيكوس الرودسي Stranicus Le Rhodien على القورينيـين يلائم، في نظري، لون العنصر الإغريقي مقارنة بلون بشرة سكان ليبيا، ولا يمكن تعليل ذلك، كما فعل كوسابون Causabon على أساس أنه ينسب إلى نغمة موسيقية. انظر كتاب Causabon-Anima. in Athen. L. III, C. 21, p. 198 - 199.

بدلاً من أن يقيم القورينيون علاقات وتحالفات مع السكان المحليين وترسيخ جذورهم في الأراضي الليبية، احتقر القورينيون هؤلاء السكان واعتبروهم غير جديرين بالدماء الإغريقية.

أخيراً نرى أكبر وأفدح الأخطاء الإغريقية تمثل، خلافاً لما فعله القرطاجيون عندما جندوا الليبيين في جيوشهم واستخدموهم في أعمال الزراعة، في عزلة الإغريق وحياتهم بعيداً عن هؤلاء السكان بل وفي حالة عداوة مستمرة تقريباً. إن تراكم هذه الحالات من الإهمال أو بالأحرى من العيوب السياسية التي ربما كانت السبب فيعدم استقرار حكومة قورينة حتى في ألمع مراحلها الأولى، وفي الاكتساح الليبي. بعد ذلك، لأسوار مدن الإقليم الخمس وتدميرها ونهبها بصورة يرثى لها. تلك هي المفاهيم التي تمكنت من استخلاصها من خلال جولاتي في الحقول المهجورة في برقة الشهيرة، وتلك هي الملاحظات التي استطعت، بتفكيري المتواضع، أن أقدمها حول التأريخ والجغرافية القديمة لهذه البلاد الهامة[1]. لا ينبغي أن يكون تأريخ قورينة هو الموضوع الخاص لهذا الكتاب، غير أنني رأي من المفيد أن أعرض السمات البارزة له في المقدمة الموجزة التي وردت في أول هذا الكتاب، بغية التذكير، في إيجاز، بما لا يمكن وجوده إلا في فقرات مبعثرة بين طيات العديد من الكتب والمؤلفات. لم يكن الأمركذلك بالنسبة للجغرافية القديمة لبرقة. لقد كان مانير يفتقر إلى معلومات وملاحظات على عين المكان، أما ريتير فلم يقم، في هذا الصدد إلا بترجمة رواية ديلاشيلا وهي رواية أثرية أكثر منها جغرافية. لقد وجهت بالتالي كافة أبحاثي، عبر الروايات القديمة، إلى هذا الفرع من العلم الذي قدم إليّ معلومات شيقة يمكن عقد مقارنة بينها، ومعلومات جديدة تحتاج حقاً إلى تحديد أو تقديم افتراضات وهذا هو ما حاولت القيام به حقاً. أتعشم في أن يثبت لي كل من يحكم على هذا العمل ويقوم بانتقاده، بأنني لم أكن أهدر كل وقتي سدى. إن ما يبقى أمامي لأقوله عن هذه الرحلة لا يكتسي إلا أهمية ضئيلة غير أنه يكمّل المهمة التي فرضتها على نفسي في هذه الآونة. سوف أمضي إذاً إلى الواحات القريبة من خليج سرت ثم إلى الحديث عنها.

---

(1) أكرر هنا في، هذا الصدد، وبدقة، ما قلته في مكان آخر ربما بشكل عائم: «إنني مدين إلى عالم الاشتقاق الجليل لترون على توضيحاته الشفهية، وطبقاً للنصوص الإغريقية القديمة لبعض الفقرات الواردة لدى المؤلفين القدامى، لتوضيحاته التحريرية حيث إنني لم أطلع عموماً إلا على تراجم لاتينية لهؤلاء المؤلفين، كما أعرب أيضاً عن عرفاني لزميلي العلامة المحترم آرياس الذي مكنني من الاستفادة من مراجع باللغة الألمانية لم أكن على علم بها».

الفصل العشرون

رحلة إلى أوجله

القسم الأول

خليج سرت

أود أن أكرر هنا بأن مدينة برنيقة «بنغازي» قد اختفت كلها تقريباً تحت مباني بنغازي الحديثة، ولم يعد يمكن للإنسان، وفقاً للأدلة الهزيلة المتبقية منها، أن يكوِّن فكرة حقيقية عن حجمها القديم.

أما فيما يتعلق بالميناء الذي كان السبب في إقامة المدينتين، العتيقة والحديثة، فإنه قد ضاق بسبب زحف الرمال، دون أن يتحول، مع ذلك، إلى مرفأ أقل أماناً من سابقه. لايزال ميناء بنغازي يشكل مرفأ جميلاً ومحمياً بفضل راسين أرضيين إحداهما تقع جنوباً وهي منبسطة ومغطاة بأشجار النخيل. أما الرأس الأخرى فتقع شمالاً وهي أكثر ارتفاعاً من سابقتها ويطابق موقعها موقع رأس «بسودوبنياس» لدى سترابو؛ وهناك صخرة ضخمة يلمحها المرء من بعيد في البحر على مسافة قصيرة من هذه الرأس الأرضية الأخيرة، يبدو أنها هي الجزيرة المنخفضة السوداء التي كانت تستخدم في العهود الخالية لرسو السفن كما ذكرت ذلك الرحلة المجهولة[1].

نظراً لأنني لم أجد سوى بقايا نادرة وتافهة عن مدينة برنيقة العتيقة، فهل يمكنني، يا

---

(1) Iriarte. p. 487.

ترى، أي أتوقف عند أسوار المدينة الحديثة؟ وهل أقوم بحصر مساكنها المنخفضة، والمشيدة فوق الرمال مباشرة، أو بحصر سكانها من عرب ويهود ومغاربة «وكأن المغاربة غير عرب!! المترجم»؟ هل أتحدث عن تجارتها في المواشي والعسل والصوف؟ هل لي أن أصف بساتين المدينة وحقولها الصغيرة التي ينبت فيها الفلفل الأخضر والحلو تحت ظلال أشجار النخيل الهزيلة التي تعصف بها الرياح؟ أو هل أتخلى، يا ترى، عن هذه التفاهات بالنسبة للكثير من الأوروبيين الذين زاروا بنغازي؟ هل أرسم صورة لسلطان برقة الحديثة وبلاطه وبطانته وهو يجلس بخمول وكسل في ديوانه؟ إن هذا الديوان عبارة عن منزل كبير ومتصدع أطلق عليه اسم قصر. هل لي أن أنشر قائمة بالسادة والإقطاعيين من حيث الظاهر وهم في الواقع مجرد فلاحين، وهم الذين حضروا، بفضل السلطات الممنوحة لهم من قبل باشا طرابلس يوسف، من مدة ثلاث سنوات لحكم هذا الإقليم غير أنهم لا يجرأون على التغلغل إلى الغابات الداخلية، ويكتفون بمجرد إرسال مبعوثين إلى تلك الدواخل لإحضار الضرائب السنوية وجبايتها من مضيفيهم حيث لا تتعدى في مجملها مبلغ مائة وستين قرشاً أسبانياً؟. إنني أشعر، عند هذا الخبر الأخير، أن القارىء قد بدأ يضجر من هذه الحكايات المتعبة وهو يصرخ قائلاً بأن الوقت قد حان لوضع حد لها. تلك هي رغبتي أيضاً. غير أنني، لكي أبلغ هدفي بمغادرة بنغازي، لا أستطيع أن أكبح رغبتي في نصح كل زائر أن يزور برقة الشيقة وأن يلقى السيدين روسوني Rossoni في بنغازي وفاتييه دو بورفيل Vattier de Bourville [1] في طرابلس لأنهما من الموظفين المتحمسين للعلم، وسيجد لديهما الزائر كل رعاية واهتمام، وسوف يضيفان لطائف جديدة إلى عملية الحج إلى حقول برقة العتيقة. سوف ألخص الآن وفي كلمات قليلة ما تبقى أمامي في تجوالي في ليبيا.

يبدو أن المنخفضات التي تحاذي ساحل خليج سرت هي السبب فيما ورد في الروايات القديمة عن الأخطار الكبرى التي توجد بهذا الخليج. لقد أكدت العديد من الملاحظات، في أيامنا هذه، إن هذا الخليج خالٍ من الصخور ويمكن ملاحته من جميع جوانبه. إن الجانب الشرقي هو الذي يبدو موحشاً في جميع العصور، ودليلنا على ذلك بعض العبارات التي وردت في الرحلة المجهولة[2] وكذلك ما ذكره ميلا Méla الذي وصف الخليج بكونه «ساحلاً خطيراً وهاماً» Littore Pertinax Impertusa. ألا يشعر

---

(1) نائب القنصل البريطاني في ليبيا، والقنصل الفرنسي في إيالة طرابلس الغرب.. المترجم.

(2) Iriarte p. 487.

المرء بالدهشة أيضاً بأن القورينيين رغم جودة نوعية التربة وجمال المروج المحاذية لهذا الجزء من الساحل، ابتداء من برنيقة وحتى ثلثي المسافة المؤدية إلى وسط الخليج، لم يشيدوا أي مدينة ذت أهمية كبرى؟.

من الملاحظ أيضاً، استكمالاً لهذه الحقيقة، أن مدينة بوريوم Borium، المدينة الوحيدة في هذه المقاطعة التي ذاع صيتها نوعاً ما في تاريخ برقة، كانت قد شيدت أولاً لتكون ملاذاً لطائفة يهودية وكانت تحتوي معبداً شهيراً، ثم أصبحت، بعد ذلك، كموقع متقدم Boulevard للأمبراطورية الرومانية في برقة. لم تُبْنَ هذه المدينة على الساحل مباشرة، بل شيدت، على النقيض، ووفقاً لما ذكره بروكوب في وسط وادٍ ضيق[1] عند قدم جبل برقة، ويحتمل أن يكون موقعها عند قدم الجبل الذي يحمل نفس الاسم[2] والذي يبعد عنها بنحو خمسة أو ستة فراسخ.

إن هذه المدينة عبارة عن أطلال آثرية أطلق عليها البدو اسم «المساخيط» مثلها في ذلك مثل آثار افروديس التي أشرنا إليها قبل ذلك. قد يتمكن أوروبيون غيري من التأكد من هذه المعلومات التي لم أتثبت منها بنفسي، وهي معلومات لا تخلو بالتأكيد من الأهمية.

أما فيما يتعلق بالقرى الأخرى التي حدد العديد من الجغرافيين القدامى موقعها على ذلك الساحل، فلا توجد منها أي واحدة، أكرر قولي، لها أهمية سياسية أو تجارية تذكر. تحدث الجغرافيون عن عدة قرى أسموها على التوالي بدءًا من البروز الأرضي لجبل برقة - بورديوم أو بوريون ودياكرسيس Diachersis ومستوراس Mostoras وبرج هرقل Herculeum ودريبانوم Derpaneum غير أن هذه التسمية الأخيرة قد أطلقت من قبل البعض على رأس أرضية[3] بينما أطلقها البعض الآخر على مدينة[4].

وأخيراً تم ذكر مدينتي سيرابيوم Serapeum ودياروواس Diaroas وآبيس حيث أكد مراقب حديث أن هذه المدينة الأخيرة تعتبر حداً فاصلاً من الناحية الملاحية على طول

---

(1) بروكوب ـ العمار الكتاب الرابع. الفصل الثاني.

(2) يدعى هذا البروز الأرضي بوريون من قبل الإغريق كما ذكر سولين Solin لأن الرياح كانت دائماً تعصف به «انظر كتاب Solin. polyhish. c. 40». ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم هيبون Hypon ثم اسم هيبورجيوس Hyporegius.

(3) بطليموس ـ الكتاب الرابع ـ الفصل الرابع.

(4) إتيان البيزنطي. عبارة دريبان Drepane.

الساحل الشرقي لخليج سرت. لن أتحدث عن نصب الأخوين فيلين أو عن مدينة كراكس «سلطان أو سرت القديمة. . المترجم» الواقعة في قلب الخليج والتي شتت الرياح العاتية، منذ قرون طويلة، الأدلة على وجودها. ولكن إذا لم تسترعِ هذه المقاطعة انتباه القورينيين فإنها قد شدت انتباه العرب بالمقابل، في العصر الفاطمي إن لم يكن ذلك في العصر الأموي لأنهم فضلوا هذه المنطقة الجبلية وذلك نظراً لوجود بقايا للقرى والمدن التي يرجع تأريخها، على ما يبدو، إلى هذه الفترة، والتي تقع على امتداد هذا الساحل حتى مستنقعات «البرس» Berss التي تحدثت عنها. تدل روايات الشرقيين المقنعة كذلك على تفضيل الفاتحين العرب على هذه المنطقة، زد على ذلك وجود أدلة وقرائن قوية على هذا التفضيل. ألا يمكن أن تلائم هذه المروج التي تنمو في فصل الربيع على هذا الساحل الشاسع الذي يشكل سهلاً واسعاً ومليئاً بالأزهار تقاليد الفروسية والعادات البدائية لهؤلاء الأسياد الجدد لهذه البلاد، بصورة أفضل من الجبال الوعرة في المناطق المجاورة؟

هذا ما لا أستطيع تأكيده غير أن تلك المقاطعة قد صارت، بكل تأكيد في القرن السادس للهجرة، مقراً لأمبراطورية برقة، بينما كانت مدن إقليم المدن الخمس تنهار، الواحدة تلو الأخرى عدا بارقي«المرج» التي أعاد الأمويون ترميمها ولكنها كانت آنذاك قرية صغيرة بالمقارنة بمدينتي اجدابيا وسرت اللتين ازدهرتا على ساحل الخليج، وكانتا وفقاً لما ذكره الإدريسي[1]، من أكبر مدن المناخ الثالث، ويقصد أكبر مدن البلاد الممتدة من مرمرة وبرقة.

يعثر المرء على أطلال تدل حتماً على أن المدينة كانت ضخمة وذلك وفقاً لنطاق رقعتها وجمال حطامها. إن أفضل تلك البقايا الأثرية حالة تتمثل في قصرين أحدهما يشد الانتباه بفضل ضخامة أبعاده وضخامة الكتل الصخرية التي استخدمت في تشييده، وأناقة واجهته الإسلامية[2].

وتوجد تلك الأطلال في مدينة «كركرة» Carcora على بعد ثلاثة فراسخ من الساحل، في ذلك الجزء من السهل الذي يمثل نهاية الأراضي الخصبة. يمكن للمرء أن يشاهد العديد من الأقواس التي تزين هذا القصر وهي مزدانة بنقوش كوفية ومكتوبة بحروف كبيرة جداً قد تساعد أي مستشرق متعمق في الحصول على معلومات تنير تأريخ برقة المعتم.

(1) الأدريسي، أفريقيا، طبعة Harm ص 301.
(2) انظر اللوحة LXXXIX, XC.

ليس من قبيل الحشو أن أضيف بأنه، بين هذه القواعد الخاصة بالقصرين المذكورين، وكما هو الحال بالنسبة للعديد من الأبنية التي شاهدناها في إقليم المدن الخمس، توجد بعض النقوش الإغريقية المبتورة أو المقلوبة رأساً على عقب. إن ذلك يشكل برهاناً جديداً على عملية إعادة البناء التي قامت بها كل الشعوب المتعاقبة على احتلال هذه البلاد.

ويمكن أن يساعدنا أيضاً على العثور على مدينة سيرابوم القديمة التي تبعد، وفقاً لما ذكر في الرحلة المجهولة، نحو ثلثمائة وعشرين مرحلة Stades من مدينة كرسيس Chersis.

تقع مدينة اجدابيا على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من رأس كركرة، وهذا ما يتفق تماماً حيث يحتمل أن تكون منطقة رأس كركرة هي مدينة كرسيس القديمة التي كانت تطل على ميناء، وذلك بسبب وجود مرسي صغير بالقرب من تلك الرأس الأرضية المذكورة، وهو المرفأ الوحيد أو على الأقل أفضل مرفأ يقع على الجانب الشرقي لخليج سرت.

علاوة على ذلك، يمكننا أيضاً، إذا استمررنا في اتباع نفس القياسات المذكورة، أن نتعرف، بفضل بضع من أشجار النخيل، على مدينة برج هرقل التي تقع على بعد مائة مرحلة من سيرابوم وذلك على هيئة بناية لا شكل لها، تقع على قمة صخرية يمكنها أن تكون بالتالي هي البروز الأرضي الذي أطلق عليه اسم دريبانوم الذي ذكرته سالفاً وفقاً لتلك القياسات[1]. إن تلك البناية التي عرفت اليوم بأنها ضريح لأحد الأولياء العرب الغامضين «مرابط» مقامة على أساسات عتيقة جداً حيث تكشف كتل الأحجار فيها، رغم عملية وضعها المشوشة، عن أصل عريق وقديم جداً.

أما فيما يتعلق بالمدينة الثانية أي مدينة «سورت» التي حدد أبو الفداء موقعها على مسافة مائتين وثلاثين ميلاً من طرابلس، وحدده الإدريسي على مسافة مائتي خطوة من ساحل البحر، فإنني لا أستطيع أن أذكر عنها أي شيء. لكننا، إذا صدقنا روايات البدو في المنطقة، فإن آثاراً ضخمة تضاهي آثار مدينة اجدابيا وتحمل اسم «سورت» وهو عبارة عن تصحيف لاسم «سرت» تقع في قلب الخليج. هل يا ترى، أن هذه المدينة قد حلت محل كراكس «سلطان» القديمة كما حلت اجدابيا اليوم محل سيرابوم؟ إن هذا ما يمكن أن يتأكد منه أوروبي غيري أكثر مثابرة مني.

---

(1) الرحلة المجهولة ص 487.

تستمر التربة جنوب اجدابيا وحتى مسافة ما في خصوبتها وقابليتها للحرث. توجد في المنطقة، هنا وهناك، بعض الحقول المحروثة أو المزروعة غير أنه يبدأ بعد ذلك مشاهدة الرمال الزاحفة على الأرض الخصبة والنباتات ثم يدخل المرء في صحراء سرت. . ويا لها من قفار موحشة!!.

إن الروايات القديمة والخيال عند أي إنسان عرف شيئاً ما عن تلك الفيافي، تؤثر عليه عندما يشاهد الأشياء المادية. إن الاسم السحري العجيب لسرت بزواحفها التي لا تحصى، والمحن التي مر بها كاتون الفاضل Caton ومثابرته، من شأنها، يجب علينا الاعتراف بذلك، أن تعد عقل الرحالة للوحة الرهيبة الممتدة أمامه وتزيد من ذعره.

ومهما كان الإنسان لا يكترث بسلطان الذكريات، فإنني أشك في أن يغامر أوروبي، خلال فصل القيظ في هذه القفار الشاسعة، حتى وإن كان معتاداً على التجوال في أراضي ليبيا، دون أن يساوره انطباع بالمعاناة والألم.

إن هذا الأوروبي الذي يدير ظهره لأوروبا، والذي يمتد الأفق أمام ناظريه في سهل شاسع لا حدود له يشعر حتماً بعمق المعاناة حيث لا توجد هنا أي نباتات مهما كانت ضئيلة أو يميل لونها إلى السواد يمكنها أن تعجل من سير الإبل أو تقطع رتابة المسير. هنا لا توجد أي تلة ولو كانت جرداء أو سوداء اللون من لفح الشمس، يمكنها أن تستر عراء هذه الصحراء، وأن توحي للرحالة بشيء ما وذلك بفضل أشكالها العجيبة. هنا لا توجد أي نخلة يتيمة تتراقص قمتها حسب هبوب الرياح، وتؤدي إلى سماع أهازيج البدو، لأنها تبشر بوجود نبع مضياف. هنا لا توجد أي قطعان للغزلان الواثبة في حبورلكي ترفه بفضل منظرها البديع عن القافلة الكئيبة.

إن الضباع وحتى الوحوش الليبية الأخرى لا تجازف أبداً بعبور هذه المنطقة المحرقة حيث لا يوجد شيء يعكر صفو هذا القبر الطبيعي حتى ولو كان ذلك الشيء هو عواء تلك الوحوش وصريخها. إن السماء محرقة وكأنها ألسنة لهب، والأرض منبسطة بصورة مستمرة وليس هناك سوى الرمال. . والرمال بصورة مستمرة، ولا شيء سوى الرمال دون قطرة ماء واحدة. تلك هي المنطقة التي تمتد من خليج سرت حتى محطة راسم Rassam حيث تبلغ مساحة هذه المنطقة، أي بين ساحل الخليج والمحطة المذكورة، عند المسير في خط مستقيم، نحو ثلاثين فرسخاً. رغم كل ذلك، فإن هذه المنطقة لم تكن آهلة بالسكان فحسب في القدم، بل كانوا يتقاتلون على امتلاكها. لكي يستوعب المرء مثل هذه الحقائق

التي لا يطالها أي شك بفضل الشواهد التأريخية التي لا يمكن نفيها أو استبعادها، لا بد من الموافقة على كون منطقة الجبال المجاورة، عندما كانت تستقطب قبائل من دواخل أفريقيا التي تحضر إليها أملاً في نهبها. كان بمنطقة سرت الكبرى «أي خليج سرت. . المترجم» وديان قابلة للسكنى والعيش والحياة وذلك بفضل جهد الإنسان الذي عمرها وأقام بها. توجد كذلك بعض الآبار التي حفرت، هنا وهناك، وبعض القنوات التي تشبه إلى حد ما قنوات إقليم مرمرة «البطنان» لجمع مياه الأمطار الشتوية في المنخفضات، ونشر شيء من الخضرة في السهول التي زحفت عليها الرمال في يومنا هذا. بل يتحول هذا الفرض إلى حقيقة إذا لاحظ المرء أن قبائل بسيل Psylles وهي أول من قطن سرت قد حفرت بها صهاريج وذلك وفقاً لما ذكره هيرودوت. لم تجبر تلك القبائل على تركها إلا بعد جفاف مياه تلك الصهاريج حيث خرجت في حرب رمزية ضد «ريح القبلي» التي كانت السبب في جفاف مياه تلك الصهاريج.

ومهما يكن من أمر، فقد قام الناسامون بعد ذلك بالعيش والإقامة في هذه المنطقة. هنا، رغم الشروط اللازمة لصحة افتراضي هذا، كانت هذه القبيلة الفقيرة تتفرج، بين الفينة والأخرى على مزروعاتها القليلة أو حصادها النادر تذروه الرياح. إن تقاليد هذه القبيلة كانت تلائم طبيعة الأرض التي تقطنها، فلم تسكن في صياصي وأبراج مثلما كان يفعل الليبيون القاطنون في المناطق الجبلية، ولم تشيد مثل جيرانها من المكسي Maxyes «ربما يقصد الماساي. . المترجم» بيوتاً، ولم تنصب مثل قبائل السينيت Scènites في ضواحي واحة آمون خياماً، بل كانت تقيم أكواخاً صغيرة من الحبال الليفية والشوك وتنقلها معها من مكان لآخر، وتنصبها أنى تشاء على مثل هذه الأرض المتحركة[1]. يمكن للمرء أيضاً أن يعزو لنفس السبب، اهتمام هذه القبيلة بعدم ترك أبنائها ينامون مستلقين على ظهورهم فوق الأرض، بل تجبرهم على النوم جالسين لأنها تخشى عليهم اختفاء أجسادهم تحت الرمال الزاحفة[2]، وكذلك صيدهم للجراد الهزيل الذي كان يشكل مصدر قوتهم في فصل الصيف[3]. أما فصل الخريف فهو ملائم أكثر لتلك القبيلة لأنها تنتقل خلاله من منطقة الساحل إلى الدواخل وخاصة إلى واحة أوجله التي يشتهر سكانها بالكرم، ويسمحون لها

(1) هيرودوت ـ الكتاب الرابع ص 190.
(2) انظر نفس المرجع السابق.
(3) انظر نفس المرجع السابق.

يجنى جزء من التمور حيث تنمو أشجار النخيل بكثرة في هذه المقاطعة[1].

إن عقم موطن قبيلة الناسامون المفرط، والفاقة الناجمة عن هذه الحالة، يمكن أن يخفف من الشهرة السيئة التي ألحقها بها بعض المؤلفين قديماً وذلك بسبب أعمال السلب والنهب التي كانت تمارسها على السفن التي تطوحها الرياح والعواصف على الساحل حيث قال أحد هؤلاء المؤلفين وبعبارة عبقرية إن «هذه القبيلة كانت تتاجر مع الكون بأسره»[2].

يبدو أن أعمال السلب والنهب هذه قد أصبحت ضارة بتجارة قورينة حيث قام الرومان، عندما أصبحوا الأسياد الجدد لإقليم المدن الخمس بتصفية منطقة سرت من هؤلاء السكان الذين كانوا أكثر خطراً على التجارة من الحراشف الصخرية البحرية. لم يتورع أغسطس Auguste في شن حرب عليهم حيث لم يتمكن إلا بشق الأنفس عن صدهم وطردهم نحوالدواخل. لقد أجبرهم تقدم نسور روما إلى التراجع نحو الصحراء وإخلاء المناطق الساحلية منهم. قال Denys le Periegète إن المرء لم يعد يشاهد، في عصره، سوى منازلهم الخالية أي تلك الأكواخ المصنوعة من الخوص والحبال الليفية التي تحدثت عنها آنفاً. لقد قامت تلك القبيلة، مع ذلك، بمحاولة استعادة موطنها البائس وتمكنت من ذلك فعلاً غير أن ذات الأسباب أدت إلى ذات النتيجة فألحق بها دومنتيان Domintien، وفقاً لما ذكره كل من أوسيب Eusèbe ويوسف Josèphe هزيمة جديدة حيث أجبرت، مرة أخرى، على التراجع نحو رمال الصحراء وخاصة مناطق الجنوب الشرقي حيث يحتمل أن تكون قد عمرت المناطق الأرضية الخصبة التي نراها اليوم.

لم تظهر تلك القبيلة منذ ذلك اليوم على الساحل حيث قامت القبائل المجاورة باحتلال موطنها لا سيما قبيلة الماساي التي كانت قبيلة من الفلاحين وقبيلة آنيش Aniches المسالمة.

---

(1) انظر نفس المرجع السابق.

(2) Lucain, Phars, L. IX, V. 443 - 444.

القسم الثاني

واحة أوجيل

«أوجلة»

بعد أن عبرنا منطقة خليج سرت في اتجاه الجنوب الشرقي، قاصدين الذهاب إلى واحة أوجيل، وصلنا إلى محطة «راسم» وهي قطعة من الأرض تبلورت عليها الأملاح حيث يشاهد المرء، أطلالاً لقصر عربي وبئر ماء مالحة، بين أشجار النخيل والسدر Tamarix. تبلغ المسافة بين راسم وأوجلة عشرين فرسخاً حيث توجد عين ماء عذب تسمى «سبيله» وسط حقل من أشجار Soudes يشكل هذا النبع مدخل الواحة. قد تكون رغبة وصف الأثر الذي تحدثه هذه الواحة على أي قافلة قادمة صيفاً من ساحل سرت وما لهذه المياه القليلة من منظر بهي بالقرب من حقل تغطية نباتات يافعة، ضرباً من ضروب المستحيل. كيف يمكنني أن أصور تلك الملامح المتألمة للإنسان عندما يدب إليها وينعشها الأمل، وعندما يرى أمامه نهاية معاناته؟ كيف يمكنني أن أعبر عن تلك الهمهمة التي تنطوي على العجل، وعلى اللذة التي تعادل ألف مرة صرخات الفرح الصاخبة؟ ولا ينبغي عليَّ أن أنسى أيضاً دعائم القافلة أي تلك الجمال الجلدة والعفيفة التي تأخذ في تعجيل خطاها بصعوبة شديدة عندما تشم رائحة الماء، وتفتح حدقاتها بشدة، وتبدأ معاً في هز رؤوسها وأفواهها المزبدة وتوجهها معاً في نفس الاتجاه. عندما يصل المرء إلى الينبوع ويطفىء غليل ظمأه ويصلي بألف وألف طريقة على النبي ﷺ، ثم يقابل بعض سكان الواحة الذين يأتون لمقابلته، ويتم تبادل التهاني والتحيات من قبل الطرفين، ثم يلقي بعد ذلك أجمل وأسخى أشكال الضيافة. إن واحة أوجلة الحالية هي واحة أوجيل التاريخية، وهي تختلف في مظهرها عن واحات مصر المجاورة لأنها وسط غابة من أشجار النخيل المعزولة في سهل شاسع، ذلك هو

المنظر الكئيب الذي يراه الإنسان. يمكنني أيضاً أن أقول نفس الشيء عن واحتي جالو واجخرَّة. وهما واحتان صغيرتان مأهولتان ويتبعان في أيامنا هذه واحة أوجلة كما كان يحتمل أن يكون الحال كذلك في التاريخ القديم. تفصل بين هاتين الواحتين مسافة تتراوح بين خمسة وستة فراسخ Lieues. توجد واحة رابعة يفترض أن تكون تابعة لهذه المجموعة السابقة ولكنها تقع بعيدة عنها على مسافة مسيرة ثلاثة أيام تقريباً في اتجاه الغرب. إن هذه البلدة المطمورة في قلب متاهة من الكثبان الرملية المتحركة تسمى واحة مراده حيث يرى الرحالة أنها جميلة إما بسبب منظرها العام وسط الفظاعة المحيطة بها وإما نتيجة لوجود طوق من الجبال الصخرية الهشة المزركشة بعروق صفراء وزرقاء ضخمة تريح النظر الذي أرهق من رتابة تلك الصحراء الشاسعة، وإما أخيراً بسبب وجود العديد من عيون الماء العذب ومن بينها نبع كبريتي ينعش بمياهه اللذيذة أمعاء وبطن الرحالة التي أنهكها الماء المالح.

يكون الوصول إلى هذه الواحة دائماً محفوفاً بالبهجة والسرور. هناك شبه جدير بالملاحظة بين أرض هذه الواحة وتربتها التي يميل لونها إلى الحمرة مثل الواحات المصرية وبين تلك الواحات التي ينمو فيها نبات Hedisarum Alhagi «القصبة» هذا العلف الصحراوي الشهير جداً لدى الكتَّاب الشرقيين، والذي لا ينمو في الأرض الطينية لبرقة أو في السهول الصلصالية لإقليم مرمرة. وتنمو بها أيضاً أشجار النخيل بكثرة، بل يمكن أن نقول بأنها وسط غابة من النخيل. لابد وأن يظن المرء بأن هذه الواحة قد استرعت انتباه الفاتحين العرب حيث شاهدنا بها، في الواقع، أطلالاً لقريتين. غير أن هذه الواحة، إن لم تكن الآن مهجورة كلياً، فهي غير آهلة بالسكان خلال أغلب شهور السنة. إن انقسامات وتناحر القبائل على امتلاكها بالإضافة إلى الخرافات المتعلقة بهذه البلدة كانت، كما قيل لي، هي الأسباب التي أدت إلى ذلك الوضع. رغم ذلك يأتي بدو سرت وضواحيها إليها سنوياً من أجل جني التمور غير أنهم لا يتجرأون على الإقامة بالقريتين المهجورتين خوفاً من الأشباح والعفاريت، بل يقيمون أكواخاً من سعف وجريد النخيل بعيداً عنهما[1]. يأتي البدو خريفاً إلى تلك الأكواخ بصحبة قطعانهم ويدفعون إتاوة لحاكم هذه المجموعة من الواحات لأن واحة مراده تابعة، أكرر ذلك، لهذه المجموعة. إن المخاطر تكتنف هذه الرحلة إلى مراده دون غيرها، ولذلك قررت العودة إلى واحة أوجلة. تخضع أوجلة إلى

(1) انظر اللوحة X. CI.

سلطان باشا طرابلس مثلها في ذلك مثل إقليمي برقة وفزان ويديرها باي[1] يدفع سنوياً مبلغ عشرة آلاف قرش أسباني إلى باشا طرابلس. ترتكز عملية فرض تلك المساهمة المالية أساساً على أشجار النخيل فقط حيث تبلغ ضريبة النخلة الواحدة وهي قائمة قرشين في طرابلس «أي نحو ثمانية ملاليم فرنسية Sous» لكن ذلك المبلغ لا يعطي إلا فكرة خاطئة عن عدد نخيل أوجلة إذا لم أؤكد بأن نصف النخيل فقط خاضع للضريبة لأن ربع النصف الآخر يؤول إلى المساجد والقائمين عليها.

إن القرى المنتشرة في الواحات المذكورة مشيدة من الأحجار التي تم اقتلاعها من طبقة صخرية هشة توجد تحت الرمال على عمق ستة أقدام تقريباً. إن أغلب المنازل محاطة بسور من جريد النخيل على شكل باحة يوجد وسطها كوخ مخروطي الشكل مصنوع، هو الآخر، من سعف وجريد النخيل حيث يستخدم الكوخ في تخزين التمر، أما الباحة فتستخدم كحظيرة للحيوانات. أما بالنسبة للسكان، إذا صدقنا رواياتهم الذاتية، فهم يستطيعون تكوين جيش مسلح من ثلاثة آلاف مقاتل تقريباً، وهذا ما يجعل عدد السكان، ودون تميـيز في السن أو الجنس، يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف نسمة.

إن عين «السبيلة» الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ شمال القرية الرئيسية هي العين الوحيدة في هذه المقاطعة ولا توجد بها أي جداول. كما هو الحال في واحة آمون أو طيبة «الأقصر. . . المترجم»، يمكنها أن تثبت التربة وتكسوها بالخضرة والزهور، وتنتشر طراوتها في الجو أو تتعرج وتختفي وسط بساتين تنمو فيها أشجار الفاكهة والخضروات بوفرة في بساتين ممتعة لا سيما وأنها تشمل أشجار الليمون والرمان المتشابكة، وتكون ظلالاً وارفة وأقواساً طبيعية من الأزهار الفواحة تحت وطأة شمس محرقة، في قلب

---

(1) قد يشعر المرء بالدهشة عندما يعلم أن باي هذه المقاطعة يدعى أبو زيد عبد الله وهو فرنسي من مواليد مدينة طولون حيث جاء في سن الثانية عشرة من عمره ضمن الحملة الفرنسية على مصر كقارع للطبل ولكنه وقع أسيراً في إحدى المعارك في أيدي قوات بدوية باعته إلى باشا طرابلس. لقد ساعد تكوينه الجسدي على تعديل مصيره حيث لازم الباشا فترة طويلة بصفته «مملوكاً» ثم أرسل بعد ذلك إلى فزان في جيش يقوده محمد الشركسي Mohamad le Cirassien لقد كان لشجاعته وإقدامه في هذه الحملة الفضل في احتلال فزان وأثار بذلك انتباه سيده الذي كافأه بلقب باي ومنحه حكم أوجلة. لم يحتفظ أبو زيد عبد الله بأية ذكريات عن بلاده سوى فكرة عائمة عن المدينة التي ولد بها في إحدى ضواحي طولون وبعض التقاليد الأخرى للغته الأصلية وبعض التعابير البروفنسالية التي يلحن فيها ويحزمها بشيء من الغبطة والحبور. إنني أقدم لك تلك التفاصيل التي ذكرها لي أبو زيد نفسه. إن ما يزيد في سروري هو أنني قد لقيت، علاوة على كرم الضيافة الشرقية، استقبالاً ودياً وعناية رقيقة.

صحراء لا ظل فيها. تلك هي أعذب وألطف سمات رياض الآلهة «أي بنغازي» في برقة.

لا يشاهد المرء في واحة أوجلة، بدلاً من تلك النعم التي تسبغها الطبيعة على الواحات، سوى صهاريج وآبار يصل عمقها إلى نحو عشرين قدماً مبطنة من الداخل بجذوع النخيل، يحصل منها الإنسان على ماء مالح بقدر يزيد أو ينقص. يكابد السكان كثيراً بفضل هذا الماء المالح من أجل سقاية نباتات بضعة حقول إذا جاز لنا أن نطلق تلك التسمية على أشرطة رملية تحولت إلى نوع من التربة بفضل بقايا أشجار النخيل وعمليات الري اليومية المضنية.

رغم ذلك، وبفضل الكفاح الحرفي ضد الطبيعة، تمكن الإنسان من زراعة الشعير والدخن ونوع من أنواع القصب الذي يشكل الغذاء العام والرئيسي لكافة سكان افريقيا «يقصد الذرة الرفيعة». أما القمح فلا ينمو هنا إلا بصعوبة بالغة. أما البناتات التي تقل مقاومتها لتلك الطبيعة المجحفة فهي الفلفل بأنواعه والثوم والبصل حيث تشغل وحدها حقولاً صغيرة كاملة.

لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للطماطم والبطيخ والملوخية حيث لا يحصل المرء على النزر اليسير منها إلا بشق الأنفس بعد عناية وجهد كبيرين. أخيراً نجد أن أثري سادة هذه الواحات هم أولئك الذين يمتلكون الجياد، وهذا ليس بالأمر الهين في هذه الواحة الفقيرة لأنهم مضطرون للعناية بالتربة أكثر لزراعة قليل من البرسيم. . أي ذلك النبات الذي يرمز إلى مراعي وادي النيل الغناء. لقد أراني الباي أبو زيد، بشيء من الفخر والتباهي، مرجة صغيرة من البرسيم قرب منزله تبلغ مساحتها نحو عشرين قدماً. لا يملك سكان أوجلة المعزولة في قلب الصحراء أي شيء يعوضهم، في موطنهم الأصلي الذي تشويه الشمس المحرقة، بخلاف سكان الواحات الأخرى، سوى الرحيل والتجوال. إنهم يعدون أنفسهم منذ نعومة أظافرهم إلى تلك المهنة فتمكنوا منها وأجادوها. أقول أجادوها لأنهم في ظروف أرضهم المجحفة والحاجة إلى تركها أحياناً، أجادوا فن اجتياز الصحراء الذي يعتبر سمة أساسية من سمات هؤلاء السكان ويضاهي فن الملاحة بالنسبة لسكان الجزر القابعين على صخور عقيمة أو جرداء.

إن معرفة التنجيم والنجوم كما يدرك المرء، تشكل النقطة الرئيسية لهذا الفن، فهم يحافظون بعناية على مبادىء هذا العلم الرئيسية الذي يتوارثونه أباً عن جد. أما فيما يتعلق بطرق تعليم وتعلم هذا الفن فهي ليست معقدة: تشكل عتبة الكوخ المرصد الخاص بهم،

وتشكل أبصارهم الثاقبة المنظار الفلكي حيث يستطيعون التجول بها بسهولة ويسر في جميع أنحاء الصرح الصافي فوق رؤوسهم. فليذهب أحد الأوروبيين لحضور الدروس الرعوية في تلك الأكاديميات الصحراوية. إن الغاية تستحق المشقة. ليذهب ويجلس أمام الكوخ البدائي على الرمال التي تنعشها نسمات الليل وبين الشيوخ والنساء والأطفال، وسوف يرى أن شيخ القرية الذي ينتعش شكله الوقور تحت سناء ضوء القمر، وهو يشير بصوته وحركاته إلى الأبراج المختلفة.

سوف يسمع هذا الأوروبي أوصافاً ويرى دوائر وشبه دوائر تتعلق بالكواكب، وعن حصر النجوم الثابتة وأسمائها التقليدية المعروفة مع قليل من التصحيف والتجريف الناجم عن اللغة والرواية. سوف يراه وهو يحدد الطرق التي توجد وسط السهول الصحراوية والتي توجد مرسومة في عنان السماء.

سوف يشعر هذا الأوروبي بالذهول من بساطة كلماته الأبوية ومن انتباه الحضور الوقور، وسوف يسمع الشباب بعد ذلك وهم يرددون، بقنوط شديد، دروس ذلك الشيخ الهرم.

سوف يشاهد صغار الأطفال الذين لا ثياب عليهم في أحضان أمهاتهم ويرفعون أيديهم الصغيرة إلى السماء ويرطنون بأسرار الأدلة المقبلين أو المستقبلية لحلهم وترحالهم المقبل. ثم يخفون وجوههم حياءً وخجلاً في صدور أمهاتهم عندما يوجه إليهم التوبيخ الشديد على الفوضى، ثم ينتهي الدرس بتناول نبيذ النخيل «اللاقبي» الذي ينشر النشوة والحبور بين الحضور.

ويحتفظ الأوروبي، بعد مغادرته لهم، إنني على يقين من ذلك، بذكرى طويلة عن تلك الجلسة الرعوية التي تمت في ركن من أركان الصحراء، ولا يمكنه أن ينفي بالتأكيد فائدتها. أما بالنسبة للتموين والتزود بالمواد الغذائية فيضطر سكان أوجلة إلى السفر سنوياً إلى بنغازي لإحضار ما يحتاجونه، ويبدأون هنا ممارسة دروسهم العملية في ترحالهم.

يتكون هذا التموين عادة من الحبوب والسمن والحيوانات حيث يقايضونها بتمورهم الممتازة بالمقارنة بتمور الواحات الليبية الأخرى. لقد كانت تمور تلك الواحة مفضلة جداً حتى في التاريخ القديم[1].

---

(1) هيرودوت. الكتاب الرابع ص 182.

إن الرحلة إلى طرابلس أقل ضرورة بالنسبة لهم من الرحلة إلى بنغازي وقلما تحدث، غير أنهم يسافرون كثيراً إلى سيوه ليس لزيارتها ولكن للاستراحة والتوقف بها في طريقهم إلى وادي النيل وذلك لمدة بضعة أيام.

إنهم يحضرون معهم جلود الماعز والعسل من جبال برقة وعدداً زهيداً من ريش النعام نتاج صيدهم لهذه الطيور في ضواحي أوجلة. إن تلك الرحلات الطويلة تترك في الغالب إلى الشباب الذي لا خبرة له، غير أنه يطلب رفقة بعض الكهول الذين يستخدمون كأدلة ومرشدين ويختمون هكذا حرفتهم بنفس الطريقة التي بدأوا بها.

إن الصحاري الجنوبية الشاسعة، ووادي السودان الفسيح، أي الأقاليم الوسطى لأفريقيا، بعبارة أخرى، وخاصة مناطق وادي تومبوكتو تشكل الوجهات المثمرة لرحلات الرجال في ريعان العمر لأنها تستغرق أحياناً سنوات عديدة حيث إن تجارة الرقيق كانت وحدها الهدف من مثل تلك الرحلات الطويلة. وهكذا نرى أن رجالاً جلدين ومثابرين وأشداء وأوفياء لكلمتهم لدرجة أن حفظهم لعهودهم قد أصبح مضرباً للأمثال في ليبيا، يستخدمون أروع سنوات عمرهم ونتاج خبرتهم في السفر إلى قلب أفريقيا لانتزاع مجموعات من الزنوج اليافعين لبيعهم في أسواق القاهرة وطرابلس، ويضعون بين هؤلاء الأطفال ومواطنهم مسافات شاسعة من الصحاري، ويصطادونهم ليلاً ونهاراً وكأنهم قطعان شريرة.

هناك شيء آخر لا يصدقه إنسان إن لم أكن أنا نفسي شاهداً عليه، يتمثل في إجبار هؤلاء الرقيق على الغناء رغم الألم والمعاناة وذلك بسبب الخوف من أن تحدث الكآبة بينهم عدوى سيئة، غير أن هذا هو ما يحدث غالباً رغم كل التحوطات العنيفة. من المحزن حقاً أن نرى أن مثل تلك الفضائل التي اكتسبت بصعوبة والتي مورست بصعوبة أيضاً تستغل في تحقيق مثل هذه النتائج. بغض النظر عن روايات التاريخ هذه ووفقاً للفكرة التي قدمتها عن موقع وطبيعة الأرض في أوجلة، لا ينبغي على المرء أن يتوقع وجود أي آثار تشابه تلك التي اكتشفها رحالة ماهر مثل كايو Cailliaud في واحات مصر حيث قدمها إلى عالم الآثار. إن البنايات القديمة الوحيدة التي يشاهدها المرء تشهد آثارها، بصورة أفضل من كلماتي، على قلة موارد تلك الواحة في جميع العصور. تتمثل تلك الأبنية في مربعات فسيحة مشيدة من الطوب الترابي، ويبلغ عددها ثلاثة وتحتوي كل واحدة بئراً يقع في وسطها تماماً ولم يعد يبقى منها سوى القواعد تقريباً. إذا حكمنا على شكلها من الناحية المعمارية فإنها لا بد أن

تكون أبراجاً كبيرة مثل تلك التي شاهدناها في برقة وأعتقد أنها ترجع إلى أصل ليبي، لأن العرب لم يستخدموا أبداً، على الأقل في هذه المناطق، الطوب الترابي في أبنيتهم. إن آراء العرب حول القيمة الفعلية للأبنية القديمة هزيلة جداً دون شك، غير أن بعضاً منها يتميز ببساطته وبالتالي برجاحته حيث لا يمكن إغفال هذه القيمة الأخيرة. يمكنني أن أقدم من بين تلك الآراء والتقاليد ما يلي:

إن قاضي أوجلة هو الذي يتحدث الآن. لقد وقف على كُوَم من أنقاض هذه الآثار، وأشار بعصاه الطويلة إلى قرية قائلاً: «قبل بناء هذه القرية هناك حيث نرى اليوم تلك المنازل، كان يوجد سهل تغطيه نباتات Soude (الخوص) والقصب. أما في نفس المكان الذي نقف الآن عليه فقد كان هناك قصر تأخذ جدرانه في الضيق كلما اتجهت نحو القمة مما يجعله يشبه أهرامات القاهرة. إن أشجار النخيل لم تغرس هنا بفضل المسلمين ولكنها كانت هنا منذ أقدم العصور وهي تشكل الآن مصدر تراثنا».

لقد كانت في السابق بمثابة مكافأة الرحالة على تحمل عناء السفر وكانت بعض أسر الرعاة تأتي إليها من الساحل كل عام لجني التمور، وكانت تقتاد معها قطعانها نحو المراعي الجيدة في السهل الذي يغطيه نبات «الديس». كان هذا القصر يستخدم في تخزين الحصاد في أمن وآمان وكان رئيس الرعاة يشغله لهذا الغرض. إذا لمح قافلة، في الأفق، كان يلوح إلى بقية الرعاة فيهرعون إليه بقطعانهم ويختفون فيه حتى يغادر الأغراب هذه المقاطعة[1].
بغض النظر عن ظروف هذه الرواية، أرى أن جوهرها مرجح لأنه يتفق تماماً مع وقائع أخرى مشابهة جميعها في الواحات الأخرى التي يبدو أنها كانت لا تستخدم إلا مرة واحدة في السنة بمثابة منتجع سنوي خلال تلك الفترة التي تفصل بين التاريخ الغابروالعصور الوسطى أي بين فترة طرد أو انسحاب الليبيين أو الأثيوبيين وتأسيس القرى العربية أو البربرية. من المؤكد، مع ذلك، أن القرى الحالية في أوجلة كانت موجودة على الأقل، خلال القرن الحادي عشر وذلك وفقاً لما ذكره ليون الأفريقي، وما يهمنا حقاً هو وجود القصور الثلاثة التي تحدثت عنها لتوي. إن بعض التفاصيل التي كان يمكن أن يقدمها لنا هذا الرحالة العربي كانت ستوفر عليَّ الكثير من الحديث. أما فيما يتعلق بالعهود القديمة، فقد كانت واحة أوجلة، دون أدنى شك، آهلة بالسكان ولكنني، رغم أن إتيان البيزنطي قد ذكر وجود مدينة بها، أعتقد أنه لا ينبغي علينا أن نأخذ المعنى الحرفي لهذه الكلمة خاصة وأن هذا

(1) Voce. Augila.

الجغرافي لم يكن نزيهاً في تسميات مماثلة. يبدو من المرجح أن يكون للأوجليين[1] Augelites مساكن مشابهة لغيرهم من أبناء القبائل التي تقع إلى الغرب منهم أي بعض الكهوف المنحوتة في الصخر. هذا ما يمكن أن نستخلصه أيضاً من صمت المؤرخين عن هذه المدينة المزعومة، ومن بعض الروايات عن الأوجليين وموطنهم. يقدم لنا هيرودوت الذي نلجأ إليه دائماً بعض المعلومات التي أرى أنها صادقة جداً لدرجة أنها لاتزال صالحة لوصف أوجلة الحديثة.

لقد تحدث عن غابات النخيل فيها وعن نوعية تمورها الممتازة حيث كانت تشكل مصدراً أكيداً للرزق. إن النبع الذي وجد في عصره هو ذات النبع الموجود اليوم وهو عين «السبيلة» كما أن الهضبة الوحيدة الموجودة في تلك المقاطعة، وفقاً لما ذكره المؤرخ، هي الوحيدة اليوم التي تحطم رتابة هذا السهل الرملي الشاسع وهي تقع في الجزء الشمالي للقرية. أضاف المؤرخ أن تلك التلة مثلها في ذلك مثل تلال واحة آمون مكونة من الملح[2] حيث عثرت في المرتفعات الجيرية لواحة أوجلة، كما هو الحال في واحة آمون، على كتل من أملاح النطرون. هكذا نرى أنه بعد مضي ثلاثة وعشرين قرناً على مقاطعة أوجلة فهي لاتزال تقدم اليوم لسكانها الحاليـين ما كانت تقدمه من موارد لسكانها في العصور الغابرة. إنها لاتزال على نفس الهيئة، إذا استثنينا القرى العربية الثلاث، التي كانت عليها في التأريخ القديم.

إن مثل هذه الفكرة تروق للرحالة الذي يجب أن يقف عندها لأنها أفضل ما يستطيع القيام به في أغلب الأحيان في هذه القفار، أي أن يملأ الرحالة فكره وينعشه بذكريات العصور الخالية ولكنه يرى نفسه الآن وسط الليبيـين في أوجلة فيتساءل عن سبب وجوده في هذه البلاد الكئيبة.

يتساءل الرحالة عن عادات وتقاليد السكان القدامى غير أن التأريخ لا يسعفه كثيراً لسوء حظه إلا بنزر يسير من المعلومات لإشباع فضوله. إن المعلومات الوحيدة التي قدمها لنا التأريخ القديم تتعلق بالمعتقدات الدينية، وهي معتقدات تترك انطباعاً خاصاً. إن الأوجليـين، خلافاً للرحل من الليبيـين، لا يعرفون آلهة أخرى غير أرواح السلف Mânes، فلا يقسمون إلا بها ويشاورونها في الأمر كما لو كانت من ملائكة الوحي، وينامون على

(1) اذكر الاسم الذي أطلقه إتيان البيزنطي على سكان أوجلة.
(2) هيرودوت. الكتاب الأول. الفصل 4 ص 182.

قبور موتاهم ثم يفسرون أحلامهم بعد ذلك على أساس أنها ردود من أرواح الأسلاف[1]. يمكنني أن ألاحظ، بصورة عابرة، أن هذه العقيدة الغريبة ليست خالية من الأهمية بالنسبة للعقل البشري حيث وجدت سمات متماثلة تقريباً، وربما في نفس العصر، في عدة أماكن بعيدة جداً عن هذه الواحة. إن السكان في جزر ماريان Mariannes لا يتضرعون إلا إلى أرواح أجدادهم القدامى مثلما كان يفعل الأوجليون القدامى، ويطلقون عليها اسم Anitis ويعزون إليها، كما ذكر برناردان دوسانبيير Bernardin de St. Pierre نقلاً عن الأب غوبيان Gobien، سلطان التحكم في العناصر مثل تغيير الفصول المناخية ورد العافية بعد المرض[2]. سيكون من العبث أن نحاول أن نبحث عن أي أسس منطقية غير غرابة التفكير الإنساني لهذه الظاهرة الغريبة من الناحية الأخلاقية وعليه أريد أن اقتصر على الأوجليين فقط. إنني أؤكد على وجود آثار هامة لهذه العبادة في واحة أوجلة في أيامنا هذه.

لقد عثر حسب اعتقادي، على هذه الآثار في الحفريات القديمة التي وجدت في واحة جالو حيث يستطيع المرء أن يدخلها عن طريق مدخل مربع منحوت في طبقة صخرية وهي الحفريات التي ذكرت آنفاً بأنها موجودة في كل مكان في تلك الواحة على عمق ستة أقدام تقريباً تحت سطح الأرض. توجد سلالم صخرية على جانبي تلك الحفر حيث تبلغ أبعادها إجمالاً سبعة أمثال من كل جانب. إن ذلك القبو الصغير الذي تم اكتشافه وتنظيفه من قبل السكان، منذ سنوات قلائل، لن يقدم لنا، في حد ذاته، أي أثر يذكر عن الاستخدامات التي ذكرتها، إن لم يكن قد ارتبط بمسائل أخرى حيث أراني شيخ القرية عموداً مخروطي الشكل من حجر الكوارتس بارتفاع قدمين وست بوصات عثر عليه خلال عملية التنظيف المشار إليها. ثم العثور أيضاً على حجرة أخرى تساوي في ارتفاعها الحجرة السابقة غير أنها من مادة الجرانيت وكانت تستخدم كشاهد لقبر وليٍّ صالح. إن تلك الحجرة عبارة عن كتلة مربعة استدارت زواياها أو أركانها العليا قليلاً[3]. هل هناك صلة ما بين هذين الحجرين وبعض الأحجار النذرية «أي التي تستخدم في النذور» عند القدامى؟ إذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نعترف بأنها غفل من كل كتابة أو حروف يمكنه أن تحسم هذه المسألة. إن بُعد هذه المقاطعة، ونوع الحجر الذي وجد بها، والمادة التي صنعت منه، ومكان وجودها، تقدم

---

(1) بومبونيوس ميلا. الكتاب الأول ـ الفصل الثامن وسولين المصدر السابق، الفصل 44.

(2) برناردان دوسان بيير ـ دراسات عن الطبيعة ـ الطبعة الثالثة ـ المجلد الثالث ص 31 و 32.

(3) انظر الشكل 6 و 7 في اللوحة رقم 25.

لنا، ولأسباب شتى، عدة وجوه للشبه مع التقاليد الرمسية للأوجليين القدامى «Tumulaire». نحن نعرف مدى قدرة الرمال على المحافظة على الآثار حيث تدل القبور التي اكتشفت في صحراء مصر، على تلك الخاصية، إنني إذاً لن أقدم افتراضاً لا أساس له إذا قلت بأن تلك الآثار الصغيرة التي وجدت في قلب الرمال ومنذ قرون في كهف تم استخدامه للدفن ثم ردمته الرمال، ليست سوى أحجار نذرية قام الأوجليون بنصبها لأرواح أسلافهم، وهي تقدم لنا، بالتالي، دليلاً لا يزال قائماً على إخلاص وأمانة وصدق روايات التاريخ والعبادات الرمسية أو القبرية لسكان أوجله القدامى. طالما إنني لا زلت موجوداً على أبواب أفريقيا، وبين البدو الرحل حيث تبادلت معهم أطراف الحديث عن رحلاتهم القديمة، يمكنني أن أتسلى بترجمة بعض رواياتهم وقد أقدم معلومات جديدة لجغرافية هذه المناطق الغامضة. لقد علمت، بعد ذلك وللأسف الشديد، أن مثل هذه المعلومات التي كان يمكنني أن أستقيها من تلك المصادر، قد صارت من قبيل الحشو نظراً لقيام أوروبي بعبور أفريقيا المرعبة وغامرة بمفرده في قطع تلك الفيافي الفتاكة، ونجا منها بعد أن استطاع أن يخدع التزمت الديني بفضل تزمته للمجد، وأقام في مدينة تومبوكتو الغامضة ثم عاد منها بسلام. المجد لك أيها الرحالة السعيد. إن شجاعتك قد روضت الحية التي تحرس شجرة التفاح حيث يمكنك الآن أن تقدم ثمرتها إلى فرنسا بكل فخر واعتزاز. إنني سأترك هنا، دون أي شعور بالأسف، ثرثرتي عن أوجله ولكنني أوجه ناظري صوب دواخل أفريقيا. لقد وجدت فيها، دون قصد مني، أسماءً أحب أن أزين بها هذا الجزء من الجغرافية التي تتعلق بهذه المنطقة لو كان صوتي الضعيف قادراً على إضافة شيء، مهما كان زهيداً، إلى شهرتها. إن الثمار التي سوف أجنيها ستكون وفيرة ومتنوعة دون أن أوجه ناظري بعيداً عن المنطقة من حولي. يمكنني أيضاً أن أستشهد بالسيد جومار Joumard لأنه يمثل استشهاداً بعالم كرس نفسه منذ سنوات طول لجغرافية أفريقيا. سوف أغتنم بعد ذلك الفرصة للإشارة بدوري إلى ملخص تاريخي جيد يحمل عنواناً متواضعاً هو «دراسة». لقد تجولت خلال هذا الملخص في الحوليات القاحلة لأفريقيا ولقد أخذت بروعة هذه القارة. إن الفضل في ذلك يرجع إلى روعة الأسلوب وسحر البيان إذا اتحد مع العلم وكان السيد لارنودبير أحد أولئك الذين يتقنون فن جعل الفقه العلمي لطيفاً بفضل موهبة الاستخدام الجذاب للغة لا يسعني أيضاً إلا أن أذكر بأعمال «برويه» Bruè ولابيه Lapie عن أفريقيا، وأن أساهم هكذا، وبطيب خاطر، في إبراز الضمير الحي، بطرق أخرى، بين أكوام من البحوث والدراسات التي لا تسمح إلا برؤية القمم الحقيقية فقط.

وإذ أستمر في التذكير ببعض الأسماء، عثرت على جمهرة منها، يمثل كل واحد منهم شخصية متفردة، سوف أختار منها البعض وهم السادة فالكانر Walkenaër وآريس Eyries وجوبير Jaubert الذين ازدان علمهم بالبساطة القديمة التي أضافت إليه أهمية كبرى. لقد كنت أود أن أقدم الدليل على أن تلك البساطة قد تتخذ شكلاً رائعاً. أود أن أضيف إلى هـؤلاء الجغـرافيين السيـد دولا روكيـت De la Roquette عـالـم ومتـرجـم لـدى القـوات الصحراوية«Grand Colomb» كما لا يمكنني أن أنسى دراسات دونيه De Naix العميقة وعروضه البديعة، أو أبحاث دوبان Dupin المفيدة، أو رسومات بالبي Balbi ومورو Moreau وغيرهما.

إن هذه الأعمال هامة جداً بالنسبة لي لأنها، وبغض النظر عن أهدافها، تساعد الجغرافي الفيلسوف على تقديم دراسات من طراز جديد ومختلف. إذا كان هذا الإطراء الذي أردت أن أزركش به خاتمة كتابي، وكأنه مصباح يتدلى من السقف، يعتبر من قبيل الحشو، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لمدح أولئك الذين أصبحت مديناً لهم.

هكذا ومهما كانت ملاحظاتي عابرة في روايتي هذه، فإنني إرجو أن يسمح لي، وأنا أهم باختتامها، أن أشيد بالسيدين فبرمان وديدو «أصحاب دار النشر.. المترجم» حيث صار للمؤلفات الهامة رغم اقترانها برسومات شارحة ومكلفة، أهمية بفضل رعايتهما للعلم واهتمامها به. أرجو أن يسمح لي أيضاً أن أتقدم بجزيل الشكر إلى التاجر الرائع السيد غينية Guyenet الذي مكنني، بفضل مساعدته السخية، من حصاد الموادّ الهامة في الأماكن التي كان يصعب التجول بها. إنني أؤكد على ذلك لأن تقديم أي عون خالٍ من المصلحة لأي عمل علمي يتمثل، في حالة تتويج هذا العمل بنتائج، في كون المساعد هو صاحب الفضل الكبير في إنجاز ذلك العمل.

انتهت الرحلة

ملحق للرحلة

في برقة

رحلة من أوجلة إلى مرزق
وفقاً لرواية أحد سكان أوجلة[1]

يصل الإنسان، إذا اتجه غرباً، وبعد مسيرة أربعة أيام، إلى واحة زلّة، وهي محطة صحراوية توجد بها بعض أجمات أشجار النخيل والمياه العذبة ولو أنها مالحة بعض الشيء.

بعد مسيرة أربعة أيام غرباً أيضاً في اتجاه درجة «تسع درجات» شمالاً، توجد واحة أوباري، في مكان به منخفض يتكون من صخور الصوّان الصلد الذي يحتفظ بمياه الأمطار خلال أغلب أشهر السنة.

بعد مسيرة أربعة أيام في اتجاه الدرجة التاسعة شمالاً أيضاً توجد واحدة صغيرة تسمى «كنابه» Kennabah وتنتج التمور وبها أشجار التمر الهندي. ونباتات Aghoul أو علف الصحراء. وبها أيضاً مصادر للمياه العذبة.

بعد ذلك بمسيرة يوم واحد، يعثر المرء على واحة تمسّه وهي إحدى قرى فزان ويتراوح عدد سكانها بين ثلثمائة وأربعمائة نسمة. يمارس السكان فيها زراعة الشعير والقمح والبطيخ وأشجار التين والرمان وذلك في قلب الرمال. لا يوجد في تلك القرية أي ممثل أو مندوب لحاكم فزان الباي حسن غير أن الشيخ بلعيد «Beled» هو الذي يقوم بجباية الضرائب المفروضة على أشجار النخيل وهي بمعدل قرش إسباني واحد عن كل مائة نخلة.

توجد على مسيرة يوم واحد في اتجاه الشمال الغربي واحة زويلة، وهي قرية كبيرة حيث يوجد بها معلمان قديمان مشيدان على أسس ضخمة ويمثلان قصرين عربيين.

---

(1) لقد احتفظنا بنفس المسافات التي وردت في هذه الرواية لأحد سكان أوجله رغم أنها لا تتفق مع تلك المبينة على الخرائط.

يلقب سكان هذه الواحة بلقب «صرفة» Sarffah ويصل عددهم نحو ألف وخمسمائة نسمة. تتكون تربة زويلة من خليط من الرمال والأملاح، ويوجد بها عدد كبير من آبار الماء المبطنة بجذوع النخيل وهي تشابه آبار أوجله، ولا يوجد بها أي نبع للمياه.

لا يزرع السكان فيها سوى الشعير والقمح وتوجد بها أشجار النخيل بأعداد هائلة. تقع هذه الواحة مثل سابقتها في سهل كبير منسط لا توجد به أي تلة أو مرتفع، وهو يشبه سهل أوجله حيث يطلق البدو، على هذا النمط من السهول اسم «السرير». إن قرية زويلة هي مقر شاوش «وكيل» الباي حسن. بعد مسيرة يوم واحد، في اتجاه الغرب، وعبر غابة لا حدّ لها من أشجار النخيل، يصل المرء إلى قرية «الحمراء» وهي واحة أصغر قليلاً من زويله. توجد بالقرب منها أو تقابلها في الشمال واحة أصغر منها تسمى «ماسيخوين».

بعد مسيرة ساعتين في اتجاه شمال غرب «الحمرة» توجد قرية أخرى تسمى «أم الأرانب» وهي تشبه قرية الحمرة من حيث الحجم، ولا يوجد بها أي مصدر للماء، غير الآبار ولذا فهي تنتج نفس المحاصيل التي تنتجها واحتا زويلة والحمرة. إن هذه الواحة تقع على الطريق الموصلة بين هاتين الواحتين.

بعد ذلك بمسيرة ثلاث ساعات تقريباً في اتجاه الجنوب من أم الأرانب توجد واحة «مغاوية» وهي قرية صغيرة مغطاة بالرمال التي يصل عمقها إلى عدة أقدام رغم أن تربتها تتكون من خليط من الرمال والملح.

بعد مسيرة ساعتين من هذه القرية في اتجاه الشرق، يعثر المرء على قرية «طويلة» التي تحدها سلسلة من التلال من الناحية الجنوبية. على بعد مسيرة نصف يوم من قرية طويلة في اتجاه الغرب توجد قرية «تراغن» وهي بنفس حجم زويله وبها عدة عيون عذبة تروي حقول الشعير والقمح والبطيخ وبساتين الكروم والتين والرمان. يشاهد المرء بعد ذلك في اتجاه الشمال من تلك القرية مخاريط معزولة تتكون من الصخور الهشة ذات اللون الأحمر القاني. بعد ذلك بمسافة مسيرة يوم في اتجاه الغرب، يعثر المرء على قرية «زازاويك» وتقع في جنوبها قرية صغيرة أخرى تسمى «العين» نظراً لوجود نبع ماء بديع بها. أخيراً، وبعد مسيرة نصف يوم في اتجاه الغرب توجد مدينة «مرزق»، عاصمة فزان، وتقع في سهل يتكون من الرمال والتربة والملحية. يعود الفضل في ثراء هذه المدينة وكذلك بالنسبة لحواضر المقاطعات الوسطى في افريقيا، إلى رواج التجارة ونشاط الأسواق حيث يأتي السكان إليها من جميع المناطق الأخرى لبيع سلعهم أو مقايضتها بسلع أخرى أو مواد

غذائية. إن أهم جانب من جوانب تجارة الصادرات فيها يشمل بيع جلود الماعز من أجل صناعة القرب والسروج حيث تصنع فيها تلك الأشياء بمهارة وإتقان. ترتدي نساء مرزق نفس زي نساء مصر تقريباً باستثناء الحجاب، وهي تشترك مع بدويات برقة في ميزة سفور الوجه. ترتدي النسوة قمصان زرقاء فضفاضة تسمى «موكته». عندما تتزوج المرأة في هذه المنطقة ترتدي غطاء رأس قطنياً مصنوعاً باللون الأحمر يسمى «مدوّرة» حيث لا توجد أي امرأة، إلا نادراً، لا تحمل أو ترتدي غطاء الرأس الذي يسمى «ملاية» بالإضافة إلى المدورة. تتكون الملاية من نسيج من القماش يربط على الرأس ثم يسدل ما تبقى منه على الأكتاف.

يتم لبس الملاية[1] وربطها بعدة طرق. تشبه تلك النسوة النساء المصريات من حيث وجود شريط على الجبين تتدلى منه حلى كثيرة وغيرها من قطع النقود، كما تتدلى من أذانهن حلقات كبيرة من الفضة ويندر ألا توجد في أرجلهن حلقات زجاجية مختلفة الألوان.

إن حاكم فزان هو حسن باي، وتتكون قواته من مائة وخمسين فارساً من طرابلس وثلثمائة جندي يتم تجنيدهم من بدو الصحراء. لقد حل هذا الباي محل الباي مصطفى الذي توفي في فزان بعد غزوة لبورنو حيث أحضر منها خمسة آلاف من الرقيق.

(1) تجدر الإشارة هنا إلى أن الرحالة قد استخدم الأسماء التي يطلقها أولاد عليّ هذه الأشياء مثل الملاية بدلاً من «المحرمة» و«المدورة» بدلاً من الشمال و«الغندورة» بدلاً من «البندير» إلخ. . . . .

قائمة ببعض العبارات والأسماء التي استخدمت خلال هذه الرواية والتي نسخت على عين المكان بالحروف العربية من قبل فريدريك مولر

ملاحظة: من أجل تخفيف النطق لبعض الكلمات العربية، ومن أجل تمشي هذا النطق مع الاستعمال السريع والمختصر لهذا الجزء من أفريقيا، قام باشو بحذف حرف «الألف» الأولى في كلمات مثل «ابو». لقد اعتقدنا أنه ينبغي علينا هنا أن نعيد كتابة هذا الحرف أحياناً وذلك بغية جعل عملية نسخ الكلمة نحو الفرنسية مطابقة للإملاء العربية. إن هذا التغيير الطفيف وبعض التعديلات الأخرى غير المهمة لن تحول دون تعرف القارىء على الأسماء الواردة في هذه القائمة وتقريباً من تلك التي وردت في متن نص الرحلة التي قام بها المؤلف. ونظراً لغياب السيد مولر أثناء عملية طباعة ونشر هذا الكتاب فلقد رجعنا، كلما أمكن ذلك، إلى مخطوطه.

LISTE

De Quelques mots employés dans cette relation, et transcrits sur les lieux, en caractéres arabes, par M. Frédric Muller

Dernah.	درنه
Abiar el Kelleh.	ابيار الخلعه
Bousbekah	بوس بكه
Abousir	ابوسير
Ouadi mariout.	وأدي ماريوط
Bednat.	بدنات
Sérenéh	سرنه
Bourden	البوردن
Boumnah.	بومنه
Kasr ghettdjiah.	قصر قطّاجه
El-Hammam.	الحمام
Kasr Amaïd.	قصر عميد
Zhaher.	ظاهر
Kassabat Elchammamèh.	قصبه الشمامه
Dresièh.	درزيه
Gebel-Kouramah.	جبل كرامه
Benaiè-Abou-sèlim.	بنية ابو سليم

Maktaérraï.
Giamerneh.
Asambak.
Gephrah.
Acabah-el-soughaier.
Mendar-elemedah.
Achebeat.
Elkassébat zargah.
Berek marsa.
Boun Adjoubah.
Kasr Abousouety.
Argoub souf.
Marsa elbeït.
Kasr Chamès.
Choubbak.
Kasr Ladjèdabiah.
Akaba-el-souloum.

Bombah.	بومبه	Abou Mansour.	ابو منصور
Batrakah.	بتركه	El-Tahtani.	التحتاني
El-Hey.	الحيّ	El-Fokâni.	الفوقاني
Kraâth.	كرعط	Brouès.	البروس
Kàfrám.	كفرام	Maarras-elleben	معرّس اللبن
Zatrah.	زطره	Elftahiah.	الفتايه
Tadenet.	تدنت	Grennah.	قرنّه
Massakhit.	مسخيط	Cheikh Aziz.	شيخ عزيز
Ouadi el-Haradj.	وادي الحرج	Kasr Ghardam.	قصرقردم
Khechm-rezk.	خشم رزق	Kourmous.	كورموس
Ouadi el Harran.	وادي الحرّان	Chéhah.	شهه
Kasr Harami.	قصر حرامي	Kasr-Abou hassan.	قصر ابو حسن
Magharenat.	مغارنات	Ouadi-Harden.	وادي هردن
Grennah.	قرنه	Ouadi Bethak.	وادي بتحاق
Safsaf.	سفساف	Koubbèh.	قبّه
El-Empharrah.	الامفرّح	Birzemleh.	برزمله
Kasr Scheghièh.	قصر شقيه	El-Zoroah.	الذرعه
Bou-Meliou.	بومليو	El-daraah.	الدرعه
El-Hayer.	الحيّر	Daphnèh.	دفنه
Themimèh.	ثميمه	Kaser Djedi.	قصر الجدي
Ras-el-tin	رأس الطين	Harâbi.	الحرابي
Aïn Erzem ou Erazem.	عين ارزم	Habboun.	حبّون
Hédjadj.	حجّاج	Mouraboutin	مرابطين
Chaouch.	شاوش	Coum boun.	كوم بون
Dèrias.	درياس	Toubrouk.	طبروق
Hadji-abd-el Aziz.	حاج عبد العزيز	Kelekah.	الكلكه
Beled el-Sour	بلد الصور	Magharat el Habs.	مغرات الحبس
Magharah.	مغاره	Ain elghazal.	عين الغزال

Gherthaboulous	قرطبولوس	Djebeli.	جبلي
Djaus	جوز	Lemlez.	الاملز
Ghabou-djaus.	قبو جوز	Kasr iaden.	قصر يادن
Hiarah	ياره	Tegheigh.	تقيق
Djoubrah	جوبره	Aghtas.	اغطاس
Ghabou- Diounis	قبو ديونس	Natroun.	نطرون
Safneh	صفنه	Ouadi-abou sheffeh.	وادي ابوشفّه
Ghernès	انقرنس	Ras-el-Halal.	رأس الهلال
Thaougât.	طاوقات	Moukfeif	مكفيف
Abou-Ebeilah	ابوابيلح	Bou Bdier	بوبدير
Tereth	ترت	Hôch	حوش
El-Gouafel	القوافل	Kasr Abou Rhaouè	قصر ابوغاوي
Lameloudeh	الاملوده	Kasr Abou-ghadis.	قصر ابوقادس
Djaborah	جبوره	Maâthan chaeth	معطن شعط
Kasr Sammalous	قصر سملوس	El-Keren	الكرن
Saouani	صواني	Abou'l-ghadir	ابوالغدير
Doukhn	دوخن	El-Bagharah	البقره
Darfour	دارفور	El-Nètechss	النتكس
Berber	بربر	El-Mektelèh	المقتله
Maradeh	مراده	Tel-Ghazèh	تل غازه
Meyrighah	مهريقه	Mouchedachièh	مشداشيه
Ain Sidi	عين سيدي	Charah	شراع
Mohammed	محمد	Teharrebou	تغارّبو
Aghoul	اغول	Ouadi Sammalous	وادي سملوس
Ghour djahenneim	غور جهنيم	Tkassis	تكسس
Hayfath	حيفاط	Menakiet	المنكات
Ain-el-Ball	عين البلّ	Zouani	زواني
Ain-el-Daba	عين الضبع	Oumma-Bneib	ام بنيب

Maâthen	معطن	Souza	سوزه
Aoûd	عود	El-Maraouèh	المراوة
Lemchidi	الامشيدي	Bénéghdem	بنقدم
Chiathah	شياطه	Tolometa	ثلمثه
Gahzelièh	غزليه	Kasr-el-Asker	قصر العسكر
Maraghi	مرقى	Taoukra	طاوكره
Mourseff	مورسف	El Merdjeh	المرجه
Ladjedabiah	الأجدابيه	Barcah	برقه
Rassam	رسم	Sebkha-el-berss	صبخة البرس
Sebilèh	سبيلة	Kassebat	قصبة
Serir	سرير	Ben-Ghazi	بن غازي
Audjelah	أوجله	Tellemoun	تلمون
Zeghaghnèj	زقاقنه	Djelid	جليد
Sebkhah	صبخه	Zaghouth	زقوط
El-Hâti	الحاطي	Zalah	زلعه
El-Sarranèh	السرّانه	Zaouièh	زاوية
El-Ghetaoui	القطوي	Djallou	جالو
Kseb	قصب	Haragh	عراق
Ghafouli	غفولي	Lébé	لبه
Ouadi gautmir	وادي قطمير	Oum el-Messid	ام المسيد
Louèchkah	الوشكه	El Heiry	الهرى
Ghèghab	ققاب	Léchkherrèh	الاشخره
Taraknet	تركنة	Lagheiah	لقيه
Sirêh	سيره	Tarfayah	طرفايه
Kasr maârah	قصر ماره	Faredghah	فردغه
Beit tamar	بيت ثمر	Mogharah	مقرّه
Debek	دبكه	El Haudh	الحوض
Kamissah	خميسه	Ouadi Tebelbèh	وادي تبلبه

ماوّمت	Maouêmet
قرعه	Gharah
ام الصغيّر	Oum el-Soughaier
ابو الغرادك	Abou'l Gharadek
مقرّة	Moqarrah
كرداسي	Kardassèh
ملح الرش	Melh-ar-rach

شنديره	Chenedirèh
الكراشي	Elkaraschi
جلب	Ghelleb
ام اللحم	Oum ellaham
قصر سنيو	Kasr seniou
رفّعه	Reffah
البومه	Boumnah

---

* تجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه الكلمات بالعربية قد نسخت خطأ مثل «وادي بتحاك» بدلاً من وادي بالضحاك والبروس بدلاً من «بوريوس» وغيرها. . . المترجم.

مفردات مقتطفة من لغة السكان في واحة اوجله

جمعها ونسخ نطقها إلى الفرنسية فردريك مولر
أحد قدامى طلبة المدرسة الملكية للغات الشرقية
راجعها السيد عقوب
أستاذ اللغة العربية في الكلية الملكية
لوى لو غران **Louis-Le-Grand**

A

Abisser	Hafra	حفره
Abattre	Thayah*	طيّح
Abattu.	Youayah.	يوّايه
Abcès.	Doummeleh*.	دملّة
Abeille.	Tement.	تمنت
Aboiement.	Guerzen.	قرزن
Abondance.	Daggout.	دقوت
Aboyer.	Guerzeni.	قرزني
Abreuver.	Yéchouaya.	يشوّايه
Abricot.	Michmech*.	مشمش
Absence.	Yéghabab*.	يغابه
Absenter(S').	Aghab*.	اغاب
Abuser (S'), se tromper.	Yéghlèthah*.	يغلط
Accoucher.	Idjer.	يجر

* ملاحظة: إن كل الكلمات التي تليها علامة* عربية أو مشتقة من أصل عربي.

Accourcir.	Yerzaya.	يرزيه
Accrocher.	Yaallega*.	يعلقه
Accroître.	Daggat.	دقّات
Achever.	Ammartet*.	عّمرتت
Achevé.	Taammartet*.	تعمّرتت
Adoucir.	Retteb*.	رطّب
Age.	Ammagoua.	اماقوع
Agile.	Féchouch.	فشوش
Agilité.	Féchach.	فشاش
Agrandir.	Makkar.	مكّار
Aider.	Yougheya.	يوغّيه
Aigre.	Tehmeta*.	تحمطه
Aiguiser.	Sounnit*.	سنّيت
Aimer.	Yéghachtia.	يغاشتيه
Ansi.	Toudig.	تودق
Aisselle.	Teghmert.	تغمرت
Allaiter.	Iembeya.	يمبيه
Alléger.	Fech.	فشّ
Aller.	Youghera.	يوغره
Ex: je vais.	Nemadiakhr*.	نهضياخر
Aller devant.	Djeghez.	جقز
Allumer	Chelhamt	شلحمت
Allonger	Edgout	ادقوت
Amer	Mourr*	مرّ
Amollir	Retteb*	رطب
Ample	Wourket	وركت
Ane	Azeit	ازيت
Annonger	Daynis	دينس

Aplatir	Khabatez	خبطز
Appeler	Naghy*	ناغي
Apporter	Heggad	حقّاد
Apprendre, enseigner	Elmeida	الهيدا
S'instruire	Yelmieda	يلميدا
Approcher	Yeddella	يدلاّ
Appuyer	Thaft	طفت
Araignée	Djekez	جكز
Argent, métal	Fedjrah	فجرة
Argent, monnaie	Barah, turk	بره
Arme	Selah*	سلاح
Arracher	Ekkech	اكّش
Arrêter (S')	Thafdhilin	طفضيلين
Arrivée	Youchada	يوشاده
Article	Édjijia	اجيجيه
Assanssin	Yanghia	ينغيه
Assassiner	Anghia	انغيه
Assez	Aéssould	عصّود
Associé	Mecharekina	مشاركينه
Atteindre	Yèouath	يوّاط
Attendre	Sbordik*	صبرديك
Automne	Téghéricht	تغرشت
Autre	Akher*	اخر
Autruche	Naamet	نعامة
Avaler	Yezarat	يظرات
Avare	Ahach	احاش
Accoutumé	Yehbéla	يهبلا
Acheter	Yéségha	يسغه

B

Baigner (se)	Yésiéfa	يسيفه
Baiser, v.	Yammahessa	يمهسّه
Baiser, s.	Yammahess	يمهسّ
Ball	Taqileh	ثقيلة
Barbe	Taamert	تعمرت
Barbier	Yezem	يزم
Bas	Emaqtha*.	المقطعة
Bataille	Yerouaha	يروها
Bati	Hawir	هاوير
Batir	Wir	وير
Baton	Tagharit	تغريت
Beaucoup	Doggout	دقّوت
Bon-marché	Ghaleika	غليكه
Boeuf	Akfik	اكفيك
Bouc	Zalaa	زلعه
Bouche	Amennes	امّنس
Boucher, v.	Mernez	مرنز
Boucher, s.	Yégharrech	يغرّش
Boue	Témédghat	تمدغات
Bouillir	Yétawer	يتور
Boulanger	Yennatthar	ينطّار
Boule	Tahhallaq	طحلق
Bourreau	Yeghettem igiliouy	يغتمّ يجيليوي
Bourse	Tékissid	تكيسّد
Bout	Chethbath	شطباط
Boyaux	Tchermin	تشرمين
Braïre	Neheq*.	نهق

Braise	Teragghiat	ترقّية
Bêche	Mashah*	مسحة
Bled	Yarden	ياردن
Bénéfice	Elfaïdeh*	الفايده
Beurre	Alida	اليده
Bientôt	Qaouama*	قوّما
Blanchir	Naddéfah*	نضّفه
Blessé, étre	Yéouathieh	يوّاطية
Blessé	Ettaouéthah	اطاوّطه
Blessure	Tékattech	تكّتش
Bleu	Telazraq*	تلازرق
Boire	Yéchou	يشو
Ex. Donnez-moi à boir	Efkidi kachoua	افكيدي كشوه
Bois	Sghaghin	صغاغين
Bôter	Aradj*	عرج
Boîteux	Arradj*	عرّج
Borgne	Delaaouar*, persan	دلاوار
Bras	Afous	افوس
Brebis	Geleb	جلب
Briquet	Zenad*	زناد
Brisé	Erzay	ارزاي
Briser	Erzayeh	ارزايه
- (se)	Yerzayeh	يرزايه
Brouiller	Echchera	اشّره
Brulé	Mahrouq*	محروق
Bruler	Haraq*	حرق
Brouillard	Demmeza*	دمّزه

C

Carré	Yakareina	ياكرينا
Canon de fusil	Bondokat*	بندقات
Cassé	Erzay	ارزاي
Casser (se)	Yerzayeh	يرزايه
Cause	Damankouyenti	دامنكوينتي
Cavalier	Elbeba	الببه
Ce, cette	Douayeh	دوايه
Cendre	Aghwel	اغول
Cependant	Afioua	افيوه
Certainement	Ezdaqa	اصدقة
Cerveau	Taqileh	ثقيله
Crevelle	Taqileh	ثقيلة
Chacun	Koull iounkesimani*	كلّ ينقسماني
Chaîne	Tedjiri	تجيري
Chair	Aksoum	اكسوم
Changer	Yenfela	ينفلا
Chant	Yediz	يديز
Chanter	Yaghlediz	يغلديز
Charger	Mertouf	مرتوف
Charge	Ammertouf	امّرتوف
Chargé	Youseq*	يوسق
Chasse	Khalleb	خلّب
Chasseur	Yekhalleb	يخلّب
Chat	Thazerdaght	طزردغت
Chemin	Tabrouth	تبروط
Chemise	Tékabert	تكبرت
Cher	Yéghalayeh*	يغلايه
Chercher	Ghaleit	غليت

Cheval	Aghmar	اغمار
Cheveu	Ezem	اذم
Cheville	Errichet	ارّيشت
Chien	Eghzin	اغزين
Chine du fusil	Akadjet	اكاجت
Coeur	Ouelnis	اوّلنس
Combattre	Yérouahah	يرواها
Combien	Samaghoua	صمغوه
Comprendre	Fehmés*	فهمس
Conduire	Fikez	فكز
Coq	Akadjet	اكاجة
Corde	Édjeri	اجرى
Corne	Aghit	اغيت
Cou	Agarat	اقارات
Coucher (se)	Ychayeh	يشايه
Coude	Merfeq	مرفق
Coup	Eioued	ايواد
Couper	Yekthimeh	يقطيمه
Courber	Aouedjeh*	عوّجه
Courbé	Mâouedjeh*	معوّجه
Courit	Yétazzeh	يتازّه
Court	Kasir*	قصير
Couteau	Tékandjart*	تخنجرت
Couture	Ezzoumak	ازّومك
Couvercle	Yendeltia	يندلتيه
Couverture	Thalabah	طلابه
Couvrir	Endetti	اندتّي
Craindre	Yérouaha	يرواها

Crainte	Arouaha	اروها
Crasse	Ousikh*	وسيخ
Creuser	Négarad	نقاراد
Crier	Enagha*	اناغه
Cru	Yérayah	يرايه
Cuillére	Téféloucht	تفلوشت
Cuire	Techoummat	تشومات
Cuisnier	Échouman	اشومان
Cuisse	Thaghmay	طاغماي
Cuivre	Anich	انيش
Cultiver	Harits*	حرث
Culture	Haraseh*	حراثه

D

Daim, gazelle.	Adjem	ادجم
Danse	Choua	شوة
Danser	Echoua	اشوة
Danseur	Châoua	شاوه
Date	Tékartay	تكرتاي
Datte, fruit.	Lahbou	لحبو
Davantage	Dakket	دكت
Dedans	Azkik	اذكيك
Défaut	Aïb*	عيب
Dégat	Cherouath	شرواط
Délié, mince	Daqaq*	دقاق
Délivrer, sauver	Khallés*	خلّص
Démarche	Aroukh	اروخ
Dent	Sennou	سنّو

Déployé	Methaoues	مطوّس
Déployer	Thaoués	طوس
Dépôt	Imanet	امانة
Dernier	Edaniet	ادانية
Derniérement	Ichfeldanieh	ايشفلدانية
Dérobé	Méghttha	مغطّا
Dérober	Ghattha	غطّا
Desséché	Mikourah	ميكورة
Dessécher	Ikourah	يكورة
Difficile	Ouâar	واعر
Diminuer	Dérouch	دروش
Dîner	Yetch	يتش
Dispute	Ouahleina	واحلينا
Divisé	Mejnaneh	مجنانه
Diviser	Yejnaneh	يجنانه
Doigt	Ghed	قد
Donner	Gharameh	غرامه
Dormir	Ichayeh	يشايه
Dos	Ghezzer	قزّز
Douceur	Moum	موم
Doux	Moumeh	مومه
Drap	Malf*	ملف
Dressé	Mekerr	مكرّ
Dresser	Kerr	كرّ
Drogue	Doua*	دوا
Dur	Yékorah	يكوره

E

Eau	Imen	يمن
Ecaille	Tésreimt	تسريمت
Echapper (s')	Yéréouel	يروّال
Echelle	Thadit	تحاديت
Eclair	Barq*	برق
Eclairé	Menawouar*	منوّر
Eclairer	Nawouar*	نوّر
Ecorce	Taserimt	طسريمت
Ecorché	Maslokh*	مسلوخ
Ecorcher	Aéslokh	اسلوخ
Ecriture	Arrab*	عرّب
Egal, uni.	Ouahed*	واحد
Egarer	Yétchouéddar	يتشوتدار
Elargi	Kaouama	كوّما
Elargir	Yékaouema	يكوّما
Elevé	Maïosk	مايوسك
Elever, hausser.	Aïosk	ايوسك
Empan	Echber*	اشبر
Empli	Maëtker	معتكر
Emplir	Aëtker	عتكر
Emprunt	Miéfkes	ميفكس
Emprunter	Yefkés	يفكس
Encore	Elikka	اليكّا
Enfant	Yéréhou	يرهو
Enflé	Menfekh*	منفخ
Enfler	Nefekh*	نفخ
Enfuir (s')	Yéréouel	يروّل
Enivrer	Sekker	سكّر

Enivrant	Mesekker*	مسكّر
Enrhumé	Misterouh*	ستروح
Enrhumé (être)	Esterouh*	استروح
Entier	Ekmeleh*	اكملة
Entiérement	Bettemêm	بالتّمام
Entortillé	Ebrénah	ابرنه
Entortiller	Brénah	برنه
Entourer	Édourah*	ادوره
Entrée	Younaah	يونغه
Enveloppé	Mélouffi*	ملفّى
Envelopper	Louffi*	لفّى
Envoyé	Maïsen	معيسن
Envoyer	Aïsen	عيسن
Epais	Azouar	ازوار
Epi	Tékadert	تكدرت
Epine	Deri	درى
Epouse	tekhtabeh*	تخطابة
Epouser	Atekhtabet*	اتخطابة
Epoux	Tekhtab	تخطاب
Escalier	Tahadit	تحدية
Essuyé	Melouffeh	ملوّفة
Essuyer	Louffeh	لوفّة
Estomac	Maadeh*	معدة
Etain	Tildount	طلدونت
Eté	Ahoch	اخوش
Eteindre	Chakka	شكّة
Eteint	Echkka	اشكة
Etendre	Afous	افوس

Etérnuer	Esenser	اسنسر
Etoile	Negmet*	نجمة
Etranger	Estamesna	اسطمسنه
Etroit	Qarez	قارز

F

Facher (se)	Yéghattah	يغطّا
Facile	Derouch	دروش
Faim	Loza	لوزه
Fait	Anighah	انيغة
Tout-à-fait	Ekmella*	اكملّه
Falloir	Yéghally	يغلّي
Fange	Témédghat	تمدغات
Farine	Newroun	نورون
Faute	Edno	ادنو
Faux, instrument	Emker	امكر
Femelle	Temighni	تميغني
Femme	Tétoutah	تطوطة
Fendre	Charreit*	شرّيط
Fendu	Mecharreita*	مشرّيطة
Fer	Zel	زل
Fermé	Makeecha	مكّشه
Fermer	Yékkecha	يكشّه
Fesse	Almagâad*	المقعد
Fête	Aid*	عيد
Feuille	Teserrim	تصرّيم
Féve	Éwéouen	اوّون
Fiei	Andal	اندال
Fiente	Tamahchot	تمكشت

Figue	Thellakh	طلاخ
Figure	Andiouan	انديوان
Fil	Ezzeloum	ازلّوم
Fille	Thériout	طريوت
Fini	Tamartet	تامرتت
Finir	Amartet	امرتت
Flairer	Yénéki	ينكي
Flamme	Afou	افو
Fleur	Sahar*	زهر
Foie	Aul	اول
Folie	Cheithaneh	شيطانه
Fondre	Yédabah	يدبه
Fondu	Médabah	مدبه
Force	Degoud	دقود
Forcé	Msimanés	مسيمانس
Forcer	Simanes	سيمانس
Par force	Yéghlebah*	يغلبه
Fort	Zor	زور
Foudre	Gaouy	قوي
Four	Lésikh	لسيخ
Fourchette	Déri	دري
Fourmi	Tékétfi	تكتفي
Fraîcheur	Nada*	ندا
Frais	Saouad	صواد
Frére	Oumak	اومك
Froid	Esaqqua	اسقّى
Fromage	Temlid	تمليد
Front	Djebeheh*	جبهة

Frotté	Échéred	اشرد
Frotter	Châred	شارد
Fruits	Elkhodret	الخضرة
Fuir	Yérouel	يروّل
Fusil	Bondokat*	بندقات

G

Gai	Méfreha*	مفرحة
Gaîté	Farha*	فرحة
Galle	Tamasoud	طماصود
Garde, prendre garde	Thouad	طوه
Garrotter	Kant	كنت
Genou	Afoud	افود
Gorge, gosier	Khandjart	خنجرت
Gouter	Efkik	افكيك
Gouverner	Mekellid	مقلّيد
Gouverneur	Kellad	قلّاد
Grain	Eftèhou	افتهوه
Graisse	Eddind	ادّيند
Grande	Mokar	مكار
Gras	Gaouy*	قوى
Gravé	Ménégrech	منقرس
Graver	Négrech	نقرش
Gros	Tenou	تنو
Guérir	Yénézah	ينزه

H

Habiller	Kesoud	قسود
- (s')	Ankesoud	انقسود
Habit	Tékébert	تكبرت

Habitant	Yakimeh	يكيمة
Habité	Diléouan	ديلاوان
Habiter	Echfera	اشفره
Habituer (s')	Bekkoul	بكوّل
Hacher	Enjarat	انجرات
Haleine	Ekammel	اكمّل
Hausser	Erfâa*	ارفع
Hauteur	Alouéh*	علوه
Herbe	Ekéghast	اكغست
Heure	Afioua	افيوه
Hibou	Boum*	بوم
Hier	Yed	يد
Hirondelle	Tharned	طرند
Hiver	Téghéricht	تقرشت
Homme	Amaden	امادن
Honte	Aïb*	عيب
Huile	Zeit*	زيت

I

Immolé	Magharich	مغارش
Immoler	Gharich	غارش
Immonde	Efkis	افكيس
Impair	Eiouana	ايوانه
Imparfait	Hhach	حاش
Impur	Efkis	افكيس
Interroger	Neghaka	نغاكه

J

Jambe	Emédjer	امجر
Jaune	Kamezar	كمزار

Jaunir	Kamzar	كمزر
Jeune	Métchik	متشيك
Jeuner	Edouf	ادوف
Joie	Méfreha*	مفرحة
Joli	Mari	ماري
Joue	Fich	فيش
Jurement	Efed	افد
Jurer	Yéféd	يفد

L

La	Diliou	ديليو
Laisser	Yédji	يجي
Laitue	Mézalem	مذالم
Langue	Elsuo	الصو
Large	Emten	امتن
Larme	Yémannes	يمانّس
Las (être)	Yéfela	يفلاّ
Léché	Meksaha	مكسها
Lécher	Eksaha	اكسها
Lentille	Ads*	عدس
Lettre	Tékhartey	تخارتي
Levain	Khamired*	خميرد
Lézard	Elfennak	الفنّك
Lien	Oulo	اولو
Lin	Slad	صلاد
Lit	Thaoues	طوس
Lorsque	Lamma*	لمّا
Loup	Akidaf	اكيداف
Loyer	Thâfedh	طافض

Lune	Ayour	ايور
	M	
Macher	Halimeh	حليمة
Maché	Mahlimeh	محليمه
Maigre	Aïan*	ايان
Maigrir	Dhaaf	ضعف
Main	Edaqel	ادكل
Maison	Ichaëh	يشايه
Mal, oposé à bien	Yaammarla	يعمّره
Douleur	Afaudah	افوده
Manche	Onfos	انفوس
Marié	Métézaouedj*	متزوّج
Marier	Zaouêdj*	زوّج
Marmite	Elgadir	القادر
Mauvais	Yaammarla	يعمّرله
Mêche	Ichaya	يشايه
Mêlé	Makhlouth*	مخلوط
Mêler	Khalath*	خلط
Membre	Hessoud	حسّود
- Viril	Eghezor	اقزور
Mener	Ouaddi*	ودّي
Menton	Dagn*	ذقن
Menu	Rghig*	رقيق
Mépris	Tnebret	تنبرت
Mére	Omm*	ام
Meunier	Téfed	تفد
Minaret	Éouadden*	اوذّن
Mince	Rgig*	رقيق

Moisi	Menfaéker	منفكر
Moisir	Enfaéker	انفكر
Montrer	Eddecheh	ادّشه
Mordre	Édded*	عضّض
Morve	Egattar	اقّطار
Mouche	Doubban*	دبّان
Moucher (se)	Esansar	اسانسار
Mouchoir	Abaquieh	اباقيه
Mouillé	Mélouachoun	ملواشون
Mouiller	Elouachoun	الواشون
Mourant	Ifâa	يفعه
Mourir	Djénazet	جنازة
Mouton	Haoli	حولى
Mouton	Yekkecheh	يكشه

N

Nager	Yemin	يمين
Naître	Erro	ارّو
Natte	Hasir*	حصير
Navet	Aghzar	اغزار
Né	Nerro	نروّ
Net	Elharrer	الحرّر
Nettoyé	Mecharrer	مشرّر
Neveu	Omak	امك
Nez	Téréouet	تروة
Nièce	Tenzert	تنزرت
Nié	Mielghoun	ميلغون
Nier	Yelghoun	يلغون
Nôce	Echkoum	اشكوم

Noir	Echthaf	اشطاف
Noircir	Asoued*	اسود
Nom	Semennas	سمنّاس
Nommer	Mesmmas	مسمّاس
Nouveau	Athar	اطار
Noyau	Meknéouak	مكنواك
Noyé	Mougharred	مغرّد
Noyer	Yougharred	يوغرّد
Nu	Youdenh	يودنه
Nuages	Thadengnech	طادقنش
Nuit	Awed	اود
Passer la nuit	Ebat*	ابات

O

Oignon	Bazalim*	بصليم
Oeil	Athi	اطي
Ombre	Tilly*	ظلّي
Oncle	Ammis*	عمّس
Ongle	Khanis	خانس
Or	Oro	اورو
Ordure	Ousikh*	وسخ
Oreille	Esem	اسم
Oreiller	Tachoum	طاشوم
Os	Aghazt	شغازت
Outre pour l'eau	Addi	ادّي

P

Pain	Thaouegt	طاوقت
Pair	Méchathi	مشاطي
Paille	Echil	اشيل

Palmier	Azouan	ازون
Panier	Abazart*	ابازارت
Pantalon	Seroual*	سروال
Papier	Kathayah	كارطايه
Pariel	Aouaoued	اواود
Parent	Nesib*	نسيب
Parfait	Kamel*	كامل
Parfaitement	Beltamam*	بالتمام
Parler	Echérouy	اشروي
Partagé	Magsoum*	مقسوم
Partager	Gasem*	قسم
Payer	Aghiz	اغيز
Peau	Eglim	اقليم
Peigne	Aghewezt	اغوزت
Pelure	Taserimt	تسريمت
Penchant	Koras	كراس
Pendre	Efkest	افكست
Peirn	Errast	ارّاست
Percé	Makhras*	مخرص
Percer, trouer	Kharras*	خرّص
Perdre	Dhayaa*	ضيّع
Perdrix	Ghethat	قطاط
Père	Akhfcha	اخفشه
Grand-Père	Oudelghay	اودلغاي
Permission	Oqchir	اوقشير
Perte	Khiçarah*	خساره
Pesant	Ezzag	ازق
Peser	Teguibibi	تقيبيي

Peste	Ayyaneh	ايّانه
Peureux	Yerouaha	يرواها
Peut-être	Afcho	افشو
Pied	Athar	اطار
Pierre	Dératha	درطه
Pierre à fusil	Souaneh	صوانه
Pieu	Cherian	شريان
Pilé	Mekmaya	مكمايه
Piler	Kamaya	كمايه
Pillage	Tazeh	تازه
Pillé	Yétazeh	يتازه
Piquer	Garaz*	قرص
Pistolet	Béchatil	بشاتيل
Plaire	Eïouathy	ايواطي
Planche	Louh*	لوح
Plein	Etkerreh	اتكرّه
Pleurer	Yéwella	يولّه
Plomb	Taqileh	ثقيله
Plongeur	Eghathas*	اغاطّس
Plume	Richeh*	ريشه
Poche	Djibennous	جيبنوس
Poids	Meizan	ميزان
Pois	Djelban	جلبان
Poisson	Samak*	سمك
Poix	Erkan	اركان
Pomme	Teffah*	تفّاح
Pondre	Tésiouy	تصيوي
Posé	Mécherech	مشرش

Poser	Cherech	شرش
Potence	Echnag*	اشناق
Pou	Thaoullekht	طاوّلكت
Pouce	Thaght	طاغت
Poudre	Barout*	بارود
Poule	Tékadjet	تكاجت
Poulet	Edjijau	اجيجيو
Poulie	Sebah	سباح
Pourri	Yekhmiya	يخميه
Pourriture	Ekhmiya	احميه
Poursuivi	Melhaq*	ملحق
Pousuivre	Lahaq*	لحق
Pourvu que	Gharilon	غريلون
Poussière	Melan	ملان
Prairie	Témourt	تمورت
Prendre	Foukez	فوكز
Présent	Erech	ارش
Présent, cadeau	Illahouehez	الاهوهز
Presser (se)	Istaadjel*	استعجل
Prêté	Martal	مرتل
Prêter	Artal	ارتل
Prier	Yemout	يموت
Prière	Erekka	اركه
Prix, valeur	Elakkenes	الكنّس
Promtement	Fisaâ*	فيسعه
Puce	Barghout*	برغوت
Puits	Aouénou	اونو
Punaise	Bagh*	باغ

Pus	Elmed*	المد
Putréfaction	Façadeh*	فساده
Putréfier (se)	Taaffen*	تعفن
Putride	Maafoun	معفون

Q

Quadrupéde	Afounas	افوناس
Quenouille	Ezd	ازد
Queue	Azif	ازيف
Quittance	Chiouad	شيواد
Quitte	Achiouad	اشيواد
Quitter	Dgi	جي

R

Rabattre, diminuer	Naqqas*	نقّص
Raccourcir	Qassar*	قصّر
Race	Sah	ساح
Racler	Hakk*	حك
Radouci	Meleyyin*	مليّن
Radoucir	Leyyin*	ليّن
Rafraîchir	Essiaf	اسياف
Raisin	Aneb*	عنب
Rapprocher	Djighez	جيغز
Rapprocher (se)	Djighezeh	جيغزه
Raser	Hezam	هزام
- (se)	Hezameh	هزامه
Rasoir	Khandjar	خنجر
Rassasié	Eïyouaneh	ايوانه
Rassasier	Eïouan	ايوان
Rat	Éghzert	اغزرت

Ratisser	Hakk*	حك
Rave	Lift*	لفت
Reculer	Atchiglat	اتشيغلات
Refroidir	Barred*	برّد
Règle	Eddiouah	ادّيواه
Règles des femmes	Demen	دمن
Rencontrer	Lamlagh	لملاغ
Rendre	Aïkri	ايكري
Rente	Gharameh	غرامة
Renvoyer	Entharad*	انطرد
Répandre	Qalab*	قلب
Répandu	Meqleb*	مقلب
Repos	Yaugharr	يوغرّ
Reposer (se)	Miaugharr	ميوغر
Reptile	Taghardim	طغرديم
Réservoir	Haudh*	حوض
Respiration	Ténaffos*	تنفّس
Respirer	Ténaffes	تنفّس
Reste	Ettabaq	اتبق
Rester	Laouada	لواده
Retard	Athaouel*	اطاوّل
Retarder	Thaouel*	طوّل
Retenir	Thaff	طافّ
Retour	Kéri	كري
Retourner	Afioua	افيوه
Revenir	Ékeri	اكري
Rêver	Tewerquiat	تورقيات
Révolté (être)	Tégharit	تغريت

Rhume	Ésenser	اسنسر
Riche	Etkeira	اتكيره
Rire	Etsa	اثه
Robuste	Yéouéna	يوّنه
Rond	Tahallaqat*	تحلّقت
Ronfler	Kharr*	خرّ
Roseau	Tagassibat*	تقصبة
Rosée	Nada*	ندا
Roti	Meggaça	مقّسه
Rotir	Eggaça	اقّسه
Rouge	Nézouagh	نزواغ
Rougir	Zouagh	زواغ
Rouille	Séda*	صدا
Rouiller	Sadda*	صدّى
Rouler	Dar*	دار
Rude	Ezaouar	ازوار

S

Sable	Hemlal	هملال
Sabre	Hauch	حوش
Sac	Taghrat	طاغرارت
Sage	Harech	حرش
Saignée	Adjem*	عجم
Salaire	Rédjar	رجار
Sale	Ousikh*	وسيخ
Salé	Tessan	تسّان
Salir	Ouassakh*	وسّخ
Salive	Talqomt	تعلقمت
Saluer	Sad	صاد

Salut, conservation	Sah	صاح
Sauver	Khallas*	خلّص
Scié	Monchar*	منشر
Scier	Ménachchar*	منشّر
Scorpion	Téghardim	تغرديم
Sec	Yakkoara	يكّوره
Secouer	Yéharrek	يحرّك
Sécher	Akkaora	اكاوره
Secoué	Miaharrek*	ميحرّك
Semaine	Djéméêt*	جمعة
Semblable	Meçaouy*	مساوي
Semer	Hammay	حمّاي
Sentir	Chemm*	شمّ
Serpent	Tekéchilt	تكشلت
Serrer	Thaf	طاف
Serviette	Aleghna	الغنه
Serviteur	Atteghad	اتّغاد
Seul	Yéouénan	يونان
Seulement	Bess*	بسّ
Siffler	Yénassek	ينسّك
Signe	Laalam*	العلم
Singe	Guird*	قرد
Soif	Yéfouyé	يفويه
Sommeil	Eneddem	اندّم
Soulever	Asekt	اسكت
Soulier	Bolghah*	بلغة
Soupé	Menacharq	مناشرق
Souper, v.	Etch	اتش

Source	Tiouen	تيون
Sourcil	Hadjeb*	حاجب
Sourd	Eslalodah	اسلالوده
Souvenir (se)	Makti	مكتي
Sucer	Emben	امبن
Suer	Etahed	اتحد
Sueur	Areqy*	عرقي
Suffier	Dakout	دكوت
Suffisamment	Dakou	دكو
Surplus	Baqy*	باقي
Surtout	Afkoul	افكول

T

Tabac	Thabgha	طبغه
- à priser	Ennekeh	اتّكه
Tabatière	Khastimt	خستيمت
Table	Thaouélest	طاولست
Talon	Arkou	عركو
Tamarix	Temmet	تمّت
Tan	Elarg	الارق
Tanner	Arg	ارق
Tanneur	Irrag	يراق
Tante	Attak	اتّك
Tapis	Thaoues	طاوس
Taureau	Afounas	افوناس
Teindre	Echtaf	اشتاف
Teint	Méchtaf	مشتاف
Teinture	Echtafeh	اشتافه
Teinturier	Méchtaf	مشتاف

Témoigner	Aghil	اغيل
Témoin	Aghileh	اغّيله
Tempe	Demrneh	دمرنه
Temps	Aouamah	اوامه
Tendre	Enjerr*	انجرّ
Tente	Tekhimet*	تخيمه
Tête	Taqileh	ثقيلة
Téter	Yembeya	يمبيه
Téton	Anebbi	انبى
Tibia	Afoud	افود
Tigre	Nemr*	نمر
Tirer	Djikez	جيكز
Toile (pièce de)	Magthaa*	مقطعة
Toit	Thasiout	طاسيوت
Tombeau	Atcha	اتشه
Tomber	Yéfaâ	يفعه
Tondre	Ghessas*	قصّص
Tonner	Raad*	رعد
Tordre	Yébren	يبرن
Tortu	Yauthérah	يوطره
Rendre tortu	Mayauthera	مايوطره
Tour, circonférence	Qaïmint	قايمينت
Tout	Koullou*	كلّ
Toux	Koha	كوهه
Trahir	Yahras	يحرس
Trahison	Khaunah*	خونه
Traverser	Azzal	ازّال
Trembler	Etertâad*	اترتعد

Triste	Yahreza	يهرزه
Tromper	Yéghauf	يغوف
Trou	Mokhrem*	مخرم
Troupeau	Thafal	طفال
Trouver	Laqa*	لقا
Tué	Mauta*	موته
Tuer	Yémauta*	يموته
Turban	Achchal*	اشال

U

Uni	Mettebaya	متّبايه
Unir	Attébaya	اتّبايه
Utile	Ennefâa	النفعة
- (être)	Néfâa*	نفع
Utilité	Nafaat*	نفعة
-Profit	Elfaïdeh*	الفايدة

V

Vache	Aqfiqeh	اقفيقه
Vain, inutile	Dérouch	دروش
Vallon	Négred	نقرد
Valoir	Laal	لعل
Veau	Warimeh	واريمه
Vailler	Endem	اندم
Vendre	Yédjidj	يجيج
Ver	Thaqouq	طاقوق
Vérité	Kaouamah	كوامه
Vérole (petite).	Habéba	هببه
Verre	Qézazteh	قزازته
Vétérinaire	Founaséh	فوناسه

Vide	Qélodah	قلوده
Vider	Ghara	غره
Vigne	Temedeh	تمدّه
Viliage	Echal	اشال
Vinaigre	Khall*	خلّ
Viser	Thaouez	طاوز
Visiter	Yégoult	يغولت
Voir	Eghzart	اغزارت
Voisin	Anergh	انرغ
Voix	Aïat	ايات
Vol	Yénagha	يناغه
Vol d'un oiseau	Aghtah	اغطه
Voler	Méchan	مشان
-Dérober	Yousek	يوسك
Voleur	Ghazi	غازي
Vouloir	Ewehau	ازّهو
Voyager	Yaad	يعد
Voyageur	Youchad	يوشاد
Vrille	Barrimeh*	بريّمه
Vue	Yéghzart	يغزارت

ملاحظات حول مفردات أوجلة

لقد اقتبس سكان أوجلة العديد من الكلمات من اللغة العربية. إن أكثر من ربع مفردات السكان من أصل عربي. عند تصفحي لمخطوط مولر، لمحت أن الكلمات العربية أو المشتقة من العربية لم توضح كلها بعلامة(*). لقد رأيت أن أصلح هذا السهو وذلك لفائدة الدراسات الاشتقاقية. لقد كان عدد الكلمات الموضحة بالعلامة السابقة 150 كلمة منها ما تم وضع علامته هذه بواسطة القلم الرصاص وهذا يدل عن الشك في ترجيح كونها عربية من عدمه. لقد رفعت هذا العدد إلى 219 مفردة. إنني مدين للعلماء بواجب وضع هذه السلسلة من الكلمات التي أرجعتها إلى أصل عربي تحت ناظريهم:

عربي	لغة أوجلة	
خنجر	تخنجرت	Couteau
ناغي	أناغة	Crier
دقيق	دقاق	Délié
سنّ	سنّو	Dent
سلخ	أسلوخ	Ecorcher
مسلوخ	مسلوخ	Ecorché
حمض	تحمطه	Aigre
نمضي آخر	نمضياخر	Aller, je vais
قواماً	قومّا	Bientôt
الأزرق	تلازرق	Bleu
دمس	دمّزه	Brouillard
بندقيّة	بندقات	Canon de fusil
عرّب	عرّب	Ecriture

Egal, uni	واحد	واحد
Empan	اشبر	شبر
Entier	اكمله	كامل
Entourer	ادوره	دور
Pus	المد	المادّة
Rasoir	خنجر	خنجر
Répandre, renverser	قلاب	قلب
Répandu	مقلب	مقلوب
Rond	تحلقت	حلقة
Roseau	تقصبة	قصبة
Remuer	يحرّك	حرّك
Remué	ميحرّك	محرّك
Seulement	بسّ	بسّ
Singe	قرد	قرد
Tendre	انجرّ	جرّ
Tente	تخيمة	خيمة
Tout-à-fait	اكمله	كاملاً
Trahison	خونة	خونة
Trembler	اترتعد	ارتعد
Chacun	كل ينقسماني	كلّ قسم
Certainement	اصدقه	صدق
Chargé	يوسق	وسق
Cher	يغلايه	غالى
Comprendre	فهمس	فهم
Envelopper	لفّي	لفّ
Enveloppé	ملفّى	ملفوف
Epouser	اتخطابه	خطب
Epoux	تخطاب	خطيب

Epouse	تخطابة	خطيبة
Fendre	شرّيط	شرط
Fendu	مشرّيط	مشرّط
Fesse	المقعد	المقعد
Forcément	يغلبه	غلب
Fraîcheur	ندا	ندا
Front	جبهه	جبهة
Gras	قوى	قوى
Hibou	بوم	بوم
Levain	خميرد	خميرة
Minaret	اودّن	ماذنة
Trou	مخرم	خرم
Tuer	يموته	موت
Tué	موته	ميّت
Turban	اشّال	الشّال
Utile, adj.	النفعْه	النافع
Utile(être)	نفع	نفع
Verre	قزازته	قزاز
Mordre	عضض	عضّ
Nommer	سمّاس	سمّى
Nommé	مسمّاس	مسمّى
Oignon	بصليم	بصل
Ombre	ظلى	ظلّ
Oncle	عمّس	عمّ
Plongeur	اغاطّس	غطّاس
Potence	اشناق	مشنق

يخلص المرء من خلال هذه القائمة إلى أن سكان أوجلة قد قاموا أحياناً بتحوير المعنى الأصلي للكلمة. وهكذا نراهم يستخدمون الفعل العربي «خطب» بمعنى «تزوج»

وكلمة «قوى» التي تعنى «قوى بالفرنسية» إلى كلمة «سمين» وقد يستخدمون كناية تتمثل في كلمة «مقعد» للجزء الخلفي من جسد الإنسان حيث يتم الجلوس عليه. إن كلمة «الفت» تعني في العربية «نبات اللفت» بينما يطلقها سكان أوجلة على نبات «الفجل». إن لغة أوجلة التي تشبه العديد من لغات القبائل الإفريقية لغة لا تكتب حيث لا يعرف السكان أي كتابة غير الكتابة باللغة العربية. بل إن كلمة «يكتب» عندهم هي مرادف لكلمة «يكتب باللغة العربية» أو «يضع في العربية» وهو ما يعبرون عنه بكلمة جيدة هي «عرَّب» التي تماثل هنا كلمة «الكتابة». هناك بعض العبارات التي تبعد كثيراً عن معناها الأصلي والتي لم أوضحها بعلامة(*) لهذا السبب. إن كلمة «الخضرة» التي تعني في اللغة العربية «الاخضرار» تستخدم بمعنى «الفاكهة»(1).

يسمى العرب عملية دفن الميت «جنازة» أما سكان أوجلة فيستخدمون هذه الكلمة بمعنى «يموت»، أما كلمة «غازي» فتعنى في مفردات أوجلة «لص». أما كلمة «قلّاد» فتعني «حاكم» وهي من أصل عربي «الفعل قلَّد» الذي يعني «كلف بمهمة أو منصب». أما كلمة «شيطانة» فليست سوى استخدام رمزي لكلمة «شيطان» حيث يقال بالفرنسية أحياناً بأن هذا الشخص «مسكون أو عليه شيطان» Possédé بمعنى أن هذا الشخص «مجنون». أما الفعل العربي «طوى» الذي يعنى كلمة Ployer بالفرنسية فيستخدم لدى سكان أوجلة بعكس معناه أي «نشر» déployer أو «طوس» Thouas. سوف اغتنم هذه الفرصة التي سنحت الآن بفضل هذه الكلمة الأخيرة وذلك للإشارة إلى حرف «السين» النهائية أي التي تنتهي بها مفردات السكان في هذه الواحة والتي تضاف إلى أصل الفعل العربي مثل «فهمس» بدلاً من «فهم» و «سماس» بدلاً من «سمى» و «عمس» بدلاً من «عم». علاوة على هذه الإضافة، يستخدم السكان حرفاً آخر يتم إضافته عادة إلى الاسم ويبدأ به الاسم وهو حرف «التاء» مثل «تخيمه» «تقصبه» «تحطمه» «تلازرق».

ينبغي علينا الآن أن نوضح بعض الملاحظات حول الاستخدام الذي قمنا به بالنسبة للأبجدية العربية لكي تجسد «نطق» السكان في أوجلة. هناك دواعٍ تجعلنا نعتقد أن الكلمات المذكورة، وهذا ما أشرت إليه في البداية، قد نسخت أولاً باللغة الفرنسية ثم أعيد

---

(1) لايزال هذا الاستخدام شائعاً في كل مكان في برقة حيث يتم استخدام لفظة «الخضرة» بدلاً من الفاكهة غير أن هذا الاستخدام لا يمت للغة العربية بأي صلة باعتبار أن هذه الكلمة من «اللهجة الشرقية» وليست تستخدم على أساس أنها عربية فصحى. . المترجم.

نسخها إلى العربية، ولذا فإن هذه الكلمات، خلال هذه العملية الأخيرة، وخلال النقل من لغة إلى أخرى، قد تكون قد تعرضت إلى تحوير. إن عملية النطق الطبيعي السليم غير متوفرة لكي يتم تحديد الحروف العربية الساكنة، فإن التشويش أمر لا يمكن تحاشيه إلا إذا توفرت لدى المرء هذه الأبجدية الطبيعية الشهيرة دون طائل، حيث كان فولنيه Volney يحلم بتطبيقها في أوروبا لمدة عشرين سنة ثم طبقت بالفعل أخيراً بشيء من الفائدة. ولكن المؤلف الذي أعد هذه «اللغة الطبيعية» ولسوء الحظ، لم يهتم، على ما يبدو، بالتمسك «بنظام محدد» ولذا فإنه قد كان يخلط غالباً بين الأصوات البسيطة والأصوات الحلقية أو التوكيدية وذلك عند الرغبة في تحويل الحروف الفرنسية إلى حروف عربية لا سيما الحروف «ت» و «ط» و «س» و «ص» و «ك» و «ق» وأحياناً حرف «ع» أو «العين».

إن توضيح ذلك أمر مهم جداً لأن الفارق في الكتابة لذات الكلمة خاصة إذا تكررت في مكانين أو ثلاثة لتجسيد معان متشابهة أو متماثلة مثل كلمة «قشرة» التي تعني القشور على السمك أو غيره écaille تكتب «طسريمت» وتبدأ بحرف «الطاء» أما إذا أردت أن تكتب كلمة «تقشير» أو «قشور» مثل «قشور الليمون أو البطاطس.. الخ» فإنك سوف تجد أيضاً كلمة «تسريمت» التي تبدأ بحرف التاء.

من الواضح إذاً أن كلمات écaille, éorce, pellure قد استخدمت هنا على أساس أنها مترادفة رغم أنه لا يوجد بينها إلا الشبه. وهل يمكنني أن أطرح سؤالاً يتمثل في معرفة الاستخدام الحقيقي للكلمة وما هو نطقها الصحيح؟ هل تكتب بحرف «ت» أو بحرف «ط». إن النقد الأدبي لا يقدم لنا في هذا الشأن أي عون وعليه لا بد من العودة إلى عين المكان. إن هذا الارتباك في نسخ الأصوات والحروف قد تكرر في أحيان كثيرة وبطرق عديدة. ها هي بعض النماذج التي تم نسخها بأمانة ودقة من المخطوط:

Achever	Ammartet	عمرتت
Finir	Amartet	أمرتت
Boule	Tahhallaq	طحلق
Rond	Tahhallaqt	تحلقت
Echelle	Tahadit	تحاديت
Escalier	Tahadit	تحادية
Scorpion	Téghardim	تغرديم

Reptite	Taghardim	طغرديم
Papier	Kartayah	كارطايه
Lettre	Tékhartey	تخارتي
Date	Tékartay	تكرتاي

سوف أضيف مثالاً أخيراً: إن كلمة «ثور» قد ترجمت في المخطوط بكلمة «اكفيك». إذا بحث المرء عن كلمة «بقرة» فإنه سيرى أنها «اكفيكه» أي مؤنث كلمة ثور ولكن تتميز الكلمة الأخيرة بوجود حرفي«ق» بدلاً من حرف «الكاف» في كلمة ثور. وهكذا تم نسخها «اقفيقه»[1].

إذا لم تؤكد لي المترادفات هذا الخطأ في النسخ، فإنني كنت سوف أعرف ذلك من خلال الكلمات التي ترجع إلى أصل عربي مثل كلمة «شريط» المشتقة من اللغة العربية «شرط» بمعنى «مزّق» وكذلك كلمة «يوسق» بمعنى «يحمل» من الفعل العربي «حمل» وكذلك كلمة «عضض» المشتقة من العربية «عض». لقد وردت هذه الكلمات الثلاث في المخطوط منسوخة على النحو التالي: شريت ـ يوسك ـ اضض. أما الكلمة «عيّان» بمعنى «نحيل» فقد وردت في المخطوط «آيان» وكان ينبغي أن تبدأ بحرف «العين» وهي تعنى في العربية «واهن ـ مريض ـ أو ضعيف». إن كلمة «دلاناور» التي كتبت بقلم الرصاص في المخطوط والتي تعني «الأعور» على أساس أنها فارسية، لا تخرج عن كونها نسخاً لكلمة «الأعور» العربية مسبوقاً بحرف «د» مضاف إليها إضافة. أما كلمة «مسحة» فهي عربية فصحى غير أنها تكتب وتقرأ «مسحاة». إن حذف حرف العلة ـ أي الألف ـ يجعلها مشتقة من فعل «مسح» بمعنى «صحيح» بينما يرجع أصلها إلى فعل «سحا» أي ناقص أو معيب. لقد تم تمثيل الصوت «ق» تارة بحرف «q» وتارة بحرفي «gh» التي نفى نوعاً ما بنطق الصوت «ق» عند عرب أفريقيا حيث ينطقونه وكأنه «ج معطشة» «g. dur» وحلقية «أي تخرج من الحلق». ولكن نظراً لاستخدام الحرفين «gh» أيضاً لتمثيل حرف «الغاء»[2] قد أدى ذلك إلى بعض اللبس إن الكلمة «باغ» bagh مثلاً خير مثال على ذلك وهي كلمة «بق» العربية وتحمل نفس المعنى. لقد تم كتابة كلمة «بق» bagh بحروف عربية هي «باغ» وذلك في هذه القائمة من المفردات.

---

(1) لقد وردت في المخطوط «افقيقه» وقد قمت بتعديلها.

(2) مثل بنغاري Benghazi.. المترجم.

سوف أقصر ملاحظاتي وفحصي عند هذا الحد، وأقول بأن سرد السيد مولر، رغم الأخطاء التي نوهت إليها، يشكل وثيقة هامة. إن هذا العمل يستهدف أول زائر بعده لواحة أوجلة. ولا يحتاج إلا إلى بعض التوسع والتنظيم.

لقد قام العديد من الرجال الذين كرسوا أنفسهم للعلم بذرع افريقيا وفي جميع الاتجاهات، وأحضروا معهم جراء تجولاتهم المحفوفة بالمغامرة بعض العبارات والكلمات حول العديد من المسائل المتعلقة بهذه القارة الغامضة. إن السيد مولر، حسب علمي، هو أول رحالة يقوم بنشر مسرد للمفردات امستخدمة في واحة أوجلة في فترة يعتبر فيها الحصول على أية فكرة عن افريقيا فتحاً حقيقياً. إن المؤلف يستحق، كما يبدو لي، تقدير العلماء، وقد جهز نفسه، للحصول مستقبلاً على أصواتهم «يقصد عند تخصيص أي مكافأة أو تقدير. . المترجم».

عقوب

جزء من كلمات لغة سكان
واحة سيوه
جمعها فريدريك مولر

Pain	Khobz, Rgif	خبز، رغيف
Viande	Aksoum	اكسوم
Haricots	Loubieh	لوبيا
Vin	Khamar, Laguebi	خمر، لاقبى
Lentilles	Ténifé	تنيفه
Mouton	Hhaoli	حاولى
Eau	Aman	امان
Couteau	Tekhouset	تخوصة
Plat, Assiette	Thaza	طاظا
Homme	Aogguit	اوقّيت
Pierre	Adrha	ادغا
Palmier	Tazoutat	تزوتات
Feu	Temsa	تمسه
Fusil	Tabandact	تابانداقت
Oui	Eioua	ايوا
Non	Oula	اولا
Jour	Asfa	اصفا
Aujourd'hui	Asfabidous	اصفابيدو
Encre	Lemdad	لمداد

Plume pour écrire	Laqalam	لاقلم
Plume d'oiseau	Tericheh	تريشه
Donne-moi de l'encre	Aghat Lemdad	اغاة لمداد
Herbe	Lealef	لهالف
Bled	Iarden	ياردن
Orge	Teumzen	تومذن
Désert, Montagne	Adrhar	ادغار
Maison	Abgguin	ابغين
Tabac	Tabrha	تبغا
Nuit	Ietaa	يتعا
Chameau (le)	Alrhoum	الغوم
Oeuf	Tébétoue	تبتوع
Le Manger	Atchou	اتشو
Le Boire	Tesoua	تسوه
Paille	Loum	لوم
Lait	Akhi	اخى
Féves	Yéouawoum[1]	يووان
Turban	Alfaf	الفاف
Couverture de Bédouin	Ahram	اهرام
Place, Endroit	Ankan	انكان
Fiévre	Tazaqt	طزقت
Long	Athouil	اطويل
Souliers	Zarabin	زربين

(1) لكي يتم تحقيق نوع من الاتساق بين الكتابتين، ينبغي تبديل حرف «م» بحرف «ن» أو حرف «ن» بحرف «م»، لكننا لم نرغب تغيير أي شيء في المخطوط الذي قدمه السيد فردريك مولر. إذا كان هذا الجزء من مفردات سيوه قد أعد بتوسع، لكان في إمكاننا القيام بتحليل يشبه الذي قام به السيد عقوب في مسرد مفردات واحة اوجله. نكتفي هنا بالإشارة إلى أن هذا المسرد الصغير يحتوي على نحو عشرين كلمة من أصل عربي ثم نسخ حرف «الغين فيها بحرفين فرنسيين هما «rh».

Peu	Ahibba	اهيبّا
Beaucoup	Koma	كوما
Rasoir	Terhosat	تغصات
Huile	Dahan	دهان
Olivier	Azemmour	ازمّور
Raisin	Tezrhaine	تزغاين
Bois	Sarharhine	سغاغين
Dattes Vertes	Ghaouene	غاوين
Dattes Mures	Tena	تنا
Pied	Thar, pl. Techka	طار طشكا
Livre	Tekhtemet	تختمت
Taisez-Vous	Sisem	سسم
Écoute	Sell	سلّ
Téte	Akhfi	اخفى
Cheval	Agmar	اقمار
Jument	Tegmert	تقمرت
Nouveau	Atrar	اترار
Poussiére	Ejdan	ازدان
Nez	Tanezert	تنزرت
Vois, Regarde	Hommar	حمّار
Habit	Kebraouêne	كبراوين
Bras, Coudée	Fous	فوس
Oeil	Thoth, pl. thaouene	طوط طاوين
Femme	Taltan	تلتان
Pére, mére	Abba, Omma	ابّ امّ

شرح لوحات هذه الرواية

خارطة لإقليمي مرمرة وبرقة بما في ذلك الواحات المتاخمة لهاتين المنطقتين قام المؤلف برسمها وفقاً لملاحظاته الفلكية وتجولاته أستند فيها أيضاً، فيما يتعلق بعدة نقاط، بالخرائط والملاحظات الحديثة جداً.

نظراً لعدم توفر آلة لقياس الوقت خلال الرحلة، لم يكن في وسع المؤلف تحديد الأماكن على خطوط الطول إلا عن طريق تتبع اهتزازات رياح البوصلة rumbs وعن طريق تخمين عدد ساعات المسير.

أما فيما يتعلق بتحديد خطوط العرض بالنسبة لتلك المواقع خاصة مواقع المناطق الداخلية، فقد لجأ المؤلف إلى استخدام ثمنية Octant وافق اصطناعي، وقام بإجراء العديد من الملاحظات المتكررة غير أن ذلك لم يتعد شهر فبراير أي عندما لا يتجاوز ارتفاع الشمس درجة 45° مئوية. فيما يلي الأماكن الرئيسية التي تم تحديدها، ومشاهدتها:

اسم المَوقع	العرض شمالاً
- بومنه «بقايا قصر» وادي مريوط	30° و 51د و 35ث
- قصر قطاجه «أطلال»	30° و 40د و 50ث
- أبو صير «آثار»	30° و 57د و 40ث
- قصر اللمايد «قرب خليج العرب»	30° و 52د و 00ث
- بئر ابدرمن	30° و 45د و 57ث
- مخطاري «كهوف أرضية»	30د و 59د و 00ث
- ادريسيه - آثار مدينة	30° و 45د و 57ث
- بئر الهيف	30° و 59د و 50ث
- آثار الجمارنة	31° و 09د و 50ث
- مرسي مهده	31د و 06د و 00ث

ـ ضريح بالقصبة الزرقاء القبلية	31° و 07د و 40ث
ـ مرسي مطروح «أقصى شرق الميناء»	31° و 18د و 00ث
ـ بونجوبه «آثار أبيس القديمة»	31° و 30د و 35ث
ـ برج الشامس	31° و 30د و 35ث
ـ ظملة «بئر فوق هضبة زرعة»	31° و 38د و 00ث
ـ الجديد «آثا في وادي الغار»	31° و 45د و 30ث
ـ آثار كمبوت	31° و 50د و 00ث
ـ طبرق «شمال الميناء»	32° و 05د و 30ث
ـ آثار الكلكة	32° و 04د و 50ث
ـ أم الرزق «أقصى شرق هضبة برقة»	32° و 31د و 20ث
ـ عين الغزالة «أقصى خليج بوميه»	32° و 10د و 30ث
ـ درنه	32° و 47د و 30ث
ـ لاردام «آثار هيدراكس القديمة»	32° و 35د و 55ث
ـ برج بوحسن	32° و 37د و 05ث
ـ القبة «آثار الحمامات قديمة»	32° و 46د و 10ث
ـ ماره «قصر»	32° و 49د و 00ث
ـ المساخيط «آثار مدينة قديمة»	32° و 05د و 30ث
ـ لملودة «آثار ليميناد القديمة»	32° و 46د و 15ث
ـ نوستاثموس	32° و 56د و 20ث
ـ رأس نوستاثموس «رأس الهلال»	32° و 56د و 20ث
ـ بومناء «قصر في برقة»	32° و 44د و 20ث
ـ قصر لملّز	32° و 50د و 30ث
ـ زاوية ترث «ثنتيس القديمة»	32° و 46د و 00ث
ـ آثار قرية أم بنيب	32° و 51د و 50ث
ـ السواني «ضريح»	32° و 49د و 20ث
ـ غرنس «آثار مدينة قديمة»	32° و 46د و 02ث
ـ آثار الصفصاف	32° و 47د و 30ث
ـ المغارات «مخازن أرضية»	32° و 50د و 00ث

- سوسة «أبولونيا القديمة» 32° و 54د و 25ث
- بطليموسة «طلمثية القديمة» 32° و 44د و 00ث
- توخيرة «توكرة» 32° و 35د و 00ث
- برنيقة «بنغازي» 32° و 08د و 05ث

خارطة الجزء الشرقي لإقليم الخمس وفقاً لرسم المؤلف.

يمثل الشريط الأبيض الذي يحاذي تعرجات الساحل، السهل الذي يبلغ اتساعه نحو ربع فرسخ تقريباً، ويوجد بين شاطىء البحر وبداية المرتفعات الجبلية وذلك بداية من مدينة درنة حتى رأس فيكوس.

يقدم لنا هذا العمل الطبوغرافي الخاص بالجزء الشمالي فكرة عن أراضي الغابات التي ترتفع تدريجياً وتشكل مصاطب ومدرجات بداية من الساحل حتى قمة الجبل. تمثل من الناحية الجنوبية في الخارطة جزء من هضبة برقة التي تتخللها وفي جميع الاتجاهات وديان قليلة العمق.

مخطط آثار قرنة القديمة وتم رفعه سنة 1825

لقد وضع هذا المخطط بعد تخفيض مقياس الرسم فيه إلى جزء من ثمانية آلاف جزء وذلك بإشراف كل من الفارس[1] لابيه Lapie والسيد دوفور Dufour. يفي هذا الرسم تماماً بالمقاسات الهندسية التي تم رفعها في قرنة، ويفسر، بما فيه الكفاية، وضعية القدر البسيط من الآثار والأنقاض التي لاتزال قائمة في تلك المدينة الشهيرة.

يكفي فقط أن نضيف أن الجزء السفلي للمخطط يمثل أعلى نقطة في هضبة قورينة والسهل الذي شيدت عليه المدينة. أما الجزء العلوي الذي تجري فيه مياه نبع أبولو فيكشف عن أرض وعرة غير مستوية تغطيها، بين الفينة والأخرى، أشجار العرعر، ويمتد هذا الجزء حتى أسفل المقبرة التي نحتت بأكملها تقريباً في الجانب الخلفي للجبل. لقد حاولت أن أشير إليها من حيث موقعها ووضعيتها الهندسية عن طريق خطوط مظللة وفقاً للنهج الذي يتبعه علم التخريط.

---

(1) لقب يمنحه الملك والملكة إلى أي شخص تكريماً له على عمل قام به وهو أعلى وسام في قائمة الأوسمة الفرنسية حيث يأتي بعد لقب ضابط. يمنح هذا الوسام واللقب عادة لمن اشتهر بالشجاعة والمروءة والشهامة والعلم وغير ذلك من الخلال الكريمة.. المترجم.

شروح اللوحات

اللوحة رقم 1

منظر لمعبد قديم يقع في أبو صير.

تقع هذه الأطلال على مرتفع صخري تغطيه الرمال على بعد خطوات من شاطىء البحر شمال مدينة تابوزيريس القديمة Taposiris، وهذه الأطلال جزء منها. تبلغ الأبعاد العامة للجدران ثمانين متراً من كل جانب.

إن جدار الواجهة يطل على الشرق ويتعلق الأمر، وفقاً لكل الجوانب الظاهرة، ببقايا معبد مصري ـ إغريقي حيث كان كل من شابرول Chabrol ولانو Lanout وفاي Faye ولوبير Lepère، قد عثروا بداخله، خلال زيارتهم له، على أعمدة رخامية تعود إلى العصر الدوري.

اللوحة رقم 2

الشكل رقم - 1 -

آثار لمسجد يقع في ضواحي بحيرة ماريوط.

يوجد هذا البناء الصغير الذي تم تشييده بفضل حطام آثار أقدم منه، على الحد الفاصل بين الأراضي الصالحة للزراعة في وادي مريوط وبين الأراضي الصحراوية القاحلة. وفقاً للكم الهائل نوعاًما من الحطام المتناثر حول هذا المسجد، وهو يتكون من أحجار تحمل علامات على عملية إعادة البناء، يمكن للمرء أن يعتقد بأن موقع هذا المسجد هو نفس موقع مدينة ماريه Marée عاصمة بلاد مريوط القديمة.

الشكل رقم - 2 -

يستخدم هذا المعلم الأثري الذي اشتهر باسم «برج العرب» لدى البحارة الحاليين،

وقد ترجع هذه الشهرة إلى عدم وجود أي موقع آخر، لتحديد موقع الإسكندرية واتجاهها. إن إقامة هذه البناية فوق تلة صغيرة تطل على آثار تابوزيريس هو الذي منحه، أكثر من ارتفاعه في حد ذاته، هذه الفائدة وهذا الاستخدام الذي كان الهدف من بنائه في الماضي القديم. أما السهل الذي يشكل خلفية هذه اللوحة فيقدم لنا فكرة عامة عن شكل وادي مريوط مع إضافة أشجار ونباتات أكثر مما يظهر في هذه اللوحة.

اللوحة رقم 3

منظر عام لقصر اللمايد.

يقع ذلك الحصن على شاطىء البحر في وسط خليج العرب بالقرب من كثيب رملي يحاذي جزءاً كبيراً من إقليم مرمرة. يشاهد المرء، بين ثنايا النقوش التي تزين الواجهة حروفاً بارزة تفيد بأن هذه البناية قد شيدت في عهد السلطان بيبرس المعاصر للقديس لويس. «انظر ترجمة جوبير A. Jaubert لهذا النص في متن رواية[1] هذه الرحلة صفحة 12».

اللوحة رقم 4

الشكل رقم - 1 -

منظر عام لبناية القصبة الزرقاء البحرية القديمة.

وهي عبارة عن ضريح كما يرى في الرسم وقد أقيم فوق هضبة من الصخور الجيرية تبعد عن الساحل بنحو مدى إطلاقة بندقية مرتين «نحو نصف كيلومتر تقريباً. . المترجم».

يحتوي الجانب الشمالي لهذه الهضبة على قبور ومدافن. إن أغلب سطحها، إن لم يكن كل سطحها، قد بلط بأحجار كبيرة ومربعة.

قد تكون هذه القبور، دون شك، جزءاً من مقبرة مدينة زيجيس Zygis القديمة التي يتناثر حطام مبانيها فوق السهل الذي تغطيه برك ومستنقعات من المياه المالحة، حيث تفصل بين البناية وبين شاطىء البحر عند ميناء المدينة الذي يدعى اليوم «مرسي مهدّة» ويقع على بعد مسافة قصيرة شرق هذه البناية.

---

(1) إن مؤلف هذه الرواية لا يعود إليه أي فضل في هذه اللوحة عدا ذلك الذي تمثل في رسمها في مواقعها بكل دقة وأمانة قدر الإمكان، أي تلك الرسومات والتخطيطات التي أدت بفضل جهود السيدين كورتان وآدم وأبنائهما، وتحت إشرافهم، إلى وجود هذه اللوحات التي تكون هذا الأطلس.

الشكل رقم - 2 -

منظر عام لبناية القصبة الزرقاء القبلية القديمة.

رغم أن ذلك المعلم الصغير الذي يستخدم، مثل سابقه، كضريح، يقع بعيداً عنه وفي الجنوب وعلى أعلى نقطة في تلك النقطة، في مكان معزول، يحملنا على الاعتقاد بأن قد شيد، هو أيضاً، من قبل سكان زيجيس؛ إلا أنه من المحتمل أن يكون قد شيد قبل ذلك بوقت طويل لأن الخلاف الهندسي واضح جداً بين هذين الطرازين من الأضرحة. إن الصفوف البيضاوية التي تتكون من الحجارة والتي وضعت حول هذا الضريح تقدم لنا فكرة صحيحة عن هندسة أغلب القبور البدوية.

اللوحة رقم 5

مخططات وقطاعات وتفاصيل لمعالم آثرية مختلفة في إقليم مرمرة.

الشكل رقم - 1 - و - 2 -

مواقع لمغارتين للدفن في جبل «بومبوا» الذي وصفه لنا سينوسيوس القوريني.

الشكل رقم - 3 -

قطاع ومخطط أرضي لإحدى المغارتين السابقتين.

الشكل رقم - 4 -

موقع للجامع المسمى بجامع قطاجة والذي يقع في وادي مريوط.

الشكل رقم - 5 -

قطاع لواجهة ضريح مصري - إغريقي يسمى قصبة الشمامة ويقع على مشارف خليج العرب.

اللوحة رقم 6

منظر عام للشق الشرقي لمدينة درنة.

تسمى القرية التي تشغل أكبر حيز في هذه اللوحة قرية «أبو منصور التحتاني» وهي إحدى القرى الخمس التي تتكون منها مدينة درنة. توجد المقبرة العامة للمدينة أسفل هذه القرية «مقبرة الصحابة حالياً. . . المترجم» حيث يلاحظ أن سكان المدينة يفضلون تزيين قبور موتاهم بأشجار Opuntia «التين الشوكي» بدلاً من أشجار - الصنوبر «الشعرة» التي

تنتشر في هذه المنطقة، والتي اعتاد الشرقيون على غرسها قرب قبورهم. إن القصر الذي يظهر في أقصى الصورة والذي توجد به أربعة أبراج قد شيد من قبل الأمريكيين في هذه المدينة وذلك خلال الفترة الوجيزة التي سيطروا خلالها على مدينة درنة[1].

اللوحة رقم 7

مغارات «الكنيسية» الجنائزية الواقعة قرب مدينة دارنيس القديمة.

يمكن للمرء أن يصل إلى تلك المغارات بفضل درجات نحتت في أكثر مناطق الوادي وعورة، وهو الوادي الذي يطل على شاطىء البحر. إن المحاريب والكوات المنحوتة على جانبي المدخل الرئيسي، ناهيك عن الرموز النصرانية، تبرر تسمية العرب لها بمغارات «الكنيسية».

اللوحة رقم 8

منظر عام لجسر وادي درنة.

الهدف الرئيسي من هذا الجسر هو نقل المياه المتدفقة من جدول «أبو منصور» الذي قطع مجراه الحالي، وذلك من خلال المدرجات والمصاطب المزروعة في وادي درنة ووادي «بورويس» الذي رسم في هذه اللوحة. لقد أقيم هذا البناء قبل سنوات قليلة بأمر من محمد الغربي وعلى نفقته. إن المذكور يمثل الدولة الطرابلسية لدى ولي عهد مصر. إن ذلك يدل على تذوق الحضارة والمرافق المدينة العامة وهذا هو ما يشيعه والي مصر ـ محمد علي ـ حوله وفي المناطق المتاخمة له حتى وإن كانت مستقلة عن سلطته.

اللوحة رقم 9

الشكل رقم - 1 -

آثار وادي الكرموس وقصر الحرامي من الداخل.

الشكل رقم - 2 -

تقع هذه البناية على تخوم أراضي قورينة الجنوبية وتشكل جزءًا من مدافن قرية هيدراكس Hydrax الغابرة.

---

(1) تمكنت الحملة الأمريكية بقيادة الجنرال ايتون سنة 1801 باحتلال درنة لمدة 34 يوماً حيث قام الأمريكيون ببناء هذا الحصن بالإضافة إلى طاحونة للغلال تعمل بمياه الشلال. انظر أطروحة المترجم للدكتوراه بجامعة السربون.

يدل الاسم العربي لهذا القصر على غاية استخدامه منذ فترة طويلة. يقع القصر على بعد عشرة فراسخ من درنة في أقصى الممرات الجبلية الضيقة التي تغطيها الأشجار عند عين مارة وطراخنت، والتي تؤدي إلى تلك المدينة. لقد شكل هذا القصر وكراً آمناً ومناسباً للصوص الذين يجردون المسافرين القاصدين درنة من أموالهم وأمتعتهم. كانت القبائل المجاورة قد اجتمعت، قبل بضع سنوات، وهدمت القصر فساهمت في جعل المنطقة أكثر أمناً وأماناً.

اللوحة رقم 10

منظر عام لقطاعات ومخططات حمامات قديمة قرب وادي القبة.

بغض النظر عن اختلاف تلك الغرف التي تكون هذه الحمامات، يبدو أن عدداً كبيراً من الأحواض المصنوعة من كتل صخرية واحدة، تقع على ارتفاع منخفض بالمقارنة بباقي البناية بغية استقبال مياه السيول، على ما يبدو، عن طريق فتحات Rigoles. أما الأحواض التي نحتت في قلب الصخر فهي موجودة حتى يومنا هذا وفي مكانها الأصلي، لكن الأحواض المنحوتة في كتل صخرية منفصلة فهي توجد متناثرة، هنا وهناك، بين هذه الأطلال ويستخدمها البدو في ري قطعانهم.

الشكل رقم - 1 -

قطاع لرواق داخلي لتلك الحمامات وهو يتكىء على هضبة غير أنه اليوم بدون سقف. عند مقارنة هذا الارتفاع بالمنظر العام، يستطيع المرء أن يتعرف على الأجزاء التي تم ترميمها.

الشكل رقم - 2 -

قطاع لنفس الرواق حيث يمكن مشاهدة المغارة الموجودة في الشكل المظلل حول النبع الذي يغذي تلك الحمامات بالمياه، والذي تمر مياهه من تحت الرواق، عن طريق قناة حفرت في باطن الأرض.

اللوحة رقم 11

الشكل رقم - 1 -

منظر لكهفين جنائزيين يقعان في وادي القبة حيث تدل المحاريب مختلفة الأشكال المحيطة بمدخلهما على أنهما قد استخدما من قبل النصارى في برقة.

الشكل رقم - 2 -

مخطط لنفس الكهفين المذكورين حيث يشير موقعهما في اللوحة إلى الكهف الأرضية التابعة لهما.

الشكل رقم - 3 -

مخطط لقصر شنديره.

أ - دير نصراني.

ب - المدخل المسقوف للقصر.

جـ - جدار دعم مائل تميل الأركان فيه إلى الاستدارة.

د - ممرات داخلية تتصل ببعضها البعض عن طريق أبواب مربعة صغيرة.

هـ - الممر الرئيسي.

و - بئر مردومة.

الشكل رقم - 4 -

مخطط لآثار معبد فينوس قرب محطة افروديس القديمة.

أ - مدخل المعبد ويقع في الجنوب.

ب - ممر رئيسي طويل يبدو كأنه محيط بالمعبد.

جـ - باب هذا المعبد الذي يتكون من صخرتين من أصل دوري.

د - أعمدة يصل بينها جدار مشيد بينها.

هـ - فتحة تؤدي إلى حوض ما تحت الأرض.

اللوحة رقم 12

منظر للمغارات الجنائزية بمدينة المساخيط.

ذلك هو المظهر الذي يمكن مشاهدته في عدد كبير من مقابر ومدافن برقة - سفح جبلي وعر حفرت فيه، وفي جميع الاتجاهات، مدافن ويوجد أمامها، كما هو الحال بالنسبة لهذه المغارة، ، بساط نباتي أخضر، أو حقل للحبوب، كما توجد على ظهر تلك المغارة «أو فوق سطحها» أنقاض القرية القديمة.

إن العدد الهائل للمحاريب المختلفة سواء أكان ذلك في شكل Métopes أو على هيئة

حفر بين أعمدة الواجهة، أو كان ذلك في واجهة السفح الجبلي نفسه، يعود إلى العصور الوسطى.

اللوحة رقم 13

قطاع ومخطط لمدافن نصرانية في مدينة المساخيط.

يشكل ذلك الضريح جزءًا من المقبرة حيث تؤكد رموز النصرانية والخطوط العربية الموجودة به على ذلك الرأي القائل بأنها تعود، بطبيعة الحال، إلى العهد الذي نحتت فيه المحاريب والكوات على سفح الجبل في اللوحة السابقة.

اللوحة رقم 14

منظر عام لحصن قديم في سهل شنديرة بين مدينتي إثيرون «الأثرون الحالية» وليمنياد «لملودة الحالية» القديمتين.

تلك هي الصورة التي توجد عليها العديد، وبشكل مستمر وبقدر يزيد أو ينقص من المحافظة، العديد من القصور الرومانية التي توجد فوق كل ربوة مجاورة لأية قرية صغيرة في برقة.

يطلق البدو على تلك القصور اسم «صرح» Sireh وهي عبارة جديرة بالملاحظة نظراً لوجود شبه بينها وبين «قورى» Cyré وهو الاسم الذي أطلقه الليبيون القدامى على الجبل الذي شيدت فوقه مدينة قرنّة والذي ربما كان يعني، باللغة الليبية القديمة، جبل أو مرتفع.

اللوحة رقم 15

منظر لقصر سينيو ومقبرة عتيقة في صفنة.

الشكل رقم - 1 -

تم تشييد هذا القصر من قبل العرب بفضل بقايا معلم أثري أقدم منه حيث أن السرداب الذي نشاهد مدخله في هذه اللوحة يحيط بجزء من البناية ويحتوي على قبور. يمكن مشاهدة هذه الوضعية المعمارية غالباً في برقة بالقرب من أطلال مماثلة قبل آثار مارة وشنديرة وغيرهما.

الشكل رقم - 2 -

تعود هذه المقبرة رغم الأقواس الموجودة في أسقفها إلى عهد سابق للفتح في برقة.

نحن نعرف أن المعالم الأثرية العربية، في تلك الآونة، تحتوي على أقواس على شكل حذوة فرس. إن آثار اجدابيا مثلاً «انظر اللوحة رقم LXXXIX» تقدم لنا خير دليل على ذلك.

اللوحات رقم 18,17,16

منظر للأضرحة الواقعة في سهول السواني[1] في ضواحي خليج نوستاثموس.

إن تلك القبور التي تعتبر من أكثر قبور برقة أناقة وأفضلها حالة بغض النظر عن العدد الكبير المهدم منها، بالإضافة إلى وجود كهوف جنائزية جميلة، تشكل مقبرة لمدينة كبيرة جداً ومعروفة لدى الجغرافيـين القدامى.

إن آثار هذه المدينة قد احتفظت في تسميتها حتى في يومنا هذا بجرس اغريقي فهي تسمى «غرطابولوس» حيث يصادفها المرء بعد مسيرة نصف ساعة تقريباً شمال تلك الأضرحة المذكورة، وتوجد فوق قمة وادٍ يصب في وسط خليج نوستاثموس. ينبغي أن نلاحظ أيضاً أنها، مثلها في ذلك مثل أغلب أطلال مدن برقة، تقدم لنا أدلة دامغة على استقرار النصارى في هذا الإقليم.

من حقنا أن نشعر بالتالي بالدهشة إزاء إغفال المؤرخين الحاليـين وكذلك قدامى المؤرخين، لذكر هذه المدينة التي كانت، دون شك، قد لعبت، وفقاً لموقعها قرب ميناء قرنّة، ووفقاً لحجم أطلالها الرائعة، دوراً هاماً في تأريخ هذه البلاد.

اللوحة رقم 19

قطاعات ومخططات وتفاصيل هندسية لأضرحة منطقة السواني.

الشكل رقم - 1 -

قطاعات لواجهة الضريح «اللوحة 16».

أ - مخطط الضريح.

ب - تفاصيل النحوت الموجودة على واجهة هذا المعلم الأثري.

---

(1) سهل السواني وفقاً للمؤلف يتمثل في المنطقة المعروفة الآن باسم «الصنيبات العويلية» قبالة خليج رأس الهلال. . المترجم.

الشكل رقم - 2 -

قطاع لواجهة الضريح «اللوحة رقم 17».

أ - مخطط الضريح.

ب - تفاصيل النحوت الموجودة على واجهته.

الشكل رقم - 3 -

قطاع لضريح مربع ويتميز بنوع من الاستطالة. «اللوحة 18».

نرى أن تلك البناية الأنيقة قد قسمت من داخلها إلى ثلاثة أقسام دون وجود أي منفذ خارجي وهي مليئة برفات صغار الأطفال.

اللوحة رقم 20

منظر لبناية قديمة تسمى قبور الجوش.

إن تلك الآثار الواقعة بشكل خلاب على أحد سفوح هضبة جميلة تشكل جزءًا من معلم أثري أكبر منها، يعتبر من أقدم المعالم الأثرية في برقة من بين تلك التي لاتزال أنقاضها قائمة، غير أنه من العسير تحديد غايتها الحقيقية.

اللوحة رقم 21

آثار قصر ديونيس الواقعة في سهل ثنتيس القديمة.

يقدم لنا هذا القصر مثلاً على النظام الذي يبدو أنه اعتمد في جميع العصور في قورينة، وذلك فيما يخص تشييد القصور، ويتكون ذلك القصر من اثنين أو ثلاثة طوابق من المباني ذات الأقواس.

تمكننا الحالة الراهنة لهذه الآثار من القول بأن الإغريق هم الذين وضعوا هذا الطراز الذي أقرّه الرومان وقلدّه العربُ بعدهم. إن قصرَي المشيدي ولمليز - إغريقيَّان بالطبع وقد شيدا قرب خليج نوستاغوس، أما قصور شنديرة واعطاس وتبلبح وثغوت وبومناء فهي رومانية لأن العصر الروماني قد تميز بالأسقف ذات الأقواس، وأما قصور المشدشيّه والحرامي والمقدم وديونيس فهي عربية بطبيعة الحال. إن هذه الأبنية تقدم لنا خير دليل على تبني نظام الطوابق هذا من قبل الشعوب المتلاحقة والمختلفة التي احتلت قورينة.

اللوحة رقم 22

مشهد لآثار جوبرة.

ينتمي الجدار الذي يشغل مقدمة هذه اللوحة إلى بناية جنائزية ضخمة، وهي البناية الوحيدة من هذا الطراز التي يمكن مشاهدتها في برقة. إن أغلب القبور المحيطة بها منحوتة في الصخر الصلد.

تقدم لنا هذه القبور فكرة عن مظهر عدد كبير من المقابر الصغيرة التابعة للقرى والمدن الواقعة في السهول التي تفتقر إلى مرتفعات كافية لحفر هذه الكهوف الخاصة بالدفن.

اللوحة رقم 23

منظر عام للجانب الشمالي لآثار قرنّة.

يبدو أن البناية الرئيسية التي تشملها هذه اللوحة تمثل حمامات قديمة نظراً لأن الأقواس المستديرة بها تدل على العصر الروماني؛ غير أن الكوّات التي تشاهد على القباب تشابه وبشكل ملحوظ، هندسة الحمامات الشرقية الحالية.

اللوحة رقم 24

منظر لضريح دائري يقع على ربوة بالقرب من قرنّس.

من النادر أن يعثر المرء على أضرحة مستديرة أو دائرية الشكل في برقة. يلاحظ أن هذا الضريح قد شيد بشكل عادي على ربوة بطريقة معزولة تماماً بحيث يتمكن أي إنسان من مشاهدته من بعيد جداً.

يبدو أن الكهف الضخم الذي يشاهد تحت هذا الضريح كان يستخدم لنفس الغرض.

أما الطريق التي نحتت في الصخر والتي تؤدي إلى مدخله فهي موجودة بالقرب من جميع الكهوف الخاصة بدفن الأموات متى سمحت مساحة المنطقة بذلك.

اللوحة رقم 25

مخططات وقطاعات لمعالم أثرية شتى في برقة وواحة أوجلة.

الشكل رقم - 1 -

مخطط لقصر قرنّس.

أ ـ جدار قام السكان الحاليون ببنائه حيث تم إحالة هذا الجانب من الحمامات إلى مقبرة.

الشكل رقم - 2 -

مخطط للضريح الدائري قرب قرنّس.

أ ـ قطاع لنفس الضريح.

الشكل رقم - 3 -

قطاع باب بناية في مدينة قرنّس.

الشكل رقم - 4 -

مخطط لسرداب مدينة لميناياد (لملودة).

أ ـ مدخل ودرجات نحتت في الصخر.

ب ـ نهاية السرداب المسدود.

الشكل رقم - 5 -

مخطط لصهريج في مدينة لملودة.

الشكل رقم - 6 -

معلم أثري عثر عليه في واحة أوجلة ربما يعود إلى عهد عبادة أرواح الأسلاف لدى الأوجليين.

اللوحة رقم 26

منظر عام لمرسي سوسه ـ الميناء القديم لقرنّة.

إن المرتفع الأثري الواضح في مقدمة هذه اللوحة يمثل صخرة ضخمة قسمت من الداخل إلى عدة غرف دفن غمرتها مياه البحر. يوجد ذلك المرتفع في أقصى غرب الميناء. أما الجزيرتان الواضحتان في هذه اللوحة فتغطيهما أنقاض حصون قديمة وربما كانتا تشكلان في القدم مدخل المدينة.

اللوحة رقم 27

أعمدة وتيجان من معابد مختلفة في برقة.

الشكل رقم - 1 -

عمود من المرمر يشكل جزءًا من آثار معبد في أبولونيا.

الشكل رقم - 2 -

عمود من الرخام الأبيض يشكل جزءًا من كنيسة أبولونيا حيث نحت على قاعدته المربعة نقش بارز يمثل صليباً رسم في أسفل اللوحة.

الشكل رقم - 3 - و - 4 -

تيجان من الرخام الأبيض عثر عليها وسط آثار بيت ثامر معبد فينوس القديم الذي يقع قرب محطة أفروديس.

الشكل رقم - 5 -

تاجان لأعمدة كانت جزءًا من آثار بطليموسة «طلمثية».

الشكل رقم - 6 -

تاج رخامي لأحد معابد توخيرة.

ملحوظة: لقد نسينا أن نوضح مقياس الرسم المتعلق بهذه القطع الآثرية في هذه اللوحة. يبلغ ارتفاع العمود المبين في اللوحة ـ الشكل 1 ـ ستة أمتار بما في ذلك قاعدته وتاجه، ويبلغ قطر جذعه نحو سبعة ديسمترات «70 سم» ويمكننا أن نستفيد من هذه البيانات لمعرفة نسب وأبعاد العمود الآخر وكذلك مختلف التيجان المبينة في هذه اللوحة وذلك عن طريق المقارنة.

اللوحة رقم 28

آثار رصيف ميناء أبولونيا.

كان هذا الرصيف الذي لم يعد يوجد منه الآن سوى ثلاثة أرباعه تقريباً، قد شيد على هيئة شبه دائرة ويتكون من سلسلة من الدرجات يتراوح عددها بين ثلاثين وأربعين «30 و 40» درجة وهو يمثل مسرحاً فسيحاً ورائعاً حيث كان المرء يضع على مدرجاته السلع والبضائع التي قام بتفريغها استعداداً لنقلها إلى المدينة.

إن موقع أبولونيا فوق صخور نحتت لكي تشكل حوالق شاهقة هو الذي يبرر طريقته وأسلوب بناء هذا الرصيف الذي كان يكشف في القدم عن منظر بديع. إن الأبنية التي كانت تحيط بالرصيف وبربع هذه المدرجات على الأقل قد خرّت فوقه وسدت الحوض شبه الدائري للميناء الذي كانت تملأه المياه التي لم يعد يبقى منها سوى بعض البرك الصغيرة.

إن الشخصيات التي رسمت فوق أنقاض هذا الرصيف قد تمكننا من عقد مقارنة لمعرفة أبعاد هذا الرصيف.

اللوحة رقم 29

مجموعة من الكهوف على الطريق بين قرنة وأبولونيا.

إن هذه الواجهة جديرة بالملاحظة لما تقدمه من وضعية هندسية لا يمكن أن نجد مثيلتها في أي مكان آخر في برقة حتى بين أنقاض آثار قرنة نفسها. تمثل تلك الواجهة سلسلة من الأطر التي نحتت من كتلة واحدة من الصخر، والتي أزدانت بأعمدة ونقوش حيث يوجد كل واحد منها عند مدخل قبو للدفن وحيث تشكل هذه الأقبية في مجملها طوابق متراصة. لقد كانت الغاية من تلك الأطر الصخرية التي لم يبق منها قائماً سوى اطار واحد تتمثل في كتابة بيانات عن الأشخاص الذين تم دفنهم في هذه الأقبية التي توجد فوقها تلك الأطر الصخرية. لازال في إمكان الإنسان أن يشاهد آثاراً لتلك الحروف الفجة على تلك الأطر المبعثرة أمام هذا المعلم الأثرى.

اللوحات رقم 30 و 32 و 33 و 35 و 37 و 40 و 42 و 43

مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنّة.

تقدم لنا هذه الرسومات مجتمعة مختلف الطرازات المعمارية التي استخدمها سكان قرنّة. وبصورة متعاقبة، من أجل تزيين قبور موتاهم. إن الطراز الدوري يشكل فيها الطراز الأساسي ثم يليه طراز مقلد للطراز المصري الذي يرى الإنسان بعض تفاصيله فقط بدون أن يراه كاملاً في أي معلم أثري. لقد تكرر الطراز الذاتي لكل واجهة من تلك الواجهات المرسومة في هذه اللوحات بدقة في هذه المقبرة الشاسعة والرائعة.

هناك العديد من الواجهات المتصدعة لمغارات جنائزية أخرى تعرضت للخراب بقدر يزيد أو ينقص. لقد اكتفيت برسم المغارات التي توجد في حالة جيدة أكثر من غيرها في لوحات منفصلة.

اللوحات رقم 31 و 34 و 36 و 38 و 41 و 44

قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنّة. إن هذه القطاعات وكذلك الأشكال الهندسية المقترنة بها تطابق في رسمها المعمار الموضح في اللوحات السابقة، وتدل عناوينها، بشكل كاف، على المغارات التابعة لَها وذلك لكي لا يطول الشرح والتفسير.

اللوحة رقم 39

قطاعات لواجهة مغارات أخرى في مقبرة قرنة رغم أن تلك الواجهات تكشف عن طراز معماري مختلف تماماً من الطراز المبين في اللوحات السابقة رأيت أن أكتفي بتقديم رسم بسيط لها نظراً لأنها تستكمل هذه السلسلة من الطرازات المعمارية دون رغبة مني في زيادة عدد المناظر التي تكونها هذه الواجهات من الناحية المعمارية، وذلك نظراً لأن كافة المواقع متشابهة جداً في هذه المقبرة.

اللوحة رقم 45

منظر عام لضريح يقع في أقصى شرق مقبرة قرنّة.

انظر ذات الملاحظات الواردة في شرح اللوحتين 39و 57.

اللوحة رقم 46

1 ـ منظر لضريح في أقصى شرق مقبرة قرنّة.
2 ـ واجهة لضريح آخر.

اللوحة رقم 47

انظر ما ورد في اللوحة 39.

اللوحة رقم 48

مخطط لمغارات مختلفة في مقبرة قرنّة.

اللوحتان رقم 49 و 50

رسومات عثر عليها داخل كهف من كهوف مقبرة قرنّة.

لقد نحت ذلك الكهف في واجهة وادٍ داخل المقبرة. يكشف هذا الكهف وحده عن كنوز أثرية أكثر أهمية من كافة الكهوف مجتمعة. يتوسط هذه المغارة الخالية من أي محراب أو ضريح بئر للدفن مربع الشكل تزدان جوانبه الأربعة برسومات يبدو أنها تمثل ألعاباً جنائزية. إن أجود هذه الرسومات حالة، وأجدرها بالملاحظة هي تلك التي تغطي جانباً بأكمله من جوانب هذه البئر. تمثل هذه الرسومات أشخاصاً منهم من يرتدي ملابس فارهة ويمشون مشية رسمية ومنهم أناس، في مجموعات غفيرة أخرى، يرتدون ملابس عادية وقد يمثلون سكان المدينة وكأنهم يحضرون احتفالاً دينياً معيناً ويحتشدون حول الشخصيات الرسمية.

توجد في مقدمة اللوحة مائدة يحيط بها عدد من الشبان المشغولين بإعداد الأطعمة وهي ترمز دون شك إلى الموائد الدينية التي تعقب الاحتفالات الشعبية التي كانت تقام في الأزمان الغابرة. توجد أيضاً مائدة فوقها تيجان وكؤوس «جوائز» ويحيط بها ثلاث من الشخصيات التي تحمل صولجانات. تقف كل شخصية منها على قاعدة أو دكة وتتوكأ إحداها على مطرقة ضخمة، بينما تقوم الشخصية الأخرى، كما يبدو، بتكريس تلك الجوائز ومباركتها. أما الشخصية الثالثة فكانت في وضع خطيب وبدا أنها استرعت انتباه الجمهور المحتشد حولها وذلك هو التأثير الذي تحدثه هذه اللوحة الشيقة، للوهلة الأولى وذلك بغض النظر عن أي استنباط علمي.

اللوحة رقم 51

رسومات عثر عليها في مغارة في مقبرة قرنّة.

تمثل تلك اللوحة راعياً وبيده عصا وسط قطيع ويحمل على كتفيه خروفاً. يتعرف الإنسان هنا بسرعة على الراعي الذي يمثل «الراعي الطيب» للنصرانية خاصة وأن خشونة ملابسه وفجاجة الرسم تدل على أن هذه اللوحة تعود إلى العصور الوسطى أي عصر انحطاط الفن.

توجد أيضاً حول هذا الراعي العديد من الأسماك المختلفة وهي مقدمة كقربان واضح جداً لدرجة أن الأسماك أكبرثلاث مرات على الأقل من الخراف والراعي ولدرجة أن الفنان قد أبرز هذه الأسماك في عمق اللوحة بفضل التضليل البارز وكأنه يريدها أن تبدو معلقة في الهواء. . . EX. VOTO...

اللوحة رقم 52

رسومات عثر عليها داخل مغارة في مقبرة قرنّه.

1 ـ الواجهة د.

2 ـ الواجهة د س.

وتمثل تلك اللوحة منظراً للصيد ومشهداً للسيرك.

إن المنظر الأول يثير الدهشة للوهلة الأولى بسبب وجود الأيلة التي تكون الموضوع الرئيسي حيث يحرض الصياد كلبه «السلوقي» عليها وهو يمسكه بحبل بإحدى يديه ويضربه بسوط باليد الأخرى لتحفيزه على العدو. نظراً لأن حيوان الأيل لا يوجد في افريقيا كما حرص هيرودوت على تأكيد ذلك، رغم الخطأ الذي ارتكبه الموارنة Maronites في مؤلفاتهم عن جغرافية النوبه، فإن هذا الحيوان قد أحضر، على ما يبدو، من بلاد الإغريق إلى إقليم المدن الخمس الليبية.

إن هذه اللوحة تؤكد ذلك وتفسر تأقلم هذا الحيوان في تلك المنطقة عن طريق معالم أثرية أخرى. ينبغي أن يُعزى ذلك، دون شك، إلى عبادة الربة ديانا Diana إحدى الربات الرئيسية التي كان يعبدها سكان قورينه. أما المشهد الثاني فيمثل سيركا وهذا أمر عجيب حقاً نظراً لوجود حيوانات مفترسة مثل الأسود والفهود وهي تنقض على ثور جنباً إلى جنب مع تيس ماعز وغزلان وكلاب صيد محلية يمكن التعرف عليها فوراً بأنها «سلوقي» الشمال الأفريقي.

اللوحة رقم 53

رسومات عثر عليها في أحد كهوف مقبرة قرنه.

1 ـ الواجهة ج.

2 ـ الواجهة أ.

تجسد هذه اللوحة مشهداً للمصارعة والعراك وتمثل شخصيات رياضية واضحة رسمت بكامل ملامحها عادية دون أي ساتر ولو كان ورقة عنب. إن الدماء تنزف من الأجساد وتسيل على الأرض لتجعلها حمراء بينما توجد ضحية سيئة الطالع مسجاة على الأرض أو الحلبة. لقد كان ذلك على الأقل هو قصد الفنان رغم وجود تلك الضحية في مؤخرة اللوحة وكأنها تطير في الهواء إلا أنه قصد أن تكون ملقاة على الأرض. إن هذا

الجهل بالهندسة معروف جداً لدى الفنانين القدامى ولا يمكننا أن نشعر بالذهول من جراء ذلك الجهل. إن ذات الملاحظة تنطبق على الآنيتين التي تحتوي أولاهما على الزيت والأخرى على الفرشاة. إن تلك التفاصيل لا تقدم لنا شيئاً غير معروف. لكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للعقرب التي تتدلى في طرف خيط متصل بيد معلقة في أحد جوانب هذه اللوحة. لا أدري فيما إذا كانت تلك الحشرة التي أفرغ سمها يمكن أن تكون كالعديد من الحشرات الأخرى ترياقاً ضد الألم. من الملاحظ أن سكان قرنّة الآن يستخدمون، حسب قولهم، العقارب للحيلولة دون تعفن الجروح والقروح.

إن اللوحة التي تلي اللوحة السابقة والتي توجد على الواجهة الأخرى للكهف إلى الأعلى قليلاً فهي تجسد قتالاً بين متبارين بالسيوف ومدججين بالدروع وعلى وجوههم أقنعة وخوذات مختلفة الألوان. إن هذه التفاصيل الأخيرة جديرة بالاهتمام لعدم وجودها، حسب معلوماتي، في أية لوحة قديمة تماثل في موضوعها هذه اللوحة. إن ذلك هوما يجعلني أعتقد بأن تلك التفاصيل تعبر عن تقليد محلي. يوجد بهذه اللوحة أيضاً رجل سافر الوجه ويمسك بيده عصا وهو يحاول إيقاف الفائز في هذا النزال. قد يكون هذا الرجل أحد قادة المعسكر.

إن تفاصيل الدروع والمتبارزين لا تقدم أي شيء غير معروف ولم نجده في معالم أثرية أخرى في القدم خاصة في ضريح سكوروس Scaurus الذي تم اكتشافه في آثار بومبايه العتيقة Pompei.

اللوحة رقم 54

رسومات عثر عليها في نقوش أحد الأضرحة في قرنّة.

توجد تلك الرسومات في غرفة صغيرة موحدة الواجهات وقد رسمت باللون الأخضر مما جعلها تبدو وكأنها قاعة زاهية وليست قبواً للدفن. إن مؤخرة هذه المغارة هي الشيء الوحيد الذي يدل على غاياتها وذلك نظراً لوجود قبر نحت في قلب الصخر، وتعلوه نقوش يحتوي كل جانب منه على رسومات في حالة جيدة. إن ما يزيد من دهشة المرء هو التعرف، من خلال تسلسل هذا الرسم، على المراحل الأساسية لحياة خادمة أو أمة سوداء اللون. إن ذلك هو الاستنتاج الذي خلصت إليه بفضل رؤية تلك اللوحة الرائعة.

شاهدت فيها بداية تكوين الصداقة ثم تعليم وتدريب الفتاة، ثم الطموح في الحصول على الحلى، ثم التسلية عن طريق المراجيح، ثم الحمام الضروري جداً في مناخ ليبيا

الملتهب، ثم فراش الموت أخيراً الذي تنام عليه تلك الزنجية جثة هامدة وإلى جانبها مولاها القوريني الأبيض الذي يبدو عليه الأسف والحزن على وفاتها حيث يشاهده المرء بالقرب منها وهو يعتصر ألماً وحزناً.

إن الزي الواضح في هذه اللوحات الصغيرة «المنمنمات» بالإضافة إلى أسلوب تسريح الشعر، جدير أيضاً بالاهتمام حيث لا توجد بهذه الفساتين الزرقاء الطويلة أي مشابك. وحيث أن أغطية الرأس الحمراء التي تجدل مع الشعر أو تغطي الرأس وكأنها عمامة، تشبه إلى حد كبير أسلوب تسريحة الأفريقيات الحاليات لا سيما تلك التي تقطن إقليم فزان.

اللوحة رقم 55

داخل مغارة جنائزية نصرانية في مقبرة قرنّة.

رغم أن الرسومات التي تغطي الواجهات الداخلية لهذه المغارة تقدم لنا دليلاً أكيداً على عصرها الديني، فإن أحد النقوش الخطية المسبوقة بصليب تدل على ذلك دون شك.

ينبغي عليّ أولاً أن أقدم فكرة عن هندسة هذا الكهف. إن الجانب الخلفي له يمثل بحق معلماً أثرياً نظراً لوجود قبر منحوت في مؤخرة هذا الكهف. إن القبر قد نحت بدقة ومهارة فائقة وهو مزدان بأكاليل من الزهور بالإضافة إلى رؤوس تيوس الماعز وتعلو هذا القبر قبة صغيرة كاملة الاستدارة. يوجد على جانبي القبر محرابان صغيران توجد بكل منهما جرة صغيرة وأنيقة جداً.

أما الواجهتان الأخريان لهذا الكهف اللتان تشكلان زوايا قائمة مع الواجهة الخلفية فتحويان أيضاً قبوراً وأقواساً منها ما يحتوي على نقوش ورسومات.

إن تباين الرسم الذي قد يثير الدهشة للوهلة الأولى لا يؤدي إلى شعور الناظر إليه بالامتعاض لأنه يظهر هذا المعلم الأثري متبايناً في شكله. أما بالنسبة للرسومات فيه فهي أكثر من مجرد كونها زينة لأنها ترمز إلى أمور دينية. إن أكثر الأشياء التي تعبر عنها تلك الرسومات وضوحاً هي «كرمة الرب» أو شجرة العنب التي تمثل المراحل الأولى للنصرانية وهي تشبه إلى حد كبير شجرة Thyrse المكرسة لباكوس، ها هي تلك الشجرة بأغصانها وعناقيدها المحمرة وأوراقها العريضة تتسلق عِصيًّا سميكة وضعت جنب تلك القبور وتلتف حول معترش داخل القبة أو تكون بروزاً وكأنه شرفة في أعلى تلك الأقواس.

يوجد أيضاً، بين تلك الرسومات، طائر الطاووس وبجانبه عدد من الأسماك. إن هذا المشهد يذهل الناظرين. لقد شاهدت ذلك مراراً في مغارات قرنّة، وكان ذلك مرسوماً بشكل منفصل أحياناً فوق القبور. أما الآن فإنني أشاهده موضوعاً رئيسياً يشغل كافة المساحة المرسومة. يوجد ذلك الطاووس في وسط سلة ذات أذنين وقد نشر ذيله المزركش وسط باقة من الأزاهير التي تمثل الهموم والمشاغل والأفكار المختلفة. توجد تلك الأزهار بين باقات من الورود. إن طائر سيريس Cérés هذا قد رسم في تلك الأماكن على أساس أنه قربان.. ولا أعرف في الحقيقة العلة الرمزية له.

اللوحة قم 56

منظر لضريح داخل مغارة.

تقع تلك المغارة في غرب مقبرة قرنّة، وهي تحتوي على قبر رائع منحوت من الرخام الأبيض ولا يزال يحتفظ بسقفه. إن تلك المغارة التي تعرضت، من ناحية المدخل، إلى الدمار وكذلك داخلها، بصورة كبيرة، تتكون من قاعة مقسمة إلى ثلاث غرف اثنتين منها على جانبي المدخل أما الثالثة فهي في مؤخرة الكهف. تحتوي كل غرفة من تلك الغرف على قبر رخامي يختلف في طرازه عن الآخر. إن أحد القبور ـ الموضح في الرسم ـ هو الوحيد الذي لايزال في حالة جيدة. يوجد أربعة مربعات على واجهته نحت بها صور لطفلتين وولدين. توجد تلك الصور منحوتة في شكل نقش صخري، وتتصل فيما بينها بواسطة أكاليل من الزهور المختلفة وشتى أنواع الفواكه. يوجد، وسط الأكاليل التي تحيط بصورتي الطفلتين، رأس منحوت بحجمه الطبيعي، وتوجد ربطة أو عقدة وسط العنق، بينما توجد بين الأكاليل الأخرى رؤوس أطفال صغار. كل تلك الأشكال منحوتة بصورة جيدة. أما الملابس فهي مقبولة ومعقودة بالطريقة الإغريقية أي فوق الصدر.

يبدو أن البدو قد قاموا بعمل ثقوب وحفر في أماكن متفرقة في هذه الواجهة بغية الاطلاع على ما تحتويه هذه القبور وذلك قبل زحزحة سقف القبر الذي يوجد الآن مواربا. يبلغ طول هذا القبر سبعة أقدام وخمس بوصات، وعرضه ثلاثة وثماني بوصات، وارتفاعه ثلاثة أقدام وثلاث بوصات. أما سمك غطاء أو سقف القبر فيبلغ قدماً واحداً وثلاث بوصات.

اللوحة رقم 57

قطع من قبور رخامية.

عثرت، في إحدى الغرف الواقعة بالقرب من تلك التي وجدت بها القبور السابقة، على عدد كبير من الكتل الرخامية كانت إحداها تمثل جذعاً لمحارب يرتدي درعاً. يبدو أن المحارب يهم بقتل أم كان ابنها مستقلياً بالقرب من رجليه. إن تلك الكتلة الرخامية التي يبدو أنها كانت جزءًا من قاعدة لقبرما، تكشف في أكبر مساحة منها، عن مشهد مماثل مع وجود جياد وكلاب هاربة في عجلة. يسمح لنا ذلك النقش من التأكيد على أن هذا القبر كان يحتوي على جثمان لمحارب أو ربما لإحدى ضحايا ويلات الحروب الطاحنة.

اللوحة رقم 58

قبر داخل مغارة توجد بالقرب من نبع أبولو في قرنّة.

صنع القبر المذكور من المرمر الأبيض نُحت على جانبيه اثنان من وحش «العنقاء» Griffons ويضعان أرجلهما على جرة مستطيلة تتطاير منها ألسنة اللهب. أما الجوانب الأخرى فتحمل أكاليل الزهور المعلقة في رؤوس تيوس الماعز قرب أعلى القبر. هناك أكاليل أخرى على هيئة حرف «S».

اللوحة رقم 59

جذع تمثال ضخم من الرخام وُجد بين أنقاض آثار قرنّة.

يوجد هذا الجذع الضخم على بعد سبعين متراً غرب معبد قيصر وقد نحت من الرخام الأبيض، وهو يمثل تمثالاً لأحد المحاربين. أما الدرع فهو مزدان برسومات دقيقة وفي حالة جيدة يمكن للمشاهد أن يميز فيها ما يلي:

صورة لامرأة مجنحة، وسط الصدر، وهي ترتدي قبعة أو خوذة على رأسها، وتمسك بسيف في إحدى يديها بينما تمسك اليد الأخرى درعاً وهي تمتطي ذئبة. أعتقد أنه من نافلة القول أن نؤكد هنا على أن ذلك هو شعار روما الحربي حيث يحمل دوماً «أي المرأة» الحيوان الذي أرضع أول ملوكها «وفقاً للأسطورة. . المترجم». توجد على جانبي هذه الصورة شخصيتان مجنحتان تمثلان الشياطين التي تحكمت في مصير تلك المدينة البطلة. أما زوائد الدرع وصفائحه شبه الدائرية التي تغطي «السيور الليبية» فتحتوي، هي الأخرى، على نقوش بارزة، منها صور الحيوان الدورفيل ورؤوس لعطارد وأبولو. . ونسور روما ورموز أخرى ساهمت في زركشة هذا الجذع الرخامي المهيب دون أن تفسد بهاءه. إذا تذكرنا الآن موقع هذا المعلم الأثري النفيس، وإذا اعتبرنا أبعاده الضخمة، وجودة صنعته،

فإنه لن يساورنا أي شك في التأكيد على أن هذا الجذع جزء من تمثال الأمبراطور يوليوس قيصر، الذي أخرجه الهمج «يقصد الليبيين. . المترجم» رغم عظمته، من مكانه الرائع، ودحرجوه نحو هذا الحقل مع الأعمدة والأقواس التي كانت تزيد قديماً من مهابته.

اللوحة رقم 60

الشكل رقم - 1 -

مخطط لآثار معبد في بطليموسة.

أ - بروناس Pronaos لا يزال يحتوي على ثلاثة أعمدة بتيجانها. انظر اللوحة «78».

ب - فتحات تؤدي إلى قبو مقسم إلى ستة ممرات ربما كان يستخدم في تجميع الماء لأن هذا هو الاستخدام الحالي له.

الشكل رقم - 2 -

مخطط لمعسكر قديم بنفس المدينة.

أ - جانب السور الذي نقش عليه «مرسوم» أناسطاس الأول «انظر ص 179».

ب - غرفة لاتزال تحتفظ بالمواقد القديمة للمعسكر.

جـ - سلم صخري نحت داخل السور الذي يحيط بالمعسكر.

د - مداخل مقوسة وقباب.

هـ - كوات ونوافذ.

الشكل رقم - 3 -

مخطط لقصر عربي يقع على الطريق بين قرنة وبطليموسة. «طلمثية».

اللوحة رقم 61

نقوش ورؤوس من الرخام وجدت بين آثار قرنّة.

يوجد هذا النقش البارز، بين أنقاض معبد أبولو، وهو يمثل فتاة عارية حتى صرتها، ولا تحمل أي صفة من صفات الربات، ويبدو أنها تعلو جذع تمثال فَقَدَ رأسه. وجد هذان الرأسان مع أنقاض مدينة قرنّة، وهما من الرخام الأبيض، أحد هذه الرؤوس ضخم الأبعاد أما الرأس الأخرى فهي بالحجم العادي أو الطبيعي.

اللوحة رقم 62

مخطط للكهف المسمى مغارة «الكنيسة» الذي يشكل جزءاً من مقبرة قرنة.

يقع هذا الكهف وسط المقبرة الشرقية تقريباً وهو أكثر هذه الكهوف آثاره للانتباه والفضول نظراً لضخامته وكيفية تصميمه. انظر اللوحة رقم 39.

اللوحتان رقم 63 و 64

نقوش تم العثور عليها في مدينة قرنّة.

اللوحة رقم 65

نقوش عثر عليها داخل معبد في قرنّة.

اللوحتان رقم 66 و 67

نقوش عثر عليها في قرنة.

اللوحة رقم 68

منظر عام لقصر المقدم على الطريق بين قرنّة وبطليموسة.

يقع غرب قرنة على بعد مسيرة نهار على ظهر بعير من ساحل البحر ويبلغ طوله اثنين وعشرين متراً وعشرين سنتيمتراً وهو على شكل معين. يمتد طول القصر من الشرق إلى الغرب، ويوجد وسط كل جانب من جانبيه الطوليين برج مربع يبلغ عرضه ستة أمتار وخمسة وأربعين سنتيمتراً.

يشكل هذان البرجان الملاصقان للبناية جناحين لهذا المعلم الأثري نظراً لبروزهما إلى الأمام قليلاً. يحتوي كل منهما على قاعة مسقوفة وهما مشيدان من كتل الحجر الجيري التي تشد بعضها البعض عن طريق الإسمنت.

اللوحة رقم 69

منظر عام لأنقاض معبد بطليموسة.

يمثل المخطط الأول في هذا المنظر العام باحة المعبد وهي تتكون من نوع من أنواع الجبس المرصع بأحجار مستديرة، حيث توجد بأرضية الباحة العديد من الفتحات التي لاتزال تحتفظ ببقايا من الفسيفساء الفجة التي كانت تغطي تلك الفتحات. أما الأعمدة

الرخامية التي لاتزال قائمة فربما تكون جزءًا متبقياً من «المصلى» Propylée حيث يمكن مشاهدة الكتل التي تمثل قواعد تلك الأعمدة بالإضافة إلى اثنين من النقوش الإغريقية، علماً بأن إحداها مقلوب.

اللوحة رقم 70

منظر لأطلال المدخل الغربي لبطليموسة.

توجد كتلتان صخريتان متساويتي الأبعاد، وبجانبهما، من ناحية الشرق، فتحة مربعة في قلب الكتلتين المذكورتين. تدفعنا تلك الفتحة إلى الاعتقاد بأنها بقايا للباب أو المدخل القديم لبطليموسة الذي يوجد في أقصى الغرب منها. أما آثار المعبد موضوع المنظر السابق فتوجد إلى الشرق قليلاً من تلك الفتحة..

اللوحة رقم 71

منظر لأطلال جنائزية غرب بطليموسة.

لقد شيد الضريح الرئيسي بين هاتيك الأضرحة فوق صخرة نحتت على شكل مربع تعلوه شفة Frise نحتت، هي أيضاً بنفس الطريقة التي شاهدناها في قبور قرنّة. يشكل هذا المربع قبواً يوجد على كل جانب من جوانبه خمسة قبور تعلو مدخلها نقوش بسيطة غير أنها تدل على ذوق رفيع. يوجد فوق تلك القبور طابق آخر مقسم إلى عدة غرف. أما المربعات الأخرى التي توجد قرب هذا الضريح فهي ليست سوى كتل صخرية متفرقة نحتت بداخلها غرفة أو عدة غرف جنائزية بينما نحتت تلك المربعات الصخرية من الخارج بطريقة فجة.

اللوحة رقم 72

مخطط وقطاع وتفاصيل لضريح ضخم.

يقع إلى الغرب من بطليموسة «انظر ص 181 و ص 182».

اللوحة رقم 73

نقوش محفورة في معسكر عتيق في بطليموسة.

اللوحات رقم 74 و 75 و 76 و 77 و 78

تمثل تلك اللوحات رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة.

اللوحة رقم 79

نقوش حفرت على أضرحة بطليموسة.

اللوحات رقم 80 و 81 و 82 و 83 و 84 و 85 و 86

تمثل نقوشاً عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة».

اللوحة رقم 87

مدينة توخيرة القديمة.

يحيط سور بآثار هذه المدينة حيث تبدو في شكل مربع غير منتظم الأبعاد، وتبلغ مساحتها نحو ميلين. إن هذا السور الذي لايزال في حالة جيدة قد زود بأبراج في أركانه، ويبدو أنه قد رمم أو أعيد بناؤه بواسطة مواد وبقايا من بناية أقدم منه.

أ - حوض منحوت في الصخر فنحتت في جوانبه مغارات للدفن.

ب - برج كبيريوجد في وسطه بئر.

جـ - أبراج مربعة للدفاع عن المدينة.

د - جانب السور المحاذي للبحر وقد تعرض كله تقريباً للدمار.

اللوحة رقم 88

منظر عام لمغارة للدفن يعود تأريخها إلى العصر الوسيط وهي جزء من مقبرة قرنّة.

اللوحة رقم 89

أطلال لمعلم أثري عربي كبير في مدينة اجدابيا.

اللوحة رقم 90

منظر عام لقصر عربي في اجدابيا.

توجد هذه الأطلال على مسافة ثلاثة عشر فرسخاً Lieues من رأس كركرة، وعلى مسافة ثلاث مراحل Stades من ساحل البحر، «انظر النص ص 268 و ص 269».

اللوحة رقم 91

منظر عام لقرية مصنوعة من جريد النخيل في واحة مراده.

توجد، في قلب واحة مرادة تقريباً، تلة صخرية تعلوها أطلال لقرية محاطة بسور ومشيدة من الطين والحجارة. يمكن مشاهدة الواحة بأسرها من هذا الموقع شمال تلك الأطلال. توجد، خلف هذه السلسلة القصيرة من الروابي التي تقسم الواحة إلى نصفين، أطلال لقرية أخرى مشيدة بنفس الطريقة السابقة. يوجد في وسط هذه القرية ما يشبه البرج المربع غير أنه مردوم الآن، ربما كان قد أقيم بغية الدفاع عن القرية وسكانها القدامى حيث كان البدو من ضواحي سرت يأتون إليها كل سنة لجني التمور.

ونظراً لعدم جرأة هؤلاء البدو على الإقامة في القريتين المدمرتين اللتين أصبحتا مأوى للأشباح في نظرهم، فقد قاموا بنصب أكواخ من جريد وسعف النخيل.

اللوحة رقم 92

منظر عام لواحة اجخّره قرب واحة أوجلة

لا توجد بهذه الواحة، كما كان عليه الحال في الواحة السابقة، أي قرية مشيدة، بل نرى أن كافة المساكن بها عبارة عن أكواخ من جريد النخيل وهي محاطة بسور من نفس المواد حيث يؤمها بدو برقة للإقامة بها مع قطعانهم في فصل الصيف، ويزرعون القليل من الشعير، ويجنون تمورها التي يدفعون عليها رسوماً لباشا طرابلس. لم أجد بهذه القرية سوى عشرة رجال «رهط من الرجال» من المقيمين فيها، ولا يمتلكون سوى الماعز غير أن منظرهم يدل على أنهم أقل بؤساً وفقراً من سكان مرادة. يمكن للمرء أن يشاهد برجاً كبيراً ومربعاً شيد في واحة اجخّرة من الطين والحجارة، كما يوجد بأركانه الأربعة ما يشبه الأبراج الحربية، ويرتفع مدخله قليلاً عن مستوى سطح الأرض. يبدو أن هذه البناية، علاوة على بناية أخرى أقل منها حجماً غير أنها في حالة سيئة من الدمار والخراب، تعود إلى عهد الفتح العربي.

اللوحة رقم 93

زنجية من السودان.

تمثل هذه اللوحة ثلّة من الزنجيات السودانيات من بلاد دواخل أفريقيا، كنت قد ذرعت برفقتهن بعض المناطق الرملية. إن انتظام التقاطيع، وعذوبة العيون السوداء

الواسعة، ورشاقة القوام، ومرونة الأجساد، لا تكشف عن تلك التشوهات الواضحة في أنوف وشفاه زنجيات أفريقيا.

اللوحة رقم 94

جمل مع حوية نوبيه.

اللوحة رقم 95

حية.

اللوحة رقم 96

نبات Geranium uniflorum.

اللوحة رقم 97

نبات السنا الشرقي. أو Echium Cyrenaicum الأيشيوم القوريني.

اللوحة رقم 98

نبات Euphrasia القوريني.

اللوحة رقم 99

نبات الأقحوان الآسيوي.

اللوحة رقم 100

فصيلة جديدة من أسرة الصنوبريات تنمو قرب نبع أبولو.

نهاية شروح اللوحات

شروح حول نقوش برقة

بقلم م. ليترون

يكتسي القليل من النقوش الكثيرة التي أحضرها السيد باشو من برقة أهمية تاريخية أو لغوية. أما بقية النقوش فهي ليست سوى قوائم لأسماء أعلام.

إن العمل الضخم الذي قدمته للسيد باشو، قبيل وفاته، على ما يبدو ببضعة أيام قد ضاع لأن هذه الرحالة، سيِّىء الطالع، قد حرق عدداً هائلاً، كما يبدو، من أوراقه دون تمييز وذلك خلال اللحظات المضنية وغياب العقل التي سبقت هذه الكارثة الفظيعة، ومن بينها مخطوطي الذي ضاع، بين أوراق أخرى، قد تكون أكثر أهمية منه.

نظراً لعدم احتفاظي بنسخة من هذا المخطوط، فقد كان عليَّ أن أعيد كتابته، غير أن الوقت لم يستفني كثيراً في هذا الصدد. لن يجد القارىء بالتالي هنا سوى شذرات كنت قد فرزتها ونشرتها في «جريدة العلماء» خلال شهري مارس ومايو سنة 1821 وتعلقت، لحسن الحظ، بأفضل تلك النقوش. أما فيما يتعلق بغيرها من النقوش أي تلك التي تشتمل، في معظمها، على أسماء وألقاب، فإنه ينبغي على القارىء أن يكتفي بمجرد إشارة وجيزة إليها، بل وهناك العديد منها الذي أغفلته عن عمد لأن نسخ النقوش من طرف باشو، يبدو لي وحسب ظني، كافياً بالنسبة للقارىء المستنير. سوف يحصل القارىء، بالتالي، على كل ما يقدمه عملي من فائدة تقريباً، ولن يخسر سوى بعض المقارنات التاريخية القديمة وهي مقارنات باليوغرافية أو تتعلق بالتسلسل الزمني وليس لها أي أهمية تذكر.

قرنّـه

رقم - 1 -

إن نص هذا النقش هو النص الوحيد المقفى وهو عبارة عن نص جنائزي لقصيدة رثاء أو تأبين يمكن، بفضل موضوعها وقيمتها، أن تثري الأدب الإغريقي هذا هو النص بعد تحقيقه وترجمته[1].

«بلغ تيتوس بترونيوس كابيتون سنة (29) أربعة وعشرين سنة. إن القدر ياكابيتون، لم يضع، بالنسبة لك، بينك وبين المنية سوى فترة ليلة واحدة.. فترة خداعة لا رحمة فيها، دون زاد عيدي ودون فراش داخلة أو زواج ودون وليمة عرس.

أيها الشاب التعيس، لقد سقط التراب على ثياب زواجك ولم يتم تعطيرها وتطييب أكاليلك من زهور Bilbus ـ اللوتس. لقد كانت تأوهاتك بمثابة أنشودة للحياة بيد أن المشاعل قد قادتك، وللأسف، إلى مثواك الأخير، الذي لا يرغب أحد في مشاركتك فيه».
لقد تم، وفقاً لتقاليد الكتابات الجنائزية التي تم العثور عليها في قرنّه، ذكر تاريخ الوفاة أي خلال سنوات حكم الأمير كذا غير أن هذا الأمير لم يذكر بالاسم. إن ذلك التقليد الغريب الذي لا أستطيع تفسير هدفه، يلقى ظلالاً من الشك والارتياب. حول العهد الذي أقيم فيه هذا المعلم الأثري. إن الأمر مختلف هنا لأن اسم تيتوس بترونيوس كابيتون يدل على العهد الروماني ولأن العام التاسع والعشرين لا يناسب أي عهد سوى عهد أغسطس وذلك لأنه لا أحد من الآباطرة قد استمر عهده 29 سنة إلا الإمبراطور اغسطس وعليه فإن هذا المعلم الأثري يعود إلى القرن الثالث الميلادي. إن النص يتبع بعد ذلك التاريخ المذكور. إن الحروف الرقمية AK قد وضعت رأساً على عقب مثلها في ذلك مثل النقوش التي عثر عليها في سورية ولم أعرف لها أي مثيل في الآثار المصرية غير أن مثيلاتها كثيرة في برقة. إذا كنت قد فهمت النص جيداً، فإنني أعتقد أن تيتوس بترونيس كابيتون قد مات ليلة زفافه، ومن هنا

---

(1) لقد نشرت هذه الملاحظات في جريدة العلماء. عدد مارس 1828.

جاءت المفارقة المؤثرة والمحزنة جداً التي تقارن بين الأجيال بالزواج والاحتفاء بالوفاة. توجد في الأدب القديم قصيدة للشاعر ملياقر Méléagre حول فتاة، توفيت، هي الأخرى، عشية زواجها، وهي قصيدة أجمل وأرق كثيراً من هذه، غير أن هذا النقش القوريني أكثر إبداعاً[1]. «لم تمر سوى ليلة» فترة بسيطة بين الحياة والموت. . إن هذه الصفات والنعوت مثل «خداعة» و«لا رحمة فيها» تناسب أكثر من غيرها صروف الدهر والقدر. إن صيغة المؤنث غير مألوفة كثيراً فيما يتعلق بتلك الكلمة. لقد كانت تلك الليلة تعيسة و «دون مزامير» أي لم نسمع فيها أغاني وأهازيج الفرح المقترنة بمسيرة العريسين في شوارع المدينة يوم الزفاف. إن عشية الزواج تسمى «ليلة الدخلة» ولذا قال فيليب التسالونيكي ـ نسبة إلى مدينة تسالونيك ـ إن الربة فينوس كانت تحبها[2].

إن كلمات مثل «غطاء الفراش» أو الستائر والأقمشة المتدلية فوقه أو التي تحيط به، كانت مرادفة للكلمة المستخدمة في هذه القصيدة في صيغة الجمع. لقد وردت أيضاً في صيغة المفرد لدى ميلياقر[3] وبرسس[4] وآديبوت Adéposte. لقد وجدت اللفظتان مدغمتين أيضاً في أماكن أخرى. كما تم العثور عليهما كذلك في قصيدة رثائية لاغاتياس العلاّمة Agathias le Scolastique [5] إن هذا البيت بالذات هو الذي أقام الدليل على أن وفاة كابيتون قد وقعت عشية زفافه قبل أن يقود عروسه إلى عش الزوجية الذي تقدم فيه وليمة العرس.

هذا كل ما يتعلق بالتركيبات النحوية لهذين البيتين، لكن العبارات والكلمات تقدم لنا، هاهنا، أكثر من صعوبة واحدة.

ماذا تعني مثلاً «سقط الرماد على ثيابك» أو «إزارك» أو على «أكاليلك»! هل يدل ذلك على عرف قديم غير مألوف؟

---

(1) توجد قصيدة أخرى من تأليف إتيان «رقم 3» وأخرى من تأليف فيليب التسالونيكي «رقم 79» وأخرى لبارمينو «رقم 13» وكلها تشابه لهذه القصيدة إلى حد ما. انظر C.XXV Anal., 1.38. Anth. Pal. 182.

(2) انظر بولاكس ـ الفصل الثالث ـ ص Pollax III. p. 39.39.

(3) ΛNo. VI. Anal. 11,5, Anth. Pal. VII, 487

(4) Adespot. 703. Anth. pal. Append. 229, Jacobs. ad. Antide, XII. p. 286.

(5) Anth. Pal. 567.

لا أعتقد أن الأمر كذلك بل أعتقد أنه قد وقع خطأ في التعبير. يبدو لي أن اللفظ يدل على «الملابس» وعلى «الحلى» التي يرتديها كابيتون[1].

نجد عند شاريتون Chariton[2] أن كاليرويه Callirhoé، العروس الجديدة، قد وضعت في اللحد وهي مغطاة بكافة حليها وبالتاج الذي كان يرصع جبينها يوم عرسها.

إن هذا يدل على استمرار هذا العرف في ايبيريه Epiré حيث يرتدي الإنسان أجمل ما لديه من الثياب والحلى يوم الدفن بالإضافة إلى«تاج العرس». أعتقد أن هذا العرف لم يتغير[3].

لذا فإنني أعتقد بأن الكلمة تعني في قصيدتنا هذه «حلى الزواج» عند كابيتون. إن الكلمة الأولى تعني، دون شك، الثياب بشكل عام غير أنها تعني، عند كل من شاريتون وارسطوفان[4] ثياب «الفرح أو العرس».

لقد استخدم آدميت Adméte في مؤلفه Euripide نفس الكلمة حيث عاد وحيداً إلى قصره بعد دفن آلسست Alceste، وقارن بين ملابس «الحداد» التي كان يرتديها وبين الملابس البيضاء. أستخدم هنا نفس الكلمة ـ التي كان آدميت يعدها لاصطحاب زوجته الحبيبة[5]. أما الكلمة الأخرى فقد تعني «أكاليل» غير أنني أعتقد بأنها تعني «سيور التاج» المتدلية على الجبين التي كان كابيتون يرغب في التحلي بها يوم عرسه.

إن كلمتي «إكليل» و «سيور التاج» تردان دائماً معاً، وقد استخدمتا من قبل اجيسيلاس Agésilas في مصر كشهادة لفائدة ثيوبومب[6] Théopompe. يذكر آبيان Appien عن فارناس نفس الكلمات والعبارات أيضاً[7]. هل كانت زهرة Bilbus التي تنمو في برقة تستخدم في غرض واحد ألا وهو تزيين تيجان العروس؟ إن الأكيد أن الكلمة تعني

(1) L.P. 13, 1.20, III. p. 66. 1.8. Lips.

(2) Pouqueville, Voyage de Gréce, ii, p 53. Zéme édit.

(3) Aves, 1692.

(4) Alcests. 925.

(5) Alceste 347, Herc.Fur 684.

(6) Appien. Plut, in Agésil, S. 36-Athen. XV p. 676. D. Confi. Boettiger's Sabina, 1. P. 228 Leipz. 1806.

(7) Mithrid. S. III.

أيضاً «مزامير» كما ورد عند ميليانقر[1]. إن زهرة اللوتس كانت تستخدم أيضاً في صنع بعض أنواع المزامير كان يوريبيد يطلق عليها اسم «الناي»[2] كما كان يطلق أيضاً اسم «مزمار» ولكن بنفس الألفاظ[3].

أما الصفة «عجلى» فتدل على عدم وجود متسع من الوقت أمامه حتى لتعطير وتطبيب تلك «السيور التاجية» أو التاج نفسه. هذا ما يمكن تفسيره في ضوء فقرة وردت عند أرسطوفان نعرف فيه أنه لا يتم تبخير تاج العروس إلا ساعة الزفاف أي عند اقتياد العريس نحو العروس[4].

والآن، ماذا تعني عبارة «للأسف سقط الرماد على ثيابك وعلى سيور تاجك.. الخ»؟ فهل هذا يدل على عرف غير مألوف.. هو ذر الرماد على كفن الميت وثيابه؟. إن كلمة «رماد» كما أظن، لغوياً لأن الشاعر قد اعتقد أن هذه الكلمة مرادفة لكلمة «تراب»، أي التراب الذي يلقي على جثمان الميت ساعة دسه التراب، وهذا ما يطابق، بكل دقة، عبارة «يوريبيد»[5]. اعتقد أن هذا هو المعنى الذي قصده الشاعر.

يمكن أن يكون الشاعر قد حرّف العبارة لكي تتمشى هذه الكلمة مع القافية واتبع طريقة غريبة في الكتابة. قد يحدث ذلك كثيراً ونسوق هنا فقرة من صافو Sapho الذي ذكره هيفستيون Hèphestion. لقد تحدث النقاد عن كلمة أو عبارة مماثلة[6] ووردت في صيغة لا مثيل لها[7]. قد تكون كل تلك الكلمات إذاً مترادفة لأنه إذا لم يتم العثور على هذه الصيغة بهذه الطريقة، فإن ذلك لا يعني كونها غير صحيحة وهي تذكرنا بما ورد عند يوريبيد[8]. أما بشأن معنى هذه الكلمة، فإننا سنعثر على ذلك في كلمات وردت على لسان آخيل تاتيوس[9] Achille Tatius وفي الألفاظ ذاتها التي استخدمت من قبل

---

(1) Anal, L.p. 38 et Jacobs. t.VI, p. 139.

(2) Troad, 544, Helen. Fur, 684.

(3) Alceste 347 و Herc.Fur.

(4) Plaut. 528.

(5) Alcest. 462., Helen. 860.

(6) Hermann, Elem. doctr, Metr. p. 28, Neue ad Saph, Fragr P. 80.

(7) Adespot. 692.

(8) Troad, 335, 337. cf. Seidter ad. 4 I.

(9) L. 13. p. 74. edit Borden.

بارمينيو[1] Parmènion، علاوة على الكلمات التي استخدمها فيليب[2].

لكن ينبغي علي أن أقول بأن هذه التركيبة غير المألوفة مفعمة بالحيوية، لأن مصطلح «أنشودة» أو «أهزوجة» Hymnae الأفراح والأعراس لا تغنى إلا في الأفراح وخاصة وراء العريسين أثناء سيرهما نحو عش الزوجية[3]، وكذلك العبارة «الإبداعية» التي وردت بمناسبة نعي ورثاء فتاة يافعة[4].

إن كابيتون لم يصطحب إلى «عش الزوجية» بل حمل إلى «مثواه الأخير» وكأن النحيب والعويل الذي يسمعه خلف بمثابة زغاريد «الزفاف».

هناك أيضاً في الجملة الأخيرة طباق بديع يتضمن مسيرة العروسين ويتقدمهما حملة المشاعل حيث شبهت تلك المسيرة بالجنازة التي تحمل كابيتون إلى رمسه ولكن رفقة المشاعل الجنائزية بدلاً من مشاعل الفرح.

لقد وردت هذه الفكرة في قصيدة مماثلة لميليانقر وبنفس الأسلوب، ربما كانت كلمة «دون جدوى» تعني «عقيمة» كما وردت عند ميليانقر[5] كذلك عند غريغوار الكهنوتي Grègoire le Thèoloyien[6]، بيد أني أعتقد أن الشاعر قد أصبغ عليها المعنى «الجلى والظاهر» أي «الموحشة» أو «القفر». لقد استخدم يوريبد نفس العبارة على لسان آدميت[7] أي «موحشة» بدلاً من «قفر أو عقيمة»[8] أن كابيتون، بدلاً من أن يصطحب إلى عش الزوجية الذي يشاطره مع عروسه، وجد نفسه على فراش المنية الذي لا يرغب أحد في مشاطرته فيه.

لو أن كابيتون تزوج فعلاً قبل وفاته فلربما شاطرته عروسه هذا القبر يوماً ما نظراً لوجود عرف يتمثل في دفن الزوجة بعد موتها، مع زوجها، غير أن كابيتون كان وسيبقى وحيداً في قبره. إن ذلك المعنى المزدوج هو الذي ورد في هذه الكلمة حسب ظني.

---

(1) N. XIII, Anal. II, p. 203, Anth Palat. VII-183.

(2) Anth. Palat. VII. 186.

(3) Xenoph, Ephes, L. 8. p. 13. L.14.

(4) Adespot, 703, Anth. Palat. APP. 525.

(5) Epigr. Suppra. Laud.

(6) Anth. Palat, VIII, 229.

(7) Euripid, Alcest. 925.

(8) V. 945.

رقم - 2 -

هذه اللوحة الوحيدة، في رأيي، من بين مجموعة النقوش التي أحضرها باشو، التي يرجع تأريخها إلى عصر سابق لوصول الإغريق اللاجيديين Lagides، غير أنها لا تحتوي، لسوء الحظ، إلا على أسماء لا نعرف علاقتها بهذا العمل أو ذاك أو بموضوع هذا الأثر.

اللوحة LXIII

رقم - 1 -

شظية من نقش لاتيني يبدو أنه يهدف إلى التذكير بإقامة «رواق» كجزء من أحد قصورالقيصر أو Caesareum أو معلم أثري، تم تكريسه، إلى يوليوس قيصر. يعود تأريخ النقش إلى عصر الأمبراطور أغسطس (انظر الكتاب ص 219 والتي تليها).

رقم - 2 -

وجد هذا النقش فوق نبع أبولو وينبغي أن نقرأه كما يلي[1]: «قام ديونيزوس بن سوتاس، سنة **13**، وهو الذي يضطلع بمنصب الكاهن بإصلاح وترميم هذا النبع». يقع هذا النبع بالقرب من الأطلال الهائلة التابعة لهذا المعبد أي نبع معبد أبولو الشهير[2].

لقد تبددت الشكوك حول هذا النص الوارد في تلك الشظية بفضل قطعة أخرى تحمل نقشاً يتعلق بتكريس معلم للأمبراطور «رقم 10 في هذه اللوحة». لقد قام السيد باشو بنسخها من قطعة من المرمر الأبيض حيث عثر عليها في شكل نصف دائرة. أظن أن هذه القطعة الرخامية ترجع إلى أو تنتمي إلى «مقعد صالة حديث» Exèche ضخم وذلك لأن طول القطعة يبلغ قدمين وهي مقوسة بشكل واضح جداً. لقد كانت هذه البناية قائمة أمام معبد أبولو، وشيدت بفضل أموال القساوسة كما يؤكد النقش التالي الذي لم تبق منه سوى هذه الشظية.

ΤΩ ΣΕΒΑΣΤΩ ΑΡΧΙΕΡΕΩΣ ΣΩΤΕΡΙΑΣ ΚΟΙΝΤΟΣ ΛΟΥΚΑΝΙΟ
ΤΟ ΣΕΚΤΑΣΙΩΝ ΤΩ ΑΠΟΛΩΝΟΣ ΙΕΡΕΩΝ ΕΠΙΔΟΣΙΟ
ΑΝΕΘΗΚΕ

(1) لقد وردت الكلمة بصيغة غير مألوفة حتى الآن.

(2) .Thrige. Res. Cyren, p. 95, Hafn 1828., Pacho-Voyage. p. 217 - 218

تدل الكلمات التي تفتتح السطر الثاني بأن الأمر يتعلق بالأمبراطور أغسطس. إن الكلمة الواقعة في منتصف النقش تكشف عن أن السطريـين الأولين يفتقران إلى العديد من الحروف التي يتراوح عددها بين 32 و 34 حرفاً. إن هذه الإشارة تكفي لإعادة بناء السطر الأول إنما يستحيل علينا جداً إعادة صياغة السطر الثاني لأن النقص فيه قد اختفى بسبب تعدد ألقاب كينتوس لوكانوس الذي لا نعرف عنه أي شيء وبسبب البناية المجهولة. فيما يلي قراءة وإعادة صياغة لما قد تعنيه العبارات في بقية الشظية. «من أجل نصرة الإمبراطور قيصر... بن الله «قيصر» فإن أغسطس، البابا الأكبر، وكينتوس لوكانوس [.... قد رفع هذا...] بفضل مساهمات قساوسة معبد أبولو». إن التعديل الوحيد الذي أجريته على هذا النص هو حذف حرف «T» ووضع حرف «I» بدلاً منه وذلك في بداية السطر الأول حتى تقسيم العبارة.

رقم - 3-

يقول هذا النقش: «نصبت كلوديا فينوستا، ابنة السيد كلود والسيدة كريستينا ميلور، وعلى نفقتها الخاصة، تمثالاً لبروسربين في هذا المعبد». يعود تاريخ هذا النقش إلى عهد الأمبراطور كلود أو الأمبراطور نيرون. إن الكلمات الإغريقية الواردة به قد فسرت في مكان آخر[1]. إن كلوديا فينوستا قد عملت على ترميم المعبد ونصب ذلك التمثال على نفقتها. لقد ورد نص مشابه لذلك في نقش سوري[2] غير أن ما يميز النقش السوري عن النقش القوريني هو غياب الفعل في هذا الأخير دون أن يثير ذلك أي لبس أو غموض. تنطبق ذات الملاحظة على الشظية رقم 4 التي تثبت أن كلوديا فينوستا قد رفعت نصباً وأقامت معبداً كرسته لباكوس. أما النقش رقم 5 فينص على: «يكرم القورينيون بموجب هذا المعلم، كلوديا آرتيـيه Claudia Arété الفاضلة، نجلة فيليسكوس Philiscus بالتبني والسيدة أوفانس، الأم الطبيعية، ووالدة كلوديا أولامبياس، المعلمة الدائمة، على فضيلتها».

يعود تاريخ هذا النقش إلى عهد النقوش التي سبقته أعلاه. يتضمن هذا النص كلمة «بالطبيعة» أو «الطبيعية» باللغة الدورية. وهذا يعني أن فيليسكوس لم يكن سوى زوج لأمها ووالدها بالتبني.

---

(1) Rech. pour servir l'histoire de l'Egypte ecr. p. 44.

(2) Buckhardt, Travel in Syria, p. 115.

يمكن أن نعثر على نفس الصيغة في أماكن أخرى[1]. وقد يسمى الوالد بالتبني، أحياناً أخرى، «الوالد الطبيعي» وتستخدم، في هذا السياق، كلمات دورية أو اغريقية[2]. يبدو أن وظيفة «المؤدبة الأبدية» كانت تشغل أيضاً من قبل السيدات[3] غير أن الصيغة التي وردت عليها الكلمة تصلح للجنسين.

رقم - 7 -

لقد تم تشويه اسم الشخص في هذا النقش... يبدو أنه اسم لامرأة تدعى سالفيا Salvia، ولا يوجد في هذا النقش أي شيء جدير بالاهتمام سوى «أحرف رئيسية من اسم ما» قد يخلط المرء بينها وبين الأحرف الرئيسية للمسيح «عليه السلام.. المترجم» خاصة إذا أضيف إليها الأحرف الثلاثة التالية (AIN) في كلمة Kapiv. إن مثل هذا النقش هو الوحيد الذي عرفته من هذا القبيل.

رقم - 8 -

شظية في نص نقش يرثي لوسيوس فيبوس كاثابوس Lucius Vibius Cathabus «ربما تكون هناك ازدواجية» وإلى جانب هذه العبارة توجد عبارة مماثلة تماماً ولكنها مكتوبة بالإغريقية.

رقم - 9 -

نقش نصراني موغل في القدم مليء بالأخطاء اللغوية والإملائية ويكثر وجوده في المعالم الأثرية في ذلك العهد. كتب ذلك النص باللغة الإغريقية الممزوجة بعبارات دورية. يقول هذا النص:

«اشترت ديميتريا نجلة غايوس هذا المعلم وهي مسجاة هنا برفقة ابنها، خادم الرب (أي عبد الله..!!؟ المترجم) لقد توفيا إبان حكم ماكسيموس... ودفنا هنا من قبل كاليب، زوجها وابنة غايوس وصهره بانيبول لكي يتذكرهما الجميع... يبلغ هذا القبر ذراعاً من الداخل...».

---

(1) Marm, Oxon, no. IX, 1,2.

(2) نحن نخالف هذا الرأي لأن كلمة «الأم الطبيعية» تعني وفقاً لرأينا المتواضع الأم التي تنجب أطفالاً دون زواج شرعي بمعرفة السلطات الدنيوية أو الدينية في كل أوان وعصر.. المترجم.

(3) Vandale, Dissert, p. 627.

اللوحة رقم LXIV

رقم - 1 -

قبر يحمل اسمين مشوهين يبدو أن أحدهما يدعى كوروس أو كوتوس بن ارسطو كليد. . كتبت تحتهما عبارة «محل دفن جاسون Jason».

رقم - 2 -

هذا النقش عبارة عن مجموعة من اوسماء كتبت أو نحتت من قبل زوار المقابر وهي أسماء بدون ألقاب. «ربما تكون كتبت للذكرى. . المترجم».

نقرأ في نقش آخر عبارة «قرّب كلود تيبير إلى الربة المعبودة في هذا المعبد. . يوجد نقص في اسم آخر يأتي بعد اسم تيبير كلود، ولا أظن أن السيد باشو قد اغفل هذه الحروف. . .».

اللوحة رقم LXV

نقش لا أهمية تذكر له نظراً لأنه يتضمن قائمة من الأسماء المعزولة.

رقم - 3 -

عبارة عن جزء من نقش روماني لتكريس شيء ما يمكن أن نميز فيه هذه الحروف Pont. Max. TRIB «Potest».

رقم 9

إن هذا هو النقش الوحيد في هذه اللوحة الذي يستحق الاهتمام فعلاً «بفضل القدر. . سنة LV. . . لأجل بيراميه بن بيراميه Pyramée. . . الوداع أيها الفاضل. . . ألينوس سكوندوس». ورد نفس الشيء أيضاً «أرسطو بن زوسيس، قسيس معبد أبولو. . . لا يجب دفن أحد في هذه القبر» ينبغي علينا أن نتذكر حالات حظر دفن الغير في قبور حفرها أصحابها مثل حالة أرسطو بن زوسيس هذا. تتخلل هذه النقوش العديد من الكلمات الدورية.

اللوحة LXVI

قائمة من أسماء الإعلام.

بطليموسة (طلمثية)

اللوحة LXXIII

إن هذا النص الذي يبدأ بعبارات يونانية قديمة «انظر متن النص ص 397» وهي ألفاظ تدل على أنها مرسوم امبراطوري صادر من قبل الأمبراطور أنسطاس ويتعلق بالخدمة العسكرية. يستحق هذا النص أن يقوم أحد العلماء المتبحرين في علم الاشتقاق بقضاء وقت فراغه في دراسته. إن عملية إعادة صياغته عسيرة جداً، انظر متن الكتاب ص 178.

اللوحة LXXIV

تحمل هذه اللوحة العديد من النقوش من بينها ثلاثة فقط تكتسي أهمية وتستحق الذكر. إن النقشين الأولين مهمان خاصة من ناحية مكانهما. إن الأحجار التي نقش عليها هذان النصان كانت، في الواقع، جزءًا من أساس لمعبد. يوجد أحد هذين النصين مقلوباً رأساً على عقب بل ومبتسراً وذلك من أجل تمكين الحجر من الحصول على المساحة والأبعاد التي كان يحتاجها، من البديهي أن تلك الأحجار قد استخدمت في بناء المعبد. لقد قلت للسيد باشو، قبل أن أعرف هذا الأمر، ومنذ النظرة الأولى التي ألقيتها على رسمه الذي يجسد أطلال هذا المعبد «اللوحة LXVIII» بأن البناية لم تكن سابقة لعهد السيطرة الرومانية على برقة. إن وجود هذه النقوش يدل على ذلك تماماً كما سوف نرى لاحقاً.

وجد الحجر المقلوب الذي يحمل هذا النص مقلوباً على هذا النحو:

ΒΑΣΙΛΙΣΣΑΝ ΑΡΣΙΝΟΙΙΝΘΕΑ
ΤΗΝ ΙΙΤΟΛΕΜΑΙΟΥΚΑΙΒΕΡΕΝΙΚΗΣ
ΗΙΙΟΛΙΣ

ΒΑΣΙΛΙΣΣΑΝ ΑΡΣΙΝΟΙΙΝΘΕΑ
ΤΗΝ ΙΙΤΟΛΕΜΑΙΟΥΚΑΙΒΕΡΕΝΙΚΗΣ
ΗΙΙΟΛΙΣ

من البديهي أن يلاحظ المرء أن السطرين الأولين قد ابتسرا للسبب الذي ذكرته انفا، ولذا فإنه من المستحيل إعادة صياغتهما إذا لم نعرف أطوال تلك الأسطر. لحسن الحظ، يمكننا أن نستنبط هذا الشرط الهام من وضع الكلمتين الإغريقيتين وموقعهما. ΗΠΟΛΙΣ اللتين تشكلان وحدهما السطر الثالث. لذا يمكننا أن نخلص إلى أن ما يعوز إلى هذا النص من حروف يتراوح بين ثمانية وعشرة أحرف في الأسطر المنقوصة. أما الآن، إذا بحثنا في سلسلة الأمراء اللاجيديـين عن الملكة «ارسينوى» Arsinoé. ابنة بطليموس وزوجته برنيقة Bérénice، لن نجد سوى زوجته الثانية فيلادلف Philadelphe وشقيقتها ابنة بطليموس سوتر وزوجته برنيقة ولذا كان هذا النقش كاملاً كما يلي:

Βασιλισσαν Αρσινόην , θsαν Ἀδελφην

την Πτολεμαιου χαι Βερενιχης θεων Σωτηοων

η πολις.

«تكرَّم مدينة بطليموسه (طلمثيه)، بموجب هذا النصب، الملكة ارسينوى الربة الشقيقة، ونجلة بطليموس وبرنيقه، الإلهين المنقذين».

يعني ذلك أن هذاا لنفش لم يكن سوى عبارات تكريس وإهداء ربما وضعت على قاعدة تمثال نصب بمناسبة زواج ارسينوى من شقيقها سنة 267ق. م.

أما النفش الثاني فقد كان كاملاً اللهم بعض الأخطاء التي وردت في عملية نسخ بعض الحروف التي يمكن تصويبها كما يلي:

ΒΑΣΙΛΕΑ ΠΤΟΛΕΜΑΙΟΝ ΤΟΝ ΒΑΣ...Ε. Σ

ΠΤΟΛΕΜΑΙΟΥ ΚΑΙ ΒΑΣΙΛΙΣΣΗΣΚ.. ΕΟ

ΠΑΤΡΑΣΑΔΕΛΦΟΝ . ΘΕΟΝ ΟΙΛΟΜΗΤΟΡΑ

ΗΠΟΛΙΣ

لقد تم تصويب النص على النحو التالي :

Βασιλεα Πτολεμαιον , τον βασιλεως

Πτολεμαιου χαι βασιλισσης Κλεο

πατρας αδελφον , θεον φιλομητορα

η πολις.

«تكرم مدينة بطليموسه، بفضل هذا المعلم، الملك بطليموس شقيق الملك بطليموس والملكة كيلوباترا، الربه فيلومتور» هذه هي المرأة الأولى، حسب علمي، التي يتم فيها وصف الملوك اللاجيديين بكونهم «شقيق فلان أو فلانة» بدلاً من «بن فلان وفلانة».

يمكن تفسير هذه التسمية بيسر، كما يبدو لي، بل ونحصل، جراء هذا التفسير، على تاريخ هذا النص بدقة متناهية.

إن الملك الذي وصف شقيقه فيلومتور، هو الملك ايفرجيت الثاني Évergéte II بن البطليموس إيبيفان Epiphane والملكة كيلوباترا، التي هي شقيقه للإثنين وزوجة فيلومتور والتي تزوجت من شقيقها الثاني ايفرجيت الثاني سنة 146 ق.م. أي بعد وفاة زوجها الأول سنة 147 ق.م. ثم طلقها بعد ذلك الملك ايفرجيت الثاني لكي يتزوج ابنتها التي هي ابنة شقيقة[1]. من هنا يمكننا أن نحصل بكل دقة على السنة التي تم خلالها تكريس هذا المعلم وهي سنة 145 ق.م. ومن ثم، تكون تلك العبارات عبارة عن إشادة من سكان طلمثية بالملك فيلومتور بعد فترة قليلة على وفاته. ومما لا شك فيه بأن المدينة كانت قد قررت نصب تمثال له خلال حياته غير أن وفاته المباغتة قبل الانتهاء من إنجاز هذا النصب قد أدت إلى تسميته «بالملك الإله» فيلومتور مع إضافة نعت «الشقيق» أي للأخوين اللذين كانا متربعين آنذاك على العرش. من الواضح أن التماثيل التي نصبت على شرف أرسينوى

(1) انظر، بحوث من أجل خدمة التاريخ المصري ص 153.

وفيلادلف والبطليموس فيلومتور لم تتعرض للتدمير طيلة فترة حكم الأسر اللاجيدية وأن ذلك لم يحدث إلا بعد سقوطها، نظراً لوجود هذه التماثيل والنقوش مقلوبة ونظراً لاستخدام كتل وشظايا منها في عملية بناء معلم آخر. إن هذه الملاحظة، بصرف النظر عن الطابع المعماري، تؤكد أن تاريخ بناء معبد طلمثية الذي رسم باشو اطلالة يعود إلى عهد الاحتلال الروماني.

أما النقش الثالث فهو عبارة عن حجر عثر عليه في جدار قلعة[1] عسكرية في بطليموسه وهو كما يلي:

ΕΒΑΣΤΟΣ ΑΝΤΟΝΙΑΚΑΛΥ

ΚΑΙΣΑΡΟΣΘΜ

تشكل هذه الشظية منتصف النقش الذي يتكون من سطرين وتتعلق المسألة ببداية ونهاية نص ما. ومهما تكن صعوبة إعادة الصياغة التي سوف أجازف باقتراحها، فإنني أظن مع ذلك، ونظراً لمقابلتها لشروط وحالة المعلم الأثري المعنى، بأنها تنطوي على قدر كبير من اليقين.

يبدأ السطر القصير، وفقاً لما تقدم بعالية، بكلمة ΚΑΙ. ΣΑΡΟΣΘΜ التي لا بدّ وأنها كانت في وسط السطر الطويل إن هذا هو الشرط الأساسي الذي لا بدّ من قبوله لإعادة صياغة النص.

تأتي الكلمة المذكورة أعلاه في النقوش الإمبراطورية متبوعة دائماً بكلمة ΣΕΒΣΡΟΥ إلا إذا تعلق الأمر بالإمبراطور أغسطس لأنه الامبراطور الوحيد الذي يسمى بلفظ ΚΑCΣΑΡ لكن حرفي ΘΜ اللذين يعقبان هذه الكلمة يدلا على أنه كلمة ΣΕΒΑΣΤΟΣ لا يمكن أن تأتي بعدها، وعليه فإن ذلك التكريس يعود إلى عصر الامبراطور اغسطس.

يصبح إذاً من المرجح أن اسم «انطونيا» الذي يمكن قراءته في السطر الأول هو اسم

---

(1) قصر عربي قديم يبدو أنه قد شيد بفضل مواد وأحجار كانت موجودة قبله أو تم اقتلاعها من أبنية قائمة قبل بنائه. . . المترجم.

«انطونيا» بنت أخت أو أخ الامبراطور اغسطس ووالدة جيرمانيكوس وكلود زوجة دورسوس القديم.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا بدّ وأن يرد اسمه متبوعاً باسم كلود دورسوس لأن الأحرف الزائدة تدل، في الواقع، على ذلك.

لقد ورد اسم هذا الأمير، بشكل طبيعي، وبطريقة أخرى، تحت اسم «نيرون كلود دورسوس» بيد أن هذا الفارق في التسمية لا يمكنه أن يوقفنا لأن الكثير من مثل هذه الحالات قد وردت ويمكن تقديمها إن اقتضت الضرورة ذلك.

لا يمكن، في المقام الثالث، أن تكون الحروف ΕΒΑΣΤΟΣ السابقة للكلمة والناتجة، دون شك وبالطبع، عن كلمة ΣΕΒΑΣΤΟΣ قد أطلقت على الإمبراطور اغسطس لأن الاسم، وفي هذا الموقع بالذات من الجملة، سيكون غير صحيح ولا يمكن تفسيره.

يجوز لنا بالتالي أن نعتبره من بقية اللقب وذلك شيء أكيد وكما يحدث غالباً بالنسبة للأعيان في المدن، وكما سبق وأن أطلقه كارهي Carrhes على نفسه، وكما يوجد الآن على الميداليات[1] علاوة على ألقاب المديح والاطراء التي وجدت مكتوبة على قطع أثرية مختلفة الطراز[2] تدل العبارة هنا على وفاء شعب أو سكان بطليموسه للامبراطور أغسطس.

إن كلمة ΚΑΙΣΑΡΟΣ الواردة في السطر الثالث تتبع التاريخ المذكور بحرف T حسب العرف السائد، وفي هذه الحالة فإن حرفي ΘΜ لا يعبران عن شيء اللهم بداية شهر مصري.

إنها الحروف الوحيدة التي تم العثور عليها ضمن النقوش الإغريقية في برقة. لا تلائم تلك الحروف أي شيء أكثر من كلمة ΑΜΕΝΟΘ وهكذا فإن النقش قد كشف عن تاريخ تكريس هذا المعلم بالطريقة المألوفة في النقوش المصرية والنوبية[3].

وعليه يمكن أن نقرأ هذا النقش على النحو التالي:

Πτολεμαιεων ὁ δῆμος ὁ φιλοσ ε αςος Αντωνια , Κλαυ διου Νερωνος Δρουσου Γερμανιχου Υονχιχι. L..

Καισαρος φα μενωθ...

(1) نقش ورد لدى كوهلر. Philo ad Caïum, P.778 D. Nom de la Reine Comosarye P.68,69.

(2) Spanh, Praest - Num P.52,477, 520, 524.

(3) Recherches pour Servir l'histoir de l'Egypte etc. p.162.

أي «يهدي الشعب الودود Philosébaste والمخلص في طلمثيه، إلى انطونيا زوجة كلود نيرون دورسوس جيرمانيكوس . . . سنة (كذا) . . لقيصر . . . في شهر فامينوت» .

اللوحة LXXV

نقش جنائزي لا أهمية له .

اللوحة LXXVI

نفس الملاحظة الواردة أعلاه مع أخذ العلم بأن يوليوس ستيفانوس هو الذي عمل على تشييد أساسات الهيكل Sécos وقاعة الحديث Exédre والباحة على نفقته لصالحه ولصالح أبنائه . . وردت هنا عبارة غريبة وغير مألوفة في اللغة وتنذر ببداية تلوث اللغة الإغريقية بمفردات غريبة .

اللوحة LXXVII

نفس الملاحظة السابقة .

اللوحة LXXVIII

ضريح يمكن أن نشاهد عليه كلمة Tib وبعض الكلمات الإغريقية الأخرى التي تعنى «العام الثاني عشر، يوم 4 فارموتي . . ضريح براغز غوراس بن تيانو» . ضريح آخر يوجد على قاعدته نقش باللغة الإغريقية ويعود إلى عهد قديم جداً ترجمته هي : «إلى كلود غانيوس وإلى زوجتي . . . هذا الضريح . . امنع أي شخص من فتحه أو دفن أي شخص فيه عدا ابني، وإلا عرض نفسه لغرامة قدرها 1500 فلس Deniers تدفع للخزانة» .

يتخلل هذا النص الإغريقي العديد من الأخطاء اللغوية .

رقم 1 ـ ضريح آخر يحمل عبارة اغريقية معناها «إن السيد سيتيوس كاربوس وزوجته سيستيا جوناس قد شيدا هذا الضريح لهما ولأبنائهما» .

رقم 2 ـ ضريح لطفلة تبلغ من العمر عامين نقش عليه نص اغريقي مفاده . . « . . . تبلغ من العمر عامين، مسجاة هنا ويحظر والدها فتح هذا القبر الصغير أو دفن أي شخص فيه، وإلا تعرض المخالف لغرامة تبلغ خمسمائة فلس تدفع للخزانة المقدسة» . لقد وردت كلمة قبر هنا في صيغة التصغير «كأن نقول قبير بالعربية . . المترجم» وهو تصغير تفتقر إليه

العديد من اللغات وقد يكون كناية عن فعل «يفتح» بالإغريقية لأن هذه الصيغة مألوفة. لقد كتب على هذا القبر «لا تحزني أيتها البطلة فلا أحد خالد».

رقم 3 ـ ضريح آخر عليه عبارة اغريقية مفادها: «. . . صنعة اوليبوس ابينيكوس له ولذويه وآليبا إتينايبس لها ولذويها».

رقم 4 ـ نقش آخر مفاده: «. . . توفي سنة 2 يوم 22 من شهر بايني Payni كلود دراكون البالغ من العمر 24 عاماً و 3 أشهر و 15 يوماً». توفي سنة 5 يوم 25 آثير Athyr كلود استيلاس البالغ من العمر 24 و 10 أشهر و5 أيام.

رقم 5 ـ نقش مفاده: «شيده ل بترونيوس آبيا فروديت له ولذويه».

رقم 6 ـ نقش وجد على الضريح الكبير مفاده: «ضريح تيليز يدوت سيلا بن فلافيوس انطونيوس تيليزيدوت».

رقم 7 ـ نقش آخر مفاده: «ضريح أولوس كاتيلوس كابيتون».

توخيره أو أرسينوى

اللوحة LXXXإلى LXXXVI

هذه النقوش التي نسخها المؤلف في توكره ليست سوى قائمة من أسماء الأعلام غير أن اللوحة الوحيدة التي تستحق الاهتمام هي اللوحة رقم LXXXVI وهي عبارة عن شطية عن قول جنائزي مأثور قد تعرض للتشويه وهو مكتوب بلغة دورية ويمكن الرجوع إليه باللغة الإغريقية الدورية «في متن الكتاب ص 404».

انتهى

هامش

سيرة وأعمال باشو

بقلم دولار رونوديير ـ الأمين العام للجنة المركزية للجمعية الجغرافية

لقد تم طبع آخر سطر من رحلة باشو إلى برقة، ولم يعد يفصل بينه وبين المجد سوى بضع أيام، غير أن القدر المتشدد قد قرر خلاف ذلك. لقد مات ميتة يرثى لها وهو في عمر لا يزال المرء لا يتوقع فيه الموت، غير أنها قد أنشبت أظفارها فجأة لكي توقف مسيرة هذا الرحالة المعتاد، منذ زمن طويل، على مقارعة الصعاب والتجلد أمام نوائب الدهر.

لقد فعل الكثير لكي يحظى بأصوات أوروبا المستنيرة «يقصد علماء أوروبا»، وكان حماسه يَعِدُ باكتشافات جديدة، ولم أتوقع أبداً أن أعقب على أول أعماله بهذه المساهمة التي تشيد بذكراه.

لقد ولد جان ريمون باشو بمدينة نيس يوم 1794/01/23 لوالده يوسف باشو أحد أثرياء التجار المحترمين، وكان أصل أسلافه من الاتحاد السويسري. لقد تيتم الطفل عندما ناهز عمره سن ثماني سنوات وذلك في وقت لا يزال يحتاج فيه إلى حنان الأم وعطف الأب، فأدخل إلى معهد تورنون بمقاطعة أرديش الفرنسية. وهنا تنامى ذوقه وحسه الرهيف في الرسم وعلم النبات فجأة لدرجة أنه لا شيء آخر ينافس هذا الحس عنده سوى ميله إلى الشعر. إن مثل تلك الملكات لا تلائم الدراسة التي وجه إليها وهي دراسة القانون في مدينة آيكس حيث بدأها سنة 1812 وتركها، دون أن يكملها، سنة 1814 لكي يعود إلى بلاده لاستلام نصيبه من التركة التي تمثلت آنذاك في كثير من المنقولات خاصة وأن المرء لم يكن أبداً، في ذلك الوقت، يشعر بأي قلق إزاء المستقبل وحيث يعتبر الحرص على البقاء من آخر الأمور التي يفكر فيها المرء.

قرر باشو أن يسافر إلى إيطاليا حيث أقام فعلاً بمدينة تورينو. لم تحرك هذه الرحلة فيه سوى عقله، ولم تغنيه بأي شيء سوى كثرة معارفه وحماسه تجاه الفنون الجميلة

والمعالم الأثرية في الماضي الغابر. لقد تأثرت موارده المالية بشدة جراء رغبته هذه فقفل راجعاً إلى باريس في شهر يوليه 1817 بغية تحسين ظروفه المعيشية. لقد كان يظن بأن الرسم سوف يقوده إلى الميسرة.

لقد اعتمد أسلوب «عيسى بي» Isabey وحاول أن يقلد نماذج سابقة لبعض الفنانين وذلك قبل أن يدعوه شقيقه، التاجر المقيم بالاسكندرية، إلى زيارته. ذهب باشو إلى الاسكندرية تحدوه كل أوهام الأمل الذي سرعان ما تبدد بعد إقامة سنة كاملة دون جدوى مع شقيقه هناك، فعاد إلى باريس، واستأنف هواية الرسم. لكن بضع رسومات لشخصيات معينة مقابل ثمن بخس، وكذلك بضع مقالات أقل منها ثمناً، لم تكن أبداً كافية لسد رمقه ولذا بدى القلق يساوره بشأن مستقبله، غير أنه قد تلقى دعوة أخرى من أخيه لزيارة مصر.

وصل باشو إلى القاهرة يوم 1822/02/12 وشغل نفسه أبان أشهر السنة الأولى، برسم بعض المعالم الأثرية المصرية في هذه المدينة العظيمة وضواحيها. قدم، بعد ذلك، كافة محاولاته إلى السيد جوميل Jumel الذي كان يشغل منصب مدير مصنع غزل القطن التابع للباشا في مصر، والذي تعهد بتقديم المال اللازم لباشو من أجل تمكينه من استكشاف جنوب مصر.

قام باشو بذرع الجنوب المصري منذ شهر ديمسبر 1822 حتى شهر فبراير 1823 حيث قلت حظوته آنذاك لدى السيد جوميل الذي قطع مده بالمال المتعلق بدعم هذا العمل العلمي ثم انهارت آمال باشو بالكامل عند وفاة السيد جوميل المفاجئة بعد بضعة أشهر من توقفه من مد يد العون إليه، الأمر الذي أجبر باشو على الاحتفاظ بعدد هائل من رسوماته العجيبة بقدر يزيد أو ينقص. كانت تلك الرسومات تتعلق بمواقع ومعالم أثرية وأشياء أخرى من التأريخ الطبيعي. كان باشو، إلى جانب هذه الكنوز غير المجدية، قابعاً بمدينة القاهرة دون أي معين. لقد أثر القلق الذي ينجم عن الخمول وقلة العمل، وهو تأثير كبير على العقول النيرة، على صحته، وأنهك قواه، وأصابه بالإحباط الشديد حيث أشرف على الهلاك. بيد أن حسن حظه جعله يقابل السيد سيليستان غينيه Célestain Guyenet مواطن سويسري من مقاطعة نيوشاتل، وهو الذي كان قد أسس مصنع حلج وغزل القطن التابع لوالي مصر، حيث شعر أنه سيكون نعم الصديق والمعين. نجح باشو، وهو يعرض عليه وضعه الحساس، في استثارة حماسه با لنسبة لمشروعاته الاستكشافية، وتحصل من هذا التاجر، الصديق الوفي للعلم، على الأموال اللازمة لمواصلة أبحاثه والقيام برحلة إلى خمس

واحات مصرية. غادر باشو القاهرة يوم 17 نوفمبر 1823 وزار واحات الفيوم وسيوه والرخيه والفردغه على التوالي، ولكنه شعر بالأسف على عدم تمكنه من زيارة ثلاث واحات معزولة تبعد مسيرة أربعة أيام جنوب غرب الفردغة Faredghah خاصة وأنها تحوي، كما قيل له، أطلالاً لبنايات قديمة جداً.

عاد من الفردغة إلى سيوه ومنها إلى الفيوم حيث يوجد معبد كيروم Keroum ثم توجه إلى واحات بني حسان وأسيوط وبني علي حيث مكث بهذه الأخيرة، ثلاثة عشر يوماً انتظار لرد حامد باي، كيخيا القاهرة الأسبق، على طلبه بشأن الاستعانة بمزيد من البدو لاستخدامهم كأدلة في رحلته. قام بعد ذلك وبصحبة الأدلة بزيارة وادي روينه Ruinèe حيث توجد أطلال واحات الخارجة وجنيه وبولاق ودكاكين وبيرس وضواحيها. قفل بعد ذلك عائداً في اتجاه الغرب وعرج على واحة الداخلة عن طريق عين عمر وبلات وتميده، ثم استكشف وادي الغرب الذي كان يحوي تسع قرى، ثم منطقة بحر بن لاما التي تقطع هذه الواحة. سلك بعد ذلك طريق الشمال حتى وصل إلى واحة الفرافره ثم أسيوط ثم القاهرة وذلك في غضون شهر أغسطس 1824. إن استكشاف واحات جنوب مصر كنتاج لرحلة استمرت تسعة أشهر من التعب والمعاناة لم يشف غليله ولم يكف فضوله المتقد. لقد أخبره بعض البدو من أولاد علي خلال رحلته الأولى عن الجبل الأخضر، الاسم الحديث لإقليم المدن الخمس الليبية. إن وصف هؤلاء البدو لموطنهم الأصلي قديماً بهضابه الخضراء وعذوبة مياه ينابيعه، وعجيب آثاره قد أسر لبه، وسلب مخيلته، وولد لديه رغبة شديدة في زيارة هذا الإقليم الذي يذخر بذكريات عتيقة وغير معروفة. لقد أخبر باشو السيد هنري سولت Henry Salt، قنصل بريطانيا العام لدى مصر عن رغبته، فقدم إليه هذا الأخير، بعد تأكيده على المخاطر التي تنتظر باشو في هذه الرحلة الشاقة والخطيرة، برنامج الجمعية الجغرافية الفرنسية الذي كان يتعلق بتنظيم رحلة إلى برقة. لقد أفاد هذا البرنامج الذي كان ثمرة لجهود السيد ألكس باربييه دو بوكاج، جزء من بحوث السيد باشو وذلك وفقاً لما اعترف به باشو نفسه، وكان لهذا البرنامج الأثر الحاسم على إصراره على القيام بتلك الرحلة. بدأ باشو في وضع الخطوط العريضة لخط سيره غير أنه سرعان ما اكتشف عقبات أدت إلى عرقلة الوثبات الأولى الناجمة عن حماسه.

لقد أدرك أن تكاليف الرحلة كثيرة وأنه كان مفلساً. كانت أول مساعيه للحصول على المال أو التمويل اللازم غير مثمرة. حيث كان يحصل دائماً على عبارات الثناء على عمله ولا شيء أكثر من ذلك فبدأ القلق الشديد يساوره من جديد. لكن هذا الشعور بالقلق كان

قصيراً لحسن الحظ وذلك بعد أن أسر للسيد غينييه برغبته حيث لم يقصر معه أبداً في تغطية نفقات رحلته التي وجدت الكثير من المؤيدين والقليل من المقلدين لها.

اهتم القناصل العامون لفرنسا وبريطانيا أو انجلترا بشده، بالإضافة إلى قنصل طرابلس الغرب، وهذا أمر يثير فعلاً الملاحظة، بمصير هذه الرحلة وأكدوا جميعاً على حماسهم للمستشرق الذي كانت معرفته باللغة العربية مفيدة جداً خلال رحلته الأولى لواحات الجنوب المصري وستكون مفيدة أكثر، وبصورة أفضل، خلال رحلته إلى برقة. لقد أكد القناصل على رغبتهم في مشاطرته مخاطر ومجد هذا الكشف الجديد. إن هذه الرحلة مشوقة جداً لأنها تشتمل، في جزء كبير منها، على الجديد، كان الفرنسي غرانجيه قد تمكن، تحت حراسة رئيس عصابة من اللصوص، من الوصول إلى قرنة، ونسخ الكثير من النقوش الغابرة غير أن نص رحلته قد ضاع منه. أما لوكاس وبروس فلم يقدما سوى معلومات سطحية عن برقة. إن المعلومات التي جمعها ونشرها الطبيب الإيطالي ديلاشيلا هي أول معلومات هامة عن الآثار القديمة لإقليم المدن الخمس الليبية، غير أن هذا العالم الإيطالي، لم يقم لسوء الحظ برسم هذه الأطلال، وعليه فإنه لم يزح سوى جزءاً من الستار وهذا ما أذكى الفضول دون إشباعه كاملاً. أضاف القس باسيفيك بعض الوقائع المعروفة. أما اللواء مينوتولي فلم يستطع حتى تجاوز عقبة السلوم، ولم تك أعمال النقيب بيتش، الذي قام برحلة من طرابلس حتى درنه، معروفة لدينا آنذاك. كان هدف باشو من هذه الرحلة يتمثل في استكشاف جزء كبير من الجانب الشمالي للساحل الواقع بين الاسكندرية وخليج سرت. سوف نقدم هنا الملامح الرئيسية لهذه الرحلة الطويلة.

لقد بدأت تلك الرحلة يوم 1824/11/03 عن طريق وادي مريوط الشهير بكرومه في التاريخ القديم. زار الرحالة، بعد ذلك، آثار أبو صير ثم مدينة تابوزيرس القديمة، ثم توقف عند قلعة اللمايد وهي عبارة عن بناية عربية قديمة يعود تاريخها إلى العصر الوسيط. لقد شيدها أولئك العرب الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنداد لفرسان الغرب ثم أقام في دريسه، وزار صهاريج الجمارنه، وأعرب عن دهشته من الوحدة والوحشة التي توجد فيها تلك البقاع التي كانت عامرة بالسكان. اجتاز باشو، بعد ذلك، العقبة الصغيرة وهي أول مدرجات في المرتفعات الممتدة تدريجياً حتى تكون هضاب إقليم المدن الخمس الليبية. هنا، شاهد الرحالة ولأول مرة خلال رحلته عدداً هائلاً من خيام البدو السوداء، فأمسك فرشاة ورسم أول لوحة لأعراف وتقاليد هؤلاء الرُحّل. توقف الرحالة بعد ذلك عند أطلال القصبة الزرقاء تم ميناء «بيرك» أي مرسى مطروح الشهير لدى الجغرافيين القدامى، وهو

المستودع الحالي لقبيلة أولاد علي قبل أن تتنازل عليه إلى ولي عهد مصر العبقري. اجتاز الرحالة بعد ذلك عقبة السلوم الرهيبة التي كانت تحت حراسة قبائل مستقلة كانت قد أجبرت اللواء مينوتولي من قبل على التوقف عند قدم المرتفعات، ثم جاب هضبة مرعة الكبير، ثم وادي دفنة الخصيب والشهير أيضاً حيث تتخلله آلاف القنوات وتقطنه قبيلة «الحرابي» التي تتكون من محاربين غلاظ شداد.

قاد المسير، بعد مغادرة وادي السد، إلى ساحل توجد قبالته جزيرة بومبا الصخرية وهي الجزيرة التي أطلق عليها سيلاكس اسم «آيدونيا» Aedonia، والتي أسماها هيرودوت بلاتيا Platea، ثم لاحظ أن شكل وادي التميمي يؤكد الأوصاف التي تركها الأقدمون عن مدينة إزيريس Iziris. بعد أن اجتاز الرحالة سبخة شكلها وادي خليج البومبا، وصل إلى أول المدرجات الغابيه لمرتفعات برقة حيث ذهل النوبيون والمصريون الذين كانوا برفقته، من هذه الخضرة الغناء التي لم يعتادوا عليها نظراً لتعود أبصارهم على رؤية الفيافي القاحلة ثم استقبلته درنة حيث كان الرحالة ورجاله يتوقون إلى رؤيتها حيث وجدوا فيها أولاً الراحة التي كانوا يحتاجون إليها، ثم المنغصات التي كادت تفقده الأمل ثانياً في مواصلة رحلته.

استطاع الرحالة أن يتغلب على تلك الصعاب، واستأنف رحلته عن طريق قصر الزيتون ثم وديان بالضحاك وطراخنت الجميلة والسحيقة، وزار مدينة الأصنام التي تسمى محلياً باسم «المساخيط» وهي مدينة قد ازدهرت بها النصرانية في القدم. زار الرحالة، بعد ذلك، أطلال بيت تامر الضخمة التي ظن الرحالة بأنها ليست سوى بقايا لمعبد فينوس «ربة الحب والجمال لدى الإغريق. . المترجم»، ولاحظ أن تلك الآثار تدل على وجوده في أحد أغنى مناطق إقليم المدن الخمس. دخل الرحالة بعد ذلك إلى جوف الكهوف الجنائزية وتوقف على جالات أحواض مياه لملودة التي قد تكون هي مدينة ليمنياد القديمة ثم قايض هاهنا بعيره بجواد برقاوي. بدأ الرحالة يتجول على هذه المطية الجديدة الحاذقة على شواطىء ومرتفعات هضبة برقة ودروبها ومنحدراتها الوعرة وبحث عن بقايا النطرون، مدينة بحر العرب، وأكد على أن مدينة رأس الهلال الحالية هي المدينة التي أسماها سترابو نوستاثموس دون أن يكترث بالحرب الدائرة بين قبائل تلك المنطقة. تابع الرحالة أبحاثه في وادي الكرموس وهو مكان آمن تملأ أرجائه السعادة حيث لقي أسخى وأجمل ترحيب واستقبال. زال الرحالة بعد ذلك «الجوش» وزاوية ترت وصفته وقرنّس واستكشف المعالم الزراعية وأطلال الحضارة القديمة. توقف الرحالة بعد ذلك في ميناء سوسة ثم آثار طلمثية وكوفها الجنائزية ثم عند مدينة توكره وادريانوبوليس «دريانه الحالية. . المترجم»، وحاول

تحديد موقع رياض الآلهة «بنغازي. . المترجم» ثم عاد مرة أخرى إلى سوسة بعد هذه الرحلة الشاقة حيث كان سترابو قد أطلق عليها اسم ابولونيا وكانت ميناء لمدينة قرنة. ذهب بعد ذلك إلى العمران الحديث في مدينة قرنة ثم وجد نفسه في قلب آثار هذه المدينة التليدة القديمة التي كانت عاصمة الإقليم المدن الخمس الليبية. قام الرحالة بعد ذلك بدراستها بالتفصيل ودخل إلى قبورها الخاوية، وكهوفها العميقة، ورسم الأضرحة والنقوش التالفة بالإضافة إلى التماثيل والأروقة والأعمدة.

لقد دفعته رغبته الملحة في معرفة كل شيء إلى ولوج قناة مائية كانت تغذي دائماً نبع أبولو بالمياه حيث كانت الضباع تحرس تلك القناة في أيامنا هذه. حاول أيضاً، نظراً لعدم وجود أسوار قائمة، أن يضع مخططاً لشكل وحجم مدينة قرنة وذلك استرشاداً باتجاه تلك الآثار نفسها. لقد أخرج تلك المدينة من بين الأنقاض لكي تبدو كما كانت عليه أيام عظمتها وزهوها. عاد بعد ذلك إلى بنغازي التي لم تعد تحتفظ بأي ذكرى من ذكريات برنيقة القديمة، ثم اتجه نحو الجنوب وحط رحاله في مدينة أجدابيا التي تعتبر الحد الفاصل بين الأراضي الخصبة والصحراء ثم توغل نحو سرت موطن قبيلة الناسامون الغابرة، ثم دخل واحة مراده المختبئة وسط متاهة من تلال من الرمال المتحركة حيث كانت مياهها الرقراقة، سواء أكانت عادية أو فوّارة، بالإضافة إلى غابات النخيل، قرة عين الرحالة.

زار بعد ذلك واحة أوجله القاحلة التي لم يتغير شكلها أو محصولها أو زراعتها منذ أيام هيرودوت حيث كانت الأقدار الغريبة قد وضعت مواطناً فرنسياً كان قد تبع وهو طفل الحملة الفرنسية على مصر، حاكماً لها. لم يغفل الرحالة عن زيارة أي قرية مأهولة أخرى تابعة لهذه المجموعة الواحية، ثم عاد بعد ذلك وللمرة الثالثة إلى واحة سيوه، ثم القاهرة عن طريق وادي النطرون حيث وصل إلى عاصمة مصر يوم 1825/07/17.

لا يمكن دعم مثل هذا العمل الخطير والعسير إلا بفضل الحب الشديد للعلم، وبفضل الطموح المشروع، دعنا نؤكد على ذلك، والحصول على الإطراء من قبل الغير وخاصة من العالم المستنير. إن هذا الشعور الطبيعي هو الذي يفسر لنا تلك العجلة التي أبداها باشو في تجميع مواده والعودة إلى فرنسا في نفس السنة التي شهدت رحلته إلى برقة، وذرعه لرمالها، ونومه تحت خيامها، والتي شهدت قدومه إلى عاصمة العالم المتمدن «يقصد باريس. . المترجم». لقد وصل باشو إلى باريس يوم 1825/11/12 وسارع بعرض مجمل ملخص لأعماله على الجمعية الجغرافية التي قامت بتكليف من يراجعه ومنحته

جائزتها بناء على تقرير من إعداد مالت بران. لقد سبق هذه الجائزة المشرفة حصوله على جائزة أكاديمية النقوش التي منحت له أيضاً مقابل الجانب الأثري لهذه الرحلة وكان لسان حال هذه الأكاديمية هو العالم لترون لقد أعرب المقرران «أي مالت بران وليترون.. المترجم» عن أملهما في نشر رحلة باشو بسرعة وطالب الإثنان الحكومة بدعم هذا العمل وتأييده حيث لقي صوتهما آذاناً صاغية لدى بعض أصدقاء العلم.

قام الكونت شابرول دو فولفيك، محافظ مقاطعة السين، الذي كان يرعى هذين العالمين، عرفانا منه بجميلهما لكونهما وراء جزء من شهرته، بالاستجابة إلى هذه الدعوة النبيلة، واضطلعت دار نشر فيرمان ديدو، وبحماس شديد، بنشر هذا العمل المكلف الذي صار تحت رعاية صاحب الجلالة الذي تفضل بقبول الإهداء إليه. لقد وضع هذا العمل أمام الجمهور وهو الحكم الأعلى في هذا الشأن وقد صادق الجمهور على قرارات الاكاديمتين «يقصد الجمعية الجغرافية وأكاديمية النقوش.. المترجم». لقد اعترف الجمهور بأن مواهب المراقب باشو كانت على مستوى المهمة المقررة وهي جديرة بشهرة الأماكن التي جابها. لقد ذهل الجميع من أهمية الوقائع المتعلقة بالجغرافية الطبيعية وتوزيع النباتات. إن هذه المعلومات، رغم قلتها، تسمح لنا بعقد مقارنات بين نباتات برقه ونباتات المناطق المجاورة لها أو المناطق التي تتفق معها في ظروفها المناخية. يمكن للمرء أن يتابع باهتمام كبير التفاصيل الطوبغرافية والأثرية العديدة والجديدة التي اتسمت بطابع الدقة. إن عملية رسم المعالم الأثرية، ونسخ النقوش الغابرة، تستحق هي الأخرى الثناء والإشادة. إن السيد باشو يدرك كنه فن نقل القارىء إلى المواقع ذاتها بفضل الوصف الحي، وبفضل تدريب القارىء على معرفة أعراف السكان بواسطة لوحاته المفعمة بالطراوة والحيوية والحقيقة. يشكف كل ما يتعلق بالجغرافية المقارنة عن نزاهة هذا العالم فهو، حتى عندما يرتكب خطأ ما، يضع مقابله، ويكشف أيضاً عن معاداته للنظام والأنظمة. إن السيد باشو يحب رسم الجماهير، وتجميع الأشياء المتشابهة والمختلفة معاً في لوحة واحدة، لأن ذلك يمثل الطريقة الوحيدة لإبرازها.

يتسم أسلوبه، بصورة عامة، بالانفعال والألمعية حيث إنه يخضع لتأثير الأماكن وما يكتنفها من ذكريات. إذا كان يفتقر أحياناً إلى بعض المرونة والعقلانية التقليدية أو إلى تلك الأناقة السلسلة أو المهارة السارة للطبيعة، أو ما يسمى بالسيطرة الأخيرة، التي تنجم عن الدراسة، فإن ذلك يعود إلى إخضاع باشو لمخيلته قسراً للشاعرية في موضوع علمي وفقهي كهذا لا يسمح له بتكريس ساعات طويلة من التأمل الأدبي.

لقد كان باشو يتناول موضوعاته، وهذا أمر عسير جداً، بمنطقية لا يعتبرها واجباً إلا كل من يتمتع بحس رهيف وذوق سامق. رغم أن باشو لا يزال في بداية عمله الأدبي إلا أننا نلمس مواهبه التي تتنامى بسرعة. لقد قام باشو منذ وصوله إلى باريس وحتى يوم وفاته وذلك بدون انقطاع، بإعادة صياغة نص رحلته حيث عاش في عزلة تامة وكرس ساعات النهار بأسرها وجل ساعات الليل غالباً، لإنجاز ما كان يعتبره أسمى حق له ألا وهو حق الحصول على تقدير العالم المستنير له.

إن هذا التوتر الذهني المستمر، وهذا الانقطاع الكامل عن الناس والمجتمع، وانعدام التسلية، قد ولد لديه كراهية مقيتة بدأت تزداد مع ازدياد المنغصات التي يواجهها أي فرد في حياته الأدبية وفي وضعه غير المضمون. لقد كان السيد غينييه الذي غطى تكاليف رحلته يمده بالمال لتغطية مصروفاته في باريس ونظراً لما يتمتع به هذا الشاب من عزة نفس شديدة، لم يطلب المساعدة من السلطات. لو أن هذا الشاب قد تحصل على مساعدة ما بدلاً من الخطوة التي كان ينتظرها، لربما كان لها أثرها السعيد على روحه المعنوية، ولربما قضت على تلك الكآبة السوداوية. لقد وصل به الأمر إلى تلك اللحظة المحزنة الأليمة التي بدأ يشك فيها في صدق ووفاء أصدقائه الذين بدأ عددهم يقل كل يوم ولم يطلب مساعدة السلطة لأنه كان يعتقد أنه من حقه الحصول على هذا العون دون طلب، وكان يشعر بالامتعاض الشديد لعدم تقديم السلطات في الدولة لأي مساعدة له. لقد بدأ يلف مستقبله بسحب ما كان لها أن تثير القلق لو أنها صادفت طبعاً غير طبع باشو.

عندما غاص باشو في نفسه، وجد أنه لا يحتاج إلى أحد لضمان مصيره، لقد حدث كل ذلك له وهو في قلب عمل شاق، فأدى إلى اعتلال صحته، كما أن النظام المثير الذي اتبعه بغية تنشيط قواه قد انحدر به إلى وهن أكبر حتى جاءته أخيراً أفكار الموت واستثارته.

إن من كتب هذه الأسطر الآن كان قد كرس أحياناً بعض لحظات الصمت لصاحب ذلك الذهن المنهك، غير أن ذكرى هذه التعزية تتلاشى بسرعة، وينقض اليأس، مرة أخرى، على ضحيته. لقد خر عقل باشو صريعا في نهاية هذا النزال المريع، ففارق الحياة أو بالأحرى المعاناة، يوم 1829/01/26 وهو يبلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة وثلاثة أيام. لقد كان هذا الرحالة العلامة تابعاً للجنة المركزية للجمعية الجغرافية ولذا كان لفقدانه وقع كبير جداً بين صفوفها، ولم تقصر في واجبها نحو ذكراه حيث جمعت التبرعات «عن طريق الاكتتاب» من أجل العمل على رفع نصب متواضع على قبره.

إن كل الذين لازموه عن كثب قد لاحظوا طيبة قلبه وكياسته. لقد قدم له سكان الصحارى المثل على الرجل المستقل، ولقد استفاد جداً من هذه المدرسة. لقد كان يعتبر كل تحوط بمثابة بداية للقهر، وكان يرفض الظلم، مثله في ذلك مثل ذلك الأعرابي الذي كان يحبذ فضائله خاصة وأن المعروف هو السلطان الوحيد الذي يضعف النزاهة.

إن هذا الشعور النبيل قد اتضح في كتاباته التي لم ير بعضها النور ومن بين أوراقه كانت توجد لوحة لقبائل بدوية حديثة وقديمة كان قد عرض عن بعضها شذرات في الجمعية الجغرافية. لقد كانت تلك اللوحة من أحب أعماله إليه. إن ما نعرفه عن باشو حتى الآن يستحق الثناء والإشادة ولقد تم منح هذا الثناء عن طريق توفير هذا الطابع الأصيل لكتابه وعن طريق جدية وجدة وجهات النظر فيه. إن هذا الكتاب متباين في تفاصيله ويجمع، بصورة خاصة، بين أناقة الأسلوب ودقة التبحر العلمي.

لقد ترك لنا باشو الذي لم ينشر يوميات رحلته إلى الواحات المصرية، باقة من اللوحات التي رسمها في الصحراء الليبية. يمكن أن يشكل عمله هذا مادة شيقة لمطبوعة أخرى لاستكمال مجمل الأعمال الكبرى التي عرفتنا بالمعالم الأثرية للعمارة المصرية والأراضي المتاخمة لمصر.

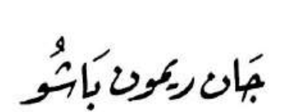
قائمة بأسماء النباتات[1]

لقد حاولت أن أعثر على أسماء معظم النباتات والأشجار التي وردت بين طيات هذا الكتاب غير أن العديد منها قد انقرض ومنها ما ليس له أي تسمية عربية أو ليبية . فيما يلي قائمة بأسماء النباتات والأشجار المذكورة :

بطوم	Lentisques
الشعره أو السعد	Cyprès
لبينه	Euphorbe
سويدا	Soudes
؟	Ephoda
بصيّله	Silla Maritima
بروق . بلوز . عنصيل	Asphodéle
بلوط	Genêts
زهيره	Sénéçon
اثل	Tamarix
العدم	Ephedra
غظّام	Salsola Vermiculata
روبيه	Rubia
بيضة الأرض	Pulmonaire de Terre
نبات شبيه بالنجيل يسمى مرجيه	Agrostis
القبأ أو عشبة الكلأ	Poa
علفيه أو الشويعره	bormus
؟	Sterilis
البابونج ـ القميله ـ الفليّه	Anthemis Maritima
الزملوك أو نبات المرّير المسّهل	Scencio Laxiflorus
حشيش الرمل . النجميه	Stellaria

(1) هذه القائمة من وضع المترجم ولم ترد في متن الكتاب الذي تم نقله إلى العربية .

Cuminum	الكمون
Anchusa	لسان الثور ـ
bracteolata	بوغلصن
Clypola	؟
Siléne pigmata	غسول ـ رغل أو حنى قطوس
Aster	جدري
Arum	؟
Crepis Liliformis	عضيضه
Festuca	فستوكه
Arundo	نبات الغاب أو القصبه
Avena	الشوفان
Osurisus	حمّاظ
Arabica	ربيان
Glaucus	؟
Buplevrum	؟
Lithospermum callosum	؟
Caryophileés	القرنفليات
Cleome	أم رميل
graphalium Straechas	؟
Eruca	جرجير
Aristoloche	؟
Boraginée	؟
Conglaebatu m	؟
Nopal	التين الشوكي (اسم الشجرة)
Lierres	نباتات ليفية
Opuntia	التين الشوكي (اسم الجنس)
Coromilles	؟
Soude	السويدا
Statice Tubifora	زليقة القبض
Cytises	؟
Corymbe	غدق
Stechas	؟



رِوَايةُ رِحْلةٍ إلى مَرمَرة وقُورينه وَوَاحَتَي أُوجله ومُراده

نصّ لوحات

تقديم

فرانسوا شامو

تَعريب

د. مفتاح عبد الله المسوري

IMPRIMERIE DE FIRMIN DIDOT, RUE JACOB, N° 24.

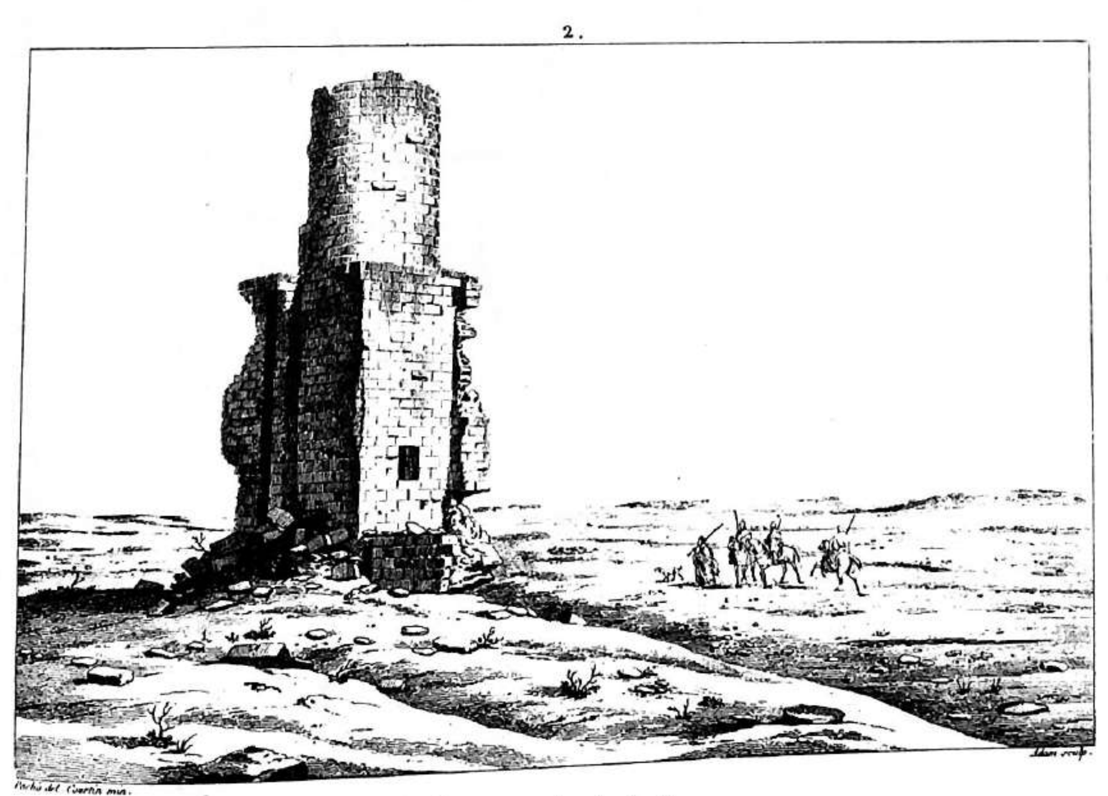
منظر لمعبد قديم يقع في أبو صير

1

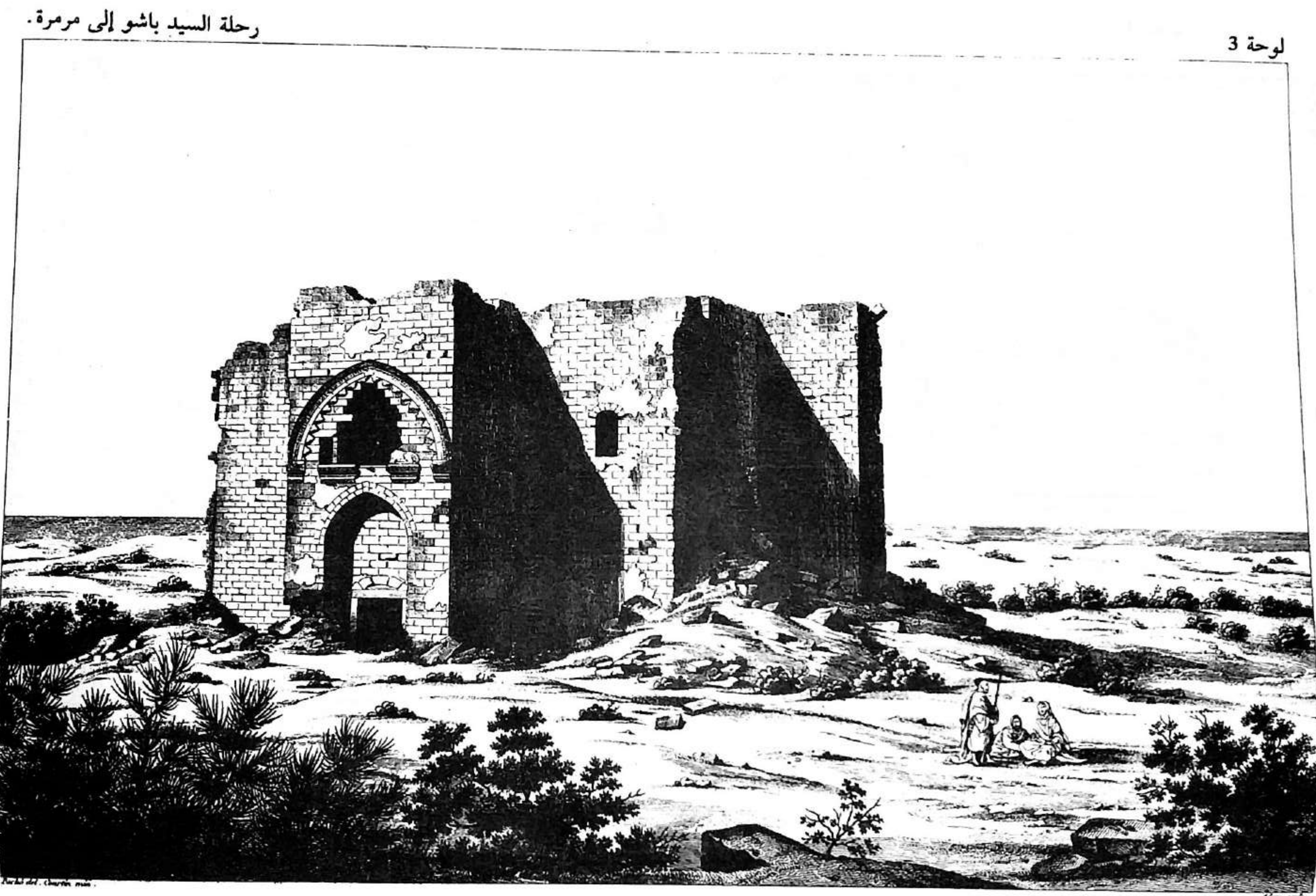


آثار لمسجد يقع في ضواحي بحيرة ماريوط

2.



منظر لمنارة قديمة في أبو صير



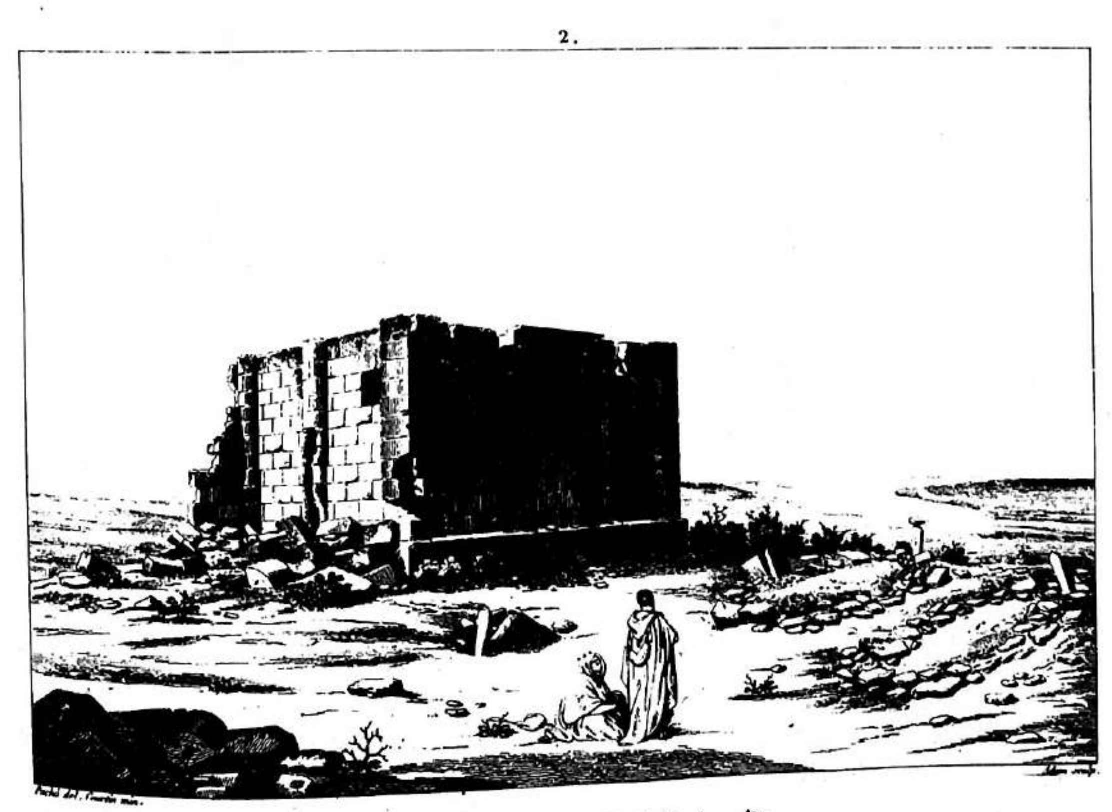
منظر عام لقصر اللمايد

لوحة 4

1.

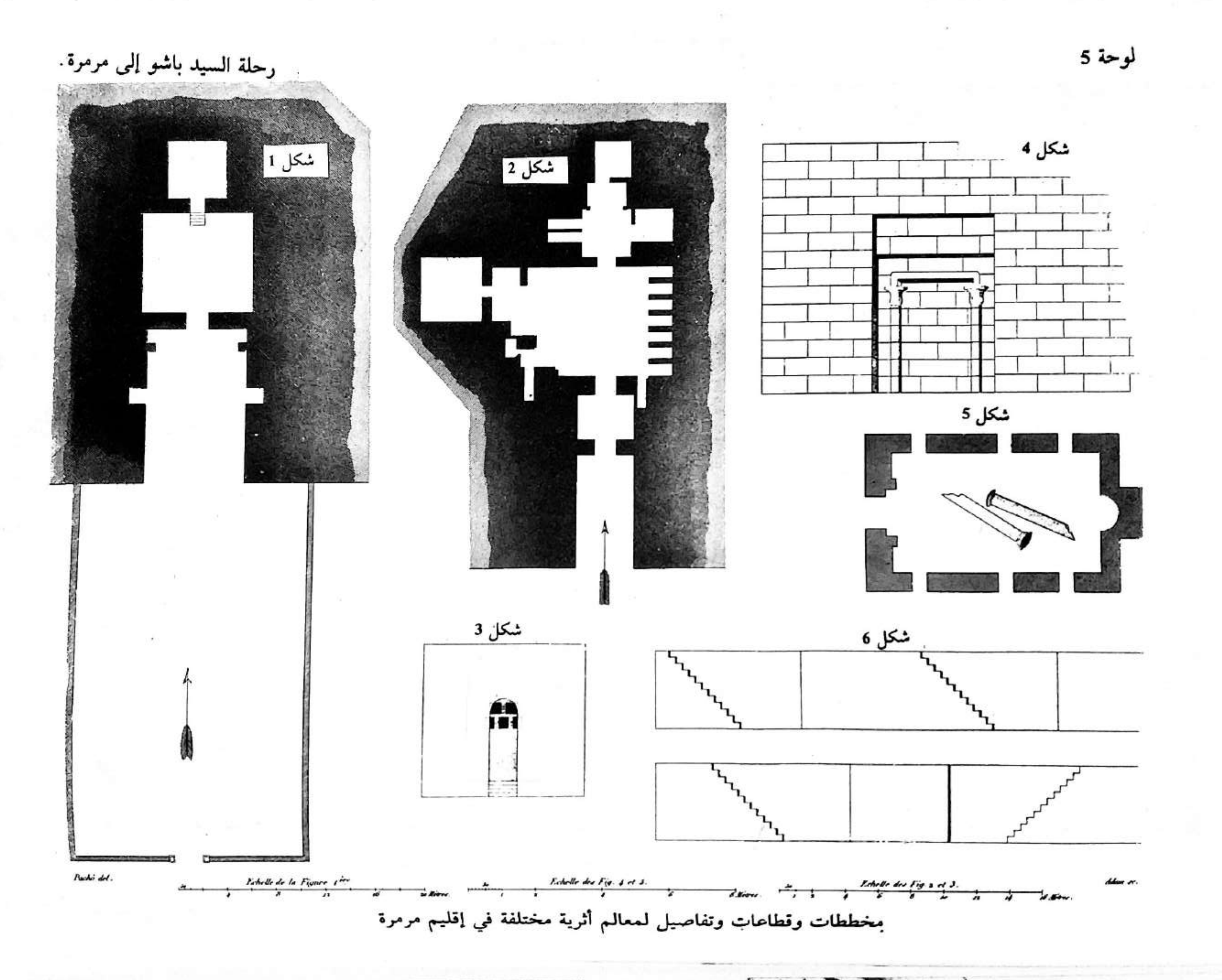
منظر عام لبناية القصبة الزرقاء البحرية القديمة

2.



منظر عام لبناية القصبة الزرقاء القبلية.القديمة

رحلة السيد باشو إلى مرمرة.



مخططات وقطاعات وتفاصيل لمعالم أثرية مختلفة في إقليم مرمرة

Courtin del. Adam sc.

منظر عام للشق الشرقي لمدينة درنة

Gurtin del. — Adam sc.

مغارات «الكنيسية» الجنائزية الواقعة قرب مدينة دارنيس القديمة

Courtin del. Adam sc.

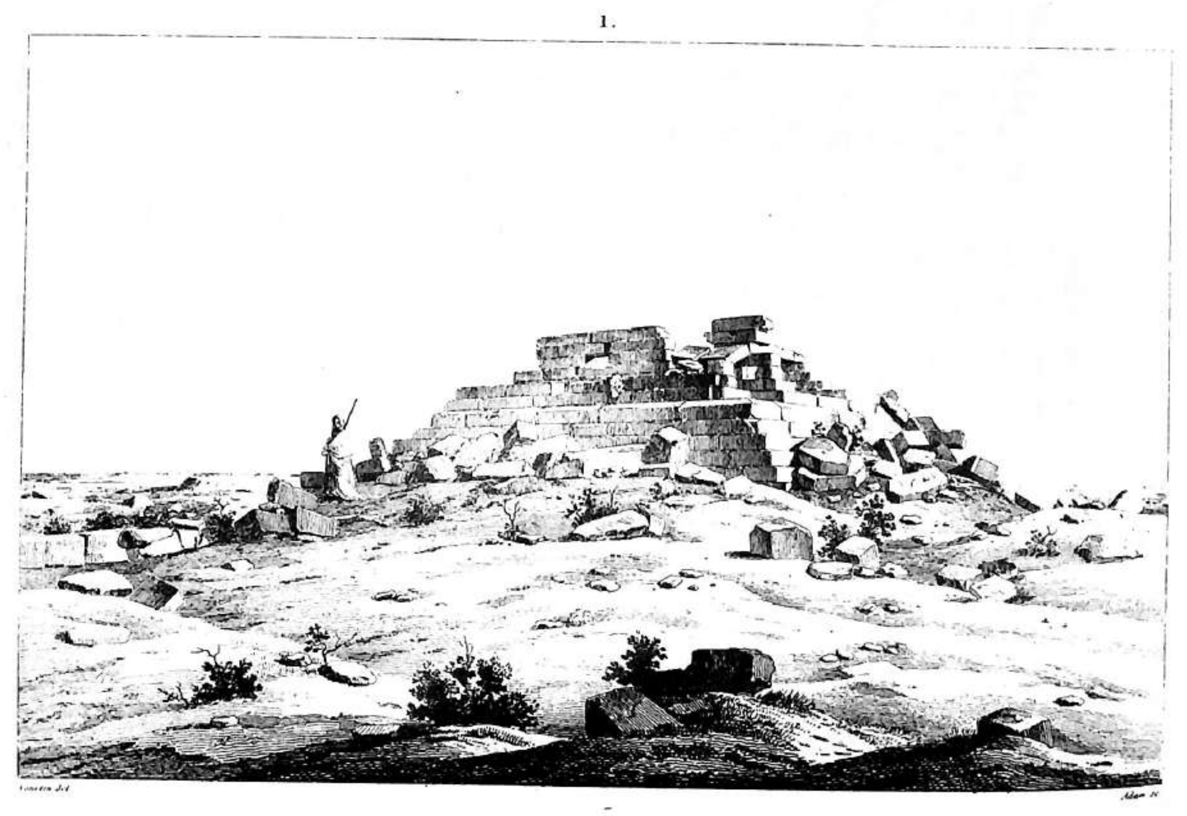
منظر عام لجسر وادي درنة

2.

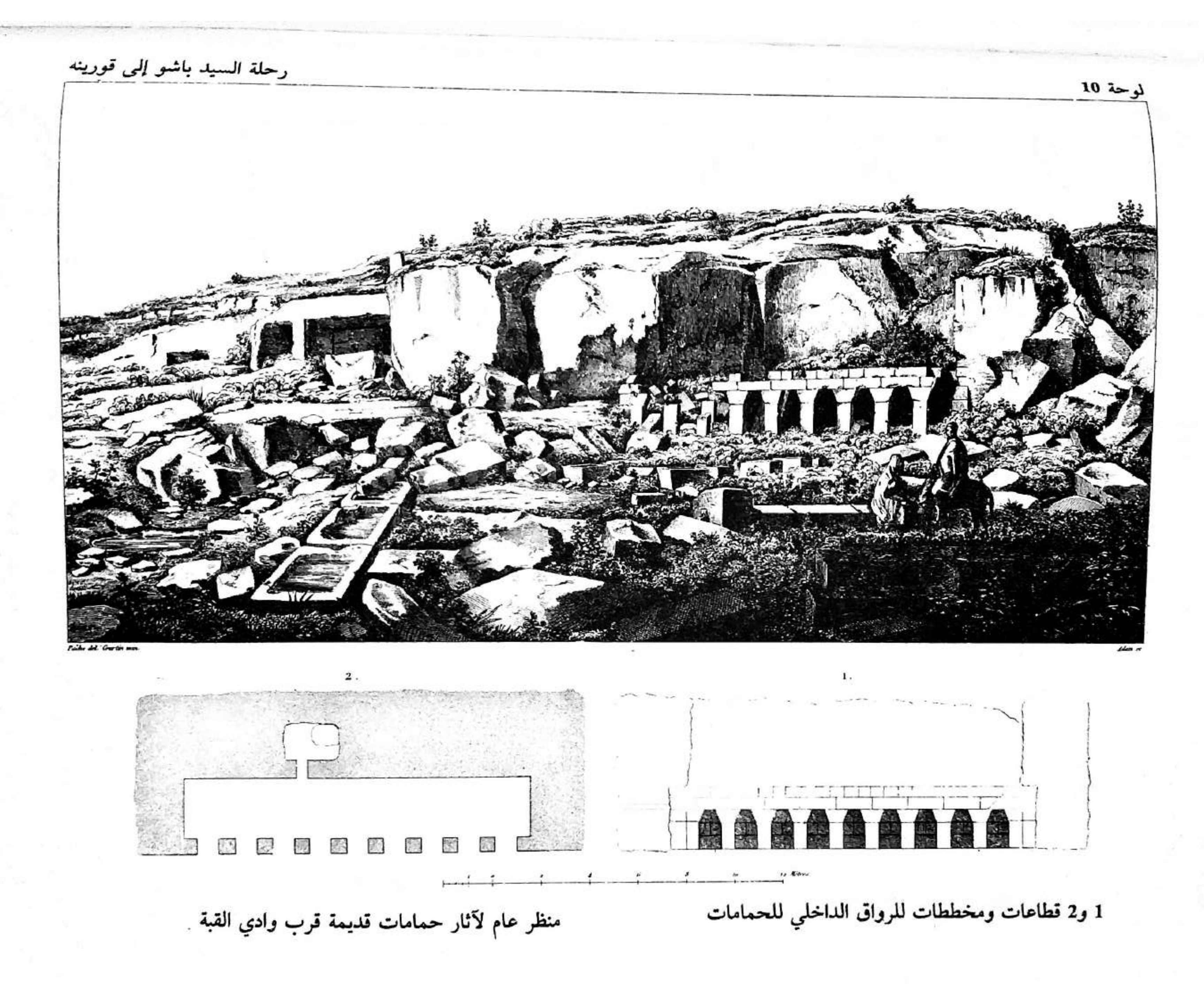


آثار وادي الكرموس وقصر الحرامي من الداخل

1.

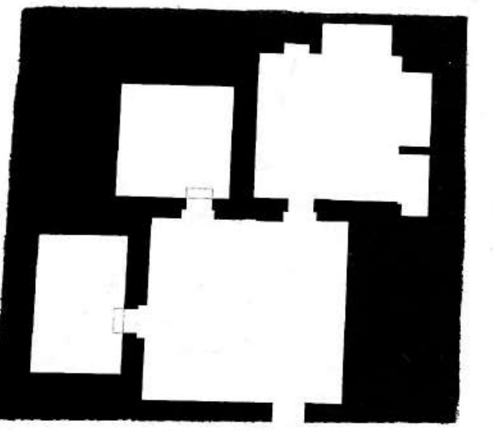
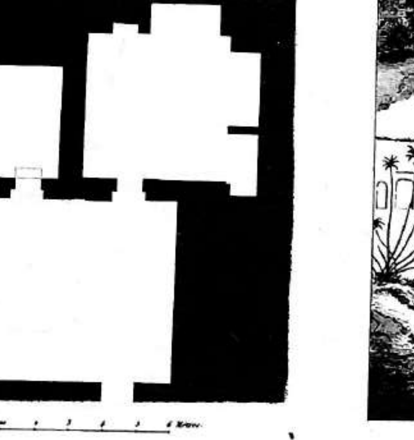


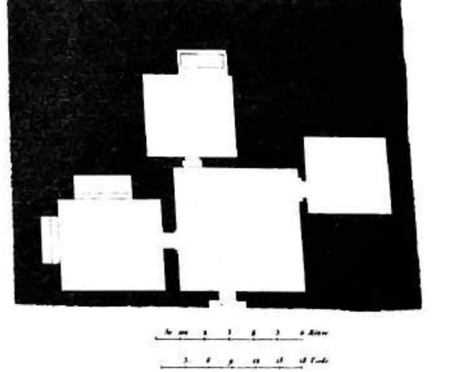
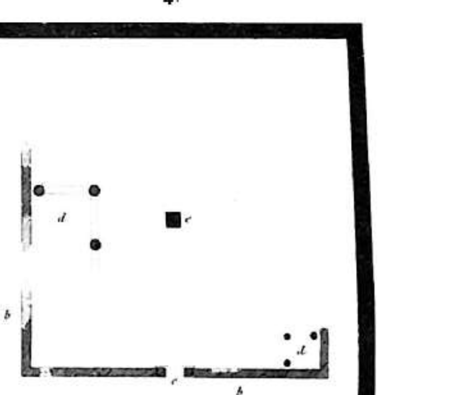
آثار من مدافن قرية هيدراكس الغابرة



منظر عام لآثار حمامات قديمة قرب وادي القبة.

1 و2 قطاعات ومخططات للرواق الداخلي للحمامات


1 و2 منظر ومخططات لكهفين جنائزيين في وادي القبة

3 مخطط لقصر شنديرة

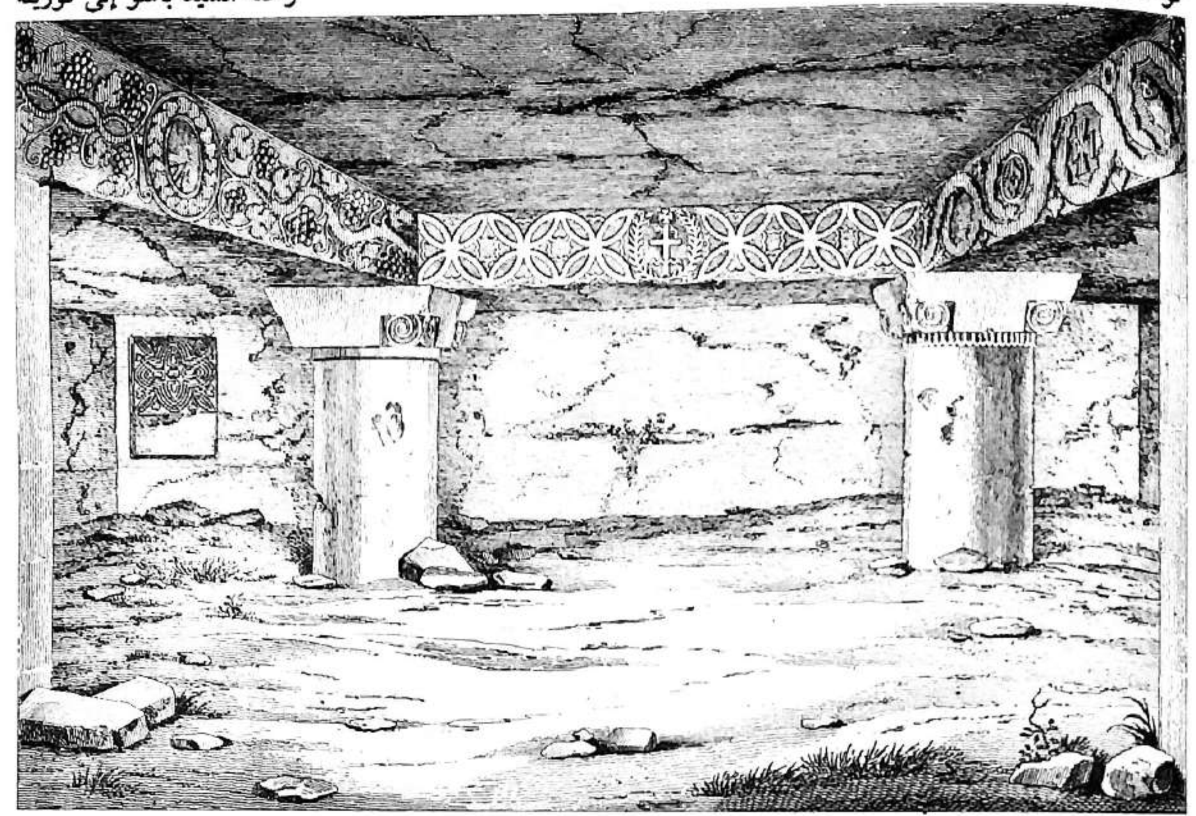
4 مخطط لآثار معبد فينوس قرب محطة أفروديس القديمة

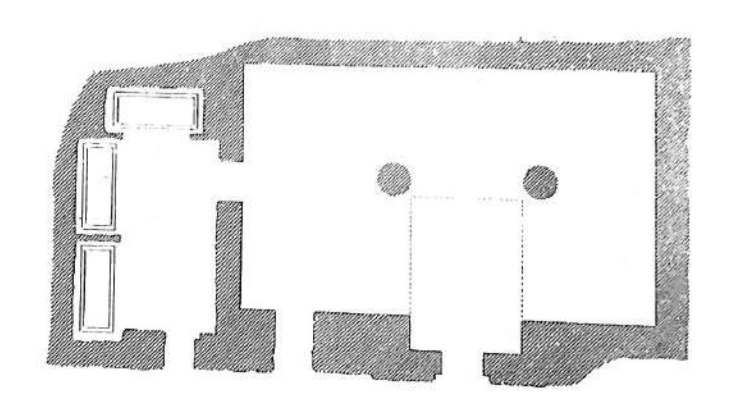
رحلة السيد باشو إلى قورينه

لوحة 10

Pacho del. Courtin min. Adam sculp.

منظر للمغارات الجنائزية بمدينة المساخيط







قطاع ومخطط لمدافن نصرانية في مدينة أفروديس.

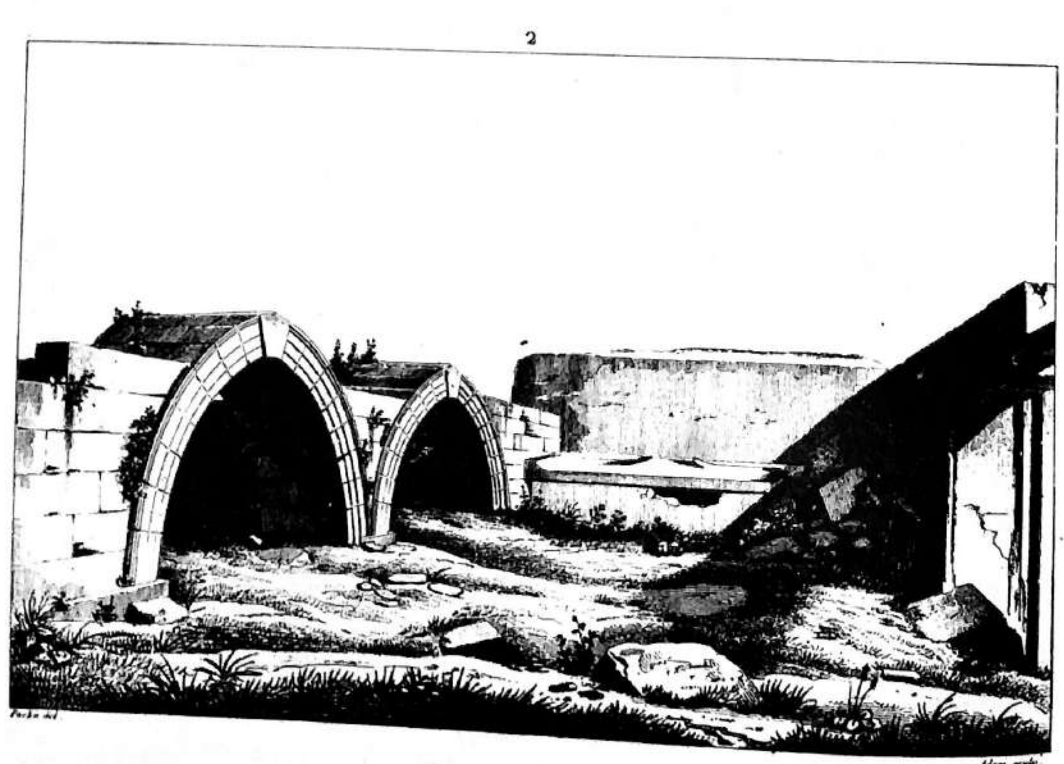
Pacho del. Gourtin aun. Adam sc.

منظر عام لحصن قديم في سهل شنديرة بين مدينتي إثيرون «الإثرون الحالية» وليمنياد «لملودة الحالية» القديمتين



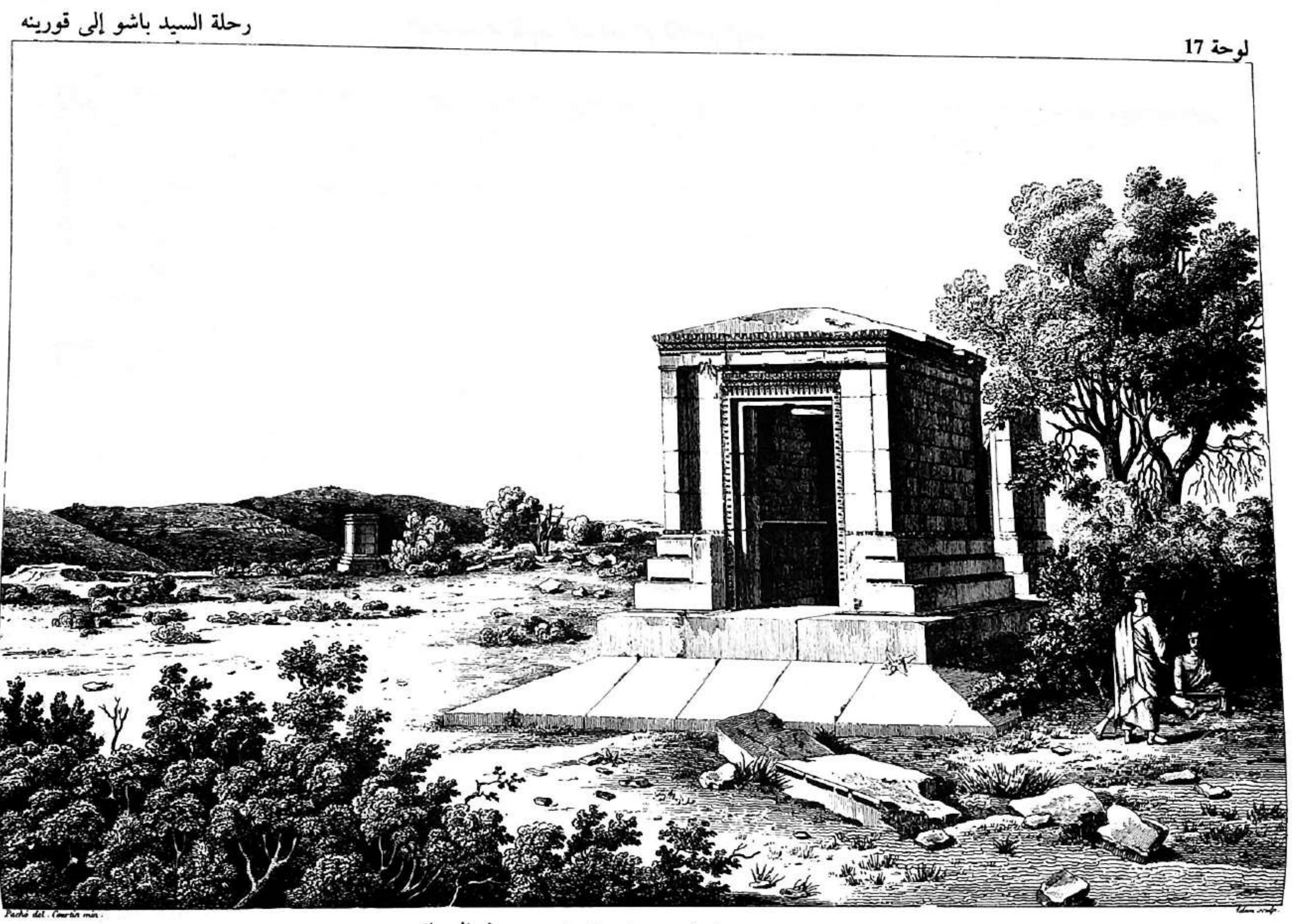
منظر لقصر سينيو

2



مقبرة عتيقة في صفنة

لوحة 17



منظر لضريح في ضواحي سهول السواني

لوحة ١6

لوحة 19

رحلة السيد باشو إلى قورينه

قطاعات ومخططات وتفاصيل هندسية لأضرحة منطقة السواني



منظر لبناية قديمة تسمى قبور الجوش

لوحة 21

Courtin del. — Adam sc.

آثار قصر ديونيس الواقعة في سهل ثنتيس القديمة

مشهد لآثار جويرة

لوحة 23

منظر عام للجانب الشمالي لآثار قرنة

رحلة السيد باشو إلى قورينه

Pacho del. Courtin min.

Adam sculp.

منظر لضريح دائري يقع على ربوة بالقرب من قرنس

لوحة 25

1.

2.

2, a.

3.

4.

5.

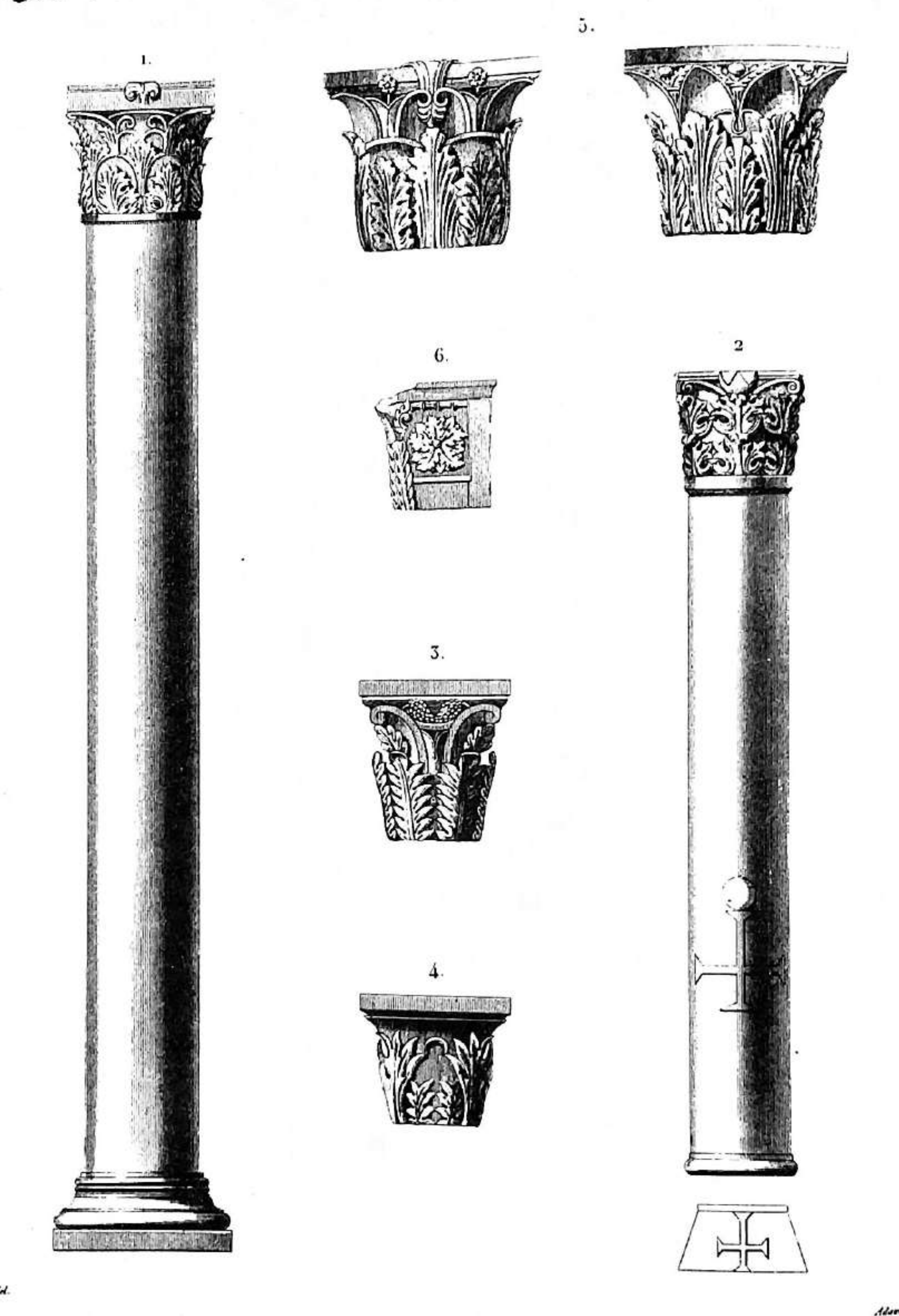
6.

7.

مخططات وقطاعات لمعالم أثرية شتى في برقة وواحة أوجلة

لوحة 26

منظر عام لمرسي سوسه ـ الميناء القديم لقرنّة



أعمدة وتيجان من معابد مختلفة في برقة

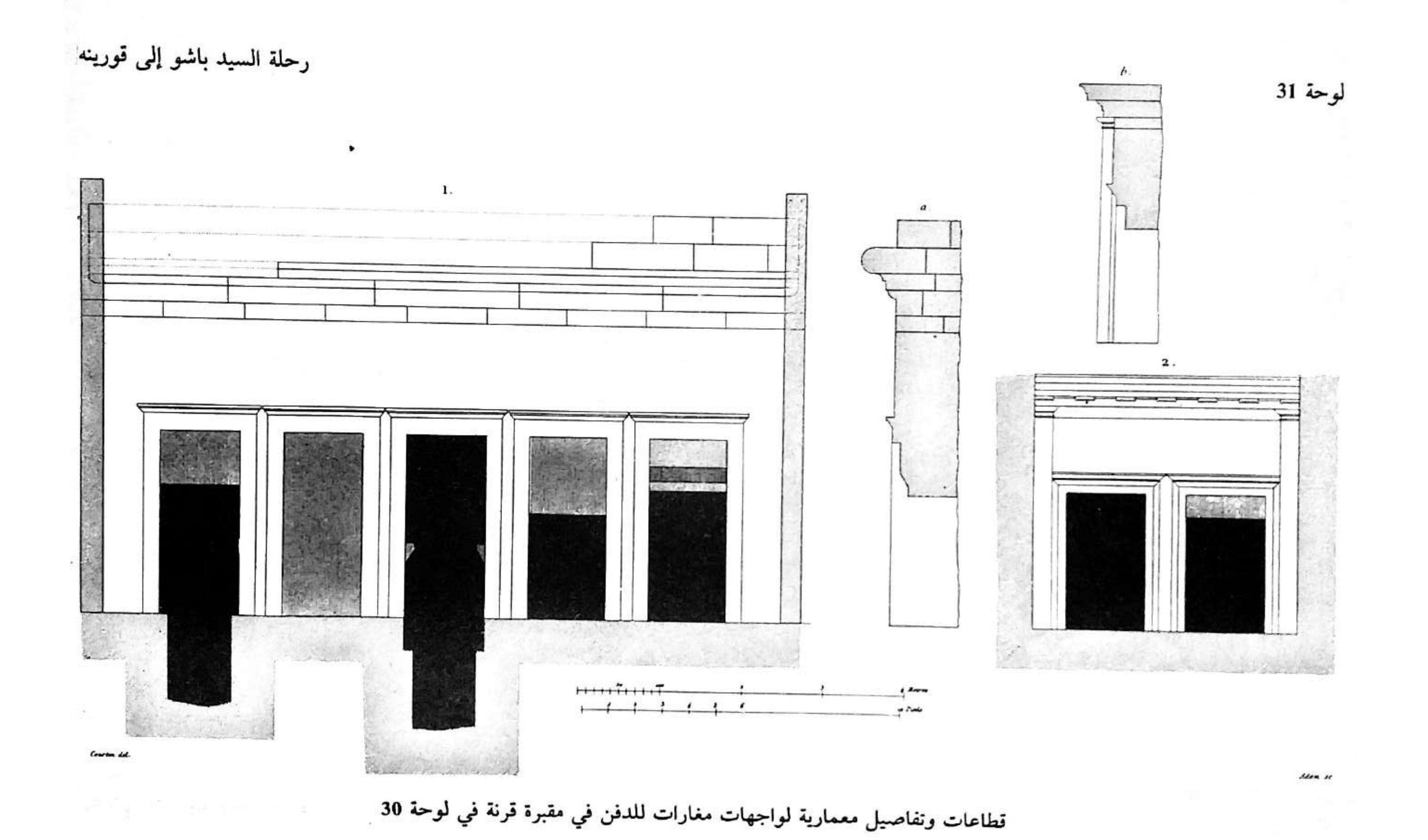
لوحة 28

آثار رصيف ميناء أبولونيا

مجموعة من الكهوف على الطريق بين قرنة وأبولونيا

Gourton del. Adam sc.

أول مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة



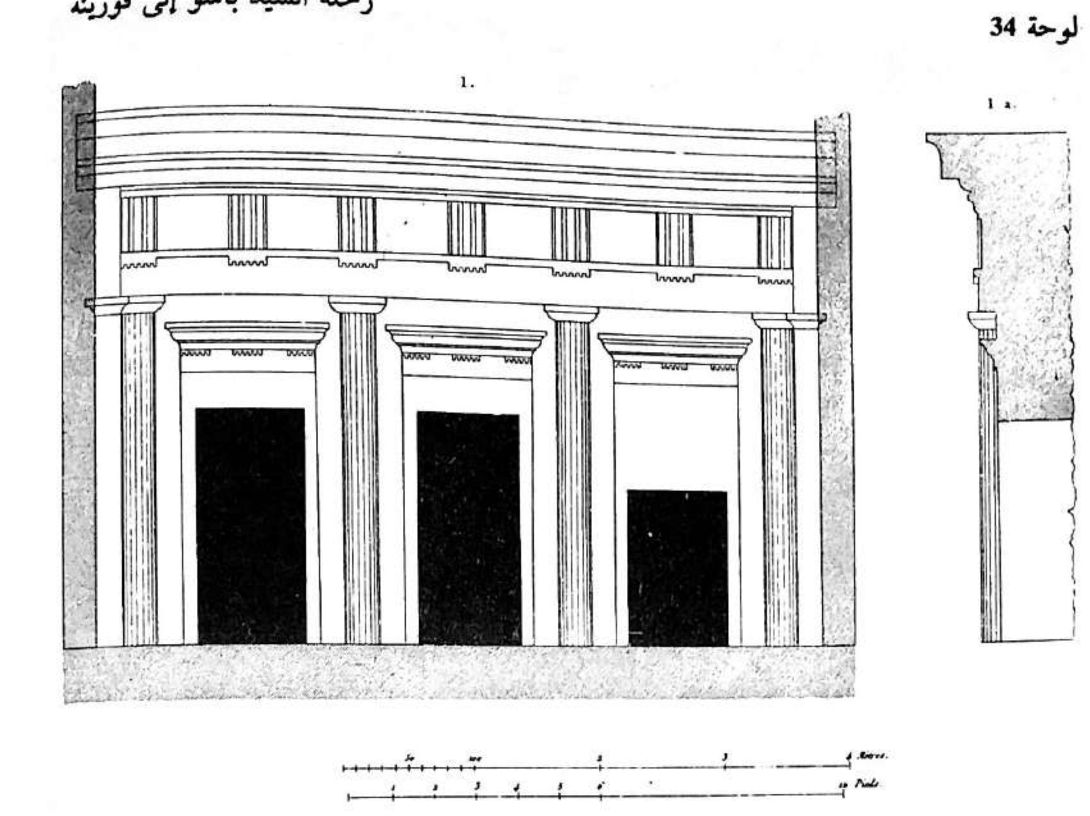
قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في لوحة 30

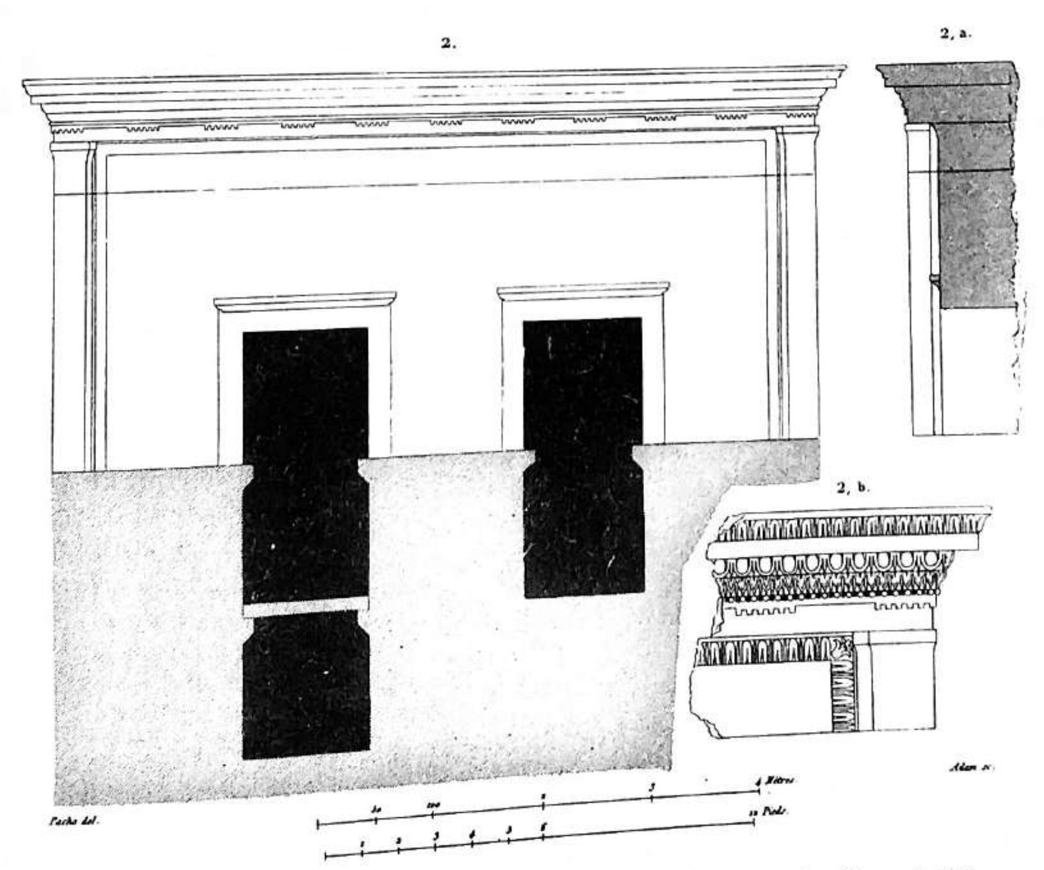
ثاني مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة

لوحة 33



ثالث مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة

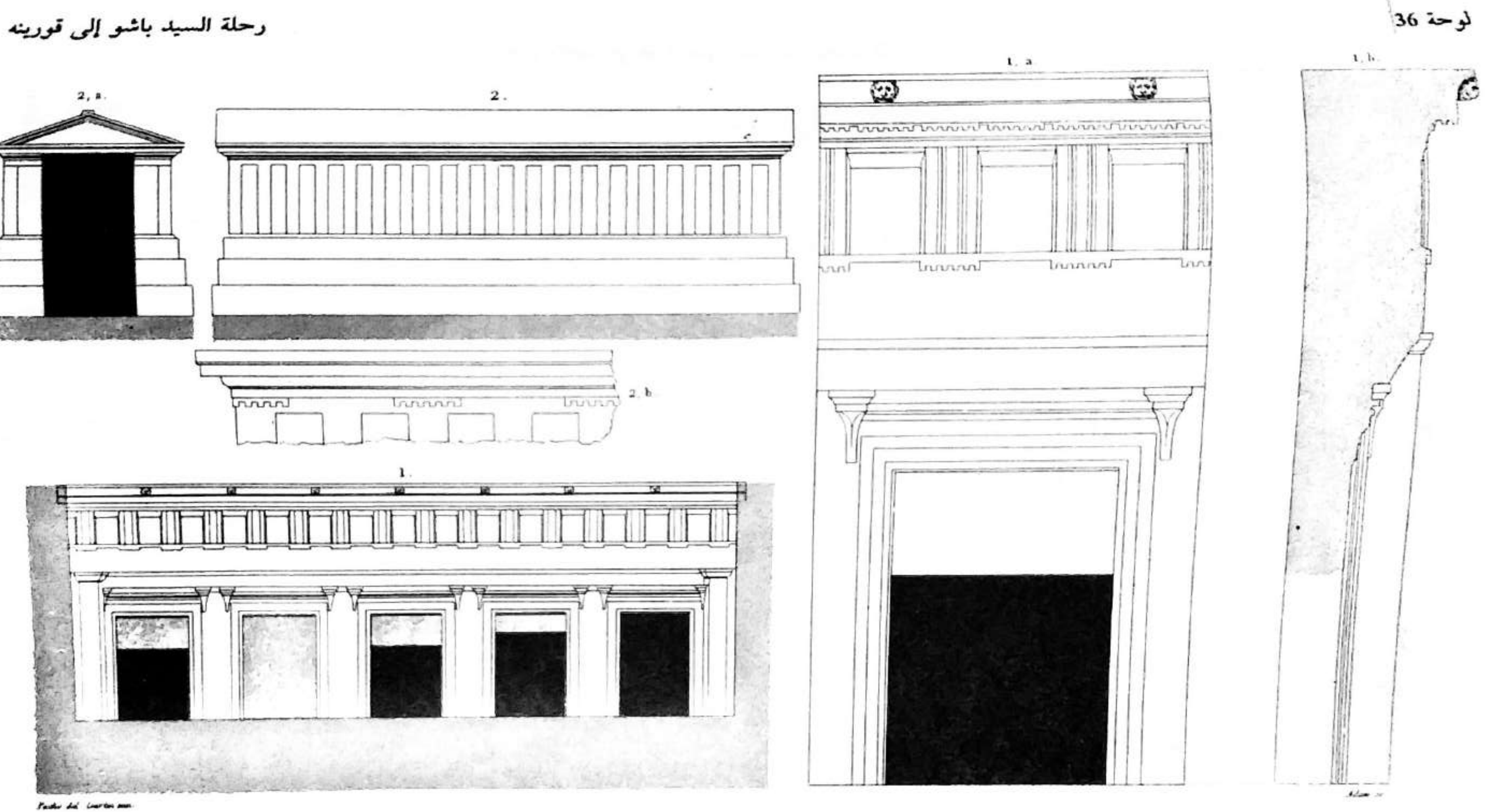




قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في اللوحتين 32 و33

لوحة 35

رابع مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة

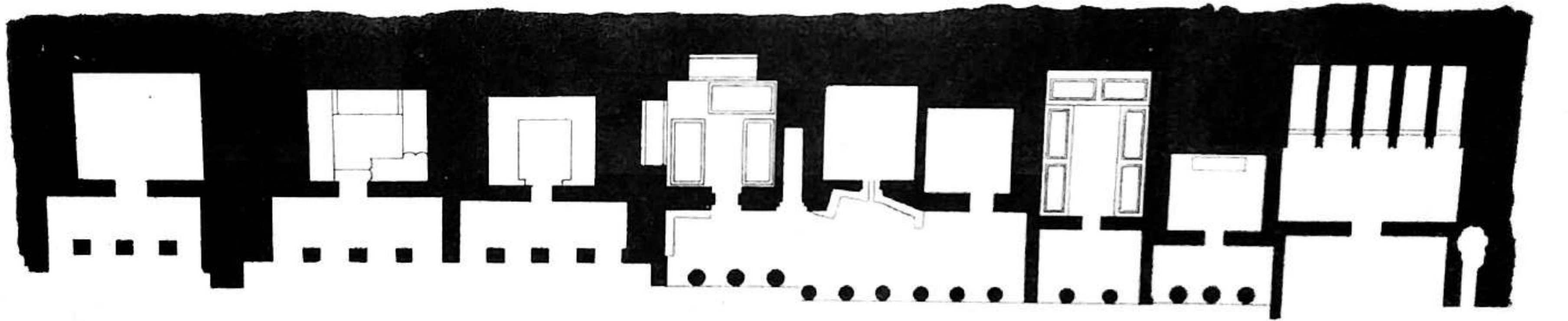


قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في اللوحة 35

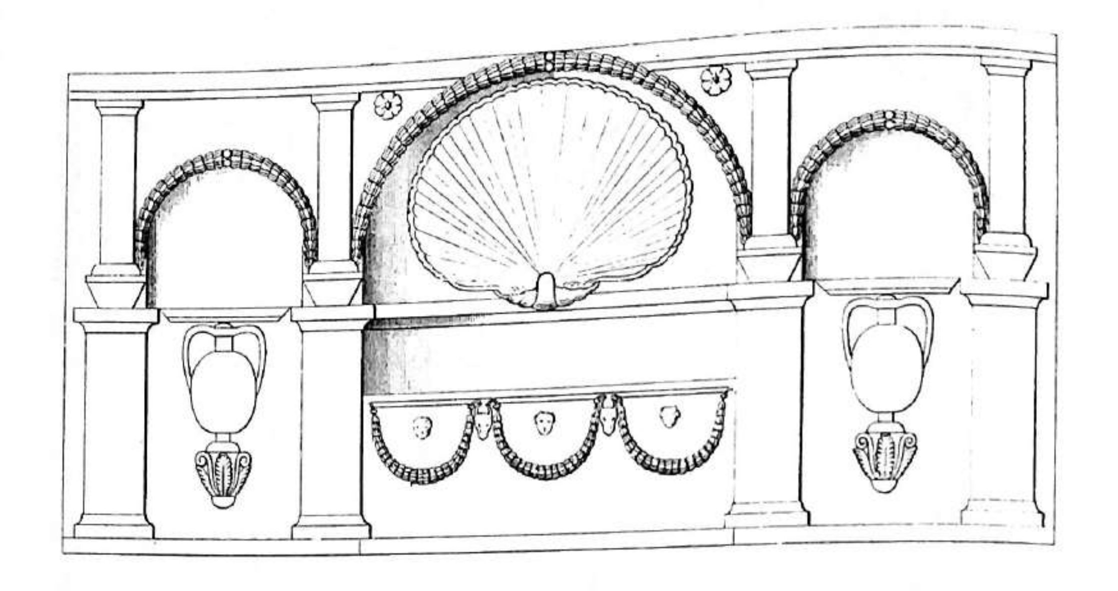
خامس مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة



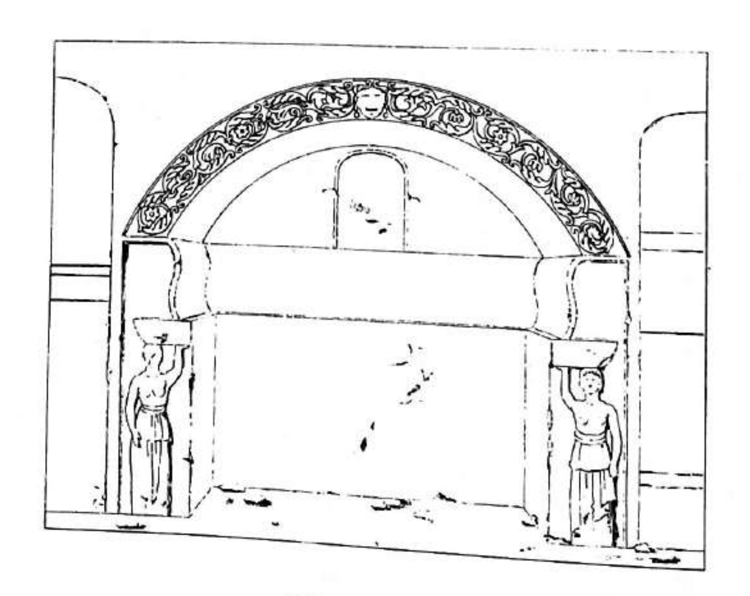




قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في اللوحة 37



قطاع للجزء الداخلي من مقبرة قرنة



Pacho del.

Adam sculp.

Echelle des deux figures

6 Pieds
2 Metres

قطاع للمدخل التابع لمغارات تدعى «الكنيسية» في مقبرة قرنة

Pacho del. Courtin min. Adam sculp.

سادس مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة

1.

2.

2. a.

2. b.

6 Metres

3 Toises

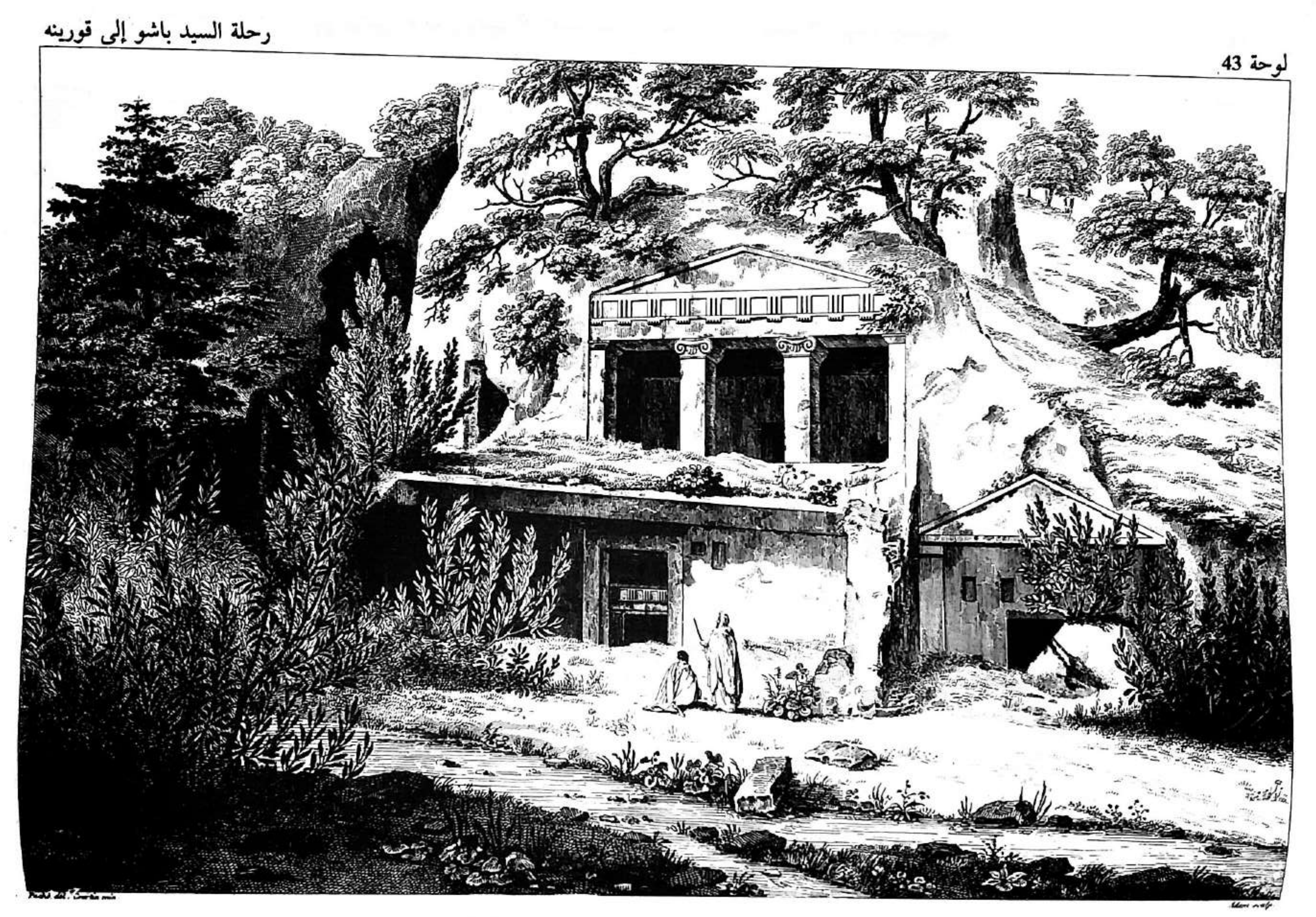
Pacho del.

Adam sculp.

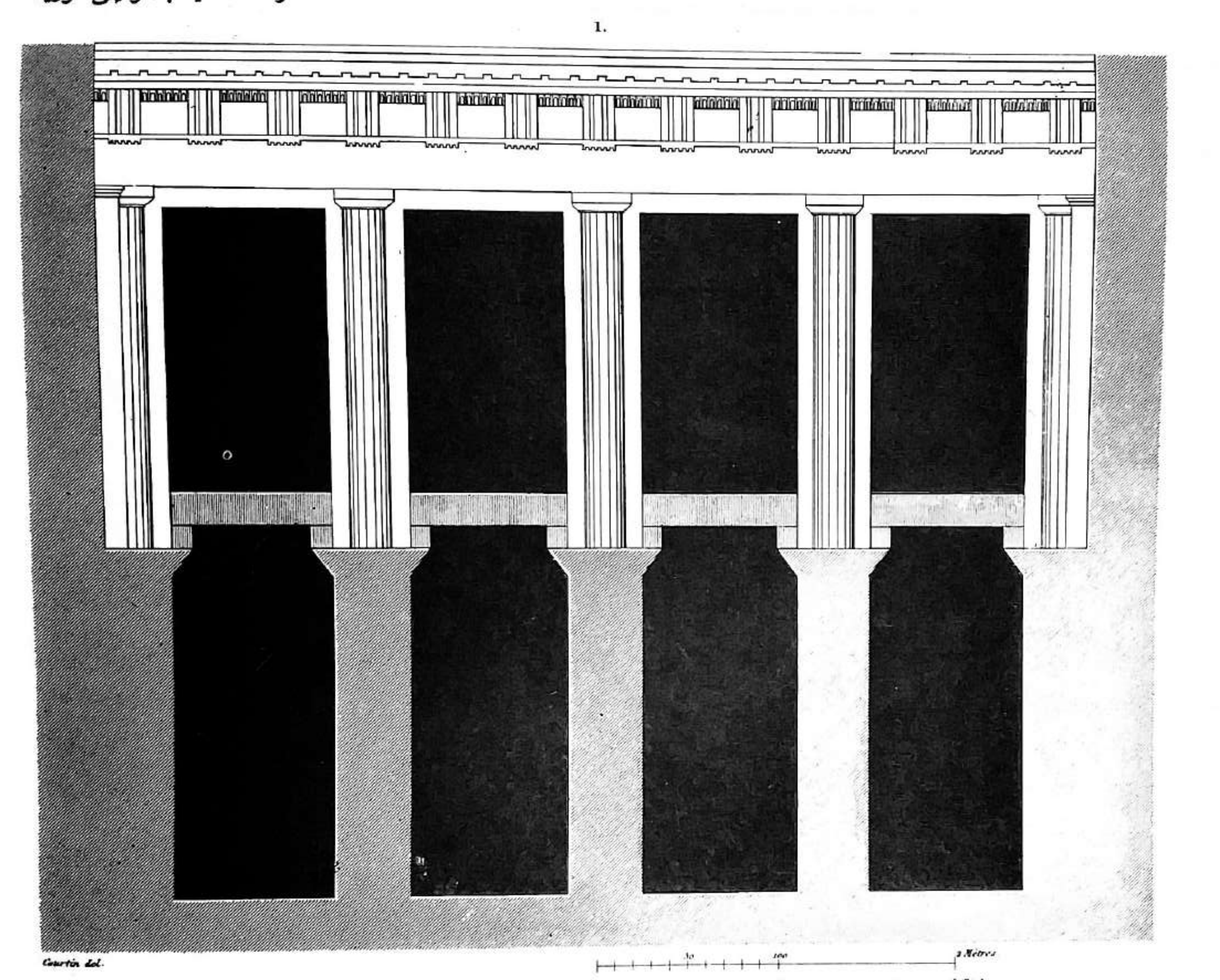
قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في اللوحة 40

سابع مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة

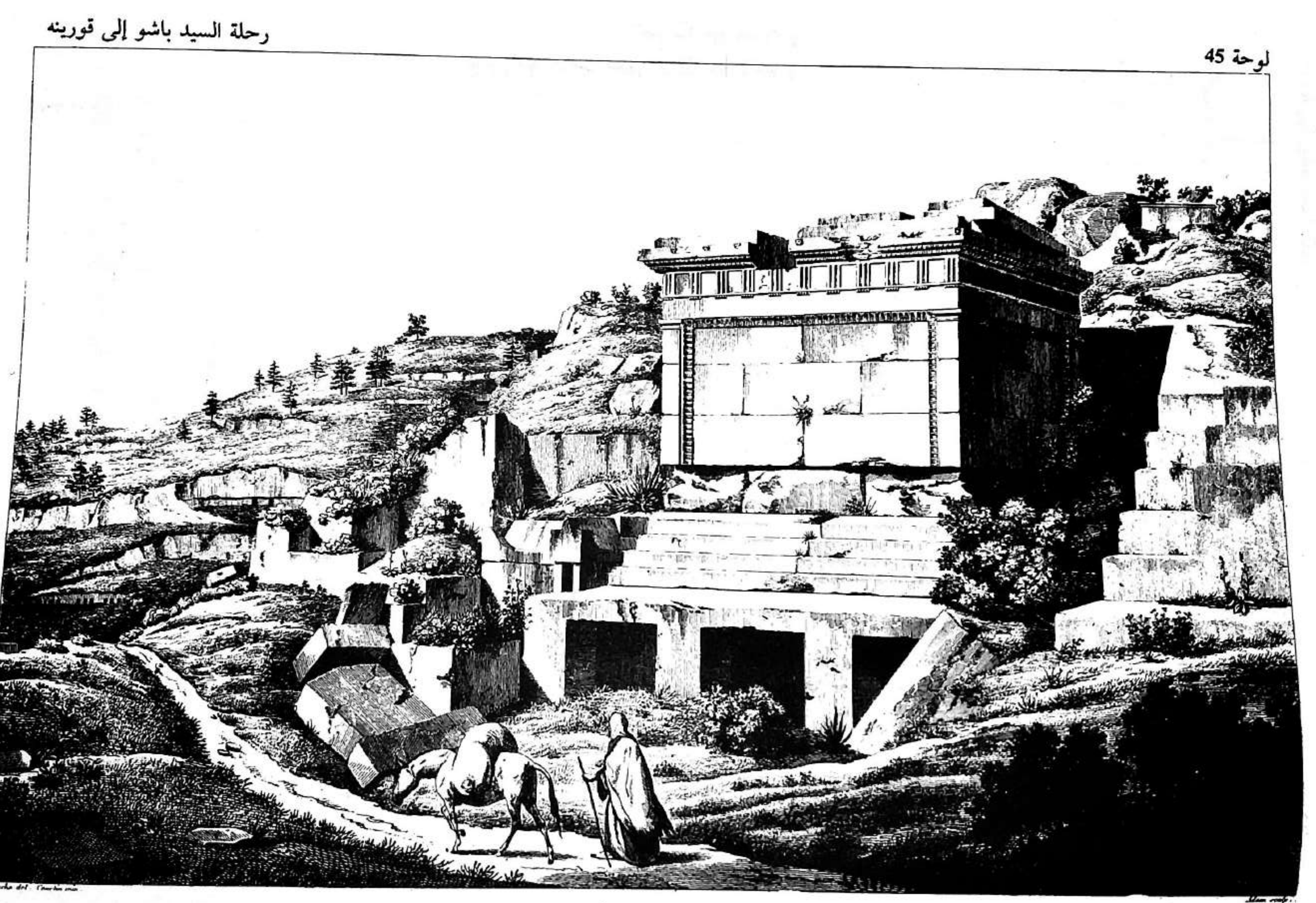
لوحة 43



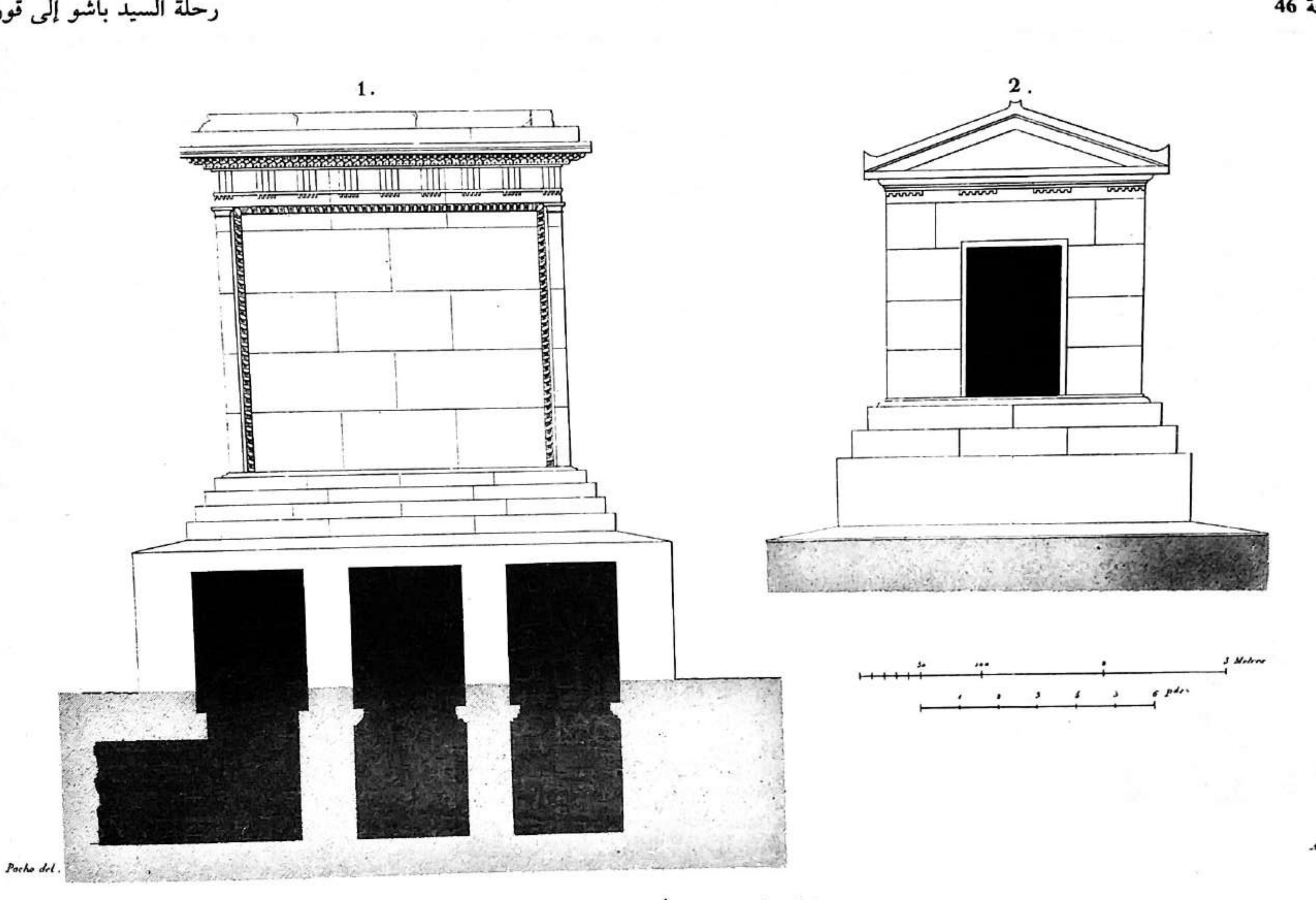
ثامن مشهد عام لمغارات وكهوف مقبرة قرنة



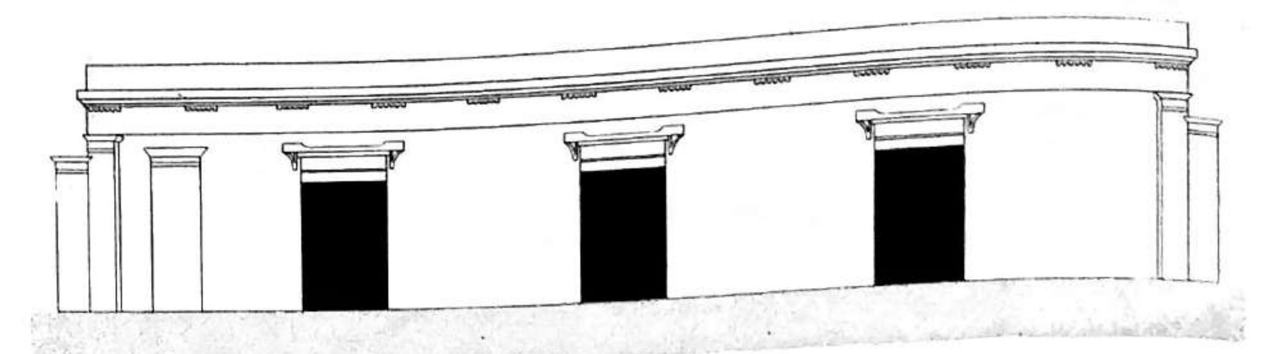
قطاعات وتفاصيل معمارية لواجهات مغارات للدفن في مقبرة قرنة في اللوحة 43

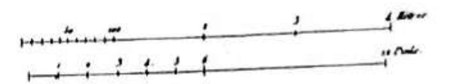


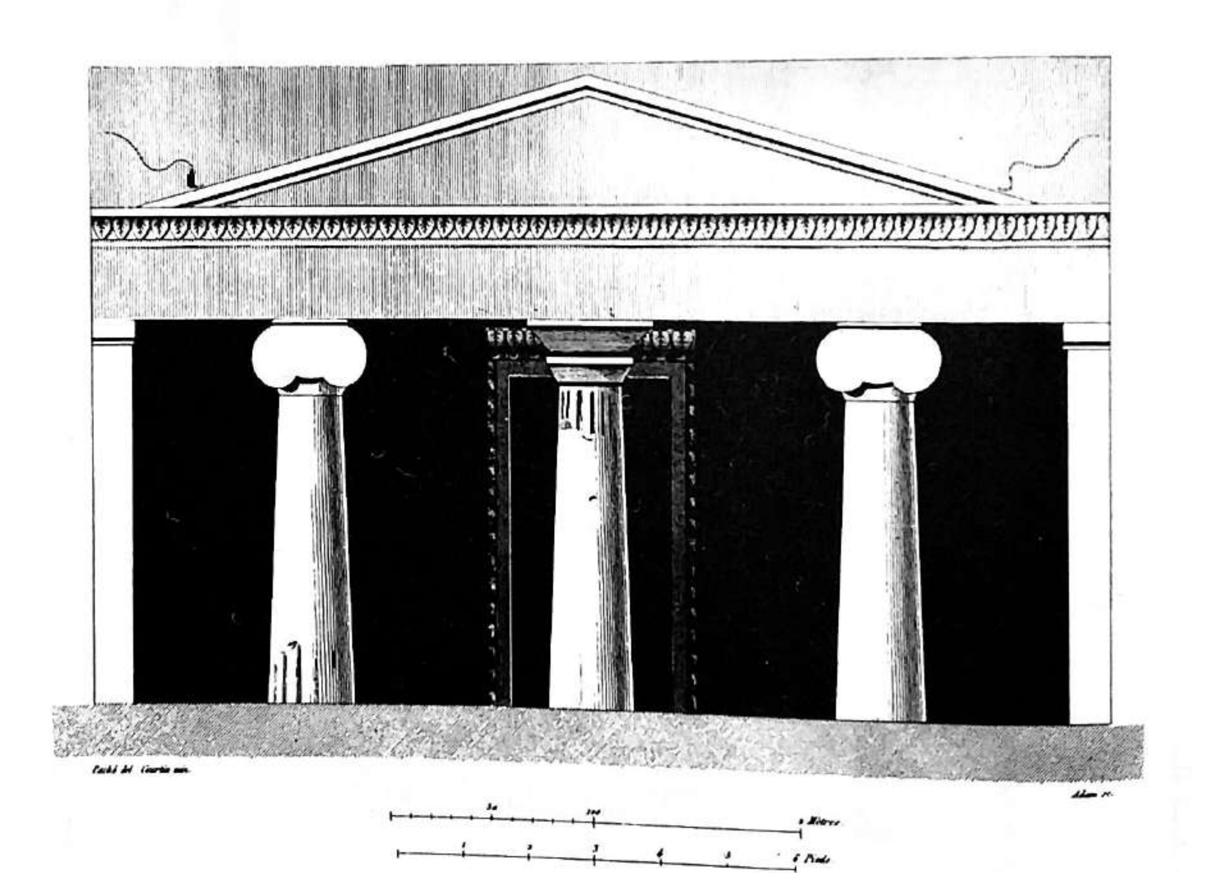
منظر عام لضريح يقع في أقصى شرق مقبرة قرنة



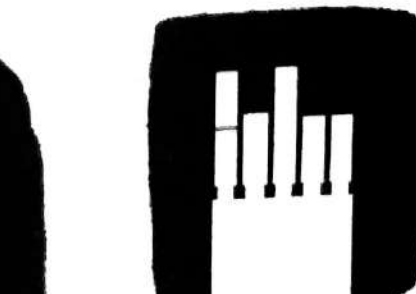
1 قطاع لضريح في أقصى شرق مقبرة قرنة
2 واجهة لضريح آخر

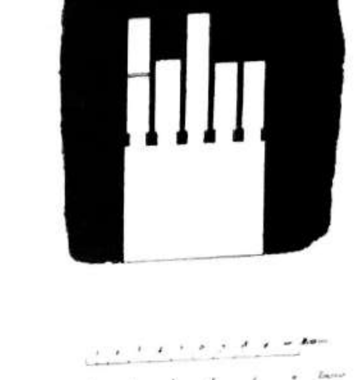






قطاعات لواجهتي مغارات أخرى في مقبرة قرنة





مخطط لمغارات مختلفة في مقبرة قرنة

رسومات عثر عليها داخل كهف من كهوف مقبرة قرنة ـ الواجهة ـ ب ـ

لوحة 50

KAΘIAMAΛΛAΩ ΔTΩ
IPATO CATΩNINOC

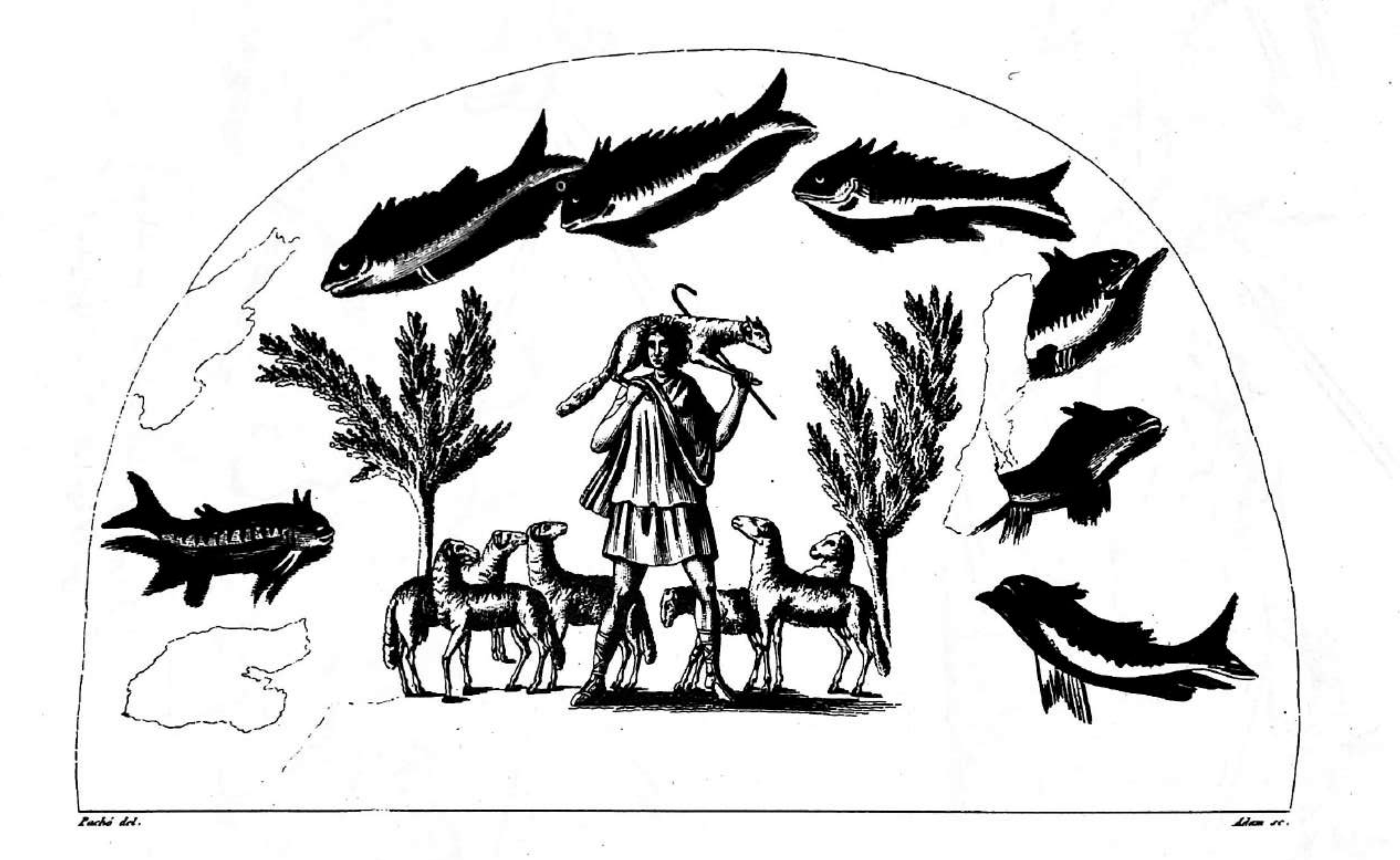
ΣOICAN KOINΩ ENEKIΩN
ΓONCON
INΓAKAI

Facha del.

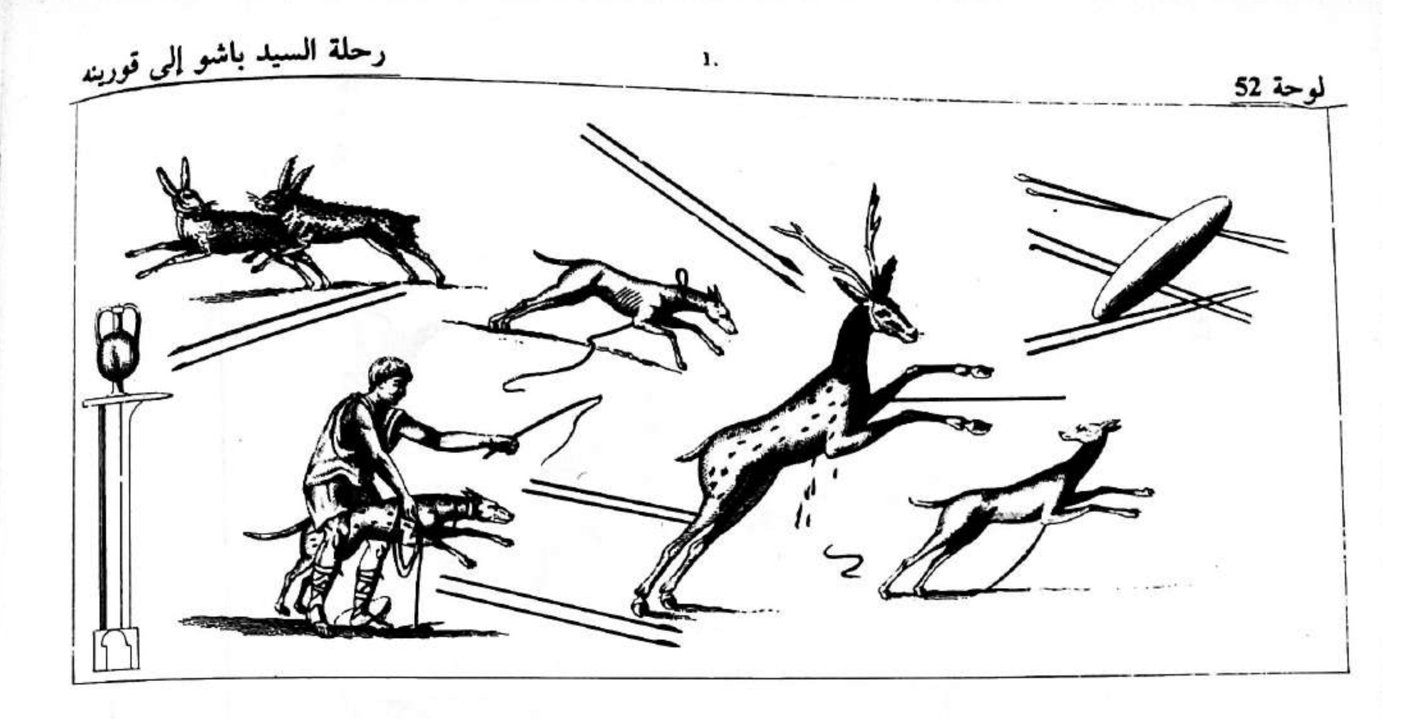
Adam sculp.

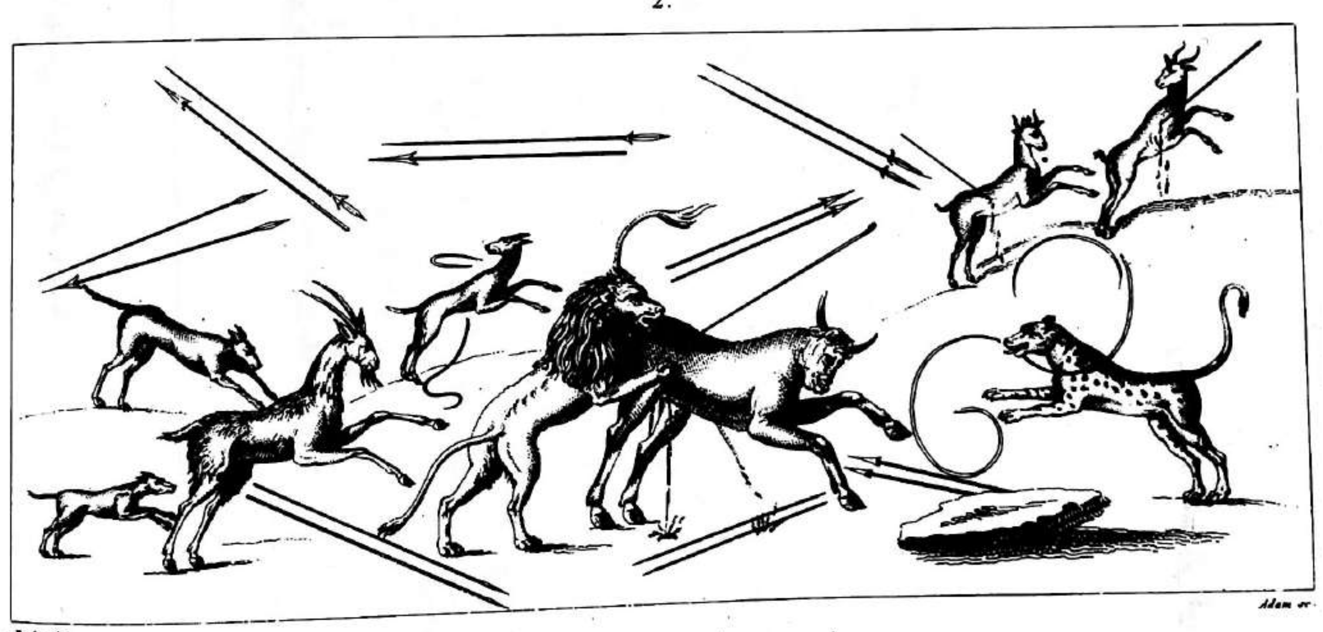
تكملة الرسومات التي عثر عليها داخل كهف من كهوف مقبرة قرنة ـ الواجهة ـ ب ـ

لوحة 51



رسومات عثر عليها في مغارة في مقبرة قرنة

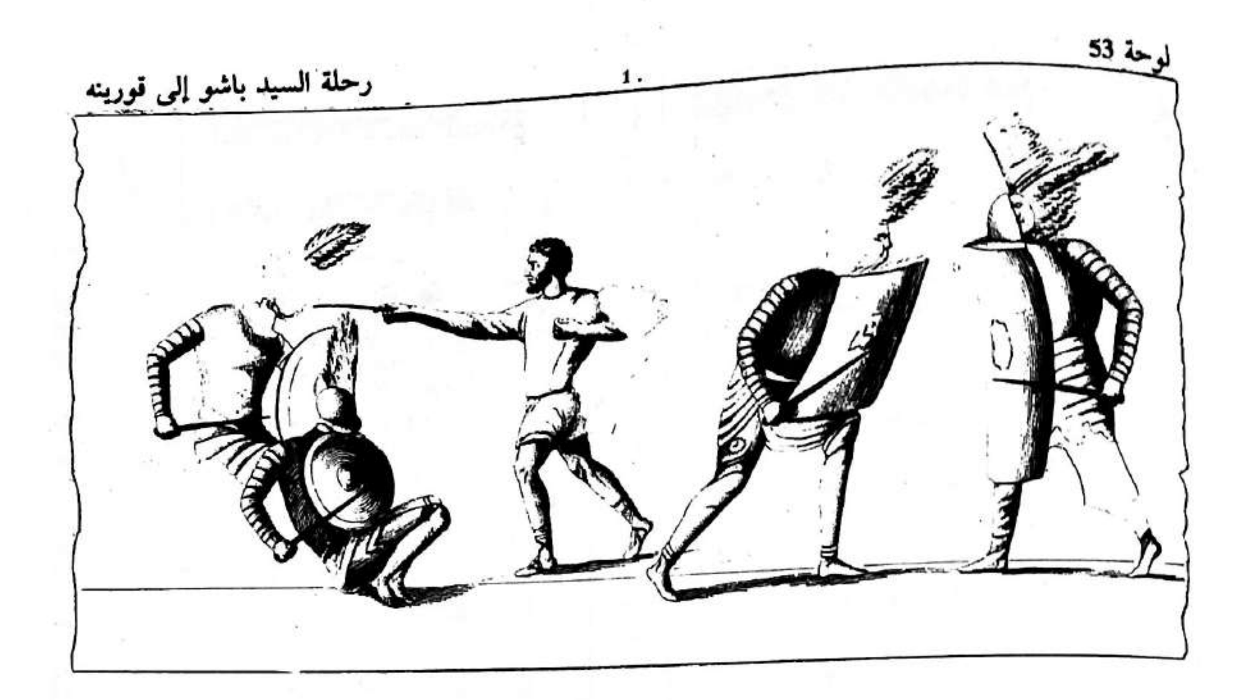




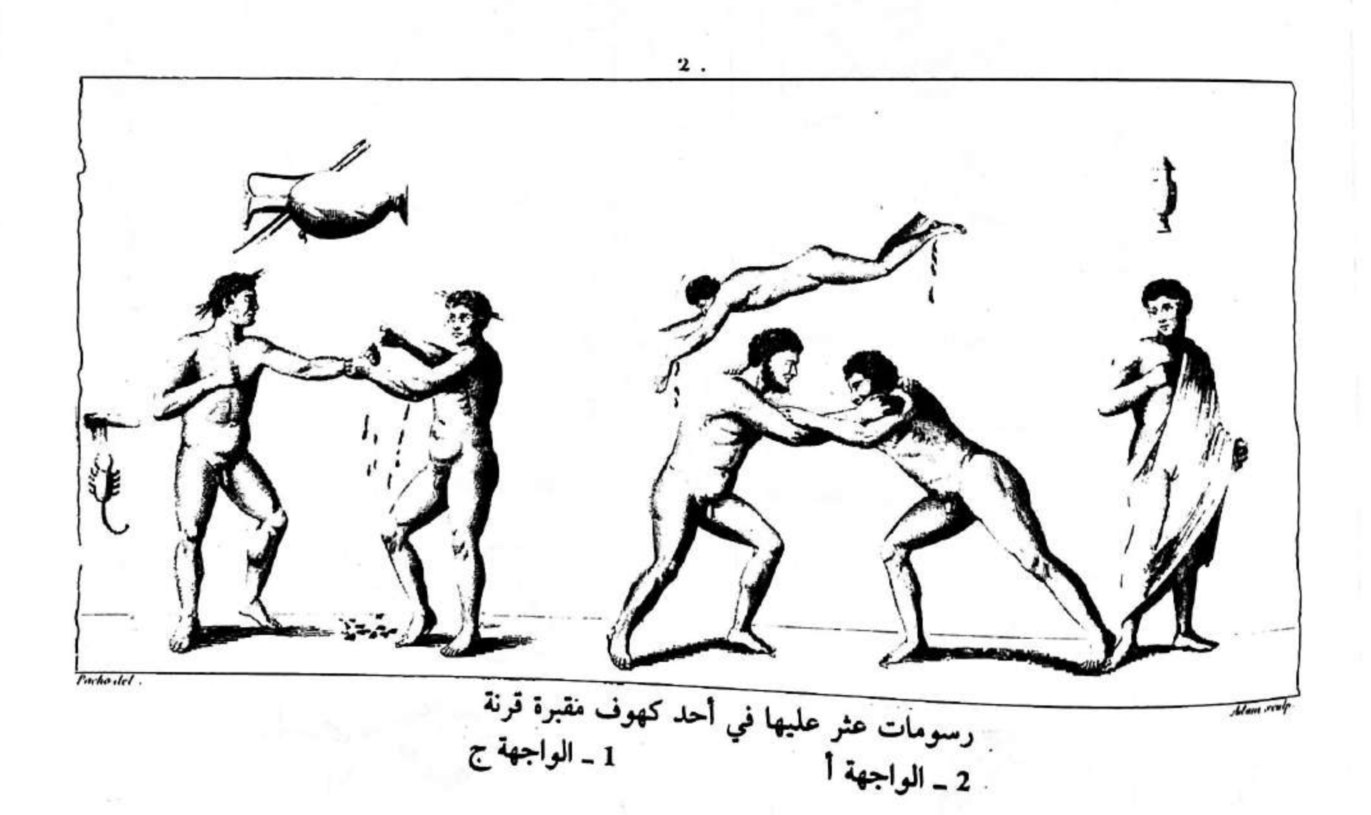
رسومات عثر عليها داخل مغارة في مقبرة قرنة

1 ـ الواجهة ـ د ـ 2 ـ الواجهة د، س

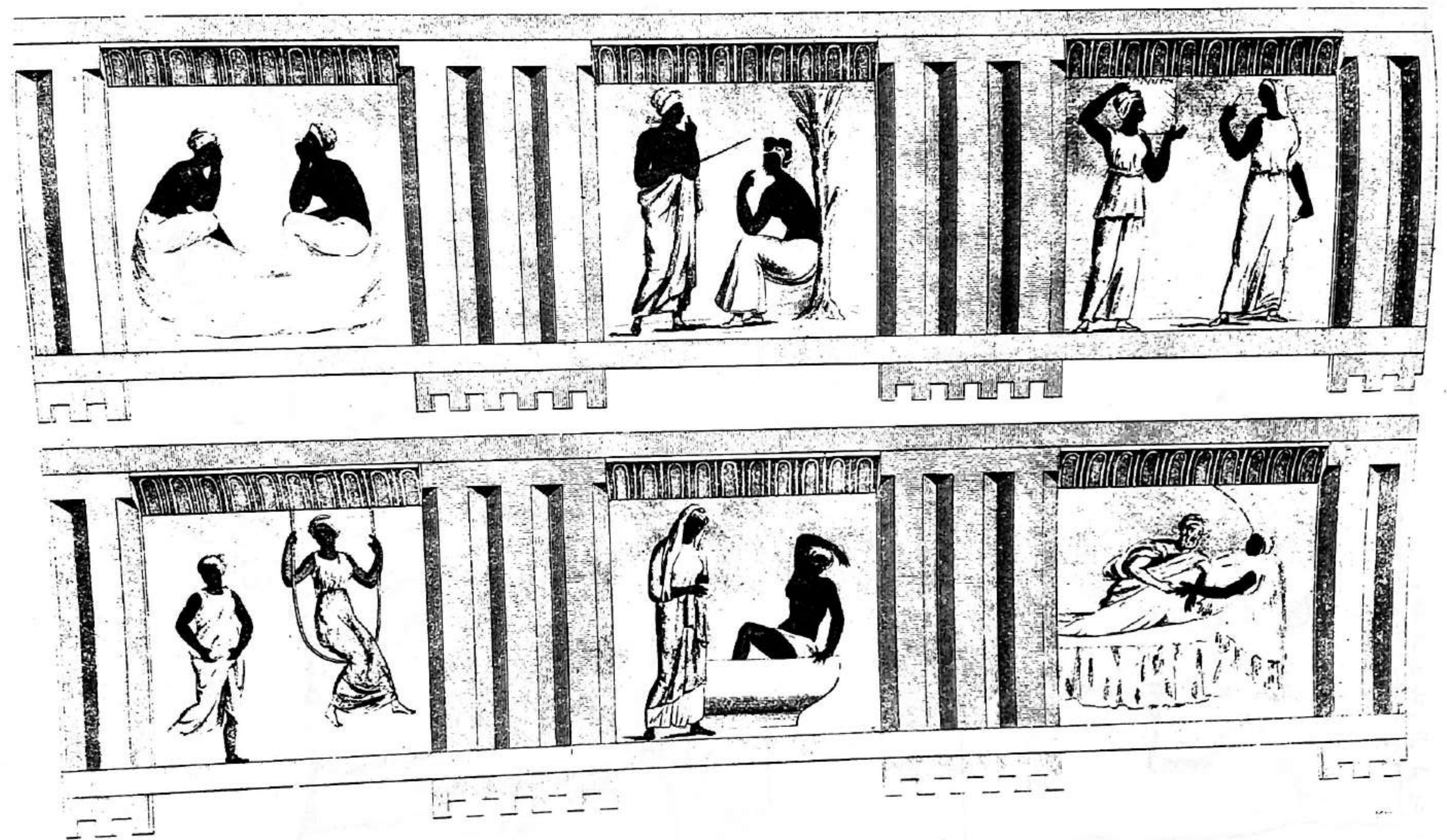
1.



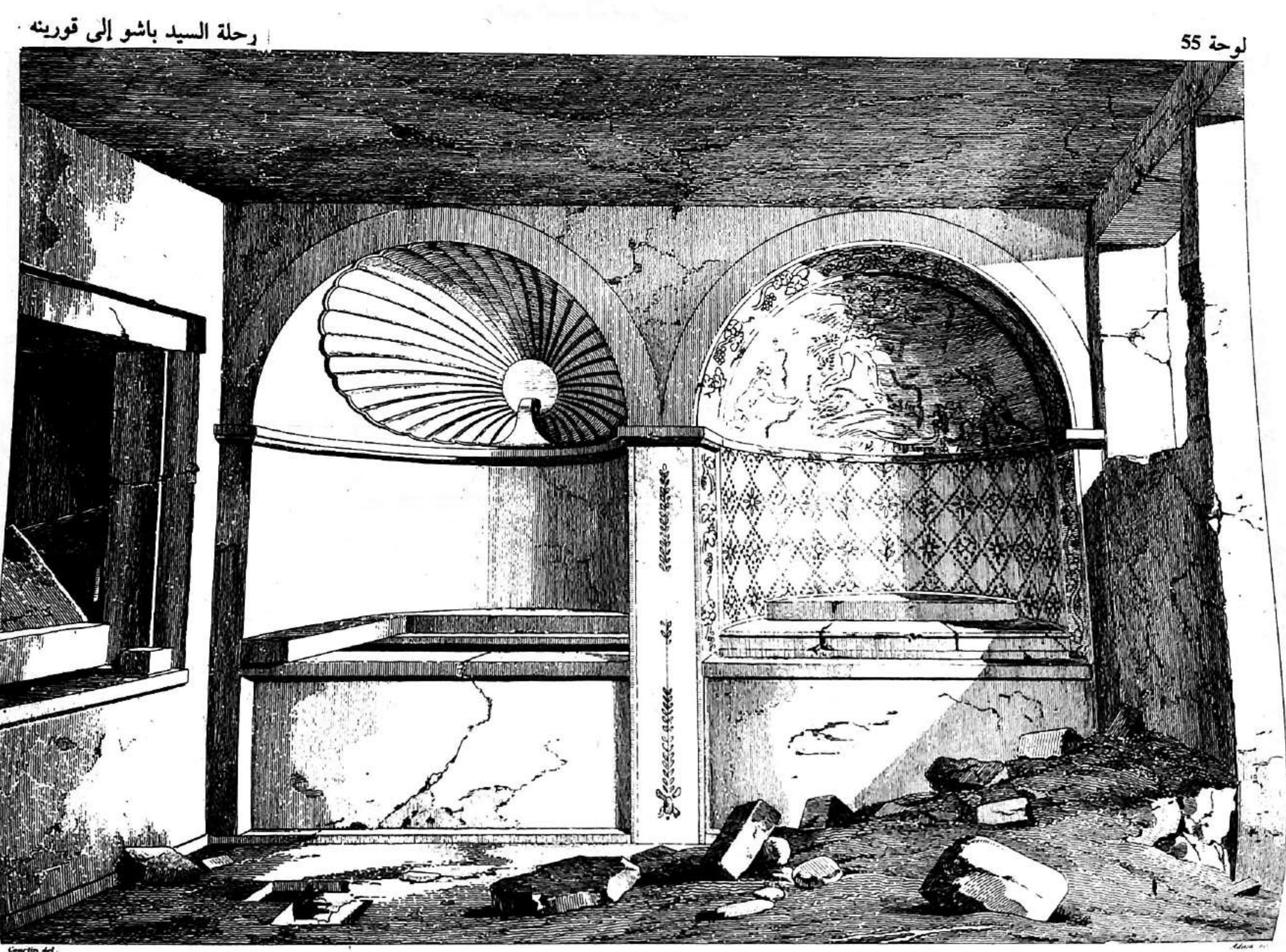
2.



رسومات عثر عليها في أحد كهوف مقبرة قرنة
1 ـ الواجهة ج
2 ـ الواجهة أ



رسومات عثر عليه في نقوش أحد الأضرحة في قرنة



داخل مغارة جنائزية نصرانية في مقبرة قرنة

Pacho del.

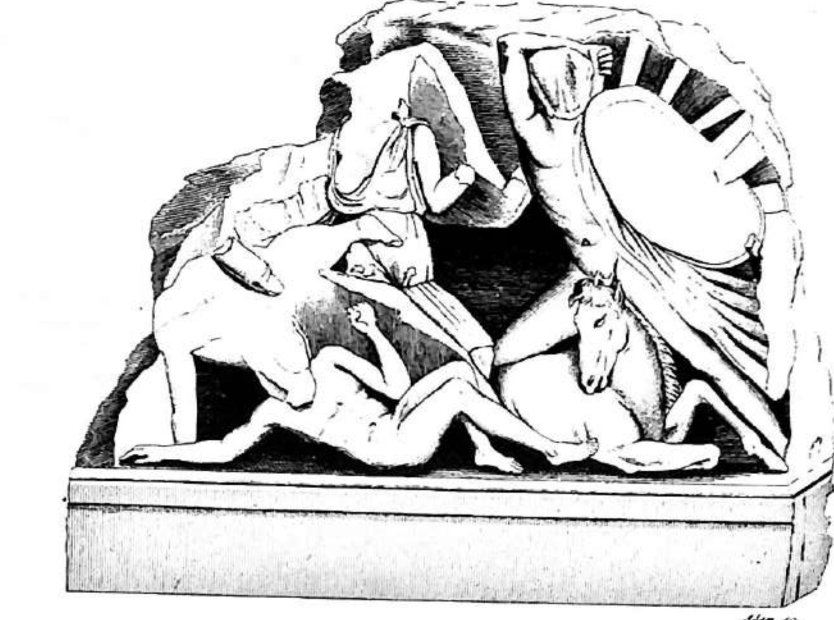
Lemaitre sculp.

منظر لضريح داخل مغارة

1.



2, a.

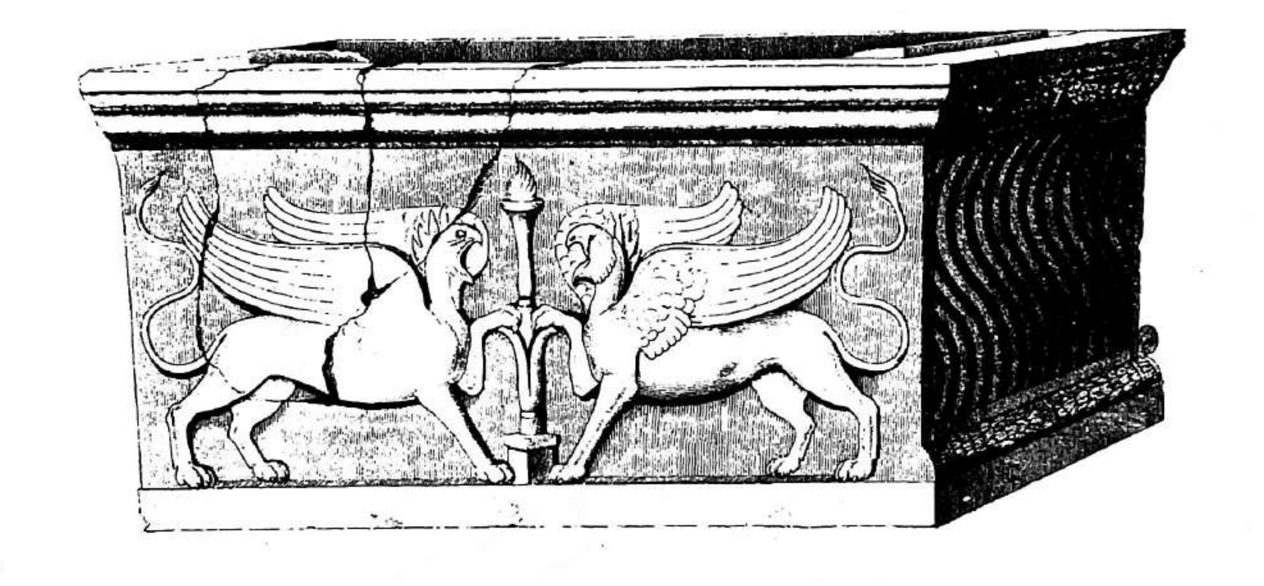


2.

Pacho del

Adam sc.

قطع من قبور رخامية



Pacho del.

Adam sculp.

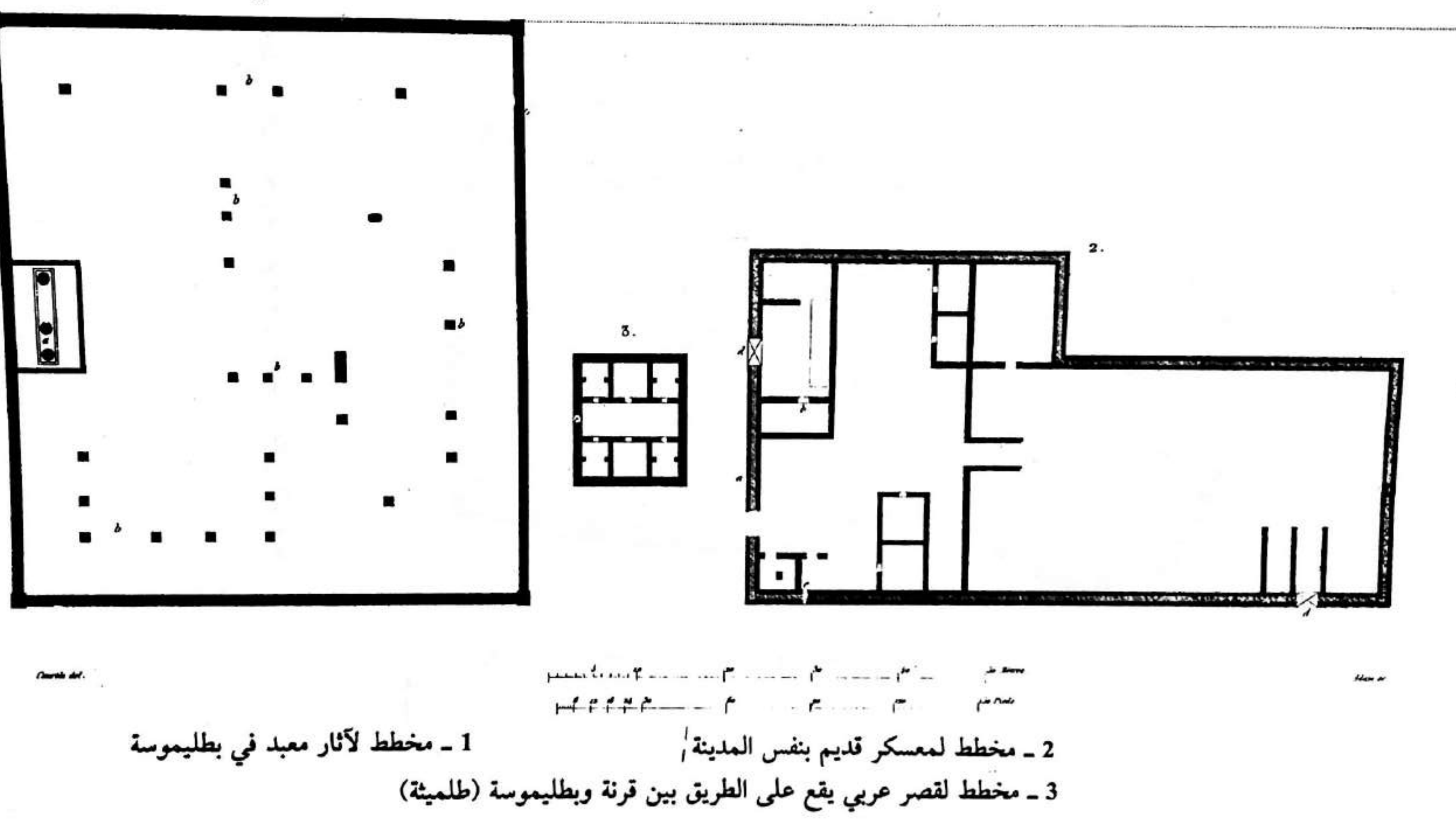
قبر داخل مغارة توجد بالقرب من نبع أبولو في قرنة.



Pacho del.

Adam sc.

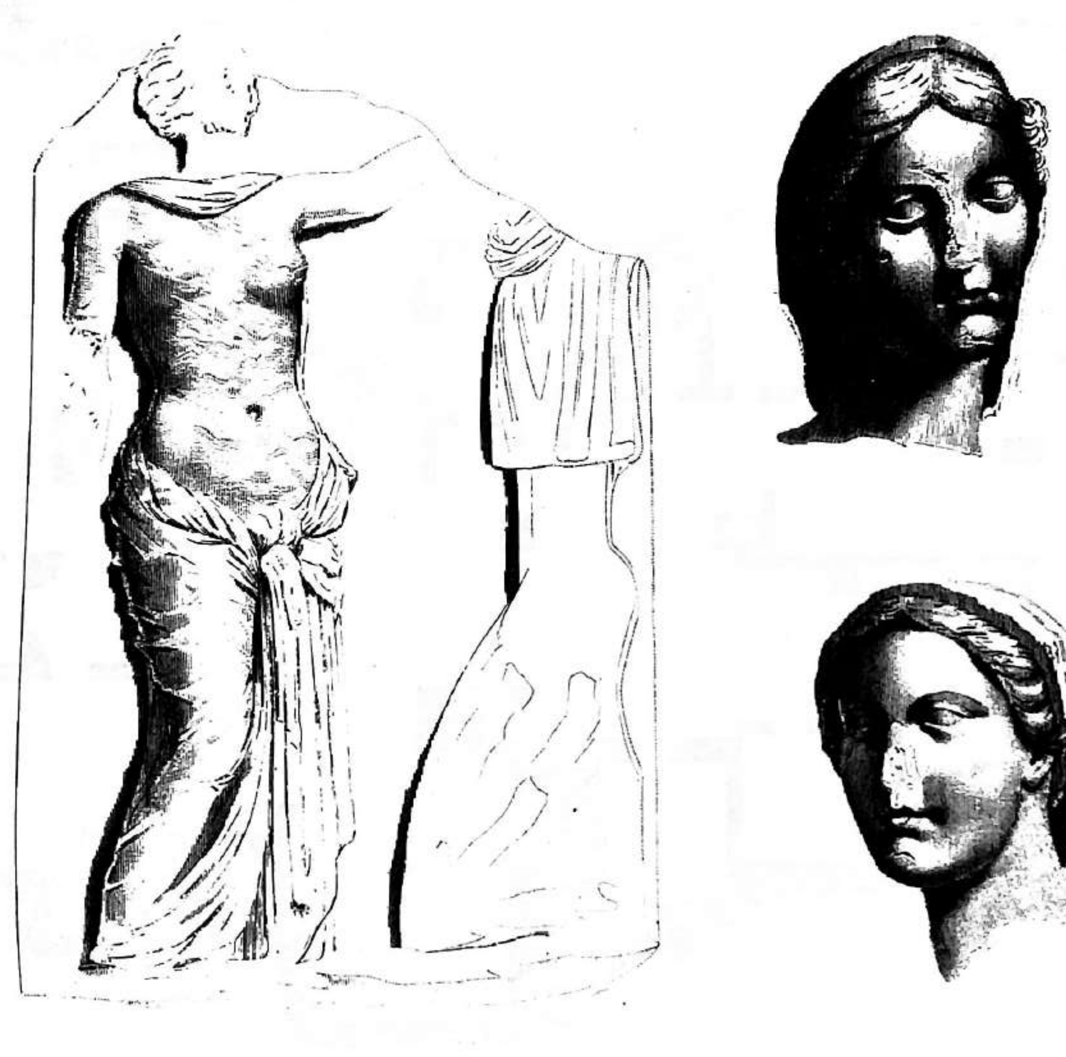
جذع تمثال ضخم من الرخام وجد بين أنقاض آثار قرنة



1 ـ مخطط لآثار معبد في بطليموسة

2 ـ مخطط لمعسكر قديم بنفس المدينة

3 ـ مخطط لقصر عربي يقع على الطريق بين قرنة وبطليموسة (طلميثة)



Pacho del. Adam sculp.

نقوش ورؤوس من الرخام وُجدت بين آثار قرنة

مخطط للكهف المسمى مغارة «الكنيسية» الذي يشكل جزءاً من مقبرة قرنة

1.

ΚΘΤΙΠΕΤΡΩΝΙΟΣ
ΚΑΠΙΤΩΝΕΤΩΝΖΚ

ΒΑΙΟΝCΟΙΤΟΜΕΤΑ
ΣΥΒΙΟΥΘΑΝΑΤΟΙΟ
ΤΕΘΗΚΕ··ΚΑΙΤΥΜΒΟΥ
ΚΑΠΙΤΩΝΚΑΙΘΑΛΑΜΟΙΟΤΥ
ΧΗΝΥΚΤΑΜΙΑΝΨΕΥCΤΙΝΚΑΙΑ
ΛΕΑΤΗΝΑΝΙCΑΥΛΩΝΤΗΝΔΙΧΑCΟΙ
CΤΩΝΤΗΝΑΤΕΡΕΙΛΑΠΙΝΗC·ΑΙΑΙ
ΤΗΝΕΠΙΠΕΠΛΑΚΑΙΕΙCΑΜΥΡΙCΤΑΠΕ
COYCA·CΤΕΜΜΑΤΑΚΑΙΒΙΒΛΟΥCΕΙ
ΟΠΡΟΜΟΙΡΕΦΡΗΝΟΙΟΡΗΝΟΙCΙΒΟ
ΗΤΟΝΥΜΗΝΑΟΝΟΙΠΡΟΚΕΛΕΥΘΟΥC
ΛΑΜΠΑΛΑCΥCΤΑΤΙΟΥΚΑΙΚΕΝΕΟΙC
ΛΕΧΟΥCΑ

2.

ΤΙΣ ΦΙΛΩΝ
ΓΟΡΓΟΣΙΩ ΜΑΡΧΟ
ΒΙΜΒΩΙΧΛΛΙΡΟΥ
ΑΡΙΣΤΙΣΛΛΙΑΔΑ

Σ ΤΡΑΤΩΝΑΡΙΣΤΕ
ΠΡΟ ΥΛΝΙΟΣΙΡΜΟΔΩΡΟΥ
ΦΙΛΩΝΟΕ ΥΤΙΜΩ
Ι ΑΤΑΛΛΟ ΑΡΙΣΤΙΩΝΟΣ
ΔΑΜΟΣΤΡΑΤΟΣΑΓΗΣΑΡΧΩ
ΙΠ ΙΝ ΚΟ ΑΤΟΛΑ
Σ ΩΣΠΙΑΣΠΡΑΤΙΟΣ
ΦΙΛ Ω ΝΑΓΑΟΩΝΟΣ
ΕΧΟΑΤΙΑΝΑΥΤΟΦΙΛΟ
ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣΜΕΝΑΝΔΡΩ
ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣΑΓΗΣΙΟΣ
ΘΕΥΤΕΡΠΗΣΠΡΑΤΟΛΑ
ΙΑΣΩΝΧΙΡΑΥΡΑ
ΔΑΜΙΞΑΕΥΚΑΣΠΙΟΣ
ΔΕΞΙΣΡΕΡΕΓΓΥΩ
ΑΛΕΞΙΜΑΧΟΣΚΟΜΑΤΑ
ΡΙΛΟΚΛΜΟΣΑΡΙΣΤΑΡΧΩ

ΣΥΝΝΑΙΩΝΑΙ ΩΝΟΣ

ΚΕΦΑΛΙΩΝΑΥΤΟΚΛΕΥ

ΕΜΙ ΩΝΑΡ ΤΟΜΕΝΕΥ
ΣΟΕΝ Ο ΥΛΨΙΚΛΕΥΣ
ΣΥΗΘΙΔΑΣΕΠΙΓΕΝΕΥ
ΚΡΙ ΓΟΣΠΛΟΚΛΜΩ

ΚΙ ΟΣΟΛΩ
ΕΝΟΝΙΠΤΟΜ

نقوش تم العثور عليها في مدينة قرنة

1.

PORTICVS CAESAREI R
VS·MF-PACILAEVS

2.

ΛΙΓΔΙΟΝΥΣΙΟΣ ΣΩΤΑ
ΙΕΡΕΙΤΕΥΩΝΤΑΝΙ ΡΑΝΑΝ
Ε ΠΕ ΙΕΥΑΣΕ

3.

ΚΛ·ΒΕΝΟΣΤΑ·ΚΛ·ΚΑΡΤΙΣ
ΘΕΝΟΥΣ·ΜΕΛΙΟΡΟΣ
ΘΥΓΑΤΗΡ
ΤΑΝΚΟΡΑΝ· ΕΚΤΩΝΙΔΙΩΝ
ΚΑΙΤΟΝΝΑΟΝ

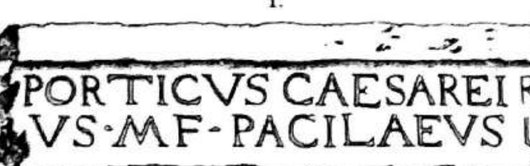
4.

ΚΛ·ΒΕΝΟΣΤΑ·ΚΛ·ΚΑΡΤΙΣΘΕΝΟΥ
ΜΕΛΙΟΡΟΣΘΥΓΑΤΗΡ
ΔΙΟΝΥΣΟΝΕΚΤΩΝΙΔΙΩΝ
ΣΥΝΤΩΝΑΩΙ

5.

ΚΛΑ... ΑΝΑΡΑΤΑΝΦΙΛΙΣΚΩ
ΘΥΓΑΤΕΡΑΦΥΣΕΙΔΕΕΥΦΑΝΕΣ
ΜΑΤΕΡΑ·ΚΛ·ΟΛΥΜΠΙΑΔΟΣ
ΑΙΩΝΙΩ·ΓΥΜΝΑΣΙΑΡΧΙΔΟΣ
ΑΡΕΤΑΣΕΝΕΚΑ·ΚΥΡΑΝΑΙΟΙ

6.



7.

ΙΣ_ ΜΥΙΑ
ΕΥΝΟΙΑΣ

8.

LVIBIOLLCATTABO
LΔ B
bE
COERAVIT

ΛΕΙΗΟΣΟΥΟΣΛΕΥΚΙΟΥ
ΓΛΣ ΑΙΟΣ

ΟΣΕΠΟ

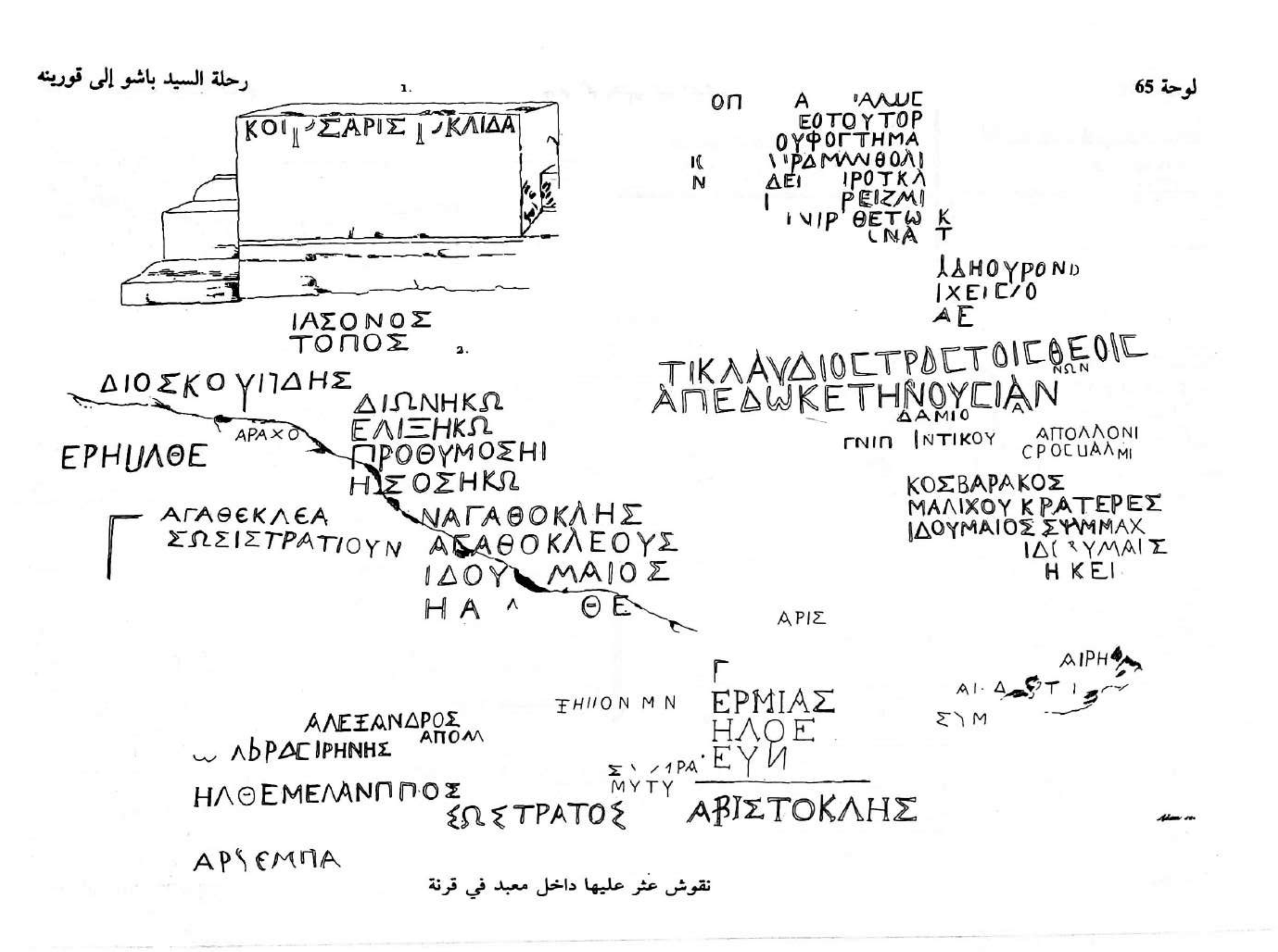
9.

ΔΙΜΥΤΡΙΑΘΥΓΑΤΗΡ
ΝΟΕΓΑΙΟΥΤΟΥΓΩΝΗCΜΕΝΟΥ
ΤΟΜΑΙΜΟΓΓΤΟΕΝΘΑΔΕΚΙΤΕ
ΥΛΚΟ ΤΕΚΑΤΟΥΥΙΟΥΑΥΤΗCΘΕΩ
ΝΕΕΑΩ ΔΟΥΑΙΥΟΥΤΟΙΕΤΕΛΕΥΤΗCΑΝ
ΤΗΝΕ ΕΠΙΑΙΡΟΥΜΥ ΡΟΓΓΩΔΑCΙΟΥ
ΕΖΑΓΟΡ ΓΕΝΟΔΕΝΟΥΤΕΘΙΚΑΝΑΥΤΟC
ΕΟΝΙΚΑΛΛΙ ΤΠΟCΟΥΑΝΗΡΑΥΤΗCΚΕ
ΠΑΤΗΡΚΕΥΙΟΓΑΥΤΟΥΓΑΙΟCΚΕΓΑΜ
ΡΩΙΒΒΕ ΑΥΤΟΥΙΤΑ ΛΥ ΒΟΥΛ
ΙC ΚCΩΝΗCΘΗΤΙΤΟΝΕΝΤΟCΠΗΧ
ΟΙΓΟΥΤΥ

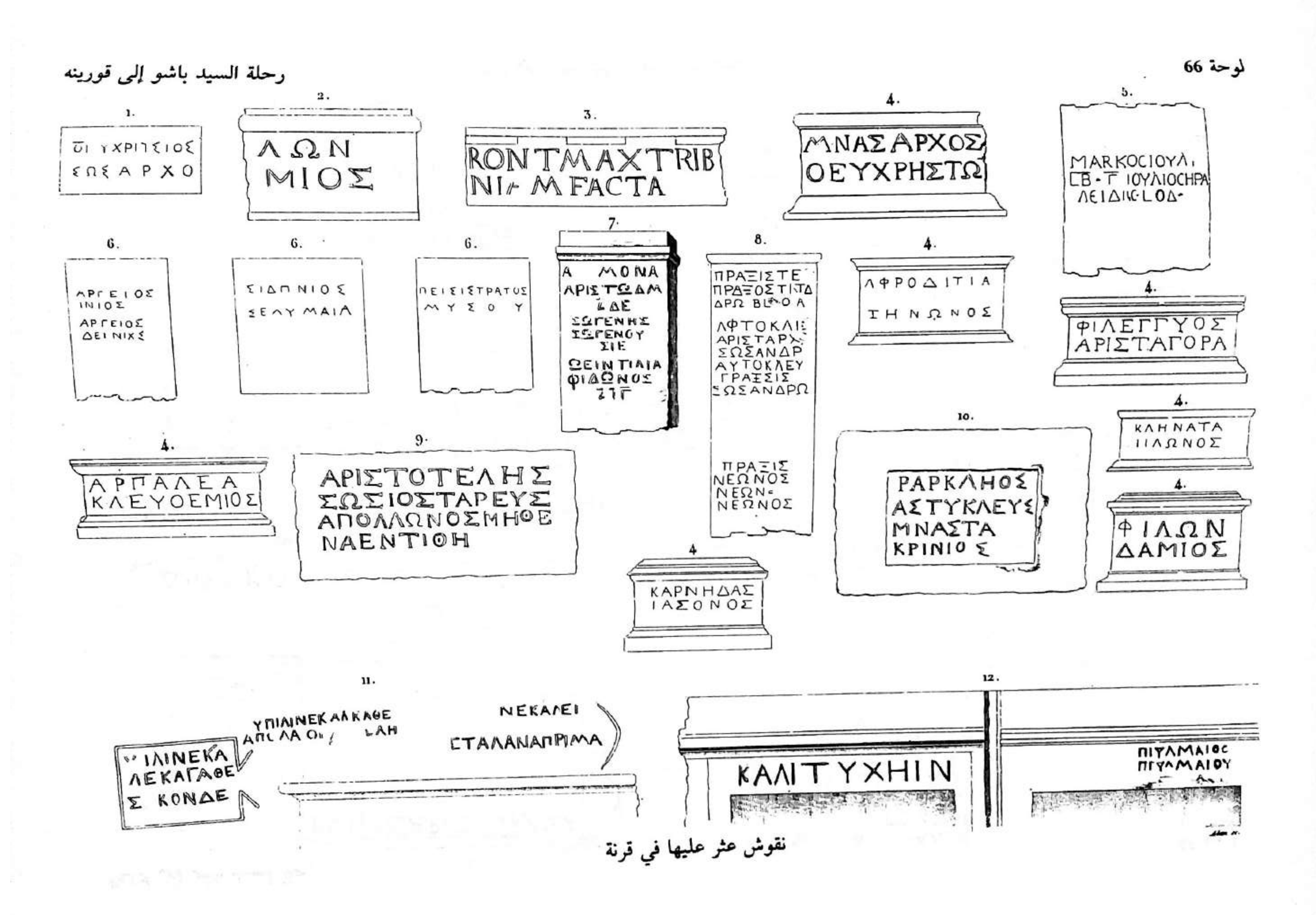
10.

ΤΩΣΕΒΑΣΤΩΑΡΧΙΕΡΕΩΣΣΩΙΗΡΙΑΣΚΟΙΝΤΟΣΛΟΥΚΑΝΙΟ
ΤΟΣΕΚΤΑΣΙΩΝΤΩΑΠΟΛΛΩΝΟΣΙΕΡΕΩΝΕΠΙΔΟΣΙΟ
ΑΝΕΘΗΚΕΝ

نقوش تم العثور عليها في مدينة قرنة



نقوش عثر عليها داخل معبد في قرنة



نقوش عثر عليها في قرنة

1.

ΕΧΕΜΗΔΑC
ΤΙΜΟΚΡΑΤΕΙΑC ΑΡΙΣΤΙΣΟ

ΑΡΑΤΑΣ ΛΑΒΡΟΜΕΙΑC

ΑΛΘΑΙΜΕΝΕΥC ΠΡωΡω
ΤωΤΡωΡω ΤωΛΑΘΑΙΜΕΝΕΥC

2.

CΤΡΑΤΟΥC
ΟCΤΑ
ΠΛΗΡΗC

ΕΠΙΚΡΑΤΟΥ

ΕΠΙΗΡΤΟΥC

ΝΙΚΜΝωΡ

ΓΑωΙΡΑΙΗC

ΗΛΟΔωΙΟΚ

CωΕΟΥ

ΠΑΥCΑΙ

ΜΑΡΚΟΥ
ΦΡΑΣΩ

CΥΝΦΕΡΟΥC
CΕΙC

3.

ΓΑΙΟΣΙΟΥΔΙΟΣ
ΤΟΣ

4.

ΒΑΛΑΔ
ΤΑΣΟΡΡΙΔΑΣ
ΝΠΙΞΙΠΥΓΟΣ
ΑΘΗΚΕΤΑΙΣΠΕ
Τ ΣΠΑΚΟ ΓΑΤ

5.

ΑΝΑΞΙΑ ΑΦΕΝΩΙ ΛΙΧΑ
ΤΙΜΟΑ ΙΜΑΙ ΑΡΙΣΤ ΙΑ

6.

ΜΝΑΣΙΣΤΙΛΤΑ ΑΓΗΣΑΡΧΟΣ ΑΦΕΝΩΙ ΘΕΜΙΣΩ
ΑCΟΡΙΕΥC
ΦΕΙΩΙ ΙΑΣΩΝ ΠΕΛΕΑ ΕΤΕΑΡΧ

7.

ΑΜΚΑΝΟΡΟΣΑΟΤΙΜΙΔΙΑ
ΚΑΙΤΑΤΟ Τ ΟΣ

8.

ΑΓΕΜΙΟΝΑ. ΙΝΙΚΑΙΩ

9.

ΠΕΤΡωΝΙΑC
ΠΡΟΚΛΑC

ΒΗΡΟC
ΛΚ

نقوش عثر عليها في قرنة

Pacho del. Courtin min. Adam sculp.

منظر عام لقصر المقدم على الطريق بين قرنة وبطليموسة

منظر عام لأنقاض معبد بطليموسة

رحلة السيد باشو إلى قورينه

منظر لأطلال المدخل الغربي لبطليموسة

منظر لأطلال جنائزية غرب بطليموسة

I

2

3

Pacho del.

Adam sculp.

مخطط وقطاع وتفاصيل لضريح ضخم يقع إلى الغرب من بطليموسة

ΡΑΤΩΡΚ ΙCΑΡC ΑΝΑCΤΑCΙΟCΝ ΗΤ CO
ΟΥ ΟCΑ ΤCΕΒΑCΤΟCΑΥΟΥCΤΟCΔΕ Κ ΟΥ CΥ
Ϡ ΙΟΥCΤΥΠΟΥCΕΙΝΥΟΥΠΕΡΙΟΙΚΟΜΩΚΑΙC ΚΟCΛΑΝΙΩ
ΙΩC ΤΟΥCΝΥΝΚΑΙΚΑΤΑΤΑΙΡΟΝΔΟΥΚΙΚΟΥ ΤΟΥCΤΑΥ ΗΝ
Τ ΩCΑ ΑCΗΠΛΗΡCΥΝΤΑCΤΗΚΤΡΑΤΙΑΙΝΜΙΤ C ΤΑΤ ΑΚΟΡΙΙ ΕCΟΑΙ
CΠ ΗΡΕCΥ ΙΤΕΕΗΜΑΤΡΙΑCΟΤΡΑΤΙΩΤΙ CΩΑ ΩCΤCΕΙΝΑ ΤΟΥC
ΔΟΥΚΙΚCΥ ΕΙΤΕCC ΑΚΟΝΤΑΜΟΩΥCΚ Α ΑCΙΑCΤΕCCCΙΑΩΝΤΑΑΝ ΙΝΑC
ΚΑΙΤΑΤΕCΙ ΕΡΑΚΟΝΤΑΚΑΤΠ ΤΑ ΜΕΝΔΑΥΟΙCΠΑΡΑΤΩΝΕΝΔΟΥCΤΑΤΩ Υ
CΤΑΡΧΩΙ ΕΝΙΑCΚΑCΕΤΟCΑΠΑ ΑΤΟ Ν ΩΖΕ ΕΑΙΚΑ ΙΕΤΑΖΥΕΑΥ ΤΩΝΩCΑΝ
ΡΟΥΛΟΙΤΟΔΙΑΝΙΜ ΙCΦΙΛΟΝΤΑCΠ ΝΤΑCΚΑΙ CΚΑΡΤΕCΕΙΝΤ ΙCΔΙΚΑCΤ ΚΑΙCΚΑΙΔΙ
ΜΟCΙΑΙCΥΠΗΡΕCΑΙCΚΑ ΤΡΕΦΕCΟΑΙΕΚ ΙΝΟΙΚΙΩΝΟΙΤ ΕCΙΩΙ ΔΕΙ ΡΩ ΟΥΗCΟ
ΠΛΙΟΝΕΝΔΕΚΘΑΙΤΟΠΑΕΜΑΤΟΥΤΩ ΤΑΡΑΜΕΝΦΙΙΤ ΥΙΤΗ ΑCΤΡΑ
ΕΚΡΑΤΕΙΝΤΑCΜΑΤΡΙ ΤΑCΓΑΡΑΔΑΝΙΗΑ ΥΤ CΙΟΑC ΟΥΚΟ ΟC
ΥΚΟCΩ ΤΑ CΑC ΩCΥΑΙΜΗΕΖCΙ ΚΑΤ ΑΙ ΤΙ ΙΩ
ΚΙΝΟΜΚΕCΘΑΙΤΙΠΑΡΑ ΡΑ ΟΤ ΝΥ ΕΥ ΜΕΝΗΓΝΕΝC ΠΕ
ΝΙΑCΟΥCΗCΔΕΕΖΕΘΟΥCCΥΙΑΓΑΘΟΥΚΑΚΗCCΙ ΝΗ ΩCΑ ΜΗΕ ΕΑΙΑΙΥΟΙC
ΝΥΝΗΚΑΤΑΚΑΙΡΟΝΗΧΙΙCΑΡΙΟC ΤΡΗΝCΙ ΙΝΙΟΙCΝΟΜ COΙΤ ΑΡΑΤΙ ΝCΤΡΑΤΙΩ
ΙΩΗΤΩΝΠΕΝΤCΑΡΙΟΜΩΝΔ ΑΡΙΑ Ν ΩCΤΟ Ω ΔΕΚΑΤΕΝ ΟΙΡΑ ΗΕΚ
ΤΩΝΠΡΟΤCΕΩΝΔΙΔΟΜΕΙ ΜΟCΙΟΥ CΑΙΠΑΡΑΕΑΤΕ ΕΙΕΕΑΙΑ Μ ΙΩΓ
ΤΩΝΚΑΤΑΗΕΡΟCΔΙΔ ΕΝΩΝ ΜΕΝ Ο CΚΑ ΙΝΚΑ ΑΝ ΟΓΙΑΝΕ ΕΙΝΕΚΑCΤ
ΤΩΝΠΡΟCΩΤΕΩΝΟΙ ΟΙΑΥ ΑΦΩ ΑΙΠΑΡΑΝΥΘΙΑΤ ΔΕΛΟΙΠΑΤΙΕΡΙ
ΤΟΥCΓΕΝΙΩΙΟΤΑΤΟΥCΚΟ ΙCΕCΘΑΙCΤΡΑΙΙΩΙΑCΟΜ ΟΝ CΕΚΑCΤΟΥ
ΤΟΥΤΩΝΚΑΤΑΑΝΑΛΟΓΙΑΝΤΩΝΕΚΤΟΥ ΩCΙΟΥΔΘΘΕ ΕΝΤΩΝΚ
ΤΟΥΤΩΝΚΑΤΑΑΝΑΛΟΓΙΑΝΤΩΝΕΚΤΟΥ ΘΗΝΑΥΤΩΝΠΑ ΜΥΘΙΑΝΤΟΥCΔΕΛ
ΚΟΜΡΟΜΕΙ ΟΥΟΚΜΗΤΟΥCΗCΝΑΠΟΠΛΗΡΟΥCΘΤ ΤΗΝΑΥΤΩΝΠΑ ΤΙCΘΑΙΩΩΕΝΕΙC
ΤCΧΡΕΩCΙ CΕΔΙΙΩCΤΟΝCΠΕCΚCΟΥΓΤΝΟΤ ΥΜΗΚΑΤΑ ΤΙCΘΑΙΩΩΕΝΕΙC
ΙΜ ΡCΙΟΥCΤΟΥCΤΡΩΙΟ ΥCΕΚΑCΤΟΥΑΡΙ ΥΚΑ Α ΤΙ ΤΟΥΤΕCΤΙΝΕΙΗΕΝ
ΚΑΤΟΙ ΕΝΑΝΔΡΕCΤΟΥ CΤΡ ΩΤΟΥCΙ Α ΑΕΔΙΑΚΟC

ΙΔΡΙΜΑΚΟCΙ ΥΤ ΔΙΚΑΤΗΝΔCΑΥΤΗΝΑΙΔΑ CΕΙΑΦΚΑΙ
ΠΛΙΟC ΥΚΑΙΕΤΙΙ ΙC ΛΑΤ ΩCΙΝΝΑCΔΡΑCΗΚ ΑΤΙΤΕ ΟΙCΙΕ Α
ΤΩΝΤ ΙΝΑΡΙΟΜΩΝΚΑ ΦΕΑCΤ ΤΟΥΤΩΝΑΠΟΚΕΛΕΥ
ΔΟΥΚΙΗΡΟΙΤΟΙCΠΕΡΠΩΝΤΟΙC ΤΩΗΑΠΟCΤΕΥΝΝΜΙΟΥCΟCΟΥC CΙΟ ΥΗΝΟ ΚΟΙΗ
ΔΗΜΚΑΙΑΛΛΑCΑΠΟΙΡΙ ΕΙCC Ι ΙΑΤΙΩΤΑΚΔΕΚΑCΠΕΙΤ ΟCΝΑΡ ΥCΙ ΕΝΙΕΚ ΕΠΙΑ
ΟΥΛΛΚΗΝΤΟΥΔΗ CΙΟΥΑΕCΗΩΤΗΡΙΟΥCΤ ΩΤΑΠΑ ΘΑ ΔΟΤΥΤΟΥ
ΛΟΤΩΥΠΗΡΘΕΚ CΕΝΕ CΤ ΑΡΙΘΜΩΕΑΘΙΤ ΝΚΑΙΟΥΚΑ ΙΩΝCΗΚΑΙΡ ΤΕ
Η ΥΥΚΑΘΕCΤΩΤΩΝΕΚΤΗCCΧΟ ΗCΔΗΛΟΝΟΤ ΤΩΝΚΙΡΚΙΤ ΡΩΗΚΑΝΩΝΜΕΤΑΥ ΡΟΥC
CΤΡΑΤΙΩΤ ΩΚΥΟΛ ΥCΔΕΛΟΝΥΟ CΠΑΝΤΑ ΡΟCΚ ΡΤΑΚΙΗΤΟΙ ΦΟCΕΑΤΟΙC
ΩCΤΕΤΟΝΕΙΗΚΕ ΙΜΕΝΘΤΙCΑΙΤΙΑΘΕΙΗΠΑ ΑΥΤΩΜΕΧΕ ΙΝΟΜΙCΜΑΤΙΟΝΕΚΑΤΟΝ
ΛΑΗΒ ΑΡΙΝΗΡ ΝΥΚCΙCΝΑΤΟ ΑΙΑΥΤ ΖΕΤΑΖ ΝΤΟΝΥΠΑ ΕCΙΝΕΙΔΕΝ ΗΠΑ
ΡΑΥΟΕΙΗ Ο CΙCΑ Η ΤΟΙΑ Α ΕΝ ΦΥΛΑΤΟΤΕCΘΑ
ΩCΤΕΤ ΟΠΡΟ ΙΑ CΔΥΔΟΙΝΑΙΤ ΕΙ ΚCΤΑΜΙΙ ΤΑ
ΔΙ ΔΙΜ CΤ ΤΙ ΝΤΩΝΟΙ ΗΜΑΤΩΝΩΝΚΕ ΤΗΤ
ΔΩ ΝΕΙΔΕ ΤC ΚΙΝΗΚΝΟΙΚΗΙΙΛΤΑΚΑ ΑΥΤΟΥC Τ ΥCC ΚΡΑ
ΙΙΩ ΦΥC ΥΑ ΚΟΝΤ Φ CΤΡΑ ΩCΠΑΡΕΧΕΗΝΜΗ
Ρ Α Α ΟΥC CΙΩΤΑΕΠΡΟΦΑCΕ ΝΗ
Α ΝΟC ΩΗΑ ΤΩΔΙΑΦ ΕΡΟΝΤΩΝ
CΤΡ ΑΝΟΥΠΜ ΡCΑΠΑΟΗCΕΠΙΝΕΛΙΑ
ΛΑΤ Τ Ν ΙΗC ΦΙΝΤΙΝΑΠΑΥΕΙΕΝΑΙΕΠΙΤΥC

ΚΑΥCΑΡ ΥCΝΗΤΕ ΑΛΛΓΜΑΤ ΙΡΟΟ Υ ΤΙ ΩΑΙΑ ΛΑΦ ΑΤ ΤΙΗΑΥΤΟΥC
ΚΑΙΚΑCΟCΟΥCΕΠΙΤΩ ΩΝΑΙΟ ΥCΗΙΠ ΝΑ ΜΗΤΕCΙ ΡΟΝΤΩΛΛ ΠΡΟCΥΑ
ΜΑΤΟCΤΗΝΙΝΑΡΟΔΟΝCΜΙΤΟΥCΓΑΡ ΡΟ ΤΟΥCΔΕΕΚΤ ΤΕΑΝ ΟΥCΤΩΝ
ΜΑΚΩΚ Α ΑΤΡΑΝΜΑΤΙ ΤΟΥ ΠΡΟ ΦΕΚ ΧΩΡΙCΟΑΙΕΠΙΤΑ ΜΥΕΝΥΑ
ΟΤΟ ΩCΠ ΕΕΟΧ Ω ΕΠ ΑΤΟΙCΤ ΥΟΦΑ CΙΕ ΑΙC
ΑΠΙΝΟC ΑΡΑΥΟΔΙΚΑΙΟΝΕΠΙCΑΙ ΜΕΝΗ ΕΠΗΡΙΑCΠΑΙ ΑΙ ΩCΤΕΤΟΝ
ΡΗΟΝΟΝΤΑΤ ΚΗ ΠΩΟΕΝΦΩΙΑΠ ΙΤΗ ΚΟΙ ΑΧ ΟΥΑΙΤΡΑCΛΟΙΩΠΡΟ
ΠΜΟΥΜΕΟ ΕCΘΑΙΚΑΠ ΑΥΡΑCΓΩ ΩΚ ΙΩΝΕΠΙΗCΛΙΑΝΔ
ΝCΑΕΘΑΙ CΤΩΝΝΕΤΑΤΑΕΓC ΝΙΩ ΩΙΚΟΝΗΘΙΩΝ
ΠΦ ΝΤΩΝΚ ΘΕΚΑΓΥΟΝΕΤΟ ΙΩΤΑΤΩΝCΤΙ ΩΝ
ΕΚ CΙΤΩΙΤΩΤΑΝΟΝΩΝΚΑ ΚΛC ΤΟΥ ΤΩΝΔΙΑΦΟΡ

Ν
ΑΤΑΤΗΚ ΩΠ ΙCΩ
ΟΥCΕΝΙΙΑC ΑΥΤΟΥΟCΤΙΝ ΙΕΙC
ΛΙΧ ΥΟΥΤΩCΦ ΚΑΘΕΔΡΩ ΤΕ
ΑΕΥΤΟΥΧΟΥΚΟCΥ ΝΔ ΔΑ ΟΕ
CΤΙΡΩΤΟΥΑΥΤΟΥ ΡΥCΚΑ ΙΚC
Λ Υ ΙΩΤΟΥΑΥΡ C ΚΑ Ω
ΔΕΚΑΚΟΥΑΙCΟ ΙΕΝ ΡΙ
ΚΑΤΕΠΑΟC Α ΚΙΝΑΤΟΡΙΚΑΥ
ΠΟΙΦΟΙΔΟΥΚΟCΤΟΙCΠΑCΙΝ Υ
ΟC ΝΡΤΙ
ΤΕΤΑ ΓΩΚΑΛΑΝΔΑΡΙΚΩ
CΟ ΕΑ
ΚΡΙΗΙCΚΡΙΚ C
ΝΑCΠ ΟΦΙΕΕΜΕΝΗCΚ ΠΕ
ΠΗCΡ ΝΑΤΚΑΙ
ΤCΚΙΤΕΡΚΑΠΙΤΟΥ ΙΟΙΩCΠΡ ΤΝ
ΗΕΝΗΟΥ ΑΤΟΙ
ΚΟΙCΥCΕΙΠΡΟΚΟΠΕCΡΑΕΗΟΥΙΔΙΤΟΙΩ
ΡΤΟΙCΥΠCΙCΤΡΕ CΙΜΟΥΚΑΙΤΗCΚΑΛ
ΟΥ ΙΗCΠΡΟ ΑΡΩΡΙΑC ΝΑΤΟ Υ
ΤΡ ΑΟΤΩΧΑΡΤΑΤΙΚΩΝ ΑΠΟCΕ
CΤΟΥΚΑCΙΡΟΥΤΩΝΕ ΑCΤΡΗ
ΥΑΝΩΝ Ν
ΤΟΙCΑΥΤΟΙCΥ Γ ΕΤΡΑΜΗΝΙΑΙ
ΩΝΟΜΟΙΩC ΝΔ

نقوش محفورة في معسكر عتيق في بطليموسة

Α ΙΛΕΑΙ ΙΟΛΕΙΥΑΙΟΝΙΟΙ ΒΑ ΙΛ
ΠΤΟΛΕΜΑΙΟΥΚΑ ΙΣΙΛΣΣ ΣΚΛΕ
ΑΤΡΑΣΑΔΕΛΙΟΝΘΕ ΟΝ ΙΛΟΜΗΤΟΡΑ
Η Π ΛΙ Σ

ΒΑΣΙΛΙΣΣΑΝΑΡΣΙΝΟΗΝΘΕΑ
ΤΗΝΠΤΟΛΕΜΑΙΟΥΚΑΙΒΕΡΕΝΙΚΗΣ
Η Π Ο Λ Ι Σ

ΕΒΑΣΙΟΣ ΑΝΤΩΝΙΑ ΚΑΛΥ
ΚΑΙΣΑΡΟ ΟΜ

ΗΜΝΑΣΙ
ΙΙΟΜΑΡΚΟΣΜ
ΙΙΚΣΩΣΟΣ

ΣΗΡΑΦΛΙΤΑ
ΙΙΒΜΑΚΟΣΜ
ΙΙΒΙΤ

ΙΙΒΣΕΡΑ ΦΙΟ
ΙΑ ΛΡΙΓΑ ΧΟΙΣ
ΙΛΟΙΝΙ
ΙΑ ΑΙ ΛΔ Ν ΜΩΝ
ΙΑΝΙΚΙΑΣ

ΑΡΝΙΟΣ
ΙΙΒΣ ΑΒΕΙΝΟΣ
φ ΑΛ

ΙΓΠΦΠΑΙΟΣ

ΙΑΑΜΦΙΚΛΗΣ
ΙΑΔΥΓ ΑΝΤΟΣ
ΦΙΛΟΣ ΒΛΑΚΔΟΥ

ΙΙΒΚΟΜΙΙΑΡ

Ν Ο Α Σ

ΚΟΜΑΝΟΣ

ΙΓΡΟΥΦΟΣ
ΑΛ

ΙΙΠΑΜΜ

Ν
ΙΙΒΑΥΑΟΣ

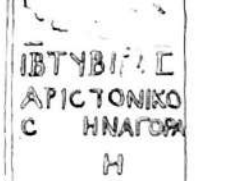
ΤΙΜΑ ΛΦΙΑΩΝ
ΣΙΓΔ
ΦΙ ΙΙΒΑΓΙ
ΧΟΣ
ΙΔΑΥΓΟΡΙ ΝΟΣΓΦ ΟΖΡΑ

ΠΟΟΙΟΥΦΟ
ΥΕΙΣΡ
ΙΖΘΕΟΩ
ΡΟΣ
ΓΑΜΗΟΩΙΟΣ
ΟΛΝΝΥΡΑ

رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة






رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة

ΣΙΠΑΙΛΙΓΛΙΟΣ
ΘΕΤΡΑΝΟΣ
ΕΤΣΛΣΥΤΗ
ΣΕΕΤΩΝ Ν̄

Μ̄ΣΗΣΤΙΑΕΤΕΥ
ΤΗΣΕΝΕΤΩΝ
ΠΕΝΓΗΚΣΝ
ΤΔΚΑΙ ΠΕΝ
ΤΕ

ΓΙΟΥΛΙΟΣΣΤΕΦΑΝΟΣΕΠΟΗΣΕΝ
ΕΞΑΡΧΙΔΙΟΝΤΟΝΣΗΚΟΝΚΑΠΑΝΕΞΕΔΙΑΝ
ΚΑΙΤΟΝΠΕΡΙΒΟΛΟΝΕΞΙΔΙΝΔΑΠΑΝΑΝ
ΕΑΥΤΩΚΑΙΤΟΙΣΤΕΚΝΟΙΣ

رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة



رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة

Adam sc.

ΕΗΥΟΙΑ ΝΕϹΕΥ ΦΡΑ
ΝΟΡΟϹ ΗΛΑΦ ΝLΚ
ΕΓΤΟΥΔΙΟΝΕΥϹ ΡΑΝΟΡΟϹLΙΒ
ΕΒΦΛ ΜΟΥΕΝΚΘΕΟΔΟ
Τ ΟϹϹΥΦ ΡΑ
Ν ΟΡϹϹ LΛΕ

Α ΙΟϹΕΙΟΑΗΑΙΠΤ ΕѠΝϹΕΤѠΝΔΥΟΕΝΘΑΔΕΚΕΙΤΑ
ΤΑΥΤΗϹΟΠΑΤΗΡΠΑΠΑΓΟΡΥϹΑΤΑΥΜΕΓѠΝΟΣΑΝΑΝΥΣ Η
ΟΜΡΝΑΚΙΟΝΤΟΥΤΟΠΟΙ ΚΑΙΘΑΥΘΤΙΝΑΕΙϹΟΚΕΙΤѠ
ΡѠΙΑΤѠΤΑΜΕΙѠΔΗΝΑΡΙΑΠΕѠΤΑ ϹΙΑѠΒΑΡϹΕΙ
ΗΡѠΙϹΟΥΔΕΙϹΑΘΑ ΤΟϹ

ΜΟΥΛΠΙΟϹΕΠΙΝΙΚΟϹΕΑΥΤѠ
ΚΑΙΤΟΙϹΙΔΙΟΙϹΚΑΙΟΛΠΙΑ
ΑΘΗΝΑΙϹΕΑΥΤΗΚΑΙΤΟΙϹ
ΙΔΙΟΙϹ

ΛΠΕΤΡѠΝΙΟΣ
ΕΠΑΦΡΟΔΙΤΟΣ
ΕΑΥΤѠΚΑΙΤΟΙΣΙΔΙΟΙΣ

VRBASIA·TL·DIOI
SIBI ET SVIS

LΒΠΑΟΙΝΙΚΒΕΤΕΑΕΥΤΗΣΕ
ΚΛΑΥΔΙΣΔΡΑΚΩΝ ΚΔΜΗ
ΝΩΝΓΑΜΕΡΑΝΙΕ
LΕΑΟΥΡΚΕΕΤΕΑΕΥΤ Ε
ΚΛΑΥΔΙΣΑΧΙΛΛΑΣLΥΔ
ΜΗΝΩΝΡΑΜΕΡΑΝΕ

ΣΗΣ ΤΙΟΣΚΑ ΡΠΟΣΚΑΙΣΤΙΑΛΥΥΝΙΣΕΠΟΙΗΣΑΝ
ΕΑΥΤΟΚΙΣΚΑΙΤΟΙΣΙΔΚΟΙΣΤΞΚΝΟΙϹ

ΑΥΛΟΥΚΑΡΤΙΛΙΟΥ
ΚΑΠΙΤѠΝΟϹ

LΕΠΑ ΛΥΣΕΑΡ
ΤΙΛΙΑΜΥ
ѠLΙΔ

LΙΒΑΥΚΕϹΤΜΑΚ
ΚΙΟΥLΜΕ

LΓΒΟΛΧΑϹ
ΕΑΥΤѠ
ΚΑΙΤΟΙϹ
ΙΔΙΟΙϹ

ΙΒΧΟΙ ΑΚΣ
ΚΑΡΤΙΛ ΑΤϹ
ΤΡѠΝΙΑ

ΒΑϹϹΑΡΑϹΚΑΙϹΑΡΟ
ΔΟΥΛΗϹ

ΚΑΛΛΙ ΙΑ
ΕΤѠΝLΡ
ΑΜΑΡΑΝΥΘΕΤѠΝΖ

LΙΞΧΟΙΑΥΚ ΠΑΙΟϹϹΑΒΕ
ΝѠ
ΤѠΝ
ΚΒ

ΤΙ·ΚΛ·ΑΠΟΛΛѠ

ΤΙΚΛΑΥΔΙΟΥ

ΝΕϹϹΗΝΙΟϹ
ΦΙΛΟΙϹΝΕΥ

LΙΒ·ΦΛΑΒΙΟΣ
ΣΤΑΛΑΚΚΙΟΥ
ΕΤΩΝ·Μ

ΜΥΡΚΟϹϹΘΕΑΛΙΟϹΕΠ
ΣΥΝϹΕΝΗΑΤѠΚΕΤ
ΥΕΓΙΟΝΥϹΔΥΤ

ΤΕΛΕΣ, ΟΤΟΣΦ
ΦΛΑΝΤΟΝΙ
ϹΥΑΛΑΣ

رسومات ونقوش عثر عليها في مدينة بطليموسة







نقوش حُفرت على أضرحة بطليموسة

نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة "توكرة"

Ν Α ΑΡΚΟ
ΝΙΚΑΙΟΙ

ΛΥ
ΔΗΜ
ΤΡΙΟΣΓΙΔΔΑΛΜ
ΘΕΟΔ ΠΟΣ
ΔΟΣΙΘΕΟΣ

ΙΟΚΓΑΝ LK
ΑΡΙΣΤΟΦΟΣ
ΑΝΥΣΣΑΝΤΓ
ΠΕΡΙ

LAB
ΛΟΝΑΒΙΟΣ
CPANANOC

Ε ΥΚΛ ΕΙ ΔΓΑΣ

ΔΑΙΝΕ
ΠΟΛΥΡΟ
ΠΡΑΤΟΙΑ

ΕΡΜΟΓΕ
ΗΗΣΤΡΘ
ΠΟΣΣΤΡ
ΑΤΙ

ΣΙΗΛΟΥ
ΚΙΟΣΚΑ
ΡΝΕΔΔΟ

ΖΔΤΦΩΕ
ΡΙΟC

LΙΟΕΥΒ
ΟΥΛΙΔΘΑ
Κ Σ
ΟΝΩΙΔ
ΩCON
PAP

ΜΕΛΑΝΙΠ
ΤΓ ΠΕΣ

ΚΛΕΣΙΑΝ
ΡΣΕΙΟΣ
ΑΠΟΛΛΟ

ΠΑΣΙΚΑΙΣ
ΣΟΟΞΛΙ
ΑΧΟΙ

ΜΙΙ.ΑΠ ΜΙΝΥ SΙΙ

L
ΓΑΗ
ΘΗΠ
Δ Ε

LΦ
ΙΛΙ
ΔΙΦΥΩ
ΔC

LΙΕ
ΤΣΗΣΤΙΟΣ
ΔΟΜΙΤΙ
ΟΣΓΡΑΜ

ΓΙΟΥΛΙ
ΟCΦΟC
ΧΦC

LEX
ΤΡΩΜΑ
ΝΙΟCΑ
Ο ΥΚΙΑΝΟ

LKB
ΑΡΙCΤΙ
ΠΠΟCΑ
ΑΧΙΕ

LIZ
Λ ΒΙΒΙΑ
ΙΙΟ Ο

ΛΛΟΙ
ΙΛCΩ
Ζ

LIC ΑΒΕ ΙΒΙΑΡΙΟΣ
ΡΟΥ ΣΤΙΚΟΣ

ΓΙΖΑΔΔΥC
ΠΛCΙΩΝΟC

ΛΦΜΒ
ΟCΥΥΟΛΥ
ΒΙΟC

LΙΕ ΙΕΗCΙΙ
ΟCΕΠΑΚΚΙ ΑΠΟΜ
ΩΝΙΟC
ΟC
ΑΝΟΜ
ΩΝΙΟC

Ε Ε
ΧΦΡΕΟΙ
ΛΑCΛΛΩ
Ω

LΙΖΓ ΟΦΙΛΑΙΟCΛΟΓΙΟC

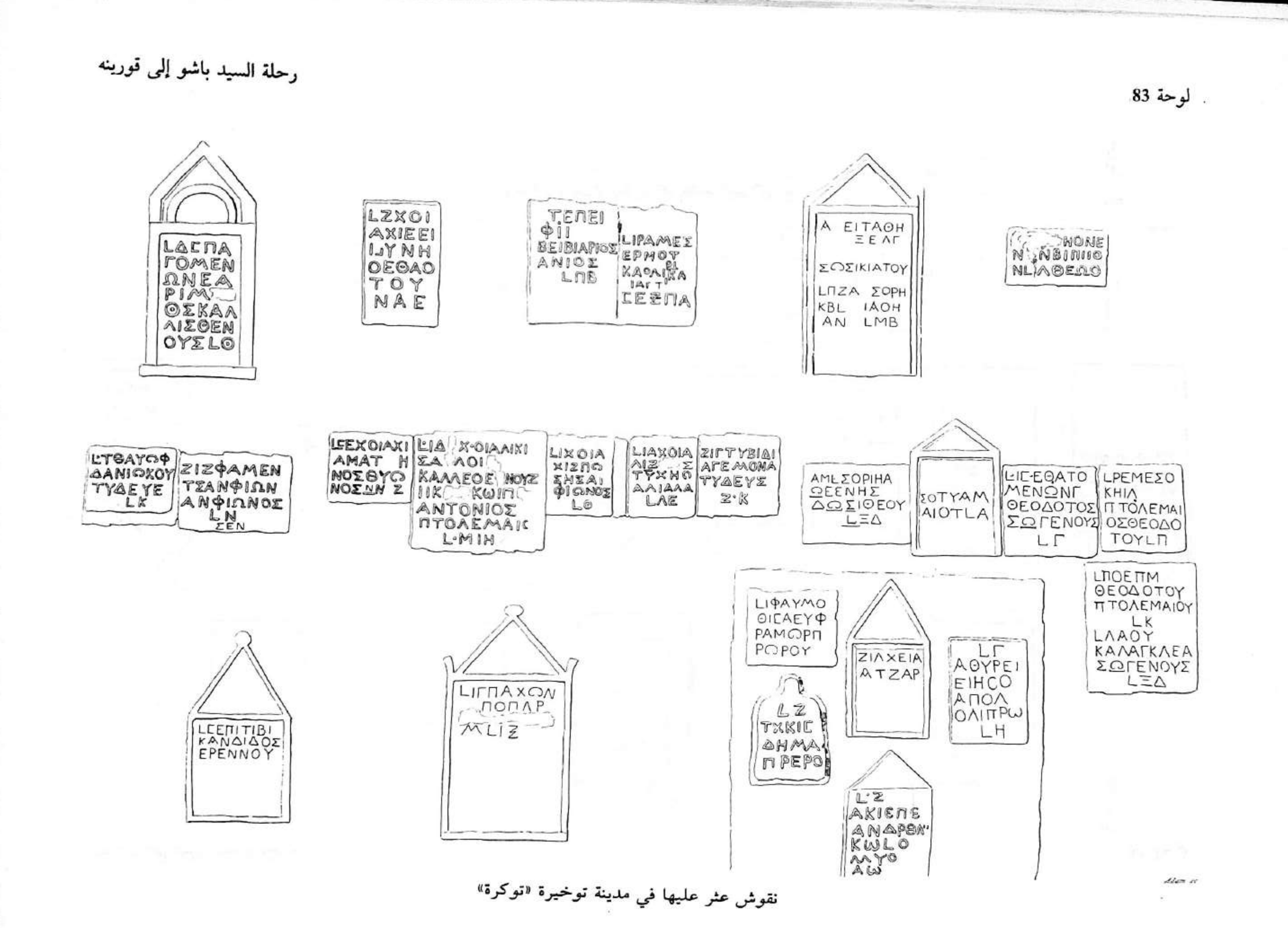
LIZΓCΗCΤΟC
ΘΕΟΔΩΡΟΟ
LIZΑ ΓΑΛΩ
Ν ΟCΚΑΠΙΤΩ

نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»

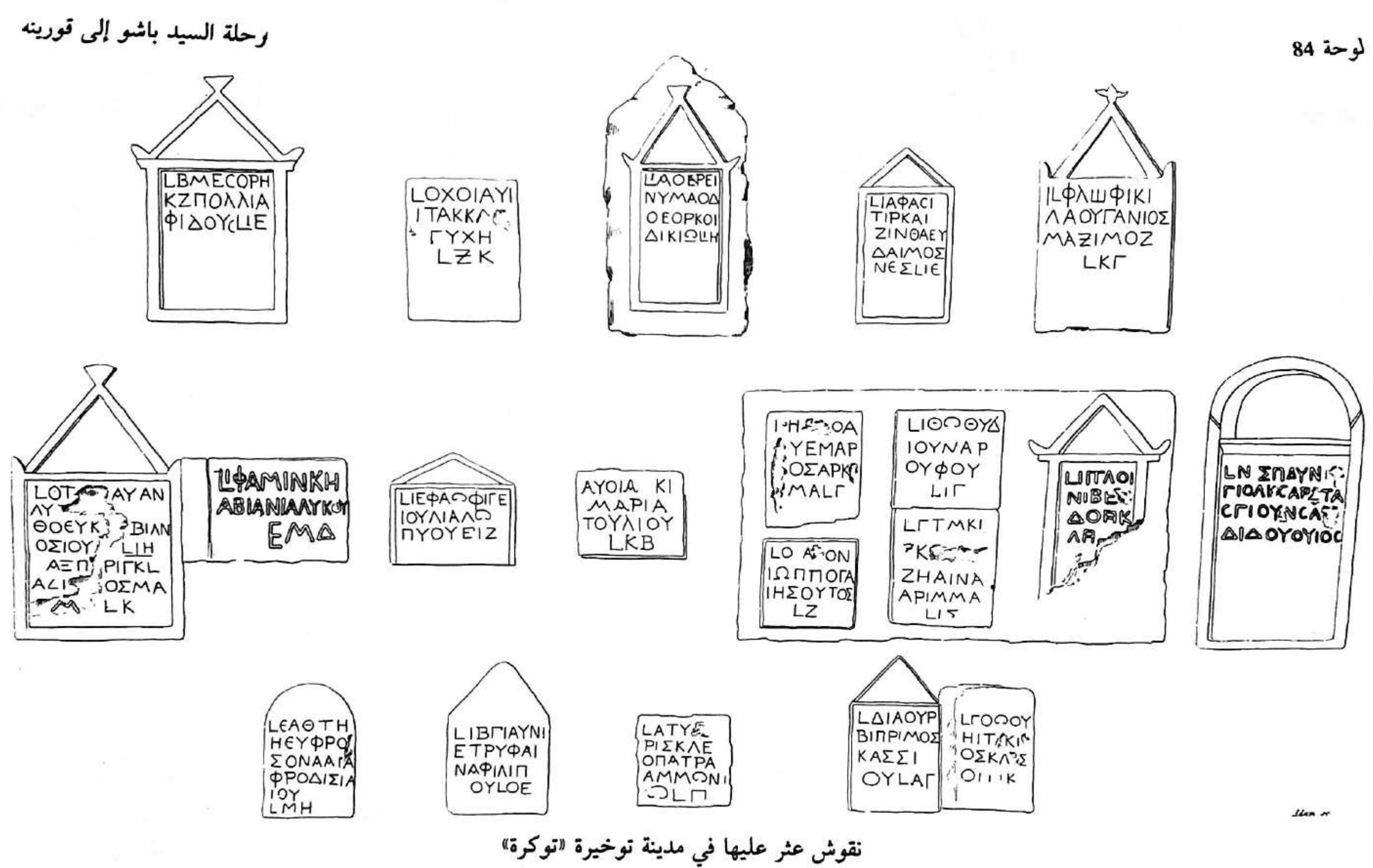
Adam sc.



نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»



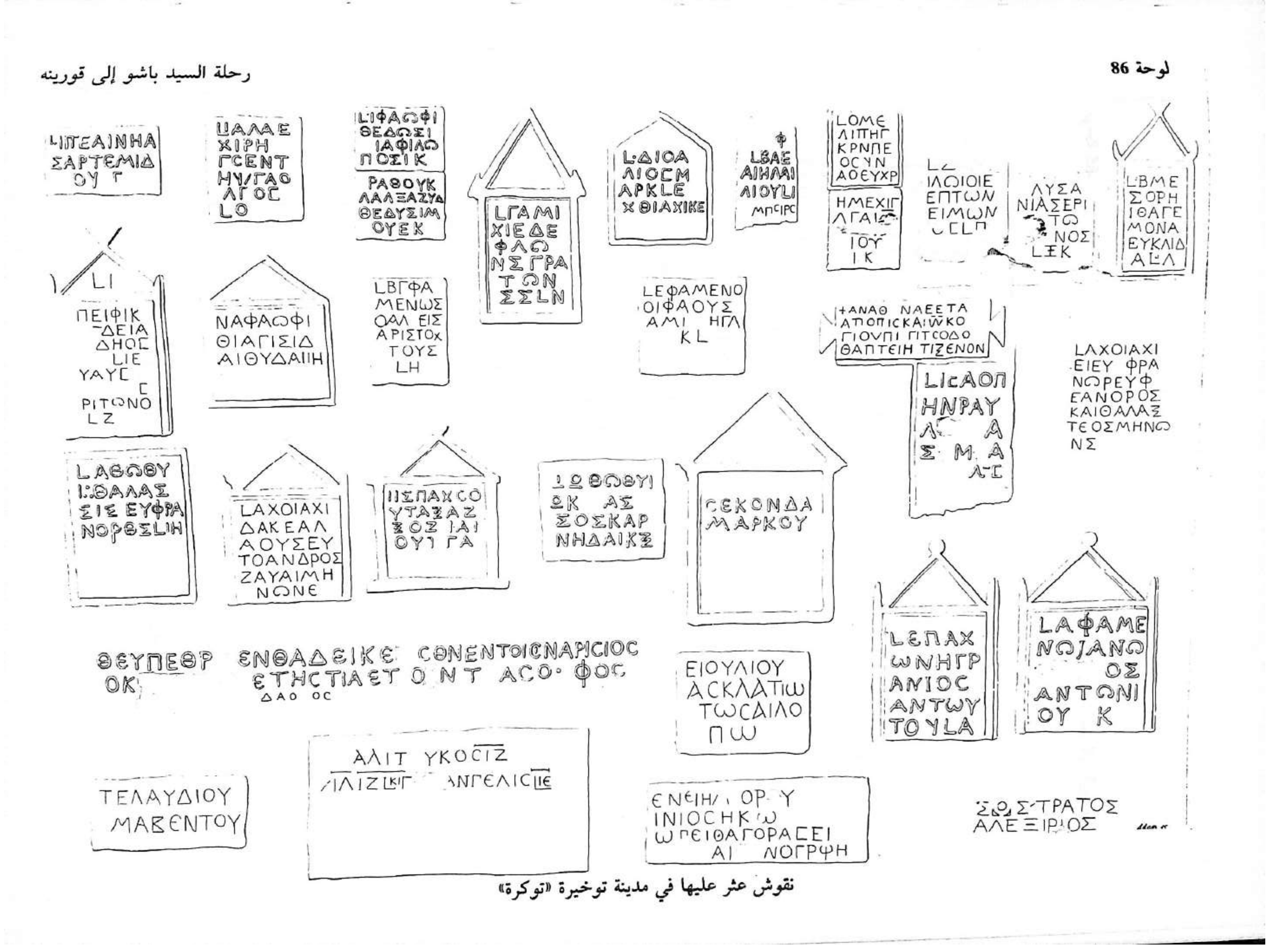
نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»



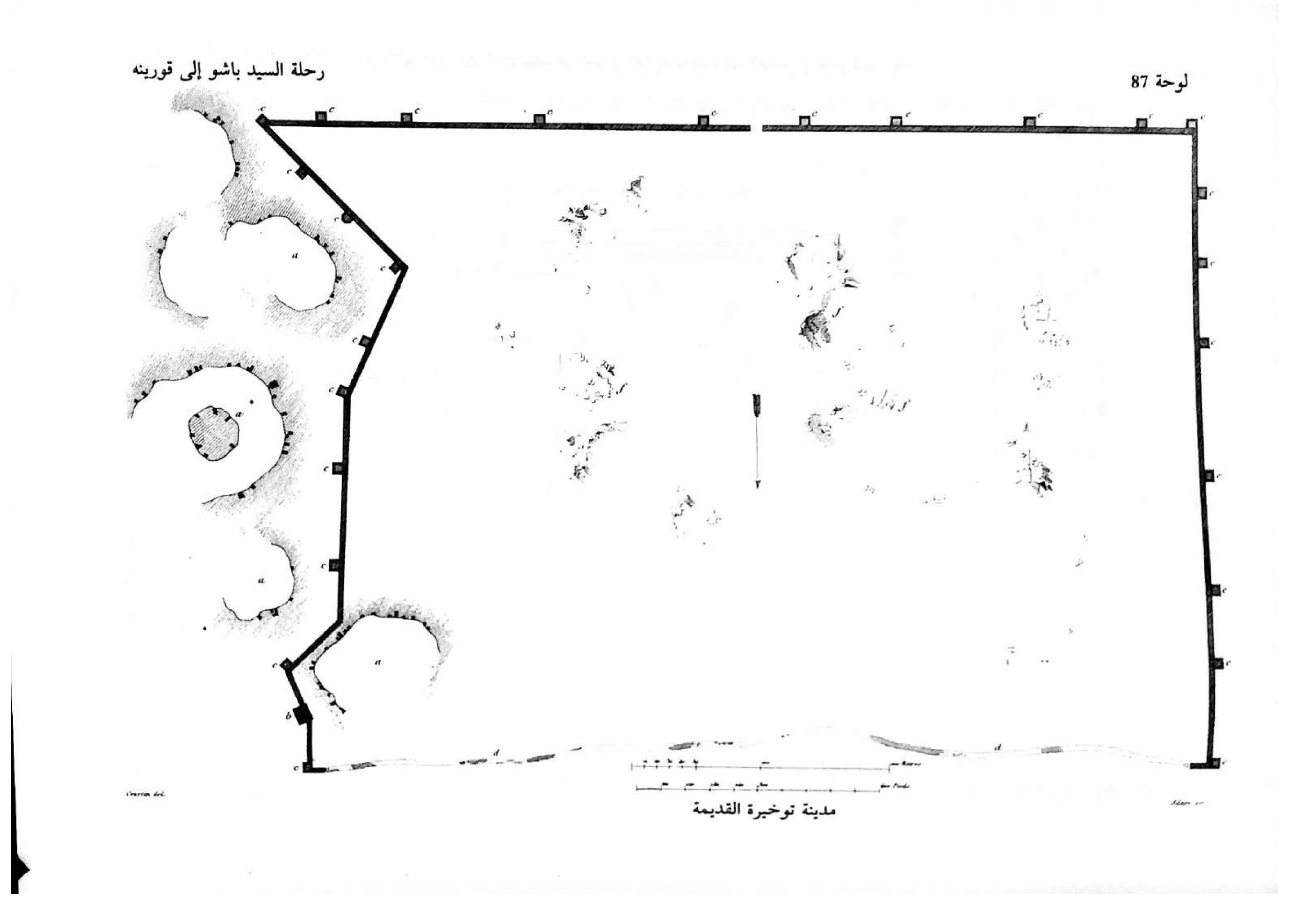
نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»



نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»

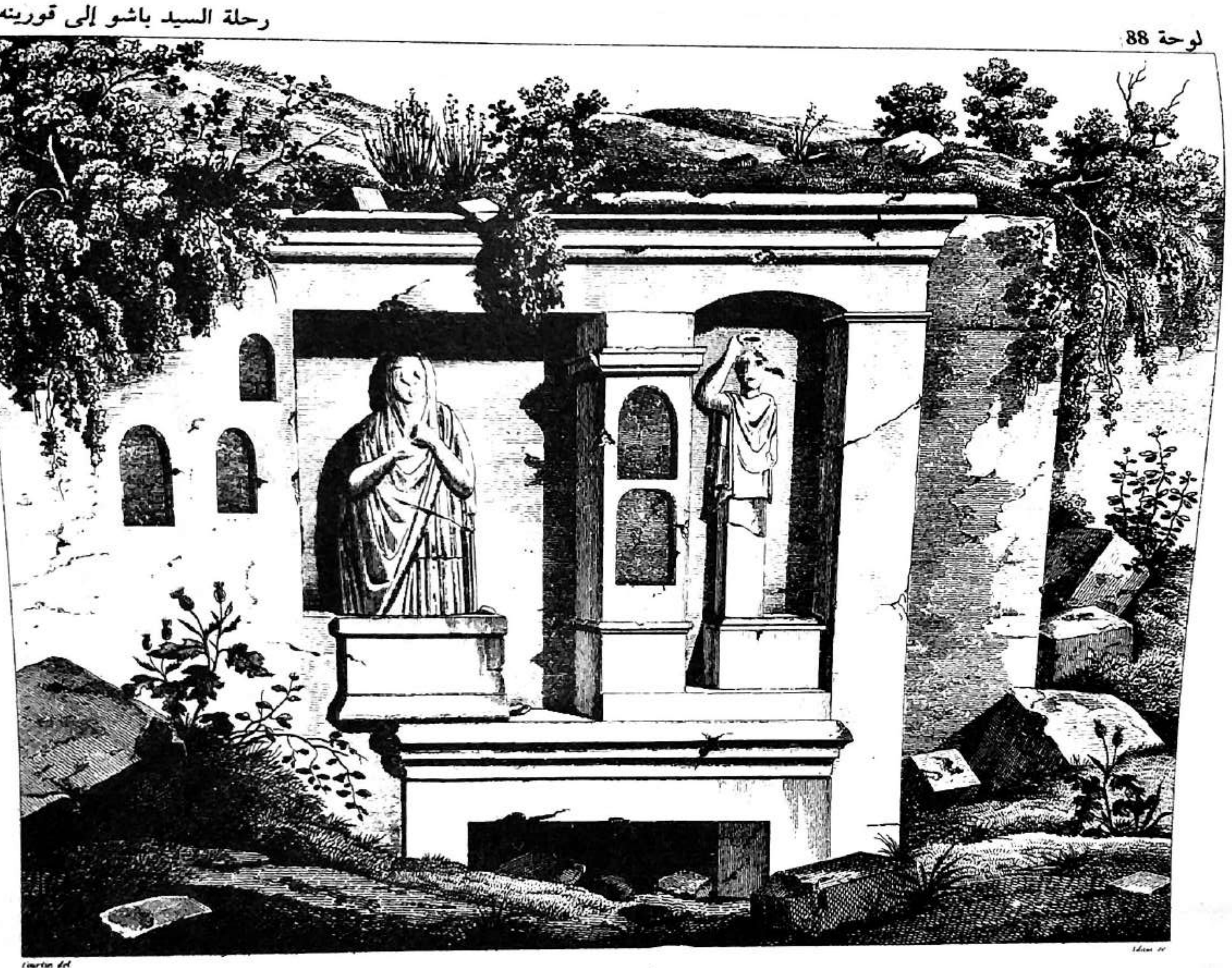


نقوش عثر عليها في مدينة توخيرة «توكرة»



مدينة توخيرة القديمة

لوحة 88



منظر عام لمغارة المدفن يعود تأريخها إلى العصر الوسيط وهي جزء من مقبرة قّرنة

أطلال لمعلم أثري عربي كبير في مدينة أجدابيا

منظر عام لقرية مصنوعة من جريدة النخيل في واحة مراده

Pacho del. Courtin min. Adam sculp.

منظر عام لقصر عربي في أجدابيا

Courtin del

Adam sc

منظر عام لقرية مصنوعة من جريدة النخيل في واحة مراده



Courtin del. — Adam sc.

منظر عام لواحة أجخرة قرب واحة أوجلة

زنجية من السودان

Adam fils del.

Adam sc.

جَمَل مع حوسية نوبيه

لوحة 95

حية

Adam sc.

لوحة 96



نبات GERANIUM UNIFLORUM



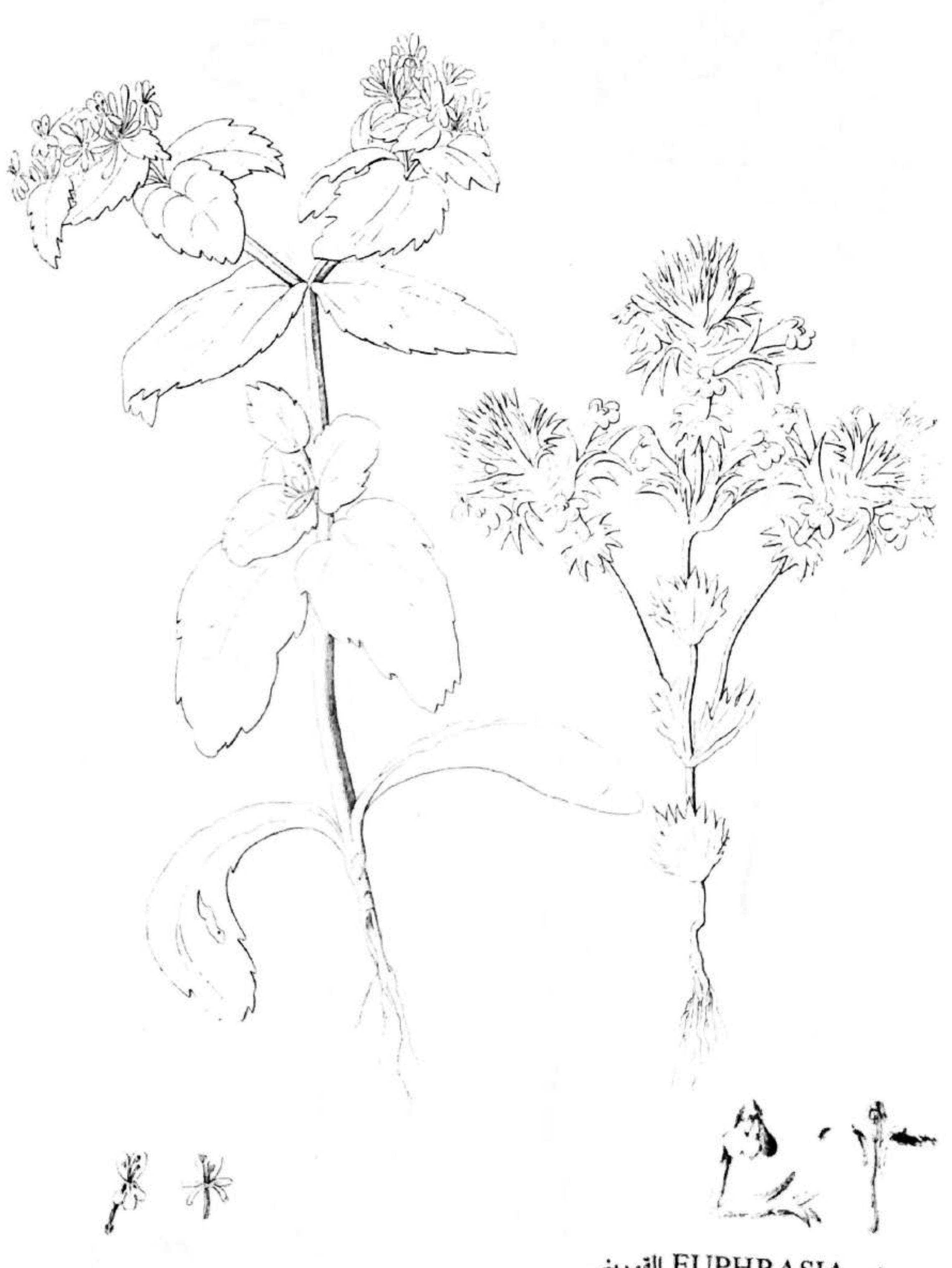
نبات ORNITHOGALUM SESSILE



نبات الأيشيوم القوريني

نبات السنا الشرقي

لوحة 98



STACHYS LATIFOLIA نبات

نبات EUPHRASIA القوريني



نبات الأقحوان الأسيوي



فصيلة جديدة من أسرة الصنوبريات تنمو قرب نبع أبولو

الفهرس